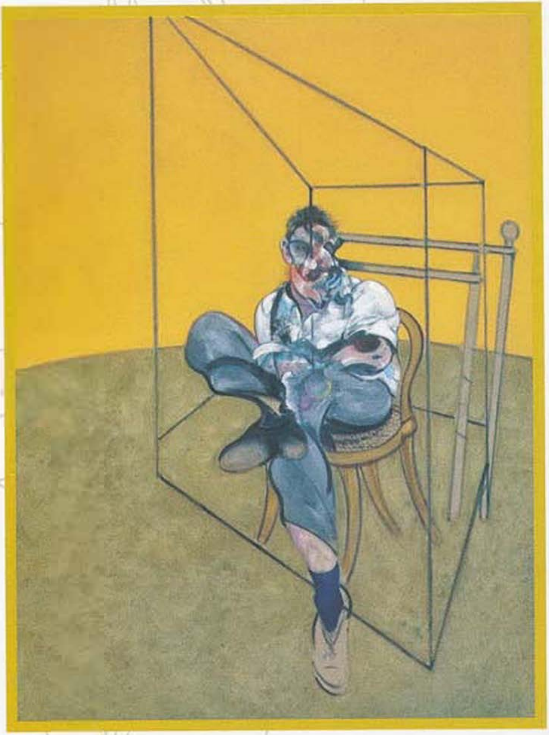
سلسلة آفاق عالمية

المائة كتاب
100/14

رواية

حياة ألكسيس زوربا ومغامراته

نيقوس كزانتزاكيس



ترجمة (عن اليونانية) وتقديم:

د. محمد حمدي إبراهيم

نيقوس كزانتزاكيس

حياة الكسيس زوربـــا

ترجمة وتقديم:
د. محمد حمدى إبراهيم

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

حياة الكسيس زوربا

سلسلة
آفاق عالمية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• حياة الكسيس زوربا
• ترجمة وتقديم:
د. محمد حمدى إبراهيم
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2014 م
• تصميم الغلاف:
أحمد اللباد
• رقم الإيداع: ١٦٩٧٩/ ٢٠١٤
• الترقيم الدولى: 978-977-718-816-6
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 شارع أمين سامي - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

130

سلسلة شهرية تعنى بنشر الأعمال المترجمة إلى اللغة العربية فى الأدب والنقد والفكر من مختلف اللغات

الأراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف في المقام الأول.

مقدمة المترجم:

كزَنتزَاكِيس : الرجل والإنجاز
(1883- 1957)

فارس مغوار، وقامةٌ فارعة بين الأدباء الإغريق خلال العصر الحديث، وأكثر أدباء اليونان شهرةً حتى العصر الحاضر، بل إن شهرته تفوق ذيوع صيت اثنين ممن فازوا بجائزة نوبل للآداب : إليتِيس وسيفيرَيِّس.

وُلد كزَنتزَاكِيس في مدينة هيراكليون، بجزيرة كريت، عام 1883، وتفجرت موهبته الأدبية في سن مبكرة، ولم يكن أحدٌ يدري آنذاك أن هذا الشاب اليافع الصغير سيصبح يومًا ما ذلك الأديب العالمي الكبير، أو أن أعماله سوف تُترجم إلى معظم لغات العالم، وتتخاطفها أيدي القراء في كل مكان.

ولقد تميز كزَنتزَاكِيس– فضلاً عن شهرته التي طبقت الآفاق– بأنه أبدع تقريبًا في معظم ألوان الأدب المعروفة، وحالفه التوفيق فيها جميعًا:

فلقد أبدع في تدبيج أدب الرحلات، وفي قرض الشعر الرائع، وفي الكتابة للمسرح، وفي الرواية، وفي المقالات الفلسفية، وفي الدراسات الأدبية... وغير ذلك.

وبالمثل، تميز كزنتزَاكِيس بإتقانه اللافت للنظر لكثير من اللغات الأوروبية والأجنبية، وهو إتقان مكّنه من ترجمة أعمال أدبية عالمية بمهارة واقتدار، فضلاً عن صياغته الممتازة لعدد من روائع الأدب اليوناني القديم باللغة اليونانية الحديثة.

ويمثل كـزَنتزَاكِيس ظاهرةً متميزة في تاريخ الأدب اليوناني، قديمه وحديثه، الأمر الذي يفسر لنا سِر ذيوع صيته وانتشار شهرته في أرجاء العالم، وعدم فتور الاهتمام بأعماله حتى اليوم، رغم انقضاء حقبة زمنية تكاد تصل إلى سبعين عامًا على وفاته. فالحق إنه أديب لا يُشق له غبار، قادرٌ على التعبير بيُسر وطلاقة عن المعاني كافة، وفارسٌ مغوار فائق التأثير يتمتع بقوة الجذب. وفضلاً عن ذلك، فهو يُضمن أعماله كافة خبراته الثرية وتجاربه العديدة، جنبًا إلى جنب ما يبثه في ثناياها من حب لوطنه وبني جلدته حبًا لا مزيد عليه، ومن تقديس لمسقط رأسه- كريت- صار مضرب الأمثال.

ولقد ظل كزَنتزَاكِيس- حتى خاتمة حياته- متسقًا مع أفكاره، وفيًا لمبادئه بغير تناقض ولا تصادم، كما كان حريصًا على الاختلاط ببني وطنه من البسطاء، والاندماج بينهم على اختلاف طبقاتهم؛ إذ إن هذا الأديب الأشهر تمكن من التعايش مع صراع بني جلدته وكفاحهم، وعَب حتى الثمالة من شجاعتهم وجسارتهم وإقدامهم، وذرف الدموع الحارة حزنًا

على معاناتهم وكربهم. وكان كزَنتزَاكِيس أحيانًا يندس وسط الحشود والجموع في المدن الصاخبة المزدحمة، ليقف على أحوال الناس عن كثب، وليعرف أفكارهم وما تجيش به صدورهم، وما يخطر على أذهانهم. وفي أحيان أخرى، كان كزَنتزَاكِيس ينزوي منغلقًا على نفسه في أماكن مقفرة من البشر، مثل منطقة الجبل المقدس Agion Oros، حيث لا يوجد سوى النُّسَّاك والرُّهبان الزاهدين الذين يعيشون في أحضان الطبيعة كما خلقها الله، دون أن تمتد إليها يدٌ بالتغيير أو التبديل.

وحيثما كان كزَنتزَاكِيس يستقر في مكان، كان ينغمس لتوه في القراءة أو الاطلاع أو التأليف. وكانت له طريقة متفردة في الحياة، وأسلوب في التفكير هو نسيج له وحده؛ إذ لم يكن يكبل نفسه أبدًا بقيود المذاهب وأغلالها، ولا بالتزمت الأخلاقي المصاحب للتدين، وما يتبعه من تعصب ممقوت، لأنه حُر الإرادة وطليق الفكر، ولأنه مثل الطائر يعشق الحرية حتى النخاع. وكان كزَنتزَاكِيس يروم دومًا سكينة النفس، ويهدف إلى التحرر من كل مظاهر القلق وصنوف الضغوط، وما يصاحبها من أسًى وشجن. ولذا فهو- بالنسبة إلى الكثيرين- يمثل علامة استفهام كبرى، نظرًا لتعدد مواهبه من ناحية، ولتفرد طرائق حياته ومسار فكره من ناحية أخرى.

وقد أمضى كزَنتزَاكِيس السنوات العشر الأخيرة من حياته في مدينة أنتيب بفرنسا، وشغل عام 1945 منصب وزير دولة في حكومة رجل السياسة الشهير سوفوليس، وبعد ذلك بعام واحد عُين رئيسًا للمكتب التنفيذي لمنظمة اليونسكو في باريس. وفي عام 1957، أثناء وجوده في

مدينة فرايبورج بألمانيا، فاضت روحه إلى بارئها، ونُقل جثمانه من ألمانيا إلى مدينة هيراكليون بجزيرة كريت، حيث تم دفنه في إحدى ضواحي المدينة، بعد أن أقيم لهذا الغرض احتفال جنائزي مهيب، زاخر بكل ما يليق بهذا الأديب الكبير من إجلال وتوقير واحترام. ولقد زرت قبر كزَنتزَاكِيس عدة مرات، عندما ذهبتُ إلى جزيرة كريت، وأنا أدرس للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة أثينا، ووجدت لوحةً رخامية تعلو قبره، دُون عليها بتوجيه منه قبل رحيله إلى الرفيق الأعلى العبارة التالية:

«لا آمل في شيء... لا أخشى شيئًا.. ولا أتوقع شيئًا... فأنا حر!».

وهذه العبارة تكاد تلخص فكر كزَنتزَاكِيس وأسلوب حياته الذي اختاره لنفسه، وكذا منهاجه الذي اختطه لنفسه طوال حياته، وظل وفيًّا له طالما كان فيه عرق ينبض وقلب يخفق وفكر يعمل.

وقد ألف كزَنتزَاكِيس أعمالاً كثيرة في مختلف مجالات الإبداع الأدبي، نذكر فيما يلي أكثرها شهرة وتميزًا:

[أ] في مجال الرواية:

- المسيح يُصلب من جديد.
- الإغواء الأخير.
- الفقير إلى الله.
- حياة أليكسيس زورباس (= زوربا) ومغامراته.
- الكابتن مخالي.
- الحديقة الصخرية.
- الأشقاء.

[ب] أدب الرحلات:

- إنجلترا.
- اليابان.
- الصين.
- أسبانيا.
- مشاهدات في روسيا.

[ج] الأعمال المسرحية:

- كابوذيسترباس.
- المسيح.
- بروميثياس.
- ثيسياس.
- سدوم وعمورة.
- النحلة.
- يوليانوس.
- قسطنطين باليولوغوس.

[د] الترجمات:

- الكوميديا الإلهية (دانتي).
- فاوست (جيته).
- أصل الأنواع (دارون).

كما ألف كزنتزاكِيس سيرة حياة ذاتية على شكل رواية بعنوان:

«مظلمة (شكاية) إلى جريكو».

وفي مجال الشعر نظم كزَنتزَاكِيس ملحمة شعرية ضخمة بعنوان **«الأوديسيه»**، تتألف من 33.333 بيتا من الشعر (أي ما يزيد على ضعف ملحمة الإلياذة لهوميروس، وما يزيد على الإلياذة والأوديسية الهوميريتين مجتمعتين).

واعتبر كزَنتزَاكِيس ملحمة «الأوديسيه» أهم أعماله وأروعها على الإطلاق، ولقبه أقرانه بسببها بلقب متميز هو «أوديسيوس الجديد». ولقد استغرقت صياغة هذه الملحمة في صورتها الأولى في شهر سبتمبر عام 1927، حتى صورتها الأخيرة في شهر نوفمبر عام 1938، فترة إحدى عشرة سنة من عمره. وعالج فيها كزَنتزَاكِيس قضايا وجودية عُرفت بعد رحيله في مؤلفات ألبير كامي وجان بول سارتر، كما ضمنها رموزًا بالغة العمق استمدها من طائفة من حضارات العالم القديم، هي: الحضارة المينوية (= حضارة جزيرة كريت القديمة، وترجع إلى ما يقرب من ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد)، الحضارة الميكينية (= حضارة بلاد اليونان الأم، وترجع إلى أكثر من 1700 عام ق. م.)، الحضارة الهيلّينية، الحضارة المسيحية، الحضارة الهندية، والحضارة الأفريقية. وبذا أصَبحت "الأوديسية" أهم عمل شعري في الأدب اليوناني الحديث بصفة عامة.

ولقد قمتُ بترجمة الفقرة الافتتاحية لهذه الملحمة في كتابي: «مختارات من الشعر اليوناني الحديث» الذي صدر عن المركز القومي للترجمة عام 2000، وأعيد طبعه بعد أن نفدت طبعته الأولى بصورة لافتة للنظر، فضلاً عن صدور طبعة أخرى تحتوي على 40 قصيدة من القصائد الواردة

فيه في سلسلة «آفاق عالمية»، التي تصدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، العدد 58 (عام 2007)، تحت عنوان «الباقة اليونانية».

هذه الروايـــة وأسرارها:

يؤكد كزَنتزَاكِيس أن بطل هـذه الروايـة "أليكـسيس زوربـاس"- الذي اشتهر عالميًا باسم "زوربا"- عاملٌ مُـسن كان يحبـه كثـيرًا، وأنـه واحـد مـن الأشخاص الذين تركوا في نفسه أعمق الأثر. وهو يقـول بـالحرف الواحـد في هذا الصدد: «لو أنني أردت أن أذكر الأشخاص الذيـن تركـوا أثـرًا أعمـق في نفسي، فلعلني أذكر بصفة خاصة ثلاثـة أو أربعـة: هـوميروس، برجـسون، نيتشة وزوربا». ومن بعد ذلك، يقول إنه لو كان مقـدرًا له أن يختـار مرشـدًا هاديًـا روحيًّـا له في هـذه الدنيـا لاختـار زوربـا، بكـل تأكيـد. ويُرجـع كزَنتزَاكِيس الـسبب في تـأثير زوربـا البـالغ في نفـسه إلى أن لديـه النظـرة الفطرية التي تستحوذ على طعامه، والبراءة الخلاقـة الـتي تتجـدد في نفـسه كل صباح، والتي تجعله يتطلع إلى جميع الموجودات بانبهـار، ويمـنح عذريـة متفردة لعناصر الطبيعة الخلاقة: البحـر، والريـاح، والنـار، والمـرأة والخـبز. ويتصف زوربا بثبات اليد وانتعاش الفؤاد، ويـتحلى بالإقـدام والـشجاعة، والقدرة على أن يسخر من نفسه ذاتها، كما لو كان يملـك داخلـه قـوة أعلى من النفس. ولديه أيضًا ضحكة مجلجلة نابعة مـن أعمـق أعماقـه، تنطلـق من شغاف قلبه، وهو قادر بمرحه على هدم جميـع الأسـوار، وتقـويض كافـة

العوائق، أجل قادر على تقويض الأسوار الأخلاقية والدينيّة والوطنية.

وزوربا بالنسبة إلى كـزَنتزَاكِيس- سـواء كان له وجـود واقـعي ورآه رأي العين كما يقول، أم جسَّدَه من بنات أفـكاره ثـم كـساه لحمًـا ودمًـا، وجعلـه كائنًا يتفجر بالحياة- هو الشخص الذي زود الأديـب الذي بداخلـه بالغـذاء الروحي الذي عجزت كتبٌ كثيرة ومعلمون أكثر عن مده بـه طـوال حياتـه. زوربا هو الذي أشبع روح كزَنتزَاكِيس النهمـة، وعقلـه المـتعطش، ونفـسه التواقة إلى المعرفة واكتساب الخبرة. لقد اسـتطاع زوربـا- الزاخـر بـاللحم والعظام- أن يـضع في يـد كـزَنتزَاكِيس الـورق والحـبر الذي دوَّن بـه أدبـه وشعره. وإن ما يمثله هذا التأثير الرائع لهـو بمثابـة أسـطورة تُـدعى زوربـا، أسـطورة تتـصرف وتـتكلم وتحتـسي النبيـذ الكـريتي في شـغف. وكان كزَنتزَاكِيس يتمنى كل يوم أن تغـرب الـشمس، وأن يـنهي العمـال- الذيـن ينقبون عن الفحم الحجري تحت إشراف زوربـا- عملهـم، كي يـستلقي مـع هذا الغول المـسمَّى زُوربـا على رمـال الـساحل الكـريتي، ليتنـاولا الطعـام الريفي الشهي اللذيذ، ويحتسيا النبيذ، ويشرعا في تجاذب أطراف الحديث.

كان زوربا يتحدث عن قريته الموجودة على جبـل الأوليمبـوس- مـوطن أرباب الإغريق الخالدين- وعن الثلوج والذئاب، وعن المحـاربين الـصناديد الجسورين، وعن القديـسين والقـساوسة، وعـن المغنيـسيوم، وعـن النـساء والله والوطن والموت. وعندما كانت تستعصي عليه الكلمـات ويُـرتج عليـه، كان يقفز عاليًا على حين غرة، ويشرع في الرقص الحماسي فوق حصى رمـال الساحل الغليظة.

ويصف كزَنتزَاكِيس زوربا بأنـه رجـل مُـسن، قامتـه منتـصبة، ضـامر

البنية، ذو انحناءة خلف رأسه، وعيناه صغيرتان مستديرتان مثل عيني الطائر، وكان صوته صراخًا وصياحًا، وعندما كان يرقص في منتصف الليل كان يصهل مثل الخيول. وزوربا هو نقيض كزَنتزَاكِيس في الفعل والجسارة، فهو ينادي على كاتبنا ويهيب به أن يشاركه الرقص والقفز، ويحثه على أن يخرج من قوقعة الفضيلة المريحة، ومن صَدفَة الإلف والعادة السقيمة. وكان كزَنتزَاكِيس يشعر بالخجل من هذه الأفعال وما يماثلها، رغم أنه كان في أعماقه يحبها ويتمناها؛ فالجنون الأسمى- وهو جوهر الحياة عنده- كان يناديه ويهيب به أن يتصرف مثل زوربا، ولكنه يقول إنه لم يشعر أبدًا بالحياء من نفسه مثلما شعر بالخجل أمام زوربا.

ولو أردنا أن نعرف رأي زوربا في كزَنتزَاكِيس، وهو صديقه الأثير والحبيب، فإن الخطاب التالي الذي أرسله إلى الكاتب يمكن أن يلخصه لنا أبلغ تلخيص:

«إنك، يا صديقي، وسامحني في قولي هذا، صاحب قلم مغمور! لقد كان في مقدورك، أيها التعس، ولو مرة واحدة طوال حياتك، أن تشاهد صخرة خضراء لا مثيل لها في الجمال، لكن عينيك لم تكتحلا بمرآها. فوحق الله! لقد اعتدت أن أجلس فيما مضى من الزمان- عندما لم يكن عندي ما أفعله- وأقول فيما بيني وبين نفسي: "تُرى هل هناك جحيم؟ أم لا يوجد هناك جحيم؟"، غير أنني بالأمس حينما تسلمت رسالتك قلت: "بالتأكيد هناك جحيم يَصلاه أرباب القلم والورق، الكتاب المغمورون من أمثالك!».

كانت نظرات عيني زوربا إلى كزَنتزَاكِيس مفعمة بالحنان والرقة،

وأيضًا بالاستهانة وما يشبه الاحتقار، وكأن ما يبقى منه بعد رحيله هو الكلمات أو الضحكات والرقصات، والسُّكر حتى الثمالة، والهموم والمضايقات، وثرثرات هادئة ساعة الأصيل، ونظرات حالمة تزجي لكاتبنا تحية الوداع في كل لحظة على الدوام.

وفي أول مرة التقى فيها كَزَنتزَاكِيس بصديقه زوربا، كان جالسًا على مقهى في بيريه انتظارًا للباخرة التي سوف يستقلها إلى جزيرة كريت، وشعر أن هناك شخصًا ما يحدق في ظهره، والتفت فوجد رجلاً مُسنًّا في الخامسة والستين من عمره، فارع القامة، ضامر البدن، ذا عينين جاحظتين، يحمل ربطة صغيرة تحت إبطه، وشعره مجعد رمادي وخَطَه الشيب، ونظرات عينيه تقدحان بالشرر. وكان زوربا هو الذي ابتدره بالسؤال، وطلب منه أن يأخذه برفقته إلى كريت، ولو حتى طاهيًا يصنع له الحساء. وكان مزاج زوربا حادًّا ورد فعله صادمًا؛ فحينما وجد أن كاتبنا يمعن التفكير قبل أن يجيبه بنعم، صاح من فوره: "فيم تفكر؟ هل تحسب حساباتك على الميزان؟ وهل تزنها بالدرهم؟ هيا يا هذا، خُذ القرار، ولتذهب الموازين إلى الجحيم!".

إن زوربا رجل الفعل بحق، الفعل عنده أسبق من الفكر، ولذا فهو يضيق ذرعًا بمن يفكرون أو يتأنون مليًّا قبل اتخاذ القرار؛ فإرجاء العمل عنده يعني التردد، والتردد يؤدي إلى الإحجام، وزوربا لا يعرف إلا مضاء العزيمة، إذا أراد شيئًا صنعه في التو واللحظة، ويفكر في فعله بعد صنعه، لا قبل ذلك. فالتردد- في نظر زوربا- يثلم حدة الإرادة، ويجعل الإنسان ينكص على عقبيه، كما أنه يجعل النزوع للتنفيذ مشلولاً، ويضيع على

صاحبه فرصًا ذهبية لا يمكن أن يعوضها بعد ذلك بحال من الأحوال.

وزوربا يعشق الطعام والشراب، ومولعٌ بالعزف على آلة القانون، وبالرقص الذي تهتز فيه كل خلية من خلايا جسده؛ وهو يقول عن حبه للموسيقى وعزفه على القانون: "كلما عضني الفقر بنابه، أرتاد المقاهي وأعزف على القانون، وأغني ألحانًا مقدونية قديمة سمعتُها فيما مضى في مسقط رأسي". وكان الذي علم زوربا العزف على آلة القانون رجلٌ تركي يدعى رجيب أفندي، وبلغ الولع بالعزف عند زوربا درجة كان يشعر فيها بالارتياح من الهم والحزن عندما ينهمك في العزف؛ يحدثه الناس فلا يسمعهم، وحتى لو سمعهم فإنه يعجز عن مخاطبتهم. وعندما سأله كاتبنا ذات مرة: "هل تزوجتَ؟"؛ قال من فوره: "أو لستُ إنسانا؟... لقد سقطتُ بدوري في الهوة التي وقع فيها مَن سبقوني. أجل لقد تزوجتُ، وسلكتُ المهوى المنحدر، وأصبحتُ رب أسرة، وشيدتُ بيتًا وأنجبت أبناءً... آه! إنه عذابٌ لا أول له ولا آخر!".

لقد أدرك كزَنتزَاكِيس- حين قابل زوربا وحادثه- أن هذا هو الإنسان الذي كان يبحث عنه زمنًا طويلاً ولم يعثر عليه، وأدرك أنه قلبٌ نابض بالحياة، وحنجرةٌ دافئة، ونفسٌ عظيمة على طبيعتها الفطرية، لم ينقطع الحبل السُّري بعد بينها وبين الأرض. وجوهر الفن- عند كزَنتزَاكِيس- هو عشق الجمال والطهارة والعاطفة الجامحة؛ لذا كان ينبهر حينما يرى زوربا وهو يقبض بيديه على المعول ليبحث عن الفحم الحجري، أو وهو يعزف بأصابعه على آلة القانون؛ إنهما يدان تعملان بكد وشقاء وتعزفان في مرح وانشراح، يدان زاخرتان بالبثور والنتوءات والتشققات، ولكنهما

يدان حالمتان، تهتزان من فرط النشوة والعاطفة المشبوبة الغامرة.

وزوربا يؤكد- في كل مناسبة- أنه إنسان، وما دام إنسانًا فهو حر؛ وأن مَن يجبره على فعل أمر لا يريده فقد خسره. وحينما يقول أديبنا الكبير كزَنتزَاكِيس له: "هيا بنا، باسم الله!"، يرد زوربا من فوره: "وباسم الشيطان أيضًا!"؛ ذلك أن زوربا دائمًا لا يرى الله إلا ويقرن به الشيطان، وكثيرًا ما تساءل في براءة ودهشة: "الله أو الشيطان هو الذي دفعني لهذا!". ومِن رَأْيِ زوربا أن فِعَال الناس وشرورهم تجعل عالمنا أقرب إلى الشيطان منه إلى الله. وبغض النظر عن عدم إيمانه أو اضمحلال مشاعره الدينية، فهو ينفر ممن يتمسحون بتعاليم الأديان، وممن يتسربلون بأردية الكهنوت، وممن يتشدقون بألفاظ طنانة جوفاء، أو يدعون أنهم يسبحون في الملكوت. وهو يعتقد أن البشر قادرون على التسفل لدرجة أنهم يصبحون بهائم أو خنازير تستمرئ الأوحال، أو ذئابًا مفترسة تقتات على اللحوم وتسفك الدماء.

وقد تصدم كلمات زوربا قارئنا العربي الذي لم يعتد مثل هذه الجرأة في القول، أو هذه الصراحة الجارحة لمشاعره الدينية، ولكن زوربا- في واقع الأمر- ليس شخصًا ممن يعانون من انفصام الشخصية، مثل كثيرين من البشر المعاصرين، وليس ممن يغلِّفون ذواتهم الحيوانية بقشرة هشة من غلالة التحضر أمام الناس، ولكنه يترك لنفسه العنان حينما يكون وحده. إنه إنسان ظاهره مثل باطنه، ويعبر بكلمات واضحة قوية صادمة عما يشعر به، دون تنميق أو زخرفة؛ وهو يمقت الرياء والتظاهر والنفاق، ويقف موقفًا معاديًا من رجال الدين أكثر من نفوره من الدين في حد ذاته.

إنه غريزةٌ ومشاعر وعقلٌ اختلطوا معًا بحيث غدا الفصل بينهم أمرًا يكاد يكون مستحيلاً، في حين أننا- نحن المكابرين- نرتدي قناع العقل حينًا، وقناع العاطفة أحيانًا، ونخفي الغرائز دائمًا خلف قناع ثالث لا يطلع عليه أحد سوانا.

وأكثر ما يجعل زوربا يحس بالحنق والغضب، هو أرباب القلم الذين يفتقرون إلى خوض معترك الحياة، والذين هم فقراء إلى حد المسغبة في خبراتهم الحياتية، والذين هم لفعل القراءة مؤدون وعن فعل الحياة منصرفون. وكثيرًا ما نعت زوربا كَزَنتزَاكِيس- مثلما نعته صديقٌ له في رسائله - بأنه جِرذ أوراق، وبأنه كاتب مغمور، وبأن جل معرفته مستمدة مما قرأه لا مما عايشه وتفاعل معه. وكان هذا المسلك من جانب زوربا هو الذي يجذب إليه كَزَنتزَاكِيس الذي كان غارقًا بين طيات الكتب بشتى اتجاهاتها، وكان يفتقر إلى الإحساس بنبض الحياة الفاعلة، ويخشى من مغبة الإقدام على الفعل، وكأنه يؤمن بمقولة نيتشه- الذي كان واحدًا ممن أثروا فيه أبلغ الأثر-: "زيادة المعرفة تُشل الرغبة في الفعل!".

وزوربا هو ابن الطبيعة الذي لا يرى لنفسه وجودًا إلا داخلها وفي أحضانها. وهو- مثل أجداده قدامى الإغريق- يشعر بالدهشة أمام مظاهر الكون، وكأنه يراها لأول مرة تحدث أمامه، مع أنه رآها قبل ذلك آلاف المرات. فعيناه تلمعان جذلاً ويتألق وجهه حبورًا، حينما شاهد- وهو في السفينة الذاهبة إلى جزيرة كريت- دلفينين كبيرين يتقافزان ويسبحان ويجاريان الباخرة في سرعتها، فيصيح في حبور مثل الأطفال: "انظر! ها هي الدلافين!". وحتى لو شاهد عنزًا تهرع فوق الصخور، فإنه يظل مشدوهًا

وهو يرنو إليها، كما لو كان يشاهد لأول مرة في حياته عنزًا. هذه الدهشة أمام الكون هي التي كانت تميز قدامى الإغريق، وهي التي جعلتهم يكتشفون ما عجزت الشعوب الأخرى عن كشفه؛ لقد لمسوا قلب الأشياء، وأحسوا بنبض الحياة المتسارع، ولم يشبعوا فضولهم من شيء قط، بل ظلوا في نهم للمعرفة لا يرتوي، ورغبة في استجلاء الحقيقة لا يخمد لها أوار؛ إنهم باختصار يحظون بدهشة على غرار دهشة الطفل أمام حقائق الحياة تماماً بتمام.

وقد يدهش القارئ حينما يتحدث زوربا عن فقده لإصبع من أصابعه، وقد يظن أنه قد بُتِرَ عند عمله أمام ماكينة أو ما شابه ذلك، ولكنه يصرح بفخار أنه هو الذي بتره بنفسه، لأنه أعاقه عن ممارسة حرفة الخزف التي كان يعشقها إلى درجة الجنون. تخيل معي إنسانًا يبتر إصبعه حتى يتفرغ لممارسة فنه بدون منغصات، ويتحمل الألم الممض والتشويه كي يرضي ميوله ويريح مزاجه. وحينما يستبشع المؤلف هذه الفعلة القاسية، يرد زوربا بإصرار: "إنه زمنك اللعين، زمن السوء، هو الذي ينبغي أن يُبْتَرا أجل! ينبغي أن تختفي البلاهة، وينسحب الحمق من الحياة!". وزوربا يقول أيضًا بتلقائية أو بعفوية جديرة بالإعجاب: "إن العاجزين المشلولين لا يدخلون الجنة!"، وهذا يبرهن على أن أفكار زوربا ليست فلسفة مصبوبة في قوالب، ولا أفكارًا صماء خلت من الحياة، بل هي مفعمة بالإحساس القوي، زاخرة باللحم والدم.

وحينما كان كزَنتزَاكِيس يستغرق في نومه، كان زوربا يظل ساهرًا وهو متدثر ببطانية سميكة، يرنو إلى جزيرة كريت بنهم وشغف؛ كان يتفحص

البحر والسهول والجبال، مع أن جميع هذه الأماكن كانت معروفة لديه، وهو الآن يشعر بالغبطة لأنه يخطو فوق ثراها ويجوس خلالها بعقله. وكان زوربا يتساءل أحيانًا في سذاجة، بيد أنها سذاجة تخفي تأملًا عميقًا للحياة: «تُرى ما كُنه هذا السعار الذي يدفعك إلى أن تمزق إنسانًا آخر؟ تُرى ما الذي يسوقك إلى أن تقطع أنفه، أو تَبْتر أذنه، أو أن تَبْقُر بطنه، ثم تجأر بعدها بالصياح طالبًا من الله أن ينزل إليك ويساعدك؟ تُرى هل تريد من الله أن يفعل مثل فعلتك، وأن يجتث مثلك الأنوف والآذان ويبقر البطون؟.... إن الأسوياء والشرفاء والعقلاء ينشدون الأمن والسكينة، لينعموا بالهدوء إبان فترة شيخوختهم التي تسقط فيها منهم الأسنان. غير أن الإنسان حينما تكون له اثنتان وثلاثون سِنًّا، ويصبح في ريعان شبابه، يغدو حيوانًا مفترسًا يلتهم لحوم البشر بضراوة. أجل إنه يلتهم الخراف والدجاج والخنازير الصغيرة، إن لم يأكل لحم أخيه الإنسان.. إنه لا يشبع ولا يرتوي... فما رأيك أيها العالم الجهبذ؟ وماذا بوسعك أن تقول في هذا؟... ماذا عساك أن تعرف عن الدنيا التي فيها تحيا؟ إن عقلك يفتقر إلى الصلابة ولحمكَ لم تمسسه الشمس!».

كان كزَنتزَاكِيس حينما يسمع هذه الكلمات وهي تتدفق من فم زوربا، دون إعداد أو ترتيب، ودون اطلاع أو قراءة، يعجز عن الإجابة ويركن إلى الصمت، ويحس بالخجل والخزي، لأن يديه لم تعرفا الكد والعمل، ولأن محياه باهت لم تلوحه أشعة الشمس، ولأن حياته بأسرها لم تسطع عليها الشمس بنورها. فما يؤرق زوربا وَيقُضُّ مضجعه هو أفعال البشر المشينة المخزية، والسرقات والمذابح البشعة التي يرتكبونها ويزعمون بعدها

أنهم ثوار متمردون، وأنهم لأوطانهم من المحبين.

إن العالم يبدو في نظر زوربا وكأنه طِلَّسم ولُغز مستغلق، أما الإنسان فهو بهيمة كبرى من البهائم الرتع. والحرية عند هذا الإنسان المفعم بالحيوية هي أن تحظى برغبة عارمة في أن تكنز جنيهات ذهبية، وعندما تمتلك الذهب تتغلب بغتة على هذه الرغبة العارمة، وتبعثر كل ما تملك في الهواء. الحرية أن تحرر نفسك من الشهوات والرغبات العارمة، وأن تمتثل طائعًا مختارًا لشيءٍ آخر أكثر سموًّا ونبلًا.. الحرية أن تكف عن التمني، وعن الاحتياج، وعن التعلق بأهداب الأمل الكاذب، أن تملك نفسك لا أن تملكك الأشياء في قبضتها.

وزوربا لا يقدس في الحياة- بَعد الحرية- سوى أمرين، الطعام الشهي والمرأة؛ وهو لا يستنكف من أن يعب من هذين النبعين ما شاء دون ارتواء؛ وهناك شيءٌ ثالث يعشقه زوربا، وهو الطبيعة وجمالها؛ فهو عاشق متيم للطبيعة بكل ما فيها من طعام ونساء وجمال. وفي هذا الصدد يقول: «أتمنى لو أنني غصت في حفرة بباطن الأرض، وأتمنى لو كُفَّ بصري حتى لا أرى شيئًا، وأتمنى لو رفعتُ عينَيَّ لأرى البحر، أو لأشاهد شجرة، أو لأتطلع مليًّا إلى امرأة، حتى لو كانت امرأةً عجوزًا، يا هذا! فلتذهب الحسابات إلى الشيطان!». وفلسفة زوربا الفطرية هي ألا يكف عن الحركة أو عن العمل، فكلاهما حياة وما سواهما موت. وفي هذا الصدد، نجده يقول: «كنت ذات يوم أمر على قرية صغيرة، فوجدتُ رجلًا قعيدًا طاعنًا في السن، يبلغ من العمر تسعين عامًا، يزرع شجرة لوز، فقلت له: "أيها الجد، هل تزرع شجرة لوز؟" فقال الرجل الذي عركته السنون

ومنحته الفكر والخبرة: "إنـني، يـا ولدي، أمـارس العمـل وكـأنني خـالدٌ لا أموت". فأجبتُه أنا بقولي: "أما أنا فأمارس العمل كما لو كنـت سـألقى نحـبي كل لحظة!". فقُلْ لي، يا رَيِّس، مَن مِنـا نحـن الاثنـين على صـواب في رأيـه؟». كان المؤلف يرى أنه سواء عمل الإنسان وكأنه لا يوجد موت، أو عمـل وهـو يضع في ذهنه الموت في كل لحظة، فالأمر سيان.

وزوربا رجل يفعل كل شيء في أوانه، لا قبل أوانه ولا بعد أوانـه، تمامًـا مثل الطبيعة- حسب تصور الفيلسوف ماركوس أوريليوس- لا شيء فيهـا يثمر قبل أوانه أو يظل موجودًا بعـد نهايـة أجلـه. ولذا، فـإن زوربـا- حـينَ يكون أمامه طعـام- لا يفكـر إلا في الطعـام، ولا يـسعه سـوى أن يلـتهم الطعام قبـل أن يفعـل أي شيء آخـر... فهـو لا يحـب أنـصاف الحلـول ولا أنصاف الأعمال؛ والتأجيل عنـده يعـني الـترك والتخـلي عـن الفعـل. وكان زوربا- كما يصفه كزَنتزَاكِيس- «يحملق في الأشـياء الـتي تعودنـا نحـن أن نمر عليها مرور الكرام دون اكتراث، غير أن هذه الأشـياء كانـت تنتـصب ماثلة أمام ناظري زوربا وكأنها ألغاز مرعبة. فهـو يـرى امـرأة تمـر أمامـه، فيقف منتصبًا والرجفة تنتابه، ويتساءل: "ترى ما كُنـه هـذا الـسر؟ ومـاذا تعـني المـرأة بالنـسبة إلينـا؟ ولمـاذا تنـبري المـرأة لفـك مـسامير عقلنـا اللولبية؟"... كما أنه يحملق ويتساءل بدهشة أثناء تطلعـه إلى شـخص يبـدو عاديًّا، أو إلى شجرة مزهرة يافعة، أو حتى إلى كوب من الماء البـارد المـنعش. فكل شيء يقع عليه بصر زوربا كان يبـدو كأنـه يـراه لأول مـرة في حياتـه، حتى لو رآه كل يوم».

وزوربا يعلق مـرارًا وتكـرارًا بقـوله إنـه لا يثـق في شيء البتـة، لا في

الإنسان ولا في القوة العليا ولا حتى في الشيطان، وهو لا يفتأ يقول: «أنا لا أثق في شيء أبدًا... لا أثقُ في شيء بتاتًا، حتى فيكَ أنت (يقصد المؤلف)؛ أنا لا أثقُ إلا في زوربا وحده، لأن قوتي كامنة في شخصه، ولأنني لا أعرف سواه؛ وكل الآخرين مجرد أطياف وخيالات، وبمجرد أن أموتَ أنا سيموتُ كل شيء، وسيهوى عالم زوربا إلى القاع غريقًا!».

وكان كزَنتزَاكِيس كلما سمع فكرة ناصعة تخرج من فم زوربا، يفكر فيما بينه وبين نفسه على النحو التالي: «هذا إنسان لم يلتحق بالمدرسة، بيد أن عقله لا يزال سليمًا لم يختل. لقد رأى وفعل وكابد الكثير من الأمور، وفتح عقله، وغدا قلبه رحبًا واسعًا، دون أن يفقد شجاعته الفطرية. لقد حل هذا الشخص جميع المشاكل المعقدة المستعصية على الحل أو المستغلقة على أفهامنا، حلها بضربة سيف واحدة، مثلما فعل شريكه في مسقط رأسه، الإسكندر الأكبر. ومن الصعب على هذا الإنسان أن يهوي، أو أن يسقط بعيدًا، لأنه يستقر بكامله- من مفرق شعره حتى أخمص قدميه- على الأرض، ويعرف أسرار الأرض بيسر وسهولة... أما نحن، معشر المثقفين، فإننا طيور السماء الحمقاء الخرقاء!».

إن زوربا إنسان يستعذب كل شيء يفعله بيده: المتعة والطعام والشراب، وحتى الألم الذي يخلفه الشقاء والكد في العمل. وهو يرى أن هناك خطيئة واحدة لا تُغتفر، وهي أن تترك امرأة وحدها فوق سريرها وهي محتاجة إليك وتريد عناقك؛ وهو يقول إن هذا هو ما قاله له شيخ تركي ذات مرة.

ويبدي زوربا تعاطفًا فطريًا مع جنس النساء، بغض النظر عن السن

والملاحة، فهو يرى أن كل امرأة تتميز بجمال من نوع خاص، وأن الرجل ينبغي أن يحسن فهم المرأة، وأن يعرف دخيلة نفسها وطبعها، ورقة مشاعرها، وأن يقدر ضعفها وقلة حيلتها، وأن يهمس في أذنها بكلمات جميلة تحي موات نفسها، وتشعل قلبها بالغرام.

وباختصار، فإن زوربا عالم ثري رحب تحار فيه العقول والألباب، وفعل متجسد ارتوى حتى نما من نبع الأرض ومن خبرات البشر، وكوَّن أفكاره من أفعاله لا من أضابير الكتب والمقالات. ولكن، هل كان زوربا حقًّا إنسانًا من لحم ودم، قابله الكاتب وعاش معه وأحبه لصفاته وعفويته وتلقائيته؟ أم أنه كان تجسيدًا لأفكار كزَنتزَاكِيس المجردة ولأمنياته التي عجز عن تحقيقها؟

ترى كل كان زوربا هو الأنا الأخرى (alter ego) التي يحادثها المؤلف ويكسوها بجسم من لحم ودم، كي يجعلنا نتعاطف معها إنسانيًّا؟ أم أنه كان شخصية واقعية أغرب من كل خيال. لقد لاحظتُ أن هناك صديقين للمؤلف يتحدث عنهما في هذه الرواية الرائعة، أحدهما زوربا الحاضر معه في معظم أجزاء الرواية، والثاني صديقه المدعو "استافريذاكيس"، الغائب الحاضر على الدوام، لأن كزَنتزَاكِيس يتحدث عنه دائماً، دون أن نراه، وأحيانًا ما يقرأ لنا خطاباته التي كان يرسلها إليه بين الحين والآخر. وكان قلب كزَنتزَاكِيس معلقًا بهما معاً، عقله مع "استافريذاكيس" وقلبه مع زوربا، إلى أن مات كلاهما في آخر الرواية.

ولا شك أن كزَنتزَاكِيس قد قابل كثيرًا من الناس في حياته، ولكن ما من أحد منهم قد ترك في نفسه هذا الأثر مثل زوربا، حتى صديقه

الثاني الذي مات في بلاد الغربة، لم يكن رحيله مضنيًا أو ممضًّا مثل رحيل زوربا. زوربا الذي رحل مثل الأفراس واقفًا، وأبى أن يأتيه الموتُ وهو نائم مثلنا أو راقد في استسلام، بل أخذ يصرخ ويصهل مثل الجواد إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة، وهو متشبث بقضبان النافذة الحديدية الصغيرة، يريد أن ينطلق منها إلى حيث السماء والأرض، إلى حيث الطبيعة، الأم الرءوم التي لم يكن يطيق البعاد عنها.

لقد حلق طيف زوربا كما تحلق أطياف الموتى في ملحمة الأوديسية، كى تنهلَ من وعاء الدم وهي مسحوقة الفؤاد، رغبة منها في أن تحظَى بالحياة، فقلب الإنسان ما هو إلا وعاء دم مغلق، كما يقول مؤلفنا. وكان زوربا آنذاك يعدو بخطواته الواسعة في طليعة هذه الأطياف، ويزيح الأطياف الأخرى جانبًا، لأنه كان يعلم حق العلم أن الذكرى اليوم ستكون من نصيبه. وفي هذا الصدد يقول كزَنتزَاكِيس:

«فلنعطه إذن دمناً كي يكتسب الحياة! ولنفعلْ كل ما بوسعنا كي يحيا ولو قليلًا مرةً أخرى! كي يحيا هذا النهم الشره الشنيع، كي يحيا هذا السِّكِّير، هذا العامل المجِد، كى يحيا زير النساء هذا، الأفَّاق المتشرد، الذي يحظى بنفس أرحب وأعرض، وبجسم أشد ثباتًا وصلابة ورسوخًا، صاحب الضجة الأكثر تحررًا وانطلاقًا، الذي عرفته في حياتي!».

هذه الترجمة ومكابدة المعاناة:

قد لا يعرف كثير من الناس أن لغة كزَنتزَاكِيس نسيجٌ متفرد لا نظير

لها عند الأدباء الآخرين في بلاد اليونان؛ وفضلًا عن ذلك فإن لهجة جزيرة كريت هي اللهجة الوحيدة التي تختلف اختلافًا محسوسًا عن باقي لهجات بلاد اليونان. وكزَنتزَاكِيس يعطي لنفسه رُخصًا كثيرة في صياغة ألفاظ خاصة به، أو قد لا يستخدمها كثيرون غيره؛ وهذه الألفاظ التي يتم صكها قد لا تكون في العادة يونانية، بل قد تكون مشتقة من الإيطالية أو من التركية أو من الفرنسية. وترتب على هذا كله أن غدت لغة كزَنتزَاكِيس أصعب بكثير مما سواها، كما أن أسلوبه متميز عن أساليب الأدباء الآخرين بشكل واضح، نظرًا لأنه كثير القراءة والاطلاع، منفتحٌ على حضارات شرقية وغربية، يقرأ في نهم واشتياق، ولا يقنع بالقليل. وإذا كان الرجل هو الأسلوب- كما يقولون- فكزَنتزَاكِيس صاحب أسلوب يمكن التعرف عليه من الوهلة الأولى، عند مَن يتقنون اللغة اليونانية الحديثة على مدى عصورها الممتدة.

ولقد سبق لى أن ترجمتُ رواية «**الفريق إسماعيل باشا: شوكة في الفؤاد**» للأديبة الكريتية «ريا غالاناكي»، ونشرتها في مطبوعات الأهرام منذ سنوات ليست بالقليلة. كما ترجمت رواية أخرى للأديبة اليونانية «بيرسا كوموتسي» وعنوانها: «**الضفة الغربية من النيل**»، نشرت في المركز القومي للترجمة عام 2013، أي منذ شهور قليلة. كما سبق أن ترجمت ما يقرب من ثُلث ديوان الشاعر السكندري كڤافيس (60 قصيدة)، وكتاب «**مختارات من الشعر اليوناني الحديث**» الذي نشره المركز القومي للترجمة في طبعته الأولى عام 2000. غير أنني لم ألق من أمري عنتًا في كل هذه الترجمات، رغم أن المختارات كانت منتقاةً من أعمال سبعين شاعرًا، كل

شاعر منهم نسيج وحده في لغته وأسلوبه.

أما مع كزَنتزَاكِيس، فقد أنفقت كثيرًا من الوقت وكثيرًا من الجهد، وكابدت معاناة لا أستطيع أن أصفها، كي أتم الترجمة على الصورة التي خرجت بها على هذا النحو. فلقد كنت أرجع إلى ثلاثة قواميس، أخرج منها- في أحيان كثيرة- صِفْر اليدين، دون أن أجد معنى للكلمة المنشودة، فضلًا عن رجوعي إلى قاموس خاص باللغة الكريتية. وكثيراً ما كنتُ أسأل العالمين من اليونانيين أرباب هذه اللغة، وكان هؤلاء يحارون مثلي أحيانًا، ويجدون المقابل في أحيان أخرى. ولكن كثيرًا ما كنت أقدح زناد فكري فأعرف مفتاحًا يوصلني إلى معرفة معنى اللفظ عن طريق التفكير المتواصل والبحث الدؤوب في جذور الكلمات.

ولقد تيسر لي شخصيًّا أن أكون عارفًا باللغة اليونانية القديمة بحكم تخصصي العلمي، إذ أمضيت في رحابها ما يقرب من خمسة وستين عاما من عمري؛ كما تعلمت اللغة اليونانية الحديثة عندما سافرت إلى اليونان، وحصلت على درجة الدكتوراه من جامعة أثينا-عام 1972 في الأدب اليوناني. ولم أنقطع عن تعلم اليونانية الحديثة أبدًا منذ هذا التاريخ حتى اليوم، إذ مارستها قراءة وكتابة وتدريسًا وترجمةً. وبالتالي، فقد أتيح لي أن أعرف اللغة اليونانية: قديمها ووسيطها وحديثها، وهو أمر قد لا يتيسر لشخص واحد في الغالب الأعم.

ولا أخفي سرًّا لو قلتُ لقارئي العزيز إنني أشعر بحزن بالغ وأغدو في كرب شديد لو توقفتُ عند لفظة يونانية وفشلت في معرفتها، إذ أحس أن هذا بمثابة جرح لكبريائي اللغوي وكرامتي المهنية، بعد أن أمضيتُ نيفًا

وستين عامًا في دراسة هذه اللغة. ولقد تغلبتُ فيما مضى على صعوبات محققة وعوائق جمة، خرجتُ منها والحمد لله مظفرًا. ولست هنا في معرض الشكاية أو التبرم، فقد استطعتُ- بعد عام تقريبًا من بدء الترجمة- أن أنجزها على خير وجه، ولكنني فقط أحببتُ أن يشاركني القراء في معرفة الظروف التي أحاطت بهذه الترجمة، فجعلتها مختلفة جِدًّ الاختلاف عما سواها من ترجماتٍ أخرى ظهرت إلى النور، قد لا أكون أنا صاحبها. وإذا كانت معادن الناس تُقاس بصبرهم وجلدهم، فلا أحسبُ أن هناك مَن هو أشد صبرًا وجلدًا مني، وليس هذا تباهيًا أو تفاخرًا، لأنني أقرأُ كل فقرة عدة مرات قبل أن أنبري لترجمتها، ولا يضيرني أن أظل ليلة بكاملها أبحث عن كلمة واحدة حتى أعرف معناها، فأحس بالراحة بعد العناء، وبالأمل بعد اليأس، وبالعزاء بعد الشكوى.

غير أنني- من جهة أخرى- استمتعتُ كثيرًا بمعايشة هذه الرواية وأنا أقوم بترجمتها، فكنتُ أضحك ملء شدقي على كل طُرفة يخطها يراع المؤلف على لسان زوربا، وكنت أطربُ جذلاً كلما وجدتُ معنًى جميلًا، وأبتهجُ حبوراً لكل فكرة فلسفية عميقة، كما لو كنتُ أنا صاحبها. واعتبرتُ أن الجزاء الذي حصلتُ عليه من معايشة ترجمة هذه الرواية هي المكافأة التي لا يستطيع أي شخص أو مؤسسة أن يقدماها لي: فالألم درسٌ والمعاناة طريقٌ يوصل إلى التميز أو العظمة.

وكلي أمل أن أقدمَ بترجمتي هذه أنموذجاً يحتذى أمام شباب المترجمين، فرغم أنني شيخٌ قد وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً، فإنني لا أضن بمرتخصٍ ولا غالٍ في سبيل الإتقان الذي يكاد يقرب من الكمال.

والإتقان لا يشمل فقط المعرفة الضافية باللغة اليونانية، بل يمتـد إلى لغتنـا العربية التي لا بد أن تـصل- في تـصوري- إلى روعـة الأصـل وتنافـسه في الإبداع.

كان هذا هو نبراسي ومَعْقِد رجائي ومناط أملي، فـإن كنـتُ قـد وفقـتُ إلى تحقيق هذا المبتغى، فبفضل من الله الذي لا يحمد على مكروه سـواه، وإن قصرتُ دون بلوغ هدفي، فعزائي أنني كنتُ أنـشد الكمـال وأسـعى للإتقـان، والله الموفق والمستعان.

محمـد حمـــدي إبراهيـم

القاهرة فى 2014/3/15

«تصدير»

زوربا اليوناني: كتاب تُرجم ترجمات لا حصر لها، وطُبع طبعات لا حصر لها، وأُنتج عنه فيلم سينمائي أسطوري نال جائزة الأوسكار، وكان ملهمًا لعرض موسيقي غير مسبوق، وكذا لعرض مسرحي ولعرض باليه، وكلها عروض كانت لها أصداء عالمية لا تتوقف، وفي كلمات قليلة كان ظاهرة لنجاح عالمي متكرر.

وإن الحب العميق الذي يكنه نيقوس كازنتزاكيس لزوربا الحقيقي الواقعي، أعني يورغوس زورباس، وكذا بطبيعة الحال موهبته الروائية التي لا تبارى، قد منحا بلاد اليونان مجدًا في مجال النجومية العالمية الفنية والروحية، التي وهبتنا بطلا فنيًا نابضًا بالحياة يظفر باستجابة فورية في قلوب البشر.

وكانت الطبعات اليونانية الأكثر قدمًا من طبعتنا هذه لرواية: «حياة أليكسيس زورباس ومغامراته»، تتضمن النص الذي دونه المؤلف. لكن الطبعة الخامسة والعشرين للعمل- التي صدرت خلال شهر سبتمبر عام 2010 (على غرار هذه الطبعة)- قد أعيد صف سطورها بحيث تطابق

الطبعة الأولى للكتاب، وطبعت عام 1981 في نيقوسيا بقبرص. ولقد قمنا بإضافة ملحق يضم نصوصًا لا تتعلق فقط بهذا الإنجاز الفني الفريد، بل أيضًا بمبدعه وبالشخص الذي كان مصدرًا للإلهام فيه وغاية استهدفها طوال حياته*.

وفي الإضافة المشار إليها توجد حاشية تفسيرية للناشر الذي أخذ المهمة على عاتقه، كما يوجد مقال مختصر للأستاذ الجامعي المتفرغ بجامعة يوانينا، إراتوسثينيس كاپسومينوس، الذي أود هنا توجيه الشكر الحار إليه، بالإضافة إلى مقالين نقديين متميزين، أولهما باللغة الفرنسية ونشر عام 1948 (وترجم ونشر باللغة اليونانية عام 1949) من قبل الفنان الناقد بيير مينيه ***Pierre Minet***، وثانيهما محلي نشر عام 1953 على يد الصحفي اللامع المثقف إيميليوس خورموزيوس.

باتروكلوس استافروس

* هذه الملاحظات تتعلق بالطبعة اليونانية التي تمت الترجمة عنها (المحرر).

«مقدمة المؤلف»

كثيرًا ما راودتني الرغبة في أن أكتب عن حياة أليكسيس زورباس ومغامراته، وهو عامل مُسن أحببته كثيرًا. ولقد كانت طوالع الخير التي صادفتني طوال حياتي هي الرحلات والأحلام، أما الذين مدوا إليَّ يد المساعدة من بني البشر في نضالي وكفاحي، أحياءً كانوا أو موتى، فهم جد قليلين. ومع ذلك، فلو أنني أردت أن أذكر الأشخاص الذين تركوا آثارًا أعمق في نفسي، فلعلني أذكر بصفة خاصة ثلاثة أو أربعة: هوميروس، وبرجسون، ونيتشه وزوربا.

أما الأول، وهو هوميروس، فقد كان بالنسبة إليَّ عينًا هادئة مضيئة- مثل قرص الشمس- تضيء ببريقها الذي يبث الحرية فى كل الأمور؛ وأما برجسون فقد كان مصدر راحة لي من العذابات الفلسفية المضنية التي استبدت بي إبان سنوات شبابي المبكرة؛ وأما نيتشه، فقد أثرى وجداني بعذابات جديدة، كما علمني كيف أحول الشقاء والمرارة والشدة إلى عزة وكبرياء؛ وأما زورباس، فقد علمني أن أحب الحياة وألا أفْرَقَ من الموت.

ولو أنه كان مقدرًا لي اليوم في هذه الدنيا كلها أن أختار مرشدًا هاديًا روحيًا، أي «غورو» كما يسميه الهنود، أو «شيخاً طاعناً في السن» كما يسميه الرهبان في (أديرة) الجبل المقدس(*)، لاخترت زوربا بكل تأكيد.

والسبب في ذلك أن هذا الشخص لديه ما يحتاج إليه كاتبٌ مغمور مأجور كي ينجو وتُكتب له السلامة: لديه النظرة الفطرية التي تستحوذ على طعامه الذي يقيم أوده، وهي مماثلة للسهم حينما يرتشق من عَلٍ؛ ولديه البراءة الخلاقة التي تتجدد كل صباح، وتجعله يتطلع للمرة الأولى دون توقف إلى جميع الأشياء، ويمنح عذرية للأماكن اليومية الدائمة: الرياح، والبحر، والنار، والمرأة والخبز؛ ولديه كذلك ثبات اليد وانتعاش الفؤاد والإقدام والشجاعة التى تجعله يسخر من نفسه ذاتها، كما لو كان يملك داخله قوة أعلى من النفس؛ ولديه أخيرًا الضحكة الخشنة المجلجلة النابعة من أعمق أعماقه، التي هي أعمق من شغاف قلب الإنسان، والتي كانت تتفجر في تحررٍ من صدر زوربا المسن في اللحظات الحاسمة؛ أجل كانت تتفجر وتغدو قادرةً على هدم جميع الأسوار والعوائق وتقويضها- أعنى تقويض الأسوار الأخلاقية والدينية والوطنية- التي اعتاد الإنسان التعِس الرعديد على إقامتها حوله، كي يكفل الأمان الأجوف لحياته القصيرة (البائسة).

وعندما أمعن فكري في الغذاء الذي أطعمَتني به لسنوات طويلة

(*) جبل فى شبة جزيرة خالكيذيكي، شمال بلاد اليونان، يقع فى منطقة ساحرة خلابة أبدعتها الطبيعة الخلاقة. وهي منطقة زاخرة بأديرة الرهبان العتيقة، ولا تدخلها السيارات ولا النساء منذ قرون كثيرة. (المترجم).

الكتبُ والمدرسون، من أجل إشباع روحي النهمة وعقلي المتعطش تعطش الأسد، وأقارنه بالغذاء الذي أطعمني به زورباس في شهور قلائل، أجد أن مِن الصعب عليَّ أن أتمكن من احتمال غضبي وحزني. فلقد ضاعت حياتي سُدًى من حيث التزامن، إذ أنني قابلت هذا «الشيخ المسن» هذا متأخرًا جدًا، وما أمكن الحفاظ عليه داخلي منه حتى الآن ما يزال قدرًا لا يُذكر. فالتحول الكبير والتغير الشامل في الواجهة، أعني أن «الاحتراق الشامل(*)» و«التجديد الشامل» لم يقدر لهما الحدوث... لقد فات الأوان وغدا الوقت متأخرًا. وهكذا كان زوربا؛ فبدلًا من أن يكون بالنسبة إليَّ الأنموذج الشامخ العاجل الملح، انحدر وسقط ليصبح، واحسرتاه، مجرد موضوع أدبي أُلطخ به بضع صفحات من الورق.

أجل لقد تضاءلت هذه النعمة المحزنة، التي كنتَ بها تحيل الحياة إلى فن، وانتهت إلى كارثة تلتهم الأرواح والنفوس، وكان السبب هو الآتي: لقد وجدتْ العاطفةُ المشبوبة الجامحة منفذًا، فولتْ هاربةً من الصدر، ووجدت الروح راحتها، فلم تعد تختنق ولم تعد تحس بالحاجة إلى تصارع جسد مع جسد، ونفذت داخل الحياة وإلى الفعل، ولكنها ابتهجت إعجابًا بعاطفتها المشبوبة الجامحة التي تجعلها تتعلق في الهواء وتختفي.

لكنها لم تبتهج فحسب لكونها متكبرةً أو متغطرسة، فقد اعتقدَتْ أنها تنجز عملًا ساميًا خلال اللحظة العابرة التي يتعذر استبدالها- أجل اللحظة وحدها في هذا الزمن الشاسع الذي يحظى بلحم ودم- فإذا بها

(*) بحسب المصطلحات الفلسفية للفليسوف القديم هيراقليطوس. [المترجم].

تنقلب وتصبح كما لو كانت قرنًا من الزمان. وهكذا فإن زوربا، الزاخر باللحم والعظام، قد انتهى إلى أن وضع في يدي الحبر والورق. ورغماً عن إرادتي، إذ كنت بوجه خاص أريد العكس تمامًا، فقد تحرك منذ فترة كي يبلور داخلي أسطورة زوربا. فبدأت العملية سريةً في شغاف الفؤاد؛ بدأت في البداية على شكل ضجة موسيقية، ومتعة محمومة وتوعك مزعج، كما لو أن جسماً غريباً كان قد ولج في دمائي، وشرع جهازي العضوي في محاربته بهدف ترويضه، أو بغية إزالته ومحوه تمامًا عن طريق امتصاصه وتمثله. كما بدأت الكلمات تهرع وتجري حول هذه النواة، وتحيط بها وتغذيها كما لو كانت جنينًا. وأخذت الذكريات الباهرة المذهلة تتجسد، وشرعت الفرحة والمرارة اللتان كانتا غارقتين تطفوان، وتبدلت الحياة إلى نسيم أكثر رقة وخفة، وغدا زوربا أسطورةً أو قصةً من وحي الخيال.

ولم أكن قد حظيت بعد بالشكل الذي سوف أمنحه لهذه الأسطورة التي تخص زوربا: فهل يا تُرى ستكون رواية مغامرة أم رواية عشق وغرام، أم تراجيديا، أم قصة قصيرة خيالية معقدة عن "حليمة(*)"؛ أم يا تُرى سيكون إطارها جافًا خشنًا أحاكي فيه الكلمات التي جعلتني وأنا واقف على ساحل جزيرة كريت- حيث كنا نعيش- جعلتني أحفر على أمل العثور على فحم حجري.

كان كلانا يعلم حق العلم أن هذا الهدف المعملي كان خواءً من قبض الريح في عيون الناس؛ وكنا آنذاك في عجلة من أمرنا نبغي أن تغرب

(*) شخصية من شخصيات "ألف ليلة وليلة". [المترجم].

الشمس، وأن يُنهي العمال عملهم، وأن نستلقي- كلانا- على رمال الساحل، وأن نتناول طعامنا الريفي الشهي اللذيذ، وأن نحتسي النبيذ الكريتي، ونشرع في تجاذب أطراف الحديث.

ولم أكن- فيما يتعلق بي- أتكلم في معظم الأحيان؛ فماذا عسى أن يقول شخصٌ عقلاني مُفكر لغولٍ من الغيلان؟ فلقد سمعته يحدثني عن قريته في جبل الأوليمبوس، وعن الثلوج والذئاب، وعن الفدائيين المحاربين، والقديسة صوفيا، والفحم الحجري، وعن الغرانوليت (= الماغنيسيوم)، وعن النساء، وعن الله والوطن والموت.. وفجأةً، عندما كان يرتج عليه ولا تعود تسعفه الكلمات، كان يقفز عاليًا فوق حصى الساحل الغليظة ويشرع في الرقص.

كان رجلا مُسنًا، قامته منتصبة، ضامر البنية، ذا انحناءة خلف رأسه، وذا عينين صغيرتين مستديرتين مثل عيني الطائر، وكان يرقص ويصرخ ويدق الأرض بإخمص قدمه الخشنة على الساحل، فينثر قطرات من ماء البحر على وجهي.

ولو كنتُ سمعتُ صوته- لا لم يكن صوتًا، بل كان صراخًا وصياحًا- لاكتسبتْ حياتي قيمة وقدرًا، ولعشت بدم ولحم وعظام، ولما فكرت الآن في تعاطي المخدرات، ولشرعتُ في الإمساك بالأوراق والقلم. غير أنني لم أجسر. فلطالما كنت أرى بعينيَّ زوربا وهو يرقص في منتصف الليل ويصهل مثل الخيول، وينادي عليَّ كي أقفز بدوري وأخرج من قوقعة الفضيلة المريحة، أو من صَدَفة الإلف والعادة، وأن أسافر معه في رحلاته العظمى، ولكنني ظللت قابعًا بلا حراك والرجفة تعتريني.

ولقد كنتُ أميل إلى الخجل مرارًا وتكرارًا طوال حياتي، وذلك لأنني أحكمت القبض على زمام نفسي، ومنعتها من التجاسر على إتيان فعلٍ ما، إذ كان الجنون الأسمى- وهو جوهر الحياة- يناديني ويهيب بي أن أفعله؛ غير أنني لم أشعر أبدًا بالحياء من نفسي مثلما خجلت أمام زوربا.

وذات صباح، عند بزوغ الفجر، انفصلنا: أما أنا، فقد جذبني السفر إلى الخارج مرةً أخرى؛ إذ لم أكن قد شفيت بعد من المرض الذي اعترى "فاوستوس" تجاه المعرفة والتعلم؛ بينما اتجه زوربا صوب الشمال واستقر في صربيا، على جبل هناك بالقرب من اسكوبيا، حيث اكتشف- كما يقول- عِرقًا ثريًا من معدن الماغنيسيوم، وملأ عدة حقائب بالمال، واشترى آلات ومعدات، وجند عمالاً، وبدأ مرةً أخرى الحفر داخل سراديب الأرض. فَجَّر الصخور، وشق الطرق، وجلب المياه، وشيد منزلًا، وتزوج- وهو مُسن نشيط الحركة- أرملة حسناء مرحة، هي ليوبا، وأنجب منها ابنًا.

وذات يوم- عندما كنت في مدينة برلين- تلقيت برقية من زوربا [مدونة باللغة اليونانية القديمة] هذا نصها: «لقد عثرتُ على صخرة خضراء لا مثيل لها في الجمال، احضر على الفور. زوربا».

كانت هذه الحقبة حقبة مجاعة ومسغبة كبرى في ألمانيا؛ إذ تدهورت قيمة المارك، فلكي تدفع ثمن سلعة صغيرة كان عليك أن تحمل غرارة بها ملايين الماركات. أما عندما تذهب إلى المطعم، وتتناول هناك طعامك، فكان عليك أن تفتح حافظة نقودك المنتفخة بالأوراق المالية فوق العادة، وتُفرغها فوق المائدة لكي تدفع ثمن وجبتك. ولقد مرت علينا أيامٌ كنا محتاجين فيها إلى عشرة ملايين مارك في مقابل طابع بريد.

كانت هناك إذن مسغبة، وجو بارد، وسترات قديمة بالية، وأحذية عفا عليها الزمن، أما وَجْنَات الألمان الوردية فقد تحولت إلى الشحوب والاصفرار. كان الهواء الذي يهب آنذاك هواء الخريف، وكان الناس يتساقطون في الطرقات مثلما تتساقط أوراق الأشجار. وكان الناس يعطون للأطفال قطعة من المطاط أو الجلد كي يقوموا بمضغها أو يلوكوها في أفواههم، كي ينخدعوا بها ولا يبكوا. وكان أفراد الشرطة يقومون بجولات ووردیات على الجسور والكباري المقامة فوق النهر، لكي لا تلقي الأمهات أنفسهن فى النهر ليلاً مع أطفالهن، ليغرقن هربًا من هذا المصير البائس.

حل فصل الشتاء وسقطت الثلوج. وكان هناك في الغرفة الملاصقة لي رجل ألماني، أستاذ للغة الصينية وآدابها، ولكي يسري الدفء في أوصاله كان يمسك بفرشاة الطلاء الطويلة، ويحاول- مستخدمًا الطريقة العجيبة المتبعة في الشرق الأقصى- أن ينسخ بها أغنية صينية قديمة، أو مقولة من أقوال الحكيم كونفوشيوس. ولا ريب أن طرف الفرشاة وكوع الأستاذ المرفوع في الهواء وقلب الحكيم (كونفوشيوس) كانوا يشكلون جميعًا أضلاع مثلث. وكان هذا الأستاذ يقول لي، ووجهه طافحٌ بالبشر والرضا: «بعد مرور دقائق من انهماكي في هذا العمل، تتدفق حبات العرق وتسيل على ذراعي، وهكذا أشعر بالدفء والحرارة».

ووسط هذه الأيام المريرة التي تماثل السم الناقع، تسلمتُ برقية زوربا. وفي مبدأ الأمر شعرت بالحنق والغضب، فملايين البشر يهانون ويركعون لأنهم لا يملكون كسرة خبز يقيمون بها أودهم، ويحفظون بها أرواحهم وعظامهم. وها هي الآن برقيته التي تدعوني إلى التحرك، وإلى أن أقطع

آلاف الأميال من أجل أن أشاهد صخرة خضراء لا مثيل لها في الجمال! وقلتُ فيما بيني وبين نفسي: «اللعنة على الجمال! لماذا تجرد البشر من قلوبهم، ولم يعودوا يعبأون بألم الإنسان؟».

غير أنني بغتةً شعرت برجفة وقشعريرة؛ وانفثأ على أية حال الغضب الذي اعتراني، وأحسست- والرعب يتملكني- بأن هذه الضجة الخالية من الرحمة التي أطلقها زوربا تتجاوب مع ضجة أخرى خالية من الرحمة قابعة داخلي. فقد كان هناك طائرٌ جارح متوحش داخلي، قد فرد جناحيه وخفق بهما إيذانًا بالطيران.

ومع ذلك فلم أرحل، ولم أجسر من جديد على الرحيل، ولم أستقل القطار، ولم أتبع الضجة القدسية الوحشية القابعة داخلي، لا، ولم أقدم على فعلة جسورة تفتقر إلى العقلانية. بل اتبعت الصوت الإنساني المتعقل البارد الذي يتميز به المنطق، وتناولت قلمي وكتبت إلى زوربا، وفسرت له الأمر...

وأجابني هو بهذه الإجابة:

«إنك، وسامحني في قولي هذا، صاحب قلم مغمور. لقد كان في مقدورك، أيها التعِس، ولو مرةً واحدةً طوال حياتك، أن تشاهد صخرة خضراء لا مثيل لها في الجمال، ولكن عينيك لم تكتحلا بمرآها. فوحق الله! لقد اعتدتُ أن أجلس فيما مضى، عندما لم يكن لديَّ عمل لأفعله، وأقول فيما بيني وبين نفسي: "تُرى هل يوجد جحيم؟ أو لا يوجد ثمة جحيم؟". ولكني بالأمس، حينما تسلمت رسالتك، قلت: "بالتأكيد، هناك جحيم يصلاه أربابُ القلم والكتاب المغمورون من أمثالك!".

هاجت الذكريات وتحركت داخلي، ودفعت إحداها الأخرى وهي تتسارع جميعًا وتهرع. لقد أزف الوقت لكي نضع الأمور في نصابها بالترتيب؛ ولنأخذ حياة زوربا ومغامراته منذ بدايتها. ذلك أن الظروف الأكثر تفاهة التي ربطتني به قد ومضت هذه اللحظة في عقلي بوضوح، سريعةً وثمينةً، تمامًا مثل الأسماك الملونة في مياه البحر التي تترقرق خلال فصل الصيف. إذ لم ينطمس شيء يمت إليه بصلة داخلي ولم يختف، فما كان يتعلق بزوربا غدا كأنه خالد أبدي. ومع ذلك، فخلال هذه الأيام بدأ قلقٌ مباغت يبث في نفسي الاضطراب: فلقد انصرم عامان منذ أن تسلمت منه رسالة، ولا ريب أنه الآن قد ناهز السبعين عامًا من عمره، أو ربما كان بوسعه أن يقترب من منطقة الخطر، وبالتأكيد فإنه يقترب منها، وإلا فإنني أكون عاجزًا عن تفسير سر الاحتياج المفاجئ الذي هيمن عليَّ، كي أراجع ما دونته من مسودات عنه، وكي أتذكر ما قاله لي وما فعله، وكي أدونه وأسجله على الورق حتى لا يتلاشى. وكأنني كنت أريد أن أستعيذ من الموت، أو أن أدرأ الموت عنه. لذا، فإنني أخشى أن ما أدونه هذا ليس كتابًا، بقدر ما هو ذكرى.

أجل، إنني أنظر الآن إليه، فأجد أنه يحظى بكل خصائص الذكرى المميزة. فلقد زُين قُرصُ الكعكة حتى حوافه بطبقة سميكة من سُكر البودرة، ودُون فوقه اسم: أليكسيس زورباس بالقرفة واللوز. أتطلع إلى الاسم، وعلى حين غرة يفور البحر ويُزبد، صفحة بحر كريت الزرقاء، ويتجمع حول عقلي. كلمات، وضحكات، ورقص، وسُكر حتى الثمالة، وهموم ومضايقات، وثرثرات هادئة ساعة الأصيل، وعينان مستديرتان

مثبتتان على وجهي برقة وحنان، وفى الوقت نفسه باستهانة واحتقار، وكأنهما ترحبان بي في كل لحظة، أو كأنهما تزجيان لي تحية الوداع على الدوام.

ومثلما هو الحال عندما ترنو إلى قرص مزين مزخرف خالٍ من الحياة، تعلقت العناقيد- مثل الخفافيش وأشباهها- داخل تجاويف ذكرياتنا وغدت مماثلة لها. ورغماً عن إرادتى اشتبك مع طيف زوربا طيفٌ آخر محبوب جدًا يتقافز خلفه، ظهر على غير توقع، أجل طيف آخر، طيف امرأة مهجورة ذات طلاء وأصباغ بلا حدود ومحبوبة بلا حدود، كنا قد قابلناها مع زوربا على الساحل الرملي لجزيرة كريت في البحر الليبي.

ولا ريب أن قلب الإنسان ما هو إلا وعاء دم مغلق، وعندما ينفتح هذا الإناء تهرع جميع الأطياف الظامئة لكي تنهل من هذه الدماء، وهي مسحوقة الفؤاد، رغبة في أن تحظى بالحياة[*]؛ هذه الأطياف التي ترتاد الأماكن المجاوره لنا، وتجعل الهواء حولنا قاتمًا. أجل إنها تهرع كي تشرب دماء قلوبنا، لأنها تعلم حق العلم أنه لا توجد لها قيامة أخرى. وكان زوربا اليوم يعدو في مقدمة هذه الأطياف كلها بخطواته الواسعة، وكان يزيح جانبًا الأطياف الأخرى، لأنه يعرف أن الذكرى ستكون اليوم من نصيبه:

فلنعطه إذن دمنا كي يكتسب الحياة. ولنفعل كل ما بوسعنا كي يحيا ولو

---

[*] وفقاً للمفهوم الإغريقى القديم، الذى ورد فى ملحمة "الأوديسيه" للشاعر العظيم "هوميروس"، سكب البطل "أوديسيوس" الدماء فى حفرة، فهرعت إليها أطياف الموتى، وظلت تلعق الدماء حتى تجسدت وصارت مرئيةً، وطفقت تحدثه عن ما أصابها قبل الممات. (المترجم).

قليلا مرةً أخرى، هذا النهم الشره الشنيع،كي يحيا هذا السِّكِّير، هـذا العامـل المجِد، زير النساء، الأفاق المتشرد، الذي يحظى بنفس أوفـر وروح أعـرض، وبجسم أشد ثباتًا وصلابة، صاحب الـضجة الأكـثر تحـررًا، الذي عرفتـه في حياتي.


فلسفة
الكتب

نيقُوس كزَانتزَاكِيس

حيَاة الكسِيس زُوربَا ومغَامرَاته

(1)

كانت المرة الأولى التي عرفته فيها في ميناء بيرايوس (= بيريه). وكنت قد ذهبت إلى الميناء كي أستقل باخرة إلى جزيرة كريت. كان الفجر على وشك أن ينبلج، وكان المطر يهطل، والرياح الجنوبية الشرقية تهب بعنف وقوة، وكانت المياه المتناثرة من البحر تصل إلى المقهى المحلي الصغير. كانت أبواب المقهى الزجاجية مغلقة، وكانت تنبعث من الهواء رائحة بشرية نتنة ورائحة نبات المريمية. كان الجو في الخارج باردًا، وكانت ألواح زجاج الأبواب مغطاةً بالصقيع المتجمد جراء الأنفاس المتلاحقة (مِن مرتادي المقهى). وكان خمسة أو ستة من الرجال العاملين في البحر سهارى طوال الليل، وهم يرتدون ستراتهم البنية اللون المصنوعة من شعر الماعز؛ كانوا يحتسون القهوة والمريمية، ويرنون إلى البحر من خلف ألواح الزجاج التي يكسوها الضباب.

أما الأسماك التي كانت قد أصيبت بالدَّوَار جراء ضربات العاصفة العاتية، فقد وجدت ملاذًا آمنًا لها في أماكن سفلية من البحر في المياه

الساكنة، وانتظرت حتى يهدأ الجو فوقها ويصبح ساكنًا. وأما الصيادون الذين كانوا محتشدين داخل المقاهي، فكانوا ينتظرون بدورهم الوقت الذي سوف ينتهي فيه اضطراب السماء هذا، كي يزول الخوف عن الأسماك المفزوعة، فتصعد إلى سطح الماء بحثًا عن غذائها. وكانت أسماك موسى وعقارب البحر وأسماك الراي، بعد انتهاء هجماتها الليلية، تعود أدراجها كي تنام، إذ كان الفجر قد بزغ.

انفتح الباب الزجاجي، ودلف منه شخص قصير يرتدي سترة منسوجة يدويًا، ويبدو أنه يعمل في الميناء. كان حاسر الرأس، حافي القدمين ومغطّى بكامله بالأوحال. وهنا هتف رجل مُسن يشبه كلب البحر، يرتدي سترة بحار، صائحًا: «إيه يا قسطنطين، كيف حالك يا فتى؟». فبصق قسطنطين في غضب وضيق، وأجاب: «كيف حالي؟ صباح الخير يا مقهى! مساء الخير يا منزل! صباح الخير يا مقهى! مساء الخير يا منزل! هذه هي حياتي: عملٌ، يا عزيزي، عمل».

انخرط البعض في القهقهة، واكتفى آخرون بهز رؤوسهم وهم يسبون ويلعنون. وقال شخص ذو شارب كثيف: «الحياة عقوبةٌ مؤبدة! تُرى هل أعد دراسته في الفلسفة عند الأراجوز؟ أجل إنها عقوبةٌ مؤبدة، اللعنة!».

وهنا انساب نور النهار الأزرق الحلو المائل للاخضرار خلال الزجاج المتسخ، ثم تسلل هذا النور إلى المقهى، وأخذ يشع فوق الأيادي والأنوف والجباه، ثم قفز إلى المدفأة فتوهجت الزجاجات بوميض ساطع. فقدت المصابيح الكهربية قوتها، فمد نادل المقهى الكسول المتثائب من فرط السهر يده وأطفأ هذه المصابيح. ومرت لحظةٌ من الصمت، فرفع الأشخاص

الموجودون أنظارهم جميعًا ليرنوا إلى النهار المشبع بالأوحال في الخارج. وتناهى إلى أسماعهم صوت الأمواج وهي تتكسر وتزمجر، وداخل المقهى كانت مياه عدد من النرجيلات تكركر.

تنهد الرجل المسن الذي يشبه كلب البحر تنهيدة عميقة، وصاح قائلًا: «إيه يا هذا! كيف حال القبطان ليمونيس؟ أرجو أن تترفق به يدُ الله!»، ثم رمق البحر من بُعد بنظرة شرسة، وعض شاربه الكث الأشيب وقال: «عارٌ عليك، أيها المخنث الراحل عنا!».

كنتُ آنذاك جالسًا في أحد أركان المقهى، وأنا أرتعش من البرد، فطلبت فنجانًا آخر من المريمية، إذ كان الوسن يداعب أجفاني، وكنت أقاوم النعاس وأغالب الإجهاد والاكتئاب الذي يصحب مشرق النهار. تطلعتُ- من خلال الزجاج المغلف بالضباب والقذارة- إلى الميناء الذي بدأ يستيقظ ويعج بالصخب والضجيج، من خلال صفارات السفن الزاعقة وصيحات سائقي العربات والعاملين بالقوارب. أخذتُ أتطلع وأمعن في التطلع، وإذا بسلسلة طويلة بالغة الكثافة من مياه البحر والمطر والاغتراب بدأت تلتف حول فؤادي.

كنتُ قد سَمرت أنظاري على مقدمة سوداء لباخرة كبيرة، كانت مغمورةً من حافتها العلوية حتى الآن تحت أستار الظلام. وبدأ المطر يهطل، وكنت أشاهد خيوط المطر التي تساقط من السماء تختلط وتمتزج بالوحل.

وبينما كنتُ أرنو إلى الباخرة السوداء وإلى الظلال وإلى الأمطار، بدأ إحساسي بالمرارة يتشكلُ في صورة شخص، وتصاعدت الذكريات لتتجسد

من خلالها صورة صديقي العزيز المحبوب على صفحة الهواء، وهي صورة مصنوعة من الأمطار والأشواق. فمتى كان ذلك؟ العام الماضي؟ إبان حياة أخرى؟ أمس؟ كنتُ قد أتيتُ إلى هذا الميناء كي أزجي إليه تحية الوداع، وأذكرُ أن المطر كان يهطل أيضًا، وأن الجو كان باردًا، وأن الوقت كان عند بزوغ الفجر. وأخذ قلبي يلهث من فرط شعوره بالثورة والفورة.

الوداع البطيء من جانب الأشخاص الذين تحبهم سُم مرير؛ فالأفضل أن تقطع (صِلاتك) بالسكين، وأن تظل من جديد وحدك وبمفردك تمامًا، داخل المناخ الطبيعي لك بوصفك واحداً من البشر، أن تظل مع العزلة. ومع ذلك، فلم يتسن لي أن أنتزع ذلك الفجر المطير من براثن صديقي. (وأدركتُ السبب فيما بعد، لكن هذا- واحسرتاه- حدث متأخرًا جدًا). كنت قد صعدتُ بصحبته إلى متن الباخرة، وجلستُ معه في قمرته بين الحقائب المتناثرة هنا وهناك. وكنتُ أرمقه ببطء وروِيَّة وإصرار، عندما كان موليًا انتباهه إلى مكان آخر، كما لو كان مرادي هو أن أنبرى لسَبر أغواره من ملامحه: عينيه الزرقاوين المائلتين إلى الحمرة اللتين تشعان ببريق أخاذ، مُحياه الفتيّ الريان الممتلئ، تعبيراته الشامخة الجذابة، وعلاوة على ذلك كله، ساعديه الأرستقراطيين وأصابع يديه الطويلة.

انقضت برهةً قبل أن أتفحصَ بنظري شخصه في عجلة ثم بإمعان؛ فاستدار بأسلوب متهكم ساخر، كان يتخذ سمته حينما يريد أن يخفي مشاعره أو تأثره. فنظر إليَّ من طرف عينه؛ وبدا أنه أدرك وفهم. وكي يصرف عنه ألم الفراق وحزنه، سألني وهو يبتسم في سخرية: «إلى متى؟». فقلت: «ما معنى: إلى متى؟». قال: «إلى متى ستظل تقتات على الأوراق؟ وإلى

متى ستظل تلطخ يديك بالحبر؟ هيًّا! تعال معي إلى هناك، إلى القوقاز، فهناك يتعرض الآلاف من بني جلدتنا للخطر، فهيا معي كي ننقذهم».

ثم قهقه ضاحكًا كما لو كان يريد أن يسخر من هدفه هذا السامي، وأضاف قائلًا: «وربما لا نتمكن من إنقاذهم، بيد أننا سننقذ أنفسنا حين نحاول إنقاذهم. أليس كذلك؟ أفلست أنت من أعلنَ هذا وبشَّر به، يا مُعلمي بقولك: "إن الطريقة الوحيدة لإنقاذ نفسك هي أن تقاتل الآخرين..."؛ فهيا إذن تقدَّم إلى الأمام، أيها المعلِّم، يا مَن كنت تعلم الناس... هيا بنا!». فلم أحر جوابًا. آه أيها الشرق المقدس، يا أم المقدسات، ويا أيتها الجبال الشاهقة، ويا صرخة بروميثيوس التي تسمرت معه على الصخرة(*)!... فلقد تسمر أيضًا بنو جلدتنا على الصخور ذاتها، انطلقت منهم الصرخات، وتعرضوا للأخطار؛ وها هي صرخة تنطلق من فم واحدٍ من نسلهم طالبًا إنقاذهم. وها أنذا أصغي إلى هذه الصرخة دون أن أحرك ساكنًا أو أكترث، كما لو كان الألم قد تحول إلى حلم، وكما لو كانت الحياة قد استحالت إلى تراجيديا ساخرة أخاذة، أو استحالت إلى فظاظة قصوى وسذاجة لا حدَّ لها، تجعلك تحلق طائراً من مقصورتك في المسرح وتنخرط في الفعل والتنفيذ.

أما صديقي، فدون أن ينتظر مني إجابة، نهض واقفًا. فالباخرة قد أطلقت الآن صفارتها للمرة الثالثة؛ ثم مد إليَّ يده وهو يقول ساخرًا كي

(*) "برميثيوس" تيتان من المردة فى الأساطير القديمة نسب إليه خلق الإنسان من الصلصال، وصُلب على صخرة فى القوقاز لأنه سرق النار المقدسة من جبل "الأوليمبوس" ومنحها للبشر. [المترجم].

يخفي عني مشاعر تأثره: «الوداع، إذن، يا جرذ الأوراق».

كنت أعلم علم اليقين أنه من العار ألا تستطيع التحكم في مشاعر قليلة: فالدموع، والكلمات الرقيقة، والإيماءات العشوائية، ورفع الكلفة بطريقة سوقية، كانت كلها تبدو بالنسبة إليه تصرفات إنسانية لا قيمة لها ولا فائدة منها. ولذا لم يتبادل كلانا قط، رغم محبتنا الفائقة تجاه بعضنا، الحديث الودي، لا، ولم نتجاذب أطراف محادثة حميمة. إذ كنا نلهو ونلعب ويشاكس أحدنا الآخر مثل الوحوش الكاسرة. كان هو المتحضر الهادئ الرزين وأنا الهمجي البربري. كان هو المتحكم في نفسه والواثق من نفسه، الذي يستنفد بيُسر وسهولة كل مظاهر روحه ليضعها في ابتسامته، وأنا الصارم الجاد إلى درجة الصفاقة، الذي ينتهي انفجاره وتفضى ثورته إلى ضحكة غير لائقة تفتقر إلى الكياسة. وحاولت أن أستتر بدوري خلف مقولة جافة قاسية أخفي بها اضطرابي ولكنني خجلت، لا لم أخجل في الحقيقة، بل عجزت.

قبضتُ بكفي على يده وهصرتها، وأبقيتها داخل كفي، ولم أشأ أن أفلتها. فرمقني، وقد تملكته الدهشة والعجب، وقال: «عواطف! انفعالات!»؛ فجعلني قوله هذا أغالب الابتسام. ثم أجبته بعدها بقولي في هدوء: «أجل!». قال: «وما السبب؟ ألم نتحدث عن هذا؟ ألم نظل سنين عددًا حتى الآن متفقين على هذا؟ ماذا عسى أن يقول اليابانيون الذين تُعجب بهم وتحبهم؟ لقد بلغ السيل الزبَى! أين عدم الاكتراث واللامبالاة، وأين القناع الجامد الذي يغطي الوجه حين يبتسم؟ ماذا يحدث خلف القناع؟ وماذا بشأن حساباتنا؟». وأجبته من جديد: «أجل!»، إذ حاولت ما

وسعني ألا أستهل معه عبارة أخرى طويلة؛ فلم أكن واثقًا من أنني كنت قادرًا على التحكم في نبرة صوتي، أو منعه من الارتعاش.

تناهى إلى أسماعي رنين الجرس الصادر عن الباخرة، وهو يطارد الزائرين من قمرة إلى أخرى كي يهبطوا من الباخرة. كان رذاذ من المطر يتساقط، وكان الهواء يزخر بكلمات الفراق العاطفية المؤثرة، وتبادل العهود، وتبادل القبلات الطويلة، والتوجيهات العاجلة اللاهثة... كانت الأم تهرع لتحتضن وليدها، والزوجة لتعانق زوجها، والصديق ليعانق صديقه، وكأنهم كانوا سينفصلون إلى الأبد، أو كأن هذا الفراق القصير كان يذكرهم بالفراق الأكبر الدائم. وفجأةً تردد صدى رنين الجرس المصحوب بالألم والضنى فائق العذوبة، تردد صداه من مقدمة الباخرة إلى مؤخرتها، ونفذ من خلال الهواء المحيط بها، وكأنه ناقوس الموت.

وهنا مال عليَّ صديقي وقال ببطء: «اصغ إليَّ، أفلا تراودك الريب وتنتابك الشكوك؟»، فقلت له من جديد: «أجل!». فقال: «وهل تؤمن بمثل هذه الخرافات والخزعبلات؟». فأجبته بثقة لا حد لها: «لا!». قال: «آه! إذن؟». لم يكن هناك إذن؛ لم أكن أصدق هذه (الخزعبلات) بالفعل، ولكنني كنت خائفًا. ثم وضع صديقي يده اليسرى برقة على ركبتي، مثلما اعتاد أن يفعل في اللحظة القلبية الأكثر حميمية، عندما كنا نتجاذب أطراف الحديث؛ وكنت ساعتها أستحثه على اتخاذ قرار، في حين كان هو يعارض ويقاوم، وفي خاتمة المطاف كان يرضخ ثم يربت على ركبتي، وكأنه كان يقول لي: «سوف أفعل ما ترغب فيه، انطلاقًا من حبي لك.......».

ارتعش جفنا عينيه مرتين أو ثلاث مرات، ثم رمقني مرةً أخرى. لقد

فهم أنني كنت حزينًا للغاية، وانتابه التردد في استخدام أسلحتنا المحببة إلى نفسينا.. وأعني بها الضحكة، الضحكة في سخرية وتهكم... فقال: «حسنًا! هات يدك، فلو أن واحدًا منا كلينا استهدفه خطر الموت....».

بعدها توقف عن الكلام وكأنه شعر بالخجل، ثم أضاف قائلًا: «نحن اللذين سخرنا كلانا سنين عددًا من هذه الرحلات التي تنتقل فيها الأرواح، وألقينا في الحفرة ذاتها بالنباتيين والروحانيين والمتبتلين الصوفيين وكل بلازما طفيلية....».

وسألته محاولًا التكهن أو التنبؤ: «ثم ماذا إذن؟».

«هيًا بنا الآن نلعب معًا لعبة!».

قالها بتسرع لكي يتخلص من قول عبارة خطرة جعلته يرتبك. وأضاف قائلًا: «لو أن واحدًا منا كلينا واجه خطر الموت، فعليه أن يفكر بإمعان في الآخر بقوة وتركيز، بغية إخباره بما يحدث، حيثما وجد... اتفقنا؟».

تظاهر بالضحك ولكن شفتيه كانتا تبدوان وكأنهما قد تجمدتا، فلم تتحركا.

وأجبته من جديد قائلًا: «اتفقنا».

وخشي صديقي من أن يبدو عليه الارتباك والاضطراب، فأضاف على عجل: «في الحق إنني لا أعتقد في أمثال هذا التواصل الروحي الأثيري...».

فتمتمتُ قائلًا: «لا بأس، فليكن...». قال: «حسنًا إذن، فليكن! دعنا نَلهُ، اتفقنا؟».

وأجبته من جديد: «اتفقنا».

كانت هذه كلماتنا الأخيرة: تصافحنا بالأيدي وهصرناها دون أن نتكلم، وامتزجت أصابع أيدينا في لهفة واشتياق، ثم انفصلت الأيدي، وبعدها مضيت في طريقي بسرعة دون أن ألتفت خلفي وكأنني مطارد. وهممت أن ألتفت برأسي كي أرى صديقي للمرة الأخيرة، بيد أنني أحجمت عن ذلك، وكأن هاتفًا داخلي كان يأمرني: «إياك أن تلتفت! كفاك هذا!».

آه! إن نفس الإنسان ملطخة بالوحل، فظة ثائرة، لا يمكن شقها أو سبر غورها، ولها متطلبات فجة غليظة ذات طابع ريفي، وعاجزة عن التنبؤ بشيء نقي أو مؤكد؛ ولو أنها استطاعت التنبؤ فسوف يكون هذا الفِرَاق أمرًا جِدَّ مختلف!

اشتد نور النهار وامتزج الفجر بالصباح، وكنتُ آنذاك أشاهد وجه صديقي المحبوب أكثر وضوحًا وإشراقًا، ولم تكن مياه الأمطار قد زالت عن محياه، وكان حزينًا وسط هبات النسيم في الميناء. وانفتح باب المقهى الزجاجي فنفذ منه صوت هدير أمواج البحر، وولج منه إلى الداخل أحد البحارة، ساقاه منفرجتان وقصيرتان، وله شاربان مرتفعان. فانبعثت لدى قدومه أصواتٌ مبتهجة في حبور قائلة: «مرحبا بالقبطان ليمونيس!».

ضممتُ أطرافي في الركن الذي كنتُ أجلس فيه التماسًا للدفء، وحاولتُ مرةً أخرى أن أستجمع شتات نفسي، غير أن محيا صديقي كان قد ذاب بالكامل وسط المطر المدرار، وتلاشى. أما القبطان ليمونيس، فقد أخرج مسبحته وأخذ يداعب حباتها بهدوء وتثاقل، ودون أن يتكلم إلا قليلًا. وجاهدتُ نفسي حتى لا أرى ولا أسمع، بل أن أستبقي في مخيلتي على الدوام طيف (صديقي) الذي تلاشى وضاع مني. وحاولت أن أتعايش

مرةً أخرى مع الغضب الذي سيطر عليَّ آنـذاك، لا لـيس الغـضب بـل هـو الحيـاء والخجـل، عنـدما صـاح صـديقي في وجـهي ونعتـني بـأنني «جُـرذ الأوراق». عنده حق! فأنا الذي كنت أحب الحياة حبًا جمًّـا، كيـف وصـل بي الحال إلى أن أعاقر سنينَ طوالًا الحبر والأقـلام، ولا أبـغى منهـا فـكاكًا! حقًّـا لقد ساعدني صـديقي- في يـوم الفـراق ذاك- على أن أرى بوضـوح وجـلاء. ولقد انتشيتُ من البهجة والحبور حينما وقفتُ على الإسـم الدال على بـؤسي وتعاستي، فلربما كان بوسعي أن أتغلب على هذه التعاسة بسهولة. وكأنهـا لـم تعد أمرًا مـشتتًا لا جـسم له ولا يمكـن الإمـساك بـه، أو كأنهـا اتخـذتْ جسمًا وشكلًا، وأصبح من السهل عليَّ أن أشرع الآن في مصارعتها.

كانت هذه الكلمـات القاسـية المؤلمـة- الـتي فـاه بهـا صـديقي- تَـسْرِي بسكون وخفة داخلي، ومنذ ذلك الحين شرعت أبحثُ عـلَّي أعـثر على مـبرر يُسوِغ لي الإقلاعَ عن الأوراق والقلم، والانخراط في القيـام بالفعـل. فلقـد عافتْ نفسي وخجلتْ من اتخاذ العقلانية أو الروحانية شـعارًا يمـيز حيـاتي هذه المزرية، حياة القوارض والجِرْذان. ولقد سنحتْ لي الفرصـة قبـل شـهر من الآن، إذ كنت قد استأجرتُ على أحد سـواحل جزيـرة كريـت، بـالقرب من البحر الليبي، منجمَ فحمٍ حجري طويـل الأمـد، وذهبـتُ إلى كريـت كي أعيش مع الناس البسطاء، العمال والفلاحين، بعيـدًا عـن طبقـة «جِـرْذان الأوراق».

هيأتُ نفسي للرحيل، وكان الحماس والتأثر قد بلغا مـني مبلغهمـا، وكان هناك بمثابة مغزى بالغ السرية والغموض في رحلتي هذه، وكنت فيمـا بيـني وبين نفسي قد اتخذت قرارًا بتغيير مسار حياتي. وقلت لنفـسي: «والآن، يـا

نفسي، ها أنتِ ذا قد شاهدتِ الطيفَ وأشبعتِ نهمك، والآن فإني ماضٍ بكِ إلى حيث اللحم».

كنت على أهبة الاستعداد، فطوال إقامتي في الغربة، حينما كنت أبحث عن أوراقي، عثرت على مخطوطة شبه مكتملة. أخذتها من مكانها وتناولتها بيديَّ، وأخذت أقلب صفحاتها وأنا متردد. كان يستبد الآن بشغاف قلبي، منذ انصرام عامين، قلق واضطراب واشتياق بالغ، بذْرَةٌ من بوذا. كنت أشعر بهذه البذْرَة داخلي دون توقف، وهي تلتهم وتتمثل وتقيد بالوثاق؛ ظلت تنمو وتشرع في رَكل صدري كي تتسلل منه هاربة. وللآن لم يطاوعني قلبي على أن أرميها بعيدًا، أجل لم أقدر. وكان الوقت على أية حال قد غدا متأخرًا جدًا على مثل هذا الإجهاض.

ولبرهة خاطفة من الزمن، وبينما كنت أمسك المخطوطة على هذا النحو وأنا نهب التردد، أضاءت ضحكة صديقي الهواء وهي زاخرة بالسخرية الممتزجة بالرقة. فقلت بإصرار وتحدٍ: «سوف آخذها! لست أخشاها، سوف آخذها، فلا تضحك!». طويت المخطوطة بعناية، وكأنني ألف الجنين في القماط، ثم أخذتها معي.

وتناهى إلى سمعي صوت القبطان ليمونيس غليظًا أجش، فأرهفت السمع.. كان يتحدث عن غيلان أو أشباح قاموا بإمساك صواري سفينته ولعقها خلال العاصفة. وكان يقول:

«فأنت حين تمسك (بهذه الصوارى) تجدها لينة طرية زلقة، فتمتلئ يداك بألسنة اللهب؛ فقمت بدهن شاربي حتى أصبح يلمع طوال الليل مثل الشيطان. نفذت إذن مياه البحر- على حد قولكم- إلى السفينة وأغرقت

حمولة الفحم التي كنت قد شحنت السفينة بها، فغدت السفينة ثقيلةً وبدأت تهبط وتغوص، لكن الله مد لي يده، فقذف بصاعقته، فتحطم الحاجز الأرضي وامتلأ البحر بالفحم الساقط من السفينة التي غدت خفيفةً من جديد، فاعتدلت في استواء، وكُتبت لي النجاة. وانتهت القصة على ذلك!»

أخرجتُ من جيبي طبعةً رفيقة للمسافر من كتاب به نص (كوميديا) "دانتي"؛ وأشعلت غليوني، ثم استندت إلى الجدار وشعرت براحة غامرة. ولبرهة قصيرة من الزمن ألحت عليَّ رغبة جارفة: من أين أستمد أبيات شعر خالدة؟ هل أستمدها من قارِ جحيم دانتي الذي يتلظى نارًا وسعيرًا؟ أو من وهجِ مَطْهَرِهِ المنعش؟ أو أندفع مباشرة إلى السطح الشامخ لأمل الإنسان؟ فعليَّ أن أنتقي ما يحلو لي ويجد هوًى في نفسي. ذلك أن الأبيات التي كان عليَّ أن أختارها في الصباح الباكر، هي التي قُدر لها أن تنظمَ على إيقاعها نهاري بطوله.

انحنيتُ لأرى النص بتركيز شديد جدًا لعلي أتخذ قرارًا، غير أنني لم أتمكن من ذلك؛ فرفعتُ رأسي في التو والحال والقلق يعتريني. إذ شعرتُ، ولا أدري كيف، وكأن هناك ثقبين قد انفتحا في قمة رأسي، فالتفتُ من فوري ونظرتُ خلفي من خلال اللوح الزجاجي الموجود في الباب. ومضَ الأمل مثل البرق في عقلي: «سوف أرى من جديد صديقي». وكنت متأهبا لتقبل حدوث المعجزة. بيد أنني ضحكت ملء شدقيَّ: فقد كان هناك شخص مُسن في الخامسة والستين من عمره، فارع القامة، ضامر البدن، ذو عينين جاحظتين، قد ألصق وجهه بالزجاج وأخذ يحملق في شخصي،

وكان يحمل ربطة صغيرة تحت إبطه.

وكان ما ترك فيَّ انطباعًا أكثر من سواه هو عيناه الساخرتان الحزينتان القلقتان، اللتان تتوهجان بنظرات نارية؛ فهكذا بدت عيناه لي. وبمجرد أن التقت عيوننا، بدا كأنه قد غدا واثقًا من أنني الشخص الذي كان ينشده، فمد يده في عزم وتصميم وفتح باب المقهى. ثم مرق من بين الموائد بمشية سريعة مرنة، إلى أن وصل إليَّ ووقف قبالتي، وسألني: «هل أنت ذاهب في رحلة؟ إلى أين بالسلامة؟». أجبته: «إلى جزيرة كريت. لماذا تسأل؟». قال: «هل تأخذني معك؟»؛ رمقته بهدوء. كانت وجنتاه غائرتين وعظامهما بارزة، وكان شعره مجعدًا رماديًا قد وخطه الشيب، أما عيناه فكانتا تقدحان بالشرر.

وهنا قلتُ له: «لماذا؟ ماذا أفعل بك؟». فهز كتفيه ثم أردف قائلًا باحتقار: «لماذا؟ لماذا؟ أفلا يستطيع الإنسان، على أية حال، أن يقدِمَ على فعل أمر دون "لماذا" هذه؟ أفليس بوسعه أن يتصرف هكذا فحسب على سجيته؟ أجل! خذني معك وحسب! ولنقل: خذني طباخًا لك! فأنا أجيد صنع الحساء!».

فانخرطتُ في الضحك؛ فقد راقتني تصرفاته وألفاظه الصريحة الجارحة، كما راقتني إجادته لصنع الحساء. وفكرتُ فيما بيني وبين نفسي أنه سيكون من الخير لي أن أصطحب هذا الرجل الأخرق المسن إلى الساحل القصي والمهجور. فهناك سنستمتع بالحساء والضحك ونتجاذب أطراف الحديث... إذ بدا لي شخصًا كثير الأسفار، وبحارًا ذا خبرة طويلة في الحياة. لقد راقني حقًا.

وابتدرني بالسؤال، وهو يهز رأسه الضخمة: «فيمَ تفكر؟ هل تحسب على الميزان حساباتك؟ إيه؟ وهل تزنها بالدرهم؟ إيه يا هذا؟ هيا خذ القرار، ولتذهب الموازين إلى الجحيم!». انتصب واقفًا قبالتي بقامته الفارعة وعظامه البارزة، ولكني لفرط تعبي وجدتُ صعوبة في أن أرفع رأسي لأحدثه. فأغلقت كتاب «دانتي»، وقلت له: «هلاً جلستَ واحتسيتَ كأسًا من المريمية؟».

فجلس ووضع بعناية ربطته على المقعد المجاور. ثم قال باحتقار: «المريمية؟ تعال هنا، أيها الجرسون، واحضر لي كأسًا من الروم!».

أخذ يحتسي الروم رشفةً رشفة، وكان يحتفظ بالجرعة في فمه وقتًا طويلًا لكي يتلذذ بمذاقها، ثم بعدها كان يتركها تدريجيًا تنزل إلى بلعومه كي تدفئ أمعاءه. وفكرت فيما بيني وبين نفسي قائلًا إن هذا الشخص هو: «الخبير المتمرس في عشق الملذات...».

سألته: «ما العمل الذي تمارسه الآن؟». أجاب: «كل الأعمال: الأعمال التي تؤدَّى بالأقدام، وتلك التي تؤدَّى بالسواعد، وما تؤدَّى بالرأس، كلها كلها. فالعقل لم يعد الآن متاحًا لنا، فبات علينا الاختيار بينها».

فسألته مرةً أخرى: «أين تعمل، الآن مؤخرًا؟».

قال: «أعمل في منجم؛ فأنا، كما تعرف، خبير مناجم بارع: أفهم ما يتعلق بالمعادن، أعثر على عروق المعادن، وأفتح الدهاليز، وأنزل إلى الآبار، ولا أخشى شيئًا. ولقد عملت فيها جيدًا وكنت رئيسًا للعمال، ولم يكن عندي مبرر للشكوى أو التذمر؛ ولكن دعني أقُل لك إن الشيطان دس

أنفه آنذاك(*). ففي ليلة السبت الماضي كنت منشرح الصدر رائق المزاج، فقمتُ بحركة أو حركتين، فإذا بصاحب المنجم يأتي على حين غرة- ذلك اليوم- كي يراقبنا ويفتش علينا، فأوسعته ضربًا».

قلت: «ولكن لماذا؟ ماذا فعل لك؟».

قال: «فعل لي؟ لم يفعل شيئًا البتة، قلت لك! كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها هذا الشخص، فعندما حضر وزع علينا السجائر، فيا لَه من شقي نكد الطالع!».

قلت: «وماذا حدث عندئذٍ، إذن؟».

قال: «آه! تجلس وتسأل هكذا! لقد انتابتني نزوة مفاجئة، يا أخينا! أنت تطلب من رِدْفَي زوجة الطحان أن يحسنا الكتابة الصحيحة؛ غير أن رِدْفَي زوجة الطحان يمثلان عقل الإنسان».

كنتُ قد قرأت تعريفات كثيرة عن عقل الإنسان، لكن هذا التعريف بدا لي أكثرها إدهاشًا، كما أنه راق لي. تطلعت مليًا إلى رفيقي الجديد: كان وجهه مليئًا بالتجاعيد والخدوش وثقوب الحزن، وكأن رياح الشمال والأمطار قد اقتاتتْ عليه. كان هناك وجه آخر ترك فيَّ الانطباع ذاته، كان وجها مرسوماً على لوحة خشبية لشخص كادح شقي تعِس، هو وجه: «بانيت استراتي».

ثم قلت لرفيقي: «وماذا لديك في هذه الربطة؟ أطعمة؟ ملابس؟ أدوات؟». فهز رفيقي كتفيه وضحك، ثم قال: «تبدو لي حكيمًا إلى حدٍّ

(*) في النص اليوناني "لعب الشيطان بذيله: diaolos ebale t□n oura tou". وهذا هو المعنى السائد في اللغة اليونانية. [المترجم].

بعيد، كما أنك تتعاطف معي». وداعب بأصابعه الطويلة الصلبة الربطة، وقال: «لا!»، ثم أردف بقوله: «إنها آلة القانون». وصحتُ: «قانون! هل تعزف على القانون؟»؛ قال: «كلما عضني الفقر بنابه، أرتاد المقاهي وأعزف على القانون، وأغني على أية حال ألحانًا مقدونية قديمة مسروقة. وبعدها أمرُ بالطبق، أجل أمرُ بهذه القبعة، وأجمع من الرواد النقود».

سألته: «ما اسمك؟». قال: «أليكسيس زوربا، ويسمونني أيضًا: "التلغراف"، لكي يضايقوني، لأنني راهب منذ أمد بعيد جدًا، ورأسي مثل الفطيرة. غير أنهم لم يستمروا في إطلاق هذه التسمية! فهم يسمونني أحياناً: "المزعج"، لأنني ذات مرة كنت أبيع بذور القرع المحترقة. كذلك يسمونني "العفَن الفطري الطفيلي"، لأنني حيثما أذهب أثير التراب وسُحب الغبار. ولي كذلك أسماء مستعارة أخرى، ولكن في ساعة أخرى (سأقولها لك) ....».

قلت: «وكيف تعلمت العزف على القانون؟». قال: «عندما كان سني عشرين عامًا، أثناء احتفال أقيم في قريتي؛ هناك، في سفح جبل الأوليمبوس، سمعتُ لأول مرة عزف القانون، فحبست أنفاسي، ولمدة أيام ثلاثة تظاهرت بأنني أضع لقيمات أحشو بها فمي. فقال لي والدي غفر الله ذنبه وطيب ثراه: "ماذا بك يا بني؟".. فقلت له: "أريد أن أتعلم العزف على القانون!" قال: "يا بني، أفلا تخجل من نفسك؟ هل أنت غجري؟ هل ستعزف على آلات الموسيقى؟" وقلت من جديد: "أريد أن أتعلم العزف على القانون!".....».

كانت عندي حصّالة أدخر فيها قليلًا من النقود، أملًا في أن أتزوج

يومًا ما، عندما تحين الفرصة. فقد كنت آنذاك غلامًا يافعًا تسيطر عليه الشهوة، كما ترى، كنت طائشًا أرعن يفور الدم في عروقي، وكنت أرغب- أنا الغر الأحمق- في الزواج! وهكذا أعطيتُ كل ما كان عندي وما لم يكن، واشتريت به آلة القانون. أجل! هذه الآلة التي تراها هنا الآن. وسافرتُ وبصحبتي القانون، ذهبتُ إلى مدينة سالونيكي، وعثرتُ هناك على شخص تركي فائق الحماس، هو "رجيب" أفندي، مُعلم العزف على القانون. فألقيت نفسي على قدميه، فقال لي: «ماذا تريد، أيها الصبي الرومي (= اليوناني)؟» قلت: «أريد أن أتعلم العزف على القانون!» فقال: «آه! ولكي تتعلم تلقي نفسك على قدميَّ؟» قلت: «أجل، لأنه ليس عندي نقود لكي أدفع لك!» فقال: «هل لديك توق أو رغبة عارمة في العزف على القانون؟» قلت: «نعم». فرد عليَّ بقوله: «إذن، فاجلس، يا بني، أنا لا أريد أجرًا!».

مكثتُ معه عامًا وتعلمت العزف؛ طيب الله ثراه وأراح عظامه، فلابد أنه قد مات الآن. ولو أن الله يقبل في فردوسه الكلاب، فأتمنى أن يقبل أيضًا فى فردوسه "رجيب" أفندي(*). ومنذ اللحظة التي تعلمت فيها العزف على القانون أصبحت إنسانًا آخر. وعندما يستبد بي الحزن والضيق، أو عندما يعضني الفقر بنابه، أعزف على القانون فأشعر بالارتياح. وعندما أنهمك في العزف يحدثني الناس فلا أسمعهم، ولو سمعتهم لعجزت عن التحدث معهم. أنا بالفعل أريد التحدث، ولكنني أعجز".

(*) ربما يقول زوربا ذلك انطلاقاً من الكراهية التى يكنها اليونانيون بوجه عام للأتراك، لأنهم احتلوا بلادهم أربعة قرون بكاملها، وساموهم سوء العذاب حينما ثاروا طلباً لحريتهم. [المترجم].

قلت له: «ولكن لماذا، يا زوربا؟» قال: «إيه! إنه حب من طرف واحد!».

انفتح الباب، فنفذ صوت هدير البحر من جديد إلى المقهى، وارتجفت السيقان والسواعد، فلذتُ أكثر بعمق الركن الذي أجلس فيه، وأحكمتُ لف معطفي حولي، وأحسستُ بغبطة وسعادة غير متوقعة. وفكرتُ فيما بيني وبين نفسي: «إلى أين أمضي؟ إنني هنا على ما يرام. وهذه اللحظة سوف تدوم أعوامًا».

تفحصت بأنظاري الزائر الغريب الجالس قبالتي: كانت عيناه مسمرتين عليَّ، وهما عينان ضيقتان مستديرتان شديدتا السواد، وكان بياضهما ذا أوردة دقيقة حمراء. وأحسست أن هاتين العينين كانتا تخترقانني وتتفحصانني بنهم بالغ.

قلت له، بعدها: «وإذن! ماذا بعد ذلك؟». فهز زوربا مرةً ثانية كتفيه بعظامهما الناتئة، وقال: «أفلا يعتريك السأم أو الملل؟ هلا أعطيتني سيجارة؟»

أعطيته السيجارة، فأخرج من سترته حجر قَدح وفتيلًا وأشعل سيجارته؛ وكانت عيناه نصف المغمضتين تعربان عن الشكر. فقلت له: "هل تزوجتْ". قال: «أوَلستُ إنسانًا؟ أجل إنني إنسانٌ ضال يتخبط ويضل الطريق. أجل لقد وقعت بدوري حتى أنفي في الهوة التي سقط فيها مَن سبقوني. أجل لقد تزوجت، وسلكت الطريق المنحدر، وأصبحت رب أسرة، وشيدت بيتًا وأنجبت أبناء... عذاب (لا أول له ولا آخر). ولكن بارك الله في آلة القانون».

فقلت: «هل كنتَ تعـزف على القـانون في المـنزل لتـنفض عنـك غُبـار المرارة والألم؟».

قال: «إيه يا هذا! يبدو أنك لا تعزف على أية آلة موسيقية على الإطـلاق. ما هذا الهراء الذي تهذي به وتثرثـر؟ إن في المـنزل هموماً وزوجـة وأبنـاء: ماذا نأكل؟ ماذا نلبس؟ ماذا سـوف يـؤول إليـه حالنـا؟ إنـه جحـيم! وآلـة القانون تبغي قلبًا خاليًا من الهموم. فحينما تقول لي زوجـتي كلمـة لا لـزوم لها، فأي قلب تنتظر مـني أن أحظـى بـه كي أعـزف على القـانون؟ وعنـدما يشعر الأبناء بالجوع ويصدرون مواءً مثل القطاط، تنمحي لديك أيـة رغبـة في العزف، إن آلة القانون تبغي أن تعصر تفكيرك وتركزه فقـط في القـانون، فهل فهمت؟».

أدركتُ أن زوربا هو هذا الإنسان الذي كنت زمنًـا طـويلا أبحـث عنـه ولا أعثر عليه: إنه قلبٌ نابض بالحياة، وحنجرةٌ دافئة، ونَفْسٌ عظيمة بريـة على طبيعتها، لم ينقطع الحبل السُّري بعد بينها وبـين أمهـا الأرض. مـا هـو جـوهر الفـن؟ ألـيس هـو عـشق الجمـال؟ ألـيس هـو الطهـارة والعاطفـة الجامحة؟... إن هذا العامل (البسيط) قد فسر لي هذا الجوهر، وأوضـحه مـن خلال كلماته البسيطة التي تنضح بالإنسانية.

أخذت أرمق يديه هـاتين اللتـين كانتـا تقبـضان على المعـول وعلى آلـة القانون، لتعملا وتعزفـا في آنٍ، أجـل يـداه الزاخرتـان بـالبثور والنتـوءات والتشققات، والمشوهتان وتهتزان من فرط العصبية. أجل، لقد فـتح بهـاتين اليدين بكل عناية ورقة- وكأنـه يجـرد امـرأة مـن ثوبهـا- فـتح اللفافـة، وأخرج منها آلة قـانون قديمـة عريقـة، ذات أوتـار كثـيرة وذات زخـارف

نحاسية وعاجية، وذات حلية في نهايتها على شكل شُرابة عنقودية من الحرير القرمزي. وداعبت أصابعه السميكة الآلة الموسيقية كلها ببطء وبعاطفة جارفة، وكأنما كان يلاطف امرأة. ثم- من بعد ذلك- أعاد لَف آلة القانون على غرار ما نلف جسدًا محبوبًا حتى لا يصاب بالبرد.

- «هذا هو القانون!»، تمتمت شفتاه بهذه العبارة بكل حب ولهفة، ثم وضعه مرةً أخرى بعناية على المقعد حيث كان.

كان البحارة الجالسون في المقهى قد احتسوا الآن كؤوسهم، وانخرطوا في الضحكات. وربت أحدهم بلطف على كتف القبطان ليمونيس وقال: «خبرني بالحقيقة، يا قبطان ليمونيس! فإن الله هو الذى يعرف عدد الشموع التي وضعتَها في كنيسة القديس نيقولا!».

فقطب القبطان حاجبيه المماثلين للأشواك وقال: «يا هذا، إنني أقسم لكم بحق البحر، يا أبنائي، أنني حينما شاهدت أمامى خاروس(*)، لم أفكر لا في القديسة مريم العذراء ولا في القديس نيقولا! لقد استولى عليّ رعب شل حركتي، وتذكرت زوجتي آنذاك وصحت بأعلى صوتي: آه يا محبوبتي كاترينا، ليتني كنت الآن بين أحضانك في فراشك!».

انفجر البحارة مرةً أخرى في القهقهة، كما ضحك القبطان ليمونيس

(*) خاروس هو حارس العالم الآخر والموتى فى الأساطير اليونانية. وفى اللغة اليونانية القديمة كان اسمه خارون؛ وهو "المعدَّاوى" الذى ينقل الموتى- بعد موتهم- من العالم العلوى أو عالم الأحياء إلى العالم السفلى فى قاربه عبر نهر يسمى "استيكس". ولذا كانوا يضعون فى فم جثمان الميت عُملة صغيرة هى "الأوبول" (= مليم تقريبًا) – وهى عمله برونزية – كي يدفعه الميت أجراً لخارون لقاء نقله من عالم الأحياء إلى عالم الموتى. [المترجم].

بدوره. وهنا قال صديقي: «يا هذا، يا للإنسان من وحش كاسرا يقف كبير الملائكة (عزرائيل) على رأسه والسيف في يده، بيد أن عقله لا يكون معه، بل يكون هناك بعيداً، مستهدفًا أن يحظى بالشهوة في بيته! فليت هذا الوقح الصفيق يهلك!» قال هذا ثم صفق براحتيه، وصاح: «أيها النادل، هيا أحضر الطلبات للفتيان!». وكان زوربا قد انبرى لمجاملة الآخرين دون طلب منهم، وأخذ يسترق السمع ليرى رد الفعل. فالتفت حوله وتطلع إلى البحارة ثم تطلع بعدها إليّ، وسأل: «ماذا يعني (القبطان) بكلمة "هناك" التي قالها؟». ولكن المغزى وصله آنذاك فجأةً، فانتفض من فوره وقال بإعجاب: «برافو يا هذا! هؤلاء البحارة يعرفون السر. إنهم خبراء، ويعرفون السبب في أنهم يصارعون الموت ليل نهار».

هز قبضته الضخمة في الهواء، وقال: «فليكن، دع هذه الترنيمة لقس آخر؛ ودعنا نصل إلى موضوعنا، إلى بيت القصيد: هل سأمكث هنا أم سأرحل؟ اتخذ قراراً». فقلت له، وأنا أجاهد نفسي وأمنعها حتى لا أشده من يده: «زوربا، اتفقنا! سوف تأتي معي. فعندي فحم حجري في جزيرة كريت، وسوف تكون رئيسًا للعمال (في منجمي). وسوف نستلقي في المساء أنا وأنت سويًا على الرمال، فلا زوجة عندي ولا أبناء ولا حتى كلاب، وسوف نتناول الطعام ونشرب الشراب سويًا، وبعدها سوف تعزف على القانون».

قال زوربا: «لو كان عندي مزاج، هل تسمع؟ لو كان عندي مزاج، فسوف أعمل لحسابك كل ما تريد: سأكون عبدًا لك! أما آلة القانون فهي موضوعٌ آخر، إنها حيوان بري يبغي الحرية والانطلاق. آه! لو توافر عندي

المزاج فسوف أعزف وسوف أغني علاوةً على ذلك. وسوف أرقص رقصات: الزيمبيكيكو والخاصاپيكو، والپينتوزالي(*). ولكن لابد من وضع حدٍّ للمساومات! يجب أن يكون عندي مزاج. لا بد أن تكون الحسابات أمينة وواضحة، فلو أنك أجبرتني فقد خسرتني. ففي مثل هذه الأمور أنا إنسان، ولا بد أن تعرف هذا!».

قلت: «إنسان؟ ماذا تريد أن تقول؟». قال: «أجل! أنا حُر!». وهنا صحت مناديًا: «أيها النادل، احضر لنا كأسًا آخر من الروم!» وهنا وثب زوربا وقال: «بل كأسين من الروم! فسوف تشرب معي كي نقرع الكأسين معًا. فشراب المريمية لا يصاهر أبدًا شراب الروم. ولذا لابد أن تحتسي كأسك من الروم، كي تعقد معي أواصر المصاهرة».

قرعنا الكأسين معًا، وكان نور النهار قد أصبح واضحًا جليًا، حينما دوت صافرة الباخرة. وجاء عامل الزورق الذي كان قد حمل حقائبي إلى الباخرة وألقى عليَّ التحية. فنهضت واقفًا، ولمست كتف زوربا وقلت له: «هيا بنا، باسم الله!». فأضاف زوربا بهدوء قائلًا: «وباسم الشيطان أيضًا!». ثم انحنى وأخذ آلة القانون تحت إبطه، وفتح الباب وسار قبلي قبل أن أخطو خطوةً واحدة.

(*) هى أسماء رقصات يونانية مشهورة، والأخيرة منها رقصة كريتية. [المترجم].

(2)

البحر، طلاوة الخريف، الجزر التي تغتسل بالضوء، وغلالـة شـفافة مـن رذاذ المطر الخفيف الذي كان يكسو العُري الخالد لبلاد اليونـان. وفكـرت فيما بيني وبين نفسي: طوبَى للإنسان الذي واتاه الحظ قبل أن يموت، لو أنـه شد الرحال بحرًا إلى منطقة بحر إيجة!".

نِعَمٌ كثيرة يحظى بها هـذا العـالم: نـساء وفاكهـة وأفـكار، ولكـن أن يكون الوقت خريفاً رقيقًا، وأن تمخـر عبـاب هـذا البحـر وأنـت تتمـتم باسم كل جزيرة، فأعتقد أنـه لا توجـد هنـاك بهجـة ولا نعمـة يمكـن أن تستقر في قلب الإنسان وهو في الفردوس أكثر مـن هـذا. فلـيس هنـاك أي مكان آخر تنتقل فيه حقاً بسكون شديد ودِعَـة أكـثر مـن الحلـم. فالحـدود متباعدة، حتى صواري السفينة المحطمـة تنبـت الـبراعم والكـروم، وهـذا حق لا مراء فيه، فهنـا في بـلاد اليونـان فـإن المعجـزة هي زهـرة الـضرورة الأكيدة.

وعنـدما حـل وقـت الظهـيرة توقـف المطـر، وشـقت الـشمس أسـتار

السحب، وظهرت منعشة رقيقة تغسل كل شيء من جديد، وأخذت تداعب بأشعتها المياه الحبيبة والثرى الأثير إلى النفس.

كنت أقف في مقدمة الباخرة والحبور يغمرني، جراء رؤية هذه المعجزة التي تمتد حتى انطباق الأفق على البحر. أما داخل الباخرة فكان هناك: الأروام (= اليونانيون) ذوو الفطنة والذكاء، والعيون المتوقدة الضارية، والعقول التي تجيد التجارة حتى في الخردوات، ومشاجرات التافهين من السياسيين ذوي الأفق الضيق، وبيانو أوتاره مسترخية، وزوجاتٌ عقيلاتٌ حيزبوناتٌ سليطات اللسان، وإرهاق وسخط وتبرم إقليمي رتيب. وجرَّاء هذا كله قد يخطر على بالك أن تمسك بالباخرة من طرفيها ثم تغرقها في البحر بعد أن تكاد تطيح بها، كي يختفي من الوجود كل الأحياء الذين يلوثونها، من بشر وجرذانٍ وبَق، ثم من بعد ذلك ترفعها عاليًا فوق الأمواج بعد أن تصبح خالية منتعشة بعد غسلها.

ومن جديدٍ غمرتني لبرهة من الوقت حالةٌ من التعاطف والحنان، حالة من التعاطف باردة فاترة، ذات طابع بوذي، وكأنها نتاج تفكير ميتافيزيقي معقد. ولم تكن حالة تعاطف تجاه البشر، بل كانت فحسب ضد العالم بأسره ومن أجله في آن، العالم الذي يتصارع ويصرخ ويبكي ويراوده الأمل، والذي لا يرى أن كل شيء ما هو إلا أوهام العدم. إنه تعاطف من أجل الروم (= اليونانيين)، أو من أجل الباخرة، أو من أجل البحر، ومن أجل نفسي، ومن أجل استخراج الفحم الحجري، ومن أجل مخطوطة «بوذا»؛ أجل إنه تعاطفٌ من أجل كل هذه الكتل العشوائية من الظلال والنور التي تعكر صفو الهواء وتلوثه.

تطلعتُ إلى زوربا الذي صقله البحر، وهم يقبع عابسًا مكفهرًا فوق لفَّة من الحبال موضوعة على مقدمة الباخرة. كانت تنبعث منه رائحة الليمون، كما كان يرهف سمعه ليستمع إلى المسافرين وهم يتشاحنون، فريقٌ منهم يناصر الملك، وفريقٌ آخر يناصر (رئيس الوزراء) ڤينيزيلوس. وهنا هز زوربا رأسه ثم بصق، وقال متمتمًا في احتقار وازدراء: «يا لها من سياسات عفا عليها الزمن! أفلا يستحون؟». فقلت له: «ما معنى هذا؟ ماذا تعنى بقولك سياسات عفا عليها الزمن، يا زوربا؟». قال: «أجل! أعني هؤلاء جميعًا: أنصار الملكية، وأنصار الديمقراطية، وأنصار أعضاء البرلمان، والمهرجون الأفاقون».

كانت الأحداث المعاصرة بالنسبة إلى فكر زوربا قد تدهورت وتفسخت وغدت من سقط المتاع، طالما أن بوسعه بالفعل تجاوزها داخله. وبالتأكيد فإن التلغراف والباخرة والسكك الحديدية والتصرفات السائدة والوطن والدين، أمور من شأنها جميعًا أن تبدو داخله سياسات عفا عليها الزمن. فقد كانت روحه تتقدم وتنطلق أسرع بكثير من حركة الدنيا من حوله.

كانت الحبال على الصواري تصدر صفيرًا، وكانت السواحل ترقص، وكانت النساء قد غدون صفراوات مثل السفرجل. وكن قد استسلمن وتخلَّين عن كل أسلحتهن: زينتهن وتبرجهن ودبابيس شعرهن وأمشاطهن، وغدت شفاههن بيضاء باهتة، كما أصبحت أظافرهن زرقاء قاتمة. وكُن أيضًا قد توقفن عن الثرثرة والهذيان، وسقطت عنهن أجنحتهن الزائفة: شرائط شعرهن وحواجبهن المستعارة والشامات أو طوابع الحسن

وصدريات النهود؛ لذا فعندما تشاهدهن وهن على هذا النحو الذي يثير الغثيان، فإنك تحس بالاشمئزاز والإشفاق البالغين.

أما زوربا فقد امتقع وجهه واصفر لونه، ثم اخضر، وغشيت عينيه اللامعتين البراقتين سحابةٌ معتمة. ولكن فقط عند الظهيرة التمعت عيناه جذلاً، ومد يده كي يجعلني أرى دُلفينين كبيرين، كانا يتقافزان ويسبحان ويجاريان الباخرة في سرعتها. وهنا صاح زوربا في حبور: «ها هي الدلافين!».

وحينئذٍ لاحظت عيني- لأول مرة- أن الإصبع السبابة في يده اليسرى كان مبتورًا حتى منتصفه. فهتفت صائحًا: «ماذا أصاب إصبعك، يا زوربا؟». أجاب بامتعاض- ربما لأنني لم أبتهج كما ينبغي بمرأى الدلافين-: «لا شيء!». لكنني ألححت عليه في السؤال: «تُرى هل بترته ماكينة؟». قال: «ما هذه الماكينة التي تتحدث عنها، وأنت جالس هنا، يا هذا؟ أنا الذي بترته من تلقاء نفسي!». قلت: «من تلقاء نفسك؟ ولماذا؟». فأجابني وهو يهز كتفيه:

«وكيف لك أن تفهم هذا، يا رَيِّس؟ ألم أقل لك قبلاً أنني زاولت كل المهن والحرف؟ فقد تصادف ذات مرة أنني كنت أمارس حرفة الخزف، وكنت أعشق هذه المهنة لدرجة الجنون. فهل تعرف ماذا يعني أن تمسك في راحة يدك كتلة من الصلصال، وأن تصنع أو تشكل منها ما تشاء من صور؟ تبًا! فعجلة الخزاف كانت تدور وتلف مع الصلصال وكأن بها مسًا من الجن، وأنت من فوقها تقول لنفسك: "سوف أصنع من الطين هيئة آنية خزفية، أو طبق، أو قنديل، أو أشكل منه شيطانًا! وهذا يعني أنك إنسان،

وأقول هذا لك، إنها الحرية!».

وكان زوربا قد نسي أمر البحر (والدلافين)، ولم يعد اللون الأصفر الباهت يعضه بنابه، كما انقشعت السحابة القاتمة من صفحة عينيه. وسألته مرة ثانية: «وإذن! ماذا عن إصبعك؟» فقال: «آه! أجل! لقد أعاقني عن العمل في عجلة الخزاف، فلقد نفذ إلى المنتصف وأتلف التصميم. ولذا ففي ذات يوم أمسكت بالمعول....» قلت له: «ألم تشعر بالألم الممض؟». قال: «كيف بربك لم أحس بالألم؟ هل أنا جلمود صخر؟ إنني إنسان وأتألم. ولكن إصبعي أعاقني، قلت لك، وأنا أمارس عملي؛ أفلا أقطعه؟».

أَفلتْ الشمس وسكَنَ البحر قليلاً، وتناثرتْ السحب وتفرقت، وتلألأ نجمُ المساء في صفحة السماء. فتطلعتُ إلى البحر، ثم تطلعت إلى صفحة السماء، وبعدها استغرقتُ في التفكير... "هكذا إذن، أيها الإنسان: تحب وتتناول المعول وتتألم ثم تقطع (إصبعك)..." غير أنني أخفيت تأثري وما يجيش أو يختلج في أعماقي.

ثم قلت، وأنا أضحك: «آه! يا لها من طريقة رهيبة، يا زوربا! إنها أشبه بعابد زاهد شاهد ذات مرة، كما تحدثنا الأساطير، شاهد امرأة ارتكبت عملاً مخزيًا يخل بالشرف، فتناول البلطة...».

فقاطعني زوربا، وأنا أتحدث إليه، لأنه تكهن بما سوف أقول: «إنه زمنك اللعين، زمن السوء، فهذا العابد هو الذي يجب أن يبتر، ويجب أن تختفي البلاهة والحمق من الحياة! ولكن هذه النعمة (الإلهية) لم تكن مُعَوِّقة يومًا قط...».

قلت له في إصرار: «كيف؟ إنها تُعوق على الأخص في معظم الأحيان».

قال: «فيم تُعوق؟». قلت: «فلنقل: في مملكة السماوات». فرمقني زوربا من طرف عينه بسخرية، وقال: «ولكن هذا، أيها الأبله، هو مفتاح الفردوس!». قال هذا ثم رفع رأسه ورمقني بإمعان، وكأنه كان يرغب في أن يتكهن بالفكرة الكامنة داخلي عن الحيواتِ المستقبلية القادمة، وعن ممالك السماوات، وعن النساء، وعن القساوسة. بيد أنه بدا عاجزًا عن فهم أمور كثيرة، وهز بحرص بالغ رأسه التي غزاها الشعر الأشيب، ثم قال: «إن العاجزين المشلولين لا يدخلون الجنة!» ولاذ بعدها بالصمت.

استلقيتُ في قمرتي وتناولتُ كتابًا، وكان بوذا هو الذي لا يزال يظفر باهتماماتي. وقرأت كتاب «محاورة بين بوذا والراعي»، وهو كتاب كان يجعل صدري- خلال السنوات الأخيرة هذه- يزخر بالسلام والأمان. وكان الحوار يدور على النحو التالي:

الراعي: «نَضُجَ طعامي، حَلبتُ عنزاتي، بابُ كوخي مغلقٌ بالرتاج، ونارُ موقدي مشتعلة. أما أنتِ، يا سمائي، فامطري متى شئتِ!».

بوذا : «ليستْ بي حاجة بعد إلى طعامٍ وحليب؛ والرياحُ هي كوخي، ونارُ موقدي قد انطفأتْ. أما أنتِ، يا سمائي، فأمطري متى شئتِ!».

الراعي: «عندي ثيرانٌ، عندي بقراتٌ، عندي مروجٌ ورثتها عن أجدادي، وفحلٌ يعتلي بقراتي لتنجب. أما أنتِ، يا سمائي، فأمطري متى شئتِ!».

بوذا : «ليس عندي ثيرانٌ ولا بقرات، وليست عندي مروج. ليس عندي شيءٌ على الإطلاق؛ ولست أخشى شيئًا. أما أنتِ، يا

سمائي، فأمطري متى شئتِ!».

الراعي: «عندي راعيةٌ شابةٌ مطيعةٌ مخلصة، ومنذ سنواتٍ خلت حتى الآن وهي زوجتي، وأجد بهجة في مداعبتها وتلقي ملاطفاتها. أما أنتِ، يا سمائي، فأمطري متى شئتِ!».

بُوذا : «وأنا عندي نفسٌ مطيعةٌ حُرة، ومنذ سنوات خلت حتى الآن وأنا أدربها وأعلمها أن تلهو معي. أما أنتِ، يا سمائي، فأمطري متى شئتِ!».

كان هذان الصوتان يمضيان في الحديث إلى أن أخذ النوم يتسلل إلى أجفاني. وهبت الرياح من جديد، وأخذت الأمواج تلطم النوافذ الزجاجية. ووجدت رأسي تتثاقل وأنا شبه ثابت في مكاني، والدخان يتصاعد على فترات متباعدة، بينما أتأرجح بين النوم واليقظة. فالأمواج غدت عاصفةً عنيفة، والمروج غرقت، واختنقت الثيران، والبقرات والفحل. وأطاحت الرياح بسقف الكوخ، وانطفأت النيران. أما الزوجة فقد أطلقت صرخة ثم تكومت فاقدةً للحياة في وسط الوحل، وأما الراعي فقد انخرط في البكاء والعويل، وأخذ يصرخ بصوتٍ عالٍ، ولم أعد أسمع ماذا كان يقول. كان يصرخ، وكنت أستغرق في السباتِ العميق أكثر وأكثر، أنزلق وأنسل مثل السمكة في مياه البحر.

وعندما استيقظتُ من نومي كان الوقت فجرًا، وكانت الجزيرة الكبرى (كريت) تمتد على الناحية اليمنى لنا بتضاريسها الصخرية، وهي مزهوة شامخة؛ وكانت الجبال تبتسم ابتسامة واهنة تشي بالأمن والسلام أثناء إشراقة شمس الصباح. كان البحر يفور مُزبدًا حولنا بلونه الأزرق اللامع؛

وكان زوربا، الذى تدثر ببطانية سميكة بنية اللون، يرنو إلى جزيرة كريت بنهم وشغف. كان بصره يحلق من الجبل إلى السهل، ثم كان ينحسر بعدها ليتفحص الشواطئ شاطئًا شاطئًا. وكأن جميع هذه الأراضي كانت معروفة له، وكأنه الآن يشعر بالغبطة لأن يخطو فوقها ويجوس خلالها بعقله. وقفت إلى جوار زوربا ولمست كتفه، وقلت له:

«بالتأكيد ليست هذه هي المرة الأولى التي ترتحل فيها إلى جزيرة كريت، يا زوربا! فها أنت ذا ترمقها كما لو كانت محبوبتك القديمة». فبدأ زوربا يتثاءب مبديًا تبرمه وضيقه، إذ لم يكن في حالة مزاجية تسمح له بتجاذب أطراف الحديث بأي شكل من الأشكال. فقهقهت ضاحكًا ثم قلتُ:

«هل أنت متبرم من التحدث، يا زوربا؟» فأجاب: «لستُ متبرمًا، يا رَيِّس، ولكنني أجد صعوبة!».

قلتُ: «هل لديك صعوبة؟». ولم يجب عليَّ في الحال، بل أخذ ينقل بصره في بطء وتثاقل عبر سواحل البحر. كان قد نام على سطح الباخرة، وكانت قطرات ضئيلة من الماء تتساقط من شعره الرمادي الأشهب المجعد؛ وبرقتْ جميع التجاعيد الغائرة في وجنتيه وفي جبينه ورقبته حتى نهاية وجهه، حينما سقطت عليها الآن أشعة الشمس. وأخيرًا بدأت شفتاه المكتنزتان البارزتان مثل فم التيس، بدأتا تتحركان، فقال: «إنني أجد صعوبة، أن أفتح فمي كي أتكلم خلال فترة الصباح. أجل أجد صعوبة، ولك أن تتعاطف معي». قال هذا ثم توقف عن الحديث، وبعدها سمَّر حدقتي عينيه المستديرتين على جزيرة كريت.

دق الجرس معلنًا موعد تناول قهوة الصباح. وبدأ (الركاب) يخرجون متقاطرين من قمراتهم، شُعث الشعر مُغبرين غير مهندمين، ووجوههم باهتة مخضرة، وكانت النساء منهم قد عقصن شعورهن على شكل ذيول أو على شكل كعكات تهتز وتتأرجح، وكن يترنحن أثناء انتقالهن من مائدة إلى مائدة أخرى، ومنهن تفوح رائحة الدوار والكولونيا، كما كانت عيونهن قد غشيها ضباب معتم، وتعكس الذعر أو البلاهة.

كان زوربا يجلس قبالتي وهو يحتسي قهوته بابتهاج وحيوية. كان يدهن شرائح الخبز بالزبد والعسل، ثم يشرع في التهامها. انفرجت أسارير وجهه ثم استرخت قسماته، أما فمه فقد افترّ عن ابتسامة جميلة. أخذتُ أرمقه سرًا في إعجاب وهو يتخلص ببطء تدريجيًا من نعاسه وصمته، وتعود عيناه مرةً أخرى إلى التألق والبريق.

أشعل سيجارة وعبَّ منها أنفاسًا في شوق متلهف، ثم شرع ينفث دخانها الأزرق متكورًا من منخاريه غزيري الشعر. بعدها ثنى قدمه اليمنى وجلس فوقها، وبعد أن اتخذ لنفسه هذه الجلسة الشرقية أمكنه الآن أن يتكلم، فقال: «هل تسألني عما إذا كانت هذه هي المرة الأولى التي أفِد فيها إلى جزيرة كزيت؟». هكذا بدأ كلامه، وهو يغمض عينيه نصف إغماضة، وكذلك وهو يحوم ببصره من بُعد من خلال النافذة تجاه جزيرة "إبسيلوريتي" التي كانت تتوارى عن مجال الرؤية، وأردف قائلًا: «لا! ليست هذه هي المرة الأولى! ففي عام 1896 كنتُ رجلاً في مقتبل عمري. وكانت لحيتي وشعري لهما اللون الحقيقي الأسود الفاحم. وكان عدد أسناني اثنتين وثلاثين، وكنتُ عندما أصل إلى حد الثمالة من السُّكر، آكل

المزات، ثم ألتهم بعدها الطبق الذي كان يحتوي على المزات، وكـأن الـشيطان هو الذى أحضرها إليّ بالضبط خلال تلك الحقبة، فجعل جزيـرة كريـت هي مقصدي ومرامي. وكنت آنـذاك أعمـل بائعًـا جـوالاً، أتنقـل مـن قريـة إلى أخرى في إقليم مقدونيا، وكنت أبيع الخـردوات وأتقـاضى بـدلاً مـن ثمنهـا بالنقود: جُبنًا وصوفًا وزبدًا وأرانب وأذرة؛ وكنت بعد ذلك أعيـد بيـع هـذه الأشياء وأحصل منها على ربـح مـضاعف. وعنـدما كان يـدركني المـساء أو يجن عليّ الليل في أية قرية، كنت أعرف في مـنزل مَـن سـوف أبيـت ليلـتي. وكان هذا دائمًا في منزل أرملـة ذات قلـب شـديد الطيبـة، عـسى أن تـنعم بالصحة وأن تكون على ما يرام! وكان مثل هذا المنزل موجـودًا في كل قريـة. وكان عليّ بعدها أن أعطي المرأة شلَّة صـوف أو بكـرة خـيط أو مـشطًا أو منديلاً أسود، حزنًا على المأسوف عليه زوجها الراحل، ثم أضاجعها. فيـا لهـا من مضاجعة بأبخس الأثمان! آه يا له من ثمن بخـس، يـا رَيِّـس، تحـصل بـه على الحيـاة هديـة! فليجـزِ الله شـيطانك! فهـا هي جزيـرة كريـت تمـسك ببندقيتها من جديد وتصوبها إليّ!».

«وإذ ذاك قلتُ فيما بيني وبين نفسي: «حَسْبُك! كـفى هـذا! اللعنـة على قـدري وحظـي! جزيـرة كريـت هـذه لـن تـدعنا على أيـة حـال آمنـين مطمئنين!». لذا عزفتُ عن بكرات الخيط، وصرفـتُ النظـر عـن الأرامـل من النسوة، وتناولت بندقية وانضممت إلى سائر الثوار، وشـددت الرحـال إلى جزيرة كريت».

لزم زوربا الصمت. وكنا نمـر سـاعتها على شـاطئ مـنحنٍ في اسـتدارة، رماله ناعمة وهادئ، وكانت الأمواج تنفذ إليه وتمتد لتداعب أحضانه مـن

غير أن تلطمه، ولا تترك سوى قليل من الزبد فوق الرمال. كانت الغيوم قد تفرقتْ والشمس قد سطعتْ، وبدتْ كريت الآمنة وهي تشرق بابتسامة ساحرة. فاستدار زوربا تجاهي وابتدرني ساخرًا بقوله: «هل تبادر إلى ذهنك بربك، يا رَيِّس، أنني سوف أجلس الآن لأحصي لك عدد رؤوس الأتراك التي اجتثثتُها، وعدد آذان الأتراك التي وضعتها في الكحول- على غرار ما اعتاد الناس قوله في كريت- كلا! انزع هذه الفكرة من مخيلتك! فإنني أشعر بالملل والضجر وأحس بالخجل. تُرى ما كُنه هذا السعار! فالآن أتفكر وأمعن النظر بعد أن اكتسبت المزيد من المعرفة، تُرى ما كُنه هذا السعار الذي يدفعك إلى أن تمزق إنسانًا آخر أو أن تعضه، في حين أنه لم يصنع لك شيئًا؟ وما الذي يسوقك إلى أن تجدع أنفه، أو تسلب منه أذنه، أو تبقر بطنه، ثم تجأر بعدها بالصراخ طالبًا من الله أن ينزل إليك ويساعدك؟ تُرى هل تريد من الله- حسب قولك- أن يجتث مثلك تلك الأنوف والآذان، وأن يبقر مثلك البطون؟ ولكن آنذاك، كما ترى، فقد تجمد الدم في عروقي، وأنَّى لي بعقل أجِدُّ في البحث عنه! إن الأسوياء والشرفاء والعقلاء ينشدون الأمن والهدوء إبان فترة شيخوختهم، التي تسقط فيها منهم الأسنان. فعندما تكون بغير أسنان فمن السهل عليك أن تقول: "واخجلاه! يا أبنائي! لا تعضوا بأسنانكم!". غير أنه حينما تكون لك اثنتان وثلاثون سنًا، يصبح الإنسان في ريعان شبابه حيوانًا ضاريا مفترسًا يلتهم لحوم البشر!».

قال هذا ثم هز رأسه وأردف قائلًا: «أجل! إنه يلتهم الخراف والدجاج والخنازير الصغيرة، إن لم يأكل لحم أخيه الإنسان؛ كلا! إنه لا يشبع ولا

يرتوي».

استأنف حديثه وهو يسحق سيجارته في صحن فنجان القهوة: «أجل! إنه لا يشبع أبدًا! فما هو قولك بربك، أيها العالم الجهبَذ؟». ودون أن ينتظر مني إجابة على ما قال واصل كلامه: «ماذا بوسعك أن تقول إذن؟».

كان أثناء ذلك يتفحصني ويوازن رد فعلي بعينيه، ثم قال: «على حسب فهمي، فإن نبلك الأخلاقي لم يجعلك يومًا تجوع، أو تسرق، أو تزني. فماذا عساك إذن أن تعرف عن الدنيا التي فيها تحيا؟ فيا لَه من عقل (هلامى) غير صلب، ويا له من لحم لم تمسسه الشمس!..» تمتم بهذه العبارة في احتقار واضح جلي.

أما أنا فقد أحسستُ بالخزي والخجل بسبب يديَّ اللتين لم تعرفا الكد والعمل، وبسبب محياي الباهت الذي لم تلوحه أشعة الشمس، وحياتي التي لم تسطع عليها الشمس بنورها. قال زوربا هذا ثم سحب في شموخ قبضة يده الثقيلة من فوق المائدة، كما لو كان يقبض براحته على قطعة من الاسفنج إلى أن تنكمش، وقال: «فليكن! أجل فليكن! فكل ما كنت أريد أن أسأله هو شيء واحد لا سواه؛ هو أن تقلب الأوراق التي في صناديقك ليتيسر لك أن تعرف منها...».

قلت له: «ماذا (عساى أن أعرف) يا زوربا؟ هيا خبرني!»

قال: «هنا، يا رَيِّس، تحدث معجزة... معجزة غريبة (لا مثيل لها)، وإن عقلي ليصاب بالحيرة والذهول. فكل هذه الأفعال المشينة المخزية، وكل هذه السرقات والمذابح التي اقترفناها بأيدينا، نحن الثوار المتمردين، قد أدت إلى إحضار الأمير جيورجيوس (=چورچ) إلى جزيرة كريت، فيا لها من

حرية!».

ثم تفرس في محياي بعينين جاحظتين وملامحه تشي بالاندهاش. وبعدها تمتم قائلًا:

«إن هناك سرًا! أجل هناك سر كبير! فهل من أجل أن يتوصل العالم إلى الحرية لا بد من اقتراف كل هذه الجرائم الدموية، وكل هذه الفعال المهينة المخزية؟ وما هو السبب؟ فلو أنني جلست لأعدد لك الفعال المخزية والمذابح التي اقترفناها، لوقف شعر رأسك فرقاً وهلعًا. ومع ذلك فماذا كانت النتيجة؟ إنها الحرية! فبدلاً من أن يقذفنا الله بصاعقته ليحرقنا، فإنه يمنحنا الحرية! لا لستُ أفهم شيئًا!».

وتفرس في محياي كما لو كان يلتمس المساعدة، فقد كان يرى أن هذا السر قد سبب له كثيرًا من العذاب، وأنه كان عاجزًا عن أن يجد له نهاية. وهنا سألني في قلق وتلهف: «تُرى، هل تدرك مغزى هذا الكلام، يا رَيِّس؟».

وقلت لنفسي: "ما هو هذا الذي أدركه؟ وماذا عسى أن أقول له؟ أم أنه لا وجود لذلك الذي نسميه الله؟ أم أن الله يحب القتل والمذابح والأفعال المخزية؟ أم أن ما نسميه نحن مذابح وأفعالاً مخزية إنما هي أفعال ضرورية في الصراع أو الجهاد الذي يدور في العالم؟"

حاولت قدر استطاعتي أن أجد إجابة أخرى أقدمها لزوربا، فقلت له: «كيف يتسنى أن تنمو من الروث والسماد زهرة يانعة تتغذى على القذارة والدنس؟ أخبرني، يا زوربا! السماد هو الإنسان والزهرة اليانعة هي الحرية».

فهتف زوربا صائحًا وهو يهوي على المنضدة بجميع قبضته: «ولكن أين البذرة؟ فلكي تنمو زهرة أو وردة يانعة لا بد لها من بذرة، فمن الذي

ألقى مثل هذه البذرة في أحشائنا القذرة؟ ولماذا لا تطرح هذه البـذرة زهـرة تترعرع في أحضان الخير والشرف، لا زهرة تبغي الدم وتروم القذارة؟».

فهززت رأسي وقلت: «لا أدري». فقال زوربـا: «ومـن هـو الذي يـدري إذن؟». قلت: «لا أحد».

هنا صرخ زوربا في يأس بادٍ، وأخذ ينظر حـوله نظـرات شرسـة، وقـال: «فماذا أنا بصانع إذن بالبواخر وبالماكينات وبالياقات؟».

كان هناك راكبان أو ثلاثـة قـد أصـيبوا بـالدوار مـن البحـر، وصـارت حالهم سيئة، وكانوا جالسين أمام المنضدة المجـاورة وهـم يحتـسون القهـوة، غير أنهم ما لبثوا أن شعروا بالنشوة والحيويـة عنـدما استـشعروا أن هنـاك مشادة، فأرهفوا السمع. وامتعض زوربا لأنهـم يتلصـصون عليـه على هـذا النحو، فخفض نبرة صوته وقال:

«فلندع هذه الأمور تذهب إلى الشيطان. إذ عندما تخطـر هـذه الأمـور على بالي يراودني الشعور بأن أحطم كل ما أجده أمـامي، سـواء كان مقعـدًا أو مصباحًا أو حتى رأسي التي أود أن أضرب بها الجدار. ثم من بعد ذلـك مـاذا عساي أن أفهم؟ فيا لَه من عالم شريـر سيء! هـل أدفـع ثمـن مـا تحطـم، أم أذهب إلى الصيدلية ليخيطـوا لي رأسي بـالغُرز؟ مـاذا لـو كان الله موجـودًا ورآني أتهكم أو أحتقر هذه الأمـور؟ لا ريـب أنـه سـوف يطـل علـيَّ مـن عليائه في السماء وينخرط في القهقهة».

بعدها لوح بقبضته فجأةً كما لو كان يطـرد عنـه ذبابـة كانـت تـضايقه وتزعجه. ثم أردف قائلًا بعدها في لهجة يشوبها الإرهاق: «فلـيكن! إن مـا كنت أودُ قـوله لـك هـو التـالي: عنـدما وصـلت البـاخرة الملكيـة المزينـة

بالأعلام والبيارق، وأُطلِقتْ المدافع تحيةً لها، وخطا الأمير (چورچ) بقدمه إلى جزيرة كريت... هل قُدر لك أن تشاهد في حياتك على الإطلاق شعبًا قد جُن جنونه عن بكرة أبيه من السرور والفرح، لأنه رأى بأبصاره حريته؟ ألم يحدث ذلك؟ إذن، يا رئيسي التعِس، لقد وُلدتَ أعمى وستموتُ أعمى. أما أنا فلو أنني بقيت على قيد الحياة ألف عام، ولو ظلت قضمة لحم واحدة فقط حيةً في بدني، فلن أنسى أبدًا هذا المشهد الذي أبصرته بعينيَّ في ذلك اليوم المشهود. ولو كان مقدرًا على كل إنسان أن يختار لنفسه جنته في السماء- على حسب ما يشتهيه ذوقه وتتوق إليه أهواؤه، وهذا هو ما يجب أن يكون!- فإن ما شاهدته لجدير بأن يسمى فردوسًا! ولكان لزامًا عليَّ أن أقول لله: "يا إلهي! أتمنى أن تكون جنتي هي جزيرة كريت أو جزيرة مماثلة لها، زاخرة بالأعلام والبيارق، وعسى أن تستمر اللحظة التي خطا فيها الأمير (چورچ) بقدمه على ثرى جزيرة كريت خالدةً إلى أبد الآبدين... فأنا لا أشتهي شيئًا آخر سوى ذلك».

ثم لاذ زوربا مرةً أخرى بالصمت. بعدها برم شاربيه وملأ كوبًا بالماء المثلج حتى حافته وتجرعه في رشفة واحدة. وهنا قلتُ له: «ماذا حدث، يا زوربا، في جزيرة كريت؟ خبرني بربك!». فعادت الشراسة تكسو ملامح زوربا مرةً ثانية، وقال: «هل سنظل نردد الألفاظ، يا هذا؟ إنني أقول لك إن هذا العالم ما هو إلا طِلَّسم ولُغز مستغلق، وإن الإنسان ما هو إلا بهيمة كبرى من البهائم. أجل إنه بهيمة كبرى، ولكنه ربٌّ كبير أيضًا. كان هناك مقاتل ثوري لئيم شرير جاء بصحبتي من مقدونيا، اسمه "چيورچاروس"، وكانت تصدر عنه نُذر وبشارات، وكان هذا الخنزير الدنس يبكي بحرقة.

فقلت له: "لماذا تنتحب، يا "چيورچاروس"؟ لم تبكي، يا هذا؟". وهنا هطلت الدموع من عينيه مدرارًا على مآقيه، فقلت له ثانيةً: "لـمَ تبكي، أيها الخنزير؟". غير أن هذا الشخص ألقى بنفسه عليَّ وطفق يقبلني ويبكي وينشج مثل طفل رضيع. ثم مِن بعد ذلك أخرج هذا البخيل من زنار كان يلفه حول مئزره الجنيهات الذهبية، التي استولى عليها من الأتراك الذين قتلهم ومن المنازل التي سطا عليها، ثم أخذ يطوح بها في الهواء بعد أن ملأ بها قبضته عدة مرات. فهل فهمت، يا رَيِّس؟ هذا هو ما تعنيه كلمة الحرية!».

وهنا انتصبتُ واقفًا، وصعدتُ على جسر السفينة لكي يضرب الهواء النقي صفحة وجهي. وشرعتُ أفكر فيما بيني وبين نفسي في عبارة زوربا: "هذا هو ما تعنيه الحرية!"، أي: "أن تحظى برغبة عارمة، وأن تكنز جنيهات ذهبية، ثم تتغلب بغتةً على هذه الرغبة العارمة، وتبعثر كل ما تملك في الهواء!". معنى الحرية أن تحرر نفسك من الشهوات والرغبات العارمة، وأن تمتثل طائعًا لشيء آخر أكثر سموًا ورفعة.... وأردفتُ قائلًا لنفسي: "ولكن أليس هذا التصرف بدوره نوعًا من العبودية؟ أليس من العبودية أن نضحي في سبيل فكرة، أو في سبيل عِرْق، أو في سبيل الله؟ أوَلاَ يكون ما هو أسمى من ذلك أن يقف السيد بعيدًا بمسافة قصية للغاية عن أغلال عبوديتنا، ونحن نتنافر ونلعب في أرجاء ساحة فسيحة، ونموت بغير أن نجد نهاية لها، ونسمي هذا الحرية؟"

وصلنا بعد الظهيرة إلى شاطئ (جزيرتنا) الرملي. كانت رماله بيضاء ناعمة كأنها نُخلت بغربال، وكانت أشجار الدِفْلي لا تزال مزهرة، ومثلها

أشجار التين وأشجار الخروب، وعلى مبعدة منها جهة اليمين كانت هناك أكمة منخفضة رمادية اللون ليس بها أشجار؛ كانت مماثلة لوجه امرأة مضطجعة، وتحت ذقنها- بالتحديد على رقبتها- كانت تمر عروق الفحم الحجري ذات اللون الكستنائي المائل إلى السواد.

كان نسيم ما بعد توقف المطر يهب، وكانت سحب منفوشة تعبر صفحة السماء بعنف، وتضفي عذوبة وتشع ببريق أخاذ على الأرض؛ ولكن هذه السحب كانت تتصاعد نحو السماء في ثورة وغضب. كانت تارةً تغطي صفحة السماء وتحجبها، وتارةً أخرى تنزاح عنها وتكشفها؛ أما الشمس فكانت تسطع وتنير هي وأديم الأرض، كما كانت تظلم وتدلَهِم وكأنها وجه نابض بالحياة ولكنه مغطًّى بالضباب.

وقفتُ برهة على الرمال ونظرتُ مليًا، وامتدتْ العزلة القدسية أمامي بقسوتها وضراوتها وإغوائها، وكأنها صحراء شاسعة. انبعثتْ الأهزوجة البوذية الساحرة من الثرى، والتفتْ حول شغاف قلبي. فقلت لنفسي: «متى إذن، في نهاية المطاف، سوف أنجذب نحو العزلة بمفردي، دون رفيق، ليس معي سوى اليقين القدسي بأن كل شيء ما هو إلا حلم؟ متى سأنجذب بأسمالي البالية- دون رغبات أو شهوات- متى سأنجذب وأنا فرح مسرور إلى الجبل؟ متى- وأنا أرى أن جسدي ليس سوى أمراض وجرائم، شيخوخة وموت- متى سأصبح حرًا غير هياب ولا وَجِل، وحافلاً بالهناء والسرور؟ متى سوف أنجذب نحو الغابة؟ - متى؟ متى؟ متى؟".

هنا اقترب زوربا مني، وهو يضع آلة القانون تحت إبطه. وبغية إخفاء تأثري البالغ، مددت يدي تجاه وجه المرأة المضطجعة على الأرض بفعل

الطبيعة، وقلت له: «انظر! ها هو الفحم الحجري!» غير أن زوربا قطب ما بين حاجبيه ولم يجشم نفسه عناء الالتفات تجاهي، وقال: «دع ذلك إلى ساعة أخرى، يا رَيِّس، فلتتوقف الأرض أولاً، فهي الآن لا تزال تتحرك. فلتذهب إلى الشيطان. أجل! إن اللعينة المخادعة تتحرك على غرار حركة سطح السفينة. هيا بنا سريعًا إلى القرية!». قال هذا ثم حث الخطى سراعًا.

وهرع غلامان قرويان، أقدامهما حافية، ولوحت الشمس بشرتيهما مثل سائر الفلاحين، هرعا وحملا حقائبنا. وكان هناك موظف جمارك ذو عينين زرقاوين، بدين الجسم، يدخن النرجيلة في الكوخ الخشبي الذي يمثل مبنى الجمارك. فنظر إلينا شذرًا من طرف عينه، وبنظرة بطيئة متثاقلة رمق حقائبنا، ثم تحرك برهةً من مقعده وتظاهر بالوقوف، غير أنه ما لبث أن شعر بالملل والإرهاق. وببطء رفع مبسم النرجيلة، وقال بكسل وتثاقل:

«مرحبًا بكما!». واقترب مني أحد الفلاحين القرويين، وكانت عيناه السوداوان مثل حبات الزيتون تتقافزان، وقال بسخرية: «آهٍ يا لَه من يوناني قُح! إنه ملول يحس بالسأم والضجر!». فقلت له: «أفلا يفترض أن يشعر الكريتيون أيضًا بالملل؟». فأجاب الغلام الكريتي: «أجل! إنهم يسأمون... يسأمون... ولكن مع ذلك...».

وهنا قلت للغلام: «هل القرية بعيدة؟». فقال: «كلا! إنها على بعد مرمى طلقة مسدس! ها هي هناك خلف هذه البساتين في الأخدود. إنها قرية جميلة، يا رَيِّس، تحظى ببركة الله ورحمته، فهي زاخرة بثمار الخروب والخردل الأسود وزيت الزيتون والنبيذ. وهناك أيضًا على مرمى البصر، على

الرمال، تنمو ثمار القثاء والخيار وتصبح يافعة قبل سواها في أرجاء جزيرة كريت. فالريح التي تهب عليها قادمةً من بلاد العرب تساعد على نموها ونضجها. وعندما ترقد في البستان ليلاً يتناهى إلى سمعك صريرها وحفيفها: كِرْا كِرْا كِرْا كِرْا وهي تنمو وتكبر».

كان زوربا قد مضى أمامنا في المقدمة، وكان يتخبط في خطاه لأنه كان لا يزال مصابا بالدوار. فهتفت صائحًا أناديه: «تشجع، يا زوربا، لقد أوشكنا على الوصول، فلا تخف!».

كنا نسير بسرعة، وكان التراب مختلطًا بالرمال والقواقع والأصداف، وهنا وهنالك كنا نصادف كثيبًا من ملح البحر، أو أجمة من نبات الأسل العشبي، أو نبات الفربيون السام. كان الطقس شديد الحرارة والرطوبة، وكانت السحب كافةً منخفضة، والهواء ثقيلاً جاثمًا على الأنفاس.

كنا نمر على شجرة تين ضخمة، كان جذعها منقسما مثل التوأمين، وكان متشعبًا يبدأ في أن يكون مجوفًا بفعل الشيخوخة. وهنا وقف أحد الغلامين اللذين كانا يحملان الحقائب، ومد ذراعه وأشار لي إلى الشجرة المعمرة، ثم قال: «ها هي شجرة تين الهانم (= السيدة العقيلة)!». فتوقفت... ففي أرض كريت هذه، فإن لكل حجر ولكل شجرة قصتها المحزنة التي تحظى بها. ثم قلت: «شجرة الهانم؟ لماذا؟» فقال الغلام:

«على أيام جدي، يُروى أن فتاة شابة من أصل عريق أحبت فتى صغيرًا من الرعاة؛ ولكن والدها النبيل وقف في وجه هذا الحب. فظلت الفتاة تبكي وتذرف الدموع وتصرخ، وكادت تلقى حتفها. غير أن والدها الشيخ أصر على موقفه! وذات مساء اختفى العاشقان كلاهما، فظلوا يبحثون

عنهما يومًا بطوله، ثم يومين وثلاثة وأسبوعًا بطوله، ولكنهما اختفيا ولم يظهر لهما أثر! وكان الوقت صيفًا، فصارت رائحتهما لا تطاق من النتانة، فتتبعوا أثر الرائحة فوجدوهما ممددين تحت شجرة التين هذه بعد أن تعفنا، وقد احتضن (كلاهما) الآخر في حب جارف. هل فهمت ذلك؟ أجل لقد عثروا عليهما بفضل الرائحة الكريهة التي انبعثت منهما! أف! أف!». قال الغلام هذا ثم انفجر ضاحكًا.

وتناهت إلى أسماعنا الضجة الصادرة من القرية، فالكلاب كانت تشرع في النباح، والنساء كن يشرعن في الصراخ والعويل، والديكة في الصياح إيذانًا بتغير الوقت والطقس. أما الهواء، فقد بدأ يبعث برائحة العَرَقِي المنبعث من الغلايات.

«هذه هي القرية!». صاح الغلامان كلاهما، ثم طفقا يعدوان بسرعة. وعند انثناءة الكثيب الرملي تراءت لنا القرية الصغيرة جاثمة فوق الأخدود. كانت منازل القرية البيضاء المنخفضة الارتفاع، ذات الأسقف المسطحة، يلاصق بعضها البعض، وهكذا كانت- بما تزخر به من مصاريع نوافذها المفتوحة- أشبه بجماجم طليت باللون الأبيض، ثم وُسِّدت على الصخور.

دنوتُ من زوربا، ثم وجهت له تعليماتي ببطء وتؤدة قائلًا: «ضع في اعتبارك، يا زوربا، أن تتصرف كما يجب، ونحن ندلف الآن إلى القرية، فلا يجدر بنا أن ننساق إلى أي إغواء، يا زوربا! فنحن نبغي أن نبدو كأننا رجال أعمال جادين وقورين- أنا المدير وأنت رئيس عمالي. ولك أن تعرف أن الكريتيين لا يمزحون؛ فما إن يقع بصرهم عليك مرةً واحدة

حتى يكتشفوا عيبك، ويلصقوا بك اسمًا مستعارًا، وبهذا لا يكون أمامك أي مهرب؛ فتشرع في العدو مثل الكلب الذي ربطوا في ذيله وعاءً من الصفيح».

هنا قبض زوربا على شاربيه، واستغرق في تفكير عميق. ثم قال أخيرًا: «يا رَيِّس، دعني أقل لك ما يلي: لو أن هناك أرملة تعيش في هذه القرية، فلا تخف؛ فإن لم يكن هناك....». وفي تلك اللحظة ذاتها، وعند مدخل القرية، وجدنا متسولة ترتدى أسمالاً بالية وهي تعدو تجاهنا ويدها ممدودة نحونا؛ كانت المرأة الشحاذة ذات بشرة سفعتها الشمس تكسوها الدهون، وكان لها شارب صغير أسود خشن. وهتفت الشحاذة مناديةً زوربا: «أيها الإشبين (=العراب)! أيها الإشبين! هل عندك قلب ورحمة؟». فتوقف زوربا وأجابها برزانة ووقار: «أجل عندي». فقالت: «إذن فاعطني خمس دراخمات!». هنا أخرج زوربا حافظة نقود جلدية مهلهلة من صديريته، وقال لها، بعد أن افترت شفتاه الباهتتان عن ضحكة: «هاك! خذي!». ثم التفت إليَّ وقال: «أرى أن السلع هنا رخيصة جدًا! فالقلب والرحمة ثمنهما خمس دراخمات فقط». اندفعت كلاب القرية صوبنا وانقضت علينا، وكانت النسوة يتطلعن إلينا وهن متدليات من نوافذ غرفهن، أما الصبية والغلمان فكانوا يصفرون ويصيحون بنا مستهزئين ساخرين، وكان نفرٌ منهم يصرخون، ونفرٌ آخرون يطلقون أصواتًا مثل نفير السيارة، في حين كان نفرٌ آخرون يمرون علينا ويرمقوننا بعيون مفتوحة على اتساعها في جذل ونشوة.

وصلنا إلى ساحة القرية، وكان هناك جذعا شجرتين باسقتين من

أشجار الحور، وكان هذان الجذعان الغليظان قد اجتُثا، وحولهما مقاعد، وفي مواجهتهما مقهى كُتبَ على لافتته بحروف عريضة حال لونها: «مقهى وجزارة الاحتشام».

هنا سألني زوربا: «لماذا تضحك، يا رَيِّس؟». لكني لم أتمكن من الرد عليه، إذ انطلق من باب المقهى والجزارة خمسة أو ستة رجال ضخام البنية يرتدون سراويل قصيرة واسعة زرقاء قاتمة، مرفوعة عند الركبة، وزنارًا أحمر اللون. وصاحوا بصوت عالٍ: «مرحبًا أيها العرَّابون! تفضلوا لتحتسوا كأسًا من العَرَقي، الذي لا يزال ساخنًا بعد صبه من الغلاية». وبادرني زوربا بالحديث: «ما قولك، يا رَيِّس؟» ثم التفت تجاهي، وهو يغمز لي بعينه وقال: «هل لنا أن نحتسي كأسًا؟».

احتسينا العَرَقي فأضرم النيران في أحشائنا. وأحضر لنا صاحب المقهى والجزارة- وهو شيخ مُسن متثاقل الخطى بطيء الحركة- مقاعد لنجلس عليها. وسألته عن منزل نقيم فيه. فصاح شخصٌ من الحضور: «اذهبوا إلى مدام "أورتانس"». فقلت مندهشًا: «هل هي فرنسية؟». قال: «إنها تعيش في بقعة منعزلة، ولها حياة ومغامرات. ولقد تخطت عقبات وعوائق كثيرة، والآن، بعد أن غدت مُسنة، توقفت عند آخر عقبة في طريقها وفتحت فندقًا». وهنا قفز غلام وصاح: «إنها تبيع أيضًا الكاراميلَّة». وهتف شخصٌ آخر: «وتتاجر في الدقيق وألوان الطلاء؛ وتلف وشاحًا حول رقبتها، ولديها ببغاء....». وهنا سأل زوربا: «هل هي أرملة؟ أهي أرملة؟»، فلم يجبه أحد. فعاود السؤال في لهفة: «هل هي أرملة؟». فأمسك صاحب المقهى بلحيته الكثة الشهباء، وقال: «كم شعرة في لحيتي هذه، أيها العرَّاب؟ كم في

ظنك؟ إن هذه المرأة أرملة عدد من الرجال بقدر عدد شعرات لحيتي. هل أدركت الآن المغزى؟». فأجاب زوربا وهو يلعق شفتيه: «أجل! لقد أدركت المغزى فعلاً!». وهنا صاح شيخٌ مرح: «وحياتك! إن بوسعها أن تجعل منك أرمل أيضًا! ضَع هذا في اعتبارك، أيها العرَّاب!». وظهر صاحب المقهى من جديد وهو يحمل صينية عليها مأكولات طازجة: فطيرة من دقيق الشعير، جبن صاف، وثمرات من الكمثرى. ثم صاح: «يا هذا، دع الضيفين ينعمان بالهدوء! ما هذا الحديث عن السيدات والمدامات؟ إن السيدين سيبيتان الليلة في منزلي».

فقال الرجل المسن: «أنا مَن سوف يضيِّفهما، يا سيد "كوندومانوليوس"! فليس لي أولاد ومنزلي كبير، وهناك متسعٌ لهما». فهتف صاحب المقهى، وهو ينحني على أذن الرجل المسن: «هل تشفق عليَّ، يا عم "أناغنوسيتس"؟ لقد سبقتك في توجيه الدعوة إليهما». قال العم "أناغنوسيتس": «استضف أنت واحدًا منهما، وأنا سوف أستضيف الضيف الآخر المسن». فقال زوربا وعيناه تقدحان شررًا: «عن أي شخص مُسن تتحدث؟». فأومأتُ برأسي لزوربا حتى لا تثور ثائرته، وقلت: «نحن لا نفترق أبدًا عن بعضنا. سوف يذهب كلانا إلى فندق مدام "أورتانس"».

«- مرحبًا بكما! مرحبًا بكما».

كانت هذه العبارة هي التي فاهت بها امرأة أنيقة قصيرة القامة، ذات شعر أشقر كتاني حال لونه، وفوق ذقنها ثؤلول عليه شعر منتصب كشعر الخنزير، بعد أن أهلَّت علينا من تحت شجرتي الحور، وهي تتبختر في مشيتها بقدمين مقوستين، وهي فاتحة ذراعيها مرحبةً بنا. كانت المرأة

ترتدي وشاحًا من المخمل أحمر اللون حول عنقها، وكان صدغاها المتغضنان مغطيين ببودرة ذات لون بنفسجي. وكانت خصلة من شعرها تتطاير فوق جبينها بصورة لعوبة ماجنة؛ كانت على هذه الصورة أشبه ما تكون بالممثلة العجوز "سارة برنار"، وهي تلعب دور "آيتيدياس Aetideas" (= فرخ النسر).

قلت لها، ردًا على ترحيبها بنا، وأنا أنحني على يدها لأقبلها، بعد أن استخفتني نشوة مزاجية مفاجئة: «ما أطيب لقاؤك، يا مدام "أورتانس"!».

ومضت الحياة أمامي كما لو كانت أسطورة خرافية، أو كأنها إحدى كوميديات شكسبير، كأنها رائعته «العاصفة»، لو جاز لي القول. كما لو كنا قد هبطنا من الباخرة بعد أن أصابنا البلل جراء تحطم للباخرة دار في خيالنا، وشرعنا في تفقد السواحل الباهرة، وفي إزجاء التحية برزانة ووقار إلى كل الأحياء في الجزيرة. وخيل إليّ أن مدام "أورتانس" هذه هي ملكة الجزيرة، وأنها منحدرةٌ من سلالة نوع نادر من الفقمات ذوات الشوارب اللامعة، انجرف منذ آلاف السنين ووصل إلى رمال الساحل هذه، شبه مرهق وتفوح منه الأبخرة، ولكنه جِدٌّ مغتبط مسرور. وخلف هذه الفقمة كان يبدو "كاليبان(*)" وحوله حشد غفير من القطيع، برؤوس بارزة وأجسامها مغطاة بالدهن والشعر والحبور، وهو يرمقها بازدراء وكبرياء.

أما زوربا، الأمير المتنكر، فكان بدوره يرمقها بإعجاب ويحملق فيها بعينيه، وكأنها رفيقة بعيدة عنه، أو كأنها مركب شراعي عتيق خاض غمار

(*) إحدى شخصيات مسرحية "العاصفة" للكاتب المسرحى العبقرى "وليم شيكسبير" (المترجم).

الحرب في البحار القصية، وانتصر وانهزم وجُرح، وانفتحت أبوابه المسحورة، وتحطمت صواريه، وتمزقت أشرعته، وغدا الآن مليئًا بالشقوق والصدوع التي جرى سدها بالبودرة والمعجون، ثم تم سحب هذا المركب إلى هذا الساحل حيث كان ينتظر. وبالتأكيد، فإنه سوف ينتظر زوربا، القبطان الذي يحمل على جسده أربعين جرحًا. ولقد استخفني الحبور وأنا أرى هذين الممثلين (زوربا ومدام "أورتانس") في مثل هذا اللقاء العذب آخر المطاف، على خشبة مسرح هذا الموقع الكريتي الذي تم طلاؤه بطريقة غليظة فجة.

قلتُ، وأنا أنحني أمام ممثلة العشق العجوز: «سريران من فضلك، يا مدام "أورتانس"، سريران بدون بق....». فأجابتني، وهي تصوب نحوي نظرة مثيرة فاحصة متثاقلة صادرة عن شادية(*) عتيقة: «ليس هناك بقة واحدة!». وهنا هتفت أفواه "كاليبان" صائحة: «هناك! هناك!». وعاودت البطلة الممثلة الأولى الإصرار على قولها: «لا يوجد هناك بق!»؛ هتفت بهذه العبارة، وهي تدب على أحجار الأرضية بقدميها السمينتين اللتين تكسوهما جوارب سميكة زرقاء. كانت ترتدي خُفًا قديمًا باليًا عليه فيونكة جذابة من الحرير. وهنا صاح "كاليبان" مرةً أخرى وهو يقهقه: «كلَّا! فلتهلكي!».

غير أن مدام "أورتانس" كانت الآن تتقدمنا وتسير أمامنا في جلال وعظمة لترينا الطريق. وكانت تنبعث منها رائحة البودرة والصابون المعطر.

(*) يستخدم المؤلف كلمة (santeza) المشتقة من اللغة الفرنسية، وهى تعنى المغنية (chanteuse) أو "الشادية" بلغتنا الفصحى. [المترجم].

وكان زوربا يسير خلفها وهو يكاد يلتهمها بعينيه. وبعدها قال: «يا هذا، انظر إليها، إنها تجبرني على التحديق فيها بعينيَّ، فهي تمشي مثل البطة، فيا لها من فاجرة! انظر كيف تهتز! ويحي! ويحي! إنها أشبه بنعجة ذات ليَّة مكتنزة سمينة!...»

تساقطت عدة قطرات غليظة من المطر، وأظلمت صفحة السماء، وومضت بروق زرقاء فأضاءت الجبل. وكانت عدة فتيات صغيرات يقفلن عائدات مسرعات، وهن يرتدين سترات بيضاء صوفية تبرز منها شعيرات منتصبة مثل شعر الماعز؛ كن عائدات من المرعى ومعهن الماعز والأغنام حيث تبيت في المنازل. أما النسوة فكن يثرثرن ويقوقئن مثل الدجاجات أمام المدفأة بعدَ أن أشعلن نار المساء.

عض زوربا شاربيه بعصبية وهو يتفرس بنهم في ردفي مدام "أورتانس" وهما يهتزان ويترجرجان. ثم تمتم بعد برهة تنهد خلالها: «هم! هم! اللعنة على الحياة! فهذه الحياة الوضيعة لا نهاية لها!».

(3)

كان فندق مدام "أورتانس" مكونًا من صف من القمرات أو المهاجع (الكبائن)، ذات الطراز العتيق جدًا وذات الحمامات، وكانت هذه القمرات ملاصقة إحداها للأخرى. كانت القمرة الأولى عبارة عن متجر يبيع قطع الحلوى المسكرة والسجائر والفول السوداني وفتائل المصابيح والكتب التي تعلم الحروف الأبجدية والبخور. أما القمرات الأربع الأخرى التالية لها فكانت هي غرف النوم، وخلف الفناء كان يوجد المطبخ وحجرة الغسيل وقن الدجاج والأرانب. وهنا وهنالك كانت توجد أشجار بوص وأشجار إجاص شائكة وكثيفة مزروعة في الرمال الناعمة. وكان هذا المجمع بأسره معبقًا برائحة البحر وبرائحة الجبل النفاذة إلى أقصى حد. وما بين الفينة والأخرى- فقط عندما كانت مدام "أورتانس" تمر- كانت رائحة الهواء تتغير، وكأن حوض محل حلاقة ينسكب أو يسيل أمامك (فتنبعث منه هذه الرائحة).

تم إعداد الأسرة، وطلبنا شرابًا تجرعناه في جرعة واحدة. ولا أتذكر

الحلم الذي حلمت به تلك الليلة، غير أنني- عندما حل الصباح- استيقظت في خفة ونشاط، وكنت مبتهجًا مسرورًا، كما لو كنت قد خرجت لتوي من مياه البحر. وكان هذا اليوم هو يوم الأحد، وكان العمال يزمعون القدوم غدًا من القرى المجاورة كي يلتحقوا بعملهم في استخراج الفحم الحجري. وبناءً على ذلك، كانت لديَّ فسحة من الوقت لأقوم بنزهة أشاهد فيها الساحل الذي قذف بي القدر فوقه. وعندما بزغ ضوء النهار عقب الفجر، قفزت من فراشي وانطلقت إلى الخارج، ومررت عبر الحدائق والبساتين، وقمت بجولة جُبت فيها الساحل وعمقت خبرتي على عجلٍ بالمياه والتربة والهواء الذي يهب على المنطقة، كما قطفت أعشابًا برية ذات رائحة عطرة، فأصبحت كفي تتضوع برائحة طيبة هي مزيج من نبات المريمية ونعناع الماء.

ثم ارتقيت تَلاً وطفقت أتطلع من فوقه لما حولي. كان ما يحيط بي عبارة عن مكان وعر جَهم من الصخور الصلبة أو الجلاميد، ومن الأشجار القاتمة اللون والتربة الجيرية البيضاء، التي بوسعك أن تقول عنها إنه ما من مِعول استطاع قَط أن يخدشها، ولكن- على حين غرة- تمكنت زهرات زنبق صفراء رقيقة من النفاذ خلال هذه القشرة الصلدة من الأرض، ومن التألق في ضوء الشمس. وعلى مبعدة من هذه البقعة، تجاه الجنوب، كانت تتألق جزيرة رملية صغيرة منخفضة السطح، تبرق مثل الوردة، ويتحول لونها- وهي في عذريتها الفائقة- إلى اللون الأحمر القاني عندما تسطع عليها بواكير أشعة الشمس.

وعلى مسافة قليلة في اتجاه الداخل من الساحل الدائرى كان ثمة

أشجار الزيتون والخروب والتين، وقليل من كرمات العنب. أما في البرك والأخاديد المحجوبة عن الريح الواقعة بين التلَّين، فكانت هناك أشجار الليمون والبشملة، وعلى مقربة من الساحل كانت بساتين البطيخ والشمام. ولساعاتٍ كثيرة شعرت بالجذل والحبور من ارتفاع روابي الأرض وعلوها بعد انبساطها: إذ كانت هناك نطاقات متتالية من الصخور الصلبة، وأشجار الخروب البنية الداكنة، وأشجار الزيتون ذات الأوراق الفضية، وكأن ما هو ممتد أمامك هو إهابُ (= جلد) نمر متموج بخطوط عرضية. وهنالك باتجاه الجنوب كان البحر- الذي ما يزال غاضبًا- يهدر ويفور دون جدوى. كان البحر شاسعًا وممتدًا مثل الصحراء، ويصل حتى منطقة "بارباريا"، وكان البحر يزمجر ويندفع بقوة ويلتهم (سواحل) جزيرة كريت.

كان هذا المكان الكريتي مماثلاً- فيما بدا لي- للنثر الجيد: صياغته محبوكة، موجز في كلمات قليلة، متحرر من الثراء اللفظي والطنطنة التي لا ضرورة لها، قوي ومتماسك. كما أن صياغته لجوهر الأشياء تتم بأيسر الوسائل؛ ليس به تلاعب ولا حذلقة، ولا يميل لاستخدام حيل بعينها ولا يلجأ إلى البلاغة والمحسنات البديعية، إنه يقول ما يريد قوله بصلابة رجولية. ولكن وسط خطوطه هذه الصلبة القاسية يمكنك أن تلاحظ- في خضم هذا الموقع الكريتي- اللطف والوداعة والرقة غير المتوقعة: ففي الأخاديد والتجاويف المحجوبة عن الرياح، كان يتضوع أريج أشجار الليمون والبرتقال، وعلى مبعدة من البحر الممتد الشاسع كانت تنثال أشعار لا ينضب لها معين.

«إنها كريت»، تمتمت هامسًا، «أجل! إنها كريت». خفق قلبي وتواثب

بين جوانحي. هبطت من التل، وسرت في طريقي على الساحل بخطى حثيثة. وظهرت فتيات من القرية وهن يقوقئن مثل الدجاجات، بمناديلهن البيضاء كالثلج، وبأحذيتهن الريفية الصفراء، وبتنوراتهن القصيرة، حيث أخذن فى التوافد هنالك إلى الدير الواقع على ساحل البحر لكي يقمن بأداء عملهن.

هنا توقفت عن السير، وحالما رمقتني الفتيات بعيونهن، توقفن عن الضحك. إذ أن محياهن، من قمة أجسادهن إلى صدورهن كان قد أقام سداً حصيناً، كما أن أصابعهن كانت قد تقلصت بعصبية جراء إحكام قبضاتهن بشدة. وتدفقت الدماء داخل أجسامهن بكل قوتها وهي تفور غاضبة مزمجرة. فلقد شهدت جميع هذه السواحل الكريتية- إبان عصور البربرية- قرونًا كثيرة من هجوم القراصنة، وخطفهم وسلبهم للأغنام والنساء والأطفال، وتقييدهم لهم بالسلاسل والقيود الحمراء، وقذفهم في الأقفاص الحديدية، ثم إبحارهم بهم كي يبيعوهم بوصفهم عبيداً في الجزائر والإسكندرية وبيروت. لقد ظل هذا الساحل قرونًا كثيرة يردد أصداء الصرخات، وتتبعثر على أرجائه ضفائر (النساء). أخذت أرنو إلى الفتيات وهن يقتربن من بعضهن ويتلاصقن، إحداهن مع الأخرى، والشراسة منطبعة على ملامحهن، وكأنهن يُردن أن يصنعن سدًا لا يمكن النفاذ منه، أو كأنهن يحاولن أن يُقمن حصناً يائسًا. كانت حركاتهن واثقة وضرورية، مثلما كانت حركات نظيراتهن قبل قرون، وها هن اليوم يكررن دون سبب مُلح محاولة الأمس التي كانت نتاجًا للضرورة القاهرة.

ولكن عندما كانت الفتيات يسرن قبالتي، أخذت أمشي الهوينى

بهذوء وأبتسم لهن. وفي التو- كما لو كُن قد أحسسن على حين غرة أن الخطر الآن قد زال عنهن منذ قرون مضت، أو كما لو كُن استيقظن فجأةً ووجدن أنفسهن في هذه الحقبة الزمنية الآنية التي تتصف بالأمن والأمان- انفرجت أساريرهن وملامح وجوههن وتباعد تقاربهن المتلاصق، ووجهن إليَّ جميعهن تحية الصباح بأصوات متغرغرة، واشرأبت أعناقهن وشعت ببريق أخاذ. وفي اللحظة ذاتها دقت أجراس الدير البعيد دقات بهيجة متراقصة، فغمرت الجو بالحبور والسعادة.

كانتْ الشمس قد ارتفعت في كبد السماء التي كانت صفحتها بالغة النقاء. شققتُ طريقي عبر الصخور، وانحشرتُ مثل طائر النورس في تجويف صخري منها، وشرعت أرنو في سعادة إلى البحر. وشعرت أن جسدي قوي ومنتعش وطيع مرن، وأن عقلي- وأنا أتابع حركة الأمواج- قد غدا بدوره موجةً، وأنه غدا خاضعًا بلا أدنى مقاومة لإيقاع البحر الراقص.

ولكن شيئًا فشيئًا، بدأ قلبي يغدو شرسا متوحشًا، إذ كانت وَتيرة أصوات مدلهمة مظلمة تتصاعد من شغاف قلبي، وعرفت منها مَن الذي كان يصيح داخلي؛ ففي خلال لحظة خلوت فيها إلى نفسي، حينما كنت بمفردي، كان هناك صياح داخلي يجأر بالصراخ، بعد أن غدا مكبلاً برغبات لا سبيل إلى الحد منها، وبإثارة وحشية وبآمال غير متوازنة، وكأنه كان يتوقع مني الخلاص.

فتحتُ على عجل كتابي اليدوي عن «دانتي»، كي لا أسمع هذا الصوت، وكي أستعيذ من هذا الشيطان المخيف القابع داخلي، الذي يغمر نفسي

بالحزن والبأس. أخذت أقلب صفحات كتاب دانتي، وأخذت أقـرأ بطريقـة مشتتة أبياتاً مفردة أو ثلاثيات، وكنت أتـذكر مـن خلالهـا الأنـشودة. وكان الذيـن ينـالون عقـابهم في الجحـيم يتـصاعدون مـن صـفحات الكتـاب المتأججـة بالنـار، وهـم يجـأرون بالـصراخ، كمـا كانـت الأرواح العظيمـة الموجودة على مبعدة منهم تقاتل بـضراوة كي تـرتقي جـبلاً شـاهق الارتفـاع. ومِن فوقهم بقليـل، كانـت أرواح المبـاركين الـسعداء تتـنزه في بـروج مـن الزمرد، وكأنها يراعات ذات ضوء مبهر. كنت أصعد مبـنى القَـدَر الرهيـب ذا الطوابق الثلاث ثم أهبط منه، وكنـت أتجـول بـسلاسة في "الجحـيم" وفي "المَطْهَر" وفي "الفردوس"، وكأن هـذا المبـنى هـو مـنزلي. كنـتُ أيـضًا أتـألم وأتوقع وأبتهج، وأنا أجوس فوق الأبيات التي تشي بالفأل الحسن.

ثم أغلقتُ كتاب دانتي وشرعتُ أتطلعُ إلى البحـر مِـن بُعـد. كان هنـاك نورس قد لمس الموجة ببطنه، وأطال أمد اسـتمتاع جـسمه بالمتعـة الكـبرى ذات الانتعاش الفائق. كما كان هناك غلام حـافي القـدمين، لوحـتْ أشـعة الشمس محياه، ظهرَ أمامي على الساحل وهو يغـني سرينـادات غزليـة، وبـدا لي أن هذا الغلام كان يدرك ويعي آلام العـشاق، وذلـك لأن صـوته كان قـد بدأ بالفعل يخشَوْشِن مثل الرجال.

ولأعوام كثيرة طوال قرون مضت، كانـت هـذه الأغاني وأمثالهـا يتغـنى بها الناس في أوطانهم، مثلما كانـوا يتغنـون بأبيـات دانـتي. ومثلمـا كانـت الأغنية الغزليـة تُعـد الغـلام مـسبقًا للعـشق، فـإن الأبيـات الفلورنـسية المتأججة كانـت تُعـد بالمثـل الـشبان الإيطـاليين لخـوض النـضال القـوي للتحرر والخلاص. وشيئًا فشيئًا كانوا يـتزودون بـروح الـشاعر ويـستبدلون

بالعبودية الحرية.

سمعت ضحكة تجلجل خلفي، فانتزعتني الضحكة على حين غرة من قراءتي لإحدى فقرات دانتي، والتفت فإذا بي أرى زوربا واقفًا خلفي ووجهه بأسره طافح بالبشر والسرور. وهتف من فوره: «ماذا بك، يا رَيِّس؟ ساعات وأنا أبحث عنك، ولكن أنَّى لي أن أكتشف مكانك!». وعندما رآني صامتًا لا تَند عني حركة، صاح: «لقد مضى وقت الظهيرة، والدجاجة قد نضجت، وستصبح هذه الدجاجة المسكينة عجينة مهروسة! هل فهمت؟».

قلت: «أجل فهمت!، ولكنني لستَ جائعًا». قال زوربا، وهو يضرب يديه على جنبيه: «لستَ جائعًا! لكنك منذ الصباح لم تأكل شيئًا، إن الجسم له روح أيضًا، فاشفق على نفسك، يا رَيّس، هيا قدم (لجسمك) ما يأكله، فهذا هو بالفعل ما يفعله حمارنا: إن لم تطعمه فسوف يتخلى عنك في منتصف الطريق».

كنتُ منذ سنوات خَلتْ أزدري نِعَم الجسد وعطاياه هذه، ولو كان الأمر باختياري لتناولت طعامي سِرًّا أو خِلسة، وكأنني أرتكب فعلة مخجلة، بيد أنني الآن- حتى لا يصيح زوربا في وجهي غاضبًا- قلت: «حسنًا! ها أنذا قادم معك». انطلقنا إلى القرية، وكانت الساعات التي مرت عليَّ وأنا بين الصخور كأنها ساعات عشق انقضت بسرعة البرق. فحتى الآن لا أزال أحس كأن أنفاس فلورنسه اللافحة تغمر كياني. وسألني زوربا بنوع من الشك والاسترابة: «هل كنت تفكر بإمعان في الفحم الحجري؟» فأجبته ضاحكًا: «آه! وهل هناك شيء آخر أفكر فيه؟ سنبدأ

العمل غدًا، وعليَّ أن أقوم بحساباتي». فنظر إليَّ زوربا من طرف عينه ولاذ بالصمت. كنت أدرك مرةً أخرى أنه كان يحاول أن يقترب مني، كما أنه لم يكن يعرف حتى الآن: هل يثق بي أم لا يثق بي؟

ثم ابتدرني مرةً أخرى بالسؤال، وهو يحاول سبر أغواري بحصافة: «وإلى ماذا توصلت؟». فقلت: «الموضوع هو كيف ينبغي علينا، بعد ثلاثة أشهر، أن نستخرج عشرة أطنان من الفحم يوميًا، كي نواجه ما هو مطلوب من نفقات». فرمقني زوربا من جديد، بيد أنه بدا الآن قلقًا، ثم قال بعد برهة قليلة:

«ولماذا إذن ذهبتَ إلى البحر؟ هل لكي تقومَ بحساباتك؟ سامحني، يا رَيِّس، لأنني أسألك، ولكنني لا أفهم. ففيما يتعلق بي شخصيًا، حينما يجري التعامل معي بالأرقام أتمنى لو أنني غصتُ في حفرة في باطن الأرض، وأتمنى لو كُفّ بصري حتى لا أرى شيئًا. كما أتمنى لو رفعتُ عينيَّ لأرى البحر أو لأشاهد شجرة أو امرأة، حتى لو كانت امرأة عجوزًا، يا هذا ! فلتذهب الحسابات إلى الشيطان! فالأرقام لها أجنحة، عليها اللعنة، أجل لها أجنحة وبها تطير!».

فقلت بقصد مضايقته وممازحته: «لماذا، يا زوربا؟ لا ريب أنك أنت السبب، لأنك لا تحظى بالجلَد والقوة لكي تستحضر ذهنك وعقلك». فقال زوربا: «وهل أعرف ذلك، يا رَيِّس؟ أنَّى لي أن أعرف هذا مثلما فَهِمْتَه أنت؟ هناك أمور بعينها لا يدرك كنهها حتى (النبي) سليمان الحكيم نفسه... أجل! فذات يوم كنت أمر على قرية صغيرة، فوجدت رجلا قعيدًا طاعنًا في السن، بلغ من العمر تسعين عامًا، يزرع شجرة لوز، فقلتُ له:

"أيها الجد، هل تزرع شجرة لوز؟" فقال الرجل المسن: "إنني، يا ولدي، أمارس العمل وكأنني خالدٌ لا أموت!"؛ فأجبته أنا بقولي: "أما أنا فأمارس العمل كما لو كنت سألقى حتفي كل لحظة!". فمَن منا نحن الاثنين على حق في رأيه، يا رَيِّس؟».

ثم قال زوربا، وهو يرمقني، وعلى وجهه ترتسم أمارات الفوز: «في هذه المسألة أنا بحاجة إليك! فتكلم». غير أنني لذتُ بالصمت. فالطرق التي تصعد بنا والطرق التي تكسبنا البسالة والرجولة متماثلة، وبوسعها، هذه وتلك، أن تحملنا إلى القمة. وسواء عملتَ وكأنه لا يوجد موت، أو عملت وأنت تضع في ذهنك الموت في كل لحظة، فالأمر واحدٌ على الأرجح أو لعله سيان. غير أنه حينما سألني زوربا آنذاك لم أكن أعرف الإجابة.

هنا سألني زوربا ممازحًا وساخرًا: «وماذا بعد؟ إياك أن تحزن أو تبتئس، يا رَيِّس، فإنك لن تجد حداً أو نهاية للحزن. وبكلمات أخرى، هيا يا فتيان! أما أنا فإنني أفكر بعمق في هذه الساعة في الطعام، أفكر في الدجاج والأرز المطهي المغطى بالقرفة على قمته؛ وعقلي كله يفوح منه البخار مثل هذا الأرز المطهي. فدعنا نأكل أولاً، دعنا نملأ البطون ونجرع الشراب أولاً، وبعدها فلننظر ولنتأمل. رويدًا.. رويدًا، فكل شيء يأتي في دوره. فالآن أمامَنا الأرز المطهي؛ وبالتالي فعقلنا الآن لا يفكر إلا في الأرز. وغدًا سيكون أمامنا الفحم الحجري، ولن يفكر عقلنا إلا في الفحم الحجري. أنا لا أحب أنصاف الحلول أو أنصاف الأعمال. هل فهمت؟».

ذهبنا إلى القرية، وكانت النسوة يجلسن على عتبات منازلهن، يثرثرن ويتجاذبن أطراف الحديث، أما المسنون من الرجال فكانوا يتوكأون على

عصيهم ويلوذون بالصمت. وتحت شجرة رمان قطوفها دانية كانت امرأة عجوز، متغضنة الوجه من كثرة التجاعيد، تنظف رأس حفيدها الصغير من القمل. وخارج المقهى، كان يقف رجل مُسن ذو جسم قويم؛ كان يضع غطاءً على عينه، وملامحه محددة مركزة، وأنفه مثل النسر، وملامحه تشي بالنُبل. كان هذا الرجل المسن هو "مافراندونيس" الذي كان قد أجر لنا منجم الفحم الحجري. وكان قد مر أمس على فندق مدام "أورتانس" كي يأخذنا معه إلى منزله، فابتدرنا بقوله:

«إنه لعارٌ ما بعده عار أن تقيما في الخان (= الفندق)، وكأنه لا يوجد أناس في القرية». كان الرجل رزينًا دقيقًا في كلامه وحازمًا، كما كان سيدًا بمعنى الكلمة. رفضنا دعوته بكياسة، فتضايق وتكدر، ولكنه لم يُلح أو يلحف؛ بل قال وهو ينصرف: «لقد أديت واجبي نحوكما، على أية حال!». وبعد فترة من الزمن أرسل إلينا قُرصين من الجبن، وسلة من الرمان، وجرة من الزبيب والتين الجاف، وقنينة من الراكي (= العَرَقي). وقال العامل وهو ينزل الأحمال من فوق الحمار: «تفضلا مع تحيات الكابتن "مافراندونيس"؛ هدية قليلة مع حب كثير!». أرسلنا التحيات لكبير القرية بكلمات كثيرة صادرة من القلب. فقال العامل وهو يضع كفه على صدره: «أتمنى أن تنعما بالعمر المديد!». ولم يتكلم كلمة واحدة بعد أن نطق بهذه العبارة، فتمتم زوربا هامسًا: «إنه لا يحب الكلام الكثير؛ فيا لَه من إنسان قاس متجهم!». فقلت أنا: «إنه شخص شامخ معتد بنفسه، ويروق لي». فقال زوربا ولعابه يسيل، ومنخاراه يكادان يرقصان من الحبور: «كفانا كلامًا وهيا بنا (إلى الطعام)!». تطلعت إلينا مدام "أورتانس" بنظرة فاحصة وهي

واقفة على عتبة الباب، وندت عنها صيحة حبور وجذل، ثم دلفت إلى الداخل.

قام زوربا بإعداد المائدة، ووضعها في الردهة تحت تعريشة الكروم التي تساقطت أوراقها. وبدأ بتقطيع أرغفة الخبز الكبيرة إلى قطع أو شرائح يسهل تناولها، وأحضر النبيذ، ووضع الأطباق وبجوارها الملاعق والشوك. ثم التفت نحوي ورمقني بخبث ثم أشار إلى المائدة: كان قد وضع عليها ثلاثة أطقم (كي يجلس إليها ثلاثة أشخاص)، ثم قال: «هل فهمتَ، يا رَيِّس، لقد انطلقت الصافرة في أذني». فأجبت قائلًا: «أجل فهمتُ! فهمتُ! فهمتُ، أيها المسن الفاسق!». فقال زوربا وهو يلعق شفتيه: «إن الدجاجة العجوز ما تزال محتفظة بدسمها وبهريزها؛ لقد واتتني فكرة».

أخذ زوربا يذرع الدهليز جيئةً وذهابًا وهو في أوج نشاطه وحيويته؛ كان هناك بريق يشع من عينيه، وكان يدندن بصوت خافت بأغانٍ قديمة (أمان.. أمان). ثم بعد ذلك قال: «هذا، يا رَيِّس، هو معنى الحياة؛ أجل! الحياة والدجاجة. انظر! ها أنذا الآن في أوج نشاطي، وكأنني سأموت هذه اللحظة؛ وأنا في عجلة من أمري حتى لا أقرقر مثل الدجاجة قبل أن أنعم بالتهامها». وهنا تدخلت مدام "أورتانس" قائلة: «أرى أنكما تجشمتما المشقة في إعداد المائدة!». قالت هذا ثم حملت إناء الطبخ وجاءت لكي تضعه قبالتنا. غير أن فمها ظل مفتوحًا من الدهشة؛ وكانت عيناها قد لمحت أطقم المائدة الثلاثة، فاحمرت وجنتاها من فرط السرور، ثم نظرت إلى زوربا فتراقصت حدقات عينيها الزرقاوين وزاغ منها البصر.

همس زوربا في أذني بصوت خافت: «إن سروالها يتأجج بالنار». وبعد

برهة قصيرة التفت زوربا نحو المدام وقد اكتسى محياه بنبل فائق وكياسة، ثم قال: «يا حورية البحر ذات الجمال الفائق، لقد تحطمت سفينتنا، وقذف بنا البحر إلى مملكتك؛ فهلا قبلتِ مشكورة، يا حورية الماء، أن تتناولي معنا الطعام؟». هنا فتحت الشادية العجوز حضنها العريض على مصراعيه، وكأنها أرادت أن تأخذنا كلينا في أحضانها. في البداية تمايلت وتأرجحت من النشوة، ثم لمست بشغف أطراف جسم زوربا، وصنعت الشيء ذاته معي أيضًا، ثم بعد ذلك هرعت مسرعة نحو قمرتها وهي تغرغر وتقرقر من السعادة. وبعد انقضاء برهة قصيرة عادت أدراجها وهي تتهادى وتتبختر، بعد أن تزينت بكامل زينتها: كانت ترتدي ثوبًا من القطيفة الخضراء ذا طراز عتيق، بَلِيَ وانسلت خيوطه من كثرة الاستعمال، ومحلى بشرائط صفراء بالية؛ أما صدرها فقد ظل مفتوحًا ومُرَحِباً بسخاء: وكانت قد ثبتت في "البروش" الذي يزينه وردة متوهجة مصنوعة من نسيج الثوب ذاته. وكانت تمسك في يدها القفص الذي وُضع فيه الببغاء، ثم علقته أمامها على تعريشة الكروم.

أفسحنا لها مكانًا فجلست بيننا، فكان زوربا إلى يمينها وأنا إلى يسارها. وانكببنا نحن الثلاثة بوجوهنا على الطعام، ومر وقت دون أن ينبس أحدنا ببنت شفة؛ إذ كنا نطعم على قدم وساق بطوننا الجائعة، ثم احتسينا النبيذ، وسرعان ما غدا الطعام في معداتنا دمًا؛ ثبتت أمعاؤنا وابتلت عروقنا، وغدا العالم جميلاً بجلوس المرأة ملاصقة لنا، وهي تبدو ما بين الفينة والأخرى أصغر سنًا، إذ اختفت التجاعيد من صفحة وجهها. أما الببغاء- في قفصه المعلق قبالتنا- فكان أخضر اللون ذا صدر أصفر، وكان

يحني رأسه ويتطلع إلينا، وكان يبدو لنا تارةً كأنه إنسان مسحور دقيق الحجم، وتارةً أخرى كأنه روح المرأة العجوز الشادية بزينتها الخضراء والصفراء ذاتها. ومن تعريشة الكروم التي سقطت أوراقها، والتي كانت ترتفع فوق رؤوسنا، سقط على حين غرة عنقود كبير من العنب الأسود.

عقد زوربا عندئذٍ يديه على صدره، كما لو كان يحتضن الدنيا بأسرها، وصاح وقد ألجمته الدهشة: «إيه يا هذا، ما هذا بربك؟ إنك تحتسي كأسًا من النبيذ، فينقلب العالم أمامك رأسًا على عقب. إيها صاحِ ! ما هي الحياة، يا رَيِّس؟ قل لي بربك هل هذا الذي يتعلق فوق رؤوسنا عنَب أم أنه ملائكة؟ حيث إنني لا أفرق بين الأمرين. أم أنه ما مِن شيء أمامنا بتاتًا، ولا وجود لشيء مطلقًا: لا دجاجة، ولا حورية بحر، ولا حتى جزيرة كريت؟ تكلم، يا رَيِّس، تكلم حتى لا يصيبني الجنون!».

كان زوربا منبسط المزاج، وبلغت به النشوة أقصاها؛ فبعد أن فرغ من التهام الدجاجة أخذ يتفرس في مدام "أورتانس" بنهم بالغ. كانت عيناه تقتحمانها وتنقضان عليها صعودًا وهبوطًا، وكانتا تنفذان إلى صدرها المتفجر وتتسمران فوقه، وكأنهما تتحسسانه مثلما تفعل اليدان. وكانت عينا السيدة الجالسة بيننا تلتمعان، إذ كانت شغوفة بالنبيذ، وكانت تحاول جاهدةً أن تبدو متماسكةً إلى حدٍّ ما. وكان شيطان الكَرْمَةِ الطائش المخزي قد جعل المرأة ترتد في العمر إلى شبابها القديم، فأصبحت رقيقة من جديد، ذات صدر مكشوف وقلب مفتوح، فنهضت واقفةً وأحكمت رتاج الباب الخارجي، كي لا يشاهدها أحدٌ من أهل القرية- أو يراها شخصٌ ملتصص جِلْف منهم، على حد قولها- ثم أشعلت سيجارة، وبدأ

أنفها الفرنسي الصغير الشامخ ينفث دخانها في شكل حلقات.

أثناء تلك اللحظات كانت جميع الأبواب الموصلة إلى المرأة مفتوحةً على مصاريعها، وكان حراس الفندق يغطون في النوم، وبدا أن الكلام المعسول هو الذي ستكون له السيادة واليد العليا، مثل الذهب أو مثل العشق. لذا أشعلتُ غليوني وتفوهت بالكلام المعسول:

«إنك، يا مدام "أورتانس"، تذكريني- متعك الله بالصحة والسعادة- بسارة برنار... عندما كانت في شبابها. فلم أكن أتوقع قط أن يقع بصري على مثل هذه الأناقة، أو مثل هذه الفتنة، أو مثل هذا النبل والكرم، أو مثل هذا الجمال، في هذا المكان الجاف الموحش. فأي شكسبير ذلك الذي بعث بك إلى هنا بين أكلة لحوم البشر؟». فقالت المدام، وهي تفتح عينيها الصغيرتين اللتين حال لونهما، على اتساعهما:

«شكسبير؟ مَن هو شكسبير؟».

وهنا حلَّق عقلها بعيداً ليفتش عن المسارح التي شاهدتها في صباها، فقام بجولة في مقهى سادان، ومن باريس انتقل إلى بيروت، ومن هناك انتقل شيئًا فشيئًا إلى الشرق؛ وفجأةً تذكرتْ أنها شاهدت في مدينة الإسكندرية صالة رحبة كبيرة تنيرها ثريات، ومقاعد وثيرة من القطيفة، وبها حشد من الرجال والنساء ذوات الظهور العارية والعطور الزكية والزهور، وفجأةً ارتفع الستار وظهر على المسرح رجل عربي مخيف....

فقالت من جديد، وهي مبتهجة لأنها تذكرت أخيرا: «مَن هو شكسبير؟ هل هو هذا الذي يُسمونه أيضًا عطيل؟» فقلت: «أجل! إنه هو. فأي شكسبير ذلك الذي قذف بك، يا سيدتي، إلى هذا الساحل الموحش؟».

فنظرت حولها؛ كانت الأبواب لا تزال موصدة، وكان الببغاء يغط في نومه، وكانت الأرانب تمارس العشق، وكنا وحدنا تمامًا. فبدأت المرأة تفتح لنا قلبها، مثلما نفتح نحن صندوقًا مليئًا بالتوابل والبهار، ورسائل الحب التي اصفر لونها، وأثواب الزفاف القديمة.

كانت تتكلم اللغة الرومية (= اليونانية) برطانة أعجمية، وتجد صعوبة في نطقها، وكانت تخلط بين المقاطع، فبدلاً من أن تقول (نافارخوس) navarchos (= قبطان) كانت تقول نافراكوس navrakos؛ وبدلاً من أن تقول (إپاناستاسي) epanastasê (= ثورة) كانت تقول (أناستاسي) anastasê (= صعود، قيامة). ومع ذلك، وشكرًا للنبيذ ومفعوله، كنا نفهمها تمامًا؛ كنا تارةً نكتم ضحكاتنا بكل جهد جهيد، وتارةً أخرى– عندما كان السُّكر يستبد بنا، ويصل بنا إلى حد الثمالة بالفعل– كان نطقها يجعلنا نذرف الدموع (من فرط الضحك). وقالت المرأة:

«وبعد..... (كانت السيرينية العجوز تقص علينا أحداثًا من حياتها كالأساطير الخرافية، تصعد بنا ثم تهبط بنا في ردهتها التي يفوح منها العطر)، وإذن..... فأنا، هذه التي تشاهدونها الآن، كنتُ... آه! كنتُ عظيمة ذات سيطرة ونفوذ. لا! لم أكن أنا مالكة المقهى... أمان يا أعزائي! لقد كنت فنانة ذائعة الصيت [تنطق الكلمة على أنها phoumismenê بدلاً من الصحيحة phêmismenê (= مشهورة)]، وكانت ملابسي الداخلية التي أرتديها من الحرير (الفاخر) ومطرزة بالدانتيلا الأصلية. ولكن العشق....» قالت هذا، ثم تنهدت تنهيدة عميقة، ووضعت فى فمها سيجارة جديدة أشعلها لها زوربا. وبعدها أردفت قائلة:

«بعدها أحببت قبطانًا (تنطقها "نافراكوس" بدلاً من الصحيحة "نافارخوس"). وكانت هناك ثورة (تنطقها "أناستاسي" بدلاً من الصحيحة "إياناستاسي") من جديد في جزيرة كريت، وكانت الأساطيل راسية في ميناء سُودا. وبعد أيام قليلة، حططتُ رحالي أيضًا في الجزيرة. آه! يا لَلعظمة! كان ينبغي عليكم أن تكونوا قد شاهدتم "القباطنة" الأربعة: قباطنة إنجلترا وفرنسا وإيطاليا، وكذلك القبطان الروسي. كان الذهب البراق يزين أرديتهم، وأحذيتهم من الجلد اللامع المصقول، والأجنحة على هاماتهم مثل الديكة. أجل! مثل الديكة ذات الحجم العظيم، فكل منهم كان يزن ستين أو سبعين أقة. أمان ربي! ويا لها من لحًى كانت تزين محياهم! كانت هناك لحًى مجعدة أو ناعمة كالحرير، وألوانها سوداء وشقراء ورمادية وكستنائية. ويا لها من رائحة عطرة كانت تفوح منهم! فكل واحد منهم كان له عطره الخاص به، وعن طريقه كنت أفرق بينهم في ظلمة الليل. كان القبطان الإنجليزي يتضوع بالكولونيا، والفرنسي بعطر البنفسج، والروسي بالمسك. أما الإيطالي... آه! إن إيطاليا كانت مجنونة ومفتونة بعطر البتشول. آه! يا لها من لحًى! يا يسوع المسيح، ويا مولاتنا مريم العذراء المباركة! يا لها من لحًى! ومرات عديدة كنا نجلس نحن الخمسة في بارجة الأدميرال، وكنا نتكلم عن الثورة، ونحن نرتدي جميعًا ملابس مكشوفة (ديكولتيه). كنت أنا أرتدي قميصًا حريريًا يلتصق بجسدي، لأنهم كانوا يصبون كؤوس الشمبانيا بكثرة ثم يقدمونها لي. كنا في فصل الصيف، هل ترى؟ تكلمنا إذن عن الثورة حديثًا جادًّا رزينًا، في حين كنت أمسك أنا بلحاهم وأتوسل إليهم ألا يلقوا قنابلهم على مباني كريت الصغيرة. وكنا

نشاهد الجزيرة عن طريق المنظار المقرب، ونحن واقفون فوق صخرة بجوار مدينة خانيا؛ كانت المنازل تبدو ضئيلة، ضئيلة مثل النمل؛ وكانوا يستقلون قوارب صغيرة مطلية باللون الأزرق، ويرتدون أحذية طويلة العنق ذات لون أصفر، وكانوا يصيحون: يعيش! يعيش! وكان لديهم علَم يرفعونه عاليًا....».

اهتزت أعواد البوص التي صُنع منها السور في الردهة. فتوقفت المرأة العجوز الطاعنة في السن، محاربةُ القباطنة، عن الكلام والرعب يعتريها ويشل لسانها. فمن بين أعواد البوص شاهدت عيونًا صغيرة بالغة الخبث وهي تبرق. إذ كانت ضحكاتنا العالية قد تناهت إلى أسماع صبية القرية فتوافدوا يتلصصون.

أرادت السيدة الشادية أن تنهض من جلستها، لكنها لم تفلح في النهوض؛ إذ كانت قد أكلت كثيرًا وشربت أكثر، فجلست على مقعدها مرةً ثانية والعرق يتصبب منها. وهنا انحنى زوربا والتقط قطعة حجر من الأرض؛ فتفرق الصبية هاربين وهم يصفرون في استهجان. بعدها هتف زوربا:

«تحدثي، يا مولاتي حورية البحر، تحدثي يا عزيزتي الغالية!». قال زوربا هذا، وهو يقترب بمقعده منها. فاستطردت قائلة: «تحدثتُ إذن إلى القبطان الإيطالي الذي كان يحظى بقدر أكبر من الجسارة؛ إذ أمسكتُ بلحيته وقلت له: يا قبطاني! أجل كان هذا هو ما قلت له؛ يا قبطاني الصغير، لا تطلق قذائفك بُم بُم بُم! لا تطلق مدافعك بُم بُم بُم!... فكم من مرة قمتُ أنا، الإنسانة التي تشاهدانها الآن، بإنقاذ الكريتيين من الموت! وكم من

مرة جعلتُ أنا المدافع غير جاهزة للإطلاق! وكم من مرة كنت أمسك أنا بلحية "القبطان" ولا أدعه يطلق.. بُم بُم بُم! ولكن مَن ذا الذي يدين لي بالجميل وحسن الصنيع؟ ولو أنكم شاهدتم بأنفسكم الوسام، فأنا بدوري قد شاهدتُ......».

وانتاب الغضب العارم مدام "أورتانس" جراء جحود البشر وإنكارهم للجميل، فأهوت بقبضتها الصغيرة اللينة المتجعدة على المائدة. وهنا ضم زوربا ركبتيه المنفرجتين اللتين أضناهما العمل الشاق الكثير، واقترب من ركبتيها، وهو يتظاهر بأن التأثر قد بلغ به مداه، ثم صاح قائلًا: «يا بُرعمي الصغير، أدعو الله أن يمتعك بالسعادة، بالله عليك لا تطلقي... البُم بُم بُم!». فقالت المدام: «ارفع يديك!» فجعلتنا المدام نجفل وننخرط في القهقهة . بعدها أردفت قائلة: «مَن تظنني، يا محترم؟». ثم رمقته بنظرة حانية رقيقة. فقال زوربا الهَرِم فائق الخبث واللؤم: «الله موجود، فلا تتضايقي ولا تبتئسي، يا عزيزتي بوبولينا(*)، فهناك إله لا شك في ذلك؛ ونحن موجودون معك هنا، فلا تتنهدي ولا تحزني، ولا تذهبن نفسك حسراتٍ!».

فرفعتْ المرأة الفرنسية العجوز عينيها الزرقاوين المتكدرتين إلى السماء، لكنها شاهدت ببغاءها الأخضر الفاتح. وهنا غمغمت المرأة بعشق

(*) كانت هناك امرأة تدعى "لافتارنيا بوبولنيا"، تبرعت بأموالها وكل ثروتها وسفنها- ومقدارها 300.000 تالنت= (حوال نصف مليون جنيه)- إلى الحكومة اليونانية لمساعدتها فى الحرب ضد الأتراك. وكانت هذه السيدة أصلاً من جزيرة تسمى "هيذرا"؛ وتوفي زوجها عندما كان سنها أربعون عاماً، ففقدت أرملة. [المترجم].

ووله (آه، يا كاناڤارو العزيز!). فتعرف الببغاء على صوتها، وفتح عينيه، ثم تعلق في أسلاك القفص المعدنية، وبدأ يصيح بصوت إنساني أجش غليظ بدا مختنقًا: «كاناڤارو! كاناڤارو!». فصاح زوربا: «حاضر! موجود!». وبعدها مد زوربا يديه مرةً أخرى وبسطهما على ركبتيه اللتين أرهقهما العمل الكثير، وكأنه أراد أن يبدي رباطة الجأش.

تململت المرأة العجوز الشادية في مقعدها، ثم فتحت من جديد فمها الصغير المتجعد، وقالت: «لقد حاربتُ بنفسي أنا أيضاً، صدراً بصدر، أجل لقد حاربت بشجاعة وبقلب جسور. ولكن حلت علينا الأيام السيئة المريرة؛ فقد تحررت جزيرة كريت، وصدرت الأوامر للأساطيل بالرحيل. فماذا يمكن أن يحدث لي أنا؟ لقد كنت أصرخ وأصيح وأمسك باللحى الأربع، وأقول: إلى أين سوف تتركونني؟ لقد اعتدتُ على العظمة والرقي، اعتدت على الشمبانيا وعلى الدجاج، واعتدت على العاملين بالبحرية الذين منحوني شكلاً وقيمة، اعتدت على المدافع التي كانت ترمقني وتتطلع إليَّ؛ تعودت على الاستمتاع بصحبتهم على هذا النحو وهم يسترخون ويضطجعون في ترف وشبع مثل الصناديد! فماذا يمكن أن يحل بي، أنا التي أصبحت أرملة أربع مرات، يا قباطنتي الأعزاء؟... وكان هؤلاء القباطنة يضحكون وهم في رفقتي- آه! يا للرجال!- لقد غمروني بالجنيهات الإنجليزية والليرات الإيطالية والروبلات الروسية والفرنكات الفرنسية. وقد وضعت هذه الأموال في جواربي وفي صدري وداخل خفيَّ الصغيرين. وفي الليلة الأخيرة لهم في كريت طفقت أبكي وأصيح، فأشفق القباطنة عليَّ ورثوا لحالي، وملأوا حوض الاستحمام (= البانيو) بالشمبانيا،

وجعلوني أغطس فيه وآخذ حمامي أمامهم (عارية)؛ فقد كانت لدينا- كما ترون- الشجاعة لفعل هذا، ثم بعد ذلك كانوا يغمسون كؤوسهم في ماء (البانيو) ويشربون الشمبانيا الموجودة فيه حتى آخر قطرة؛ رافقتهم السلامة! وبعد أن سكروا حتى الثمالة أطفأوا الأنوار.... وعندما حل الصباح كانت تفوح مني جميع العطور عطرًا بعد الآخر: البنفسج والكولونيا والمسك والبتشول. وكنت أمسك بممثلي القوى الأربع العظمى في العالم- إنجلترا، روسيا، فرنسا، إيطاليا- وأحتجزهم هنا في صدري وأهدهدهم هكذا! انظرا!».

هنا بسطت مدام "أورتانس" ذراعيها القصيرتين البضتين، وأخذت ترفعهما وتخفضهما، وكأنها تؤرجح أو تهدهد على حجرها طفلاً رضيعاً. ثم قالت: «انظرا! هكذا! هكذا! وعندما أشرق النهار بدأت المدافع في إطلاق قذائفها، وأقسم لكما على ذلك بشرفي، أجل بدأت المدافع تطلق القذائف، وحملني قارب أبيض به اثنا عشر مجدافًا وأقلني إلى جهة بعيدة في مدينة خانيا......».

أمسكت المرأة بمنديلها ثم شرعت في الانتحاب، وفؤادها ينفطر من الحزن والأسى. فصاح زوربا، وقد بلغ به التأثر مداه: «يا محبوبتي الوردية المتلئة، كفاكِ نحيبًا وأغمضي عينيك الصغيرتين... أغمضي عينيك الصغيرتين، يا روح قلبي الغالية؛ فأنا قبطانك العزيز (كاناڤارو)!». ومن جديد، صاحت المرأة المرحة بصوت كالنحيب: «ارفع يديك! حسنًا يا هذا! فأين شارات رتبتك الذهبية التي تزين كتفيكَ؟ وأين قبعتك العسكرية؟ وأين لحيتك التي تتضوع بالعطر؟ آخ! آخ!».

قالت هذا ثم ضغطت برقة وعذوبة على يد زوربا، وشرعت من جديد في البكاء والنحيب. كان الطقس قد أصبح باردًا منعشًا، فلُذْناً بالصمت؛ وكان البحر وراء سيقان البوص يطلق الآن تنهيدة هادئة، وبدأت الرياح تهب والشمس تتهادى نحو المغيب. وحلق فوقنا غرابان نالا من الغذاء أفضله وشبعا، وكانت أجنحتهما تصدران حفيفا يماثل صوت تمزق شراع حريري، أو تمزق قميص حريري ترتديه- لو جاز لنا هذا القول- سيدة شادية عقيلة.

نثر الشفق رماده الذهبي مثل البودرة على الردهة، وما إن وقع نور الشفق على خصلة شعر مدام "أورتانس" في مقدمة رأسها حتى تأجج لونها نارًا، واهتزت الخصلة بعنف جراء هبوب نسيم المساء، وكأن الخصلة تروم الرحيل ونَقْلَ هذا الحريق إلى الرؤوس المواجهة لها. وكأن صدرَها نصف المفتوح وركبتيها المنفرجتين السمينتين المثقلتين بعمرها المديد، وتجاعيد رقبتها، وخُفيها اللذين بليا من كثرة الاستخدام، قد اكتسيا باللون الذهبي.

ارتجفت حوريتنا العجوز.. وأغمضت عينيها المحمرتين من فرط النحيب ومن فرط تجرع النبيذ، نصف إغماضة. وكانت تارةً تتطلع إليَّ، وتارةً تتطلع إلى زوربا، الذي كان بصره معلقًا بصدرها نصف المفتوح، وهو يتلمظ بشفتيه الجافتين الشبيهتين بشفتي التيس. كانت المرأة ترمق كلينا في تساؤل وحيرة- وكان الليل أثناء ذلك قد بدأ بالفعل يغْشَى الدنيا بظلمته- كما كانت تحاول عبثًا أن تفرق أو تميز مَن منا كلينا هو القبطان (كاناڤارو). وهنا غمغم زوربا في وجد وعاطفة جياشة، بعد أن كان الآن قد باعد بين ركبته وركبتها، قائلًا لها: «يا محبوبتي الوردية الممتلئة، ليس هناك

إله، وليس هناك شيطان، فلا تتكدري أو تتضايقي. ارفعي رأسك الصغيرة، واسندي وجنتك على راحة يدك، وابدئي في الترنم بأغنية حبك، عسى أن يموت خاروس(*)!».

كان زوربا قد التهب عشقًا، وتأجج في قلبه السعيرا فأخذ يفتل شاربه الصغير بيده اليمنى، ثم مد يده اليسرى إلى السيدة الشادية التي كانت ذاهلة زائغة البصر. وطفق يتكلم بأنفاس متقطعة، وعيناه مثقلتان بالنعاس. فمن المؤكد أنه لم يكن يرى الآن هذه العجوز ذات الأصباغ والعطور الماثلة أمامه، أجل لم يكن يرى أمامه سوى «الجنس اللطيف» بأسره، كما اعتاد أن يصف المرأة.

كانت الخِصَال الفردية قد اختفت وتبخرت، وفقد الوجه ملامحه، سواء كانت شابة فتية أو مُسنة شمطاء، جميلة فاتنة أو دميمة بشعة، فقد انمحت الفروق الضئيلة أو تلاشت؛ فخلف كل امرأة كان يوجد وجه ربة الجمال أفروديتي الصارم القدسي الزاخر بالأسرار.

كان هذا هو الوجه الذي يراه زوربا، ويتحدث معه، ويشتاق إليه؛ وكانت مدام "أورتانس" مجردِ قناع شفاف زائل؛ وكان زوربا قد مزق هذا القناع ومرامه أن يلثم هذا الفم الأبدي. ولذا أردف قائلًا من جديد، بابتهال وتوسل وصوت لاهثٍ متهدج: «ارفعي جيدك الأبيض الثلجي، يا قُرة عيني، أجل ارفعي عنقك الوضاء كالثلج، واشرعي في الترنم بأغنية حبك!».

(*) حارس عالم الموتى فى الأساطير اليونانية؛أنظر الحاشية أعلاه فى الفصل الأول. [المترجم].

أسندت المرأة العجوز الشادية يدها المعروقة- التي جالت كثيرًا وتشققت من كثرة الغسيل- إلى وجنتها، واغرورقت عيناها بالعبرات؛ ورفعت عقيرتها بالغناء بصوت أجش حزين، وبدأت الترنم بأغنيتها المحببة إليها التي غنتها آلاف المرات، وهي ترمق زوربا- الذي كان اختيارها قد وقع عليه- بعينيها المخضلتين بالدموع.

«لماذا التقيت بك، (يا حبيبي)، في خضم مسيرة حياتي؟.....»

وهب زوربا من جلسته قافزًا، وأحضر من الداخل آلة القانون، ثم جلس على الأرض قرب أقدامنا، وبعدها أزال الغطاء عن القانون وأراحه على ركبتيه، وبدأ يعزف عليه بأصابعه الضخمة، ثم قال: «آخ! آخ! آه يا طرب! آه يا قُرة عيني، خذي سكينًا واطعنيني بها!».

عندما بدأ الليل يرخي سدوله، وبزغ نجم المساء في صفحة السماء، وتردد في الآذان صوت عزف آلة القانون، الشريكة في الإغواء، انحنت مدام "أورتانس"، التي كانت بطنها قد امتلأت حتى الثمالة بالدجاج والأرز المطهي واللوز المحمص والنبيذ، وأسندت رأسها على كتف زوربا، ثم أطلقت تنهيدة حارة من أعماقها. وبعدها ربتت بلطف على ظهره الزاخر بالعظام، ثم تثاءبت وتنهدت مرةً ثانية. فأومأ لي زوربا إيماءة ذات مغزى، ثم قال بصوت خفيض: «لقد بلغت بها النشوة أقصاها، يا رَيِّس، فهيا امض إلى حال سبيلك، (ودعني وحدي معها)!».

(4)

أشرقتْ الأرض بنور ربها، ففتحتُ عيني لأجد زوربا جالسًا القرفصاء قبالتي على طرف سريره، وهو ينفثُ دخان سيجارته مستغرقًا في تفكير عميق. كان يُبقي عينيه المستديرتين- بحدقتيهما المستديرتين- مثبتتين على النافذة التي أمامه، والتي كانت قد بدأ لونها يَبيَض مثل الحليب بفعل ضوء الفجر. كانت عيناه متورمتين، ورقبته العارية المعروقة النحيلة- الطويلة إلى حدٍّ ما- ممتدة بغير استواء، وكأنها رقبة صقر.

كنتُ قد انسحبت ليلة أمس في وقت مبكر من كثرة الضحك والقهقهة، وتركتُ زوربا بمفرده مع العجوز الشمطاء (حورية البحر). وقلتُ آنذاك: «إنني ذاهب، يا زوربا، وأتمنى لك تسلية مرحة! متعك الله بالقوة!». فقال زوربا: «بسلامة الله، يا رَيِّس، ودَعْنَا حتى يُجْهِزَ أحدنا على الآخر».

ويبدو أنهما بالفعل قد أقدما على ذلك، لأنني- في أثناء نومي- سمعت ما يشبه الغرغرة الخافتة، ومرت برهة كأن الحجرة المجاورة اهتزت فيها؛

وبعدها أخذتني من جديد سِنةٌ من النوم. وبعد أن انتصف الليل أحسستُ أن زوربا قد ولج إلى الحجرة حافي القدمين وسقط على حشيته بخفة ورفق كي لا يوقظني.

والآن مع تباشير الشروق، ها أنذا أراه يُحدق في الأفق البعيد تجاه النور، قبل أن تنفتح عيناه على اتساعهما؛ إذ تحس كأنه لا يزال غارقًا في نشوة غامرة، وأنه لم ينفض بعد عن صدغيه أجنحة النعاس. فلقد أسلم نفسه مثل النحلة بهدوء وسلبية إلى مجرى مائي بطيء الحركة، يكاد أن يكون مظلمًا؛ كانت الدنيا تتدحرج وتدور بما فيها من تراب وماء وأفكار وبشر صوب بحر بعيد قصي، وكان زوربا يدور معها سعيدًا، دون أن يبدي مقاومة، ودون أن يتساءل.

بدأتْ القرية تستيقظ: صياح الديكة المختلط ببعضه، وصياح الخنازير، والحمير والبشر. وهنا هببتُ واقفًا من سريري، وصحتُ: «إيه يا زوربا، اليوم لدينا عمل!». غير أنني أحسستُ بدوري بغبطة وافرة، لدرجة أنني أسلمتُ نفسي، دون أن أنبس ببنت شفة، ودون أن أبدي حراكًا، لأشعة الفجر الوردية الخافتة. كانت الحياة بأسرها، أثناء هذه اللحظات، تبدو فاتنة أخاذة، ترسل نسماتها الخفيفة مثل الريش، وكان زغب الأرض الذي لم يتجمد كمثل سحابة تُغَيِّرُ شكلها في كل حين، وتتشكل من جديد مع كل هبة ريح.

شاهدتُ زوربا وهو ينفث دخان سيجارته، فحسدتُه في أعماقي، ومددت يدي وتناولت غليوني، ورمقته في تأثر بالغ. كان هذا الغليون قد أهداه إليَّ صديقي، ذو العينين الخضراوين المائلتين إلى اللون الرمادي،

وقدمه لي بيديه النبيلتين الملفوفتين بنعومة. وكان صديقي هذا قد خصني به منذ سنوات مضت، حينما كنا في أرض الاغتراب، وكان الوقت ساعتها ظهرًا؛ كان قد أنهى دراسته، وسافر في مساء ذلك اليوم نفسه إلى بلاد اليونان. ساعتها قال لي: «تخلَّ عن السيجارة، فأنت تشعلها وتدخنها حتى نصفها ثمّ ترميها، كما لو كانت امرأة من نساء الطريق. فيا لها من تصرفات تبعث على الخجل! اتخذْ إذن الغليون زوجة، فهو المرأة الوفية المخلصة؛ وعندما تقفلُ عائدًا أدراجك إلى منزلك ستجد أنه ينتظرك في ثبات دون أن يهتز. ثم تَطَلَّعْ إلى دخانه وهو يلتف في الهواء، واجعلني أخطر على بالك!».

كان الوقت ظهرًا آنذاك، وكنا خارجين من متحف في مدينة برلين، حيث كان صديقي قد ذهب ليزجي تحية الوداع إلى لوحة "المحارب"، التي يحبها، والتي أبدعتها أنامل رسامه المحبوب "رمبرانت". كان هذا المحارب يتألق بخوذته البرونزية الشامخة، وبوجنتيه الشاحبتين المتعبتين، وبعينيه الحزينتين اللتين تشعان بالعزم والإصرار. غمغم صديقي وهو يرمق المحارب اليائس الفخور: «آه لو أمكنني أن أنجز فعلاً نبيلاً ذات يوم في حياتي! فسوف أدين بالفضل لهذا المكان...».

خرجنا من المتْحف، وارتكزنا على أحد الأعمدة في رواق المتحف؛ وكان أمامنا تمثال نحاسي مائل للسواد. كان التمثال يمثل أمازونة(*) عارية

(*) **الأمازونات** كُن في الأساطير اليونانية القديمة، نساء استأصلن ثدياً من أثدائهن ليتمكنَّ من رمي السهام من القوس بمهارة. وكُن نساء محاربات قويات الشكائم، يصعب قهرهن أو التغلب عليهن. [المترجم].

تمتطي- بفتنة لا يمكن التعبير عنها بالألفاظ، وكذا بثقة مفرطة- فرسًا بلا سرج. وهنا حط طائر رمادي اللون- هو طائر الذُعرة- لبرهة من الزمن على رأس تمثال الأمازونة، وحرك بخفة وعلى عجل ذيله؛ ثم زقزق الطائر مرتين أو ثلاث مرات بطريقة مرحة ساخرة، وبعدها رحل.

اقشعر بدني وارتجفتُ، وبعدها رمقت صديقي وسألته: «هل سمعت صوت الطائر؟ لقد بدا كأنه قد أفضى إلينا بخبر ثم رحل». فأجابني صديقي وهو يبتسم: «إنه مجرد طائر، فدعه يغردا... إنه مجرد طائر، فدعه يتكلم!». تُرى كيف خطرت على بالي اليوم منذ الصباح- فوق هذا الساحل الكريتي- تلك اللحظة البعيدة، وفَاضَت بالمرارة على عقلي؟ وهنا أخذتُ أحشو غليوني بالتبغ رويدًا رويدًا، ثم أشعلتُه.

فكرتُ فيما بيني وبين نفسي في أن جميع الموجودات في عالمنا هذا لها مغزى خفي. أجل جميع الموجودات: البشر، والحيوانات، والأشجار، والنجوم كلها رموز هيروغليفية؛ فيا لَسعد ويا لَشقاء ذلك الذي يشرع في تقسيمها إلى مقاطع، والتكهن بالمعنى الذي ترمز إليه... ففي اللحظة التي تراها بعينيك تعجز عن فهمها؛ فقد يخيل إليك أنها بشر وحيوانات وأشجار ونجوم؛ ولكنك- فقط بعد انصرام سنوات وبعد فوات الأوان- لا تلبث أن تمضي قدمًا إلى المغزى الحقيقي.

المحارب بخوذته البرونزية، وصديقي الذي كان يرتكز على العمود أثناء ساعة الظهيرة المغلفة بالضباب، وطائر الذُعرة وما أخبرنا به عن طريق زقزقته، وأيضًا بيت الشعر الشعبي الذي ورد في أنشودة جنائزية عن «الفضيلة»؛ تفكرتُ في هذا كله اليوم، وفكرتُ في أنه يمكن أن يكون له

مغزًى معين؛ ولكن ماذا عسى أن يكون هذا المغزى؟

أخذتُ أتابع دخان الغليون، وهو يلتفُ وينفرط عقده في بصيص النور، وكذلك وهو يتراقصُ لبرهة من الزمن بلونه اللازوردي المركب، ثم ينكمش ببطء ليصبح جزءاً من الهواء. كانت نفسي تنقبض مع مسار الدخان، فهي تتراقص ثم تتلاشى وتتصاعد من جديد متأثرةً بالدوامة الجديدة من الدخان، إلى أن تختفي مرةً أخرى. ولساعات طويلة، كنتُ أعيش مكرسًا نفسي للجسد دون وساطة متاحة للمنطق، وكان اليقين الذي يستعصي التعبير عنه هو السائد، سواء عند بداية نشوء العالم، أو عند وصوله للذروة، أو عند تلاشيه واختفائه. كنتُ أغوص بعمق مرةً أخرى في تعاليم بوذا، ولكن الآن بدون كلمات تهويمية جوالة، وبغير ألعاب بهلوانية للعقل بلا حياء ولا خجل. فهذا الدخان هو جوهر تعاليم بوذا، وهذه الأشكال الزائلة التي أعيد تشكيلها هي الحياة التي تنتهي بهدوء وبدون ضجة وبسعادة في رحاب "النيرڤانا" اللازوردية. أما أنا فلم أتفكر ولم أتدبر ولم أقاتل، من أجل أن أعثر على خواء، ولم يكن عندي أي شك أو ارتياب، بل كنت أعيش مع اليقين.

تنهدتُ في صمت، وكأن هذه التنهيدة قد حملتني إلى اللحظة الراهنة، فتلفتُّ ورأيتُ حولي الغرفة التعسة المشيدة من الألواح الخشبية، وشاهدتُ مرآة صغيرة كانت معلقة على الحائط بجواري، وسقط على صفحتها أول شعاع للشمس، كانت تعكسه على شكل ومضات؛ وقبالتي كان زوربا جالسًا وهو يدخن وقد أولاني ظهره.

تدافعتْ بين جوانحي ليلة الأمس ونهاره على حين غرة بأحداثهما

التراجيدية والكوميدية، سواء بسواء: زهور البنفسج التي ذهب عنها عبيرها، أجل زهور البنفسج، والكولونيا... والمسك، وعطر البتشول؛ وكذلك الببغاء الذي هو نفسٌ بشرية أصبحت ببغاء يكرر خفق جناحيه ويضرب بهما القفص الحديدي ويصيح؛ والصندل البحري العتيق الذي كان قد بقي من أسطول حافل بأكمله، وكان يقص حكايات عن معارك بحرية عفا عليها الزمن...

تناهتْ إلى سمع زوربا تنهيدتي فطوح رأسه والتفتَ إليَّ، وغمغم: «لقد تصرفنا تصرفًا سيئًا! أجل لقد أسأنا التصرف، يا رَيِّس. لقد ضحكتَ أنتَ وضحكتُ أنا بدوري، وشاهدتُ ضحكنا المرأة التعسة! ثم إنك انصرفتَ على هذا النحو دون حتى أن تنظر إليها، كما لو كانت امرأة عجوزًا مقعدة منذ ألف عام، فيا لَه من تصرف يبعث على الخجل! هذه ليست مجاملة ولا كياسة، يا رَيِّس، فالناس لا يتصرفون على هذا النحو، كلا وألف كلا! وأرجو أن تغفر لي! إنها مجرد امرأة، وأنتَ تعرف ذلك، مخلوق ضعيف عاجز شكاء وبكاء. وحسناً فعلتُ أنا حينما بقيتُ معها كي أواسيها».
فقلتُ وأنا أغالبُ الضحك:

«لكن، ما هذا الذي تقوله يا زوربا؟ هل تظن بعقلك الصائب القويم أن كل امرأة ليس في ذهنها سوى هذا الأمر فقط؟». فأجاب: «أجل! ليس لديها في عقلها أمر آخر سوى هذا، يا رَيِّس. فاصغ إليَّ أنا الذي رأيتُ وكابدتُ وقمتُ بكثير من التصرفات، واكتسبتُ من هذا، فلنقُل، المعرفة. إن المرأة ليس لديها في عقلها شيء آخر، إنها مخلوق مريض، وأقولها لك، شكاء بكاء؛ فإذا لم تقل لها إنك تحبها وأنك راغب فيها، تشرع في البكاء

والعويل. ومن الممكن أن تكون غير راغبة فيك على الإطلاق، وربما كانت تكرهك على وجه الخصوص، وقد تقول لك لا، ولكن هذا أمرٌ آخر... وممكن... ولكنها تريد دائمًا ممن يراها أن يرغب فيها ويشتهيها. هذا هو ما تريده المرأة التعسة، فاصنع هذا الجميل إكرامًا لخاطرها! فأنا مثلاً كانت لي جدةٌ بلغت الثمانين من عمرها، وسِجِلُّ أفعال هذه العجوز الشمطاء يُعد أسطورةً بحق. وأيًّا كان الأمر، فهذه حكاية أخرى من اللغو والهذر... كانتْ آنذاك قد بلغتْ الثمانين من عمرها، وقبالة منزلنا كانت تقطن فتاة جميلة مثل الماء البارد، كان اسمها "كروستالُّو". ومساء كل سبت كنا، نحن غلمان القرية الأغرار، نعبُ الشراب وتستبد بنا النشوة، وكنا نضع غصن ريحان خلف آذاننا؛ وكان لي ابن عم يصطحب معه الناي كي نعزف عليه، ونغني "السرينادا" للفتاة الجميلة. وكنا نشرع في التغني والتأوه بالعشق العارم والصَّد والشوق والخوار مثل الثيران. كنا جميعًا نهوَى هذه الفتاة، وكنا نذهب لرؤيتها مساء كل سبت، عسى أن تختار واحدًا تصطفيه لنفسها، من بين هذا الحشد أو هذا القطيع من الغلمان. آه! إذن! فهل ستصدق ما أقوله لك، يا رَيِّس؟ إن المرأة سر رهيب، ولديها جرح لا يندمل أبدًا. فكل الجروح تندمل، أما جرحها هذا فلا يندمل، وإياك أن تصغي (لغير ذلك)! أجل جرحها لا يندمل أبدًا. فماذا يكون الحال حينما يكون سن المرأة ثمانين عامًا؟ إن جرحها يظل مفتوحًا..

كانت المرأة العجوز إذن تضع أريكتها تحت النافذة، وتأخذ خفيةً مرآتها، ثم تشرع في تمشيط ما بقي على رأسها من شعيرات قليلة، وتقوم بفرقه إلى شطرين. وكانت تنظر حولها خلسةً كي لا يقع بصرنا عليها؛

وعندما لم يكن أحدٌ يقترب منها، كانت تنكمش على نفسها في هدوء وتتكوم مثل اللص، وتتصنع النوم. ولكن أنىَّ لها أن تنام! لقد كانت تنتظر "السرينادا". قلتُ لك إن عمرها ثمانون عامًا! هل تفهم الآن سر المرأة، يا رَيِّس؟ أنا الآن على وشك أن أذرف الدموع؛ بيد أنني آنذاك كنتُ غِرًّا أحمق، فلم أكن أفهم بل كنتُ أشرع في القهقهة. وذات يوم، كِدْتُ أجن غيظًا منها، لأنها كانت تتشاجر معي بسبب أنني كنت أطارد الفتيات، فتجاذبتُ معها أطراف الحديث بقصد أن أغيظها، فقلتُ: "لماذا تدهنين شفتيك بأوراق جوز الهند كل سبت، ولماذا تفرقين شعرك؟ هل تظنين أننا نغني "السرينادا" من أجلك؟ نحن لا نريد سوى "كروستالُّو"، أما أنتِ فلا تفوح منك سوى رائحة البخورا". فهل تصدق ذلك، يا رَيِّس؟ ساعتها فهمتُ- لأول مرة في حياتي- ماذا تعني المرأة. لقد سالت دمعتان من جمر ونار من مقلَتَي جدتي (التعسِة)، إذ انحنت بذلٍّ وتكومت مثل الكلبة، وأخذ فكها الأسفل يرتجف. أما أنا فقد شرعتُ أصيح قائلًا وأنا أقترب منها: "(أريد) "كريستالُّو"! أجل إن ما أبغيه هي "كريستالُّو"!. وكان هدفي أن تسمعني العجوز الشمطاء بجلاء. آه! ما أقسى الشباب وما أشد جبروته! إنه لتصرفٌ غير إنساني! وذلك لأنني لم أفهم الحقيقة. أما جدتي التعسة فقد رفعتْ يديها اليابستين المعروقتين إلى السماء، وقالتْ: "فلتحل لعنتي على شغاف قلبك!"؛ قالتْ هذا وهي تصيح في لوعة وألم. ومنذ ذلك اليوم أخذت معنويات جدتي التعسة في التدهور، وبدأتْ صحتها تسوء؛ فتضعضعتْ قواها وذبلتْ، وبعد مرور شهرين لفظتْ أنفاسها الأخيرة ورحلتْ عن الحياة. وفي اللحظة التي كانت تعاني فيها آلام الاحتضار وقع

بصرها عليّ، فزفرتْ زفرةً حارة، ولهثتْ مثل سلحفاة، ومدتْ نحوي يدها اليابسة كي تمسك بي، وقالتْ بصوت متحشرج: "أنت الذي قضيت عليّ! أنتَ الذي أهلكتني، يا أليكسيس يا ملعون! يا رجيم! فلتحل عليك لعنتي، ولتكابد ما كابدته أنا!"».

وهنا ضحك زوربا، وقال وهو يداعب شاربيه: «لقد حلت عليّ لعنة جدتي العجوز! لقد جاوزتُ، فيما أظن، الخامسة والستين من عمري، غير أنني أبدو وكأنني بلغت المائة عام دون أن أكتسب المعرفة؛ سوف أحمل مرآةً في جيبي وأظل أطارد الجنس الناعم اللطيف». ثم ضحك مرةً ثانية، وقذف بسيجارته من النافذة، وبعدها اندفع قائلًا: «إن بي مثالب وأخطاء جمة، بيد أن هذه المثلبة هي التي ستودي بي!». ثم بعد ذلك قفز من فوق الحشية، وأردف: «فلندع هذا الآن جانبًا، فلقد أكثرنا من الكلام. أما اليوم فهيًا إلى العمل!». وارتدى ملابسه على عجل، ثم تناول حذاءه الغليظ، وهرع مندفعًا خارج الردهة.

أحنيتُ رأسي على صدري، وشرعتُ أقلب كلمات زوربا على عواهنها، وفجأةً قفز إلى ذهني مسلكٌ حدث منذ عهد بعيد فى مدينة مكللة بالثلوج، وظل متجسداً في ذاكرتي؛ ذلك أنني كنت أقف لأحدِّق في عمل فني معروض للمثال رُودَان، عبارة عن يد هائلة من البرونز، وكان اسم العمل «يد الله». كانت كف اليد نصف مضمومة، وفي منتصفها كان هناك رجل وامرأة ملتحمان، يتناثر الزبد من شدقيهما، وهما يتصارعان. فاقتربت فتاةٌ صغيرة من هذا العمل الفني ووقفت بجواري، وشرعت تتفحص بدورها، وهي مضطربة، هذا التلاحم الأزلي المشوب بالاضطراب.

كانت الفتاة الصغيرة نحيفة، ترتدي ملابس أنيقة، وشعرها أشقر داكن، وذات فك قوي صارم وشفتين نحيلتين غير مكتنزتين. وعلى أية حال، فقد كانت تحظى بملمح رجولي ينطوي على العزم والتصميم، لدرجة أنني، أنا الذي أعزف دومًا عن الانزلاق إلى التفوه بالكلمات السهلة، لا أعرف أي يد دفعتني لكي ألتفت وأسألها:

«فيم تفكرين؟ وما هو رأيك؟». فتمتمت قائلةً بإصرار: «ليس في مقدور أي شخص أن يهرب من هذا المصير!» فقلت لها: «وإلى أين يذهب؟ إن يد الله في كل مكان، وليس ثمة منجاة منها ولا مهرب. هل أحسستِ بالألم؟» قالت: «لا! بوسع الحب أن يكون هو البهجة الأكثر شدة وتأثيرًا فوق الكرة الأرضية. ممكن... غير أنني الآن عندما أرى هذه اليد البرونزية، أتمنى أن أكونَ قد لُذتُ بالفرار». قلت لها: «هل تفضلين الحرية؟» قالت: «أجل!»، فأردفتُ قائلًا: «وماذا إن غدونا أحرارًا، فقط عند خضوعنا أو امتثالنا لليد البرونزية؟ وماذا إن كانت كلمة "إله" ليس لها المعنى الدارج الذي يضفيه عليها جمهرة الناس؟».

رمقتني الفتاة بقلق، كانت عيناها رماديتين تبرقان مثل المعدن، أما شفتاها فكانتا جافتين توحيان بالإصرار، ثم قالت: «لا أفهم!»، وبعدها ابتعدت وهي مروعة، ثم غابت عن بصري. ومنذ ذلك الحين لم تخطر هذه الصورة على بالي قط، ومع هذا كانت تحيا– فيما يبدو– داخلي وتتغذى من خلال باب مسحور بين جوانحي. والآن، على هذا الساحل المهجور، كيف تأتَّى لهذه الصورة أن تظهر خارج شغاف قلبي، وهي شاحبة تنبعث منها الشكوى؟

يبدو فعلاً أنني تصرفت على نحو سيء قبيح، وكان زوربا على حق فيما قال. لقد كانت هذه اليد البرونزية مبررًا معقولاً، فلقد كان الاتصال الأول جيدًا في بدايته، وكانت الكلمات الأولى المتبادلة مطمئنة، واستطعنا تدريجيًا، دون أن يحس كلانا، أو- لو أننا حتى أحسسنا- أن نتعانق دون حياء ولا خجل، وأن نلتجم بهدوء في يد الله. غير أنني على حين غرة قفزت من الأرض إلى السماء، أما المرأة فقد ارتعدت وروعت ثم رحلت لحال سبيلها.

صاح الديك العجوز في ردهة مدام "أورتانس"، وساعتها نفذ ضوء النهار ناصع البياض من خلال النافذة الصغيرة، فقفزت من فراشي. كان العمال قد بدأوا في التوافد، وإصدار ضجة وقعقعة وهم يحملون مجرفاتهم وعتلاتهم ومعاولهم. وتناهى إلى أسماعي صوت زوربا وهو يعطيهم الأوامر؛ إذ كان قد باشر العمل بالفعل، وكان بوسعك آنذاك أن تشاهد بعينيك هذا الإنسان الذي كان يعرف كيف يصدر الأوامر، وكيف يعشق المسئولية.

أطللتُ برأسي من النافذة ورأيتُ زوربا وهو واقف، فارع الطول ممشوق القوام، وسط ما يقرب من الثلاثين عاملاً، ضامري الأجساد، نحيلي الخصور، يرتدون السراويل القصيرة الواسعة المزمومة عند الركبة. كانت ذراع زوربا ممتدة بحركة آمرة، وكانت كلماته قليلة لكنها مباشرة، وفي ظرف لحظة قصيرة أمسك برقبة فتى كان يغمغم ويتلكأ، وصاح فيه بصوت عالٍ: «إن كنتَ تريدُ أن تقول شيئًا فقله بصوت عالٍ! فأنا لا يروقني الذين يغمغمون. والعمل بحاجة إلى مزاج؛ فإن لم يكن لديك مزاج، فاتركنا واذهب إلى المقهى!».

أهلَّت علينا في هذه اللحظة مدام "أورتـانس"، بـشعر أشـعث مـشوش، ووجنتين منتفختين، بغـير طـلاء ولا دهـان، وبقمـيص متـسخ فـضفاض؛ كانـت تزحـف وهي مرتديـة خفـين طـويلين مهلهلـين، وسـعلتْ العجـوز الشمطاء سعالاً خشناً زاخـراً بالحـشرجة. ثـم توقفـتْ وتطلعـتْ إلى زوربـا بكبرياء؛ وهنا تكدرتْ عيناها، وسعلتْ مرةً أخرى كي يـسمع سـعالها، ثـم مرَّت بجوار زوربا وهي تتـأرجح في مـشيتها وتهـز أردافهـا؛ وكادت تلمـسه بكمها الطويل الفضفاض. ولكنه لم يجشم نفسه عنـاء الالتفـات ليراهـا، بل أخذ من أحد العمال قطعة نظيفة مـن رغيـف خـبز وحفنـة مـن ثمـار الزيتون، ثم صاح: «هيـا يـا أولاد، ارسـموا علامـة الـصليب! باسـم الله!». بعدها قاد حشد العمال في صف، وبدأوا السير تجاه الجبل.

ليس في نيتي هنا أن أصفَ الأعمـال الـتي دارت للبحـث عـن الفحـم الحجري؛ فهذا الموضوع يحتاج إلى صبرٍ وأنـاة، وأنـا لا أحظـى بهـذه المـيزة. كنا قـد أقمنـا سـقيفة على هيئـة كـوخ قـرب البحـر، بـالبوص والخـيزران والأغصان الصغيرة وألواح الصفيح. وكان زوربا يـستيقظ عنـد الفجـر، ثـم يلتقط معوله ويذهب في مقدمة العمال؛ كان يحفر دهليزًا في المـنجم، وبعـد فترة يوقف العمل فيه، حينما يعثر على عِرق لامع مـن الفحـم الحجـري (= الليجنايت) المماثل للأنثراسايت، وسـاعتها كان يـرقص مـن فـرط الفـرح والسرور؛ ولكن- بعد مرور أيام قليلة- كان العِـرق يختفي، فـكان زوربـا يسقط على ظهره يائساً، وكان يضرب يده وساقه، ثم يهز قبـضته بغـضب نحـو السماء.

كان زوربا قد أحبَّ هذا العمل من كل قلبه، ولم يعد يسألني مزيدًا مـن

الأسئلة. ومنذ الأيام الأولى انتقل الاهتمام بأسره والمسئولية كلها من يديَّ إلى يديه. فلقد أخذ على عاتقه مهمة اتخاذ القرار ومهمة التنفيذ؛ أما أنا فقد أخذتُ على كاهلي فقط مهمة دفع قيمة الأضرار، دون تبرم أو شعور بكثير من الضيق؛ لأنني كنت أحس بشعور طيب، مؤداه أن هذه الشهور سوف تكون من أسعد الشهور التي شهدتها في حياتي؛ وهكذا فحينما كنت أقوم بحساباتي، كنت أشعر أنني اشتريت سعادتي بثمن بخس جدًا.

كان جَدِّي من ناحية والدتي- وهو من إحدى قرى كريت- يأخذ مصباحه كل مساء ويقوم بجولة في القرية، ليرى ما إذا كان هناك شخص أجنبي قد رحل عن القرية أو وفد إليها؛ كان يأخذ الضيف الذي يعثر عليه إلى منزله، ويقدم له الطعام الوفير، وبعد أن يأكل ضيفه ويشرب، كان جدي يجلس بعدها في المضيفة ويشعل غليونه الطويل؛ ثم كان يعود بعد برهة إلى ضيفه– إذ إن ساعة الحساب تكون قد حانت حينئذٍ– ثم يقول له بلهجة آمرة: «هيا تحدث!»، فيقول الضيف: «ماذا أقول، يا سيدي الشيخ "موستويورجوس"؟» فيقول جدي: «قل لي أي الناس أنت، وما هو عملك، ومِن أين قدمت، وأي البلاد والأقطار شاهدتْ عيناك... فلتقل كل شيء.. أجل كل شيء، هيا تحدث!».

كان الضيف يبدأ في التحدث، فيخلط الحق بالباطل، بينما كان جدي يدخن غليونه ويستمع إليه، ويحلق معه ويسافر بخياله، وهو جالس بهدوء في المضيفة. ولو راقه الضيف كان يقول له: «ستظل معي حتى الغد ولن ترحل؛ فما تزال عندك قصص أخرى تقصها عليَّ».

كان جدي لم يغادر أبدًا قريته، ولم يذهب حتى إلى بلدة "ميغالو

كاسترو"، ولا إلى مدينة "ريثيمنوس(*)". وكان يقول في هذا الصدد: «لماذا أسافر؟ فمِن هنا يمر أهل "ريثيمنوس" وأهل "ميغالو كاسترو"، كما تفد كل من "ريثيمنوس" "وكاسترو" إلى منزلي، فلأقر بهما عينًا. فأية ضرورة تدفعني إلى السفر والترحال؟».

وها أنذا أتصرف الآن على منوال جدي وأكمل رغبته، هنا على الساحل الكريتي. ذلك أنني وجدتُ بدوري، كما لو كنتُ قد بحثتُ عنه بمصباحي، ضالتي المنشودة، وجدتُ ضيفًا لم أدع له مجالاً للرحيل، مع أنه يكلفني ثمنًا أغلى بكثير من مجرد تناول وجبة عشاء، بيد أنه يستحق ذلك وأكثر. فكل مساء أنتظر فراغه من عمله، ثم أجعله يجلس قبالتي، وبعد أن نتناول الطعام يأتي موعد دفع الحساب، فأقول له: «هيا، تحدث!»، وأدخن غليوني وأنا أنصت إليه، وما بين الفينة والأخرى أقول له: «تحدث، يا زوربا، تحدث!».

كانت مقدونيا بأسرها تنفتح على مصراعيها أمامي، وتمتد على طول المساحة الصغيرة التي تقع بيني وبين زوربا، بجبالها وغاباتها ومجاري مياهها وأنهارها وأشياعها ومقاتليها، وكذلك نسائها الكادحات المثابرات وكأنهن رجال، ورجالها الخشنين ذوي الإصرار والعناد... ومثل مقدونيا كانت تتبدى أمامي منطقة "الجبل المقدس"، بأديرتها الواحد والعشرين، وأحواض سفنها، ويعاسيبها المكتنزة الأرداف. وهنا كان زوربا يزْوَرُّ ويتوقفُ عن الاسترسال في سرد الحكايات المتعلقة بجبل "آثوس" المقدس

(*) "ميغالوكاسترو"، و "ريثيمنوس" مدينتان من مدن جزيرة كريت؛ وعاصمتها هى مدينة "خانيا". [المترجم].

وأديرته، ويقول وهو ينفجر ضاحكًا: «فليحفظك الله، يا رَيِّس، ويقيك من دُبُرِ البغل ومن قُبُلِ الراهب».

كان زوربا يأخذني في نزهة كل مساء نطوف فيها أرجاء بلاد اليونان وبلغاريا واسطنبول، فأغمض عينَي وأرى المشاهد تتوالى أمامي. كان زوربا قد جاب ربوع البلقان المضطربة التي يكثر فيها العذاب، وتفحص بعينه الضيقة جميع أرجائها بسرعة وبدقة لماحة مثل الصقر. وما بين الحين والآخر، كان زوربا يحملق بعينيه في الأشياء التي تعودنا نحن أن نمر عليها مرور الكرام دون اكتراث، لكن هذه الأشياء كانت تنتصب ماثلة أمام ناظرَيْ زوربا كأنها ألغاز مرعبة. فهو يرى امرأة تمر أمامه، فيقف والرجفة تنتابه ويتساءل: «ترى ما كُنه هذا السر؟ وماذا تعني المرأة بالنسبة لنا؟ ولماذا تنبري المرأة لفك مسامير عقلنا اللولبية؟ فما هذا السر مرةً أخرى؟ هل لك أن تخبرني به؟». وبالمثل، فهو يحملق ويتساءل أثناء تطلعه بدهشة إلى شخص، أو إلى شجرة مزهرة يافعة، أو إلى كوب من الماء البارد المنعش. فكل شيء يراه زوربا كل يوم كان يبدو كأنه يراه لأول مرة.

وعندما جلسنا أمس خارج السقيفة التي تشبه الكوخ، كان زوربا يحتسي كوبًا من النبيذ، فالتفت نحوي ورمقني مرتاعًا، ثم قال: «ما هذا الماء الأحمر مرةً أخرى، يا رَيِّس، هلاَّ أخبرتني! إن ساق شجرة قديم ينبت أغصانًا وبراعم، تتعلق بها أهداب من ثمار حمضية لاذعة، ويمر الوقت فتحمصها الشمس حتى تنضج، وتصبح حلوة مثل العسل، ونسميها العنب. وبعدها نهصرها بالأقدام فيخرج منها عصير نضعه في براميل، فيتخمر من تلقاء نفسه، وعندما نفتح هذه البراميل في عيد القديس

"يورغوس ميثيستيس" خلال شهر أكتوبر، نأخذ منها النبيذ! فأي أعجوبة كامنة في هذا؟ فأنت تجرع النبيذ، أجل تجرع هذا العصير الأحمر، فتسمو الروح وتنتشي، ولا يمكن أن يستحوذ على الروح أبدًا وغدٌ زنيم، يتحدى الإله أو يدعوه إلى المصارعة. فما هذه الأمور، يا رَيِّس، هلاَّ أخبرتني؟».

لم أنبس ببنت شفة، فقد كنت أحس- وأنا أصغي إلى زوربا- أن عذرية الكون تتجدد. فجميع الأحداث اليومية المعتادة، والأحداث التي ذبلت وحال لونها، استردت بريقها الذي كانت تحظى به خلال الأيام الأولى التي خُلِقَتْ فيها على أيدي الله: الماء، والمرأة، والنجمة، والخبز... أجل ارتدَّت إلى منبعها الأصلي الأول الحافل بالأسرار، كما استردت العجَلَة القدسية سرعتها في عبور الفضاء.

أجل! من أجل هذا السبب، كنت أنتظر زوربا كل مساء بشوق عارم وتلهف، وأنا أتمدد على الحصى المتناثر على الساحل. كنت أشاهده وهو يسير بمشيته المنفرجة المتثاقلة، يغطيه الوحل تمامًا، ويتناثر سناج الفحم على وجهه؛ أجل كنت أراه وهو ينبثق من أحشاء الأرض مثل جرْذٍ هائل الحجم! ومن بُعْدٍ كنتُ أدرك كيف سارت الأعمال اليوم، أجل تعودتُ أن أدرك ذلك من رجفة بدنه، ومن هامته المنكسة إلى أسفل، أو من رأسه المشرعة عاليًا، ومن الطريقة التي كان يحرك بها يديه الكبيرتين الطويلتين.

وفي مبدأ الأمر، كنتُ أذهب أنا نفسي بصحبته لأراقب العمال أثناء أدائهم لعملهم، وكنتُ أتشاحن معه بشأن اتخاذي لمسار جديد، أو اهتمامي بتنفيذ الأعمال ذات الطابع التطبيقي، أو لأنني أحب ما وقعت عليه عيني

من مسلك إنساني؛ أو لأني أود أن أجرب البهجة والفرح اللذين كنت أتوق إليهما منذ أمد بعيد، وهو ألا أتعامل بالكلمات المجردة سوى مع البشر الأحياء. فقد كنتُ أروم أن أخطط لمشروعات رومانسية، منها أن تسير الأعمال على ما يرام في استخراج الفحم الحجري، وأن ننشئ نوعًا من المجتمع الاشتراكي (= الكوميونة) نعمل فيه جميعا، ويصير كل شيء مشاعاً بيننا: أن نتناول طعامنا سويًّا، أن نأكل الطعام ذاته، وأن نلبس الملابس ذاتها، وكأننا أخوة أشقاء. أجل، لقد خلقتُ مجتمعاً جديداً في ذهني، قوامه عبارة عن خميرة لتعايش جديد بين البشر...

غير أنني لم أكن قد قررت بَعد أن أكشف عن خططي لزوربا؛ إذ كنت أشاهده وهو يرمقني في حيرة وقد أُسقط في يده، وأنا أتجول بين العمال، وأوجه إليهم الأسئلة، وأتدخل لأقف منحازًا إلى صف العمال على الدوام. وإزاء ذلك، كان زوربا يزم شفتيه ويقطبُ حاجبيه، ويقول لي: «يا رَيِّس، لماذا لا تذهب للتنزه في الخارج؟ فالشمس، بهجةُ رب العالمين، غدتْ ساطعة!». غير أنني لأول وهلة كنتُ أصر على البقاء ولا أرحل. كنت أسأل العمال وأدردش معهم، وكنت أعرف سيرة حياة كل عامل منهم: الأبناء الذين يعولونهم، وأخواتهم اللائي يعتزمون تزويجهن، وآباؤهم المسنون المعوزون أو المرضى أو العاجزون؛ كنت أعرف همومهم وأمراضهم وعذاباتهم.

وكان زوربا يقول لي وهو عابس متجهم: «لا تنبش، يا رَيِّس، في تفاصيل حياتهم؛ لأن قلبك سينقبض ويحزن، وسوف تحبهم أكثر من اللازم، وهذا لا يخدم صالح عملنا؛ فأيًّا كان ما يقترفونه من تجاوزات

فسوف تسامحهم وتغفر لهم... وآنذاك، واحسرتاه! سوف يذهب العمل إلى الشيطان، ولك أن تعرف هذا. فالعمال يرهبون جانب الرئيس الصارم الحازم القاسي، كما أنهم يوقرونه ويعملون- جراء هذا- بهمة ونشاط؛ أما الرئيس المتساهل اللين، فإنهم يستهينون به ويتجرأون عليه، فيتكاسلون عن أداء العمل. هل فهمت؟».

وذات مساء آخر، أقدم زوربا، وكأنه فرغ من عمله، على قذف معوله خارج الكوخ، وقد بلغ به الغضب أقصى حدوده، ثم قال: «إيه، يا رَيِّس، من فضلك لا تتدخل في عملي! فأنا أبني وأشيد وأنت تفسد وتتلف بما تفعل. فما هذا الذي قلته لهم اليوم بربك؟ إنك تحدثهم عن الاشتراكية وعن الشبع حتى التخمة! تُرى، هل أنت حقًّا واعظ مبشر أم رأسمالي؟ يجب عليك أن تختار أحدهما».

وتساءلتُ فيما بيني وبين نفسي عن ماذا يجمل بي أن أختار! لقد كان الشوق البسيط للربط بين الموقفين أو الوظيفتين يكاد يلتهمني، كنتُ أتوق إلى أن أجد مزيجًا يربط بين النقيضين المهلكين ربط الشقيق بشقيقه، وإلى أن أكْسبَ الحياة الأرضية جنبًا إلى جنب مملكة السماء. فمنذ سنواتٍ، ومنذ أن كنت غلاما صغيرًا- عندما كنت لا أزال تلميذًا في المدرسة- أقمت مع أصدقائي الحميمين جدًا جمعية سرية اسمها «جمعية الصداقة»، هكذا أسميناها؛ وأقسمنا كلنا، ونحن مجتمعون سراً في غرفتي، أننا سنظل جميعًا طوال حياتنا نكرس حياتنا للحرب ضد الظلم وانعدام العدالة. وسالت الدموع مدرارًا من مآقينا في اللحظة التي وضعنا فيها أيدينا فوق أفئدتنا ونحن نؤدي القسم.

كانت مجرد تصرفات طفولية، ومع ذلك، فواحسرتاه على الإنسان الذي يسمعها ويقهقه ضاحكًا! فعندما أشاهد كيف آل بنا المآل أخيرًا، نحن أعضاء «جمعية الصداقة»، بعد أن غدونا أفراداً مغمورين من الأطباء، والمحامين، والتجار، ورجال السياسة، والعاملين بالصحافة- أحس بقلبي ينقبض- ففيما يبدو أن البيئة التي كنا نعمل فيها كانت خشنة قاسية جدًا، وأن البذور الأكثر قيمة وثراءً لم يقدر لها أن تنبت، أو أنها اختنقت بسبب نبات البابونج ونبات القراص الشائك. وعلى الرغم من ذلك، فمما أراه، لم أكتسب حتى الآن مغرفةً ما؛ كما أنني الآن لا أزال على استعداد، حمدًا لله وشكرًا، لخوض غمار غزوات دون كيخوتية(*).

وعندما كان يحل يوم الأحد، كان الصفاء يلفنا (أنا وزوربا)، فنصبح مثل عروسين اختلفا وافترقا ثم عادا إلي سيرتهما الأولى، فكان كل منا يرتدي قميصًا أبيض نظيفًا، ونذهب عند الأصيل إلى فندق مدام "أورتانس". وكانت المدام تذبح لنا كل يوم أحد دجاجة وتطهوها، ونجلس ثلاثتنا إلى المائدة من جديد، نأكل ونشرب. وكان زوربا يمد يديه الكبيرتين الطويلتين نحو صدر المرأة الذي يشبه المرفأ الآمن، ويقدم على الاستحواذ عليه. وعندما كان الليل يجن، كنا نذهب سويًا إلى ساحل البحر الأثير لدينا؛ كانت حياتنا تبدو مواتية ومتعاطفة معنا، حقًا كانت الحياة مثل عجوز ثقيلة الظل، لكنها كانت شهية ومستساغة إلى أقصى

(*) إشارة إلى شخصية "دون كيخوته"، الشخصية المحورية فى رائعة "سرفانتيس" (بالإسبانية: "ثيربانتيس")؛ وهى شخصية تعيش فى الوهم، وتحلم بالبطولة، وتحارب طواحين الهواء. [المترجم].

حد، وسخية جدًا مثل مدام "أورتانس".

وفي يوم أحد مماثل لأيام الآحاد هذه، حينما كنتُ راجعًا بعد تناول الطعام الشَّهِي واحتساء الشراب الرَّوِي، قررتُ أن أفتح فمي وأن أسر إلى زوربا بمكنون خططي ومشروعاتي. وكان هو يصغي إليَّ مشدوهًا فاغرًا فاه، متصنعًا الصبر والتريث، وكان ما بين الفينة والأخرى يهز رأسه الغاضبة؛ وبمجرد سماعه الكلمات الأولى التي خرجت من فمي أفاق من سكره، وغدا ذهنه صافيًا، وما إن انتهيت من كلامي انبرى لنتف شعرتين من شاربه بعصبية، ثم قال: «لعلني أنال إعجابك، يا رَيِّس، لكنني أظن أن عقلك مثل العصيدة أو الهريسة. خبرني بربك: ما هو سنك؟». قلت: «خمسة وثلاثون عامًا». فرد: «إيه! إذن فلن يقدر لهذا العقل أن يتخثر أو يتجمد أبدًا». قال هذا ثم انفجر ضاحكًا. أما أنا فقد اغتظتُ واستبدَّ بي الغضب، وبادرته قائلًا: «هل أنت ممن لا يثقون في الإنسان؟».

فقال زوربا: «لا تغضب، يا رَيِّس، فأنا لا أثق في شيء البتة. فلو أنني كنت أثق في الإنسان لكنت قد وثقت في الله، ولكنت قد وثقت في الشيطان؛ ولكان هذا بمثابة نكد لا أول له ولا آخر. إن الأمور قد انقلبتْ وتداخلتْ، يا رَيِّس، وسعيتُ إلى حَتْفي بِظِلفي».

قال هذا ثم لاذ بالصمت، وبعدها خلع قلنسوته وهرش رأسه مثل مجنون، وأخذ ينتف شاربه من جديد وكأنه أراد أن يجتثه من جذوره؛ كان يريد أن يقول شيئًا لكنه كبح جماح نفسه. ثم نظر إليَّ شذرًا من طرف عينه، وعاد ليرمقني من جديد، وبعدها اتخذ قرارًا فقال:

«إن الإنسان بهيمةٌ من البهائم! مجرد حيوان!». قال هذه العبارة بصوت

كالصياح وأهوى بعصاه على الصخور. وأردف قائلًا: «أجل! بهيمة كبيرة من البهائم لا تدركه دماثة خلقك، فكل شيء يأتي إليك حقًا في يسر وسلاسة، واسألني أنا. قلتُ لك إنه من البهائم! تعامله معاملة فظة وتظهر له الشر، فيجلك ويوقرك ويرتعد منك فرقاً. وتعامله برقة ولطف، فيفقأ منك العيون. اجعل بينك وبينه مسافة، يا رَيِّس! ولا تشجع أمثال هؤلاء البشر، ولا تقل لهم إننا جميعًا سواسية، وإننا كلنا نحظى بالحقوق نفسها؛ لأنهم سرعان ما يدوسون بالأقدام حقك، وسيخطفون لقمة العيش من فمك، وسيتركونك تهلك أو تموت جوعًا. اجعل بينك وبينهم مسافة، يا رَيِّس، فأنا أريد لك الخير بالفعل!».

فقلتُ له وأنا أكاد أنشقُ من الغيظ: «فهل إذن لا تثق في شيء البتة؟». قال: «لا! لا أثق في شيء أبدًا. كم مرة يتعين عليَّ أن أقول لك هذا؟ أنا لا أثق في شيء بتاتًا، حتى فيك أنت؛ أنا لا أثق إلا في زوربا، لأن قوتي كامنة في شخصه، ولأنني لا أعرف سواه، وكل الآخرين مجرد أشباح أو أطياف. أنا أراه بعيني، وأسمعه بأذني، وأهضم طعامي بأمعائه. أما الآخرون- كما قلت لك- فهم مجرد أطياف وخيالات. وبمجرد أن أموت أنا سيموت كل شيء. وسيهوى عالم زوربا غريقًا إلى القاع!».

فقلت له بسخرية: «يا لها من أنانية، يا هذا!». فرد: «وماذا أفعل، يا رَيِّس؟ هذا هو حالي. طعامي كان اللوبيا، ولذا أتكلم عن اللوبيا. وأنا زوربا وأتحدث عن صفات زوربا». لم أنبس ببنت شفة، إذ نزلت كلمات زوربا مثل السياط عليَّ. شعرت بالإعجاب تجاهه لأنه كان على هذه الدرجة من القوة، وكان باستطاعته أن يمقتَ الناس إلى هذا الحد، ولأنه في

الوقت نفسه كان يحظى بمزاج يجعله مقبلاً على الحياة، وعلى الصراع مع البشر. أما أنا، فواحسرتاه عليَّ! فإما أن أصبح ناسكًا أو راهبًا، أو سأزود الناس بأجنحة مزيفة، كي أحتملَ ما يصدر عنهم.

أما زوربا، فقد التفتَ وحملقَ في وجهي؛ وعلى ضوء النجوم تبينت أن فمه قد افتر عن ابتسامة عريضة، وأن ابتسامته قد وصلت حتى أذنيه. بعدها توقف كي يقول لي: «هل ضايقتك، يا رَيِّس؟». كنا آنذاك قد وصلنا إلى الكوخ. فآثرت أن ألوذ بالصمت؛ كان عقلي منسجمًا مع آراء زوربا، ولكن قلبي كان يقاوم ويعارض ما قال؛ إذ كان قلبي ذاته يريد أن يأخذ جولة يهرب فيها من البهائم، وأن يشق لنفسه طريقًا. فقلت: «لا أشعر الليلة بالنعاس، يا زوربا؛ فأَطِلْ وحياتك فى حديثك حتى تنام».

ارتجفتْ النجوم، واستعادَ البحر هدوءه، وأخذ يلعقُ محاراته وأصدافه؛ وومض بريق لامع ينبعث من بطنه، ليضيء فناره الأخضر الذهبي الموحي بالغزل والحب؛ وتساقطت من شعيرات الليل قطرات من الماء.

استلقيتُ على رمال الساحل وغرقت في الصمت بغير أن أمعن التفكير في أي شيء، وتوحدتُ مع الليل ومع البحر، وغدتْ روحي مثل مصباح يبرق وينير الفنار الموحي بالحب والغزل، واستقرت روحي فوق التراب الأسود المحيط بي وشرَعَتْ في الانتظار.

تحركت النجوم في مداراتها، ومرتْ الساعات على هذا النحو، وعندما نهضتُ من رقدتي أحسستُ أنه في أعماقي- دون أن أعرف كيف- قد حُفر بصورة نهائية ضِعْفُ الدين الذي كان عليَّ أن أفي به إلى هذا الساحل؛ ودار الحوار التالي:

أ - «دعني أتخلص من بوذا، وأن أُحَمِّل الكلمات بجميع صنوف القلق الميتافيزيقي، وأن أتحرر منها».

ب- «دعني أتقدم، من الآن فصاعدًا، إلى الهدوء والسكينة، وإلى عقد صلة حميمة مع الناس».

وقلت لنفسي: ربما لا يزال هناك وقت لذلك!

(5)

وصلتني دعوةٌ جاء فيها ما يلي: «إن كان يروقك ذلك، فتفضل بالحضور إلى منزل العم "أناغنوستيس"، شيخ القرية المبجل، كي تتناول وجبة شهية. وسيمر عامل النظافة اليوم على القرية لإخصاء الخنازير؛ أما السيدة "أناغنوستينا" فسوف تقدم لكم وجبة من خصيات الخنازير- على حد وصفها- المشوية؛ ولكي تزجوا أيضًا التحية لحفيدهم ميناس الذي يحتفل اليوم بعيد ميلاده».

حينما تَدلف إلى منزل كريتي ريفي تحس بسرور لا مزيد عليه؛ فكل ما حولك يوحي بالعظمة والخلود: فأنت تشاهد المِدفأة، ومصباحًا معلقًا بجوار المدفأة، والجرار المملوءة بالزيت والحبوب؛ وحينما تمضي إلى اليسار- داخل كوة في الجدار حيث يوجد تجويف خاص لحامل الزير- فثمة زير به ماء بارد، فتحته مغلقة بسدادة بها شوكة. وعلى العوارض الخشبية المستخدمة كدعامات للسقف، كانت تتدلى حزم من السفرجل والرمان والأعشاب ذات الرائحة العطرة: المريمية والنعناع وإكليل الجبل والزعتر.

وفي عمق المنزل توجد ثلاث أو أربع درجات سُلَّم تصعد عليها إلى الأريكة، حيث يوجد سرير ذو ثلاثة قوائم، وفوقه الأيقونات المقدسة والقنديل المضيء. وقد يبدو منزلك خاليًا، ومع ذلك فهو يحتوي على كل شيء. فالإنسان الحق ليس بحاجة إلا لأشياءٍ جِدًّ قليلة.

كان النهار مشرقًا بالبهجة السماوية، وكانت شمس الخريف الرقيقة غاية في العذوبة، فجلسنا خارج المنزل وافترشنا الأرض المنبسطة تحت شجرة زيتون ثمارها دانية. كنا نلمح البحر، مِن بُعد، من بين أوراقها الفضية، نلمحه هادئًا يبرق في سكونه. وكانت السحب المتفرقة تمر فوقنا، فتحجب الشمس عنا وتعاود حجبها، حتى إنك لتظن أن العالم يتنفس تارةً وهو مبتهج مسرور، وتارةً أخرى وهو مستاء حزين.

وعلى الناحية الأخرى من الأرض المنبسطة، كنا نسمع – من داخل حظيرة مُسورة صغيرة – صراخ خنزير يجري إخصاؤه يصم آذاننا، كان الخنزير يتأوه ويصرخ من فرط الألم، ومن داخل المدفأة كانت تتناهى إلينا رائحة خصيتيه وهما تشويان على الفحم.

كنا نتحدث عن الأشياء المعتادة دائمًا: عن البَذر والحصاد، وعن تعريشات الكروم، وعن المطر. كنا نصيح بصوت عالٍ لأن الشيخ الموقر لم يكن يسمع جيدًا؛ مع أنه يقول إن لديه أذنًا مرهفة. كان حديث العم "أناغنوسيتس" جذابًا طليًا، وكانت حياته ساكنة هادئة، مثل شجرة نامية في غور محجوب عن الرياح. فلقد وُلد وشب عن الطوق، وتزوج وأنجب أبناء، ورزق بأحفاد، مات بعضهم وما يزال آخرون على قيد الحياة، وأَمَّن مستقبل أسرته وذريته.

استعاد الشيخ الكريتي ذكرياته القديمة خلال سنوات الاحتلال التركي، وأخذ يحكي ويعاود الحكاية بكلمات معبرة عن روح العصر الذي عاشه، فتحدث عن المعجزات التي حدثت إبان ذلك العصر، لأن الناس كانوا آنذاك مؤمنين ويخشون الله حق خشيته. فقال: «أجل! فأنا ذاتي، الذي تشاهدونه بأم أعينكم، أنا العم "أناغنوسيتس" ولدتُ بفعل معجزة. أجل بمعجزة. ودعوني أقص عليكم كيف حدث هذا، وساعتها سوف تتعجبون وتقولون: "إلَهنا! يا رب السموات!"؛ ولسوف تذهبون إلى دير السيدة مريم العذراء لتوقدوا لها شمعة».

وهنا رسم العم "أناغنوسيتس" علامة الصليب، وبدأ يتحدث رويدًا رويدًا بصوته الهادئ العذب، فقال: «في قريتنا، حسناً كما تقولون، أثناء تلك الحقبة الزمنية، كانت هناك امرأة تركية ثرية- لا طيب الله ثراها- وكانت هذه الملعونة حاملاً، وحلت ساعة إنجابها الطفل. فحملوها على محفة، وهي تئن وتتأوه وتخور مثل البقرة، لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال؛ ولكن الطفل لم يخرج إلى النور. وفدت صديقة لها- لا طيب الله ثراها- لتساعدها، وقالت لها: "أفلا تصيحن يا "زفير-خانوم" (أي: يا سيدتنا التقية)، وتقولين: "ماري-مانا.. ماري-مانا"؟ (أي= يا أمنا مريم)(*)».

«تأوهت إذن هذه المرأة الكلبة الكافرة وهي تزفر من فرط الألم، وردت عليها: «أهذا ما ينبغي أن أهتف به؟ هل لا بد أن أقول هذا؟ أفضل لي أن أموت على أن أنطق به!». لكن الآلام التي استبدت بها كانت رهيبة.

(*) كانت عبارة "ماري-مانا" هي الاسم الذي كان يطلقه الأتراك آنذاك على مولاتنا السيدة العذراء مريم، ذات الفضل السابغ والخير العميم. [المترجم].

وانقضى نهار يوم وليلة، كانت المرأة خلاله تتأوه ولكنها لم تلد. فماذا يتعين عليها أن تفعل؟ كانت عاجزة عن احتمال الألم أكثر من ذلك، فجأرت بأعلى صوتها: «ماري-مانا... ماري-مانا» (= آه! يا أمنا مريم! باللغة التركية). وأخذت تصرخ وتصرخ، ولكن الآلام لم تتوقف، ولم يخرج الطفل إلى النور. وهنا قالت صديقتها: «إنها لم تسمعك ولم تفهمك، فمريم العذراء لا تعرف اللغة التركية؛ اصرخي وانطقي باسمها الرومي (= اليوناني)، وقولي: "يا مريم العذراء، يا قديسة الروم". فصرخت حينئذٍ المرأة بأعلى صوتها وهي تهتف: «يا مريم العذراء! يا قديسة الروم!». ولكن لسوء الحظ ازدادت الآلام. فقالت لها صديقتها من جديد: «لم تناديها جيدًا، يا ست هانم! لم ترفعي صوتك عاليًا؛ ولذلك فلم تأت!». وعندئذٍ صاحت المرأة، المناهضة للمسيحيين، عندما أحست بالخطر المحدق بها، صاحت بأعلى صوتها قائلة: «آه! أيتها البتول مريم!». وفي التو، انزلق من رحمها الطفل مثلما ينزلق ثعبان الماء».

«حدث هذا أثناء يوم من أيام الآحاد؛ ولكم أن تشاهدوا ما حدث من حظ حسن: ففي يوم الأحد التالي بعد هذا الأحد، شعرت والدتي بآلام في بطنها، إذ كانت هذه التعسة تتألم بدورها، أجل كانت والدتي تتألم، وكانت تجأر بالصراخ. كانت تصيح بصوت عال: "آه! أيتها البتول مريم! آه! أيتها البتول مريم!" غير أنها لم تجد للخلاص سبيلاً؟ كان والدي يجلس على الأرض وسط الفناء: لم يكن يأكل ولم يكن يشرب من فرط كربه واكتئابه. كان ما يشغل باله هي العذراء مريم، وكان يفكر على النحو التالي: "ذات مرة جأرت امرأة كافرة ملعونة بالصراخ، فخفَّفتْ مريم البتول

لنجدتها وتخليصها. والآن... لم يعد والدي قادرًا على الاحتمال أكثر من ذلك، بعدما حل اليوم الرابع (دون أن يأتي الفرج)؛ فأخذ عصاه المسننة وشق طريقه قاصدًا دير مريم العذراء في بلدة "سفاميني"، فيا لها من نجدة تلك التي أنقذتنا! أجل ذهب ودخل الكنيسة دون أن يرسم علامة الصليب، فإلى هذا الحد وصل به الغضب والحنق، وأحكم رتاج الباب خلفه، ثم وقف أمام أيقونة مولاتنا مريم وصاح: "إيه، أيتها العذراء، إنك تعرفين أن زوجتي "ماروليا" تحمل إليك حقًّا الزيت كل يوم سبت في المساء، وتوقد لك القناديل. وها هي ذي زوجتي "ماروليا" تعاني من ألم في بطنها منذ ثلاثة أيام وثلاث ليال، وتصرخ عاليًا مستنجدةً بك؛ فهل لا تسمعينها؟ هل أُصِبتِ بالصمم- فيما يبدو- فلم تسمعيها. ولو كانت حقاً امرأة تركية كافرة ملعونة مدنسة، لكنتِ ذهبتِ بسرعة كي تحرريها وتخلصيها. أما فيما يتعلق بالمسيحية، زوجتي "ماروليا"، فها أنتِ تصابين بالصمم، ولا تصيخين السمع لصراخها! فيا هذه، فلولا أنك العذراء مريم، لكنت لوحت لك بعصاي هذه هنا كي تشاهدينها"».

"قال هذا وولى ظهره للأيقونة ليذهب إلى حال سبيله من حيث أتى، دون أن يجثو إجلالاً لمولاتنا مريم. ولكن، تباركتَ يا ربنا وتعاليت! ففي تلك اللحظة أصدرت الأيقونة صريرًا حادًا وكأنها تصدعت وتكسرت. فعلى هذا النحو تصدر الأيقونات صريرًا، ولكم أن تعلموا هذا- إن لم تكونوا قد سمعتم به- إنها تصدر الصرير على هذا النحو عندما تحدث المعجزات. ولقد فهم والدي ما حدث؛ فاستدار وتمتم بعبارات الندم ورسم علامة الصليب، وصاح: "لقد ارتكبتُ خطيئة، يا مولاتي مريم،

وما قلناه لا يعدو كونه ملحاً وماءً!"(*).

"ولم يكن والدي قد وصل بعد إلى القرية راجعًا من الكنيسة، حين وصلته البشرى السارة، حين قال قائل: "فليحفظ الله لك المولود، يا "قسطنطين"، فلقد وضعت زوجتك ولداً". وكان هذا الطفل هو أنا الذي ترونه أمامكم؛ أجل أنا؛ العم "أناغنوسيتس". غير أنني ولدت وسمعي ثقيل قليلاً؛ ففي الحقيقة أن والدي قد جدَّف في حق مولاتنا مريم العذراء فقال إنها أصيبت بالصمم. وبناءً على هذا فإن مولاتنا مريم كانت لا ريب قائلة: «هكذا إذن؟ سوف أجعل أنا ابنك أصم، كي تتعلم مغبة تجديفك في حق الأرباب».

وهنا- بعد أن فرغ العم "أناغنوسيتس" من حكايته- رسم علامة الصليب، ثم أردف قائلًا: "مرةً أخرى كله خير، فليتقدس اسمك، أيها الرب! فقد كان في إمكان ربي أن يجعلني أعمى، أو جنية بحر، أو أحدب، أو- لا قدر الله- أنثى. كله خير! كله خير! إنني أجثو شكرًا لنعمتها عليَّ!". بعدها ملأ الكؤوس ورفع كأسه المترعة قائلًا: «آه، إن نعمتها وفضلها خلاصٌ وعون!»، فقلت له: «في صحتك، أيها العم "أناغنوسيتس"، متعك الله بالعمر المديد حتى تبلغ المائة عام وترى أحفاد أحفادك!».

عبَّ الرجل الطاعن في السن نبيذه في جرعة واحدة، ثم مسح شاربيه وقال: «لا، يا بني، كفاني (ما عشت من سنين)! لقد رزقتُ بأحفاد،

(*) عبارة يقولها اليونانيون للإشارة إلى انتهاء النزاع أو الخصام، والعودة من جديد إلى الصفاء والوئام. وهي تقابل في لغتنا العامية عبارة شائعة هي: "خلاص صافي يالبن! .. حليب يا قشطة!". [المترجم].

وحسبي هذا، فلا ينبغي لنا أن نطمح هكذا في أن نحوز كل ما في الدنيا! لقد حانتْ ساعتي! وغدوتُ طاعنًا في السن، يا أبنائي، ونضبتْ حيويتي، وغدوتُ عاجزًا.. قد تكون عندي رغبة في إنجاب الأولاد ولكنني عاجز عن تحقيقها. فما جدوى الحياة بالنسبة لي؟».

وعاود الشيخ المسن صَب النبيذ في الكؤوس لتترع عن آخرها، وأخرج من نطاقه بندقًا وجوزًا وتينا مجففا ملفوفًا في أوراق من شجرة الغار، وقال: «لقد وزعتُ كل ما أملك، ولم يعد عندي شيء لأبنائي. لقد داهمني الفقر وعضني بنابه، ولكني لا أهتم بذلك أو أشغل به نفسي؛ فالله كريم وعنده خزائن كل شيء!».

وهنا صاح زوربا بصوت عالٍ في أذن الشيخ المسن: «أجل، يا عمي "أناغنوسيتس": الله عنده كل شيء، أما نحن فليس عندنا شيء، وهذا الشحيح لا يهبنا شيئًا!».

ولكن الشيخ المهيب قطب ما بين حاجبيه، واكفهر وجهه وهو يقول بصرامة: «آه! لا تتهكم على الله، أيها العرَّاب! لا تجدف في حق الله، يا هذا! إياك أن تعنف الله! فهل هذا هو ما ينتظره منا؟ وهل هذا هو جزاؤه؟».

عند هذا الحد ساد بيننا الوجوم والصمت، إلى أن حملت لنا السيدة "أناغنوستينا" المشويات على إناء من الخزف، وكانت هذه المشويات عبارة عن خصي الخنازير، ودِن كبير للنبيذ مصنوعًا من البرونز. وضعت السيدة الطعام والنبيذ على المائدة، وانتصبت واقفة، وعقدت يديها على صدرها وخفضت أبصارها.

كنتُ عَازِفاً عن تذوق المقبّلات الموضوعة أمامي، غير أنني استحييت رغم ذلك أن أرفضها. ورمقني زوربا بنظرة من طرف عينه وشرع في التبسم، ثم قال مؤكدًا لي: «إن هذه هي أشهى اللحوم مذاقًا، يا رَيِّس، فلا تَعْزِف عنها». وهنا قهقه الشيخ "أناغنوسيتس" وقال: «إنه يقول الحق! وأيم الحق، تذوق وجرب. آه يا ويح عقلي! فعندما مر الأمير "چورچ"، أسعده الله! على دير بلدتنا، أعد له الرهبان مائدة طعام ملكي قدموا فيها اللحوم للجميع، ولكنهم قدموا للأمير طبقًا عميقًا به حساء. فتناول الأمير الملعقة وأخذ يقلب محتويات الطبق وهو يتساءل وقد أخذته الدهشة: "أهي فاصوليا؟". فرد عليه الكاهن الشيخ رئيس الدير: "كُل يا سمو الأمير، كل أولاً وبعدها سنقول لك".

تذوق الأمير ملعقة واثنتين وثلاثًا إلى أن أفرغ طبقه تمامًا، ثم لعق بعدها شفتيه، وقال: "يا للعجب! ما هذا؟ يا لها من فاصوليا شهية! آه يا ويح عقلي!". فرد عليه رئيس الدير ضاحكًا: "إنها ليست فاصوليا، يا سمو الأمير، أجل ليست فاصوليا! لقد قمنا بإخصاء كل الديكة في المقاطعة!"».

وهنا ضحك الشيخ الطاعن في السن، ورشق بشوكته قطعة من خصي الخنزير. ثم قال: «آه يا لها من مقبِّلات أميرية! افتح فمك». ففتحت فمي فوضعها الشيخ بداخله. بعدها ملأ الكؤوس مرةً ثانية، فشربنا نخب صغيره (الذي يحتفل بعيد ميلاده)؛ وهنا برقت عينا الجد من فرط السرور. فسألته: «أيها العم "أناغنوسيتس"، ماذا تريد أن يصبح حفيدك؟ قل لنا حتى نتمنى له هذه الأمنية"». فقال العم "أناغنوسيتس": «ماذا عساي أن أريد، يا بني؟ أريد أن يختار حفيدي النهج القويم، وأن يصبح إنسانًا خيرًا،

ورب أسرة طيباً، وأن يتزوج، وأن ينجب بدوره أبناءً وأحفادًا، وأن يكون أحد أحفاده شبيهًا بي. وأتمنى أن يراه شيوخ القرية ويقولوا: "آه يا بني، ألا إنك أشبه ما تكون بالشيخ "أناغنوسيتس"! قدَّس الله روحه! فقد كان إنسانًا طيبًا».

ثم بعد ذلك هتف مناديًا زوجته، دون أن يلتفت إليها: «يا "أنيزينيو"، يا "أنيزينيو"، املئي لنا الدّن بالنبيذ مرةً ثانية!». وفي تلك اللحظة، انفتح الباب المؤدي إلى الحظيرة الصغيرة، واندفع منه خنزير أنهكه الألم إلى الفناء الخارجي، وهو يئن ويجأر بالصراخ. وظل الخنزير يتحرك جيئةً وذهابًا أمام أعين الرفاق الثلاثة الجالسين، وهم يتسامرون مسامرة عذبة، ويأكلون خصيتيه الشهيتين.

فقال زوربا في إشفاق: «إن المسكين يتألم!...» فعقَّب عليه الكريتي الطاعن في السن بقوله ضاحكًا: «أجل! إنه يتألم حقًا! فلو أنهم فعلوا بك مثل ما فعلوا به، أفلن تظل تتلوى من الألم، يا محترم؟» فاقشعر بدن زوربا، وتمتم وهو يرتعد فرقاً: «فليُقْطَع لسانك، أيها الوغد المصاب بالصمم!». كان الخنزير يروح ويغدو أمامنا وهو يرمقنا بنظرات متوحشة شرسة. فعاود "أناغنوسيتس" الطاعن في السن حديثه، وكان قليل من النبيذ يجعل مزاجه رائقاً ومنتشياً: «وحق إيماني، أعتقد أن الخنزير يفهم أننا التهمنا خصيتيه!».

أما نحن، فقد شرعنا نأكل في هدوء، قريري العيون، المقبِّلات الشهية مثل آكلي لحوم البشر، كما أخذنا نجرع النبيذ الأسود، ونحدق في البحر من بين أغصان شجرة الزيتون وأوراقها الفضية، وكان البحر قد أصبح الآن

مثل الوردة، عندما انعكست عليه أشعة الشمس ساعة غروبها.

عندما أسدل الليل أستاره، وغادرنا منزل شيخ القرية المسن، كان زوربا قد وصل إلى ذروة النشوة، وكان يريد التسامر، فبدأ الحديث بقوله: «ماذا كنا نقول أول أمس، يا رَيِّس؟ أكنت تتحدث عن تنوير الشعب وفتح عيون الناس؟ تفضل وبادر بفتح عيني العم "أناغنوسيتس"! أرأيت كيف كانت زوجته تقف ذليلة منكمشة في انتظار الأوامر؟ اذهب الآن بنبلك وكياستك وعَلِّمهم أن المرأة لها حقوق متساوية مع الرجل، وأن من العسير جدًا أن نأكل قطعة من لحم الخنزير، والخنزير واقف حياً أمامنا يجأر بالصراخ والأنين، وأن من الحمق البالغ أن تستمتع بما يملكه الله، حتى لو هلكت أنت من الجوع والمسغبة! ترى ماذا سيكسب العم "أناغنوسيتس" البائس المنحوس من كل تفاهاتك التنويرية هذه؟ إنك سوف توقعه في المتاعب والمشاكل. وماذا ستكسب يا تُرى السيدة "أناغنوستينا"؟ سوف تبدأ المشاجرات، وسترغب الدجاجة في أن تصبح ديكًا، وسيبدأ الزوجان من الآن فصاعدًا التشاجر والمشاحنة مثل الديكة، وسينتف كل منهما ريش الآخر... دع الناس في حالهم هادئين! يا رَيِّس، ولا تفتح عيونهم، فلو أنك فتحت أعينهم، فماذا عساهم يرون؟ سيشاهدون شرَّهم وبرودةَ حياتهم! دع عيونهم إذن مغمضةً كي يحلموا!».

ثم لاذ زوربا بالصمت لحظةً، هرش فيها رأسه وطفق يفكر. بعدها قال منهياً كلامه: «اللَّهُمَّ إلا إذا... إلا إذا...». فقلت: «إلا إذا ماذا؟ دعنا نرى!». فقال زوربا: «اللَّهُمَّ إلا إذا كان بوسعك– عندما يفتحون أعينهم– أن تريهم عالما أفضل... فهل بوسعك هذا؟».

لم أكن أعرف؛ إذ كنت أعرف جيدًا ما الذى سوف ينهار ويسقط؛ لكنني لم أكن أعرف ماذا سوف يُبنى فوق هذه الأنقاض. فلا أحد بوسعه أن يعرف هذا معرفة اليقين، هذا ما طفقت أفكر فيه. الماضي العتيق موجود: فنحن نعيشه ونصارعه كل لحظة؛ أما المستقبل فلم يولد بعد، وغير ملموس، متدفق ينثال، وهو مصنوع من مادة تصاغ منها الأحلام؛ إنه سحابة تتقاذفها الرياح العتيقة، والعشق، والخيال، والحظ، والله! إنه يتباعد ويتقارب ليصبح كثيفًا، ويتغير دومًا... والنبي العظيم ليس بوسعه سوى أن يمنح كلمةً أو شعارًا للبشر، وكلما كان النبي غامضًا مُبْهمًا كلما كان عظيمًا.

كان زوربا يرمقني بسخرية وهو يبتسم؛ فأحسست بالغضب وأجبته بإصرار: «أجل بوسعي». فقال: «بوسعك؟ هيا تكلم إذن!». فقلت: «أنا لا أستطيع أن أخبرك بما يعتلج في نفسي؛ فلن تفهم». فقال زوربا وهو يهز رأسه: «إيه إذن! فليس بوسعك شيء! أو تظن أنني كنت أقتات على عشب البلاهة والغباء، يا رَيِّس؛ لقد سخروا منك. حقا إنني أُمي جاهل مثل العم "أناغنوسيتس"، ولكنني لست على هذه الدرجة من الغباء، كلا! وطالما أنني– بناءً على ما قلت– لن أفهم، فكيف تريد من هذا الإنسان الأبله ومن السيدة البقرة، رفيقة حياته، أن يفهما؟ كيف تريد ذلك من جميع من هُم على شاكلة "أناغنوسيتس"، وممن هن على شاكلة زوجته "أنيزينيو"؟ فهل سيشاهدون عندئذٍ ظلمات جديدة؟ دعهم يأنسون لحالهم، ويعيشون على نمط حياتهم القديم الذي اعتادوا عليه. فقد أبلوا بلاءً حسناً حتى الآن! أفلا تراهم؟ إنهم يعيشون ويحيون حياةً لا بأس بها، ينجبون الأطفال

والأحفاد، وقد أصابهم الله بالصمم والعمى، ومع ذلك يجأرون بالصياح والتهليل قائلين: "لك المجد يا ربنا!". لقد أفلحوا دومًا في التكيف مع البؤس والشقاء. دعهم إذن، واصمت».

لذتُ بالصمت. بعدها أخذنا نعبر بستان الأرملة، وساعتها توقف زوربا لحظةً عن السير وتنهد، ولكنه لم يتكلم. لابد أن المطر قد هطل في مكانٍ ما، حيث كان الهواء يزخر برائحة الرطوبة ورائحة التراب. وظهرت في السماء بواكير النجوم، كما تلألأ نور القمر الجديد، وأشع بنور أخضر خافت، وامتلأت السماء حتى حافتها بالعذوبة والطلاوة.

وأخذت أفكر: «هذا إنسانٌ لم يلتحق بالمدرسة، ولكن عقله ظل سليمًا لم يختل. لقد رأى وفعل وكابد الكثير من الأمور، وفتح عقله، وغدا قلبه رحباً واسعاً دون أن يفقد شجاعته الفطرية. فلقد حل هذا الشخص جميع المشاكل المعقدة المستعصية على الحل أو المستغلقة علينا، حلها بضربة سيف واحدة، مثلما فعل شريكه في مسقط رأسه الإسكندر الأكبر. ومن الصعب على هذا الإنسان أن يهوي أو يسقط بعيدًا، لأنه يستقر بكامله- من إخمص قدمه حتى مفرق شعره- على الأرض. إن المتوحشين في أفريقيا يعبدون الأفعى، لأن جسمها بأسره يلمس ثرى الأرض، وهكذا تعرف أسرار الأرض جميعها. إن الأفعى تعرف هذه الأسرار عن طريق بطنها وذيلها وأُربيتها ورأسها. إنها تلمس وتشم وتصبح متوحدة مع الأرض الأم. وزوربا على هذا النحو من التوحد؛ أما نحن المثقفين فإننا طيور السماء الحمقاء الخرقاء».

تكاثرتْ النجوم في صفحة السماء، وكانت بريةً متكبرةً وقاسيةً ليس

لديها ذرة من شفقة على البشر. لم أتحدث بعد ذلك، وشرعنا كلانـا نتفـرس في صفحة السماء بخوف ورهبة، إذ كنا نشعر تماماً أن هنـاك نجومـاً أخـرى سوف تبرق في السماء، وسوف تشتعل الحرائـق. ثـم وصـلنا إلى الكـوخ؛ لـم تكن عندي شـهية لتنـاول الطعـام، فجلسـت على صـخرة ممتـدة في ميـاه البحر. أما زوربا فقد أشعل النار وتنـاول طعامـه، وتظـاهر بأنـه جـاء لـكي يطمئن عليّ، لكن سرعان ما ساوره النـدم، فـسقط على الحـشية واسـتغرق في النوم.

كان البحر يبدو كأنـه قـد تجمـد، فلـم تكـن الميـاه فيـه تتحـرك، أمـا الأرض التي كانت راسخة لا تتزعزع تحت البريـق الشـائر، فكانـت صـامتةً بدورها. ولم يكن يُسمع نباح كلـب واحـد، ولـم يكـن طـائر مـن طيـور الليل ينوح حزناً، بل كان الصمت عميقًا. كان صمتًا مخـادعًا خطـراً مجبـولاً من آلاف الصرخات القصية جـدًّا، أو لعلـه كان داخلنـا إلى أقـصى درجـة، بيد أنه لم يكن يُسمع. كنت أصغي فحسب للضجة الـتي كان يحـدثها دمي، وهو يتدفق بقوة في وجنتيْ وفى الأوردة الرئيسة في رقبتي.

أخذتُ أفكر وبدني يقشعر في «لحـن النمـرا»: فـفى الهنـد عنـدما يجـن الليل، كانوا يترنمون ببطء بالغ بلحن حزين رتيـب، يـصاحب أغنيـة بريـة بطيئة، مثل وحش بعيد فاغراً فاه- أجل "لحن النمـر". آه إن قلـب الإنـسان مترع حتى حافته برعب يستعصي وصفه أو التعبير عنـه. وعنـدما أمعنـتُ الفكر في هذا اللحن المرعب، شرع صدري شيئًا فشيئًا يُترع حـتى حافتـه، وبدأت الآذان تستيقظ وترهف السمع، وبـدأ الـصمت يتحـول إلى صـخب وضجيج، وبدأت النفس تمتد وتنتشر، حيـث إنهـا مجبولـةٌ هي نفـسها مـن

اللحن ذاته، كما أخذت تتقدم والقلق يعصف بها لتنطلق خارج الجسد وتصفي.

انحنيتُ وملأتُ كفي بخفة من مياه البحر، وبللتُ جبهتي ووجنتي فشعرت بالانتعاش. كانت هناك صرخاتٌ مسموعةٌ بداخلي، وهي صرخات مفزعة مقبِضَة نافدة الصبر، وبداخلي كان هناك نمر يصرخ. وعلى حين غرة سمعتُ بوضوح صوتًا يقول: «بوذا! بوذا!». انتفضتُ وقفزتُ واقفًا؛ غذذتُ السير بسرعة على طول الساحل، كما لو كنتُ أريد الهرب. وكنتُ كلما انفردتُ بنفسي مساءً، والصمت العميق مخيم حولي، أسمعُ هذا الصوت مراراً وتكراراً؛ في بدايته يكون حزيناً متوسلاً مثل المرثية، ولكنه رويدًا رويدًا يزمجر ويقسو ويشاكس ويعطي الأوامر. كما أنه يركلُ صدري، وكأنه جنين حان ميعاد خروجه إلى نور الحياة.

كان الوقت يقتربُ من منتصف الليل. وكانت سحبٌ سوداء قاتمة قد تجمعت وتراكمت في صفحة السماء، وعلى إثر ذلك تساقطت قطراتٌ غليظة من المطر على ذراعيَّ. غير أن عقلي كان في مكان آخر؛ إذ كنت قد انغمستُ في جو متوهج متقد، وكنت أحس أن على وجنتيَّ اليمنى واليسرى خصلتين من النار. «لقد حانت اللحظة، وفكرتُ وبدني يقشعر أن عجلة بوذا قد أخذتني معها واستحوذتْ عليَّ، حانت اللحظة التي أتحرر فيها من كل عبء قدسي داخلي».

عُدت وأنا في عجلة من أمري إلى الكوخ، وأوقدت القنديل. وعندما وقع الضوء على وجه زوربا اختلج جفناه، ففتح عينيه وتطلع إليَّ وأنا أنحني فوق الأوراق وأكتب؛ أصدر زوربا دمدمة أو همهمة لم أسمعها، وفجأةً

استدار في رقدته وواجه الحائط وغط بعدها في النوم. أخذت أكتُب بسرعة بغير راحة أو توقف؛ فقد كنت في عجلة من أمري.

كان بوذا في قمة نشاطه مستعداً وهو قابع داخلي، إذ رأيته ينفرط وينحل من عقاله من شغاف قلبي، مثل لفافات لازوردية زاخرة بالكتابة والمعرفة، كانت تنحل بسرعة فائقة، وكانت يدي تسرع في الكتابة كي تلحق بها. أخذت أكتبُ وأكتبُ، وكان كل شيء يتم بسهولة وبساطة؛ وكأني لم أكن أكتبْ بل كنت أنسخ وأنقل. كان كل شيء يتبدى أمامي ويومئ لي وكأنه مصنوع من العطف والحنان وإنكار الذات والهواء؛ أجل كل شيء: بلاط بوذا، نساء الحريم، العربة الذهبية، ربات القدر الرهيبة الثلاث(*)، الشيخوخة، المرض، الموت؛ الهرب، الممارسة، الافتداء، موعظة الخلاص. كانت الأرض تزهر وروداً صفراء، وكان الشحاذون والملوك يرتدون أردية صفراء، غدت الصخور خفيفة، ومثلها الأخشاب والأجساد؛ أصبحت النفوس هواءً وأنفاساً، واختفت الأنفاس. كلَّت أصابعي من فرط الكتابة، غير أنني لم أشأ التوقف ولم أستطع؛ كانت الأطياف والصور تمر بسرعة، وتهرب، وكان يتعين عليَّ أن ألحقَ بها.

وعندما حلَّ الصباح وجدني زوربا وقد انحنى رأسي على المخطوطة التي كنت أدونها، ورحتُ في سبات عميق.

(*) كان القدر يصوَّر- في الأساطير اليونانية القديمة- بثلاث ربات، إحداهن تغزل خيط الحياة وتُسمى "كلوثو"؛ والثانية تقدر طوله وتُسمى "لاخيسيس"، والثالثة تقطعه حينما يحل الأجل المحتوم وتُسمى "أتروبوس" (= التي لا محيص عنها). [المترجم].

(6)

كانت الشمس قد ارتفعت بمقدار رمحين (= 33 قدمًا)، عندما استيقظت من نومي؛ وكانت يدي اليمنى قد تيبست وكلَّت من فرط الكتابة، ولم أعد قادرًا على تحريك أصابعي. كان سيل المطر قد توقف عن الهطول فوقي وتركني مرهقًا خاوي الوفاض.

انحنيت ولملمت الأوراق التي بها المخطوطة، وكانت قد تبعثرت على الأرض، ولم تكن لديَّ رغبة ولا مقدرة على النظر فيها؛ كما لو كانت الأوراق بمثابة هذا الحلم العنيف الملهم بأسره، ولم أكن أريد أن أراه يحبسني أو يحتجزني، ولا أن أقلل من قيمته أو أهميته بأن أدونه بالكلمات.

كان المطر يهطل اليوم بعذوبة ونعومة، وكان زوربا قبل رحيله قد أوقد من أجلي المدفأة(*)، فظللت طوال اليوم جالسًا أمامها وقد ثنيتُ قدميَّ ومددتُ يديَّ فوق نارها دون أن أتناول طعامًا، وبغير أن أتحرك، وطفقت

(*) الكلمة المستخدمة فى النص اليونانى هي "الكانون"، وهي تعنى تقريباً "المدفأة" أو "الموقد". وهي كلمة كانت مستخدمة فى لغتنا العامية إلى وقت ليس بالبعيد. [المترجم].

أصغي لصوت هطول بواكير المطر التي تتساقط قطراتها بهدوء.

لم أكن أفكر في شيء، بل كان عقلي- الذي كان يدور كمثل الفأر الأعمى داخل كومة من التراب الذي غمره الماء- قد استسلم للراحة والاسترخاء. كنتُ أسمع أصواتًا متفرقة لضجيج وصراخ وصرير وطحن ينبعث من باطن الأرض، وكنت أشاهد قطرات الماء تسقط، والبذور المدفونة في الثرى تنتفخ على إثر ذلك. كما كنت أحس أن السماء والأرض يتضاجعان مثلما كان الحال في أساطير الحقب الأولى للخليقة، أجل يتضاجعان مثل رجل وامرأة وينجبان أبناءً. وقبالتي على امتداد الساحل، كنت أصغي لصوت البحر وهو يزمجر ويلعق الساحل، مثل حيوان ضخم مفترس يمد لسانه لكي يشرب.

كنتُ محظوظًا، وكنتُ أدرك هذا. فطالما نرفل ونرتع في السعادة لا نحس بمشكلة أو صعوبة؛ فقط حينما يمر بنا الزمن ونتطلع خلفنا، ندرك بغتة- وأحيانًا ندرك هذا بما يشبه المفاجأة- أننا كنا محظوظين. أما عن نفسي، فقد عايشتُ السعادة على هذا الساحل الكريتي، وأدركت- في الوقت نفسه- أنني سعيد محظوظ.

كان البحر شاسعًا يمتد حتى سواحل أفريقيا، وما بين الفينة والأخرى كانت رياح الجنوب الحارة للغاية تهب؛ كانت رياحًا ساخنة مصدرها الرمال البعيدة الملتهبة. وكانت تنبعث من البحر صباحًا رائحةٌ تشبه رائحة البطيخ، أما في المساء فكان البحر يتنفس برائحة الورود المختلطة بالنبيذ، والباذنجان ذي اللون الأزرق الداكن.

وعندما حلَّت ساعة الأصيل أخذتُ ألهو وأملأ كفي بالرمال الصفراء

الناعمة، ثم أتركها لتنزلق وتنثال وهي دافئة ناعمة، من خلال أصابعي. ما أشبه هذه الحفنة في الكف بالساعة المائية! فمثلها تمضي الحياة وتضيع، أجل تضيع! وها أنذا أتطلع إلى البحر وأسمع صوت زوربا، ووجنتاي تصدران زفيفًا من فرط السعادة.

وتذكرتُ ذات مرة ابنة أخي الصغيرة «ألكا» التي كان سنها أربع سنوات، عندما كنا نتسكع عشية رأس السنة، ونشاهد واجهة أحد محال بيع لعب الأطفال، تذكرتُ أنها التفتت إليَّ وقالت: «يا عمي "دراكو" (هكذا كانت تسميني)، يا عمي "دراكو"، لقد نبتَ لي قرنان من فرط الفرحة!». فاقشعر بدني وارتجفتُ، وقلت لنفسي يا لها من معجزة تلك التي تمثلها هذه الحياة! لقد تعانقتْ كل الأنفس لتصبح نَفْسًا واحدة، عندما وصلت إلى أعماق جذورها! وساعتها تذكرتُ في التو أنني شاهدتُ في أحد متاحف بلد بعيد قناعًا لبوذا، مطعمًا بالأبنوس الأسود اللامع. كانت الفرحة القصوى هي التي حررت بوذا، وجعلت الصفاء يعود إليه بعد عذاب دام سبع سنوات. إذ أن الوريدين الرئيسين في جبينه، من اليمين ومن اليسار، كانا قد انتفخا من فرط السرور، لدرجة أنهما تطايرا خارج الجلد، وأصبحا بارزين مثل حلقتين من الصلب، أجل أصبحا قرنين في كامل عنفوانهما.

وقُربَ الأصيل، توقفَ المطر وصَفَت صفحة السماء. شعرتُ بالجوع، وابتهجتُ لأنني شعرتُ بالجوع، لأن زوربا سوف يأتي الآن، وسيشعل النار وسيبدأ في أداء طقوسه اليومية في الطهي والمسامرة. وكان زوربا يقول مرارًا وتكرارًا: «يا لهذه من حكاية لا نهاية لها!»، كان يقول هذه العبارة وهو يضع قِدر الطعام على النار، ثم يردف قائلًا: «ليست المرأة وحدها– ولتنعم

دائمًا في حياتها بالسعادة- هي الحكاية التي لا نهاية لها، بل الطعام أيضًا».

وللمرة الأولى على هذا الساحل أحسست بلذة الطعام. فعندما يجن المساء، كان زوربا يوقد النار بين صفين من الفحم، ويقوم بطهي الطعام، وبعدها كنا نشرع في تناول الطعام وارتشاف النبيذ، ثم نتجاذب أطراف الحديث؛ وكنت أشعر أن الطعام بدوره عملية روحية، وأن اللحم والخبز والنبيذ هي المواد الخام التي وُجدت منها النَّفس.

كان زوربا- قبل أن يأكل ويشرب في المساء بعد كده وتعبه في العمل- متكدر المزاج شاردًا، وكانت كلماته تنم عن الاستياء والملل، كما كانت الألفاظ لا تكاد تخرج من بين شفتيه إلا بالصنارة؛ أما إيماءاته وحركات يديه فكانت متثاقلة متعبة خرقاء تفتقر إلى اللباقة. ولكن ما إن يُلقِي- حسب قوله- بالفحم في الماكينة، حتى تدب الحياة في مصنع جسده المخدر المتراخي، إذ كان يطلق العنان لسرعته لتصل إلى أقصاها ويشرع في العمل. كما كانت عيناه تبرقان وتتألقان، وذاكرته تُشْحَذ وتنشط، وقدماه تتخذان جناحين، ويشرع في الرقص.

وذات مرةٍ قال لي: «أخبرني ماذا تفعل بالطعام الذي تأكله، وسأنبئك مَن تكون. فهناك أشخاصٌ يحولون الطعام إلى شحم وبدانة وروث، وآخرون يحولونه إلى عمل ومزاج، وآخرون- كما سمعت وكما يقال- يحولونه إلى شيء مقدس. الناس إذن على ثلاثة أنواع؛ وعن نفسي، يا رَيِّس، فلستُ واحدًا من الأسوأ ولا واحداً من الأفضل؛ إنني أقف في المنتصف بينهم. والطعام الذي آكله أحوله إلى عمل ومزاج. وهذا في حد ذاته أمر لا بأس به!».

ثم رمقني بخبث وضحك، وقال بعدها: «وأنت حقًّا، يا رَيِّس، أتصور أنك تناضل من أجل أن تحول الطعام الذي تأكله إلى مقدسات؛ ولكنك لا تنجح في ذلك، وهذا هو ما يعذبك. فلا ريب أن ما أصابك هو ما أصاب الغراب!». فقلتُ": «وماذا أصاب الغراب، يا زوربا؟». فقال: «كان الغراب- في مبدأ الأمر- يمشي مشيةً قويمة صحيحة، كما يليق بغراب؛ غير أنه ذات يوم ألحت عليه نزوة في أن يمشي مختالاً مزهوًّا مثل طائر الحجل؛ ومنذ ذلك الحين نسي المنحوس مِشيته التي كانت تميزه، وظل ناسيًا لها حتى الآن- أفلا تراه وهو يحْجِل دومًا في مِشيته؟».

رفعتُ رأسي (فأفقت من ذكرياتي)؛ وآنذاك سمعت صوت مشية زوربا وهو يهبط من كومة الفحم الحجري؛ وبعد برهة قصيرة رأيته قادمًا ووجهه منكسٌ إلى أسفل، وعليه أمارات الوجوم والعبوس، وكانت يداه الكبيرتان تبدوان وكأنهما مخدرتان. وتمتم من شفتيه نصف المفتوحتين قائلًا: «مساء الخير، يا رَيِّس!». قلت: «مرحباً! كيف سار العمل اليوم، يا زوربا؟». فلم يجب على سؤالي، بل قال: «فلأشعل النار، وأطبخ الطعام».

وأخذ ملء حضنه أخشابًا من الزاوية، وخرج بها، ثم رصها في صفين بمهارة وحذق، وأضرم فيها النار، ووضع قِدر الطعام الفخاري على النار، وصب ماءً داخله وأعقبه بالبصل والطماطم والأرز، وبدأ في طهي الطعام. أما أنا- فعلى أية حال- وضعتُ مفرشًا فوق مائدة طعام مستديرة، وقمتُ بتقطيع الخبز المصنوع من القمح إلى شرائح مُشْبِعَة، ثم ملأت قارورة- كان العم "أناغنوسيتس" قد أهداها لنا في الأيام الأولى- نبيذًا كان محفوظًا

في "جمدانة" (= دِن(*)). وكان زوربا قد جثا أمام قِدْر الطعام. وأخذ يرمق النار بعينين ثابتتين في محجريهما، وظل صامتًا.

وسألته على حين غرة: «هل لديك أبناء، يا زوربا؟». فالتفت إليّ وقال: «لماذا تسأل؟ أجل عندي ابنة». فقلت: «هل هي متزوجة؟». فضحك زوربا. قلت له: «لماذا تضحك، يا زوربا؟». قال: «هل يحتاج هذا إلى سؤال، يا رَيِّس؟ كنت أعمل في منجم نحاس يقع في بلدة "برافيتا" في شبه جزيرة "خالكيذيكي". وذات يوم وصلني خطاب من أخي "يانِّيس". لقد نسيت حقًا أن أخبرك بأن لي أخًا، وهو رب أسرة، عاقل، متدين، كما أنه مُرابٍ ومنافق؛ إنه إنسان كما ينبغي، وهو عمود من أعمدة المجتمع. وهو يعمل بقالاً في مدينة "سالونيكي". ولقد كتب لي في رسالته ما يلي: "أخي "أليكسيس"، إن ابنتك "فروسو" قد سارت في طريق السوء، وألحقت الخجل باسمنا الشريف؛ لقد اتخذت لنفسها حبيبًا وأنجبت منه طفلاً، وهكذا ضاع شرفنا! سوف أهرع إلى القرية كي أذبحها"».

فقلت له: «وماذا فعلتَ أنت، يا زوربا؟». فرفع زوربا كتفيه وقال: «قلتُ: "أُفٍّ! يا لَلنساء!، ثم مزقتُ الخطاب». قام زوربا بعد ذلك بتقليب الطعام في القِدْر، وأضاف إليه شيئًا من الملح، ثم قهقه ضاحكًا. بعدها قال: «لكن انتظر لترى ما هو أكثر مدعاةً للضحك. فبعد شهر من ذلك الوقت تلقيت خطابًا ثانيًا من شقيقي الأبله المغفل، يقول فيه: "أتمنى لك الصحة والسرور، يا أخي الحبيب، "أليكسيس"!". هذا ما دونه الأخرق. "لقد رجع

(*) الكلمة اليونانية هى (damizana)، وتعنى "الزق" أو "الدن". وفى لغتنا العامية توجد كلمة مماثلة لها هي "جمدانة". [المترجم].

الشرف مرةً أخرى إلى موقعه، وبوسعك الآن أن ترفع جبهتك عاليًا، لقد تزوج الفتى "فروسو"».

التفتَ زوربا وتطلع إليَّ، وعلى ضوء البريق الذي انبعث من سيجارته، تبينت أن عينيه تومضان بالشرر. ومن جديد رفع كتفيه، وقال: «أُف! يا لَلرجال!». نطقَ زوربا بهذه العبارة باحتقار لا يوصف. وبعد قليل سألني قائلًا: «ماذا تنتظر من النساء؟ أن ينجبن أبناءً من أي شخص يصادفنه! وماذا تنتظر من الرجال؟ أن يسقطوا في الفخ! فيا لَه من هراء، يا رَيِّس!».

أنزل زوربا قِدْر الطعام من على النار، وجلسنا بأقدام مثنية وتناولنا الطعام. وكان زوربا قد استغرق في تفكير عميق؛ إذ كان القلق والهم يكادان يعصفان به. حملقَ في وجهي، ثم فتحَ فمه ولكنه أغلقه من جديد. وتحت الضوء المنبعث من القنديل استطعت أن أتبين بوضوح عينيه اللتين استبد بهما الضيق والكدر. ولم أتحمل أن أراه على هذه الصورة، فقلت: «إيه، يا زوربا، إن هناك أمرًا تود أن تفضى به إليَّ؛ فهيا قُله! فإن كنت تعاني آلام المخاض، فدع الجنينَ يظهر إلى النور!». لاذ زوربا بالصمت، وأمسك بقطعة حجر صغيرة من الأرض، ثم قذفها بعنف وقوة من خلال الباب المفتوح.

فقلت له: «دع الأحجار، وتكلم!». فمد زوربا عنقه المتجعد، وسأل في عذاب مُضنٍ وهو يتفرس ملياً في وجهي: «هل لديك ثقة في شخصي، يا رَيِّس؟». فأجبته بقولي: «أجل، عندي ثقة فيك، يا زوربا. فأيًّا كان ما تفعله، فمحال أن تخطئ في تقديراتك؛ وحتى لو شئت ذلك، فمحال أن تخطئ في حساباتك. إنك مثل أسد، على حد قولك، أو مثل ذئب، فهذه

الوحوش، لا يمكن أبدًا أن تُعَد مثل الأغنام أو مثل الحمير، كما أنها لا تتنصل أو تتباعد عن طبيعتها؛ وأنت على غرارها، يا زوربا، من قمة رأسك حتى إخمص قدميك».

هنا هز زوربا رأسه وقال: «ولكنني لا أعرف حتى الآن إلى أين نذهب، وحق الشيطان!». فأجبته بقولي: «أما أنا فأعرف، فلا تشغل بالك؛ فهيا امض قُدمًا إلى الأمام!». فصاح زوربا جذلاً: «هل لك أن تكرر ما قلته الآن مرةً أخرى، يا رَيِّس، حتى أتزود بالشجاعة!». فقلت: «هيا، امض قُدمًا إلى الأمام!». فتألقت عينا زوربا وقال: «الآن بوسعي أن أحدثك بناءً على ما تقدم؛ فمنذ أيام خلتْ حتى الآن واتتني فكرة مشروع عظيم، وهي فكرة جنونية خطرتْ على عقلي؛ فهل نقوم بتنفيذها؟». قلت: «هل تسأل؟ لقد أتينا هنا من أجل هذا، أن ننفذ الأفكار». فمد زوربا عنقه، وحدق في وجهي بسرور مشوب بالرهبة، ثم صاح: «حدثني بجد، يا رَيِّس! ألم نأت هنا من أجل الفحم؟».

فقلتُ: «إن الفحم مجرد ذريعة؛ وذلك حتى لا يغتابنا الناس ويشوهون سمعتنا، وحتى يعتقدوا أننا رجال أعمال جادين محترمين، وكي لا يهتفوا ضدنا استهجانًا(*). هل فهمت، يا زوربا؟». ظل زوربا محملقًا في وجهي مشدوهًا وفمه نصف مفتوح؛ وجاهد كي يفهم، غير أنه لم يجسر أن يصدق كل هذه السعادة التي غمرته. وفجأةً أدرك مغزى ما قيل؛ فارتمى فوقي

(*) التعبير اليونانى: "na mê mas paroun mê tis lemonokoupes" يعنى حرفياً: "حتى لا يضطروا إلى تناولنا مثل شرائح الليمون". وهو مشابة لقولنا فى العامية: "اعصر على نفسك ليمونة وتقبل هذا الأمر". [المترجم].

وأمسك كتفي بقوة، ثم سألني بلهفة: «أترقص؟ هل ترقص؟». قلتُ: «لا». قال: «لا؟». ثم أرخى يديه مندهشًا، وقال بعد برهة: «حسناً! إذن فسأرقص أنا، يا رَيِّس. قِف هنا على مقربة مني كي لا أصطدم بك أو أسقط فوقك.. هاي! هاي!». وقفز قفزةً سريعة جعلته يندفع خارج الكوخ، وألقى بعدها بنعليه من قدميه، وخلع سترته وصدريته، وشمر نهاية بنطلونه حتى ركبتية، وبدأ فى الرقص. كانت صفحة وجهه لا تزال ملطخة بسناج الفحم، إذ كانت سوداء داكنة؛ أما عيناه شديدتا البياض فكانتا تبرقان وتلمعان.

انغمس زوربا في الرقص، وأخذ يصفق بيديه ويقفز ويلف بجسمه في الهواء، ثم ينزل إلى الأرض وهو يثني ركبتيه، وبعدها يقفز من جديد واقفًا في الهواء، وكأنه من المطاط. وفجأةً اندفع من جديد ليقفز عاليًا في الهواء، وبدا كما لو أنه كان قد عقد العزم وصمم على تخطي النواميس العظمى، وعلى أن يتزود بجناحين يحلق بهما في أجواز الفضاء. وقد يخامرك اعتقاد أن روحه بداخل جسمه، الصلب الخشن الذي سيلتهمه الدود بعد الموت، ستقاتل من أجل أن تحمل معها لحم الجسم، وأن تجعله يندفع معها نحو مدار النجوم في الظلمة الدامسة. كانت روحه تهز جسمه، غير أن هذا الجسم كان يسقط، إذ أنه لم يحتمل البقاء طويلاً في الهواء؛ فقد كان يهز جسمه الآن- مرةً أخرى- بلا شفقة أو رحمة، ولكن جسمه التعس كان يسقط من جديد وهو يلهث متعبًا.

كان زوربا يُقطب ما بيْن حاجبيه، أما محياه فقد اكتسى بجدية صارمة مشوبة بالقلق، غير أنه لم يكن قد غدا بعد خشنًا قاسيًا؛ فقد كان يجاهد

ويقاتل كي يصل إلى المستحيل، وهو يصر على أسنانه صريرًا. وهنا صحت عاليًا: «زوربا، زوربا، كفى يا زوربا!». كنت أرتعد خوفًا من أن يعجز جسمه الهرِم عن احتمال فرط سرعته في الرقص والحركة، فيتناثر في الهواء مثل الشظايا. أخذت أصيح، ولكن أنَّى لزوربا أن يسمع الصيحات الصادرة من تراب الأرض؛ ذلك أن حشاياه وشغافه قد غدت مثل حشايا العصفور. أخذت أتابع برعب خفيف رقص زوربا الوحشي البائس، وتذكرت أنني حينما كنت صبيًّا صغيرًا كان خيالي يعمل دون قيد ولا لجام، وكنت أقص على أصدقائي قصصًا خيالية مختلقة من بنات أفكاري؛ وكنت أحياناً أصدقها من كثرة ترديدها. وذات يوم سألني زملائي التلاميذ، وكنا آنذاك في الفرقة الأولى من المرحلة الابتدائية: «كيف مات جدك؟». فقلت لهم: «كان جدي يرتدى نعالاً مطاطية؛ وذات يوم، حينما نبتت له لحية بيضاء، قفز من فوق سطح منزلنا، وبمجرد أن لامس الأرض، ارتد مثل الكرة عائدًا إلى مستوى أعلى من المنزل، وظل يعلو ويعلو ويعلو إلى أن اختفى بين السحب. هكذا مات جدي!».

ومنذ اليوم الذي تفتق فيه ذهني عن هذه الحكاية الخرافية، كنتُ كل مرة أذهب فيها إلى الكنيسة الصغيرة للقديس "ميناس"، وأشاهد عن كثب أمامي- على الأيقونة- صورة صعود المسيح، كنت أمدُ يدي مشيرًا إليها وأقول لزملائي التلاميذ: «انظروا ! ها هو جدي ذو النعال المطاطية!». وفي هذه الأمسية، بعد انقضاء سنوات كثيرة، وأنا أبصر بعيني رأسي زوربا وهو يقفز عاليًا في الهواء، كنت أتعايش مع أسطورة الطفولة وأنا أرتجف رعباً، وكأنني كنت خائفًا من أن يضيع زوربا بين طيات السحب. فصحت

عاليًا: «زوربا، زوربا، كفاك يا زوربا».

وأخيرًا جثم زوربا مثل الطائر على الأرض وهو يلهث. كان وجهه يلتمع من فرط السعادة، وكانت الشعيرات الشهباء في رأسه قد التصقت على جبهته، والعرق يسيل على وجنتيه وذقنه مختلطًا بسواد الفحم. فانحنيت عليه والقلق يكاد يعصف بي؛ فقال بعد هنيهة: «لقد ارتحت، وكأنهم أخذوا الدم من شراييني. الآن أستطيع أن أتكلم».

ثم دخل إلى الكوخ وجلس أمام الكانون (= المدفأة)، وكان وجهه يبرق. فقلت له: «ماذا حل بك فشرعتَ في الرقص؟». فقال: «ماذا أردتني أن أفعل، يا رَيِّس؟ لقد امتلأتُ فرحًا وسرورًا، وكان يتعين عليَّ إطلاق العنان لنفسي. وكيف يتمكن الإنسان من أن يطلق عنانه؟ هل بالكلمات؟ بُف! أُف!». قلت: «ولمَ أحسستَ بكل هذا الفرح؟». فتفرس زوربا في وجهي متكدرًا، وكانت شفتاه ترتعشان، وقال: «لماذا أحسستُ بالفرح؟ ألم تقل لي الآن هذا الذي قلتَه على هذا النحو، ولا يزال يُدوي كالرعد في أذني؟ أو لم تفهمْ أنت نفسكَ هذا؟ لم نأتِ هنا، كما قلتَ، من أجل الفحم الحجري... فهكذا يا هذا، يحق لي أن أرتاح وأن أتنفس الصعداء! لقد أتينا هنا كي نُزجي وقت الفراغ، كي نذُر الرماد في عيون العالم، كي لا يُعدوننا مخبولين، كي لا يهتفوا ضدنا استهجانا– أما نحن- فحينما نكون وحدنا تمامًا دون أن يرانا أحدٌ- فسوف ننفجر في الضحك! وهذا بشرفي هو ما كنت أبغيه لنفسي، غير أنني لم أكن أفهمه جيدًا. فطوْراً كنت أفكرُ في الفحم الحجري، وطوْراً آخر في مدام "بومبولينا"، وطوْراً ثالثًا في أنك رئيسي... آه لقد كانت ورطةً مروعة! وعندما حفرتُ دهليزًا في المنجم كنت أقول

لنفسي: "أريد فحماً! أريد فحماً! أريد فحمًا!"؛ حتى أصبحت من كعبي حتى قمة رأسي فحماً يمشي على قدمين. ومن جديد، حينما كنت أتوقف عن العمل، وكنت ألهو مع هذه الفقمة العجوز (مدام أورتانس)- طيب الله أوقاتها- كنتُ أعلقُ جميع كميات الفحم الحجري، وجميع الرؤساء في العمل في رباط رقبتها. وكنتُ أعلقُ زوربا أيضًا الذي ضاع مني. أما عندما كنت أُترك لحال سبيلي ومع نفسي ولم يكن ما أفعله، كنت أضعك، يا رَيِّس، في مناط تفكيري وكان قلبي ينفطر. كنت أحمل عبئًا ثقيلاً ترزح تحته روحي، وكنت أصيح: "عارٌ عليك، يا زوربا، يا هذا، عارٌ عليك يا زوربا، أن تسخر من هذا الإنسان الطيب أو تهزأ به، وعارٌ عليك أن تأكل أمواله! إلى متى ستظل، يا زوربا، وَغْداً نذلاً، كفاك هذا!". لقد ضاع مني، يا رَيِّس- وأقولها لك بصراحة- كل شيء: فالشيطان يشدني من جانب، والله يشدني من جانب آخر، إلى أن مزقني الاثنان بينهما. والآن طبتَ وطابَ وقتُك، يا رَيِّس، فقد قلت كلامًا عظيمًا، فاستنار بصري وثُبتُ إلى رشدي. أجل، فلقد رأيت! وفهمت! وبتنا الآن على وفاق تام. والآن، فإن النار قد اقتربت من قذائف المدفع! فكم من النقود بقيت لديك الآن؟ ضعها ها هنا! ولتذهب الكرمة العتيقة إلى حال سبيلها!».

مسح زوربا عرقه وفتش فيما حوله، كانت بقايا طعام العشاء متناثرة على المائدة الصغيرة(*) فمد زوربا يده إليها وقال: «مِن بعد إذنك، يا رَيِّس، فقد شعرت بالجوع ثانيةً»، وأخذ شريحة خبز وبصلة وحفنة من ثمرات

(*) الكلمة فى اليونانية هى (sophradaki) وتعنى "مائدة صغيرة"، وهى مماثلة لكلمة "السُفرة" التى نستخدمها فى لغتنا العامية بمعنى المائدة [المترجم].

الزيتون، وشرع يلتهمها بنهم؛ كما قذف داخل فمه محتويات قنينة نبيذ- دون أن يدعه يلمس شفتيه؛ ونبيذها يكركر داخل حلقه. ثم قام زوربا بلعق شفتيه بلسانه، وهو راضٍ قرير البال. بعدها قال: «لقد استقر قلبي (الآن) في مكانه». قال هذا ثم رمقني، وغمز لي بعينه، وسألني: «لماذا لا تضحك؟ ولماذا ترمقني على هذا النحو؟ هذا هو طبعي وهذا هو مزاجي. فهناك شيطانٌ يقبع داخلي ويجأر بأعلى صوته، بحيث أفعل ما يُسِرُّ به إليَّ. فحيثما أتوجه وأنا أحس بالكبت والاختناق، يصيح فيَّ: "ارقص!" فأرقص. وحينئذٍ يزول عني الاختناق. وذات مرة- حين توفي ابني، ابني "ذيميتراكيس"- في شبه جزيرة "خالكيذيكي"، نهضت واقفًا وشرعت في الرقص. فتقاطر الأقارب والأصدقاء الذين كانوا يشاهدونني وأنا أرقص أمام رفات ابني، تقاطروا كي يمسكوا بي ويمنعوني. وصاحوا: "لقد جُن زوربا! لقد جُن زوربا!". غير أنني لو لم أرقص في تلك اللحظة، لكنت قد جُننت من فرط الألم. وذلك لأنه كان ابني البكر، وكان عمره ثلاث سنوات، ولم أتمكن من احتمال فقده. هل فهمت ما أقوله لك، يا رَيِّس، أم أنني أكلم الهواء؟». قلت: «فهمت، يا زوربا، فهمت؛ وأنت لا تكلم الهواء».

بعدها أردف زوربا: «وذات مرةٍ أخرى كنت في روسيا، لأنني ذهبت إلى هناك من أجل العمل في المناجم أيضًا؛ للبحث عن النحاس في بلدة "نوفوروسيسكي". وكنت قد تعلمت خمس أو ست كلمات من اللغة الروسية، كنت أحتاجها في عملي، وهي: "لا، نعم، الخبز، الماء، أحبك، تعالَ، بِكَم؟". وآنذاك، أتيح لي أن أظفر بصداقة شخص روسي من البولشفيك

المرعبين؛ وكنا نرتاد كل مساء حانةً تقع في الميناء، حيث كنا نعب بضع زجاجات من الفودكا إلى أن يستخفنا الطرب، ونصل إلى مزاج رائق. وحينما يروق مزاجنا، كان قلبانا ينفتحان ليبوحا بأسرارهما؛ وكان صديقي الروسي يريد أن يحكي لي، بالورقة والقلم، كل ما رآه وكل ما عاناه أثناء الثورة الروسية؛ وكنت أنا بدوري أُسِر إليه بسيرة حياتي ومغامراتي. لقد سَكِرنا، كما ترى، وغدونا إخوةً أشقاء. كنا نتفاهم سويًا بصعوبة بالغة، فكان هو الذي يبدأ أولاً بالتحدث، وعندما لم أكن أفهمه، كان عليَّ أن أصيح قائلًا: "ستوب= توقف". وعندئذٍ كان عليه أن ينهض واقفًا وينخرط في الرقص؛ كان يرقص ليعبر بالرقص عما يريد أن يقوله لي. وكنت أفعل أنا مثله. بمعنى أن ما نعجز عن قوله بلساننا، كنا نقوله بأقدامنا، وأيدينا، وبطنَيْنَا، أو عن طريق الصيحات الوحشية العنيفة: هاي! هاي! هُوبلا! ڤيرا!. وبدأ صديقي الروسي الحديث فحكى لي عن الاستيلاء على البنادق، وكيف اشتعلت الحرب، وكيف وصلوا إلى بلدة "نوڤوروسيسكي"... وعندما لم أكن أتمكن من فهم ما قاله لي، كنت أرفع يدي وأصيح: "ستوب= توقف!"، وفي التو كان الروسي يندفع إلى أعلى ويشرع في الرقص! كان يرقص مثل شخص أصابه مَس من الشيطان، أما أنا فكنت أرمق يديه وقدميه، وصدره وعينيه، وأفهم كل ما كان يريد قوله: كيف دخلوا بلدة "نوڤوروسيسكي"، وكيف قتلوا النبلاء والأرستقراطيين، وكيف قاموا بنهب المحلات وسرقتها، وكيف دخلوا المنازل واختطفوا النساء. وفي مبدأ الأمر، كان الأوغاد يذرفون الدمع ويتلقون الإهانات ويتشدقون بطنين مزعج، غير أن ثائرتهم ما لبثت أن هدأت شيئًا فشيئًا وجنحوا

للمسالمة، وأغمضوا أعينهم، وأخذوا يصيحون إعرابًا عن امتنانهم. أرأيت؟ فما أشبههم بالنساء!».

بعدها جاء دوري لأتحدث. ومنذ بداية الكلمات التي خرجت من فمي، لم يدع صديقي هذا عقله يعمل- فهو حقًّا فلاح روسي- بل صاح: "ستوب= توقف!". وكان هذا أمراً آخر لم أرغب فيه! فاندفعت عاليًا، وشرعت في إزاحة المقاعد والموائد من مكانها، وانخرطت في الرقص... إيه! أرأيت يا هذا كيف انحدر حال البشر؟ أفٍ لهم! ويا ليتهم يهلكون! إنهم يُنَحُّون جانبًا أجسادهم ويصابون بالذهول والخرس، ولم يعودوا يتحدثون سوى بألسنتهم وأفواههم. ولكن ماذا عسى أن يقول الفم؟ أجل ماذا عسى أن يقول اللسان؟ فانظر بربك إلى الروسي وكيف كان يأكلني بعينيه، ويتطلع إليَّ من قمة رأسي إلى إخمص قدمي، وكيف فهم كل ما كنت أريد قوله له! لقد حكيت له- من خلال رقصي- معاناتي، ورحلاتي، وعدد المرات التي تزوجت فيها، والمهن التي مارستها: عامل محاجر، عامل مناجم، بائع متجول، خزاف، محارب، فدائي، عازف قانون، بائع حمص مشوي، غجري، مهرب للسلع؛ وكيف أدخلوني السجن، وكيف هربت منه، وكيف وصلت إلى روسيا... كان يفهم كل شيء؛ أجل كل شيء، رغم كونه فلاحًا روسيًّا. كان الذي يتكلم هما قدماي ويداي، كان الذي يتكلم هو شَعري وملابسي. وأيضًا كان الذي يتكلم خنجرٌ كان يتدلى من الزنار الذي يطوق خصري... وعندما كنت أفرغ من رقصتي، كان الفلاح الروسي يعانقني ويقبلني، وبعدئذٍ كنا نتجرع كؤوسنا المترعة بالفودكا مرةً أخرى، ونشرع في البكاء والضحك، وكلانا مرتمٍ في أحضان الآخر... وعندما تلوح تباشير

نور الصباح كنا نفترق، ونمضي ونحن نتطوح من السُّكر كي نستغرق في النوم. أما عندما يحل المساء فكان شملنا يلتئم مرةً أخرى. أوَتضحك؟ أفلا تصدقني، يا رَيِّس؟ لا ريب أنك تقول فيما بينك وبين نفسك: "يا هذا، ما هذا الهراء الذي يهرف به هذا الجلف البحري؟ هل يعقل أن تجري محادثة عن طريق الرقص؟". ومع ذلك فأنا أخاطر بحياتي حين أقول إن هذه هي الطريقة التي يتحادث بها الأرباب مع الشياطين. آه! ها أنذا أراك تستسلم للوسن، فيا لك من إنسان بالغ الرقة، قليل الاحتمال، لاطاقة لك على الصعاب، فهيا لتنام، وسنكمل حديثنا غدًا. فعندي مشروع، أجل مشروع مهم سوف أحدثك عنه غدًا. وعن نفسي، فسوف أدخن الآن سيجارة، وربما غمست رأسي في مياه البحر: فلقد تأججَتْ نارًا وعليَّ أن أطفئ نار السعير. عِمت مساءً!».

مضت ساعات لم أتمكن خلالها من إغماض عيني. واحسرتاه! لقد ضاعت حياتي هباءً منثورا! هكذا أخذت أفكر فيما بيني وبين نفسي، آه لو كان بوسعي أن أمسك باسفنجة أمحو بها كل ما قرأت، وكل ما شاهدت، وكل ما سمعت! آه لو كان بوسعي أن ألتحق بمدرسة زوربا، وأبدأ في دراسة الحروف الأبجدية الحقة العظمى! إذن لاتخذت لنفسي طريقًا ومنهجًا جِد مختلف! ولكنتُ قد تدربت لدرجة الاتقان على استخدام حواسي الخمس، وعلى استعمال بشرتي بكاملها، كي تستمع وكي تدرك! ولكنتُ قد تعلمت الجري، والمصارعة، والسباحة، وركوب الخيل والانطلاق بها؛ أن أخيط زِرًّا، وأقود سيارة، وأن أطلق بندقية! ولكنتُ جعلتُ روحي تمتلئ بالجسد وجعلتُ جسدي يزخر بالروح! ولعقدتُ مصالحة داخلي في خاتمة المطاف

بين هذين العدوين اللدودين على طول الأبدية!...

أثناء جلوسي بلا نوم على الحشية، تحسرت على حياتي التي ضاعت وغدت هباءً منثوراً. ومن خلال باب الكوخ، لمحت بانبهار في ضوء النجوم زوربا وهو يجلس رابضًا فوق صخرة، مثل الطائر الليلي (=البومة)، وهو يحملق في البحر، فحسدته وقلتُ فيما بيني وبين نفسي: «هذا الشخص عثر على الحقيقة، وهذا هو الطريق المؤدي إليها!». ولو أننا كنا نحيا في العصور القديمة الأولى للخليقة، لكان زوربا رئيس قبيلة عرقية، ولمضى في الطليعة أمام بني جلدته، ولَشق بمعوله الطريق لهم. أو لعله كان واحدًا من مشاهير الشعراء الغنائيين الجوالين (= التروبادور) يدور حول أبراج الملوك والأمراء، وتتعلق بشفتيه المكتنزتين أبصار الجميع، سادة وأتباعًا وسيدات عقيلات... أما في عصرنا هذا الجاحد الناكر للجميل، فهو يقوم بجولاتٍ جيئةً وذهابًا حول الحظائر، وهو يتضور جوعًا مثل الذئب، أو يقلل من شأن نفسه ويغدو بهلولاً أو مهرجاً لكاتب مغمور مثلي.

وعلى حين غرة، رأيت زوربا ينهض واقفًا من جلسته، ويخلع ملابسه ويلقي بها على القواقع الحلزونية، ثم يلقي بنفسه في مياه البحر. وما بين الفينة والأخرى كنت ألمح في ضوء القمر الخابي رأسه وهي تبرز من الماء ثم تختفي من جديد، وأحيانًا كنتُ أسمعه وهو يصدر صوتًا أشبه بالنباح أو العواء أو الصهيل، أو يصيح مثل الديك- ويبدو أن روحه ارتدت مرة أخرى إلى طبيعة الحيوانات- فهكذا كان في تلك اللحظة المقفرة من الليل، يسبح بمفرده في مياه البحر.

ورويدًا رويدًا، وبدون أن أدرك، راودني النعاس واستغرقتُ في النوم.

وعندما أهلَّ النهار بتباشير ضوئه، شاهدت زوربا راجعاً أدراجه وهو يضحك، بعدما زالت عنه أعراض الإرهاق والتعب، وينبري لجذبي من قدمي، ويقول: «انهض من نومك، يا رَيِّس، كي أفضي إليك بتفاصيل مشروعي. هل تسمعني؟». فقلت: «أجل أسمعك». فتكوم جالسًا وهو يثني ركبتيه على الأرض وشرع في إيضاح مشروعه، ومفاده أن نقيم خط سكة حديد هوائي يمتد من قمة الجبل حتى ساحل البحر، كي نستخدمه في إنزال الأخشاب اللازمة لعمل دهاليز لمنجم الفحم الحجرى، على أن نبيع ما يتبقى منها من أخشاب. وكنا قد قررنا أن نستأجر غابة أشجار صنوبر من غابات الأديرة، ولكننا وجدنا أن تكلفة نقل الأخشاب باهظة، كما لم نعثر على البغال اللازمة لحملها. وبناءً على ذلك تفتق ذهن زوربا عن هذه الفكرة الخيالية عن إقامة سلك غليظ في الهواء يرتكز على أعمدة وبكرات، تُنقل عليه جذوع الأشجار من الجبل، قبل أن تكمل نطق جملتك، تُنقل مثل رمية من مقلاع إلى الساحل.

وهنا سألني زوربا، بعد أن فرغ من شرح تفاصيل مشروعه: «اتفقنا؟ هل نوقع العقد؟». فقلت: «فلنوقع العقد، يا زوربا؛ ولنمض بالمشروع قُدمًا». فأضاء لتوه المجمرة، وأخذ الإبريق(*)، وأعد القهوة، ثم ألقى بطانية(**) تحت قدمي حتى لا أشعر بالبرد، ومضى لحال سبيله مغتبطًا قرير

(*) يستخدم كزَنتزَاكِيس لفظ mangali (المجمرة) وهى تشبه كلمة "منقد" فى اللغة العامية، التى تعنى مجمرة. وكذا يستخدم لفظ briki (إبريق)، وهو لفظ عربي أو تركي دخل اللغة اليونانية الحديثة. [المترجم].

(**) وهى الكلمة ذاتها فى اللغة اليونانية الحديثة patania = بطانية. [المترجم].

العين. ثم قال: «اليوم سوف ندشن دهليز منجمنا الجديد، لقد عثرت على عِرق (ثمين) من الماس الأسود».

فتحت مخطوطة "بوذا"، وانغمستُ بدوري في معارضي الخاصة. وأخذت أعمل طوال النهار، وما إن تخففت من العمل حتى شعرت بالنجاة والخلاص، وأحسست في داخلي بشعور عاطفي معقد، هو مزيج من الراحة والكبرياء والتقزز. غير أن العمل كان مصدر بهجة وجذل وحبور غامر، لأنني كنت أعلم أنني ما إن أفرغ من هذه المخطوطة ومن ختمها وربطها، فسوف أغدو حرًّا طليقًا.

شعرت بالجوع، فأخذت أتناول بضع حبات من الزبيب والبندق مع شريحة خبز. وأمضيت الوقت في انتظار أن يحضر زوربا معه كل الخيرات التي تسعد قلب الإنسان: الضحكة المجلجلة الصافية، والمسامرة اللطيفة، والطعام الشهي؛ وعندما جنَّ المساء أهل عليَّ بطلعته. طهى الطعام وتناولنا عشاءنا، ولكن عقله كان يجوب بقاعاً أخرى. جثا على ركبتيه فوق الأرض، وغرس أوتادًا صغيرة من الخشب في التراب، ومد سلكًا فوقها، ثم علق على خطاطيف متناهية في الصغر عود كبريت، وأخذ يحاول جاهدًا أن يعثر على زاوية الانحدار التي يتيحها للسلك، لكي لا يصير كل شيء شظايا أو يغدو فتاتًا.

ثم شرع يفسر هذا لي بقوله: «لو كانت زاوية الانحدار أزيد من اللازم فسوف يجتاحنا الشيطان؛ ولو كانت أقل فبالمثل سوف يطيح بنا الشيطان. يجب أن نجد زاوية الانحدار المطلوبة بالشعرة (أى بدقة بالغة)؛ وهذا يتطلب، يا رَيِّس، عقلاً وتفكيرًا ونبيذًا». فأجبته ضاحكًا: «لو كان الأمر

متوقفًا على النبيذ، فهو موجود لدينا بوفرة، أما إذا كانت هناك حاجة إلى العقل فالأمر يختلف». فانفجر زوربا في الضحك، وقال وهو يرمقني برقة: «لعلك تفهم، يا رَيِّس، وحياتك عندي، شيئًا ما». قال هذا ثم استوى في جلسته كي يشعر بالراحة، وأشعل لفافة تبغ، فواتاه المزاج الرائق وانحلت عقدة لسانه، فشرع يقول:

«لو أن هذا الخط الهوائي كُتب له النجاح، فسوف نكتسح الغابة بأسرها، وسوف نفتتح مصنعًا، نصنع فيه الألواح والعروق والعوارض الخشبية، وسوف تتدفق علينا الأموال، وسوف نصنع باخرة ذات ثلاثة صوارٍ، وسوف نحرص عليها مثل عيوننا، وسوف ننفض عن أعقابنا الغبار والتراب، وسوف نجوب أنحاء العالم!».

برقت عينا زوربا؛ إذ أنهما امتلأتا بنساء بعيدات، ومغامرات، وأنوار ساطعة، وقصور شاهقة، وآلات، وبواخر. وقال: «لقد اشتعل رأسي شيبًا، يا رَيِّس، وتخلخلت أسناني وكادت تنخلع، ولم يعد عندي وقت أضيعه. أما أنت فوحياتك عندي ما تزال شابًا، وبوسعك أن تتذرع بأهداب الصبر، أما أنا فلا أقوى على الصبر. ولكن بحق الله كلما ازددتُ هِرَمًا كلما ازددتُ شراسة وعنفاً! فلماذا يجلسون ويتشدقون بقولهم إن الشيخوخة تروض الإنسان وتفقده حماسه؟ وكذلك بقولهم إن شرارة الفطنة تخمد في قلب الإنسان؟ وإنه عندما يبصر "خاروس"(*) (ملك الموت) يمد له عنقه ويقول:

(*) سبق القول بأن "خاروس"- في الأساطير اليونانية- هو حارس عالم الموتى؛ وعند اليونانيين المحدثين هو ملك الموت. وكان يُعرف فى اللغة اليونانية القديمة باسم "خارون"، وهو المعدَّاوى الذى ينقل الأرواح فى قاربه عبر نهر "استيكس"، بالعالم السفلى. [المترجم].

"هيا اذبحني، يا مولاي(**)، فإني أقدسك!". وفيما يتعلق بي، فكلما طعنت في السن كلما اشتد بأسي، فأنا لا أرضخ ولا أستسلم أبدًا، بل أريد أن ألتهم العالم بأسره».

قال هذا ثم نهض قائمًا، وأنزل آلة القانون من على الحائط، حيث كانت معلقة، ثم أردف: «هيا، أيها الشيطان، لماذا تربض فوق الحائط وتلزم الصمت؟ هيا غرد بالألحان!». لم ترتوِ رغبتي من رؤية زوربا وهو يفك، بعناية فائقة ورقة بالغة، الغطاء الذي كان يلف آلة القانون، وكأنه ينظف ثمرة تين، أو كأنه يجرد امرأة من ثيابها. وضع زوربا القانون على ركبتيه وانحنى فوقه، وداعب بخفة ورقة أوتاره، حتى لتظن أن الأوتار كانت تستشيره في نوعية اللحن الذي سوف تغنيه، وأن القانون يتوسل إليه أن يظل يقظًا، وأن يمسك به جيدًا إلى أن يوافيه، ويبقى في صحبة روحه التي لا يزال يضنيها القلق، لأنه لم يكن يطيق الوحدة. وبدأ زوربا في عزف أغنية، ولكن لحنها لم يَسِر على النحو الذي كان يريده، فتركها وشرع في عزف أغنية أخرى، لكن الأوتار أصدرت عويلاً وأنينًا كما لو كانت تتألم، أو كما لو كانت غير راغبة في التجاوب معه؛ فاستند زوربا على الحائط، ومسح العرق الذي كان يتدفق على جبهته.

بعدها تمتم زوربا قائلًا، وهو يتطلع برعب إلى آلة القانون: «إنها لا تريد... إنها لا تريد»، ثم لف بعد ذلك القانون بعناية في غطائه، وكأنه، على حد قولنا، حيوانٌ ضارٍ كان يخشى أن ينهشه! ثم نهض واقفًا وعلقه على

(**) الكلمة اليونانية المستخدمة هنا هي (aga) وتنطق (أغا)، وهي ذات أصل تركي بمعنى (السيد). [المترجم]

الجدار. بعدها تمتم مرةً ثانية: «إنها لا تريد... إنها لا تريد... ولا ينبغي عليَّ أن أجبرها قسرًا». ثم جلس مرةً أخرى على الأرض، وملأ تراب المجمرة بثمرات الكستناء، ثم صب النبيذ في الكؤوس حتى حافتها. وأخذ يعب النبيذ ويحتسيه، ثم نظف ثمرة كستناء وقدمها لي. وسألني: «هل تفهم شيئًا مما جرى لي، يا رَيِّس؟ إن كل شيء في حوزتي قد صار إلى خواء. في تصوري أن كل شيء يحظى بروح، حتى الخشب والحجارة، وحتى النبيذ الذي نشربه، والتراب الذي ندوسه بالأقدام. أجل كل شيء، يا رَيِّس، له روح».

ثم رفع كأسه وقال: «في صحتك!»، وأفرغ الكأس فى جوفه في جرعة واحدة، ثم ملأه مرةً ثانية. وتمتم: «آه، يا لها من حياة مزرية مهينة! أجل إنها حياة مزرية مهينة! إنها مثل السيدة "بومبولينا" سواء بسواء»؛ فضحكت. قال زوربا: «اصغ إليَّ، يا رَيِّس، ولا تضحك، فأنا أقول لك إن مثل الحياة كمثل مدام "بومبولينا". إنها عجوز مسنة، ومع ذلك فإن هذه العشيقة تحظى بما يسليها ويُسرى عنها؛ إنها خبيرة محنكة بالحيل والألاعيب التي تذهب بلُبك. تغمض عينيك فتظن أنك تحتضن فتاة يافعة ذات عشرين ربيعًا. أجل، يا هذا، أؤكد لك إنها تصبح في سن العشرين، هذا لو أنك تحظى بمزاج رائق وأطفأت النور. لكنك ستقول لي إنها نصف متعفنة، وأنها فعلت في حياتها الأعاجيب والمعجزات، وتمرغت في أحضان القباطنة والبحارة والجنود والفلاحين والباعة الجائلين والقساوسة وصيادي السمك وخفر السواحل والمدرسين والوعاظ والمبشرين ودعاة السلام.. ولكن ماذا عساها أن تقول؟ إن هذه الخرقة

البالية سرعان ما تنسى، إنها لا تذكر أي شيء أحبته، وغدت حَقًا، وهذا ما أقوله لك، حمامة بريئة، فتاة حديثة العهد بالظهور في الحفلات، ببغاء متيمة بوليفها، تحمر حياءً وخجلاً، واصغ إلى ما أقوله لك، أجل تحمر حياءً وخجلاً وترتعد (عندما تكون في أحضانك)، وكأنها المرة الأولى التي تفعل فيها ذلك. إن المرأة، يا رَيِّس، سِر مستغلق، تَزِل وتخطئ ألف مرة، لكنها تنهض من زلتها عذراء (أو كالعذراء) ألف مرة. ولماذا؟ ستقول هذا لي؛ وأقول لك لأنها لا تتذكر».

فقلتُ له بغية مضايقته: «ومع ذلك، فالببغاء يتذكر، يا زوربا، فهو يصيح مرددًا جميع الأسماء التي لا تنتمي إليه. أفلا يصيبك هذا بالخبل والجنون؟ ففي اللحظة التي سوف تُبْعَثُ فيها معها في السماوات السبع، ستسمع الببغاء يصيح: "يا كاناڤارو! يا كاناڤارو! (= يا قبطاني! يا قبطاني!)، أوَ لَم يخطر ببالك أن تنقض عليه وتُطبق على رقبته وتخنقه؟ آه! لقد أزف الوقت الذي تُعلمه فيه أن يصيح: "يا زوربا! يا زوربا!"».

فصاح زوربا، بعد أن سد أذنيه بكفيه الكبيرتين: «بُو! بُو! يا لَه من صدأ مُزرٍ عفا عليه الزمن! إنه يقول لي اخنقه. إنني أتحرق شوقًا فيما يشبه الجنون، كي أسمعه وهو يصيح مرددًا هذا الاسم الذي قلته. لقد علقته هذه الملحدة اللعينة- وهو في قفصه- فوق سريرها طوال الليل، وكانت لهذا المخادع عين تثقب ستر الظلام، وبمجرد أن شاهد عيوننا تغفل عنه حتى بدأ في الصياح: "كاناڤارو! كاناڤارو!". أما أنا ففي التو، وأقسم لك، يا رَيِّس- ولكن كيف لك أن تدرك هذا وحياتك، يا مَن أتت عليك الكتب الملعونة- أقسم لك أنني أحس وكأن هناك حذاء من الجلد اللميع في قدمي،

وأجنحة في رأسي، وأن لي لحية من الحرير مضمخة بعطر البشتول".

"بونجورنو! بيوناسيرا! مانجياتي مكاروني؟" ("صباح الخير، مساء الخير، هل تأكل مكرونة"؟ بالإيطالية). هل نطقتها صوابا يا كاناڤارو؟ إنني أصعد على متن بارجة الأميرال ذات الألف ثقب، التي هي بارجتي، فاضرم النار تحت الغلايات! فلقد بدأ إطلاق دانات المدافع!"».

وهنا انفجر زوربا في الضحك، وأغلق عينه اليسرى، ثم تفرس في وجهي، وقال: «أرجو أن تترفق بي، يا رَيِّس، ولكنني أُشبِه جدي القبطان "أليكسيس"، طيب الله ثراه برحمته! كان عمره يناهز المائة عام، وكان يجلس ساعة الأصيل خارج عتبة باب المنزل، كي يتطلع بإعجاب إلى الفتيات اللائي كُن يذهبن إلى النافورة. لكن عينيه كانتا قد اكتستا بغشاوة، ولم يعد يميز ما يراه. فكان يصيح آنذاك قائلًا للفتيات: "من أنتِ، يا عروسة؟ هل أنت "لينيو" ابنة "ماسترادونيس"؟ تعالي، يا عروسة، كي ألمسك! هيا لا تخافي!". وتكتم الفتاة ضحكتها وتقترب منه؛ وكان جدي يمرر كفه على وجه الفتاة الصغيرة ويتحسسه بتأنٍ ونعومة ونهم، وبعد ذلك كانت دموعه تهطل. وعندما سألته ذات يوم: "لماذا تبكي، يا جدي؟" قال: "إيه، يا ولدي، أفلا أبكي بدمع حار، وأنا صائر إلى الموت، تاركًا خلفي كل هؤلاء الفتيات الجميلات؟"».

وما إن قال زوربا هذا حتى تنهد تنهيدة حارة، وقال: «آه، يا جدي التعس، يا نكد الطالع! كيف لي أن أفهمك! فها أنذا أجلس مرارًا وتكرارًا وأفكر بعقلي فيما بيني وبين نفسي قائلًا: "آه! واحسرتاه! يا ليت جميع الفتيات الجميلات الحسناوات يمُتن معي!". ولكن هؤلاء الخنزيرات

سوف يبقين على قيد الحياة، وسوف يعشن في هناء وسعادة، وسوف يحتضنهن الرجال ويقبلوهن، أما زوربا فسوف يصير عظامًا ورمادًا في قبره، وعساهن لا يطأنني بالأقدام!».

قال هذا وأخذ حفنة من ثمرات الكستناء من رماد المجمرة الملتهب، ونظفها، وقرعنا الكؤوس، وشربنا الأنخاب. وظللنا نحتسي النبيذ لساعات طويلة، ونلوك الطعام في أفواهنا رويدًا رويدًا، كأننا أرنبان كبيران، وكنا نسمع في الخارج صوت أمواج البحر وهي تهدر وتزمجر.

(7)

ظللنا كلانا صامتيْن عدة ساعات بالقرب من الكوخ. وتأكدتُ من جديد أن السعادة شيء بسيط ورخيص في متناول اليد. فقد تتمثل في: كأس من النبيذ، ثمرة كستناء، كوخ فقير، هدير البحر، ولا شيء غير ذلك. وأنها لا تحتاج سوى إلى إحساس بأن السعادة كلها تكمن فى قلب بسيط وحياة معتدلة.

سألتُ زوربا بعد فترة: «كم مرة تزوجتَ، يا زوربا؟». وكنا قد وصلنا كلانا إلى المزاج الرائق، وقد لا يكون هذا راجعًا إلى كثرة ما شربنا من نبيذ بقدر ما كان مرده إلى وفرة السعادة التي تنطوي عليها جوانحنا، والتي يستعصي علينا وصفها. فلقد فهم كلانا بعمق، كل واحد منا بطريقته الخاصة، أننا كنا مجرد حشرتين صغيرتين قصيرتي العمر، إذ تمكنَّا من التكيف بمهارة على سطح قشرة الكرة الأرضية، وعثرنا على زاوية مريحة بجوار كوخ، خلف البوص والعوارض الخشبية وبراميل البترول، وتلاصقنا أحدنا بالآخر، ووجدنا أمامنا أشياء مبهجة تشتهيها النفس، وعثرنا

بداخلنا على السكينة والحب والأمان.

لكن زوربا لم يسمعني، ويعلم الله في أية بحارٍ رسا عقله بحيث عجز عن سماع صوتي. فمددت يدي ولمست كتفه، ثم سألته من جديد: «كم مرة تزوجتَ، يا زوربا؟». فأجفل من فوره وهو يصغي إليَّ، ثم حرك يده الضخمة وأجابني: «أوه! ها أنت تجلس الآن، وتنقب وتفتش عن شيء! أوَ لستُ إنسانًا؟ لقد اقترفتُ أعظم فعلة حمقاء، هذا ما أقوله- وأرجو أن يترفق بي جميع من تزوجوا- وهذه الفعلة الحمقاء هي الزواج. أجل لقد اقترفْتُ أعظم الأفعال حُمقًا وبلاهة، لقد تزوجتُ».

قلت: «حسنًا! ولكن كم مرة؟». فهرش زوربا عنقه بعصبية، وشرع يفكر مليًّا لبرهة من الوقت، ثم قال في خاتمة المطاف: «كم مرة؟ بشرفي مرة واحدة، أجل مرة كانت هي القاضية. ولو أقسمت بنصف شرفي: مرتيْن؛ ولو بدون قسم بالشرف: ألف مرة، ألفين، ثلاثة آلاف؛ فهل عقلي دفتر؟».

فقلت: «هيا خَبرني، يا زوربا! فغدًا هو الأحد، ولسوف نحلق ذقوننا ونرتدي أفضل ما عندنا من ملابس، وسنذهب عند مدام "بومبولينا"، حيث الحياة والدجاجة! وليس عندنا عمل نؤديه؛ فهيا لذلك ننطلق من عقالنا هذه الليلة؛ هيا تكلم!».

فقال: «ماذا عساي أن أقول؟ وهل هذه أشياء تُقال، يا رَيِّس؟ إن الأزواج الشرفاء أغبياء بلهاء؛ طعامٌ بغير فلفل ولا توابل. ماذا عسى أن أقول؟ تُرى هل الزواج قبلة يرمقك القديسون بإعجاب من خلف الفاصل الأيقوني في الكنيسة، ويمنحونك دعواتهم من أجلها؟ فنحن

نقول في قريتنا: "إن اللحم المسروق هو وحده اللحم ذو المذاق الشهي". وما دامت زوجتك فإنها لا تكون أبدًا لحمًا مسروقًا. أما الأزواج عديمو الشرف فأنَّى لك أن تتذكرهم؟ فهل عند الديك دفتر يسجل فيه؟ لا تبتئس! ولماذا يحتفظ الديك بدفتر؟ ففي ذات مرة، عندما كنت حقًّا شابًّا، أصبت بنزوة مخبولة، أن أحتفظ من كل امرأة كنت أضاجعها بخصلة من مقدم شعر رأسها؛ وبناءً على ذلك كان معي دائمًا مقص لهذا الغرض. وحتى لو كنت ذاهبًا إلى الكنيسة، كان المقص لا يفارق جيبي؛ فنحن بشر وليس بوسعك أن تعرف ماذا يمكن أن يحدث. أخذت إذن أجمع خصلات الشعر هذه وأحتفظ بها: خصلات سوداء، وشقراء، وكستنائية، وأخرى يمتزج فيها الشعر الأبيض مع سواه؛ وأخذت أكومها أمامي حتى ملأت وسادة، فوضعتها في الوسادة ثم استغرقت في النوم؛ وقد تملكتني هذه النزوة فقط خلال الشتاء، لأن الصيف كان يجعلني أتأجج. غير أنني ما لبثت أن سئمت وتبرمت من هذه النزوة، فلقد بدأت رائحة سيئة تنبعث من خصلات الشعر هذه، فأضرمت فيها النار».

وهنا ضحك زوربا، ثم أردف: «هذه كانت دفاتر ذكرياتي، يا رَيِّس، لقد سئمت! فلقد كان يخيل إليَّ أن هؤلاء النساء كُن قليلات معدودات، غير أنني ما لبثت أن اكتشفت أنهن لا يحصيهن العد، فرميت المقص بعيدًا واسترحت».

قلت له: «وماذا عن الأزواج نصف الشرفاء، يا زوربا؟». فأجاب مقهقها: «إيه! أما هؤلاء فعندهم التسلية التي تسري عنهم. اعلم، يا هذا، أن المرأة السلافية– حتى لو عشت معها ألف عام– تجسيدٌ للحرية، فلن

توجه إليك سؤالاً، مثل: أين كنت؟ لماذا تأخرت؟ أين نمت؟ فالحرية هي ألا تسألك، وألا تسألها!».

ثم مد يده إلى كأسه وتجرعه حتى الثمالة، ثم قشَّر ثمرة كستناء ولاكها في فمه، وأخذ يتكلم: «أما المرأة الأولى فاسمها "سوفينكا"، وأما الثانية فاسمها "نوسا". ولقد تعرفت على "سوفينكا" في قرية كبيرة بالقرب من بلدة "نوڤوروسيسكي". كان الوقت آنذاك شتاء، وكانت الثلوج تتساقط، وكنت ذاهبًا للعمل في المنجم، وقد مررت على هذه القرية وتوقفت فيها برهةً من الزمن؛ كان فيها سوقٌ ذلك اليوم، وكان الناس قد أتوا إليها من جميع القرى المجاورة التي حولها، رجالاً ونساءً، كي يبيعوا أو يشتروا. كان الجوع ضاريًا والبرد قاسيًا مرعبًا، وكان الناس يبيعون كل ما يملكون وما لا يملكون، حتى الأيقونات التي عندهم، كي يبتاعوا في مقابلها خبزًا.

أخذت أتجول في ساحة السوق، فشاهدت ساعتها أنثى قروية فارعة الطول متينة البنيان تقفز من عربة، كان طولها يقرب من مترين، وكانت ذات عينين زرقاوين مثل زرقة البحر، وذات ردفين مثل ردفي البقرة... فذهلت من فرط إعجابي بها، وقلتُ في نفسي: "آه، يا لَك من تعِس شقي، يا زوربا، لقد ضعتَ!". أخذت أحملقُ فيها وهي تسير أمامي، وأكاد ألتهمها بعيني، بل إنني التهمتُها بالفعل، ولكن أنَّى لي أن أروي ظمئي منها، وكفلاها يهتزان مثل فوانيس عيد الفصح. وقلت فيما بيني وبين نفسي: "ماذا تريد أو تنشد، يا هذا، من العمل في المنجم؟ إلى أين تحث خطاك وتُورِد نفسك موارد التهلكة، أيها المتقلب ذو الأهواء؟ آه، إن هذه المرأة هي المنجم الحق، فاقتحم عالمها غير هياب ولا وجل، واكتشف سراديبها!".

توقفتْ الفتاة الفارعة، وساومتْ، واشترتْ أخشابا وحملتها– فيا لهما من ساعدين! آه يا إلهي!– ثم وضعتها على العربة. كما ابتاعت قليلاً من الخبز وخمس أو ست سمكات من الأسماك المدخنة، وسألت البائع: "كم يبلغ ثمنها؟"، وأجابها البائع، فخلعت قرطين ذهبيين من أذنها لتدفع الثمن، إذ لم يكن معها نقود، وكان عليها أن تتخلى عن قرطها الذهبي لتشتري به السلع. وإزاء هذا غلى الدم في عروقي، واشتعلتُ مثل البارود؛ فهل أترك أنا امرأة تتخلى هكذا عن قرطيْها، وهما حليتها وصابونتها المعطرة وقارورة عطرها؟... فلو أنني تركتها تتخلى عن هذا كله، لضاع العالم! أو لكان الأمر وكأنني أجرش قطعة من الثلج. فهل يطاوعك قلبك، يا زوربا، على جرش قطعة ثلج؟ لا أبدًا! وقلت لنفسي: "كلاً وألف كلاًّ، فطالما زوربا على قيد الحياة فلن يحدث هذا مطلقًا!". فتحت حافظة نقودي ودفعت للبائع الثمن. وكنا في زمن غدت الروبلات فيه مثل ورق لا قيمة له، فلو كان معك مائة دراخما لاشتريت بها بغلاً، وكنت تستطيع أن تتزوج امرأة بعشر دراخمات.

دفعت الثمن إذن؛ فالتفتت نحوي المرأة الفرعاء وحدجتني بنظراتها، ثم اختطفت يدي لتقبلها. غير أنني سحبت يدي للخلف، فهل كانت تعتبرني شيخًا مسنًا؟ وصاحت المرأة قائلة باللغة الروسية (سباسيبا! سباسيبا!– شكرًا شكرًا!)، وبقفزة واحدة منها استوت على العربة، وأمسكت باللجام، ورفعت السوط في يدها، فقلت لنفسي آنذاك: "إيه، يا زوربا، ها هي تفلت من قبضتك!". وبقفزة واحدة مني وجدت نفسي بجوارها فوق العربة، فلم تنبس المرأة ببنت شفة، حتى إنها لم تلتفت نحوي لتراني. وضربت بسوطها

الفرس وتحركنا. وفي أثناء سيرنا في الطريق فَهِمِتْ أنني أريدها زوجة، ولم أكن أعرف من اللغة الروسية إلا القليل من الكلمات، وكانت هذه الأمور لا تتطلب كثيرًا من الكلام. إذ أننا كنا نتحدث بعيوننا وبأيدينا وبركبنا. قصارى القول إننا وصلنا إلى قريتها، وتوقفنا، وهبطنا من العربة. وبدفعة واحدة فتحت الباب وولجنا إلى الداخل. وأنزلنا الأخشاب من العربة في فناء المنزل، كما أخذنا الأسماك والخبز وولجنا فى الحجرة. وفيها كانت امرأة عجوز تجلس بجوار المدفأة التي لم تكن بها نار، وهي ترتجف من شدة البرد. كانت المرأة العجوز متدثرة بأجولة وخرق وفراء خراف، غير أنها كانت ترتجف. قلتُ لكَ إن البرد كان زمهريرًا ويصل حتى مفاصلك. انحنيتُ لأضع كتلة من الخشب في المدفأة وأشعلتُ نيرانها؛ نظرتْ إليَّ المرأة العجوز وابتسمتْ. وكانت ابنتها قد قالت لها شيئًا أو أسرتْ إليها بكلماتٍ لم أفهمها. أشعلتُ النار إذن في المدفأة فشعرتْ العجوز بالدفء يسري في أوصالها، ودبت الحياة في مفاصلها.

قامتْ الفتاة بعد ذلك بفَرش المائدة، وأحضرت قليلاً من الفودكا لنحتسيها، ثم أوقدت النار تحت الغلاية وأعدت لنا الشاي. بعدها جلسنا إلى المائدة وتناولنا الطعام، وأعطينا بعضًا منه للمرأة العجوز. ثم قامت الفتاة بفَرش السرير، ووضع ملاءات نظيفة فوقه، ثم أوقدت القنديل الموضوع أمام أيقونة العذراء مريم المقدسة، ورسمت علامة الصليب. ثم أومأت لي إيماءةً ذات مغزى فركعنا كلانا أمام والدتها العجوز، وقبلنا يدها. ومدت هذه يديها المعروقتين ذواتي العظم الناتئ وربتت بهما على رأسينا، وهي تتمتم بكلمات لم أفهمها، ويبدو أنها كانت تمنحنا بركتها؛

وصحتُ: "سباسيبا! سباسيبا!". وبقفزة واحدة كنت بجوار الفتاة الفارعة على السرير».

هنا لاذ زوربا بالصمت. ثم رفع رأسه، وتطلع مليًّا حوله تجاه البحر، وقال: «كان اسمها "سوفينكا"..»، قال هذا وبعدها لاذ بأهداب الصمت مرةً ثانية. وهنا سألت بتلهف وصبر نافد: «وماذا بعد؟ ماذا بعد؟». فقال زوربا: «ليس هناك ماذا بعد! ما هذا الجنون الذي أصابك، يا رَيِّس؟ فأخذت تردد: "ماذا بعد؟ ولماذا؟" هل هذا كلام يُقال في هذا المقام، وحق حياتك؟ لقد قلتُ لك إن المرأة ينبوع بارد، تنحني وتطل عليها بوجهك، ثم تشرب وتشرب، حتى تتصدع عظامك وتصدر صريرًا. ثم من بعد ذلك يأتي شخصٌ آخر ظمآن بدوره، فينحني أيضًا ويطل بوجهه ويشرب. ويعقبه شخصٌ آخر وهكذا دواليك... ولهذا سُمي ينبوعًا؛ والمرأة مثله تمامًا».

وهنا قلتُ: «وهل رحلتَ بعد ذلك؟». فقال: «ماذا تريدني أن أفعل؟ ألم أقل لك إنها ينبوع، وإنني عابر طريق؟ لقد واصلتُ طريقي مرةً ثانية. لقد مكثت معها ثلاثة شهور، جازاها الله خيرًا عني، لم أشكُ خلالها شكوى واحدة. لكنني بعد ثلاثة شهور، تذكرت أنني كنت عازمًا على العمل في أحد المناجم. فقلت لها ذات صباح: "أي سوفينكا، لديَّ عمل ويتعين عليَّ أن أرحل". فقالت: "حسنًا! امض إلى حال سبيلك. سوف أنتظرك شهرًا واحدًا، فإن لم ترجع، فإنني بعد هذا الشهر أكون حرة، وأنت حر بدورك. فارحل على بركة الله!". وهكذا رحلتُ». فقلت له: «وهل رجعت بعد مرور شهر؟». فصاح زوربا: «هل أنت أحمق، يا رَيِّس؟ سامحني من فضلك! فأنَّى لك أن ترجع؟ وهل يسمح لك بذلك من حقت عليهم اللعنة وطردوا من

رحمة الكنيسة؟ بعد انقضاء شهر عثرت على "نوسا" في إقليم "كوبان"». فهتفت قائلًا: «أكمل!.. أكمل بالله عليك!». فقال زوربا: «دع هذا لمرة أخرى، يا رَيِّس، كي لا نشوش على هؤلاء النساء التعيسات! ودعنا نشرب النخب في صحة "سوفينكا"!».

قال هذا ثم تجرع كأسه في جرعة واحدة، واستند بعدها على الحائط، ثم قال: «حسنًا! سأحدثك أيضا عن "نوسا". فرأسي الليلة زاخر بذكرياتي في روسيا. هيا اخفض شراعك فسوف أنزل بضاعتي!». قال هذا ثم مسح شاربه، ونبش في الجمرات المتوهجة، ثم قال: «أما هذه، وأعني بها "نوسا"، فقد تعرفتُ عليها في إحدى قرى إقليم "كوبان". كان الوقت هناك صيفًا، وكانت ثمرات البطيخ والشمام مكومة مثل الجبال، فانحنيت وأخذت ثمرة بطيخ، ولم يقل لي أحد "يا هذا، ما الذي تفعله؟". فشققتها من منتصفها وأخذت ألتهمها بفمي. كان كل شيء موجودًا بوفرة هناك في القوقاز، يا رَيِّس، كل شيء مكدس في أكوام، فاختر منها ما تشاء وخذه! ولم يكن البطيخ والشمام هما وحدهما الموجودان بوفرة، بل كانت كذلك الأسماك والزبد والنساء. فإذا مررتَ على بطيخة فلك أن تأخذها ولا حرج، وإذا شاهدت امرأة فلك أن تأخذها ولا تثريب عليك. ولم يكن الأمر مثلما هو هنا في بلدة "ابسوروكوستينا"، حيث لو أخذت من أحد ورقة شجرة بطيخ يقتادونك إلى المحكمة، ولو لمست امرأة يأتي أخوها من فوره بسكينه ويجعل منك لحمًا مفروما. فيا لَه من بؤس وشُح وبخل بحقك وحقي! ألا فلتهلكوا وسحقًا لكم، أيها الحقراء الوضعاء! فلتذهبوا، أيها الناس، إلى روسيا كي تروا بعيونكم النبل وكرم المحتدا..

مررت إذن بإقليم "كوبان"، وشاهدت هناك امرأة واقفة في بستان بطيخ، وراقت لي. وينبغي عليك أن تعرف، يا رَيِّس، أن المرأة السلافية ليست على غرار هؤلاء النسوة الروميات (= اليونانيات) الرخيصات الجشعات، اللائي يبعن لك العشق في مقابل درهم، ويفعلن ما بوسعهن كي يدخلن الغفلة عليك، ويُخسِرْنَ في الميزان حين يكَيْلَن عليك؛ إن المرأة السلافية، يا رَيِّس، تستوفي الكيل حينما تزن لك وتجعل كفتكَ راجحة ثقيلة؛ وهي في مضاجعتها لك، وفي عشقها لك، وفي طعامها الذي تقدمه لك، أشد شبهًا بالحيوانات وبالأرض، حيث تعطي بوفرة وسخاء، ولا تضن أبدًا أو تبخل، مثلما تفعل هؤلاء النسوة الروميات (= اليونانيات) بائعات الخردوات!. وسألت هذه المرأة: "ما اسمك؟". خذ بالك! فلقد كنتُ قد تعلمتُ آنذاك من صحبة النساء قليلاً من اللغة الروسية... فقالت: "اسمي نوسا، وأنتَ؟". قلت: "أليكسيس، إنك تروقين لي جدًّا، يا نوسا". فتفرست في وجهي مليًّا مثلما تحدق في فرس ترغب في أن تشتريه، ثم قالت: "أما أنت، فلا يبدو أنك هزيل أو نحيل؛ فلكَ أسنان قوية، وشاربان كبيران، وكتفان عريضان، وذراعان قويتان. ولذا فأنتَ أيضًا تَروقُ لي". ولم يقل أحدنا للآخر ما هو أكثر من ذلك، ولا كنا في حاجة إليه، وتوافقنا سريعًا سريعًا؛ واستقر عزمنا على أن أذهب إلى منزلها مساء اليوم نفسه مرتديًا أجمل ملابسي. وسألتني نوسا: "هل لديك فراء؟" فأجبتها: "أجل، عندي، ولكن في مثل هذه الحرارة...." قالت: "لا يهم، احمله معك من أجل العظمة والوقار".

ارتديت بناءً على ذلك ملابسي في المساء، وكأنني عريس ليلة زفافه،

وحملت على ذراعي الفراء، وأخذت معي عصًا كنت أملكها لها مقبض فضي، وذهبت إليها. كان منزلها الريفي كبيرًا وذا أروقة، به حظائر فيها أبقار، ومعاصر نبيذ، ونيران موقدة في البهو وأوانٍ ضخمة (= قزانات)[*] موضوعة فوق النيران. وسألتها: "ماذا تسلقون في هذه الأواني؟" قالت: "شراب مولاس من البطيخ". فقلت: "وهنا؟" قالت: "شراب مولاس من الشمام". فقلت فيما بيني وبين نفسي: "أسمعتَ! هناك شراب مولاس من الشمام، وهنا شراب مولاس من البطيخ! هذه هي أرض الميعاد، وفي الخارج الفقر وشظف العيش! فلتحل عليك بركتي، يا زوربا، فلقد وقعت على كنز ثمين هنا؛ وكأنك فأر وجد نفسه داخل قِرْبَة من الجبن.

صعدت الدرج، وكان درجًا خشبيًا ذا ضخامة يصدر صريرًا تحت الأرجل. وعند قمة الدرج وجدت والد "نوسا" ووالدتها؛ كان الأب يرتدي بنطلونًا قصيرًا أخضر اللون، والأم ترتدي تنورة حمراء تحتها بنطلون واسع، وكان كلاهما يتمنطق بزنار أحمر ذي دلايات سميكة؛ كانا يبدوان من النبلاء وعلية القوم. وما إن صعدت إليهما حتى فتحا أذرعهما مرحبين بي، وكانت مقابلة حافلة بالأحضان والقبلات؛ فغمراني بلعابهما. تحدثا معي بسرعة خاطفة فلم أفهم منهما شيئًا يذكر. ولكن ماذا يهم؟ لقد عرفت من أسارير وجهيهما عندما تطلعت إليهما أنهما لا يضمران لي شراً.

ولجت فى الداخل، ويا لهول ما رأيت! مائدة مفروشة ومحملة بأطايب

---

[*] الكلمة المستخدمة فى اليونانية هى (kazania)، وهى موجودة فى لغتنا العامية على صورة "قزانات". [المترجم].

الطعام، وكأنها مركبٌ ذو صوارٍ ثلاثة. كان جميع أقاربهم، نساءً ورجالاً، واقفين، وفي مقدمتهم "نوسا"، وهي في كامل زينتها وأجمل ملابسها، وصدرها البراق مكشوف، وكأنها حورية بحر تقف على قارب. كانت تبرق من فرط الحسن والجمال وريعان الشباب، وكانت ترتدي على رأسها منديلاً أحمر، وفوق صدرها كان ثمة مطرقة وسندان مطرزان. وهنا قلت في نفسي: "إيه، يا زوربا، أيها الوغد المأفون، هل غدا هذا اللحم ملكك وطوع يمينك؟ هل ستعانق هذا الجسد الليلة؟ ألا فليسامح الله الأب والأم اللذين أنجباكِ وأنتِ على هذه الصورة من الجمال!".

وانغمسنا حتى الأذقان، رجالاً ونساءً، في التهام الطعام واحتساء الشراب؛ كنا نأكل مثل الخنازيرِ الشرهة، ونعب الشراب عبًّا مثل الجاموس. وسألت والد "نوسا"، الذي كان يجلس بجواري ويتصاعد البخار من جسمه من فرط التهام الطعام: "أين القس؟ أين القس كي يباركنا!". فأجابني قائلًا بعد أن غمرني برذاذ من لعابه: "لا يوجد هنا قس، أجل لا يوجد هنا قس! والدين موجود حيث يوجد الشعب".

قال هذا ثم وقف مزهوًّا مختالاً، وأرخى حزامه حتى يفسح مكانا لمزيد من الطعام، ثم مد يده إلى فمه مشيرا إليَّ بالتزام الصمت. كان يمسك في يده بكأسه المترعة ويحدق متفرسًا في وجهي. وشرع يتحدث ويتحدث؛ كان يلقي خطبة ترحيبًا بي. تُرى ماذا كان يقول؟ لا ريب أنه كان يتحدث عن الله وعن نفسه. تململتُ من الوقوف وبدأتُ أشعرُ بالدوار، فجلستُ من جديد. جلستُ وألصقتُ ركبتي بركبة "نوسا" الجالسة عن يميني. وأخذ والدها الشيخ يتحدث ويتحدثُ ويتصببُ منه العرق، إلى أن تململ

الجميع وتبرموا، وعانقوه كي يلزم الصمت. وهنا أومأت لي "نوسا" قائلة: "تكلم، يا عزيزي، تكلم بدورك!". فنهضتُ بناءً على ذلك بدوري وشرعتُ في إلقاء كلمة، نصفها باللغة الروسية ونصفها باللغة اليونانية. ترى ماذا قلت فيها؟ لتحل عليّ اللعنة لو كنت أعرف! لقد بدأتُ بغير سبب وبدون مبرر أغني بصوت عالٍ هذه الأغنية:

"انطلقَ اللصوصُ من أوكارهم في الجبال
يرومون سرقة الخيول!
لكنهم لم يجدوا خيولاً،
فخطفوا "نوسا" بدلاً منها".

فانظر، يا رَيِّس، لقد أقدمتُ على تغيير هذه الأغنية قليلاً مراعاةً للظرف الذي كنتُ فيه، فقلتُ:

"وذهبوا، ذهبوا جميعًا عن بكرة أبيهم،
فهيا! هلمي، يا أماه، اذهبي معهم!
آه، يا "نوسا"، يا حبيبتي الصغيرة!
آه، يا "نوسا"، يا قُرة عيني، فيا ويح قلبي!».

وما إن هتفتُ عاليًا بكلمة "يا ويح قلبي!"، حتى انحنيتُ ولثمتُ شفتي "نوسا". وهذا ما كان! وكأنني أعلنتُ لهم الإشارة التي كانوا ينتظرونها، فلم يكونوا ينتظرون سوى هذا؛ فوثب عدد من الشبان ذوي الطول الفارع واللحى الحمراء وأطفأوا الأنوار. وهنا صرخت النساء ذوات المكر البالغ والدهاء، كما لو كُن قد أصبن بالرعب، لكنهن سرعان ما

ضحكن مقهقهات: "كرِكرِكرِكرِا" في جنح الظلام، وشرعن في المداعبة والدغدغة والضحك العالي. إن ما حدث تلك الليلة هو أمر لا يعرفه إلا الله، وأعتقد أن الله لم يكن يلقي إليه بالاً أو يهتم به، لأنه لو كان يهتم به لقذفنا بصاعقته وأحرقنا جميعًا. فالرجال والنساء قد امتزجوا معا، واختلط الحابل بالنابل، أما أنا فقد تدحرجت على الأرض وشرعت أبحث عن "نوسا"، ولكن أنَّى لي أن أعثر عليها! إذ وقعت على امرأة أخرى غيرها وأهلكت نفسي في أحضانها.

وعندما ظهرتْ تباشير النهار، نهضتُ من رقدتي كي آخذ زوجتي ونرحل. كان الظلام لم ينقشع بعد، ولم أكن قادرًا على الرؤية بوضوح. أمسكتُ بقدم امرأة وجذبتها، لكنها لم تكن "نوسا"؛ فأمسكتُ بقدم أخرى ولم تكن بدورها قدمها! وأمسكتُ بقدم ثالثة ولم تكن أيضًا قدمها! وأخذتُ أمسك بالقدم تلو القدم إلى أن شاهدتهن كلهن وعانيت الأمرَّين من كثرة المعاينة، وأخيرًا عثرت على قدم "نوسا"، فجذبتها وخلصتها من براثن رجلين عملاقين أو ثلاثة، كانوا قد جعلوا هذه المسكينة البائسة مثل الفطيرة. فأيقظتها وقلت لها: "نوسا، هيًّا بنا!" فأجابت: "لا تنس فراءك! هيا بنا!". ثم انطلقنا بعدها راحلين».

وهنا سألتُ مرةً أخرى، وأنا أنظر إلى زوربا الذي لاذ بالصمت: «وماذا بعد؟». فرد عليَّ زوربا، وهو ثائر متضايق: «ماذا تبغي مرةً أخرى من قولك: وماذا بعد؟». قال هذا، ثم زفر زفرة حارة وتنهد، ثم قال: «لقد عشتُ معها ستة شهور. ولا شيء سوى ذلك، وهذا هو ما أقوله لك! لا أقول لك سوى شيء واحد: «أتمنى ألا يمحو الشيطان، وألا يمحو الله من ذاكرتي هذه

الشهور الستة! هل فهمتَ؟ قلْ: أجلْ فهمتُ». وهنا أغمض زوربا عينيه وبدا عليه أنه أحس بتأثر بالغ حرك مشاعره. فلأول مرة أراه يتمسك إلى هذا الحد الكبير بلحظة من لحظات الماضي. وبعد هنيهة من الوقت سألتُه: «هل أحببتَ هذه المرأة إلى هذا الحد؟». فتح زوربا عينيه وقال: «يا رَيِّس، وحياتك، إنك صغير السن، أجل إنك شاب صغير السن! فماذا بوسعك أن تفهم؟ عندما تنبت الشعيرات البيضاء في رأسك، تعال كي تتسامر معي حول هذا الموضوع الذي لا نهاية له...». فقلت له: «ما هو هذا الموضوع الذي لا نهاية له؟». قال: «المرأة... ألم أقل لك هذا مرارًا وتكرارًا؟ إن المرأة موضوعٌ لا نهاية له. أما الآن فإنك، وحياتك، مثل الغربان التي تنقض كالبرق الخاطف على الدجاجات، وبعد ذلك تنفخُ عروق رقابها، ثم تصعدُ بعدها فوق كومة الروث وتصبح زهواً واختيالاً على غرار الديكة. إن الغربان لا تتطلع إلى الدجاجة، بل تتطلع فقط إلى العُرف المتدلي من رقاب الديكة. فماذا يمكن أن يفهم هؤلاء عن العشق وفنونه؟ فيا لزمانهم المنحوس!».

نطق بهذا ثم بصق على الأرض في ازدراء، وحول وجهه بعيدًا عني، إذ لم يكن راغبًا في النظر إليّ. فقلت له مرةً أخرى: «وماذا بعد، يا زوربا؟ ماذا فعلتْ "نوسا"؟». فحدق زوربا مليًّا بعيدًا صوب البحر، وأجاب: «ذات مساء، رجعتُ إلى منزلي فلم أجدها؛ كانتْ قد لاذتْ بالفرار. إذ مر على القرية جندي شاب وسيم خلال تلك الأيام، فهربت بصحبته؛ أجل ذهبت معه. انفطر قلبي وغدا شطرين، غير أن قلبي هذا الوضيع الشائن سرعان ما التأم. هل رأيت من قبل شراع مركب ممزق إلى ألف خرقة،

بعضها لونه أحمر وبعضها أصفر وبعضها أسود؟ وهل رأيت كيف رُتقتْ هذه الخرق معًا بخيط سميك كي لا تتمزق عند هبوب العواصف العاتية؟ على هذا النحو كان قلبي: كان به ألف ثقب، وممزق إلى ألف خرقة، فغدا منكسراً مهيض الجناح».

فقلت له عندئذ: «أو لم تغضبْ مما فعلته "نوسا"، يا زوربا؟». فقال: «ولماذا أغضبْ؟ قلْ ما تشاء عني، فالمرأة، يا رَيِّس، شيءٌ آخر، طبيعةٌ أخرى، إنها ليستْ مثل البشر. فلماذا أغضبْ؟ إن المرأة كائن يستعصي على الفهم، وكل قوانين الدولة ونواميس الدين الموجودة عندنا على خطأ. فلا ينبغي أن تُعامل المرأة على هذه الصورة، لا! إنها قوانين تعامل المرأة، يا رَيِّس، بقسوة شديدة وبظلم وتعسف... ولو كان الأمر بيدي أو أوكل إليَّ سن القوانين، فلسوف أسن قوانين للرجل، وأخرى للمرأة. ولوضعت عشر وصايا، بل مائة، بل ألف وصية للرجل، فهو رجل حقًّا وقادر على الاحتمال؛ ولَعزفتُ عن وضع وصيةٍ واحدة للمرأة. لماذا؟ ألم أقل لك هذا مرارًا وتكرارًا، يا رَيِّس؟ ألم أقل لك إن المرأة مخلوقٌ ضعيف. هيا! فلنشرب نخباً في صحة "نوسا"، يا رَيِّس! فلنشرب أيضًا نخبا في صحة المرأة! وليسبغ علينا الله، نحن الرجال، نعمة الإحساس والمعرفة!».

ظل يشرب الكأس تلو الكأس، ثم وضع يده وتركها تسقط فجأةً، وكأنه كان يمسك في يده بَلطة. وبعدها أردف زوربا: «إما أن يسبغ علينا المعرفة والإحساس، أو أن يجري لنا عملية جراحية؛ وإلا، واسمع ما أقوله جيدًا، يا رَيِّس، فإننا هالكون ضائعون لا محالة!».

(8)

اليوم تمطر السماء رذاذًا من المطر هادئًا كالظل، والسماء معبقة برائحة الأرض في نعومة ورقة لا متناهية. وخطر على ذهني نقشٌ هندي بارز على صخرة رمادية داكنة، صُور فيه ما يلي: رجلٌ يطوق امرأة بذراعيه ويحيطها بهما، ويمارس الجنس معها بنعومة فائقة وصبر بالغ، حتى أنك لتظن– طالما أن الزمن قد امتصهما على هذا النحو، وأتى تقريبًا على جسديهما– أنك ترى حشرتين قد تزاوجتا، وبدأ رذاذ من المطر يتساقط عليهما، إلى أن تبللت أجنحتهما؛ والآن شرعت الأرض تمتصه بهدوء وبطء ونهم، في حين أن الحشرتين ظلتا متعانقتين تحتضن كل واحدة منهما رفيقها.

أجلسُ في وسط الكوخ وأتطلَّع إلى الدنيا التي تبرق حولي، وإلى البحر الذي يتلألأ لونه اللازوردي بالنور. ومن طرف الساحل حتى طرفه الآخر، لا أرى أثرًا لإنسان أو لشراع سفينة أو لطائر. ومن نافذة الكوخ المفتوحة وحدها، كانت تنفذُ رائحة التراب. فنهضتُ من جلستي، ومددتُ يدي لتلامس رذاذ المطر وكأنني شحاذ.

وفجأةً خطر على بالي أن أجهش بالبكاء، إذ تصاعد حزنٌ غامر عميق قاتم للغاية- لا من أجل نفسي، ولا هو خاص بي- تصاعد من الأرض المبللة بالمطر ونفذ إلى أحشائي. إنه الذعر... أجل! إنه الذعرُ أو الفَرقُ الذي يهيمن على الحيوان الذي يرتاد المرعى دون هَم أو قلق، وفجأةً بدون أن يرى شيئًا، يستروح رائحة الصياد حوله، ويدرك أنه أعيق عن الحركة ولا سبيل أمامه للنجاة.

حاولت أن أصرخ أو أصيح، إذ كنت أعرف أن مثل هذا التصرف سوف يخفف عني ويريحني، غير أنني خجلت من نفسي. أخذت قبة السماء تهبط أكثر فأكثر، فنظرتُ من النافذة لأجد السحب قد غطت كثيب الفحم الحجري، أما الوجه النسائي المائل الذى شكّله الكثيب، فكان يغطس فيه. كانت هذه الساعات الزاخرة بالمتعة زاخرةً أيضًا بالحزن، أعنى الساعات التي كان رذاذ المطر يتساقط فيها دون توقف، وكأن روحك الشبيهة بالفراشة هي التي تمطر وتغطس داخل الثرى. تكالبتْ جميع الذكريات المريرة على عقلكَ: فراق الأصدقاء الذي حدث مؤخرًا، ابتسامات النساء التي انمحتْ، الآمال التي انسلختْ بدورها عن شرانقها مثل الفراشات، ولم يبق منها سوى الدودة، وهذه الدودة تزحف الآن في شغاف قلبكَ وتشرعُ فى التهامه.

وببطء وسط المطر المتساقط والثرى المبلل، تسلل مرةً أخرى إلى قلبي الصديقُ الذي هاجر واغترب هناك في بلاد القوقاز. فتناولتُ قلمي وانحنيت على أوراقي، وشرعتُ أتحدث معه من أجل أن أمزق شبكة الأمطار، وأن أغفر للحزن أو ألتمس له الأعذار. وهذا هو ما كتبته:

«عزيزي، أكتب لك من ساحل منعزل في جزيرة كريت، حيث اتفقنا كلانا، القدر وأنا، على أن أمكث هنا شهورًا قليلة ألهو فيها، وألعب فيها دور الرأسمالي المموِّل، مالك منجم الفحم الحجري، رجل الأعمال. ولو أن لعبتي قُدر لها النجاح، فسوف أقول عندئذ إنني لِم أكن ألعب، بل سأقول فقط إنني اتخذت قرارًا مصيريًا وغيرت مجرى حياتي. لا ريب أنك تتذكر أنك حينما كنت راحلاً صرختَ في وجهي وعنفتني قائلًا: "يا جرْذَ الكتب والأوراق!". ولذا فمن جانبي ركبتُ رأسي، وقررتُ أن أعتزلَ الأوراق لفترة قصيرة، أم أنك تريد أن يكون اعتزالي دائمًا؟ وأن أنغمس بكليتي في الفعل والتنفيذ. فاستأجرتُ تلاً من الفحم الحجري، واكتريتُ عمالاً بالأجر، ومعاول، ومجارف، ومصابيح بغاز الأسيتيلين، وسلالاً كبيرة، وعربات، وفتحتُ دهاليز في المنجم وزحفتُ داخلها. أجل تصرفتُ على هذا النحو نكايةً فيك؛ وتحولتُ من جرْذِ كتب وأوراق إلى حفاَّرِ مناجم، أحفر قنوات ودهاليز ومجارٍ في الأرض، وغدوتُ فأراً أعمى".

"وكلي أمل في أن توافق على هذا التغيير وتقره. فلقد سخرتَ مني مرارًا وتكرارا بقولكِ إنك تلميذي، في حين أنني أفدتُ كثيرًا بفضل معرفتي الجيدة بكل ما هو واجب على الأستاذ، وبكل ما هو غُنم وفائدة من جانب الأستاذ الحق: فالأستاذ عليه أن يحاول تعلم كل ما يمكنه معرفته عن تلميذه، وأن يستشفَ أو يستشعرَ إلى أي مدى يجذبه شبابه، وكذا إلى أي اتجاه يوجه روحه. فانظر كيف وصلتُ إلى جزيرة كريت، حينما اتبعتُ تعليمات تلميذي".

"إن المباهج التي أنعم بها هنا مباهج جِد عظيمة، وذلك لأنها جِد

بسيطة ومكونة من عناصر خالدة: الهواء الطلق، البحر، الخبز المصنوع من القمح، وفي المساء هناك جِلف بحري مدهش يجلس أمامي ملاصقًا لقدمي، فاغرًا فاه، وحينما يتكلم يغدو العالم رحباً فسيحاً. وأحيانًا حينما لا يسعفه الكلام، يقفز عاليًا ثم يرقص؛ وأحيانًا أخرى حينما لا يرضيه الرقص، يمسك بآلة القانون، ويضعها على ركبتيه ويبدأ في العزف عليها".

"فحيناً يكون اللحن وحشيًا عنيفًا، فيخطر على بالك كبته أو وأده، لأنك تدرك فجأةً أن حياتك كئيبة لا طعم لها، وتعسة بائسة، لا تليق بإنسان؛ وحيناً آخر يكون اللحن حزينًا زاخرًا بالشجن، فتشعر أن الحياة تمر وتضيع هباءً منثورًا، مثل الرمال التي تمسكها في كفك وتنساب من بين أصابعك، وتشعر أنه لا منجاة ولا خلاص. إن روحي تغدو وتجيء من طرف إلى طرف آخر داخل صدري، مثلها مثل السهم، أو مثل مكوك نول النسيج. إنها تنسج هذه الشهور القليلة التي سوف أمضيها في جزيرة كريت، وليسامحني الله ويعفو عني، لكنني أظن أنني سعيد".

"يقول كونفوشيوس: «كثيرون ينشدون سعادة أطول من قامة الإنسان، وآخرون ينشدون سعادة أقصر من قامة الإنسان، غير أن السعادة مماثلة تماماً لقامة الإنسان». وهذا صحيح... فثمة إذن صور كثيرة جدًا من السعادة بقدر قامات البشر. وهذه، يا تلميذي العزيز ومعلمي، هي السعادة التي أحس الآن بها. إنني أحسبها وأعيد حسابها والقلق يعصف بي، لكي أعرف ما هو طول قامتي الآن. هذا لأنك تعلم حق العلم أن قامة الإنسان لا تظل دائمًا على حالها".

"حقا إن نَفَسَ الإنسان تتغير وفقًا للمناخ والصمت والوحدة أو

الصحبة! ويبدو لي أن الناس، من خلال عزلتي هنا، ليسوا مثل النمل، مثلما قد تعتقد أنتَ بالتأكيد، بل على العكس، إنهم مثل الحيوانات العملاقة: الديناصورات والطيور الكاسرة في حقبة ما قبل التاريخ، التي كانت تعيش في الهواء المشبع بحمض الكربونيك وترتع فى العفونة الغليظة التي كانت تسود الكون؛ وإنها لغابةٌ لا يمكن فهمها، غابة بلهاء تدعو للرثاء. وإن معانٍ مثل: "الوطن" و"العشيرة": التي تحبها، ومعانٍ أخرى مثل: "الوطن الأعظم" و"الإنسانية" التي جذبتني وأسرتني، تكتسب القيمة ذاتها في فضاء التلاشي ذي القوة الخارقة. ونحن نحس أننا مضطرون إلى أن ننطق بعدة مقاطع، وأحيانًا بما هو أقل من المقاطع، مجرد أصوات بلا روابط، مثل "آ" أو "أو"، وبعدها نغني غناءً أعجم بلا مقاطع. أما عن الأفكار الأعظم، فما إن يقدر لك أن تفتح بطونها، حتى ترى أنها هي الأخرى بدورها عظام مليئة حتى حافتها بالقشور والنخالة، وبداخل النخالة توجد المتطلبات المناسبة للزنبرك الصفيح المدفون".

"وإنك تعرف جيدًا أن هذه التأملات الجافة للغاية لا تمزق مني الكبد فقط، بل إنها مواد ضرورية لإذكاء النيران في الشعلة المضطرمة داخلي. وذلك لأنه كما يقول معلمي بوذا: «لقد رأيتُ... وطالما أنني رأيتُ وتوصلتُ إلى الفهم، فأنا أغمِزُ بعيني لما هو غير مرئي، وبذلك فإنني أستطيع بمزاج رائق جدًّا وخيال مرهف، أيها المخرج، أن أمثل بإتقان لا مزيد عليه، بمعنى أن ألعب دوري، بوصفي كائنًا أدب على ظهر الأرض، بتناسق وتناغم وبغير همة مثبطة أو عزيمة واهنة، لأن هذا الدور لم يمنحه لي وحده ذلك الذي شحنني وأثارني، بل إنه دورٌ نابعٌ من إرادتي أنا، حيث إنني أنا الذي

قمت باستثارة حفيظة نفسي. ولماذا؟ لأنني رأيتُ... وتعاونتُ بنفسي في أداء العمل الذي أمثله على خشبة مسرح كان الله عوناً لي ومساعداً فيه".

"وهكذا، فعندما مسحتُ بنظرة شاملة من عيني المسرح العالمي، شاهدتك هناك في معاقل القوقاز الأسطورية، وأنت تمثل بنفسك وتجاهد كي تنقذ بضعة آلاف من الأرواح من جنسنا (اليوناني) يتعرضون للخطر. فيا "بروميثيوس(*)" الزائف، يا من ستكابد- على أية حال- عذابات حقيقية على يد قوى الظلام التي تحاربها والتي تحاربك، وهي: الجوع والبرد والمرض والموت. في تصوري أنك- حيث إنك شامخ مترفع بسبب ما أنت عليه- سوف تسعد لأن قوى الظلام كثيرة جدًّا، ويتعذر التصدي لها أو مقاومتها؛ وذلك لأن قضيتك سوف تصبح على هذا النحو بطولية، حيث إنها حين تغدو تقريبًا مجردة من الأمل ستكتسب حملة روحك المظفرة عظَمة جِد تراجيدية".

"ومن المؤكد أنك تعتبر حياتك هذه، والحيوات المماثلة لها، تجسيدًا للسعادة. وما دمت تعتبرها كذلك، فهي بالفعل تجسيد للسعادة. ولقد قمتَ أنت بنفسك بقص أطراف السعادة لتغدو على مقاس قامتك؛ وقامتك الآن، لك المجد يا الله! أكثر طولاً من قامتي. فالمعلم لا ينشد أجرًا أكبر من هذا، وأجره هو أن يجعل تلميذه أسمى منه قدرًا. وأنا كثيرًا

(*) "بروميثيوس" فى الأساطير اليونانية القديمة تيتان من الجبابرة Titanes الذين أنجبتهم ربة الأرض مع العمالقة Gigantes. ولقد ساعد هذا التيتان مع زملائه الآلهة الأوليمبية فى حربهم ضد العمالقة الذين تمردوا عليهم. و"بروميثيوس" هو سارق النار من جبل الأوليمبوس ومعطيها للبشر، بعد أن حرمهم زيوس منها. [المترجم].

ما أنسى، وأتهكم، وأضل، ويكون يقيني لوحة فسيفساء حبَّاتها من الشك والريبة. وكم خطر ببالي أحيانًا أن أغتنم لحظة قصيرة وأمنحها حياتي بكاملها؛ أما أنت فتحكم قبضتك على الدفة ولا تنسى- حتى في اللحظات الحلوة الماحقة- السبب الذي من أجله شددتَ الرحال".

"تُرى هل تتذكر المرة التي مررنا فيها كلانا بإيطاليا، فيما كنا راجعيْن إلى بلاد اليونان؟ كنا قد اتخذنا قرارًا بشأن منطقة البحر الأسود التي كانت معرضة للخطر آنذاك، فذهبنا كي نؤدي واجبنا تجاهها. وفي مغامرة صغيرة نزلنا على عجل من القطار، لأنه لم يكن لدينا وقت سوى ساعة واحدة فقط إلى أن يأتي القطار الآخر. فيممنا شطر حديقة خضراء زاهية معشوشبة قريبة من محطة القطار. وكانت بهذه الحديقة أشجار ذات أوراق عريضة، وأشجار موز، ونبات البوص ذو اللون المعدني الداكن، وأسراب من النحل كانت متجمعة تتدلى من غصن مزهر، وكان الغصن يهتز طربًا سعيدًا لأن النحلات كانت تتغذى على أزهاره".

"كنا كلانا نتقدم صامتيْن مأخوذيْن بالنشوة والسحر، كما لو كنا في حلم، وهناك قابلنا- عند انحناءة في الطريق الحافل بالزهور- فتاتيْن كانتا تمشيان وهما تقرآن. ولا أتذكر ما إذا كانتا فتاتيْن جميلتين أم دميمتيْن؛ كل ما أذكره فحسب أن إحداهما كانت شقراء والأخرى خمرية البشرة، وأن كل فتاة منهما كانت ترتدي بلوزة ربيعية. فاقتربنا منهما ونحن متسلحان بالجسارة التي نتزود بها أثناء الأحلام، وأتذكر أنك قلت لهما وأنت تضحك: «أيًّا كان الكتاب الذي تقومان بقراءته، فسوف نتحدث سويًّا عنه وسيملؤنا الابتهاج!»".

"كانت الفتاتان تقرآن عملاً من أعمال «جوركي». وأخذنا كلانا نتحدث بسرعة، لأننا كنا متعجلين حرصًا على الوقت؛ تحدثنا عن الحياة وعن الفقر وعن بسالة النفس وعن الحب... ولن أنسى أبدًا مدى فرحتنا ولا مدى إحساسنا بالمرارة جراء هذه المقابلة. وكأننا كنا أصدقاء قدامى أو أحبة قدامى، جمعتنا المحبة مع هاتين الفتاتيْن المجهولتيْن، أو كأن هناك مسئولية كانت تقع على كاهلنا تجاه روحيهما وجسديهما. غير أننا كنا في عجلة من أمرنا، لأننا كنا سنفترق إلى الأبد بعد دقائق قليلة، وكان الجو مشحونًا بنُذر عاصفة من الخطف والموت".

"وصل القطار وانطلقت صافرته؛ فجفلنا وارتعدنا كما لو كنا قد استيقظنا من سباتنا، ومددنا أيدينا لإزجاء التحية قبل فراق الفتاتيْن. وأنَّى لي أن أنسى عناق الأيدي والضغط عليها بشوق وبلا أمل، ولا الأصابع العشرة وهي تتعانق وتأبى- في غمرة تعاستها- أن تفترق؟ كانت إحدى الفتاتيْن شاحبة للغاية، أما الثانية فكانت تضحك وترتعد. وأتذكر أنني قلتُ لك: «تُرى ماذا تعني اليونان؟ وماذا يعني الواجب؟ ها هي الحقيقة أمامنا!». وأتذكر أنك أجبتني بقولك: «لا شيء تعنيه اليونان ولا الواجب؛ ومع ذلك فمن أجل هذا اللاشيء دعنا نضيع بإرادتنا"»."

"ولكن لماذا أكتب لك كل هذه الأمور؟ أكتبها لكي أخبرك أنني لم أنس شيئًا مما عشناه سويًا. وكذلك لكي أجد فرصة في خاتمة المطاف كي أبين لك في خطاباتي أنه لم يتيسر لي أبدًا- بسبب العادة السوية أو المذمومة التي قررنا أن نتمسك بها- أن أوضح لك ذلك عندما كنا معًا".

"والآن، طالما أنك لست أمامي أو جالساً قبالتي، ولا ترى التعبير الذي

اتخذته أسارير وجهي، ولا أستشعر خطرًا في أن أبدو رقيقًا ومضحكًا، أقول لك إنني أحبك حباً جماً"».

أنهيتُ خطابي الذي تسامرتُ فيه مع صديقي، وشعرتُ بالارتياح. ثم ناديتُ على زوربا الذي كان جاثمًا في حِمَى صخرة حتى لا يبلله المطر، وكان يجري تجاربه على الخط الهوائي. فناديت عليه: «هيَّا، يا زوربا، انهض لأننا ذاهبان إلى القرية لكي نتريض». فقال: «مزاجُكَ رائق، يا رَيِّس، إن المطر يهطل. ألن تذهب بمفردك؟». فقلت: «أجل مزاجي رائق جدًّا، ولا أريد أن أعكر صفوه. وما دمنا سويًّا فلا خوف من ذلك؛ هيا بنا». فضحك زوربا وقال: «إنني مسرور لأنك بحاجة إليَّ، هيا بنا!».

حمل زوربا سترته الكريتية الصوفية ذات القلنسوة التي كنت قد أهديتها إليه، وسرنا في الطريق وأقدامنا تغوص في الأوحال. كانت السماء تمطر، وكانت قمم الجبال مغطاة بالجليد، وكانت الرياح ساكنة لا تهب، أما الصخور فكانت تبرق. وكان كثيب الفحم الحجري مختنقًا بالضباب؛ كما كان حزن بشري– لو جاز هذا القول– يلف وجه التل الأنثوي، وكأنه قد خر مغشيًّا عليه تحت الأمطار. فقال زوربا: «إن قلب الإنسان ينقبض، فلا تُلقِ إليه بالاً أو تصغي إليه عندما يهطل المطر». ثم انحنى عند الجزء الأسفل من سياج كان قائمًا، وقطف براعم زهور النرجس البري الصفراء، وأخذ يتطلع إليها مدة طويلة في نهم، وكأنه كان يرى زهور النرجس البري لأول مرة في حياته، وأخذ يشمها وهو مغمض العينين، وبعدها أطلق تنهيدة حارة ثم أعطاها لي وهو يقول:

«علينا أن نعرف، يا رَيِّس، ماذا تقول الصخور والزهور والمطر! إذ أنها

جميعًا ربما تنادي، تنادي علينا ونحن لا نسمعها. فمتى تنفتح آذان العالم، يا رَيِّس؟ ومتى تنفتح عيوننا لكي نرى؟ ومتى سنفتح أحضاننا، نحن البشر، كي نعانق الصخور والزهور والمطر؟ فماذا عساك تقول وحياتك، يا رَيِّس؟ وماذا عسى أن تقول كتبك في هذا؟». فقلت وأنا أستخدم عبارة زوربا المحببة: «يا لَزمانهم التعس البائس! (وهي الجملة المحببة دوماً لدى زوربا). هذا ما تقوله الكتب، ولا شيء سواه». فأمسكني زوربا من ذراعي وقال: «سأنبئك بفكرة، يا رَيِّس، ولكن لا تغضب مني: أرجو أن تكوم كتبك كلها في كومة وأن تضرم فيها النار. وحينئذٍ فمَن يدري، فأنت لست غبيًا، إنك رجل فاضل... وسيكون بوسعك أن تفهم!».

فصحت من أعماقي: «حقًّا! حقًّا! إن ما تقوله هو الحق ولكنني لا أستطيع!». تردد زوربا لحظة ثم فكر مليًا؛ وبعد برهة من الوقت قال: «أما أنا فإنني أفهم حقاً شيئاً...». فقلت: «ماذا؟ هيا قل لي، يا زوربا!». فقال: «تُرى هل أعرف حقًّا؟ هذا هو ما يبدو لي؛ لعلي أفهم شيئًا... غير أنني لو أردت أن أبوح به فسوف أفسده. ويومًا ما، لو راق مزاجي، سأنبئك به عن طريق الرقص».

اشتد هطول المطر الآن، ووصلنا إلى القرية. كانت فتيات صغيرات راجعات بعد أن قُمن برعي أغنامهن، وكان الفلاحون الذين يسوقون أزواج الثيران قد حلوا قيود أبقارهم وثيرانهم، بعد أن انتهوا من العمل في حقولهم؛ أما النساء فكن يقمن بإرجاع أطفالهن إلى المنزل بعد جمعهم من الأزقة؛ وكان ذعر بهيج قد هيمن على القرية خلال هطول المطر على غير توقع. كانت أجساد النساء متصلبة، على حين كانت عيونهن تضحك،

وكانت قطرات غليظة من المطر تتساقط من لحى الرجال التي تشبه الأوتاد ومن شواربهم المنحنية؛ وكان أريج فواح ينبعث من القرية ومن الصخور ومن النباتات الخضراء.

وولجنا، ونحن مغموران بمياه المطر، إلى مقهى ومحل جزارة "الاحتشام". كان رواد المقهى كثيرين، كان بعضهم يلعبون الورق (= الكوتشينة)، وبعضهم يتسامرون بصوتٍ عال، وكأنهم موجودون أمام الجبال. وكان أعيان القرية وكبار رجالها جالسين حول مائدة تستقر على منصة خشبية في عمق المقهى: العم "أناغنوستيس" بقميصه الأبيض ذي الأكمام الواسعة، و"مافراندونيس"، الصامت الصارم، وهو يدخن النرجيلة وعيناه شاخصتان إلى أسفل؛ أما المدرس الذي هو في أواسط العمر، وطويل ذو جسم نحيل، فكان يستند على عصاه ويستمع بابتسامة عطوفة إلى رجل شهواني ذي شعر غزير، كان قد عاد لتوه من مدينة "كاسترو"، وهو يقص عجائب هذه المدينة العظيمة. وكان صاحب المقهى منحنيًا على طاولة عمله وهو يصغي إلى حديثهم ويضحك، بينما كان اهتمامه منصبًّا على غلاية القهوة التي كانت موضوعة على الجمر المتقد. وبمجرد أن لمحنا العم "أناغنوسينس" قادمين نهض واقفًا وقال: «مرحبًا بكما هنا، يا بَني بلدتي؛ إن "اسفاكيانونيقوليس" يقص علينا ما رآه وما عاناه في مدينة "كاسترو"... إنه يسلي نفسه، فتفضلوا لتستمعوا إليه». ثم التفت إلى صاحب المقهى قائلًا: «كأسان من العَرَقي، يا مانولي».

جلسنا، وما إن شاهد الرجل ذو الملامح الوحشية (الذي كان يقص العجائب) أغرابًا يدخلون المقهى، حتى انكمش على نفسه ولزم الصمت.

وهنا سأله المدرس ليستحثه على الكلام: «وهل ذهبتَ وأنتَ هناك إلى المسرح، يا كابتن نيقوليس؟ وكيف بدا لك حقًّا؟». فمد السيد "اسفاكيانونيقوليس" يده الضخمة إلى الأمام، وقبض بأصابعه على إناء النبيذ الذي كان أمامه، وعب محتوياته في جرعة واحدة، فاسترد بعدها شجاعته، وقال: «أتسألني إن كنت أنا قد ذهبتُ؟ طبعًا ذهبتُ. وأصغيتُ هناك إلى الممثلة "كوتوبولي"(*)، أجل سمعت "كوتوبولي"؛ وذات مساء رسمتُ علامة الصليب على صدري، وقلتُ فيما بيني وبين نفسي: "أريد أن أذهب، ولكن ماذا عن عقيدتي؟ أجل أريد أن أذهب وأن أشاهدها. فيا لها من ملعونة مغوية، هذه التي تسمى "كوتوبولي"!». وهنا سأله العم "أناغنوسيتس": «هل رأيتها فعلاً، يا "نيقوليس"؟ هل رأيتها فعلاً، بحق الله؟». فقال: «وحياتك عندي، يا عزيزي، لم أبصر شيئًا! فأنت تسمع عن المسرح، وتظن أنك ستذهب وترفه عن نفسك. فيا لخسارة المال الذي دفعته! كان المسرح عبارة عن كافيتيريا مستديرة مثل باحة الحصاد؛ مملوءة بالمقاعد والشمعدانات والجماهير؛ لم أتمكن من أن أحدق فيها، فقد زاغ بصري ولم أشاهدها. فقلت لنفسي: "اللعنة! لو أنهم كانوا سيعرضون علينا سحرًا، فسوف أرحل!"، ولكن غادةً هيفاء مبهرة أخذتني من يدي وسارت بي، فقلتُ لها: "إلى أين تأخذينني، يا فتاتي؟"، غير أنها أخذتني وظلتْ تسير بي إلى أن التفتتْ إليَّ في نهايةَ المطاف، وقالتْ: "اجلس هنا!". فجلستُ، وكان أمامي وخلفي وعن يميني وعن يساري أناس كثيرون. ففكرتُ فيما

(*) "كوتوبولي" كانت آنذاك أشهر ممثلة مسرح فى بلاد اليونان، وكان لها مسرح يحمل اسمها. ولقد توفيت على أثر إصابتها بمرض السرطان. [المترجم].

بيني وبين نفسي: "ما هذا؟ إنني سوف أختنق أو سأنفجر! فلا يوجد هواء!" والتفتُ إلى الجالس بجواري وسألته: "مِن أين، يا عمي، سوف تظهر النجمة (البريمادونا)؟" فقال: "مِن هنا! من داخل هذا المكان!"، وأشار إلى الستار. وبدوري ركزت عيني، بناءً على ذلك، على الستار. وفجأةً سمعت صوت جرس يرن، وانفتح الستار وظهرت الممثلة "كوتوبولي"، وهذا هو اسمها. ولكن- وحق عقيدتي- لم تكن هذه هي "كوتوبولي"، كانت امرأة بحق، وأي امرأة! كانت تتمايل من قمة رأسها إلى إخمص قدمها، وتتثنى وتتأود؛ وبعدها تململ الناس وشعروا بالسأم (لأنها لم تبدأ الغناء)، فبدأت الفرقة الموسيقية تعزف لها على الصناج والجلجل إلى أن دخلت وسط المسرح».

وهنا انفجر القرويون من رواد المقهى في القهقهة، فكشر "اسفاكيانونيقوليس" عن أنيابه وغضب، ثم شعر بالخجل؛ وبعدها التفت نحو الباب ونظر إلى الخارج. ورغبةً منه في تحويل دفة الحديث، قال: «إنها تمطر!». وفي هذه اللحظة التفت الجميع نحو الباب؛ وفي هذه اللحظة تمامًا كانت امرأة تمر على المقهى وهي تعدو، وكأن الشيطان قد مسها تلك الساعة، كانت ترتدي فستانًا أسود قصيرًا يصل بالكاد إلى ركبتيها، وكان شعرها مسترسلاً يتهدل على كتفيها، وكانت، يا لَلهول! امرأة ممتلئة بضة، ذات ردفين مترجرجَين، وكانت ملابسها تلتصق بجسمها وتكشف مفاتنه بطريقة حافلة بالإثارة والإغواء؛ وكان قوامها مكتنزًا مثل سمكة حية تختلج وترف.

ارتجفتُ وقلت فيما بيني وبين نفسي: «آه يا لها من وحش ضارٍ!» فلقد بدت لي مثل نمرة قتالة للبشر. ولبرهة قصيرة التفتت المرأة وصوبت نظرة

يتطاير منها الشرر نحو المقهى، وكان محياها متوهجاً وردياً تتفجر منه النضارة، وعيناها تنطقان بالفجور والخلاعة. وتمتم شاب ذو وجنتين مكسوتين بالزغب، كان يجلس بالقرب من زجاج النافذة: «الغَوث، يا مولاتي مريم!». أما "مانولاكاس" حارس المزارع، فقد زأر هادرا: «عليكِ اللعنة، يا مَن تتوهجين بالنار! لقد أضرمتِ النار في مفاصل أقدامنا، وأبيتِ أن تطفئيها بعد ذلك». وشرع الشاب الجالس بجوار النافذة في الترنم بالغناء؛ وكان صوته في البداية هادئًا مترددًا متهدجًا، غير أن صوته ما لبث أن صار أجش على الدوام؛ وكان يقول:

«مِن وسادة الأرملة يَضوع أريجٌ مثل رائحة السفرجل،

وعندما نفذت رائحته إلى أنفي، استراح ذهني وهجع!».

وهنا صاح "ماڤراندونيس" وهو يرفع خرطوم النرجيلة، وقال: «أطبق فمك!»؛ فصمت الشاب وكف عن الغناء، وانكمش على نفسه. وانحنى شيخٌ مسن، ذو شعر طويل مسترسل، على أذن "مانولاكاس"، حارس المزارع، وقال بتؤدة في البداية ثم بشراسة: «إن عمك- لو كان الأمر بيده- لمزق هذه المرأة الفاجرة أشلاءً؛ فليكتب لها الله عمرًا جديدًا!». فقال "مانولاكاس": «إيه، أيها الشيخ "أندروليوس"! أتصور أنك أُخذتَ على حين غرة وفغرتَ فاك دهشةً، وحياتك، عندما شاهدت فستان الأرملة. أفلا تستحي، سيما وأنت تعمل بالفعل خادمًا في الكنيسة(*)».

(*) وظيفة فى خدمة الكنيسة تسمى "قندلفت" (kantelanaphtês)، وهى تعنى حرفياً "الذى يزود القناديل بالنفط". وهو يقابل خادم الكنسية عادة. [المترجم].

فرد عليه الشيخ: «إن ما أردُّ به عليك هو الدعاء بأن يكلأ الله الأرملة بعنايته! هل رأيت كيف وُلد أطفال قريتنا في الآونة الأخيرة؟ إنهم ليسوا أولادًا بل ملائكة. ولماذا في ظنك؟ فليحفظ الله الأرملة! إن القرية بأسرها تعتبرها فعلاً مصدر غواية وإغراء: فأنت تطفئ قنديلك وتظن أنك لا تحتضن زوجتك، بل تحتضن الأرملة. وعلى هذا النحو يُولد لقريتنا أجمل الأطفال». وصمت الشيخ "أندروليوس" برهةً من الوقت، ثم تمتم قائلًا بعدها: «آه يا لهناء وسعادة أي جزء من الجسم يعانقها! إيه يا هذا، يا ليتني كنت في العشرين من عمري مثل الشاب "باڤليس" بن "ماڤراندونيس"!». فأجابه أحد رواد المقهى وهو يضحك: «أيًا كان الأمر، فسوف نراه ماثلاً أمامنا الآن!».

رنوا جميعًا بنظرهم تجاه الباب، كان المطر يهطل مثل السيل، وكانت المياه تصدر صريرًا وأزيزًا وهي تسيل فوق الصخور، وما بين الفينة والأخرى كان وميض البرق يلمع في الفضاء. والتفت إليَّ زوربا، الذي كان الذهول لا يزال مستولياً عليه منذ مرور الأرملة، وتحدث معي بكلمات ذات مغزى: «لم يعد المطر يهطل، يا رَيِّس، فهيا بنا نرحل!». وعند الباب ظهر شاب حافي القدمين أشعث الشعر أغبر، ذو عينين واسعتين زائغتين؛ ومحياه مماثل لوجه القديس يوحنا المعمدان، كما يصوره رسامو أيقونات الكنائس، بعينين جاحظتين من فرط الجوع والتعبد. ولدى رؤيته صاح بعض رواد المقهى ضاحكين: «مرحبًا يا ميميثوس!».

من الشائع والمألوف أن كل قرية لها معتوه أو مخبول (الأهبل/ العبيط) خاص بها؛ ولو لم يكن هناك معتوه فيها فإنها تصنعه من أجل أن تتسلى

به، وتزجي الوقت في مرح وسرور؛ وكان "ميميثوس" هو مخبول هذه القرية. وصاح "ميميثوس" بصوته الأنثوي الألثغ: «يا أهل القرية، يا أهل القرية، إن الأرملة "سورميلينا" قد فقدت شاتها؛ فمن يعثر عليها يحصل على جائزة مقدارها خمس أوقيات من النبيذ». فعلا صوت "مافراندونيس" من جديد صائحًا: «اخرج من هنا، يا سليل الجن والعفاريت! اخرج!». فارتعد بدن "ميميثوس" وانزوى على نفسه في الزاوية المجاورة للباب. فقال له العم "أناغنوستيس" المسن، بعد أن أحس بالأسى من أجله: «اجلس، يا بني، اجلس يا "ميميثوس" لتشرب كأس عَرَقي كي لا تصاب بنزلة بردا فماذا سيكون حال قريتنا بدون معتوه"؟

أهلَّ من الباب شاب ذو وجنتين شاحبتين يكسوهما الزغب، وله عينان زرقاوان؛ كان يلهث، وكان شعره ملتصقًا بجبهته، وتتساقط منه حبات العرق. وما إن رآه "مانولاكاس" حتى هتف صائحًا: «مرحبًا، يا "باڤليس"! أهلاً بك يا ابن العم؛ تفضل وانضم إلى مجموعتنا». وعندما التفت "مافراندونيس" وشاهد ابنه، قطَّب ما بين حاجبيه، وفكر فيما بينه وبين نفسه: «أهذا هو ابني؟ أهو هذا الفَسْل(*)؟ تُرى من هذا الذي هو شبيه به؟ يراودني هاجس أن أمسك به من رقبته وأن أهوي به إلى أسفل وأدق عنقه، كما لو كان أخطبوطًا!».

كان زوربا آنذاك كمثل شخص يجلس على الجمر؛ ذلك أن الأرملة التي رآها قد خلبت لبه وأشعلت النار فيه، ولم تعد الجدران الأربعة

(*) كلمة تنطوى على إهانة، لأنها تعنى "الفسلة"، أى الخيوط المنسلة من الثوب حينما يصبح قديماً بالياً، كناية على التفاهة وضآلة الشأن. [المترجم].

قادرة على احتوائه. ولذا دأب يقول كل لحظة: «هيا بنا نرحل، يا رَيِّس، هيا بنا... قبل أن ننفجر هنا داخل المقهى!». كان يخيل إليه أن السحب قد انقشعت أو تفرقت، وأن الشمس قد أشرقت. لذا التفت إلى صاحب المقهى وسأله متصنعًا عدم الاهتمام أو المبالاة: «مَن تكون هذه الأرملة؟». فأجابه السيد "كوندومانوليوس": «إنها مُهْرَة!(**)». ثم وضع إصبعه بين شفتيه وأومأ بعينه للسيد "ماڤراندونيس" الذي كان يُسمر عينيه على الأرض. وبعدها قال مرةً أخرى: «أجل إنها حقا مُهْرَة! ولكن دعنا لا نتكلم عنها كي لا نقع في الخطيئة أو الإثم». وهنا نهض "ماڤراندونيس"، ولف الخرطوم حول عنق النرجيلة، ثم قال: «سامحوني، فإنني ذاهب إلى منزلي. هيا بنا، يا "باڤليس"، اتبعني يا بني!». قال هذا، ثم أخذ ابنه وسار أمامه، واختفى كلاهما وسط الأمطار. كذلك نهض "مانولاكاس" وسار في أعقابهما.

جلس (صاحب المقهى) "كوندومانوليوس" في التو على المقعد الذي تركه "ماڤراندونيس". وقال بعدها بتؤدة وصوت خافت كي لا يسمعه الجالسون إلى المائدة المجاورة: «إن التعس الشقي ماڤراندونيس سوف يلاقي الأمرَّين جراء شَرِّه وسوء صنيعه، وكأن نارًا متأججة نشبت في منزله. فلقد سمعته أمس بنفسي وبأذني هاتيْن يقول لابنه باڤليس: "إن لم أستحوذ عليها فسوف أقتل نفسي!". ولكن هذه المرأة التي لا تعرف الخجل ولا الحياء لا تريده؛ فهي تقول عنه إنه مُخَاط (أى نِكَرة)». كانت

(**) هذه صفة تطلق على المرأة الفاتنة، ذات الجسم الرائع والجِرْم الضخم. [المترجم].

النار تستعر داخل زوربا جراء ما طفق يسمعه عن الأرملة، ولذا قال من جديد: «هيا بنا نرحل، يا رَيِّس!». كانت الديكة تشرع في الصياح، وتوقف المطر قليلاً. فقلت له وأنا أنهض من جلستي: «هيا بنا!». وهنا قفز "ميميثوس"، وتحرك من مكانه في الركن، وهرع خلفنا.

كانت الصخور تبرق، أما الأبواب المبللة بماء المطر فقد غدت سوداء داكنة، وكانت العجائز من السيدات قد حملن سلالهن وخرجن لجمع القواقع والحلزونات. واقترب مني "ميميثوس" ولمس ذراعي، ثم قال: «أعطني سيجارة، يا رَيِّس، حتى أدعو لك أن تنعم بحب مَن يهواه قلبك». فأعطيته سيجارة، فمد يده النحيلة المعروقة اليابسة، ثم قال: «أعطني ثقابًا لأشعلها!». فأشعلت له السيجارة؛ جذب منها نفسًا عميقًا ثم نفث دخانها من منخريْه، وأغمض عينيه نصف إغماضة، ثم تمتم بحبور وسعادة: «شكرًا، يا سعادة البك!». قلت له: «إلى أين أنت ذاهب؟». قال: «إنني ذاهب إلى بستان الأرملة، فقد أخبرتني أنها سوف تقدم لي وجبة طعام، لو جُبْتُ الطرقات معلنًا عن فقدها لشاتها، على حد قولها».

كنا (نغذُ) الخطى في سيرنا، وكانت السحب قد انزاحت قليلاً عن صفحة السماء، وبعثت الشمس بأشعتها. وكأن القرية بأسرها ضحكت بعد أن اغتسلت وانتعشت. قال زوربا وفكه الأسفل لا يزال متدليا: «هل تروق لك الأرملة، يا "ميميثوس"؟». فاكفهر وجه "ميميثوس" وقال: «ولمَ لا تروق لي، يا عرَّابي؟ أتراني لم أخرج بعد من بالوعة الصرف(*)؟». وهنا

(*) وهو تعبير تهكمي ساخر عند اليونانين، يساوى تعبيرنا العامي "لم يخرج بعدُ من البيضة"، كنايةً عن انعدام الخبرة والسذاجة. ولعل مخبول القرية أخطأ واستخدم تعبيراً مضحكاً بدلاً

تساءلْتُ في حيرة: «مِن بالوعة الصرف؟ ماذا تريد أن تقول يا "ميميثوس"؟».
فأجاب: «أعني: لم أخرج بَعد من بطن أمي».

ارتجفتُ، وفكرتُ فيما بيني وبين نفسي: «إن شكسبير هو وحده الذي كان بوسعه– في أكثر لحظاته إبداعًا– أن يعثر على تعبير واقعي خام إلى هذه الدرجة، يميط به اللثام عن سِر الولادة الغامض البغيض بأسره». ثم عاودتُ سؤاله: «وكيف تمضي نهار يومك، يا "ميميثوس"؟». فقال: «كيف أمضيه؟ أنا، يا سعادة البك، أستيقظ صباحًا، وآكل قطعة من الخبز. وبعدها أؤدي عملي بوصفي حمالاً(**) (= عتالا)، حيثما أجده، هذا إن وجدته! وأحيانًا أنقل رسائل شفهية، أو أقوم بخدمات صغيرة، منها جمع روث الحيوانات، وأحيانًا أحضر سنارة وأصيد بها الأسماك. وأقيم عند عمتي السيدة "لينيو" الندَّابة (التي تنوح على الأموات). ولسوف تحظَوْنَ بها حتمًا، فكل الناس هنا يحظون بها عندما يفارقون الحياة؛ وهى مشهورة فقد التقطوا لها صورة بالفعل. وعندما يحل المساء أعود إلى منزلي، فأتناول طبقًا كبيرًا من الطعام، وأحتسي قليلاً من النبيذ إن وجد؛ فإن لم يوجد أشرب الماء الذي جعله الله وفيرا! إلى أن تمتلئ بطني وتصبح مثل الطبلة. وبعدها أنام، وتصبح على خيرا».

سألته (وأنا أمازحه): «ألن تتزوج يا "ميميثوس"؟». فأجاب: «أنا؟ أتراني قد جُننت؟ ما هذا الذي تقوله، يا هذا؟ أأجلب المصائب على رأسي؟ إن

من التعبير الذى سيرد بعد قليل، وهو "لم يخرج بعد من بطن أمه". [المترجم].

(**) الكلمة اليونانية هي (chamaliki)، ويبدو لى أنها مشتقة من كلمة "حمال". وربما دخلت إلى اليونانية من التركية. [المترجم].

المرأة تريد أحذية! وأنَّى لي أن أجد الأحذية؟ انظر! ها أنذا أسير حافي القدمين». فسألته: «أليس عندك حذاء برقبة ورباط؟». فقال: «بالطبع عندي! فلقد توفي شخصٌ العام الماضي وخلعت عمتي "لينيو" (الندابة) الحذاء الذي كان يرتديه في قدميه، وأعطته لي. ولكنني لا أرتديه إلا في عيد القيامة (الفصح)، وأذهب به إلى الكنيسة، حيث أدخل البهجة إلى قلوب القساوسة. وبعد العيد أخلعه وأعلقه في رقبتي وأعود به إلى البيت».

وعاودتُ سؤاله: «وما هو الشيء الذي تحبه، يا "ميميثوس"، أكثر من كل ما في الوجود؟». فأجاب: «أولاً الخبز، فهو قرة عيني وبه أبتهج! شريطة أن يكون طازجًا ساخنًا، وأن يكون من القمح! وحتى لو كان من الشعير، يا محترم! وبعده النبيذ، وبعده النوم». فسألتُه من جديد: «وماذا عن المرأة؟». فأجاب: «بُف! قلت لك إن أعظم ما في الدنيا أن تأكل وتشرب وتذهب لتنام! أما ما سوى ذلك فهو هموم وأحزان!». فعاودتُ سؤاله: «وماذا عن الأرملة؟». فقال: «دعها بربك هذه الملعونة، فأنا أريد لك الخير!». قال هذا ثم بصق ثلاث مرات، وبعدها رسم علامة الصليب على صدره. فعدت أسأله من جديد: «أتعرف القراءة والكتابة؟». فأجاب: «أبًا(*)! عندما كنت صغيرًا، أرسلوني بكل جهد جهيد إلى المدرسة؛ ولكن سرعان ما أصبت بالتيفوس وأصبحت معتوهًا أبله. وبهذه الطريقة نجوت من المدرسة!».

لكن زوربا تململ من هذه المحادثة المسهبة التي دارت بيني وبين "ميميثوس"، فقد كان ما يشغل فكره هو الأرملة. ولذا فقد جذبني من

(*) لفظة تفيد الاستنكار. [المترجم].

ذراعي، وقال: «يا رَيِّس...»، ثم التفت إلى "ميميثوس" وأمره قائلًا: «امضِ أنت قُدُماً أمامنا، فلدينا كلام خاص بنا نريد قوله». ثم حدثني زوربا بعد انصرافه بصوت خفيض، وبدا عليه التأثر البالغ: «يا رَيِّس، أنا أريدك أن تتفق معي، أرجوك لا تجعل جنس الرجال يشعر بالخزي والعار! إن الإله أو الشيطان قد أرسل إليك هذه المقبِّلات، ووهبك الأسنان لمضغها، فلا تدعها تفلت منك! مُد يدك وخذها! قل لي لماذا خلق الله لنا اليدين؟ لكي نمسك بها؛ فمُد يدك وامسك بها! لقد رأيت بأم رأسي في حياتي الكثيرات من النساء؛ ولكن هذه الأرملة دكت الحصون دكًّا ومحقتها محقًّا، فعليها اللعنة!». فأجبتُه بغضب: «أنا لا أريُد متاعب ولا مشاكل!».

لقد غضبتُ لأنني في أعماقي كنتُ أنا نفسي مشتاقًا وعندي لوعة، بعد أن شاهدت بعينَي رأسي هذا الجسد الفذ المتمكن الصارخ الذي مر أمامي، وكأنه جسد وحيش ضارٍ، مضمخ بالعطر ويضوع بالمسك. وهنا قال زوربا مندهشًا: «إذن فأنتَ لا تريدُ متاعب ولا مشاكل! فماذا تريدُ إذن، يا رَيِّس؟». ولما لم أرد عليه بإجابة على ما سأل، استطرد قائلًا: «إن الحياة ليست مشكلة، ولا الموت هو المشكلة، فهل تعرف ماذا يعني هذا؟ فلترخِ العنان لزنارك ولتبحث عن النزاع». لم أنبس ببنتِ شفة، فقد كنتُ أعلمُ أن زوربا على حق فيما قال. كنتُ أعلمُ هذا حق العلم، ولكنني لم أكن أجسر على مواجهته. كانت حياتي قد اتخذت مسارًا ملتويًا متخبطًا، وكان المآل قد آل بي إلى إجراء مونولوج داخلي مع نفسي في اتصالي بالناس. كما كنت قد انحدرتُ إلى الحد الذي لو تُرك الخيار لي، بين أن أقع في غرام امرأة أو أن أطالع كتابًا جيدًا عن العشق، لاخترت الكتاب.

استأنف زوربا حديثه: «لا تتضايق ولا تتكدر، يا رَيِّس، دعك من المازحات، واضرب صفحًا عن هذا التوازن المهين. قلت لك أغلق محل البقالة؛ الآن إما أن تنجو سالما، أو أن تقوض نفسك وتحطمها. اسمع، يا رَيِّس، خذ منديلاً وضع فيه جنيهين أو ثلاثة جنيهات، بشرط أن تكون ذهبية لا ورقية، لأن الذهب يبهر العين، ثم احكم ربط المنديل في عقدة، وأرسلها مع "ميميثوس" إلى الأرملة، وألق إليه بتعليماتِك بشأن ما يقوله، وهو: "لكِ التحيات من الرَيِّس مالك منجم الفحم، وهو يبعث إليكِ بهذا المنديل ويقول إنه شيء بسيط معبر عن حب كثير، ويرجو ألا تتضايقي بخصوص الشاة التي تبحثين عنها، وألا تتكدري حتى لو ضاعت؛ لأننا هنا فداكِ ومن أجلك، فاطرحي عنك الخوف والقلق! ويقول إنه شاهدك عندما كان في المقهى وأنت تمرين، فطار لبه وتحير فؤاده إعجابًا». هذا هو ما يجب فعله؛ وبعد ذلك عندما يحل المساء التالي– وخير البر عاجله– فلتذهب لتطرق بابها. ستقول لها إنني ضللتُ الطريق بسبب الظلام الحالك، وتطلب منها أن تعطيك مصباحًا. أو ستقول إنك قد شعرت بدوخة وزاغت منك العينان وأصابك الدوار المفاجئ، وأنك تريد كوبًا من الماء. وأفضل من هذا كله، هو أن تشتري شاة أخرى وتذهب بها إليها وتقول لها: "سيدتي، تفضلي هذه هي الشاة التي ضاعت منك؛ وأنا الذي عثرت عليها"! وساعتها فإن الأرملة، واسمعني جيدًا، سوف تعطيك الحلوان جزاءً وفاقًا على حسن صنيعك، وسوف تقولُ آنذاك: "آه، ليتني كنت أنا الجالس فوق كَفَلَي فرسك!" وسوف تقول أيضًا، وأؤكد لك هذا، "أنا فارسٌ في الفردوس". فلا يوجد فردوسٌ آخر غير هذا الفردوس، أيها

التعس، فلا تستمع إلى كلام القساوسة؛ أجل ليس هناك فردوس آخر سوى هذا!».

كنا نقترب أكثر من بستان الأرملة، لأن "ميميثوس" تنهد وشرع في غناء أغنية عن تباريح الألم الذي يستشعره بصوته الأنثوي:

«الكستناء (=أبو فروة) يستلزم النبيذ، وجوز الهند يستلزم العسل،

والغلام يروم حبيبته الفتاة المشتهاة، والفتاة تشتهي الغلام المليح!»

وهنا انتفخت وجنتا زوربا زهوًا، واتسع منخاراه عجبًا، فنهض واقفًا وأخذ نفسًا عميقًا، ثم تفرس في وجهي، وقال: «وماذا بعد؟». قال هذا وانتظر الرد على أحَر من الجمر. فقلت في حسم وبصيغة قاطعة، وأنا أحث الخطى منصرفًا: «هيا بنا!». فهز زوربا رأسه، ودمدم بكلمات متذمرة لم أسمعها. وعندما وصلنا إلى السقيفة ثنى ركبتيه، ووسَّد آلة القانون عليهما، ورفع رأسه، واستغرق في تفكير عميق، وكأنه يتخير في ذهنه الأغنيات التي سوف ينبري لعزفها؛ وشرع في عزف لحن شَاكٍ مرير للغاية... كان بين الفينة والأخرى يرمقني شزرًا بنظرة جانبية ويتفرس في وجهي؛ وكنت أحس أن ما كان عاجزاً عن قوله، أو غير راغب في أن يتحدث به إليَّ بالكلمات، كان يقوله لي بعزفه على القانون. ولعله كان يريد أن يقول لي إن حياتي غدت هباءً منثورًا وضاعت مني إلى غير رجعة؛ وأن الأرملة وأنا معها لسنا سوى حشرتين؛ وأن عمرنا لا يدوم سوى ثانية واحدة تحت الشمس، وبعدنا ننفَق إلى الأبد؛ وأنه ليس بعد هلاكنا أي شيء آخر، ولا شيء يبقى منا!.

وفجأةً نهض زوربا واقفًا، إذ أدرك على حين غرة أنه يضيع جهده معي

عبثًا. واستند إلى الحائط ثم أشعل سيجارة، وبعد فترة من الوقت قال: «سوف أوضح لك، يا رَيِّس، كلماتٍ قالها لى يومًا ما شيخ فقيه مسلم في مدينة "سالونيكي"؛ أجل سوف أفسرها لك حتى لو هلكت. كنت آنذاك أعمل بائعًا جائلاً في مدينة "سالونيكي"، وكنت أجوب الأحياء لأبيع لسكانها بكرات الخيط والإبر وكتب سير القديسين والبخور والفلفل... وكان صوتي رخيمًا مثل العندليب. وينبغي أن تعرف أن الصوت بوجه خاص يمس قلوب النساء وينفذ إلى أعماقهن، فيا لهن من فاجرات! إذ لا يعرف أحد سوى الشيطان ماذا يدور بين جوانحهن وفي شغاف قلوبهن! فربما تكون دميمًا أو أعرج أو أحدب، ولكن لو كان صوتك عذبًا رخيمًا وتغني، تُجَن النساء ويفقدن عقولهن إعجابًا بك. كنت أقوم إذن بجولتي وأمر عبر الأحياء التركية، ويبدو أن امرأة تركية ثرية طربتْ وانتشتْ جذلاً وحبوراً، عندما سمعت صوتي وأنا أنادى على بضاعتي، فطار لبها. فنادت على شيخ فقيه وغمرته بنفحة قوامها حفنة ليرات تركية ذهبية، وقالت له: "أمَان! نادِ على هذا المُشْرِك (= المسيحي) الذي ينادي على بضاعته، وقل له أن يأتي هنا، أمان! قل له إنني أريد أن أراه! فقد نفد صبري ولم أعد أتحمل!"». وجاء الشيخ الفقيه وعثر عليَّ وقال لي: «إيه، أيها الفتى الرومي (= اليوناني)، هيا تعالَ معي!». فقلت له: «ما أنا بذاهب معك، إلى أين تأخذني؟» فقال لي: «إلى الست هانم، أيها الفتى الرومي، فهي مثل البلسم والماء البارد، إنها تنتظرك في حجرتها، فهيا إليها!». غير أنني كنت أعرف أنهم كانوا يقتلون المسيحيين ليلاً في الأحياء التركية، فقلت: «لا! لن أذهب معك!». وهنا قال لي الشيخ الفقيه: «أفلا تخشَ الله، يا مُشْرِك؟».

قلت: «ولماذا أخشاه؟». فقال الشيخ: «لأن من يكون بوسعه، أيها الشاب الرومي، أن يضاجع امرأة، ويعزف عن مضاجعتها، يقترف إثمًا كبيرًا. حين تدعوك امرأة، يا هذا، وهي مستلقية على حشية سريرها ولا تلبي طلبها، فإنك تهدرُ روحك وتضيعها! فهذه المرأة سوف تزفر زفرة حارة يوم الدينونة أمام بارئها، وسوف تؤدي هذه التنهيدة الحارة التي أطلقتها المرأة إلى قذفك مدحوراً في غياهب الجحيم، أيًا ما كنتَ في حياتك وأيًا ما كان الخير الذي قدمته فيها!».

قال زوربا هذا وأطلق تنهيدة حارة، ثم قال: «لو كانت هناك نار وجحيم، فسوف أصْلَى نار الجحيم، وسيكون ذلك بسبب ما اقترفته. ولن أصلى نار الجحيم لأنني سرقت أو قتلت أو زنيت، لا! لا! فكل هذه الآثام بسيطة إذا قورنت بذنبي، فالله يغفر لمرتكبيها. ولكنني سأصلى نار الجحيم لأن امرأة انتظرتني تلك الليلة على حشية سريرها ولم أذهب إليها...».

وبعد أن نطقَ زوربا بهذه العبارات، نهض واقفًا وأشعل النار، ووضع قِدر الطعام على الموقد، ثم نظر إليَّ شزرًا بطرف عينه، وضحك باحتقار وقال: «أيًا كان ما تريده من الأصَمّ، فاقرع بابه بشدة!». تمتم بهذه العبارة وأطرق، ثم شرع ينفس عن غضبه في قطع الأخشاب المبللة بغضب وموجدة.

(9)

كلما كان النهار يغدو أقصر، كان ضوء الشمس يغيب أسرع عن صفحة السماء، وآنذاك ينقبض قلب الإنسان كلما اقترب وقت الأصيل. أحسست بعودة الفزع البدائي لأجدادنا الأوائل يداهمني من جديد، ذلك أنهم كانوا يحسون بالفزع حينما يرون- خلال شهور الشتاء- الشمس وهي تغرب في وقت مبكر عن المعتاد. وكان هذا الخاطر يخطر على أذهانهم وهم قانطون، فيقولون: «غدًا سوف تغرب الشمس تمامًا بعد حين». وكانوا يظلُّون مستيقظين طوال الليل على حشيات أسرتهم والقلق يعصف بهم، فيتساءلون: «هل ستشرق الشمس، أم لن تشرق؟»، وساعتها كانوا يرتجفون.

كان زوربا يعايش هذا القلق على نحو أكثر عمقًا وأكثر بدائية مني؛ ولكي ينجو من هذه الورطة لم يكن يغادر الدهاليز التي كان قد حفرها تحت الأرض في المنجم، إلا حينما تكون النجوم قد لمعت في السماء. وكان قد نجح في العثور على عِرْق جيد من الفحم الحجري لم يكن يحوي ترابًا كثيرا، ورطوبته أقل وسُعراته أكثر.

كان زوربا سعيدًا مغتبطًا للغاية، وذلك لأن الرغبة في الكسب داخله كانت تومض مثل البرق الخاطف، بما يصاحبها من رحلات ونساء ومغامرات مثيرة جديدة. وآنذاك كان زوربا يتحرق شوقًا إلى كسب أموال طائلة والاستحواذ على أجنحة كثيرة– فقد كان يطلق على النقود اسم الأجنحة الطائرة– ومن ثم الانطلاق والطيران. ومن أجل هذا السبب كان يسهر ليالي بطولها لكي يقوم بتجارب عملية على أنموذج ميكروسكوبي، أعده للخط الهوائي الذي يعتزم إقامته لنقل الخشب والفحم؛ وذلك بغية العثور على زاوية الانحدار الصحيحة التي تهبط بها الأخشاب بنعومة وليونة، حسب ما يقول، كما لو كانت الملائكة هي التي تحملها برفق.

وكان زوربا أحيانًا ما يتناول فَرخا كبيرا من الورق، وأقلامًا ملونة ليقوم برسم الجبل والغابة والخط الهوائي المعتزم إقامته، والأخشاب التي تهبط وهي معلقة في السلك الحديدي الصلب، وكان يرسم كل كتلة من الخشب وهي مزودة عن يمينها ويسارها بأجنحة كبيرة لازوردية. أما في الميناء المستدير، فقد رسم زوربا بواخر سوداء ينتصب على متنها بحارة باللون الأخضر كأنهم ببغاوات صغيرة، وكذا مراكب وصنادل لنقل البضائع تحمل جذوع أشجار صفراء. ورسم أيضا أربعة رهبان يقفون في الزوايا الأربع، وكان هؤلاء يقذفون من أفواههم في الهواء شرائط وردية مدون عليها بحروف كبيرة العبارة التالية: «تعالَيت، يا ربنا، نسبحك لأن كل أعمالك عجيبة رائعة!».

وعلى مدى الأيام الأخيرة كان زوربا يشعل النار على عجل، ويطهو الطعام ونتناوله، وبعدها كان يختفي عن الأنظار بعد أن يسلك الطريق

المؤدي إلى القرية. وبعد انصرام عدة ساعات كان يقفل أدراجه عائدًا مَرة أخرى وهو مطرق واجم. وسألته: «إلى أين ذهبت مرةً أخرى، يا زوربا؟». فقال وهو يغير دفة الحديث: «كنت أولِّي ظهري للدنيا، يا رَيِّس». وذات مساء عندما سألني بقلق: «هل يوجد إله أم لا يوجد؟ ما هو قولك في هذا الشأن، وحياتك، يا رَيِّس؟ وإذا كان هناك إله- وكل شيء جائز- فكيف تتخيل صورته؟». رفعت كتفي، ولم أجب عليه. فاستطرد زوربا قائلًا:

«أنا، يا رَيِّس، وأرجو ألا تسخر مني، أتخيل أن الله مماثل لي(*)، ولكنه فقط أطول مني، وأقوى مني، وأكثر مني ثورةً وجموحًا!، وبالطبع خالد. وأتخيل أيضًا أنه يجلس جلسة مرفهة أنيقة على جِزة ناعمة، وسقيفته هي السماء، وهي ليست سقيفة مشيدة من صفيح براميل البترول مثل سقيفتنا هذه، ولكنها مشيدة من السحب والغمام. وأتخيل أنه لا يمسك في يده اليمنى سيفًا ولا ميزانًا، فإن هذه الآلات وأمثالها خليقة بأن يمسكها القتلة السفاحون أو البقالون. في تصوري أن الله يمسك في يده اسفنجة ضخمة مشبعة بالماء، مثل السحابة الممطرة؛ وعن يمينه الفردوس وعن شماله نار الجحيم. وعندما تَمْثُل أمامه الروح التعسة بعد أن تفد إلى

(*) أود أن وأضح هنا أن زوربا أحياناً يكون مثل رجل مسن له خيال طفل صغير، يفكر فى كل شيء على أنه محسوس وليس مجرداً؛ وقد يصدم القارئ العربي لهذه الصور الخيالية إلى حدٍّ ما، ولكنها لا تدل على شر أو خُبث طوية، أو جهر بالإلحاد، بقدر ما تعكس رغبة طاغية فى المعرفة، من جانب شخص شِبه أمي تحكمه الغرائز والرغبات، أكثر مما يحكمه العقل والمنطق مثل المثقفين. ومن الواضح أن المؤلف وضع على لسانه تساؤلات كانت عنده، وصورًا وتشبيهات تجعله أقرب إلى اليونان القدماء. [المترجم]

ملكوته، تكون عاريةً تمامًا لأنها فقدت بدنها الذي كانت تسكنه، ولذا فهي ترتجف وترتعد. فيرمقها الله ويبتسم ابتسامة غير ملحوظة؛ غير أنه يظهر لها جبروته وغضبه، ويقول لها بصوت مدوٍ كالرعد: "هلمي إليَّ هنا! هلمي إليَّ هنا، أيتها الملعونة"، ثم يبدأ الحساب والاستجواب. وهنا تخرُ الروح ساجدة عند قدمي الله وتصيح: "أمَانْ! لقد أثمت وأذنبت!"، وبعدها تشرع الروح في التحدث بإسهاب عن أوزارها وذنوبها. وتظل الروح تتكلم وتتكلم بلا نهاية، فينتاب الضجر الله ويتثاءب من فرط الملل، فيصيح فيها قائلًا: "صهٍ! اصمتي! كفاكِ، لقد أصبتني بالصمم!". وهنا يُهيل الله على الروح دفقة ماء غزيرة من الاسفنجة فيغسل كل خطاياها. ثم يقول لها: "هيا اذهبي إلى الجنة! يا بطرس، أدخل هذه الروح التعسة إلى الفردوس!". لأن الله- ويجب أن تعرف ذلك، يا رَيِّس- عاهل نبيل عظيم عالي القدر؛ ومعنى النبل عنده هو: أن يعفو ويصفح!».

وحسب ما أذكر أنني ضحكت بلا انقطاع أثناء تلك الليلة، عندما قص زوربا على مسامعي بإسهاب هذه الأقوال؛ ومع ذلك فقد تجسدت عظمة الله وقدرته- منذ ذلك الوقت- في ذهني وفي أعماقي في ثلاث صفات، هي: الرحمة، الكرم، الاقتدار.

وذات مساء آخر كان المطر يهطل مدرارًا، وكنا قابعين في السقيفة، نشوي الكستناء على المجمرة، فالتفت إليَّ زوربا وظل يرمقني برهة من الوقت ليست بالقصيرة، وكأنه كان يريد أن يبوح لي بسر دفين. وأخيرًا لم يحتمل، فقال: «أريد أن أعرف، يا رَيِّس، أي شيطان تجده في شخصي، ولماذا لا تمسكني من أذني وتلقي بي خارجًا؟ لقد سبق أن قلت لك إنهم يسمونني

"العفن الفطري"، لأنني حيثما أذهب أحيل المكان الذي أحل به إلى دمار وخراب [كأنه ديار"مدين"]. ولذا، فإن العمل في منجمك سيصبح أثرًا بعد عين؛ وها أنذا أقول لك اطردني من فضلك!».

فرددتُ عليه: «لكنك تروق لي، فلا تطلب ذلك مني مرةً أخرى». قال: «ألا تفهم، يا رَيِّس، أنني لا أتمتع بكامل قواي العقلية أو بمشاعر عادية؟ وقد أكون أكثر من ذلك أو أقل، اللعنة عليَّ لو كنت أعرف. ولكن ما أنا واثق منه كل الثقة هو أنني إنسان غير طبيعي. وهاك الدليل على صدق ما أقول، لعلك تدرك ما أنا عليه: لقد مضت عليَّ أيام وليالٍ حتى الآن لم يبارح فيها طيف الأرملة (الفاتنة) مخيلتي، ولم يدعني أستسلِم للراحة أو الهدوء. فأنا قلق لا من أجل نفسي- وأقسم لك على ذلك- فأنا أعلم يقينًا أنني لن أمسها أبدًا، ولتذهب هي إلى الشيطان! فإنها بعيدةٌ عن أحلامي ولا أقوى عليها. غير أنني- من ناحية أخرى- لا أريد أن تتحطم وينكسر خاطرها، لا أريد أن تنام بمفردها؛ فهذا مسلكٌ ينطوي على الظلم والجور، يا رَيِّس، ولا يتحمله قلبي بتاتًا. ولذا فإنني أطوف كل ليلة حول بستانها، وهذا هو السبب في أنني أختفي عن الأنظار، وفي أنك تسألني دومًا إلى أين أذهب. أتعرف لماذا أطوف؟ لكي أرى ما إذا كان أحدهم قد ذهب لينام معها، على الأقل كي يهدأ قلبي وأستريح».

هنا غلبني الضحك. فقال لي زوربا: «لا تضحك، يا رَيِّس، إذ لو أن امرأة نامت وحدها، فسنكون نحن الرجال جميعًا مسئولين عن ذلك، وسوف يحاسبنا الله ذات يوم، ويسألنا يوم الدينونة عما اقترفناه. فالله يغفر جميع الخطايا والآثام، كما قلنا، حيث إنه يمسك في يده بالاسفنجة المشبعة

بالماء ويغسل خطايا البشر، أما هذا الوِزر فلا يغفره أبدًا. فويلٌ للرجل، يا رَيِّس، الذي كان بوسعه أن ينام في أحضان امرأة ولم يفعل ذلك؛ وويلٌ للمرأة التي كان بوسعها أن تضاجع رجلاً وامتنعت عن ذلك. تذكر، يا رَيِّس، ما قاله لي الشيخ التركي الفقيه وقصصتُه عليك».

قال هذا ثم صمت قليلاً؛ وبعدها سألني فجأةً: «أيمكن أن يولد إنسان من جديد بعد موته؟». فقلت: «لا أعتقد، يا زوربا». فقال: «ولا أنا، ولكن لو كان هذا ممكنًا، فإن هؤلاء الناس الذين تحدثنا عنهم الآن، أعني هؤلاء الذين رفضوا أداء هذه الخدمة وتخلوا عن القيام بها، سوف يرتدون مرةً أخرى إلى الأرض. أتدري بأية طريقة؟ سوف يعودون ولكن في صورة بغال!». عاد إلى صمته مرةً أخرى، وراح يفكر؛ وفجأةً ومضت عيناه بالشرر، وقال مغتبطًا: «مَن يدري، فربما كان جميع البغال الذين نراهم الآن في العالم هم أولئك الأشخاص، أعني هؤلاء الحمقى البلهاء الذين لم يكونوا رجالاً عندما كانوا على قيد الحياة، أو لم يغدوا نساءً رغم كونهن نساء. ولذا أصبحوا جميعا بغالاً؛ وهذا هو السبب في أنهم يتسمون بعناد متأصل لا مثيل له، وفي أنهم يركلون ويرفسون. فما هو قولك، يا حضرة الرَيِّس؟».

فأجبته وأنا أضحك: «حقًّا إنك لست في كامل قواك العقلية، يا زوربا. انهض واحضر آلة القانون!». فقال: «ليس هناك الليلة قانون، يا رَيِّس، مع احترامي الشديد لحضرتك. فأنا أتحدث وأتحدث ولا أقول سوى سخافات. أتعرف لماذا؟ لأنني أحس بقلق بالغ وضيق لا مزيد عليه. فالدهليز الجديد عليه اللعنة قد أصبح يشغل كل فكري ووقتي. وها أنت ذا بربك تريد مني

القانون...». قال هذا ثم أنزل ثمار الكستناء من على الجمرات المتقدة، وأعطاني حفنة منها، وملأ الكوبين بالعَرَقي. فقلت له وأنا أستحثه على الاسترسال في الكلام: «أتمنى من الله أن تسير الأمور على ما يرام، وأن تتجه إلى الميمنة!». فصحح زوربا عبارتي بقوله: «بل أرجو من الله أن تتجه الأمور إلى الميسرة! فحتى الآن لم نشهد أي تقدم ولا رُقي مع الميمنة!». وكان زوربا يعب سائل العَرَقي المتقد كالنار في جرعة واحدة لا سواها، ثم استلقى على الحشية الخاصة به، وقال: «غدًا ينبغي أن أكون فى كامل قوتي وأكثر؛ فعليَّ أن أصارع ألف جِنّي. تصبح على خير!».

وفي ساعة مبكرة جدًّا من صباح اليوم التالي، انغمس زوربا للغاية في استخراج الفحم الحجري. وكان العمال قد مضوا قُدمًا في حفر الدهليز الجديد داخل عِرق الفحم الحجرى؛ كان الماء يقطر من السقف، والعمال يخوضون بأقدامهم في الأوحال. وكان زوربا قد حمل منذ أول أمس عروقًا من الخشب لدعم حوائط الدهليز؛ بيد أنه كان يحس بالقلق، لأن عروق الخشب لم تكن سميكة كما ينبغي؛ أما القار السائل الذي تم صبه كي يمكث مباشرة وكأنه جسم للخشب، فقد أصبح مع الأخشاب بمثابة متاهة تحت الأرض. إذ أحس زوربا أن الدعامات الخشبية التي ربطها لم تكن راسخة وطيدة، وكان يسمع أصوات تصدع خفيفة لم تكن مسموعة من الآخرين، وكأن دعامة السقف كانت تزفر زفرات حارة، أو تتنهد من فرط ثقل الحمل عليها.

وكان هناك أمر آخر أيضًا جعل زوربا أكثر قلقًا وانزعاجًا: ففي اللحظة التي كان يتأهب فيها للنزول إلى الدهليز، تصادف أن كان قس القرية،

الأب "اسطفانوس"، يمر ممتطيًا ظهر بغله، إذ كان ذاهبًا إلى دير الراهبات المجاور كي يقيم القداس لراهبة تحتضر. وما أن رآه زوربا يهل ووجهه يطفح بالبشر والاغتباط عليهم، حتى بادر بالبصق فى (عِبه) ثلاث مرات، قبل أن ينبس القس ببنت شفه (كأنه يستعيذ من الشيطان الرجيم). بعدها أجاب على تحية القس له بامتعاض من طرف شفته: «صباح الخير، أيها الشيخ!»، ثم خفض من صوته بعد قليل كي لا يسمعه، وقال: «فلتكن خلفي، أيها الشيطان!». ولكن زوربا كان يحس- رغم ذلك- أن ما أطلقه من تعاويذ لم يكن يكفي لدرء الكارثة التي توشك على الوقوع، فأخفى نفسه في ظلمة الدهليز الجديد، واستتر في الضباب الذي يغلفه.

كانت رائحة قوية من غاز "الأسيتيلين" تفوح من الفحم الحجري، وكان العمال قد بدأوا- منذ أول أمس- في تدعيم العروق الخشبية وربطها في سقف الدهليز. ألقى زوربا عليهم تحية الصباح، وهو مفعم بالمرارة والاكتئاب والوجوم، وشمر عن ساعديه وبدأ في العمل. كانت حفنة من العمال تهوي على عِرق الفحم الحجري بمعاولهم، وكان الفحم الناتج مكدسًا تحت أقدامهم، وكان آخرون منهم يجرفونه بالمجارف، ثم يحملونه إلى الخارج في عربات يجرونها بأيديهم.

ولبرهة من الوقت، توقف زوربا عن العمل؛ ثم أومأ إلى العمال وأرهف السمع بأذنه. وكان مَثَلُ زوربا كَمَثَل الفارس حينما يتحد مع فرسه، وكَمَثَل القبطان حينما يتحد مع سفينته، إذ كان مرتبطًا بالمنجم ارتباطًا وثيقًا، وكان يحس أن الدهاليز تمتد وتتشعب مثل الأوردة في شغاف قلبه، وكان يشعر أن كُتل الجبل المظلمة تتأخر فى التنبؤ (بوقوع الكارثة)، إذ كان زوربا

هو أول مَن يستشعر شيئًا قبل وقوعه من خلال شفافيته الإنسانية.

كان إذن قد أرهف أذنه وبدأ يسترق السمع، وفي تلك اللحظة وصلتُ إلى المنجم، كما لو كنتُ قد استشعرتُ بدوري أن شرًّا يوشك أن يقع، أو كأن يدًا خفية قد دفعتني للذهاب. إذ أنني هببتُ مفزوعًا من نومي، وارتديت ملابسي، وانطلقت مندفعًا إلى الخارج، دون أن أدري لماذا خرجتُ أو إلى أين أتوجه، ولكن جسمي وحده اتخذ طريقه بلا تردد إلى منجم الفحم الحجري. ووصلتُ تمامًا في اللحظة التي كان زوربا فيها يرهف سمعه ويصغي، والقلق يعصف به.

وبعد برهة قصيرة من إرهاف السمع، قال زوربا: «يبدو لي أنه لا يوجد شيء... هيا إلى عملكم، يا أولادا». وعندما التفتَ خلفه وقع بصره عليَّ، زم شفتيه وقال: «لماذا صحوتَ من نومك مبكرًا، يا رَيِّس، على غير عادتك؟». ثم اقترب مني وقال: «أفلا تصعد إلى السطح لتستنشق الهواء النظيف، يا رَيِّس؟». بعدها أسرَّ إليَّ بصوت هامس: «فلتأتِ للتريض في يوم آخر». فقلت له: «ماذا هناك، يا زوربا؟». قال: «أبدًا! لا شيء.. لقد كانت مجرد فكرة خطرت على بالي. فلقد وقع بصري على قَسِّ اليوم في الصباح الباكر، فامض إلى حال سبيلك!». قلت له: «لو كان هناك خطر، أفلا يكون الرحيل أمرًا مخجلاً؟». فأجاب زوربا: «فعلاً!». فقلت: «وأنتَ، هل كنت سترحل؟». قال: «لا!». قلت: «وإذن؟!». فقال زوربا بعصبية: «بالنسبة إليَّ، فأنا أتخذ إجراءات من نوع آخر تخصني وحدي، أنا زوربا، وأتخذ إجراءات أخرى للآخرين. ولكن ما دمتَ فهمتَ أن الرحيل شيء مخجل، فلا ترحل وامكث كما تحب».

ثم أخذ زوربا المطرقة، وثنى جذعه حتى وصل برأسه إلى أطراف قدميه، وأخذ يدق المسامير الغليظة في العوارض والدعامات الخشبية التي يرتكز عليها السقف. وأخذتُ أنا قنديلاً يوقد بغاز الأسيتيلين بعد أن فككت رباطه من عموده، وطفقتُ أغدو صعودًا وهبوطًا وهو في يدي، وأخوض في الأوحال وأحملق في عِرق الفحم الحجرى؛ كان العِرْق يبرق بضوء كستنائي داكن. إذ كانت غابات شاسعة قد انطمرت (فى أزمان سحيقة)، ثم انصرمت بعدها ملايين السنين، كانت الأرض خلالها تلوك وتهضم وتحول صورة أبنائها (الأشجار) الذين انحدروا من صلبها، فتحولت الأشجار إلى فحم، إلى أن جاء زوربا ليعثر عليها.

بعد ذلك، عَلقت القنديل من جديد في مكانه الذي أخذته منه، وشرعتُ أرقبُ زوربا وهو منهمك في عمله. كان منغمسًا بكل كيانه في العمل، وليس هناك في ذهنه شيء آخر سواه، إذ توحد في كيان واحد مع الأرض والمعول والفحم. لقد غدت المطرقة والمسامير كما لو كانت جسدًا له، فقد كان يتصارع مع الأخشاب، ومع سقف الدهليز الذي تكور مثل البطن؛ بل إنه كان يتصارع مع الجبل بأسره، وكأنه يريد أن يأخذ الفحم منه غصباً ويلوذ بالفرار. كان زوربا يحس بالمادة وطبيعتها، وكان واثقًا من حدسه، كما كان يطرق المسامير بدقة فائقة ودون أي خطأ، في المكان الذي كان يحس أنه أضعف من سواه، والذي كان يحتمل ألا يقوى على الثقل فينهار. وحينما كنتُ أشاهده على هذا النحو، وهو ملطخ وملوث ومغطى بسناج الفحم- فيما عدا مقلتَي عينيه اللتين كانتا تلمعان وتبرقان- كنتُ أقول لنفسي إنه متنكر عن طريق دهن وجهه بالفحم، أو أنه صار فحمًا كي

يكون بوسعه الاقتراب خلسةً من خصمه، والاستحواذ على معسكر منافسه.

هنا صحتُ رغم إرادتي: «حياك الله، يا زوربا، ومتعك بالصحة!». لكنه حتى لم يلتفت نحوي. فأنَّى له أن يجلس الآن ليتجاذب أطراف الحديث مع شخص مثلي، قوامه: «كتلة من اللحم لم تلوحها الشمس»، شخص- بدلاً من أن يقبض بيده على معول- كان يقبض بها على قلم يكتب به! إنه منهمك في العمل، ولا يستهويه مطلقاً أن يتشدق بالكلمات. كان لا يفتأ يقول لي ذاتَ مساء: «لا تكلمني وأنا أعمل؛ فربما نتج عن ذلك تحطمي وانكساري!». فقلت له: «أيمكن أن تنكسر، يا زوربا، ولماذا؟». فقال: «ها أنت ذا مرةً أخرى تبحث عن السبب، وكأنك طفل صغير! كيف أشرح هذا الأمر لك؟ إنني أكرس نفسي لعملي، وأنكب من مفرق رأسي حتى إخمص قدمي فوق الصخرة، أو فوق الفحم الذي أتصارع معه، أو فوق آلة القانون التي أعزف عليها. ولو أنك قمت بلمسي فجأةً، أو تحدثت معي وجعلتني ألتفت إليك، فربما تحطمت أو انكسرت؛ ولكن أنَّى لك أن تفهم؟».

نظرت إلى ساعتي، فوجدت أنها تقترب من العاشرة. فقلت: «حان الوقت، يا أولاد، لتناول وجبة طعام سريعة، فقد مر الوقت». وبسعادة غامرة ألقى العمال آلاتهم في الركن، ومسحوا عرقهم، واستعدوا ليغادروا الدهليز. أما زوربا فكان مستغرقًا في أداء عمله، لذا لم يسمع شيئًا؛ وحتى لو سمع فإنه لن يتوقف عن العمل. وقلت للعمال: «توقفوا فسوف أعطيكم السجائر»؛ وأخذت أفتش في جيوبي بحثًا عن علبة السجائر، وكان العمال

متحلقين حولي ينتظرون. وفجأةً ارتجف زوربا وقفز من مكانه، وأرهف سمعه للحائط الداخلي للدهليز؛ فشاهدت على نور قنديل "الأسيتيلين" فمه متشنجًا مفتوحًا على اتساعه. فصحت من فوري: «ماذا أصابكَ، يا زوربا؟».

ولكن في تلك اللحظة دَوَّى فوقنا سقف الدهليز مهتزاً بكامله، فصاح زوربا بصوت أجش عالٍ: «اهربوا!». فاندفعنا صوب المدخل؛ ولكن قبل أن نصل إلى الدعامة الأولى سمعنا للمرة الثانية دوي تصدع فوقنا أشد عنفًا عن سابقه. وكان زوربا في هذه اللحظة يرفع عِرقًا كبيرًا من الخشب لكي يضعه كوتد يقوي به الدعامات الخشبية التي توشك أن تنقض؛ ولو قُدر له أن يضعه فربما استطاع السقف الصمود لثوان قليلة ريثما نتمكن من الهرب.

ترددت أصداء صوت زوربا المكتوم آنذاك وهو يصرخ: «اهربوا!»، وكأنها صيحة منبعثة من أعماق الأرض؛ فقفزنا قفزاً مهرولين جميعنا إلى الخارج، مدفوعين بالجبن الذي كثيرًا ما ينتابنا في اللحظات الحاسمة، دون أن نلقي بالاً لزوربا أو نعبأ به. ولكن بعد ثوان قليلة، تمكنت خلالها من استجماع شتات نفسي، فقفلتُ راجعًا أدراجي إليه. وصحتُ بصوتٍ عالٍ: «يا زوربا! يا زوربا!». كان قد خيل إليَّ أنني صرختُ، غير أنني أدركتُ بعدها أن صوتي لم يخرج من حنجرتي؛ إذ أن الخوف كان قد شل لساني وخنق صوتي. فخجلتُ من نفسي، وخطوتُ خطوة واسعة إلى الخلف، ومددتُ كلتا يدَي. كان زوربا في تلك اللحظة قد فرغ توًّا من تثبيت كتلة الخشب الضخمة التي ستقوي السقف، وشرع ينزلق بحركة عنيفة كي

يهرب. وفي وسط الظلام الدامس وقع بصره عليَّ بدوره ووجدني أمامه، فتعانقنا دون اتفاق. وصاح زوربا في وجهي بصوت أجش مختنق: «الهرب! الهرب!». وشرعنا نعدو إلى أن وصلنا إلى النور، ووجدنا العمال محتشدين عند المدخل، وهم يسترقون السمع صامتين، ووجوههم مُصفرة ممتقعة.

وسمعنا آنذاك صوت التصدع الثالث، أشد وأقوى من سابقيْه، وكأنه ساق شجرة ينكسر من منتصفه. وعلى حين غرة دوى صوت تصدع هائل وانهيار، فاهتز الجبل عندما انهار الدهليز. وتمتم العمال قائلين بعد أن رسموا علامة الصليب على صدورهم: «اذكرنا، يا مولانا!». فصاح فيهم زوربا بحنق وغضب: «هل تركتم معاولكم في الداخل؟». فلم ينبس العمال ببنت شفة. فصاح زوربا فيهم مرةً أخرى بوحشية: «لماذا لم تأخذوها معكم؟ أنتم لا تلقون بالاً إلا لأنفسكم، أما أدوات عملكم فلتذهب إلى الجحيم!». فتدخلت قائلًا لأخفف وطأة الموقف: «هل سوف ننشغل الآن بالمعاول، يا زوربا؟ ينبغي أن نكون شاكرين لأنه لم يصب أحد منا بسوء؛ جازاك الله خيرًا، يا زوربا، فالجميع يدينون لك بحياتهم».

وهتف زوربا: «أنا جائع! فقد انفتحت شهيتي». وأخرج منديله الذي يحوي وجبته السريعة، وكان يضعه أسفل صخرة، وفتحه وأخرج منه الخبز وحبات الزيتون والبصل، وحبات بطاطس مسلوقة وقنينة صغيرة من النبيذ. ثم قال وفمه محشو بالطعام: «تفضلوا! كلوا معي!». كان يلتهم الطعام بسرعة وكأنه فقد لتوه كثيرًا من قواه، ويريد الآن أن يضخ فى قلبه مزيداً من الدماء. كان يتناول الطعام مطرقًا صامتًا، بعدها تناول قنينة النبيذ وأحنى عنقها فوق فمه، وصب محتوياتها بالكامل في حلقه الجاف،

وهو يصدر صوتًا مثل قرقرة الدجاج.

تشجع باقي العمال، ففتحوا بدورهم حقائبهم اليدوية المزخرفة، وأخرجوا منها طعامهم وأخذوا يأكلون. كانوا جميعًا قد جلسوا متحلقين حول زوربا، وهم يأكلون ويرنون إليه. وكم كانوا يودون لو أنهم طرحوا أنفسهم عند قدميه، وقبلوا يديه، غير أنهم كانوا يعرفون أنه كان غريب الأطوار، فلم يجسر أحد منهم على أن يبادره بتصرف ما. وأخيرا قرر "ميخيليس" ذو الشوارب الشهباء، وأكبرهم سنًّا، أن يعقد عزمه ويكلمه، فقال: لولاك، يا "أليكسيس"، لصار أبناؤنا يتامى». فصاح زوربا: «أطبقوا أفواهكم! ولا كلمة!». قال زوربا هذه العبارة وفمه محشو بالطعام، فلم يجسر أي شخص منهم على أن ينطق أو ينبس ببنت شفة.

(10)

«ترى مَن ذا الذي خلق هذا المخلوق المعقد الزاخر بالتشكك وانعدام اليقين، معبد الغطرسة والتكبر، إبريق الآثام والخطايا، الحقل المبذور أعشابًا من الفضائح والخزي والعار، فوهة الجحيم، السلة المملوءة حتى حافتها بالشرور والمكائد، السم الذي يشبه العسل، والسلسلة التي تقيد الفانين بالعالم- أعني المرأة؟».

ظللت أكتب وأعاود كتابة هذه الأنشودة البوذية، وأنا جالس القرفصاء على الأرض بجوار المجمرة التي يشتعل بها الجمر. كنت أناضل وأنا أكدس التعويذة فوق التعويذة، كي أطرد من مخيلتي جسدًا ضمخته مياه الأمطار، جسدًا ذا أرداف مكتنزة متموجة، كان يمر أمامي على مدى جميع هذه الأمسيات الشتوية، أجل كان يمر ويعاود المرور خلال نسمات الهواء. ولست أدري كيف حدث- توًّا بعد انهيار الدهليز، حيث تعرضت حياتي لخطر الموت فجأة- أن طيف الأرملة انبثق في دمي، كأنه حيوان بري أحس بالإثارة والشبق، فأخذ يناديني تارةً بلهجة الآمر، وتارةً بلهجة

الشاكي المعاتب، قائلًا: «هيَّا، هيَّا، تعال! فالحياة مثل البرق الخاطف؛ هيَّا بسرعة! هيَّا، هيَّا حتى تفوز بما فاتك!».

كنت أعرف أن من كان يناديني هو "مارَا"، روح الشر في العالم، بعد أن حل في جسد نسائي بديع القوام. كنت أجاهد وأناضل، ثم أجلس وأكتب عن بوذا، تماماً مثلما كان يحفر البشر الأوائل داخل الكهوف نقوشهم بواسطة صخرة مسننة، أو يرسمون بالألوان الحيوانات المتوحشة التي كانت تطاردهم عندما يستبد بها الجوع؛ إذ كان هؤلاء البشر يناضلون– وهم يقصون القصص عنها- كي يحفروا صورها على الصخرة، ابتغاء درء شرها، وعلى أمل ألا تنقض عليهم وتفتك بهم.

ومنذ اليوم الذي تعرضتُ فيه لخطر الموت صريعًا، كان طيف الأرملة يمر عبر الهواء وسط وحشة حياتي وعزلتها، وكانت تومئ لي وهي تهز خاصرتيها برشاقة؛ وطوال النهار كنتُ أحظى بالقوة، وكان ذهني يقظًا، فكان بوسعي أن أطرد طيفها من مخيلتي. ولذا كنتُ أكتب عن الهيئة التي وصلتْ بها الغواية إلى بوذا، وكيف ارتَدَت الغواية زي امرأة، وكيف أسندتْ على جنبيه ثدييها الناهدين الصلبين. وعندما رأى بوذا الخطر المحدق به، حشد كل قواه واستجمع شجاعته الداخلية، وسحق الغواية. وأنا أيضا كنتُ أسحق الغواية مثله.

مضيت أكتبُ، وعقب كل جملة كنت أكتبها كنت أحس بالراحة، وأكتسب مزيدًا من القوة، وأشعر أن الغواية قد انصرفت لحال سبيلها، بعد أن طُورِدت من قبل التعويذة بالغة القدرة، ألا وهي الكلمة. كنتُ أناضل على قدر ما كنتُ أستطيع ببسالة، طوال النهار؛ أما عندما يجن

الليل، فكنت أُجَرَّدُ من سلاحي وأصبح أعزل، كما كانت أبوابي الداخلية تنفتح على مصاريعها، وكانت الأرملة تدلف منها إلى الداخل.

وعندما يشرق النهار كنت أصحو من نومي مرهقًا ومغلوبًا على أمري، فتبدأ الحرب من جديد، وكنت أحيانًا أرفع رأسي. وبعد الظهيرة كان نور النهار ينسحب بعد أن تتم مطاردته، ويغشاه الظلام على حين غرة. كانت الأيام يقصُر نهارها، وكان عيد الميلاد يقترب، وكنت أتابع هذا الصراع الأبدي الذى يدور فى المناخ، وأقول لنفسي: «لا! لستُ وحدي؛ فها هو الضوء، وهو قوة كبرى، يصارع بدوره، فيَهزِمُ ويُهزَم، لكنه لا ييأس؛ وأنا أيضا سوف أنتصرُ معه!». وكان يبدو لي– وهذا ما منحني تشجيعًا كبيرًا– أنني كنت أتابع بنفسي إيقاعًا كونياً عظيمًا، حينما أصارع وأجاهد ضد الأرملة. إذ كنت أفكُر في أن هذا الجسد قد استحوذ على مادة بالغة المكر والدهاء من أجل أن يصيِّرها ذات حلاوة وطلاوة؛ وكى يطفئ بها الشعلة المتأججة داخلي. وكنت أقول: «إن الله قوة خالدة تحيل المادة إلى روح؛ وكل إنسان يحظى في داخله بجزء من هذه الدوامة القدسية؛ وجراء هذا فإنه ينجح في أن يغير شكل الخبز والماء واللحم، وأن يحوله إلى فكر وعمل. لقد كان زوربا على حق حينما قال: "أخبرني بنوعية ما تأكل وسأخبرك من تكون!". كنت أناضل وأقاتل بدوري الآن ضد هذا الحنين الجارف وهذا الشوق العارم تجاه الجسد، بغية أن أحوله إلى "بوذا"».

قال لي زوربا ذات مساء عشية عيد الميلاد، حينما أدرك نوعية الشيطان الذي أصارعه: «فيم تفكر، يا رَيِّس؟ إنني أراك متكدرًا منقبض المزاج!». فتظاهرتُ بأنني لم أسمع ما قال، غير أن زوربا لم يدعني لحال

سبيلي بسهولة، فقال وقد اكتست نبرة صوته بالمرارة والغضب: «إنك شاب قوي، تأكلُ وتشرب بشهية، وتستنشق الهواء النقي، وتكتسب قوة بعد قوة. فماذا تصنع بقواك هذه؟ ها أنت ذا (ترقد) وحدك، فوا حسرتاه على القوة! انهض من فورك هذه الليلة ولا تضيع الوقت، فالدنيا على اتساعها بسيطة سهلة، يا رَيِّس، ألم أكرر هذا القول على مسامعك مرارًا؟ فلا تجعل الاضطراب ينفذُ إلى ذهنك!».

كانت أمامي أوراق مخطوطة "بوذا"، وكانت تتردد على مسامعي كلمات زوربا، وكنت أعلم علم اليقين أنها كانت تفتحُ أمامي طريقًا عظيمًا مضمونًا؛ وكانت تعاليم "مارَا"، الذي يمثل العقل، جلية واضحة أيضًا، أجل "مارَا" تاجر الرقيق بالغ المكر والدهاء. كنت أصغي لكلمات زوربا وأنا ألوذ بالصمت، حيث إنني قررت- فيما بيني وبين نفسي- أن أقاوم، وأنا أُقلب على مهل صفحات المخطوطة، وشرعت في الصفير كي أواري اضطرابي. غير أن زوربا كان يضطرم من الحنق كلما رآني ألوذ بالصمت. فقال: «إن الليلة هي ليلة عيد الميلاد، فاذهب بسرعة كي تجدها قبل أن تتوجه إلى الكنيسة. إن المسيح يولد هذه الليلة، يا رَيِّس، فاصنع معجزتك بنفسك!». فنهضتُ من جلستي متبرمًا، وصحت: «كفاك، يا زوربا، حَسْبكَ هذا! فكل إنسان له طريقه الذي يخصه والذي اختاره، مَثَلُه مَثَلُ أية شجرة. ترى هل تشاجرتَ ذات مرة مع شجرة تين لأنها لم تطرح ثمار الكريز؟ الزم الصمت من الآن فصاعدًا! فقد قارب الليل على الانتصاف، فلنذهب إلى الكنيسة ولنشاهد بدورنا المسيح وهو يولد».

هنا أسدل زوربا على رأسه قلنسوته الشتوية، وأحكم وضعها لتقية

البرد، ثم قال بصبرٍ نافذٍ: «حسنًا، هيا بنا نذهب. ولكن عليك أن تعرف أن الله سيكون أكثر رضًا عنك، لو أنك ذهبت الليلة إلى الأرملة، وكأنك كبير الملائكة جبريل. ولو أن الله سبحانه وتعالى، يا رَيِّس، قد اتبع مسلكك، لما اختار مريم العذراء وقصدها، ولما وُلد المسيح قط. ولو أنك سألتني عن طريق الله، لقلت لك إنه الطريق المؤدي إلى مريم... ومريم هي الأرملة».

قال زوربا هذا ثم لزم الصمت، وانتظر عبثًا أن أجيب عليه؛ بغدها فتح الباب بقوة، ومرقنا منه إلى الخارج، وضرب زوربا بعصاه الحصى. عاود الكلام بتصميم وعناد: «أجل! أجل! إن مريم هي الأرملة». فبادرته قائلًا: «هيا بنا! فلنذهب، وكُف عن الصياح!». غذذنا السير بسرعة أثناء هذه الليلة الشتوية؛ كانت السماء صافية للغاية، وكانت النجوم تبرق وتظهر بحجم كبير وتبدو قريبة من الأرض، وكأنها لقيمات من النار معلقة في السماء. وكان الليل- حينما كنا نسير الهُوَينى على الساحل- أشبه بحيوان صريع ممدد على حافة البحر. وغدوت أفكر فيما بيني وبين نفسي على النحو التالي: «منذ هذه الليلة، فإن النور- الذي كان الشتاء قد احتجزه ووضع له حدأ- بدأ يتفوق وتكون له اليد العليا؛ وكأنه وُلدَ بدوره الليلة بجَنِينه القدسي الفاتن». كان جميع أهل القرية قد احتشدوا داخل الخلية الحَارَّة التي يفوح من أرجائها العطر، أعني داخل الكنيسة؛ كان الرجال يجلسون في المقدمة ومن خلفهم النساء، وبأيديهن الصلبان. وكان القس "اسطفانوس"، بطوله الفارع وقوامه النحيل، هذا القوام الذي استشاط غضبًا جراء صومه الذي دام أربعين يومًا، مرتديًا ثيابه الفاخرة المرصعة

بالذهب، وهو يهرول في أرجاء الكنيسة صعودًا وهبوطًا بخطى واسعة ويدق على المبخرة؛ كان يتعجل رؤية المسيح وهو يولد، كي يرجع إلى داره، وينكب على ارتشاف حساء اللحم الدسم، والتهام النقانق (= السجق).

فلو أنهم كانوا يقولون: «اليوم يولد النور»، لما غدا قلب الإنسان مشتاقًا، ولما أصبحت الفكرة أسطورة سيطرت على العالم؛ ولما ظلت ظاهرة طبيعية منتظمة، ولما قُدر لها أن تقلب الخيال رأسًا على عقب، أعني أرواحنا. ولكن النور الذي يولد في قلب الشتاء قد غدا طفلاً، وغدا الطفل إلها تحتضنه الأنفس الآن عشرين قرنًا في أحضانها وترضعه...

بعد انتصاف الليل بقليل انتهت الشعيرة السرية؛ وُولد المسيح، وكان أهل القرية الجائعون يهرعون مسرورين إلى منازلهم كي يتناولوا الطعام، وكي يشعروا بسر التجسد في أعماق بطونهم. فالبطن هي الأساس المتين؛ ففي البداية يأتي الخبز والنبيذ واللحم، وبدون هذا كله لا حديث عن الله. كانت النجوم الكبيرة تبرق مثل الملائكة، وكان ماء نهر الأردن يفيض من جهة السماء حتى الجهة الأخرى، وكانت نجمة خضراء تدوي بالرنين فوقنا وكأنها زمردة. وهنا تنهدتُ. فالتفت إليَّ زوربا وقال: «هل تؤمن، يا رَيِّس، وحياتك، بأن الله أصبح إنسانًا، ووُلد في الحظيرة؟ هل تؤمن بذلك أم تسخر من الناس؟».

فقلت: «من الصعب أن أجيبك، يا زوربا، فأنا لا أؤمن بذلك غير أنني قد أصدقه. فماذا عنك؟». فقال: «أما عن إيماني فقد غدا أثراً بعد عين. ماذا أقول لك؟ عندما كنتُ صبيًا، وكانت جدتي تقص عليَّ الحكايات الخيالية، لم أكن أصدقها أبدًا؛ غير أنني مع ذلك كنتُ أرتجف من الشوق

إليها، وكنتُ أضحك وأبكي، وكأنني كنت أصدقها. وبمجرد أن نبتت لحيتي انصرفت عن تلك الحكايات الخيالية، وكنت أسخر منها وأتهكم عليها؛ أما الآن، حيث إنني بلغت سنوات الشيخوخة، يا رَيِّس، ها أنذا أبدأ من جديد لأصدقها... إن الإنسان سر مستغلق!...».

كنا قد بدأنا السير في الطريق المؤدي إلى فندق "أورتانس"، وكنا نعدو مثل فرسيْن جائعيْن. وكان زوربا يقول أثناء ذلك: «إن الآباء القديسين ذوو ذكاء حاد ودهاء لا مثيل له! إنهم يسيطرون عليك عن طريق بطنك، فكيف يتسنى لك أن تهرب منهم؟ إذ تظل أربعين يومًا لا تأكل فيها اللحم ولا تذوقه، أي تستمسك بالصوم، فلماذا؟ والجواب هو أن تشتاق بشدة إلى اللحم! فيا لهم من خبثاء يرتدون ملابس من الصوف السميك، ويعرفون جميع الألاعيب والأحابيل!». ثم بعد ذلك حَثَّ الخطى أسرع، وقال: «افتح البرجل (= أسرِع في خطاك)، يا رَيِّس، فلا ريب أن الدجاجة الرومية ستصبح مثل الملبن!».

عندما ولجنا فى غرفة المدام التي تحتوي على سرير مزدوج، ومائدة كانت مغطاة بمفرش أبيض، كان البخار يتصاعد من الدجاجة الرومية التي ترقد على ظهرها وقدماها مفتوحتان؛ ومن المجمرة المشتعلة كان يتصاعد دفء غاية في العذوبة.

كانت مدام "أورتانس" قد عقصتْ شعرها في حلقات، وكانت ترتدي ثوبًا طويلاً مبرقشًا بوردات كبيرة ذات لون وردي، وله أكمام طويلة ومطرز بالدانتيلا التي انسلت خيوطها من كثرة الاستخدام؛ وكان وشاح أصفر فاتح عرضه إصبعان يطوق الليلة جيدها المتجعد؛ كذلك كانت قد

ضمخت إبطيها بماء الورد.

وفكرت فيما بيني وبين نفسي: «آه كم غدت الأمور كلها متناسقة لدرجة الكمال على ظهر الأرض! وكم غدت الأرض متناسقة لدرجة كبيرة مع قلب الإنسان! فهذه المرأة العجوز الشادية التي اجتازت كثيرًا من المواقف المزرية، ها هي الآن ملقاة ومهجورة على هذا الساحل المنعزل، ولكنها جمعتْ في غرفتها البائسة هنا، بكل العناية الفائقة القدسية، الدفء وتدابير الزوجة الماهرة»:

«الطعام الوفير المعد بإتقان، المجمرة المشتعلة، والجسد المحلى بالزينة والزخرف، والمضمخ بماء الورد؛ فكل هذه النعم الجسدية الصغيرة والإنسانية للغاية، كانت تتغير وتتحول ببساطة وبسرعة فائقتين إلى متعة نفسية عظيمة! وللحظة واحدة انسدلت غشاوة قاتمة على عيني، وبدا لي أنني لم أكن منعزلاً مهجورًا خلال هذه الليلة الحافلة عند حافة هذا البحر، لأن مخلوقًا أنثويًا هرع كي يهتم بي ويعتني. أجل هذا المخلوق الأنثوي الذي كان يمثل- بكل إخلاص وتجرد- الرقة والتحمل والشجاعة، كان يمثل الأم والأخت والزوجة. أما أنا- الذي كنت أعتقد أنني لم أكن بحاجة إلى أي شيء- فقد أحسست فجأةً أنني قد غدوت في حاجة إلى كل شيء».

لا ريب أن زوربا كان سوف يحس بدوره بمثل هذا الاضطراب العذب، لأننا ما إن دخلنا عند المدام حتى ذاب شوقًا وأخذ بين أحضانه المرأة العجوز التي وصلت إلى ذروة عمرها، والتي كانت في أبهى زينتها وتألقها. وما إن فرغ من العناق حتى صاح: «المسيح يولد! سلاماً وتحية

للجنس اللطيف!». ثم التفت إليَّ وهو يضحك ويقول: «أرأيتَ، يا رَيِّس، كُنه هذا المخلوق الذي يسمى المرأة؟ آه ما أمهر الرب الذي نجح في صياغته وتشكيله!».

جلسنا إلى المائدة، وانكببنا على الطعام وعلى شرب النبيذ، وابتهجتْ بطوننا، وتحركت قلوبنا. وتوهج فؤاد زوربا باللهب، فكان يصيح بي قائلًا ما بين الفينة والأخرى: «كُل واشرب! أجل كُل واشرب، يا رَيِّس، وادفع مزاجك للروقان، غنِّ بدورك، يا فتًى، مثل الرعاة وقل: "لك المجد في الأعالي!..."، لقد وُلد المسيح، فليس الأمر مجرد امرح واضحك؛ انطلق مرددًا أغنيةَ حبٍ كي يسمعك الله، وافتح أحضانك للحياة؛ وكفانا ما تجرعناه من سموم!».

كان زوربا في قمة المزاج وذروة الانبساط. وكان هذا ما قاله في ابتهاج: «وُلد المسيح، يا سليمان الحكيم، وُلد المسيح يا رب القلم الهزيل! لا تُمحِّص ولا تدققْ النظر: هل وُلد؟ أم لم يولد؟ يا هذا، لقد وُلد، فلا تكن أحمق! فلو أمسكت بعدسة لكي ترى بها الماء الذي نشربه، وهذا ما قاله لي يوما أحد المهندسين، فستجد أن الماء زاخر بالديدان المتناهية في الصغر التي لا يمكن أن تراها العين المجردة. أجل ستشاهد هذه الديدان، ولن تجسر على شرب الماء. أجل لن تشرب الماء، وستموت من العطش. فاكسر العدسة، يا رَيِّس، أجل حطم هذه العدسة اللعينة، حتى تختفي الديدان توًّا، وحتى تشرب الماء وترتوي!».

ثم التفت إلى مضيفتنا المرقَّطة (كالفهد)، ورفع كأسه المترعة عاليًا وقال: «أما أنا، يا سيدتي العذراء، يا زميلتي في الكفاح، فسأشرب هذه

الكأس في صحتك! فلقد رأيت في حياتي شخصيات بحرية؛ كانت تنتصب واقفة على مقدمة السفينة، وهم يمسكون بصدورهم، ووجناتهم وشفاههم مشربة باللون الأحمر. كانوا قد جابوا جميع البحار، ورست سفنهم في جميع الموانئ، وعندما كانت سفينة من سفنهم يدب فيها العفن، كانت باقي السفن تحط مراسيها على اليابسة، وكانوا يستريحون حتى نهاية أعمارهم في مقاهٍ، تحمل حوائطها أدوات الصيد، فيذهب إليها القباطنة ليشربوا.

فيا قُبطانتي، ويا سيدتي، حيث إنني أراكِ على هذا الساحل، الآن في هذه الليلة، وقد أكلتُ وشربتُ حتى الثمالة، وأضاءتْ كل منافذي بالنور، الآن تبدين أمامي مثل شخصية سامية، مالكة سفينة عظيمة؛ فأنا، يا سيدتي، قَلْبُ مينائك. يا غندورتي (بومبولينا)، وأنا المقهى الذي يدلف إليه القباطنة ليشربوا؛ فهيا اقتربي مني واستندي عليَّ، وأسدلي أشرعتك! فأنا أرتشف الآن هذه الكأس المترعة، يا حوريتي، في صحتك!».

تأثرت مدام "أورتانس" تأثرًا بالغًا بهذه العبارات، فسالت دموعها، وأسندت رأسها على كتف زوربا. وهنا همس زوربا في أذني بما يشبه الصفير: «سوف ترى، يا رَيِّس، أن هذه الكلمات الحنونة التي قلتها لها سوف تؤتي ثمارها؛ فهذه الوغدة لن تتركني أرحل الليلة. ولكن دعنا لا نأسف على ما قيل من كلمات بائسة!». قال هذا ثم صاح بصوت عالٍ في وجه حوريته: «المسيح يولد! في صحتنا!».

مرر زوربا ذراعه بحيث يتقاطع مع ذراع المدام، ورشف كلاهما النبيذ من كأسه في جرعة واحدة، وتعانقت أيديهما، وشرع كل منهما يرمق الآخر بخشوع وتبتل. كان الوقت يقترب من الشروق عندما رحلتُ

بمفردي من غرفة المدام الدافئة، وسلكتُ طريق العودة. وكان أهل القرية قد أكلوا ما لذ وطاب من الطعام، وشربوا ما شاءوا من نبيذ، وكانوا الآن مستغرقين في النوم، بعد أن أغلقوا أبواب منازلهم ونوافذهم؛ وكان الظلام يلف القرية إلا من بريق نجوم الشتاء الكبيرة.

كان البرد قارسًا والبحر مزمجرًا، وكانت نجمة "أفروديتي" معلقة وهي ساحرة فاتنة جهة الشرق، زاخرة بالحركة والمرح. كنت أسير بحذاء ساحل البحر، وألعب مع الأمواج التي كانت تندفع تجاهي لتبللني، وكنت أتحاشاها؛ إذ كنت أحس بسعادة ما بعدها سعادة، وكنت أقول فيما بيني وبين نفسي: «هذه هي السعادة الحقة؛ وهي ألا تصبو إلى أي نوع من الطموح، وأن تكد مثل الحمار(*)، كأنك طامع في جميع صنوف الطموح؛ وأن تعيش بعيدًا عن البشر، وأن تحب الناس شريطة ألا تحتاج إليهم. وأن تحتفل بعيد الميلاد، فتأكل وتشرب على أحسن ما تشتهي، ثم تتحاشى بعدها بمفردك جميع شِراك الإغواء. وأن تكون النجوم ساطعة فوقك، والأرض عن شمالك والبحر عن يمينك، وأن تعرف فجأةً أن الحياة قد أنهت في سويداء قلبك آخر إنجاز لها وأصبحت خرافة».

كانت الأيام تأتي ثم تنقضي، وكنتُ أجاهد باستماتة كي أتزود بالشجاعة، وكنتُ أصيح وأصرخ وألعب؛ غير أنني في أعمق أعماق قلبي المتموجة كنت حزينًا. فطوال هذا الأسبوع الذي حلت إبانه الأعياد

(*) التعبير اليونانى حرفياً هو: "أن تكد وتكدح مثل الكلب: na douleueis skylisia". ولكننى آثرت أن أجعل التشبيه بالحمار، لأنه فى ثقافتنا الأكثر صبراً على الكد والعمل. [المترجم]

انطلقت الذكريات من عقالها، وغمرتْ شغاف قلبي بالموسيقى وبالناس الذين أحبهم. وأحسست من جديد بأن الخرافة بالغة القدم صحيحة جدًّا وصادقة، ومفادها أن قلب الإنسان عبارة عن حفرة مملوءة بالدماء، وأن أجساد الموتى الأحباء إلى نفوسنا تهوي من عليائها لتنبطح فوقها، وتشرب دماءنا لكي تتجسد وتعود إليها الحياة؛ وكلما كانت محبتهم لنا أشد كان رشفهم لدمائنا أكثر(*).

كانت الليلة عشية رأس السنة. وتخيلت أن حشدًا صاخبًا من الفتيات الريفيات، كُن يركبن قاربًا كبيرًا من الورق، وأنهن حططن الرحال عند سقيفتنا، وشرعن في التغني بترانيم مرحة بأصوات رفيعة مبتهجة. وأن القديس "ڤاسيليس" (= بابا نويل) من قيصرية- وهو رجل مثقف كذلك- كان واقفًا ومعه الورق والقلم، وأنه وصل إلى هذا الساحل الكريتي الأزرق، كي ينسج أنشودة ثناء على زوربا وعليّ، وكذا على "سيدتي النبيلة" الخيالية، التي لم يكن لها وجود قط.

أخذت أنصتُ وأنصتُ ولم أكن أتكلم. كنت أحس أن زمنًا ما ينتزع مرةً أخرى غشاء من أغشية قلبي؛ وكنت بدوري أخطو خطوة نحو الحفرة السوداء. وسألني زوربا الذي تخيلتُ أنه كان يغني مع الغلمان، وكان ينقر على الدف: «ماذا أصابك؟ ماذا دهاك، يا بني؟ لقد شحبَ لونك وصرتَ

(*) هذه الصورة الشعبية متوارثة منذ عصر الشاعر "هوميروس"، إذ سبق أن أشرنا إلى أن "أوديسيوس"- في ملحمة "الأوديسيه"- قد هبط إلى العالم السفلي (= عالم الموتى)، وحفر حفرة ملأها بالدماء، فجاءت الأرواح وشربت من هذه الدماء إلى أن تجسدت، واستطاع رؤيتها والحديث معها. [المترجم].

مُسناً، يا رَيِّس. أما أنا، ففي ليلة مثل هذه الليلة أغدو غلامًا صغيرًا من جديد؛ أولد من جديد مثل المسيح. أرأيت كيف يولد المسيح كل عام؟ هكذا أنا».

استلقيتُ في سريري وأغمضتُ عيني؛ إذ كان قلبي هذه الليلة غاضبًا ثائرًا، ولم أكن أريد سماع أي كلام. لم يكن بوسعي النوم، وكأنني كنتُ أزمعُ أن أقدم تقريرًا الليلة عن أفعالي، أو كأن حياتي بأسرها انقضتْ بسرعة، وكانتْ مفككة وغير مستقرة مثل الحلم؛ وكنت أرمقها واليأس يغمرني. ومثل سحابة من الريش تدفعها النسمات عاليًا، كانت حياتي تُغير هيئتها؛ كانت تتجمع ثم تفترق، ثم تتجمع من جديد وتغير صورتها لتصبح: بجعة، كلبًا، شيطانًا من الجن، عقربًا، طاووسًا ذهبيًّا، قردًا. وبدأت السحابة بأسرها تتلاشى وتتفرق بعد أن امتلأت بالهواء وبقوس قزح.

ظلتْ التساؤلات التي سبق أن طرحتها طوال حياتي بغير إجابة، لأنها كانت أسئلة معقدة وغاضبة، أما آمالي الأعظم فقد تبددتْ بدورها. فقد آن الأوان لكي أستقر وأغدو حصيفًا... انبلج نور النهار، غير أنني لم أكن قد فتحتُ عيني، وكنتُ أجاهد كي أحصر فكري وأركزه في أشواقي ولواعجي، ولكي أنفذ خلال القشرة الصلبة التي تغلف عقلي، وأمضي إلى القناة المظلمة الخطرة التي تربط كل قطرة بشرية بالمحيط الهائل. كنتُ في عجلة من أمري بغية شق الحجاب ورؤية ماذا يحمله لي هذا العام الجديد...

تناهى إلى مسمعي فجأةً صوت زوربا من جديد، وأنا مستلقٍ على الأرض. فتحت عيني فأبصرتُ زوربا، الذى قذف ثمرة رمان كبيرة بقوة

على عتبة الكوخ. فتناثرت حبات الرمان المنعشة- التي تشبه الياقوت- إلى أن وصلت إلى سريري، فجمعت عددًا منها والتهمتها، فشعر حلقي بالانتعاش.

صاح زوربا الذي كانت معنوياته مرتفعة للغاية: «أتمنى لك ربحًا موفقًا، يا رَيِّس، وقلبًا طيباً، وأتمنى (أن نقابل) فتيات فاتنات يسرقن قلبينا!». بعدها اغتسل زوربا وحلق ذقنه، ولبس أفضل ملابسه: بنطلون من الجوخ الأخضر، سترة رمادية من قماش الجِلْس، ومعطف قصير مزركش بالفراء، مصنوع من جلد عنز لم ينزع الشعر منه تماماً؛ كما أخذ قلنسوته الروسية المصنوعة من فرو الحملان. ثم برم شاربيه وقال: «يا رَيِّس، أنا ذاهب لأحضر القداس في الكنيسة ممثلاً لشركتنا. فليس من المناسب أن يظن العاملون فى استخراج الفحم أننا ماسونيون. وعلى كلٍّ، ماذا سأخسر؟ سأزجي وقتي فحسب».

ثم هز رأسه وغمز لي بعينه، وتمتم: «وربما أرى هناك الأرملة». كان الله، وصالح الشركة، والأرملة قد اختلطوا بصورة لا يمكن فصل أجزائها في عقل زوربا. وعندما سمعت حركة سيره الخفيفة وهي تتباعد، قفزتُ ناهضًا من فراشي؛ إذ كان السِحر قد انحسر وابتعد عني، وانحبست نفسي مرةً أخرى في سجنها المؤلف من اللحم والدم.

ارتديتُ ملابسي وسلكتُ طريق الساحل، وكنت أسير بخطى حثيثة حيث إنني كنت منشرح الصدر، وكأنني نجوت من شرٍّ ما، أو تحررتُ من سطوة إثمٍ ما؛ وفجأةً بدا لي التوق إلى التلصص على ضوء النهار أو إلى مشاهدته- قبل أن يولد ويغدو هو المستقبل- بمثابة تدنيس للمقدسات

وانتهاك للحرمات.

وتذكرت أنني- ذات صباح- كنت قد شاهدتُ مصادفةً على شجرة صنوبر شرنقة فراشة، في اللحظة التي كانت روح الفراشة التي بداخلها تشق فيها قشرة الشرنقة، وتتأهب للانطلاق إلى الخارج. وظللت أنتظر وأنتظر خروج الفراشة، ولكنها تأخرت في الخروج، وكنت في عجلة من أمري؛ فانحنيت آنذاك على الشرنقة وبدأت أدفِئها بأنفاسي. كنتُ أُدفِئها بنفاد صبر، فبدأت المعجزة في الحدوث أمام عيني، بنبض أسرع من إيقاع الطبيعة؛ فقد انفتحتْ الشرنقة بكاملها، وانطلقتْ الفراشة خارجةً منها. ولكنني لن أنسى أبدًا ما حييتُ الفزع الذي انتابني: فلقد ظل جناحا الفراشة مجعدين متغضنين دون أن تفردهما؛ كان جسدها كله يرتعد، وكانت تجاهد من أجل أن تبسط جناحيها غير أنها عجزت عن ذلك؛ أما أنا فكنتُ أجاهد بدوري عن طريق أنفاسي كي أساعدها. أما الأسوأ، فهو أن الفراشة كانت بحاجة إلى نمو متمهل، وفسحة من الوقت تتعرض فيها لأشعة الشمس، ولكن فات الأوان على حدوث هذا الآن؛ إذ أن أنفاسي قد جعلت الفراشة تسرع في خروجها من الشرنقة، قبل أوان ولادتها واكتمال نموها. فخرجت منها متغضنة قبل اكتمال نموها، وترتب على ذلك أنها اهتزت في يأس، وقضت نحبها بعد برهة قصيرة وهي لا تزال في كفي.

وفي ظني أن جثمان الفراشة هذا المكسو بالزغب كان أثقل عبء احتملته في عقلي الباطن. وها أنذا الآن أفهم الأمور على نحو أعمق: وهو أن الخطيئة المهلكة هي أن تتعجل النواميس الأزلية؛ فلزامٌ عليك أن تتبع

الإيقاع الأبدي بثقة ويقين.

أويت إلى صخرة أجلس عليها كي أتمثل بهدوء وروية هذا الفكر التأملي المصاحب لرأس السنة والعام الجديد. آه لو كان بوسعي- وهذا ما قُلتُه بيني وبين نفسي- في مطلع هذا العام الجديد أن أنظم حياتي، وأنسقها على هذا النحو، بدون نفاد صبر هيستيري! فيا ليت هذه الفراشة الصغيرة التى أزهقتُ روحها، لأنني تعجلتُ بعثها، تظل تطيرُ دائمًا قبالتي وتكشف لي معالم الطريق! وهكذا كان بوسع فراشة ماتت قبل الأوان أن تمد يد العون إلى شقيقة لها، أعني إلى نفس بشرية مثلها، كي لا تتسرع وكي تصل بإيقاع أبطأ إلى أن تبسط جناحيها وتطير بهما!

(11)

قفزت عاليًا من فرط سروري، وكنتُ أقبض بيدي على هديتي في رأس السنة. كان الهواء باردًا، وكانت السماء صافية، وكان البحر يبرق ويتلألأ، فاتخذتُ طريقي عبر القرية. لا ريب أن قداس رأس السنة قد انتهى الآن، تقدمتُ في طريقي وكنتُ أترقب، وقلبي يدق دقات غير عادية فى انتظار أول شخص سيتصادف أن ألتقي به، وأراه في أول يوم من العام الجديد؛ فمَن هو يا تُرى هذا الشخص الذي سيجلب معه الحظ إلى نفسي وإلى كياني؟ وقلتُ لنفسي: «إيه، لعله يكون غلامًا صغيرًا يحمل في يده لعبة رأس السنة! أو لعله شيخ مسن نشيط خفيف الحركة، يلبس قميصًا أبيض ذا أكمام عريضة، أدى واجبه على ظهر الأرض على أكمل وجه!». وكنت كلما تقدمتُ واقتربتُ من القرية كلما ازداد اضطرابي وترقبي.

وفجأةً على غير انتظار انثنت ركبتاي؛ ففي طريق القرية تحت شجرات الزيتون، أهلَّت علي بطلعتها الأرملة ناضرة متألقة، وهي تتأرجح في مشيتها، بوجنتيها المشعتين، وبمنديلها الأسود. كانت الأرملة تمشي وهي

تهتز وكأنها نَمِرَة سوداء، وبدا لي أنها كانت تعبق الهواء بمسك فواح ذكي الرائحة. آه ليته كان في مقدوري أن أفر! هكذا! فكرتُ. كنت أعلم- حق العلم- أن هذا الوحش الضاري الغاضب ليس في قلبه مثقال ذرة من الشفقة، وأن الفوز الوحيد في مجابهته هو أن ألوذ بالفرار. ولكن أنىَّ لي أن أهرب، وكيف أفر؟ كانت الأرملة تقترب مني؛ وكان الحصى يئز ويصدر صريرًا تحت قدميها، وكأن جيشًا كان يمر فوقه؛ اهتزت هامتها وانزلق المنديل من على رأسها فانكشف شعرها، وبدا براقًا لامعًا فاحمًا مثل لون الغراب. طرفتْ عينها بنظرة خاطفة تجاهي وابتسمتْ؛ وكانت عيناها ذات بريق وحشي حلو، كما لو كانت قد خجلتْ حينما انكشف أمامي سر المرأة العميق، أعني حينما انكشف شعرها.

حاولتُ أن أحييها، وأن أقول لها: «كل عام وأنتِ بخير»، غير أنني شعرتُ باختناق في حلقي، تمامًا كما حدث إبان اليوم الذي انهار فيه الدهليز وتعرضت حياتي للخطر. تحركت أعواد البوص التي يتألف منها سور بستان الأرملة، وسقطت أشعة شمس الشتاء على أشجار الليمون والبرتقال ذات الثمار الذهبية والأوراق السوداء، فبرق البستان بأسره مثل الفردوس.

هنا وقفتْ الأرملة، ومدتْ يدها ودفعتْ بها باب البستان بقوة كي تفتحه. وفي تلك اللحظة تمامًا كنت أمر أمامها، فالتفتتْ ورمقتني بنظرها مرةً أخرى، وكان حاجباها يتراقصان. تركتْ الباب مفتوحًا، فشاهدتُها تتوارىَ وهي تهز ردفيها، خلف أشجار البرتقال. كان الرجل داخلي يهيب بي أن أخطو بخطوات واسعة أعبر بها عتبة الباب، ثم أحكم غلق الباب

بالرتاج، وبعدها أهرع خلف الأرملة وأطوقها من خصرها، ودون أن ينطق كلانا بأي لفظ نسقط فوق السرير المعَد والمفروش! وكان هذا ما يمكن أن يفعله جدي أو حفيدي؛ أما أنا فأقف في المنطقة الوسط بينهما وأفكر.

تمتمتُ بصوتٍ خافتٍ غير مسموع، وأنا أبتسم: «سوف أتصرف على نحو أفضل في حياة أخرى غير حياتي هذه؛ أما الآن فهيا بنا!». ولجت منسلاً عبر الوهدة المكسوة بالعشب، وكنت أحس بأن هناك ثقلاً يجثم فوق قلبي، وكأنني اقترفت إثمًا مهلكًا. مضيت في سيري وظللت أسير، وكان الجو باردًا حتى أنني كنت أرتعد. وأخذت أُبعد عن مخيلتي مشية الأرملة وتحركها، وابتسامتها، وعينيها ونهديها؛ غير أن كل هذه المشاهد ظلت تتردد على مخيلتي بحذافيرها بلا توقف. ولذا شرعت في العدو وكأن هناك من يطاردني ويتعقبني.

لم تكن (ثمار) الأشجار قد تفتحت بعد، غير أن عيونها كانت مع ذلك منتفخة وزاخرة بالعصارة، وخلف كل عين من عيونها، كان المرء يحس أن هناك أغصانًا وزهورًا وثمارًا مثل العسل، مركزة وملتفة في استدارة، ومتأهبة كي تنطلق نحو الضوء. وخلف لحاء هذه الأشجار الجاف كان يتم نسج معجزة الربيع الكبرى خلال فصل الشتاء، سرًّا ودون ضجيج، نهارًا وليلاً. وفجأةً ندتْ عني صيحة فرح وسرور؛ إذ وجدتُ أمامي في تجويف صاغته يد الطبيعة، شجرة لوز باسقة تبز سواها وقد تفتحتْ أزهارها؛ كانت تعلو أمام كل الأشجار، وكانت تعلن عن مقدم الربيع.

شعرتُ بالارتياح، فهذا هو ما كنت أنشده: تنهيدة عميقة وسط عطر نفاذ ينبعث مريحًا مثل النسيم، فوقفتُ بجانب الطريق ومضيت لأجلس مقعياً تحت أفنان شجرة مزهرة. مرتْ عليّ ساعات طويلة دون أن أفكر في أي شيء، ودون أي قلق أو اضطراب، سعيدًا هانئ البال. وكأنني كنتُ أجلس في قلب الأبدية، تحت شجرة من أشجار الجنة. وفجأةً سمعتُ صيحةً عالية طردتني من الجنة، ووجدت زوربا يصيح في وجهي: «في أية حفرة كنت مختبئاً، يا رَيِّس؟ لقد جبتُ العالم بحثًا عنك، وها قد اقترب وقت الظهيرة؛ فهيا بنا!». فسألته: «إلى أين؟». قال: «عند السيدة "جوررونوبولا" (= مدام "أورتانس")، ألم تشعر بالجوع؟ لقد خرج الخنزير الصغير لتوه من الفرن، وغدتِ رائحته الفواحة تتسلل إلى الأنف، فهيا بنا، قلت لك». نهضتُ واقفًا، وربتُّ برفق على جذع شجرة اللوز الجاف الحافل بالأسرار، الذي تمكن من أن ينتج هذه المعجزة الحافلة بالأزهار والثمار. تقدمني زوربا في الطريق بسرعة وخفة، وبمعنويات مرتفعة لإحساسه بالجوع. فالاحتياجات الأساسية للإنسان، من طعام وشراب ونساء ورقص، كانت لا تزال تسيطر على جسده الفارغ النهم المتعطش. وكان زوربا يمسك في يده شيئًا ملفوفا في ورقة ذات لون وردي، وكانت هذه الورقة مربوطة بشريط(*) ذهبي. فسألته: «هل هذه هي هدية عيد رأس السنة؟». ضحك زوربا وهو يحاول أن يخفي تأثره، وقال دون حتى أن يلتفت إليّ: «إيه! حتى لا تتذمر هذه المرأة التعسة! وحتى تتذكر الأيام

(*) الكلمة اليونانية هى (siriti)، وهي تعنى شريط، حيث إنها مأخوذة من العربية. ولعلنا نلاحظ أن اليونانية ليس بها حرف (الشين)، وتستخدم حرف (السين) بدلاً منه. [المترجم].

الخوالي بما فيها من عظمة... فهي امرأة، ألم أقل لك ذلك؟ والمرأة مخلوق شكاء بكاء». فسألته من جديد: «هل هي صورة؟ أهي صورتك، أيها الوغد المنافق؟». فأجاب قائلًا: «سترى... سوف ترى، فلا تتسرع؛ لقد صنعت الهدية وحدي. فهيا بنا سريعًا».

كانت الشمس في عنفوانها وقت الظهيرة، وكانت عظام الإنسان تبتهج بها وتشعر بالحبور. وكان البحر يَصْلَي وابلاً من أشعتها الدافئة ويشعر بالسعادة. وعلى البُعد كانت الجزيرة الصغيرة، الجرداء المهجورة، الموشاة بالصقيع الرقيق، قد بزغت من البحر وأخذت تطفو على سطحه. وصلنا إلى القرية، فاقترب مني زوربا وهو يخفض من نبرة صوته ويقول: «هل تعلم، يا رَيِّس، أن ذات الاسم المجهول (= الأرملة) كانت في الكنيسة؟ فقد كنت واقفًا في الصف الأمامي بجوار المرتل؛ وما هي إلا برهة من الزمن حتى رأيت الأيقونات تتوهج بنور ساطع؛ وانعكس هذا النور على المسيح ومريم العذراء والرسل الاثني عشر... فقلت من فوري بعد أن رسمت علامة الصليب على صدري: "ما هذا؟ أهي الشمس؟" والتفت خلفي فوجدت أنها الأرملة».

فقلت له، وأنا أخطو خطوات حثيثة: «دعك من هذا الكلام، يا زوربا، حَسْبك!». غير أن زوربا عدا خلفي، وقال: «لقد رأيتها عن قرب، يا رَيِّس، إن لها طابِع حُسْنٍ على وجهها يُذْهِبُ منك العقل. فيا له من سر يكمن في الشامة أو الخال على وجنات النساء!». وهنا جحظتْ عيناه مرةً أخرى من فرط الدهشة، وقال: «أرأيت، يا رَيِّس؟ إن جلد البشرة يكون في مجمله ناعمًا أملس؛ وفجأة توجد فيه بقعة سوداء. ومع ذلك فهي تكاد تُذهب

عقلك! هل تفهم شيئًا من هذا، يا رَيِّس؟ ماذا تقول كتبك(*) عن هذا؟». فقلت: «فلتحل اللعنة على الكتب!». وهنا ضحك زوربا في سعادة غامرة، ثم قال: «أهكذا، يا هذا؟ لقد بدأتَ تفهم».

مررنا بسرعة على المقهى دون أن نتوقف. كانت "السيدة الموقرة" (=مدام "أورتانس") قد أعدت لنا خنزيرًا مشويًّا في الفرن، وكانت في انتظارنا وهي واقفة على عتبة باب المنزل. وكانت تلف كالعادة حول عنقها وشاحًا أصفر فاقعًا، كما كانت قد نثرت على محياها طبقة ثقيلة من البودرة، وطلت شفتيها بطبقة (روج) قرمزية سميكة. وما إن شاهدتنا حتى تحركت كل أجزاء جسمها، وسَرى البِشر إلى روحها، وتراقصت بغنج ودلال عيناها اللتين حال لونهما، وبعدها ثبتت نظراتها على شاربي زوربا المبرومين. أما هو، فما إن أحكم رتاج الباب الخارجي خلفه، حتى طوق خصرها، وقال لها: «كل عام وأنتِ بخير، يا غندورتي (= بومبولينا). انظري ماذا أحضرت لكِ!». قال هذا ثم لثم جيدها المكتنز المتغضن. تدغدغت مشاعر السيرينية(*) العجوز، ولكنها لم تفقد تركيزها، فقد ظلت عيناها محملقة في الهدية التي يحملها لها زوربا. اختطفتها من يده، وفكت الشريط المحيط بها ونظرت إليها، ثم ندت عنها صرخة خافتة. فانحنيت

(*) الكلمة اليونانية هي (kitapia)، وهى مأخوذة عن العربية، ربما من خلال التركية. [المترجم].

(*) "السيرينيات" (seirenai) كن حوريات بحر مهلكات – فى الأساطير – ينشدن أغان بصوت ساحر، تدفع المرء إلى الافتتان والذهاب إليهن رغماً عنه، فيلقى حتفه على الفور. [المترجم].

بدوري لأرى الهدية: كان زوربا، الوغد المنافق، قد رسم لها (صورة رائعة) على لوحة من الكرتون السميك، مستخدما أربعة ألوان مختلفة- الأصفر، الكستنائي، الرمادي، الأسود- ليرسم بها أربع بوارج بحرية مزينة بالأعلام. ورسم البحر مفروشًا بالورود، وأمام البوارج الأربع رسم حورية بحر مستلقية على الأمواج، عاريةً تماما ولون جسمها أبيض ناصع، وشعرها محلول ومسترسل، ولها نهدان بارزان، وذيل سمكة معقوف. كانت صورة لمدام "أورتانس"، التي كانت تمسك في الصورة بأربعة خيوط تجر بها البوارج الأربع التي ترتفع عليها أعلام انجلترا، وروسيا، وفرنسا، وإيطاليا. وعلى كل زاوية من زوايا إطار الصورة كانت تتدلى لحية كبيرة: واحدة شقراء، وأخرى كستنائية، وثالثة رمادية، ورابعة سوداء. وسرعان ما نفذت فكرة اللوحة إلى ذهن "السيرينية" العجوز، فقالت وهي تشير إلى حورية البحر بفخر: «هذه أنا!». قالت هذا ثم ندت عنها تنهيدة عميقة. وبعدها قالت:

«آه! آه! لقد كنت أنا ذات يوم قوة عظمى...». قالت هذا، ثم أنزلت من على الحائط مرآة مستديرة كانت معلقة فوق سريرها، بجوار قفص الببغاء، وعلقت في مكانها اللوحة التي رسمها لها زوربا؛ وتحت طلاء شفتيها الكثيف، لا ريب أن وجهها قد تحول لونه إلى البياض الشاحب.

وبرغم ذلك فقد ولج زوربا فى المطبخ، حيث كان يتضور جوعًا، وبدأ في حمل المقلاة الضخمة التي كان الخنزير موضوعًا فوقها، كما أحضر زجاجة من النبيذ، وملأ ثلاثة أكواب منها. ثم صاح قائلًا وهو يدق المائدة بكل يده: «تفضلوا! هيا بنا نبدأ بحجر الأساس فنلبي حاجة البطون؛

وبعدها، يا غندورتي، نتقدم إلى ما هو أبعد من ذلك!». كان الهواء قد غدا ضبابًا جراء زفرات حوريتنا العجوز وتنهداتها؛ فلقد كانت هذه المرأة تحظى بدورها- كل رأس سنة- بتجلٍ أو ظهور ثان، وكانت تنبري بنفسها لتقييم حياتها، فتجد أنها قد ضاعت وغدت هباءً. ففي مثل هذا الرأس النسائية- التي أبلتها السنون- نجد المغامرات والرجال والأثواب الحريرية، وكؤوس الشمبانيا، واللحى المعطرة، تنبعث صورتها في الذهن- خلال الأيام المرموقة- من وسط الذكريات، وتنتعش وتتجدد، وهي تصيح وتصخب. وهنا تمتمت المرأة العجوز المتصابية بصوت هامس، قائلةً لنا: «ليست لديَّ شهية! ليست لديَّ... ليست لديَّ...(*)». وبعدها جثت على ركبتيها أمام المجمرة، وقلبت الجمرات المتقدة، وعكست وجنتاها المرتخيتان الضوء المنبعث من اللهب. كانت هناك خصلة شعر منسدلة تتدلى فوق جبينها، فلامست النار وهي منحنية فوقها؛ وسرعان ما امتلأت الغرفة برائحة كريهة تبعث على الغثيان مبعثها خصلة الشعر المحترقة.

وعادت المرأة العجوز المتصابية- عندما رأت أننا لا نلقي بالاً إليها- لتتمتم مرةً أخرى: «لن أتناول الطعام... لن أتناول الطعام.....». هنا طوى زوربا قبضة يده والشرر يتطاير من عينيه غضبًا وحنقًا؛ وظل لبرهة من الوقت عازفًا عن اتخاذ موقف أو قرار. كان بوسعه أن يدعها تتمتم إلى ما

(*) يتهكم المؤلف هنا- وفى مواضع أخرى كثيرة من الرواية- على نطق مدام "أورتانس" الألثغ؛ فأداة النفي (den) التي تُنطق (ذِن)، تنطقها (دن) بالدال. وهي تفعل ذلك على الدوام فى كلمات أخرى. [المترجم].

شاء الله دون أن يلقي إليها بالاً، وأن ننكب نحن على الطعام والشراب؛ وكان بوسعه أيضًا أن يركع أمامها أو يضمها بقوة بين أحضانه، أو أن يستميلها بلفظ معسول فيصبحان كالسمن على العسل(*). كنت أرقبه، وأطالع في أسارير وجهه التي تنطق بالعبوس، أن العاصفة على وشك الهبوب وأن الأمواج سوف تثور.

ولكن على حين غرة انبسطت أسارير وجه زوربا؛ ويبدو أنه توصل إلى اتخاذ قرار. فركع على ركبتيه وأمسك بركبتي "السيرينية" العجوز، ثم قال لها بصوت تنفطر له القلوب: «إن لم تأكلي، يا غندورتي، فستكون هذه هي نهاية الدنيا. فاشفقي على الدنيا، يا سيدتي، وكُلي هذه القدم الصغيرة للخنزير!». قال هذا ثم دس في فمها الغضروف الذي تتكون منه قدم الخنزير والزبد يقطر منه. ثم أخذ المرأة بين أحضانه، ورفعها عن الأرض وأوقفها على قدميها، وأجلسها على الكرسي الكائن بيننا. وبعدها قال: «كُلي! كُلي! كي يأتي إلى قريتنا القديس "باسيلي" (= بابا نويل)! وإلا، كما تعرفين، فإنه لن يأتي، إذ سوف يرجع عائدًا أدراجه إلى موطنه، إلى بلدة "قيصرية"، وسوف يأخذ معه الأوراق والقلم، وفطائر عيد الميلاد(**)، وهدايا رأس

(*) تعبيرنا هذا الدراج موجود بصورة لا تبعد عنه كثيراً في اللغة اليونانية، على النحو التالي: ta pao meli gala، أي "علاقته مع شخص حميمة مثل العسل مع الحليب". وتعبير كزَنتزَاكِيس هو (ten kamei meli gala)، بمعنى: "يجعل العسل حليباً (معها)". وقد فضلت إيراد التعبير الشائع لدينا لأنه مفهوم ومألوف أكثر. [المترجم].

(**) فطيرة عيد الميلاد (الكريسماس) فطيرة مشهورة لدى اليونانيين، فهم يخفون بداخلها- قبل وضعها في الفرن- قطعة معدنية من النقود، وأحياناً من الذهب (حسب ثراء الأسرة)،

السنة، وهدايا الأطفال في عيد الميلاد، وهذا الخنزير؛ ثم يغادرنا ويرحل بعيدًا. إذن، فيا غندورتي الصغيرة، افتحي فمك الصغير، وكُلي!».

قال هذا ثم مد إصبعين من أصابعه ودغدغ إبط "السيرينية" العجوز التي نهضت وانفجرت في الضحك؛ مسحت بعدها عينيها المحمرتين، وبدأت تمضغ في تلذذ قدم الخنزير المشوية... وفي تلك اللحظة، بدأ قِطّان عاشقان كانا في الغرفة المواء فوق رؤوسنا. كان يموءان بصوت ينضح بالكراهية والسعار؛ كان صوتهما يعلو ثم يتخافت بصورة تبعث على الفزع. وفجأة بدأنا نسمع صوتهما وهما يدحرجان كرة من خيط الصوف في أرضية الحجرة، وبعدها شرعا فى خمشها وتمزيقها بوحشية وشراسة. وهنا صاح زوربا: «نياو... نياوا» وغمز بعينه "للسيرينية" العجوز. فابتسمت المرأة وضغطت يده سرًّا أسفل المائدة، بعدها فتحت حلقها وشرعت في تناول الطعام بعد أن ارتفعت معنوياتها.

بدأت الشمس تشرق، ونفذت أشعتها من النافذة الصغيرة، وسقطت على قدمي الغندورة. كانت زجاجة النبيذ قد فرغت عن آخرها، كما كان زوربا قد اقترب بشاربيه المفتولين، وكأنه قط متوحش، لينقض على «الجنس اللطيف» ممثلاً في مدام "أورتانس"؛ التي كانت آنذاك تقعي في جلستها ورأسها ساقط على كتفها، فبدأت تحس وهو واقف عند رأسها بحرارة أنفاسه اللافحة.

التفتَ إليّ زوربا ثم قال: «تُرى ما كُنه هذا السر، يا رَيِّس؟ فعندما

وبعد أن تنضج وتوضع على المائدة، تقسم وتوزع على المدعوين. ومَن يعثر على القطعة التى بداخلها النقود يكون هو الشخص المحظوظ. [المترجم].

كنتُ طفلاً صغيرًا كانوا يعتبرونني أشبه برجل طاعن في السن؛ إذ كنت بطيء الحركة، قليل الكلام، وصوتي غليظ يوحي بأنني مُسن؛ وكنت أشبه ما أكون بجَدِّي! وكلما تقدمتُ في العمر وأثقلت كاهلي السنون، كلما أصبحت أكثر خفة. أما عندما بلغت العشرين من عمري فقد بدأتُ آتي بتصرفات مجنونة، لم تكن كثيرة؛ بل كانت في حدود ما هو معتاد. وأما حينما بلغت الأربعين من عمري فقد بدأتُ على الأرجح في الإحساس بشبابي، وشرعتُ في خوض غمار التصرفات الطائشة المجنونة. أما الآن فقد نيفت على الستين من عمري- فأنا الآن في سن الخامسة والستين، يا رَيِّس، وهذا سر فيما بيننا- أقول إنني الآن قد نيفتُ على الستين من عمري، ولكنني أعتقد، يا رَيِّس- كيف أشرح هذا لك؟- أعتقد أن العالم بأسره أضيق من أن يتسع لي!».

قال هذا ورفع كأسه، ثم التفتَ وأومأ بإيماءة ذات مغزى لمدام "أورتانس"، وقال لها بصوتٍ كأنه رسمي: «في صحتك، يا سيدتي النبيلة ومليكتي؛ أتمنى من الله أن تبلغي العامَ الجديد، وأن تنبتَ لك فيه أسنان جديدة، وحواجب جديدة مشرعة كالسيف، وأن يهب لك الله جلدًا جديدًا ناعمًا مثل المرمر، وأن تنزعي عن عنقك هذه الشرائط اللعينة! وأتمنى من الله أن تَهُبَّ جزيرة كزيت مرةً أخرى لتقوم بثورة، وأن تفد إليها، يا غندورتي، القوى الأربع الكبرى بأساطيلها، وأن يكون على رأس كل أسطول قبطانه(*)، وأن تكون لكل قبطان منهم لحية خاصة به، مجعدة

(*) يتهكم هنا زوربا على نطق مدام "أورتانس" لكمة قبطان (أو أدميرال" باليونانية nauarchos) وتنطق (نافارخوس). أما مدام " أورتانس" – لأنها فرنسية ولثغاء،

ومعطرة. وأن تنبثقي أنتِ مرةً أخرى، يا حوريتي، من بين الأمواج، وتشرعي في الترنم بأغنيتك "أمانْ - أمانْ". آه لقد ضِعْنا! وأن تتحطم جميع الأساطيل على هاتين الصخرتين المستديرتين الملفوفتين الوحشيتين!».

قال زوربا هذه الكلمات، ثم مد يده إلى صدر مدام أورتانس، حيث نهداها الملتفان بالصدرية المطرزة بالدانتيلا. كانت الجذوة قد تأججت في صدر زوربا مرةً ثانية، وصار صوته أجش من فرط تباريح العشق. وكنتُ ذات مرة قد شاهدتُ في السينما أحد الباشوات الأتراك وهو يمرح في أحد كباريهات باريس؛ كان الباشا يُجْلِسُ على ركبتيه غادة هيفاء شقراء؛ وكان متأججًا يلتهب من فرط الغضب، وكنتُ ترى قاع طربوشه يرتفع أفقيًا شيئًا فشيئًا؛ إذ لم يكن طربوشه يتحرك في مبدأ الأمر، ثم من بعد ذلك كانت حركة الطربوش تتسارع فيقف منتصبًا في الهواء.

وسألني زوربا: «لماذا تضحك، يا رَيِّس؟». وكانت المدام تركز عقلها في الكلمات التي قالها زوربا، فقالت: «آه! أيمكن لهذه الأمور أن تحدث، يا عزيزي زوربا؟ آه لقد ولى الشباب!». فاقترب منها زوربا أكثر إلى أن التصق المقعدان، ثم قال وهو يسعى جاهدًا لفك الزر الثالث من بلوزتها، وهو الزر الحاسم: «أرجو أن تصغي لما أقول... أجل، فلتصغي لكلماتي، فسوف أقدم إليكِ هدية عظيمة لا مثيل لها: فلقد ظهر طبيب جديد يصنع المعجزات، فهو يعطي لك عقاراً، إما نقاطًا أو مسحوقًا، ولسوف أتهكم عليك، لأنك ستصبحين بعد هذا الدواء في سن العشرين مرةً أخرى، أو

فتنطقها (نك راكوس). [المترجم].

على الأكثر في سن الخامسة والعشرين. فالزمي الصمت، يا سيدتي الغندورة العزيزة، فسوف أطلب لك هذا الدواء من أوروبا...».

ارتعدت "السيرينية" العجوز؛ فتألق وجهها بِشرًا، وغدا جلدها الظاهر بين الشعيرات المتباعدة في رأسها، براقًا متوهجًا. وصاحت: «هل هذا حقيقي؟ أحقًّا ما تقول؟». قالت هذا ثم قذفت بذراعها السميك المغطى بالدانتيلا نحو رقبة زوربا. بعدها استطردت، وهي تصدر صوتًا كالغرغرة القرقرة، وأخذت تلاطف زوربا وتتدلل عليه، قائلة: «لو صح هذا، يا عزيزي زوربا، وكان الدواء قطرات سائلة، فأرجو أن تطلب منه دامجانة (= قنينة كبيرة)؛ أما إذا كان الدواء مسحوقًا....» فقاطعها زوربا قائلًا، وهو يفك الزر الثالث: «سأطلب منه زكيبة (= جوال(*))».

أما القطان اللذان توقفا لبرهة من الوقت عن العراك، فشرعا في الصياح والمواء مرةً أخرى؛ كان قِط منهما يصدر صوتًا حزينًا متوسلاً، في حين كان الصوت الآخر منذراً ومخيفًا... وهنا تثاءبت المرأة وبدأ النعاس يتسلل إلى عينيها؛ بعدها جلست على ركبتي زوربا، وغمغمت بقولها: «أتسمع القطط؟ إنها لا تخجل ولا تستحي.....». قالت هذا ثم انحنت على رقبة زوربا وتنهدت؛ كانت المرأة العجوز قد احتست كميةً كبيرةً من النبيذ، فبدأت عيناها تغرورقان بالدموع. فقال لها زوربا، وهو يدس كف يده في صدرها: «فيم تفكرين، يا غندورتي العزيزة؟ ولماذا اغرَوْرَقت

(*) سبق القول بأن كلمة دامجانة (damizani) موجودة فى لغتنا العامية بالصورة (جمدانة)؛ أما كلمة جوال فتكتب فى اليونانية على الصورة (tsoubali) وتنطق (تسوفالي= شوال). [المترجم].

عيناكِ بالدموع؟». فغمغمت الحورية ذات الأسفار الكثيرة، وهي تنشج وتنتحب: «آه! الإسكندرية... بيروت... اسطانبول... الأتراك... العرب السود... الشربات... أحذية النساء الذهبية... الطرابيش». قالت هذا ثم تنهدت مرةً أخرى، واستطردت قائلة: «عندما كان "علي" بك يمضي الليلة عندي- آه! يا لهما من شاربين! ويا لهما من حاجبين! ويا لهما من ساعدين!- كان بالغ السخاء في دفع المال، وكانت الطبول وآلات "الكلارينيت" تعزف حتى الفجر في فناء منزلي. وكانت جاراتي يستشطن غضبًا لفرط حقدهن وحسدهن، وكن يقلن: "إن "علي" بك موجود مرةً أخرى بصحبة المدام"...... وبعدها في مدينة اسطانبول، لم يكن "سليمان" باشا يدعني أقوم بنزهتي يوم الجمعة حتى لا يشاهدني السلطان، وهو ذاهب إلى المسجد للصلاة؛ فيذهل لفرط جمالي وحسني ويضمني إلى حريمه.... وكان عندما يخرج صباحًا من منزلي، يكلف ثلاثة عبيد سود بالوقوف على بابي حتى لا يقترب منه أي ذكر... آه! آخ! يا عزيزي "سليمان" باشا!». وتناولت منديلها وعضت عليه بأسنانها، وأخذت تصفر بفمها مثل السلحفاة البحرية.

وهنا حملها زوربا ووضعها على المقعد المجاور، ونهض وهو يشتعل غضبا؛ وأخذ يمشي جيئةً وذهابًا مرتين أو ثلاث مرات وهو ينفخ من الغيظ، وكأن الحجرة كانت تطبق على أنفاسه وتضيق، فتناول عصاه بعصبية وانطلق إلى الفناء، ووضع السُلم المجدول من الحبال على الحائط، وشاهدته وهو يصعد على هذا السلم درجتين درجتين. فصحت به: «إلى أين أنت ذاهب، يا زوربا؟ ومَن سوف تضرب؟ هل ستضرب سليمان باشا؟».

فقال: «اللعنة على القطط، إنها لم تتركني في حالي!». وبقفزة واحدة وصل إلى الحجرة. كانت مدام "أورتانس"– بعد أن استبد بها السكر وتناثر شعرُها وغدا مهوشًا منفوشًا– قد أغمضت الآن عينيها الحبيبتين، إذ كان السبات قد قهرها، وأخذها في صحبته إلى المغامرات الكبرى في بلاد الشرق البعيدة: إلى البساتين المسورة، وإلى سلاملك الحريم السابح في الظلمات، وإلى الباشوات المغرمين بها صبابةً. وبعد ذلك، كان النوم يأخذها إلى أعالي البحار، فكانت تحلم بأنها تصيد، وأنها ألقت في البحر– على حد قولها– بأربع قصبات للصيد، فاصطادت بها أربع بوارج بحرية... كانت "السيرينية" العجوز هادئة منتعشة جراء رذاذ البحر، وكان ثغرها يفتر عن ابتسامة مغتبطة أثناء نومها.

دخل زوربا إلى الحجرة وهو يحمل السلم المجدول من الحبال، وما إن رأى المدام تغط في نومها حتى قال: «أهي نائمة؟ هل نامت الخنزيرة؟». فأجبته بقولي: «أجل! لقد أخذها (الطبيب) "بورونوف" الذي يعيد الشباب إلى النساء العجائز، يا عزيزي زوربا باشا، أجل لقد أخذها النوم؛ وهي الآن في سن العشرين، وتتريض في مدينة الإسكندرية وفي بيروت...». فبصق زوربا على الأرض وغمغم: «ألا فلتذهب هذه العاهرة إلى الجحيم! انظر كيف تبتسم! آه يا لها من بغي! هيا بنا نرحل، يا رَيِّس!». وبعدها ارتدى قلنسوته وفتح الباب؛ فقلت له: «أنرحل على هذا النحو ونترك هذه (المسكينة) وحدها؟ أوَليس هذا شيئًا مخزيًا؟». فدمدم زوربا متذمرًا: «إنها ليست وحدها، إنها بصحبة "سليمان" باشا، أفلا تراها؟ إن هذه الأنثى الدنسة موجودة الآن في السماوات السبع؛ هيا بنا!».

خرجنا من المنزل إلى الطريق، وتعرضنا إلى الهواء البارد؛ وكان القمر يبحر هادئًا مثل زورق في صفحة السماء، وكأنه ينتشي الآن من فرط السعادة. قال زوربا آنذاك باشمئزاز: «يا لَلنساء! أُف لهن! (ثم بصق). ولكنكن لستن المسئولات، بل نحن- الحمقى الأغبياء الطائشين- المسئولين، وخاصة مَن هم على غرار "سليمان" باشا وزوربا... لا ريب أنك تعرف الشخص!». فقلت: «لو كان له وجود؛ ولكن ماذا لو لم يكن له وجود؟». فأجاب زوربا: «إذن فلتحتقرهم وتزدريهم».

مضينا في سيرنا سويعات، وحثثنا خطانا في السير، غير أننا لم نتجاذب أطراف الحديث معًا. إذ كان زوربا غارقًا في أفكاره الوحشية الغاضبة، لأنه كان- بين الفينة والأخرى- يضرب بعصاه الحصى والصخور، ثم يبصق في احتقار. وفجأةً توقف واستدار نحوي، وقال: «فليطيب الله ثرى جدي، ولتتقدس عظامه! فلقد كان شخصًا يتقن معرفة النساء، لأنه كان رحمه الله يعشقهن للغاية بدوره، أما هُن فكن قد عذبنه عذابًا مبرحًا وأحلن حياته إلى شقاء. كان يقول لي: "فلتصحبك أمنياتي الطيبة، يا "أليكسي"، بشرط أن تبعد عن النساء وتتقي شرهن! إذ أن الله عندما اختار ضلع آدم- واللعنة على تلك الساعة!- ليخلق منه المرأة، حول الشيطان صورته إلى ثعبان، وهوب! خطف الضلع وذهب به إلى حال سبيله... فتدخل الله وأمسك بالشيطان، فانزلق الأخير مستغلاً نعومة جسده بوصفه ثعبانًا وهرب، ولم يبق منه سوى قرنيه. فقال الرب: "إن ربة البيت المدبرة تغزل حتى بملعقة؛ ولذا فسوف أشكل صورة المرأة من قرني الشيطان". وهكذا خلقها، وغدونا نحن فريسة للشيطان، يا عزيزي "أليكسي". ولذا فحيثما

تلمس المرأة، فإنك تلمس قرن الشيطان، فابتعد عنها، يا بني! فهي التي سرقت التفاحات من الجنة، ودستها في صدرها، وها هي الآن تروح وتغدو وتتنزه وتتباهى وتتفاخر، ألا فليكن الشر رفيقًا لهن في حياتهن! فلو أنك تذوقت طعم هذه التفاحات لَلَقيت حتفك وهلكت؛ وحتى إذا لم تتذوقها فأنت لا محالة هالك. فبماذا أنصحك، يا بني الصغير؟ افعل ما بدا لك!". كان هذا هو ما قاله لي المغفور له جدي، وهذا هو ما أضعه دومًا نصب عيني! فلقد سرتُ على دربه ضد الشيطان!».

كنا نمر عبر القرية ونحن على عجلة من أمرنا؛ وكان القمر يبدو قلقًا يسبب الاضطراب، فتحس وكأنك خرجتَ- بعد أن وقعت فريسة للسُّكر- لكي تتريض في الخارج، فوجدت أن الدنيا قد تغيرت. فلقد غدت الطرقات أنهارًا من الحليب، وامتلأت الحفر عن آخرها بالجير، واكتست الجبال بالثلوج. كما تشعر أن يديك ووجهك ورقبتك تشع بنور فوسفوري وكأنها باطن شعاع متألق، أما القمر فكان أشبه بطِلَّسم أو تعويذة غريبة مستديرة تعلق في صدرك.

كنا نسير بسرعة ونشاط وكأننا فَرَسَان، وحيث إننا نلنا كفايتنا من الشراب، كنا نشعر بأن جسم كل منا خفيف ونشيط، وكأننا كنا نحلق في أجواز الفضاء. وخلفنا في القرية النائمِ أهلُها كانت الكلاب قد انتشرت في الأحياء، وأخذت تواصل النباح الحزين، وعيونها مثبتة على القمر. فكان يخطر ببالك أن تمد عنقك بدورك- بلا سبب- وتبدأ مثلها في العويل.

وكنا نمر الآن عبر بستان الأرملة، فتوقف زوربا عن السير؛ إذ كان النبيذ الذي شربناه، والطعام الذي أكلناه، والقمر الذي يسطع فوقنا، قد

أصابوه بالدوار وجعلوه مشوش الذهن. فمد عنقه وشرع في غناء "سرينادة" كريتية ماجنة بذيئة بصوت غليظ كصوت الحمار. وفي ظني أن هذه "السرينادة" كانت في تلك اللحظة تجيش بصورتها هذه في قلبه، وأنه كيَّفها ونسَّقها في ذهنه:

«آهِ إنني أستمتع بجسدك من خصرِكِ حتى إخمصَ قدمكِ؛
يخرج ثعبانُ البحر من الماء حيًا، لكنه فجأةً يلقى حتفه ويقضي نحبه!».

وبعد أن غنى زوربا "السرينادة" قال: «هذا قرنٌ آخر من قرون الشيطان! هيا بنا، يا رَيِّس!».

كان الفجر على وشك أن ينبلج، عندما وصلنا إلى السقيفة. أما أنا فسقطتُ على السرير مرهقًا، وأما زوربا فقد اغتسل، ثم أشعل موقد الغاز وأعد القهوة. بعدها جلس على الأرض ضامًّا قدميه إلى بعضهما أمام الباب، ثم أشعل سيجارة وأخذ يدخن في هدوء وسكينة؛ كان جسمه منتصبًا وبلا حراك، وكان يتطلع إلى صفحة البحر. اكتسى محياه بالجدية والتركيز؛ وكان أشبه بلوحة يابانية كنت أحبها: وهي لوحة يجلس فيها العابد القرفصاء، وهو يتشح برداء راهبٍ ذي لون برتقالي، وجهه يبرق، ومن حوله كانت أعواد خشبية رفيعة السُّمْك، اسودت بفعل قطرات المطر. وكان العابد يجلس متفكرًا ورقبته مشرعة، وهو مبتسم دون فَرَقٍ أو فزع، وكان أمامه ليل حالك الظلمة...

أخذت أرمق زوربا الذي يسقط عليه ضوء القمر، وأتطلع بإعجاب إلى شجاعته وبساطته في التوافق مع الدنيا، فالجسد والروح بالنسبة إليه

كانا شيئًا واحدًا، كما كان كل شيء: النساء، والخبز، والعقل، والنوم يتوافق عنده مع جسده بطريقة مباشرة، وبابتهاج وغبطة؛ وكان هذا المزيج كله يصبح في خاتمة المطاف هو زوربا. ولم أر أبدًا في حياتي مثل هذا التوافق أو مثل هذه الاستجابة القائمة على الحب والود بين الإنسان وعالمه.

كان القمر يميل نحو الغروب والتلاشي من صفحة السماء، وكان كامل الاستدارة ولونه مائل إلى الخضرة الباهتة؛ كما كان يسكب على صفحة البحر عذوبة تستعصي على التعبير أو الوصف. وفجأة هب زوربا قائمًا من جلسته والسيجارة في فمه، ومد يده وأخذ يفتش في سلة، أخرج منها سلوكًا وأربطة وبكرات وقطعًا من الخشب؛ ثم أشعل القنديل وبدأ في إجراء تجارب على الخط الهوائي الذي ينوي إقامته لنقل كتل الأخشاب. وعندما كان منكبًا على لعبته البدائية، بدأ يتشوش ويُرتَج عليه أثناء إجراء حساباته الصعبة المعقدة بلا جدال؛ ومما يدل على ذلك أنه كان- ما بين الفينة والأخرى- يهرش رأسه بعصبية وجنون، ويلقي بالشتائم التي تنطوي على التجديف. وعلى حين غرة أصابه السأم والملل بصورة كاملة، فركل بقدمه النموذج الذي أعده للخط الهوائي ركلة عنيفة جعلته يتقوض رأسا على عقِب.

(12)

أخذتني سِنةٌ من النوم، وعندما استيقظتُ من نومي كان زوربا قد رحل. كان الجو باردًا، ولم تكن عندي إطلاقًا أدنى رغبة في النهوض من سريري، فمددتُ يدي إلى أحد الرفوف الصغيرة فوقي، وتناولت منه كتابًا كنت أعشقه، وكنتُ قد حملته معي، وهو كتاب يضم قصائد (الشاعر الفرنسي) "مالارميه". قرأتُ أجزاء متفرقة من هذا الكتاب على مهل ثم أغلقته، وبعدها أعدتُ فتحه من جديد ثم ألقيتُ به في تبرم. وبدتْ لي كل هذ المحاولات، للمرة الأولى اليوم- بدون دماء وبدون عطر وبدون جوهر للإنسان- بدتْ مجرد كلمات جوفاء في الهواء مصبوغة باللون الأزرق. أو لعلها كانت مياهًا بالغة النقاء تسقط على شكل قطرات، بدون ميكروبات، وبدون مواصفات غذائية، وبدون حياة.

وكما هو الحال في الديانات البالية الغابرة، فإن الأرباب ينتهي بهم المآل إلى أن يصبحوا "موتيفات" شعرية، أو زخارف تستخدم في تزيين عزلة الإنسان والجدران، تمامًا على غِرار الشعر. أما توق القلب أو اشتياقه،

الملطخ بالطين والحافل بالتراب والبذور، فقد آل به المآل إلى أن يغدو مجرد لعبة ذهنية هندسية عقيمة تتبدد وتذهب أدراج الرياح.

فتحتُ الكتاب مرةً أخرى وعاودتُ القراءة من جديد. وتساءلت: لماذا جذبتني هذه القصائد وأسرتْ لُبي طيلة هذه الأعوام الكثيرة؟ فيا لَه من شعر نقي! لقد غدت الحياة لعبة شفافة خفيفة، لا يثقل كاهلها أبدًا حتى قطرة دماء. فالعنصر المكون لجسم الإنسان ريفي فظ فج عديم النقاوة- وأعني به: العشق، الجسد والصراخ- ولتكن هذه فكرة تجريدية أو مجردة- تنصهر في مِرْجَل العقل، وتتحول من صورة كيميائية إلى صورة كيميائية أخرى، تتجرد من صورتها المادية وتتبعثر وتغدو هباءً منثوراً!

آه كيف بدت لي هذه الأفكار بأسرها صباح اليوم- وهي الأفكار التي كانت قد أغوتني وضللتني للغاية- كيف بدت لي أفكارًا نبيلة سامية، مع أنها حافلة بالدجل والشعوذة، وأشبه بالسير على الحبال! وعلى أية حال، فإن كل صراع للإنسان، في كل حضارة، ينتهي- في خاتمة المطاف- نهايةً مماثلة أشبه بأعمال السحر، أو ينتهي بأحابيل متقنة- أعني ينتهي بالشعر النقي، وبالموسيقى النقية، وبالفكر النقي. أجل، إنه الإنسان الأخير الذي حُرم من الإيمان بمثل ما حُرم من الضلال، الإنسان الذي لا ينتظر شيئًا ولا يخاف من شيء[*]، والذي تحول التراب الذي يشكل قوامه إلى روح، ولم تعد الروح تحظى بمكان تضرب فيه بجذورها كي تستمد غذاءها ونموها...

---

[*] تذكرنا هذه العبارة بالمرثية التى كتبها كزَنتزَاكِيس ودونت على قبره فى جزيرة كريت، وهى: "أنا لا أخاف شيئاً .. أنا لا آمل فى شيء .. أنا لا أنتظر شيئاً .. فأنا حرا". انظر مقدمة المترجم. [المترجم].

لقد غدا الإنسان خاويًا، فلم يعد لديه مَنِيٌّ ولا غائط ولا دماء. ذلك أن كل المواد قد انتهت إلى أن تصبح كلمات، وغدت كل الكلمات معزوفات موسيقية، وها هو الإنسان الأخير يجلس علي آخر حدٍ لعزلته ووحدته، ويشرع في تفكيك الموسيقى إلى نسب رياضية خرساء.

وهنا أجفلت... وصحت قائلًا: إن بوذا هو الإنسان الأخير! وهذا هو سر الفكر الرهيب. إن بوذا هو "الروح النقية" التي غدت خواءً وهباءً، وليس هناك شيء بداخله، فهو العدم! هو اللاشيء! ذلك أنه يصيح: «اجعلوا أحشاءكم وشغاف قلوبكم خاوية، اجعلوا عقولكم صافية، واجعلوا قلوبكم خالية من كل شيء!». فحيثما تطأ قدمه مكانًا، لا ينبثق الماء، ولا ينبت العشب، ولا يولد الطفل. وفكرت- فيما بيني وبين نفسي- أنه ينبغي، عن طريق المقارنات والبخار السحري، أن أحاصره، وأن أغويه، وأن أجعله ينطلق خارجًا من شغاف قلبي، وأن أطرح فوقه شبكة (تحاصره) من الكلمات، وأقبض عليه، ثم أطلق سراحه.

إن الكتابة عن بوذا توقفت عن أن تكون لعبة أدبية، لقد كانت نضالاً مزودًا بقوة عظيمة حافزة داخلي، كانت صراعًا قوامه كلمة «لا» الكبرى التي كانت تلتهم قلبي، وبهذا النضال كانت حياتي معلقة. حملت المخطوط وأنا جِدّ مغتبط، فلقد عثرت الآن على قلبي، كما عرفت الآن المكان الذي أوجه إليه ضربتي! أجل إن بوذا هو الإنسان الأخير، أما نحن فكنا لا نزال في المقدمة، لم نكن نأكل، ولم نكن نشرب، ولم نكن نمنح القبلات بما فيه الكفاية، ولم نحيَ بعد؛ فقبل الأوان جاء هذا الشيخ العتيق الرقيق، فهيًّا بنا ندفعه إلى الرحيل!

وعلى هذا النحو كان هذا الصوت يصرخ داخلي، فشرعت في الكتابة. لم يعد ما أخطه الآن كتابة، لقد كان قتالاً وحربًا، مطاردةً بلا شفقة ولا رحمة، حصارًا وتعويذةً تجعل الفريسة تخرج من عرينها. إن الفن حقًّا طقس ديني سحري، فهناك قوى مظلمة قاتلة للبشر تكمن داخل أحشائنا، وغرائز عنيفة مخيفة نستغلها في القتل والهدم والكراهية والإهانات؛ ويأتي الفن- بنايه السحري العذب- فيحررنا من القيود.

ظللت أكتب وأصارع اليوم بطوله، كما أنفقت المساء أيضًا كله في الكتابة؛ غير أنني كنت واثقًا من أنني قد تقدمت إلى الأمام، كما أنني هيمنت اليوم على بضع قمم وذُرًى سامقة. لم أعد أطيق صبرًا على غياب زوربا، وتشوقت لحضوره، كي أتناول الطعام، وأنام، وأستمد قوة جديدة لكي أبدأ المعركة من جديد مع خيوط الفجر الأولى. وعندما أشعلت القنديل بعد أن حل الظلام، أهل عليَّ زوربا بوجه يتألق بشرًا؛ فقلت فيما بيني وبين نفسي وأنا أنتظر: «لقد وجد الحل! أجل وجده بنفسه!». إذ كنت قد شعرت بالسأم والضجر، وأوضحت له ذلك أول أمس وأنا غاضب بقولي: «لقد نفدت النقود، يا زوربا، فليكن ما يكون بسرعة! دعنا نضع أمامنا الخط الهوائي الذي تعتزم إقامته؛ فإن لم ينجح الفحم، فدعنا نتشبث بالأخشاب. وإلا فقد ضعنا وهلكنا».

هرش زوربا رأسه، وقال: «هل نفدت النقود، يا رَيِّس؟ يا له من سوء، ويا لها من بشاعة!». فقلت له: «هيَّا بنا نتناول الطعام، يا زوربا؛ وهيَّا لتعمل حساباتك! كيف تسير التجارب في الخط الهوائي! هل ما تزال تقوم بها؟». فنكس زوربا رأسه، ولم يحر جوابًا، إذ كان يشعر بالخجل؛ كان هناك

إصرار داخله على الانتصار، وها هو وجهه يتألق بشرًا وحبورًا. ولذا صاح من بعد قائلًا: «لقد وجدتها، يا رَيِّس! لقد وجدت زاوية الميل الصحيحة؛ كانت اللعينة تنزلق وتفر مني وتتملص وتراوغ، غير أنني تمكنت من اقتناصها والإمساك بها!».

فقلت له: «إذن، فامض قُدُماً بسرعة! أطلق قذائفك وضع الدانة في المدفع، يا زوربا! فماذا تحتاج؟ وماذا ينقصك؟». قال زوربا: «غدًا، في الصباح الباكر، ينبغي عليَّ أن أذهب إلى بلدة "كاسترو"، كي أشتري الأغراض اللازمة لي: سلكًا غليظًا من الحديد الصلب، وبكرات يُلَف عليها السلك، وسنادات، ومسامير، وخطاطيف... سوف أذهب وأعود مثل الطائر (=في لمح البصر)».

بعدها أشعل النار بنشاط، وقام بطهي الطعام، وتناولنا وجبتنا، وشربنا النبيذ بشهية عارمة؛ فكلانا كان قد عمل اليوم بجد واجتهاد. وعندما أشرق الصباح بنوره، رافقتُ زوربا حتى القرية؛ كنا نتجاذب أطراف الحديث برزانة ووقار، وبطريقة عملية، إذ تحدثنا عن العمل في المنجم وعن الفحم الحجري؛ وعندما كنا نسير في طريق صاعد، تعثر زوربا في صخرة من الحجر، فبدأت الصخرة تنقلب وتسقط. فتسمر زوربا في مكانه مدهوشًا وكأنها المرة الأولى في حياته التي يشاهد فيها مثل هذا المشهد المثير للدهشة؛ وبعدها استدار وحملق في وجهي، فأمكنني أن ألمح في عينيه ذعرًا طفيفًا. وأخيرًا قال لي: «هل لاحظت ذلك، يا رَيِّس؟ إن الصخور والأحجار التي على هذا الطريق الصاعد تدب فيها الحياة!».

لزمتُ الصمت، ولكن السرور الذي كنتُ أحس به كان بالغًا:

فالحالمون العظام من البشر متماثلون، كما أن أعاظم الشعراء متماثلون، إذ أنهم يرون كل شيء وكأنه يحدثُ أمامهم لأول مرة؛ كما أنهم كل صباح يرون أمامهم عالمًا جديدًا؛ كلا! إنهم لا يرون عالمًا جديدًا، بل هم يوجدونه(*). والعالم كان- بالنسبة إلى زوربا، مثلما كان بالنسبة إلى سائر البشر- رؤيا غليظة مكثفة، فلما لمست النجوم هذا العالم ولطم البحر صدغيه، دبت الحياة- دون وساطة مشوهة من العقل والمنطق- في التراب وفي الماء وفي الحيوان، وفي كل ما هو قدسي.

كانت مدام "أورتانس" قد نما إلى علمها نبأ وصولنا، وكانت تنتظرنا على عتبة باب المنزل، وكانت قد صبغتِ شعرها وذرَّت مسحوق البودرة على وجهها، كما كانت تبدو قلقة؛ وكانت قد بالغت في زينتها وكأنها تتزين لليلة السبت. كان البغل معدًّا جاهزًا خارج الباب، فقفز زوربا وامتطاه وأمسك باللجام واقتربت "السيرينية" العجوز منا والإحساس بالحياء يغمرها، ولمست بذراعها البضة صدر البغل، وكأنها تريد أن تمنع محبوبها من الرحيل. وبعدها غمغمت وهي تمد أطراف أظافرها قائلة: «زوربا،

(*) هذه هي بالضبط طبيعة قدامى اليونان، يشعرون بالدهشة أمام الكون كما لو كانوا يشاهدونه لأول مرة. وقديماً قال أحد الكهنة المصريين لصولون (Solon)، المشرع والشاعر والحكيم: "أنتم معشر الإغريق، لستم إلا أطفالاً بالنسبة لنا، ليست عندكم حكمة واحدة قد وخط الشيب شعرها". وقد فسر الأستاذ باورا Bowra هذه المقولة على أنها تعني أن الإغريق أطفال، بمعنى أنهم يدهشون مثل الأطفال تماماً إزاء الموجودات فى الكون. ومن يفقد روح الطفل يصبح شيخاً ويكف عن الدهشة؛ وبالتالى يكف عن الاختراع والكشف. [المترجم].

زوربا...». فأشاح زوربا بوجهه عنها؛ فلم يكن تروق له مثل هذه المظاهر المفضوحة للتعبير عن العشق على قارعة الطريق. وعندما شاهدت المدام التعسة النظرات التي كان يرمقها بها زوربا ارتجفت؛ غير أن يدها كانت لا تزال تمتد وملؤها الضراعة إلى صدر البغل. فقال لها زوربا بعصبية: «ماذا تبغين؟». فصرخت في توسل وضراعة: «زوربا... ضع في حسبانك ألا تنساني، زوربا... فكِّرْ فيَّ...».

وهنا هز زوربا اللجام دون أن يحير جوابًا، وانطلق البغل يسير في طريقه. فصحت قائلًا: «مع السلامة، يا زوربا! ثلاثة أيام فقط، هل تسمع؟ لا تغب عنا أكثر من ذلك!». فالتفتَ إليَّ ثم حرك ساعده ليزجي إليَّ التحية. أما "السيرينية" العجوز فقد شرعت في البكاء، وأخذت تتطلع تجاهه ما بين الفينة والأخرى، عسى أن يبرق بين أوراق الأشجار الفضية الدثار الأحمر الذي كانت المرأة التعسة قد طرزته ودثرت به محبوبها، كي تقر به عينه ويحتمي من البرد؛ وبعد برهة من الوقت اختفى هذا الدثار فلم تعد تراه. ثم بعد ذلك حملقت مدام "أورتانس" فيما حولها، وأحست أن دنياها قد صارت خاوية.

لم أعد أدراجي من الطريق الساحلي، بل سلكت الطريق الجبلي المرتفع. وقبل أن أمضي قُدمًا في الطريق الضيق الصاعد، سمعت صوت البوق؛ إذ كان ساعي البريد المحلي يعلن للقرية قدومه عن طريق النفخ في البوق. فما إن شاهدني حتى صاح وهو يزجي إليَّ التحية بيده: «تحياتي، يا رَيِّس!». ثم اقترب مني وقدم لي ربطة بها الصحف والمجلات وخطابين. أما الخطاب الأول فقد دسسته بسرعة في جيبي، كي أقوم بقراءته على مهلٍ في

المساء، عندما ينقضي النهار ويصفو الذهن. ذلك أنني كنت أعلم مَن هو الذي دونه وأرسله، وكنت أريد أن أرجئه كي أحتفظ بمزيد من الغبطة والسرور.

أما الخطاب الآخر، فقد تعرفت على مرسله من طريقة الكتابة على المظروف، فهي طريقة عصبية حادة، كما تعرفت عليه أيضًا من طريقته الغريبة غير المألوفة في لصق طابع البريد. فقد كان مرسله زميل دراسة قديم يدعى "كارايانيس"، وكان مقيمًا في أفريقيا، على جبل قريب من تنجانيقا. وكان زميلي القديم هذا غريب الأطوار، حادًّا عنيفًا، داكن البشرة، ذا أسنان ناصعة البياض حادة قاطعة؛ وكانت سِنَّة من أسنانه مماثلة لناب من أنياب الكلب، إذ كانت بارزة نحو الخارج وكأنها ناب خنزير بري. لم يكن يتكلم على الإطلاق، بل كان يصيح ويجأر بصوتٍ عالٍ، ولم يكن يتناقش، بل كان يتشاجر. كان قد رحل عن مسقط رأسه، جزيرة كريت، حيث كان يعمل فيها أستاذًا لعلم اللاهوت، رحل عنها وهو شاب صغير السن يرتدي رداء الكهنوت. كان قد تورط في علاقة غرامية مع طالبة له، وضبطهما نفرٌ من الناس ذات يوم وهما يتبادلان القبلات في الحقول، فأخذوا يصيحون ويصفرون استهجانًا لما يقترفانه. وفي اليوم ذاته طرح هذا الصديق عنه رداء الكهنوت، وركب الباخرة مسافرًا إلى أفريقيا، حيث أقام مع قريب له. وهناك انغمس في العمل، إذ افتتح مصنعًا لعمل الحبال، وجمع ثروة من المال. وكان يكتب لي رسائل ما بين الحين والحين، يدعوني فيها للذهاب والإقامة معه لمدة ستة شهور. وحالما كنت أفتح كل رسالة تأتيني منه، وقبل أن أشرع في قراءتها، كنت أحس بهبوب رياح تندفع

وتتدفق من صفحاتها الكثيرة دائمًا، والمربوطة برباط يلفها معًا، فيقف شعر رأسي. وكلما اتخذت قرارًا بالسفر إلى أفريقيا كي أراه صرفتُ النظر بعدها عن ذلك.

انعطفت من الطريق الضيقة، ثم جلست على صخرة، وشرعت في القراءة:

«متى إذن، أيتها العَلَقَةُ الهيلِّينية، ستتخذ قرارًا وتحضر إلى هنا؟ يخيل إلي أن المآل انتهى بك، أيها الرومي، إلى التسكع على المقاهي. وليت الأمر اقتصر على المقاهي وحدها، فهناك الكتب والعادات والإيديولوجيات الشهيرة. اليوم هو الأحد، وليس عندي عمل، وأنا موجود في المنزل الكائن في ضيعتي، وأفكر فيك. والشمس كاويةٌ مثل الأتون، غير أن هناك قطرات تتساقط من المطر، فالأمطار هنا مثل السيول طوال شهور أبريل، ومايو، ويونيو...

أنا هنا بمفردي تمامًا، وهذا يروق لي، وهنا يوجد عدد من اليونانيين، غير أني لا أريد أن يقع بصري عليهم، فأنا أمقتهم. ويوجد كذلك هيلينيون مثلك، عليكم اللعنة! فلقد حملتم إلينا مرض الجذام المهين الذي ابتليتم به، والذي يلتهم "الأروام"، كما ينهشهم القمار والجهل والجنس سواء بسواء.

كذلك أكره الأوروبيين، ولهذا السبب لُذت هنا بجبال "باسابا". أجل أكره الأوروبيين، وأكره أكثر منهم اليونانيين واللغة اليونانية. ولن تطأ قدمي أبدًا أرض بلاد اليونان مرةً أخرى. فهنا سوف أقضي نحبي، فلقد أمرتهم أن يشيدوا لي قبرًا خارج منزلي في الجبل المنعزل. كما أنني صنعت

شاهد قبري، ونقشت عليه بيدي بحروف كبيرة غليظة مرثيتي التالية (باللغة اليونانية القديمة):

"هنا يرقد يوناني ــــ يمقت اليونانيين ــــ أشد المقت".

فأنا أكاد أقع من فرط الضحك، وأبصق وأسب وألعن، وأبكي عندما أفكر في بلاد اليونان. ولكي لا يقع بصري على أي يوناني، أو تسمع أذني اللغة اليونانية، رحلت غن بلاد اليونان إلى غير رجعة. وأتيت هنا حاملاً قَدَرِي معي– فالقدَرُ ليس هو الذي حملني وأحضرني، بل الإنسان هو الذي يفعل كل ما يبغيه لنفسه– أجل حملتُ قَدري إلى هنا، وعملت مثل الكلب ولا أزال أعمل. وتساقط مني العرق أنهارًا ومدرارًا ولا أزال أعرق. قاتلت التراب والهواء والمطر والعمال، سوداً وحمر الوجوه.

لم أظفر قط بالسرور، بل فقط واصلت العمل، بجسدي وروحي، وكنت أفضل الإرهاق الجسدي على ما سواه. فأنا أبتهج حينما أتعب وأرهق وأعرق، وحينما أسمع بأذني صرير عظامي. غير أنني أزدري المال، فأبدده وأنفقه على نزواتي؛ فأنا لست عبدًا للنقود، بل النقود هي الأَمَةُ عندي. فأنا، وحق شرفي، عبدٌ للعمل، إذ أقطع الأخشاب، كما وقعتُ عقدًا مع الإنجليز لممارسة هذا العمل؛ كما أصنع الحبال، والآن أزرع القطن. ولديَّ عمال كثيرون، سود وحمر الوجوه، ومهجنون خلاسيون، ومؤمنون بالقضاء والقدر، ومدنسون، ومخادعون كاذبون، وفاسقون يمارسون العهر. ومساء الأمس، ألقوا القبض على قبيلتين من السود الذي يعملون عندي، هما: الفاجيايون والفانجونيون، بسبب امرأة، أجل امرأة عاهرة فاجرة. أرأيت كيف وصل الكبرياء بهم! إنه عين ما حدث لكم، أيها الأروام! تبادل

للسباب والإهانات، وضرب بالهراوات، وتحطيم للرؤوس. وشرعت النساء في العدو ليلاً، وأيقظنني وهُن يصرخن، ويتوسلن إليَّ أن أحكم بينهن. استبد بي الغضب فأرسلتهن زمرًا إلى الشرطة الإنجليزية. غير أنهن ظللن طوال الليل خارج باب منزلي وهن يصرخن. وعندما أشرق الصباح بنوره هبطت من الجبل لكي أحكم بينهن.

وغدًا هو يوم الاثنين، سأصعد جبل "باسابا" في ساعة مبكرة من الصباح، حيث الغابات الكثيفة، والمياه الباردة، والخضرة الأبدية... إيه، فمتى تستقر بدورك في مكان لا تبرحه أبدًا، أيها الرومي القادم من بابل، ومن أوروبا "والدة العاهرات والكراهية في العالم"؟ ومتى ستفد إليَّ لنصعد معًا هذه الجبال بالغة النقاء؟

لقد أنجبتُ طفلة أنثى من امرأة سوداء، وقد طردت والدتها لأنها كانت تخدعني وتخونني جهارًا نهارًا(*) تحت أية شجرة خضراء مورقة؛ فأصابني حينئذٍ السأم منها وقمت بطردها، غير أنني احتفظت بالطفلة، وعمرها الآن عامان. وهي تمشي وتبدأ في تعلم الكلام؛ وأعلمها اللغة اليونانية، وكانت العبارة الأولى التي علمتها لها هي: "أبصقُ عليكِ يا أُمَّةَ اليونان! سُحقًا لك يا أُمَّةَ اليونان!" وهذه الطفلة اللعينة تشبهني، غير أن أنفها أفطس ومفلطح مثل أمها. إنني أحبها ولكن مثلما نحب هرة أو كلبًا معنا في المنزل؛ أي مثل حيوان صغير. هيًّا! تعال وأنجب أنت أيضًا من امرأة في منطقة جبل "باسابا" صبيًّا، نزوجه للبنت (عندما يشبان عن الطوق)!".

(*) التعبير اليوناني حرفياً هو: "جعلتنى ذا قرون (keratône)، أى "ديوس" باللغة العربية الفصحى. [المترجم].

تركت الخطاب مفتوحًا فوق ركبتي؛ وومضت داخلي مرةً أخرى لوعة الشوق تجاه الرحيل، لا من منطلق ضرورة الرحيل؛ فأنا على ما يرام في حياتي على هذا الساحل الذي يتسع لي بيسر ودعة، ولا شيء ينقصني. ولكن هذا القلق يكاد يلتهمني، وهو أن أطأ قدر الإمكان كثيرًا من البلاد والبحار قبل أن ألفظ أنفاسي الأخيرة.

نهضت واقفًا، وكان النوم يداعب أجفاني؛ لذا لم أتوجه لأصعد الجبل بل هبطت إلى حيث الساحل. وأحسست في الموضع العلوي من سترتي بوجود الخطاب الآخر. وتبينت أنني احتفظت به دون أن أفضه، إذ كنت أقول لنفسي: "تحمل مليًا لأن الحلاوة شاهد على السرور وبشير بالفرح". وصلت إلى السقيفة، وأشعلت النيران، وأعددتُ لنفسي شايًا، ثم تناولت طعامًا من الخبز والزبد والعسل والبرتقال. بعدها خلعت ملابسي، وتمددت فوق السرير، ثم فتحت الخطاب، وقرأت ما يلي:

«أستاذي ومعلمي، وتلميذي الذي عُمِّد مؤخرًا، تحيةً وسلامًا..

العمل هنا كثيرٌ وشاق، والمجد لك "يا الله". وأنا أضع الكلمة التي توحي بالخطورة بين علامتي تنصيص (كما لو كانت حيوانًا بريًا يوضع داخل أسوار قفص حديدي)، وذلك حتى لا تغضب بمجرد أن تفتح الخطاب. العمل إذن هنا صعبٌ وشاق، والمجد لك "يا الله"! وهناك نصف مليون يوناني معرضون للخطر في جنوب روسيا وفي القوقاز. وكثير منهم لا يتكلمون سوى اللغة التركية أو الروسية، مع أن قلوبهم تتحدث اليونانية بحماسة مفرطة؛ فهم من لحمنا ودمنا. ويكفي أن تراهم لتعرف ذلك: عيونهم وكيف تبرق وتتألق بطريقة تأسر الفؤاد، وشفاههم كيف تبتسم

بدهاء واشتهاء، وكيف ينجحون في أن يكونوا رؤساء أو مشهورين، وكيف يحرصون على أن يكون ضمن صفوفهم في العمل قرويون. يكفي هذا كي تعرف أنهم الأحفاد الحقيقيون لمحبوبك الذي تعشقه "أوديسيوس"(*)؛ وعندئذٍ سوف تحبهم، ولن تتركهم يهلكون أو تدعهم يضيعون.

فهم حقًّا معرضون لخطر الضياع. لقد فقدوا ما يملكون، ولم يعودوا يملكون شيئًا، وهم يعانون من الجوع؛ فـ"البولشفيك" يطاردونهم من ناحية والأكراد يتعقبونهم من ناحية أخرى، كما أنهم محاصرون من جميع الجهات بدول مختلفة، مثل دولة "چيورچيا" ودولة "أرمينيا"، حيث لاذوا بهما بوصفهم لاجئين. وأسوأ من هذا أنهم لا يجدون أغذية ولا ملابس ولا أدوية، وأغلبهم يحتشدون في الموانى، ويتلهفون على مرأى قدوم سفن يونانية تلوح لهم في الأفق البعيد كي تقلهم إلى وطنهم، وكي يعودوا إلى حضن أمهم اليونان. إنهم بلا جدال قطعة من جنسنا، يا معلمي، أي قطعة من أرواحنا يستبد بها الذعر.

ولو أننا تركناهم ليلاقوا مصيرهم فسوف يهلكون؛ ولا بد من وجود

(*) "أدويسيوس" هو بطل ملحمة "الأوديسيه" للشاعر العبقرى الخالد "هوميروس"، وهو ملك جزيرة "إيثاكا"، وزوج "بينيلوبي" الوفية التى ظلت تنتظره عشرين عاماً، عشرة أعوام قضاها محارباً ضد طروادة، وعشرة أعوام أخرى حين ضل طريقة فى رحلة العودة إلى وطنه. خاض أثناءها كثيراً من المغامرات، وعاين كثيراً من الأهوال. وكان كزَنتزَاكِيس يعشق هذا البطل، لدرجة أنه نظم ملحمة بعنوان "الأوديسيه الجديدة" يتغنى فيها ببطولته؛ أنظر مقدمة المترجم. [المترجم].

حب كبير، وعقل حصيف، وحماس وتنظيم عمل- وهذان العاملان الأخيران هما فضيلتان تحبهما أنت للغاية، خاصة حينما يتحدا معًا- إننا بحاجة إلى هذا كله كي نتمكن من إنقاذهم، وكي نستطيع غرسهم في ثرى أرضنا الحرة، هنالك حيث يوجد بالأحرى صالح جنسنا، هنالك حيث حدود مقدونيا الشامخة وما وراء حدود ثراقيا؛ حقًّا إنها لضرورة محتمة! وبهذه الطريقة فقط سوف يتم إنقاذ مئات الآلاف من أرواح اليونانيين، وسوف يتم إنقاذنا أيضًا معهم. وذلك لأنني- منذ اللحظة التي وصلت فيها هنا- قمت بنقش دائرة، متبعًا تعاليمك يا معلمي، أسميتها "واجبي". وقلت لنفسي: "لو أنني حافظت حقًّا على هذه الدائرة فسوف أنجو، ولو لم أنجُ فسوف أهلك!". وفي وسط هذه الدائرة يوجد هؤلاء النصف مليون يوناني.

وحاليًا أنا أجوب مختلف البقاع والأماكن، وأجمع شمل اليونانيين، وأعد المذكرات والالتماسات، وأرسل البرقيات، وأجاهد كي أقنع المسئولين، أولي الأمر، أن يرسلوا لهم سفنًا، وأغذية، وملابس، وأدوية، وأن ينقلوا كل هذه الأرواح المعذبة إلى بلاد اليونان. ولو أنه قُدر لي أن أناضل بمثل هذا الإصرار، فإن هذا هو مبلغ سعادتي وسأحس بالهناء. غير أنني لست أدري ما إذا كنت- حسب قولك- قد جعلت السعادة متناسبة مع معايير قامتي أم لا؛ ألا ليت هذا يكون صحيحًا! لأنه عندئذٍ ستكون قامتي فارعة. وعلى أية حال، فإنني أفضل أن أفرد قامتي كي تكون مساوية لما أعتبره سعادتي، أي مساوية لحدود بلاد اليونان القصوى. ولكن دعني لا أنزلق إلى صياغة نظريات؛ فوحق حياتك عندي، فإنك- يا مَن تتمدد

على الساحل الكريتي، وتسمع هدير مياه البحر، ونغمات آلة القانون- لديك الوقت لذلك، أما أنا فلا وقت عندي. إن نشاطي يلتهم كل وقتي... والفعل، أجل الفعل، هو معقد أملي ومناط فكري، وليس هناك من خلاص سواه. وفي البدء كان الفعل، وفي الختام سيكون الفعل(*).

والآن، فإن فكري غدا في غاية البساطة ويسير في اتجاه واحد كما يلي: فهؤلاء اليونانيون الذين يعيشون على سواحل البحر الأسود وفي القوقاز، وهؤلاء اليونانيون الريفيون في بلاد "القرش"، والمشتغلون بالتجارة في مدن "تبليسي" "وباطوم" "ونوفوروسيسك" و"روستوف" "وأوديسا" "وكريميا"، هم بنو جلدتنا ومن دمنا، كما أنهم مثلنا يتخذون داخل أرواحهم المدينة (اسطنبول) عاصمةً لهم. وجميعنا يرأسهم الرئيس ذاته، الذي تسميه أنت "أوديسيوس"، ويسميه آخرون "قسطنطين باليولوجوس(**)"، وهو بالأحرى ليس هذا الذي تم اغتياله، بل هو الآخر المصوغ من المرمر والمنسوج من الأساطير. وعن نفسي فإنني أسمي- من بعد إذنك- رئيس جنسنا اليوناني باسم "أكريتاس(***)". فهذه الكلمة التي هي اسم له تروقني للغاية، كما أنها قوية شديدة المراس ومقاتلة، لأنك ما

(*) فى هذه المقولة إسقاط ومعارضة للمقولة التى جاءت فى أول إنجيل "يوحنا": "فى البدء كانت الكلمة ..." [المترجم].

(**) "باليولوجوس" هو أحد قادة البزنطيين الكبار من ذوي الشهرة الذائعة. [المترجم].

(***) "ديجينيس أكريتاس" واحدٌ من أكبر أبطال اليونان من أواخر العصر البيزنطى. دونت لسيرته ملحمة من أشهر الملاحم فى الأدب اليونانى الحديث. انظر مقدمة كتابنا "مختارات من الشعر اليونانى الحديث"، المركز القوى للترجمة، القاهرة، عام (2000). [المترجم].

إن تسمعها حتى ينتفض داخلك المحارب اليوناني الخالد ثقيل العناد، الذي يحارب دون توقف عند أقاصي الحدود. أجل إنه يناضل في كل الحدود، قومية وروحية ونفسية. وعندما تضيف إليه اسمه الأول "ديجينيس"، فإنك بهذا تحكي بعمق تاريخ أرومتنا الهيلِّينية التي هي مزيج تركيبي رائع يجمع بين الشرق والغرب.

وأنا الآن موجود في بلاد "القَرْش"، التي ذهبت إليها لكي أجمع- من جميع البقاع المجاورة- اليونانيين، وفي اليوم ذاته الذي وصلت فيه، وجدت أن الأكراد قد قبضوا- من مكان خارج بلاد " القَرْش"- على قس ومدرس يونانيين، وسمروا في أقدامهما حدوات كأنهما من البغال. ولقد أصاب اليونانيين جميعًا الرعب والفزع، فتجمعوا في المنزل الذي كنت أتخذه مأوًى لي؛ وسمعنا آنذاك من قريب أصوات دانات المدافع التي يطلقها الأكراد وهي تقترب منا. وتسمرت نظرات الجميع على وجهي، وكأنني أملك القوة الكفيلة بإنقاذهم من محنتهم.

كان عليَّ الرحيل في اليوم التالي إلى مدينة "تبليسي"(*)، غير أنني آنذاك انتابني الخجل من الرحيل إزاء هذا الخطر المحدق الداهم. فلبثت مكاني، ولا أصف لك مدى ما كان ينتابني من رعب. أجل كنت أخاف، ولكنني كنت أحس بالخجل، ولم يكن "المحارب" في لوحة الرسام "رمبرانت" ليفعل شيئًا أكثر مما فعلت؛ أجل إنه كان سيقرر البقاء، ولذا بقيت بدوري. ولو أن الأكراد ولجوا ودخلوا عليَّ لكان من الطبيعي ومن حقهم أن يسمروا

(*) عاصمة دولة جورجيا السوفيتية سابقاً، والمستقلة حالياً. [المترجم].

الحدوة في قدمي قبل أي شخص آخر. وأنا أعرف أنك لم تتوقع أبدًا مثل تلك النهاية لتلميذك، يا معلمي، وهي أن يغدو مثل البغل سواء بسواء.

وبعد مشادة كلامية حادة باللغة اليونانية، اتخذنا قرارًا بأن يتجمع اليونانيون بأسرهم هذه الليلة، ومعهم بغالهم وأفراسهم وماشيتهم وأغنامهم، ونساؤهم وأطفالهم، وأن نتحرك جميعًا فجرًا إلى الشمال، وأن أسير أنا في المقدمة كالكبش الذي يقود القطيع.

كانت هجرة بطريركية الشَّعْبِ عبر سلاسل الجبال والسهول تضم أسماء أسطورية. وأنا سوف أكون مماثلاً إلى حدٍّ ما للنبي "موسى"- ودعني أقول "موسى الزائف" الذي سوف أقود الشعب المختار إلى أرض الميعاد، التي هي بلاد اليونان. وكان عليَّ حقًّا لكي أحظى بسمو رسالة النبي "موسى"، ولكى لا أجلب لك العار، أن ألقى بعيدًا بالجرنوق الأنيق الذي يغطي الساقين (= التُزْلُك) الذي طالما سخرت منه، وأن ألف هذا "التُزْلُك" في جلد شاة؛ وأن أنحي بعيدًا عني تلك اللحى الشعثاء الزاخرة بالدهن، وأهم من هذا كله القَرْنين. ولكن وا أسفاه! لن أفعل هذا إكرامًا لخاطرك؛ فمن الأسهل عليك أن تتمكن من أن تجعلني أغير روحي من أن أبدل ملابسي وزيي. فأنا أحب أن ألبس "التُزْلُك" في ساقي، كما أنني حليق اللحية مثل ثمرة الكرنب، وكذلك أعزب.

معلمي الحبيب، آمل أن تتلقى خطابي هذا الذي ربما يكون آخر رسالة مني إليك. فلا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث. ولا أثق في القوى السرية الغامضة التي ربما تحمي البشر. لكنني أثق في القوى العمياء التي تضرب يمنةً ويسرةً دون شر أو ضغينة، ودون قصد أو هدف، وتقتل كل

مَن يتصادف أن يقترب منها. ولو قُدر لي أن أرحل عن هذه الأرض (وأقول "أرحل" حتى لا أنطق باللفظة الحرفية فترتعد، لأنني أنا نفسي أرتعد عند سماعها)، أجل! لو قُدر لي إذن أن أرحل عن هذه الأرض، فأتمنى لك الصحة، يا معلمي الحبيب، وإنني لأستحي أن أقول ذلك، ولكن يتعين علي قوله، أقول سامحني؛ أما أنا فإني أحبك حبًا لا مزيد عليه(*)».

ووجدت أسفل الخطاب بالقلم الرصاص وبخط سريع متعجل ما يلي:

«تذييل PS: لم أنس الاتفاق الذي عقدناه معًا في الباخرة عندما كنت راحلاً. ولو قدر لي أن "أرحل" فسوف أحيطك علمًا، فلتعرف ذلك، أيًا كان المكان الذي ستكون فيه، ولا ترتجف فَرَقًا».

(*) لعل القارئ يلاحظ أن خطاب الصديق الأول الذى ورد فى هذا الفصل ينضح بالكراهية والمقت، لأن صاحبه طرد شر طردة من بلاد اليونان، واضطر إلى الهجرة. أما الخطاب الثاني فيزخر بالحب تجاه جنس اليونانيين، وصاحبه يود أن يموت فداءً لهم وفى سبيلهم. [المترجم].

(13)

انصرمت أيام ثلاثة، وانقضت أيام أربعة، ومضت أيام خمسة، لكن لم يظهر أي أثر لزوربا. ولكن بعد مرور ما يزيد على ستة أيام تسلمتُ رسالة متعددة الصفحات من زوربا الذي ذهب إلى مدينه كاسترو، وكانت رسالة ذات رائحة منفرة؛ إذ كانت مدونة على ورقة وردية معطرة، وصور عليها في ركنها الأعلى قلب غرس فيه مباشرة سهم. حافظتُ على الرسالة بعناية وحرص، وأنا أعيد كتابتها هنا بكل ما فيها من كلمات متكلفة غير مألوفة، متناثرة هنا وهنالك. إذ كان زوربا يمسك الريشة وكأنه يمسك مطرقة، وكان يضرب بها الأوراق بقوة، ولهذا السبب كانت الأوراق- في مواضع كثيرة- ممزقة، وفي مواضع أخرى كانت هناك بقع ولطخ من الحبر:

«رئيسي المحبوب، سيدي القائد! أبدأ أولاً بالسؤال عن صحتك، راجيًا أن تنعم بكل العافية، وثانيًا أحيطك علمًا بأننا هنا نتمتع بصحة طيبة، وشكرًا لله على نعمائه. وقبل أي شيء آخر فأنا موقن بأنني لم آت إلى هذه الدنيا فرساً أو ثورًا، فالحيوانات وحدها هي التي تحيا لتأكل. ولكي،

أتحاشى أن أُوضع في هذا التصنيف سابق الذكر، فإنني أمارس عملي ليلاً ونهارًا، وأخاطر بلقمة عيشي للحصول على مجرد فكرة، وأنا هنا أقلب القول المأثور رأسًا على عقب، فأقول: "الحصول على عشرة بعد ترقب وانتظار، أفضل من خمسة في متناول اليد (بلا جهد)". فكثيرون هم الوطنيون بغير انتظار للغُنم والفائدة، أما أنا فلست وطنيًا حتى لو تعرضت للضرر والغُرم؛ كثيرون يؤمنون بالجنة وهم واثقون من وجودها تمام الثقة، أما أنا فلا ثقة عندي في ذلك(*)، وأنا إنسان حُر، لا أخشى نار الجحيم، وليس عندي حمار أمتطيه ليوصلني، ولو كان عندي فسوف يهلك في هذه النار. كما أنني أُمي لا أعرف القراءة والكتابة، ولا أحسن الكلام، ولكن وحياتك عندي، يا رَيِّس، أنت تفهم ما أقول.

إن الكثيرين يخافون من العبث والباطل، غير أنني قهرت العبثية؛ كثيرون يفكرون، غير أنني لست بحاجة إلى أن أفكر. وأنا لا أفرح بما هو خير ولا أحزن على ما هو شر؛ ولو أنني علمت أن اليونانيين استولوا على مدينة اسطنبول، لكان الأمر مساويًا عندي لاحتلال الأتراك مدينة أثينا. وإن تك تفهم مما أكتبه لك أنني (أهذي لأنني) بلغت مبلغ الشيخوخة فاكتب لي هذا، فأنا الآن أرتاد متاجر مدينة كاسترو كي أشتري حبلاً من السلك من أجل خطنا الهوائي المزمع لنقل الأخشاب، وأضحك. والناس

(*) التعبير حرفياً هو: "echoun demeno to gaidaro; ego den echô gaidaro" ومعناه الحرفي: "لقد شدوا وثاق حمارهم، أما أنا فليس عندى حمار لأوثقة". ويقال هذا التعبير كناية عن الثقة التى تصل إلى حد اليقين. ولقد فضلت إيراد المعنى بعيداً عن المدلول الحرفي. [المترجم].

تقول لي: "لماذا تضحك أيها العرَّاب؟". ولكن أنَّى لي أن أقيم لهم وزنًا، أو حسابًا! فأنا أضحك لأنني فجأةً وأنا أمد يدي كي ألمس السلك وأعاينه، كي يتبين لي ما إذا كان جيدًا من عدمه، أتفكر في ماهية الإنسان، ولماذا قدِم إلى الحياة، وما فائدته أو جدواه... وأنا أفكر في العدم. فكل الأمور عندي سواء، وكل شيء يتساوى مع أي شيء؛ يتساوى عندي أن تكون عندي امرأة أو لا أحظى بامرأة؛ أن أكون شريفًا أو أن أكون وغدًا؛ أن أكون من البكوات أو حمَّالا؛ كل ما يهمني فحسب هو أن أكون على قيد الحياة لا ميتًا، فهذا أمر جِدّ مختلف في نظري.

وسواء عندي أن أذهب إلى الشيطان أو إلى الله (فماذا أقول لك، يا رَيِّس؟ يخيل لي أن الأمر سيان)، فلا ريب أنني سألقى حتفي في الحالتين، وسوف أصبح دنسًا يبعث على الغثيان، إذ أنني سألوث العالم كله، وسوف يضطر هذا العالم إلى دفني حتى لا يصاب بالاختناق. والآن خطر على بالي أن أسالك سؤالاً، يا رَيِّس، عن أمر أَفْرَقُ منه أشد الفَرَقِ ولا أخشى شيئًا سواه، وهو خاطر لا يبارحني ليلاً ولا نهارًا، ولا يدعني أهدأ أو أهجع للراحة: هذا الأمر هو الشيخوخة التي ترعبني، يا رَيِّس، وأعوذ بالله منها! فالموت ذاته ليس بذي خطر بالنسبة لي، فهو مجرد نفثة تطفئ نور الشمعة؛ أما الشيخوخة فهي عار ثقيل الوطأة.

أجل إنه عارٌ وبيل للغاية أن أفكر في الاعتراف بأنني شيخ طاعن في السن، وأعمل كل ما في وسعي كي لا يتناهى إلى أذن أحد خبر بلوغي سن الشيخوخة، ولذا فأنا أقفز وأرقص حتى أحس بالألم في كليتي، ومع ذلك أستمر في الرقص. كذلك أشرب الخمر حتى يصيبني الدوار وتلف بي الدنيا،

غير أنني أقف منتصبًا في استواء كما لو أنني غير مصاب بالدوار. وعندما يتصبب مني العرق أغطس في مياه البحر؛ وعندما أصاب بنزلة برد ويغلبني السعال، فأسعل وأسعل، كي أخفف وطأة نزلة البرد عن نفسي، أشعر بالخجل، يا رَيِّس، فأُرْجِعُ السعَال من جديد إلى حلقي. ولذا فأنا أسألك: هل سمعتني قط أسعل؟ لا أبدًا ! ولا تقل إنني كنت أخجل لأن هناك آخرين كانوا واقفين أمامي، أو لأنني لم أكن وحدي. فالحق إنني أشعر بالخجل من زوربا ذاته، يا رَيِّس، فماذا عليَّ أن أقول لك؟ إنني بالفعل أخجل منه!

وذات مرة ذهبت إلى الجبل المقدس (في شبه جزيرة خالكيذيكي)، حيث انكسرت قدمي، وتعرفت هناك إلى راهب هو الأب لاڤرينتيوس، وكان مسقط رأسه جزيرة خيوس، ويخيل إلي أن الشيطان كان يتلبس هذا اللعين الماكر، لدرجة أن الراهب كان يطلق عليه اسمًا بالفعل، إذ كان يسمى الشيطان خوجة (= فقيه أو جحا بالتركية). فكان التعس لاڤرنتيوس أحيانًا ما يضرب رأسه في عتبة باب الكنيسة، ويجأر صائحًا بصوت عال: «الخوجة يريد أن يتناول اللحم يوم الجمعة الحزينة!»، أو يصيح: «إن الخوجة يريد أن يضاجع امرأة! إن الخوجة يريد أن يقابل رئيس الديرا إنه الخوجة الذي يريد ولست أنا من يريد!». ويظل يردد هذا إلى أن يضرب جبهته في الحجر.

وأنا على هذا النحو، يا رَيِّس، أحس أن هناك شيطانًا بداخلي اسمه زوربا. وزوربا هذا الذي هو بداخلي لا يريد أن يشيخ أو يطعن في السن؛ أجل لا يريد، لا لن يشيخ، لأنه تنين شعره فاحم السواد، وله اثنتان

وثلاثون سنًّا في فمه (أسنانه كاملة لم تسقط)، ويضع زهرة قرنفل خلف أذنه. أما زوربا الذي هو خارجي، فهو مسكين يبول، نبتت له شعيرات بيضاء فى رأسه، وجهه متغضن وجسمه مليء بالتجاعيد، سقطت أسنانه، وكست الشعيرات البيضاء- التي تشبه شعر الحمير- مواضع كثيرة من جسمه.

فماذا عليّ أن أفعل يا رَيِّس؟ وإلى متى سيظل زوربا الخارجي وقرينه الداخلي يتصارعان؟ ومَن منهما سيقدر له الفوز والانتصار في خاتمة المطاف؟ فلو أنني قضيت نحبي سريعًا فسيكون الأمر على ما يرام، فأنا على ثقة من ذلك؛ ولكن لو قُدر لي أن أحيا طويلاً بعد الآن فسيكون أمري قد انتهى وضعت؛ آه لقد ضعت، يا رَيِّس، وسوف يأتي يوم أُهان فيه وتضيع كرامتي. سوف أفقد حريتي، وسوف توجه لي الأوامر كلٌّ من عروسي وابنتي كي أعتني بوحش ضار معوج، هو ابنهما، حتى لا يكتوى بالنار ولا يسقط أو يتسخ؛ ولو أنه لوث نفسه لتحتم عليّ أن أجلس، وأُف على هذا! كي أنظفه من الأوساخ!

ولا ريب، يا رَيِّس أنك سوف تكابد هذه المصاعب كلها، وحق حياتك عندي، فلتفكر بعقلك وأنت لا تزال شابًّا! ولهذا أرجو أن تصغي إلى ما سوف أقوله لك، سر على الطريق ذاتها التي سلكتها أنا، فليس هناك خلاص ولا منجاة سواها. فهيا بنا نتجه إلى الجبال، ونستخرج الفحم الحجري والنحاس والحديد والمغنيسيوم، ونربح أموالاً كثيرة، فيهابُنا الأقرباء، ويتزلف إلينا الأصدقاء، أما السادة- من ذوي الشأن- فسوف يرفعون لنا القبعات؛ فإذا لم ننجح في هذا المشروع فالموت أفضل، يا رَيِّس،

من الذئاب ومن الدببة، بل إنه أفضل من أي حيوان مفترس يوجد أمامنا، فهذا حقه الذي يستحقه! ومن أجل هذا السبب أوجد الله الحيوانات البرية في الكون، لكي تتغذى علي نفرٍ منا من أجل ألا تنقرض».

وهنا كان زوربا قد رسم بأقلام ملونة إنسانًا طويل القامة ناتئ العظام، يجري تحت الأشجار الخضراء، وخلفه تعدو سبعة ذئاب حمراء اللون تبغي اقتناصه والفتك به، ثم كتب تحت الرسم- بحروف غليظة كبيرة- العبارة التالية: «زوربا والخطايا السبع». وبعدها تابع خطابه لي قائلًا:

«أتخيل أنك سوف تفهم من خطابي هذا أنني إنسان بالغ التعاسة، وأنني فى صحبتك فقط أحظى بقدر ضئيل من الأمل عندما نتحادث سوياً، حينئذٍ أتخفف من وطأة الاكتئاب والهواجس التي تنتابني. وذلك لأنك- رغم سماحتك ونُبل شمائلك- شديد الشبه بي دون أن تدرك ذلك؛ فبداخلك أنت أيضًا الشيطان، ولكنك حتى الآن لا تعرف ماذا تسميه. وحيث إنك لا تعرف اسمه، فإنك تكاد تذوي وتختنق؛ فأرجوك، يا رَيِّس، عَمِّدْه وأرح نفسك.

قلت لك إذن إنني بائس وتعس للغاية، وأري بوضوح أن ذكائي بأسره ما هو إلا حماقة، ولا شيء سواها، ومع ذلك تمر عليَّ لحظات تجعلني أمضي وأنا أفكر أيامًا بعقل إنسان عظيم، ولو أنني قد استطعتُ أن أضع ما يأمرني به زوربا- الذي هو بداخلي- موضع التنفيذ، لأصيب العالم بالحيرة والذهول.

وحيث إنني لم أعقد اتفاقًا يقضي بتحديد المدة الزمنية التى سينتهي بها أجلي في حياتي، فإنني أستخدم الكابح لكَبْح جماح السرعة عندما أصل

إلي منحني الخطر، فحياة كل إنسان عبارة عن خط صاعد هابط، وهي في كل مرحلة معرفية من مراحلها مصحوبة بالكابح (= الفرملة)، أما فيما يتعلق بي، يا رَيِّس، فهنا تكمن قيمتي، إذا أنني طوحتُ بعيدًا- منذ أمد بعيد- بالكابح الذي يَكْبَحُ جماحي، لأن المطبات والعوائق لم تعد تخيفني؛ ونحن معشر العمال، نسمي العائق خروجًا عن المسار أو انحرافًا. ولتحل اللعنة علي رأسي لو أنني انتبهت للعوائق التي أتسبب فيها، فإنني أعدو وأهرول ليلاً ونهارًا علي جناح السرعة بلا روية، وأُرْضي مزاجي حتى لو تحطمتُ وغدوتُ هباءً منثوراً؛ فماذا سوف أخسر؟ لا شيء! فهل عساي ألا أنكسر لو سرتُ في حياتي بتعقل؟ كلا، سوف أنكسر؛ فلأشعل إذن الفتيل من الآن فصاعدًا!

ولا ريب أنك الآن، يا رَيِّس، تضحك على ما أقول، ولكنني أكتب لك تهويماتي الحمقاء، أو مثلما نقول أفكاري، أو أكتب لك عن نقاط ضعفي. ولكن- بحق الله- ما هو الفرق بين التهويمات والأفكار ونقاط الضعف؟ فأنا لا أرى فرقًا بين الثلاثة! يكفي أنني أكتب إليك لتضحك، إن لم تصَب بالملل. ودعني أنا أضحك بناءً علي ضحكك؛ وبالتالي لن يكون للضحكات في الدنيا نهاية. فكل إنسان له جنونه الخاص به، غير أن أشد أنواع الجنون في تصوري هو ألا نجنحَ إلى الجنون.

لقد تدارستُ وتأملتُ إذن هنا في مدينة كاسترو مظاهر خبلي وجنوني، وها أنذا أكتب لك عنها بالتفصيل، لأنني أنشد أن أحظى بنصيحتِك. فلا تزال، يا رَيِّس، في ريعانِ شبابك، وهذه حقيقة لا جدال فيها؛ بيد أنك لا ريب قد قرأتَ وطالعتَ حِكَماً قديمة، وغدوتَ- وسامحني في هذا القول-

مسِنًا إلي حدٍّ ما، ولذا فإنني أريد نصيحتَك.

حسنًا! إنني أعتقد أن كل إنسان تنبعث منه رائحة مميزة له؛ ونحن لا نفهم لماذا نخلط بين الروائح، ولا نعرف ما هي رائحتك، وفيم تختلف عن رائحتي؛ إن ما نفهمه فحسب هو أن الهواء يحمل لنا رائحة مقززة نسميها رائحة بشرية. وهناك آخرون يشمونها علي أنها رائحة بخور عطرة، في حين أشمها أنا فتصيبني بالغثيان. ولكن دعنا من هذا، فهذه قصة أخرى.

كنتُ أبغي أن أقول- ولكني كدتُ لبرهة أن أفقد السيطرة علي الكابح- كنتُ أريدُ أن أقول إن النساء عديمات الحياء، يملكن أنفًا سائلاً مثل خَطْمِ الكلب، وبالتالي فإنهن يلتقطن بسرعة الرائحة المنبعثة من الرجال، ويعرفن منها الرجل الذي يتحرق شوقًا إليهن، والرجل الذي يعافهن أو ينفر منهن– ومن أجل هذا السبب فإنني حينما أسير أو أتريض في أيه مدينة حتى هذه اللحظة– حتى لو كنت طاعناً في السن ودميماً رث الثياب- أجد امرأتين أو ثلاثًا يهرعن خلفي دومًا ويطاردنني. وهنا يبدأن- مثل كلاب الصيد البوليسية- في اقتفاء أثري، فليَكلأْهُن الله برعايته!

لذا ففي أول يوم وصلت فيه بالسلامة إلي مدينة كاسترو، كان الغسق قد حلَّ، ولفَّ المساء المدينة بغلالته، فعدوت بسرعة لأدورَ علي المتاجر، غير أنني وجدت أبوابها مغلقة؛ فيممت شطرَ نُزلٍ، وهناك قيدت البغل الذي كنت أركبه، وقدمتُ له الطعام فالتهمه دون إبطاء، كما تناولتُ بدوري طعامي، بعدها اغتسلتُ وأشعلتُ لفافة تبغ، ثم خرجتُ لكي أقوم بنزهة. لم أكن أعرف مخلوقًا في المدينة، ولم يكن يعرفني أحدٌ فيها؛ إذ أنني كنت حرًّا غير مقيد بأي عمل، وكان بوسعي أن أصفر في الطريق، وأن

أضحك، وأن أحادث نفسي. فابتعت كيسًا من بذور اليقطين المشوية، وأخذت أتسلى بالتهامها وبصق قشورها أثناء نزهتي. وهنا أضاءت مصابيح الطريق، وشرع الرجال في احتساء شراب الأوزو (= العَرَقي)، أما أفراد الجنس اللطيف من الغادات الفاتنات فطفقن يعدن إلى منازلهن، ويملأن الجو بروائح البودرة والصابون المعطر، وبالمقبِّلات التي قوامها السوفْلاكيا (= الشاورمة). ساعتها، قلت لنفسي «إيه، يا زوربا، إلي متي ستحيا، أيها الغر، وأنت تفتح منخاريك وتغلقهما، فما هي إلا برهة قصيرة، أيها التعس، وتنبعث منك رائحتك، فخذ نفَسًا عميقًا وامض في طريقك».

لذا أخذتُ نفسًا عميقًا، وأخذتُ أذرع الميدان الفسيح الذي تعرفه جيئةً وذهابًا. وهناك سمعت فجأةً غناء ورقصًا ونقرًا علي الدفوف، انسابت بعده آهات الحب الملتاعة؛ أرهفتُ السمع، ثم هرعتُ إلي حيث الدندنة والطنطنة. ووجدت أن هذه الأصوات تنبعث من مقهى به أغاني حب، ولم أكن أريد غير هذا، فولجت فيه وهناك جلست إلي مائدة في صدر المقهى تقع في الصف الأول. فلماذا ينتابني الخجل والحياء، لقد سبق أن قلت لك إنني حُر، ولا مخلوق في هذه المدينة يعرفني!

كانت هناك طبلة كبيرة علي المنصة تصدح منها الأنغام التي ترقص عليها راقصة ترفع تنورتها تارةً ثم تسدلها تارةً أخري، غير أنني لم أكلف نفسي عناء الالتفات إليها، وطلبت من النادل أن يحضر لي زجاجة من الجعة، فجاءت- وحياتك!- فتاة في ريعان الشباب مليحة فاتنة، وجلست بجواري، كانت مثل قطعة من الشيكولاتة، أو مثل إناء من الخزف الأسود اللامع! ثم قالتْ وهي تبتسم: «هل تسمح لي بالجلوس، ياجِدِّي؟».

شعرتُ بالنارِ اللافحة تسري في جسمي، وخطر علي بالي أن أطبق علي حنجرة هذه الفتاة الغِرَّة التي تشعرني بشيخوختي! غير أنني تحملتها، وشعرت بالحزن علي جنس النساء. فناديت علي النادل وطلبت منه أن يحضر كأسين من الشمبانيا! وأرجو أن تغفر لي، يا رَيِّس، فقد بددتُ كثيرًا من نقودك ليلتها، ولكن الإهانة التي أحسستُ بها كانت كبيرة. وكان ينبغي عليَّ ألا أخجل وألا أجعلك تخجل وحياتك عندي، يا رَيِّس. كان يجب عليَّ أن أجعل هذه الفتاة الصغيرة الخرقاء تركع أمامنا، أجل كان ينبغي عليَّ أن أفعل ذلك، ولكنك لم تكن ستدعني أفعل هذا، فأنا أعرفِكَ حق المعرفة، وأعرف أنك- في مثل هذه الأحوال- تكون أعزل بلا حماية. طلبتُ إذن من النادل أن يحضر كأسين من الشمبانيا، وجاءت الشمبانيا، ثم طلبتُ حلويَ ومزيدًا من الشمبانيا، بعدها مر شخصٌ يبيع زهور الياسمين، فاشتريت منه سلة الزهور بأسرها، وأفرغتُها تحت قدمي الفتاة.

شرعنا في احتساء الشراب. أجل شربنا كثيرًا، ولكني أقسم لك، يا رَيِّس، أنني لم أقرب الفتاة ولم ألمسها، فأنا أعرف مهمتي خير معرفة. وعندما كنتُ شابًّا كان أول شيء فعلته هو لمس الفتاة التي تروق لي، والآن بعد أن صرت مسنا فأول شيء أفعله هو أن أنفقَ المالَ كي أوقعها في حبائلي.

قصارى القول أنني تعلمتُ أن أكون سخيًّا كريمًا، وأن أنثرَ النقود بلا مبالاة، فالنساء مولعات إلي حد الجنون بمثل هذا المسلك من جانب الرجال، كما تستهويهن طرائق الرجال في التغزل بالنساء؛ فحتى لو كنتَ

أحدب أو عاجزًا أو وغدًا مداهنًا، فهم ينسون كل هذه الصفات المنفرة طالما كنتَ سخيًّا كريمًا. إن هؤلاء النساء النكرات الملوثات لا يرين شيئًا أبدًا سوي اليد التي تبعثر النقودَ عليهن.

أخذتُ إذن أنفقُ المال عليها- وليزِدكَ الله ثراءً علي ثراء ويحفظك، يارَيِّس، من كل سوء! أجل أخذتُ أنفقُ المال وأبعثره، فازدادت الفتاة اللعوب التصاقًا بي وقربًا. كانت تقتربُ مني شيئًا فشيئًا، وتكاد تلتصق بي بل كانت تضغط بركبتها علي ساقي، غير أنني ظللتُ ثابتًا بلا حراك مثل المرمر، رغم أنني كنت أذوب في أعماقي. وحرِيٌّ بك أن تعرف أن مثل هذا التمنع أو الاستعصاء- لو واتتك الفرصة لفعله- كفيلٌ بأن يسلم المرأة إلي الولع بجنون، أي حينما تشعر المرأة بأنك تحترق من الداخل، لكنك قادر مع ذلك على ألا تمد يدك نحوها.

وعلي أيه حال- حتى لا أطيل عليك- فقد اقتربنا من منتصف الليل، ومر بعدها الوقت، فأطفئتْ أنوارُ المقهى تدريجيًّا، وبدأ المقهى يغلق أبوابه. فأخرجت من جيبي حفنة من الأوراق المالية فئة الألف دراخمة، ودفعتُ منها الحساب، كما أعطيت إكراميةً سخيةً للنادل؛ أما الفتاة اللعوب فقد تعلقتْ بي، ومالتْ فوقي وهى تتثنى وتتأود، وسألتني بصوت متكسر زاخر بالدلال: «ما اسمك؟» فأجبتها بضيق: «بابُّوليس (=جِدّو)!». وهنا أقدمت الأنثى اللعينة علي قرصي قرصة مؤلمة، وقالت لي وهي تغمز بعينها: «هيا... أخبرني!». فأخذتُ يدها واحتويتها بين أصابعي وضغطتُ عليها بطريقة ذات مغزي، ثم أجبتُها بصوت متهدج: «هيًّا بنا، يا صغيرتي!».

وأنت تعرف الباقي ويمكنكَ أن تفهمه؛ ارتوينا من كأس الحب حتى

الشمالة، وبعدها استسلمنا للنوم العميق. وعندما استيقظتُ كان الوقت ظهرًا، فنظرتُ حولي، فماذا عسى أن أرى؟ رأيت غرفة أنيقة مرتبة، بها مقاعد وثيرة وحوض لغسيل الوجه واليدين، وصابون وقوارير، وزجاجات صغيرة، ومرايا كبيرة وصغيرة... وعلى جدران الغرفة كانت هناك فساتين مُشجرة معلقة، وصور فوتوغرافية كثيرة لبحارة وضباط وقباطنة وحراس وراقصين، وكذا لنساء لا يرتدين أية ملابس، تلبس كل واحدة منهن فقط في قدميها خفًّا نسائيًا. وكانت بجواري علي السرير هذه الأنثى الدافئة التي يفوح منها عطر رائع وجدائل شعرها محلولة.

همستُ فيما بيني وبين نفسي وأنا أغمض أهداب عيني: «إيه يا زوربا، ها أنت ذا قد ذهبتَ إلي الجنة وأنت لا تزال علي قيد الحياة، إن هذا المكان رائع، فإياك أن تبرَحَه أو تتحركَ بعيدًا عنه». إن كل إنسان، يا رَيِّس، حسب ما أخبرتك ذات مرة، له فردوس يهواه؛ فأنت- علي سبيل المثال- تحلم بفردوس زاخر بالكتب والمحابر المليئة بالمداد، وغيرك يحلم بفردوس مليء ببراميل النبيذ والأوزُو والكونياك. وهناك نفرٌ آخر من الناس يحلم بفردوس به أكوام من الجنيهات الاسترلينية؛ أما أنا فالفردوس بالنسبة لي هو ما يلي: غرفة فواحة بالعطر الزكي، وزاخرة بالفساتين المشجرة، والصابون المعطر، وبها سرير ذو زنبركات يتسع لفردين، وترقد فيه بجواري أنثي رائعة الجمال.

الخطيئة إذن أمرٌ يمكن الاعتراف به، والإثم أمرٌ يمكن وضعه موضع الاعتبار؛ ولذا ظللتُ طوال اليوم معها في الغرفة دون أن أبارحها. فإلى أين أذهب؟ وماذا عساي أن أفعل؟ لم أسأم بعد، وأنا هنا بخير حال.

لذا طلبتُ أفخر أنواع الطعام المطهي، فحملوا لنا صينية عليها مأكولات فاخرة تبث القوة وتُكسب العنفوان: كافيار أسود اللون، وشرائح لحم، وأسماك، وفاكهة وفيرة، وكنافة محلاة بالعسل. وغرقنا مرةً ثانية في بحر العسل، وشربنا كأس الحب حتى الثمالة، وبعد استسلامنا للنوم استيقظنا في المساء، ثم ارتدينا ثيابنا وتأبطتُ ذراعها، وذهبنا سويًّا إلي مقهى أغاني الحب حيث تعمل.

ولا أطيل عليك بالكلام، يا رَيِّس، فقصارى القول إننا ظللنا نداوم على هذا الجدول الغرامي مدةً من الزمن، ولكن لا تتضايق ولا تضجر، فأنا لا أهمل واجبي أو مشاغلي، ولا أقصر في أعمالك. فما بين الحين والآخر كنت أذهب لأمُر في جولة على المتاجر، ولألقي نظرة علي السلع المطلوبة؛ وسأشتري السلك المعدني لا جدال في ذلك، كما سوف أبتاع كل ما هو ضروري ولازم لنا؛ فاهدأ بالاً واطمئن، فماذا يفيد يوم مبكر أو يوم، أو حتى أسبوع، متأخر، فهم يقولون- في المثل السائر- إن الهرة من فرط تسرعها تتسبب في جعل قططها الوليدة عمياء. فإياك إذن أن تتسرع، يا رَيِّس! فمن أجل صالحك أنت وحدك فإنني باقٍ هنا إلي أن تنجلي الغشاوة عن عيني، وإلي أن يصفو تفكيري وعقلي، وذلك كي لا يغشوننا أو يضحكون علينا. فالسلك المعدني يجب أن يكون جيدًا وقويًّا ومن أفضل نوع، وإلا ضعنا وضاع أملنا، فأرجو، يا رَيِّس، أن تصبر وأن تمنح ثقتك في بالكامل.

وأرجو ألا يضيق صدرك أو تنزعج بشأن صحتي، فالمغامرات تغذي روحي وتقويني، ففي ظرف أيام معدودة أصبحت أبدو في العشرين من

عمري. وأنا أحظى الآن بقوة زائدة لدرجة أنه سوف تنمو لي- فيما أتصور- أسنان جديدة؛ ولعلك تذكر أن كِلْيَتَيَّ كانتا تؤلمانني، غير أنني الآن في أتم صحة وأكمل عافية، وكل صباح أتطلع إلي صورتي في المرآة وأتعجب من أن شعري قد غدا أسود فاحمًا.

ولعلك تقول في نفسك تُري لماذا أكتب لك عن كل هذه الأمور؟ والجواب هو أنك لا ريب تعلم أنني أتخذك ملهمًا لي، ولا أخجل البتة من الاعتراف لك بكل آثامي وخطاياي، أتعرف لماذا؟ لأنه يبدو لي أنك لا تعطي مثقال ذرة من اهتمامٍ أو مبالاة ، سواء كنتُ أتصرف على نحو خيِّرٍ أو على نحو سيء. فأنت تمسك في يدك بقطعة من الإسفنج المشبعة بالماء، وتفعل مثلما يفعل الرب: بلاس! بلاس! فتمحو بها جميع أنواع السلوك الخيِّر والمرذول سواء بسواء. ولذا تواتيني الشجاعة كي أبوح لك بأسراري، فأصغ إليَّ إذن:

إن حياتي مقلوبة رأسًا علي عقب، ويكاد عقلي أن يذهب، فمن فضلك بمجرد أن تتسلم رسالتي هذه، تناول قلمكَ واكتب الرد عليَّ سريعًا، لأنني- إلي أن أتسلم إجابتك- سأظل منتظرًا علي أحر من الجمر. فأنا أعتقد أنني لستُ الآن مدوَّناً في السجل الإلهي منذ سنوات كثيرة، ولكني بحق الشيطان مدونٌ في سجلك أنت وحدك، وبالتالي فما من ملاذ آخر أقصده سوى نُبلك وكريم سجاياك، فأعرني سمعك إذن، وهاك ما حدث بالتفصيل:

بالأمس، كان هنا احتفال بأحد القديسين في مدينة كاسترو، وليت الشيطان يخطفني لو كنت أعرف من هو هذا القديس! فقالت لي لُولَا- آه!

لقد نسيت في الحقيقة أن أحيطك علمًا باسمها، إنها تدعي لُولَا- قالت لي لُولَا: "يا جِدَّو! (كانت تناديني "جِدَّو"، ولكن علي سبيل التدليل) يا جِدَّو! أنا أريد أن أذهب إلي الاحتفال".

فقلت لها: "اذهبي يا جِدَّتُو، اذهبِي علي الرحب والسعة!"

فقالت: "ولكني أريد أن أذهب بصحبتك".

فقلت: "أنا لا أذهب لمثل هذه الاحتفالات، فلقد سئمت منها، فاذهبي وحدك".

قالت: "إذن فلن أذهب أنا أيضًا!".

فجحظت عيناي دهشةً، وقلت: "لن تذهبي! لماذا؟ ألا تريدين الذهاب؟"

قالت: "إن تأتِ معي، فأنا أريد، وإن لم تأتِ، فلا أريد".

قلت: ولكن لماذا ؟ ألستِ إنساناً حرًّا؟"

قالت:"لا! لستُ كذلك!"

قلت: "ألا تريدين أن تكوني حرة؟"

قالت: "بلي! لا أريد".

فماذا عساي أن أقول لك، يا رَيِّس، إنني أكاد أجن! لقد صرخت في وجهها: "ألا تريدين أن تكوني حرة؟"، وقالت: "لا! لا أريد! لا أريد! لا أريد!".

وأنا أكتب لك، يا رَيِّس، من غرفة لُولَا، وعلي ورق لُولَا، فأرجو أن تهتم بما أقول من فضلك: فأنا أعتقد أن الإنسان هو الذي يريد أن يكون حرًّا، وأن المرأة لا تريد أن تكون حرة، فهل المرأة إنسان؟

من فضلك أجب عليَّ بسرعة؛ أعانقك بحب. أليكسيس زورباس».

فرغت من قراءة خطاب زوربا، وبعدها مكثتُ سويعاتٍ دون أن أصل إلي قرار. لم أكن أدري هل أُعَقِّب أم أضحك، أم أُعْجَب بمثل هذا الإنسان البدائي الذي يعلو علي قشرة الحياة بما فيها من منطق وأخلاق وشرف ونزاهة، ليصل إلي الجوهر أو الماهية. إنه يفتقر إلى جميع الفضائل الصغيرة وكذلك المفيدة جدًّا والمجدية، ولا يظل لديه سوى فضيلة واحدة صعبة المنال غير متاحة وخطرة، وهي تدفعه- بطريقة لا يمكن مقاومتها- من أعلي ذروة نحو الهاوية.

فهذا العامل الأُمِّي، الذي حينما يكتب يحطم ريشة الكتابة من فرط تسرعه وانعدام صبره، مَثَلُه كَمَثَلِ الإنسان الأول الذي تطور عن فصيلة القرود، أو كمثل الفلاسفة العظام، هيمنت عليه المشكلات الأساسية في الحياة، فطفق يحياها وكأنها حاجات مباشرة ملحة. إنه مثل الطفل، يرى بدوره كل شيء في الوجود كما لو كان يراه لأول مرة، تنتابه الدهشة ويؤخذ على حين غرة ويتساءل، لأن جميع الموجودات تبدو له مثل المعجزات. وكل صباح، عندما يفتح عينيه ويشاهد الأشجار والبحر والصخور والطيور، يفغر فاه على اتساعه دهشةً وعجبًا. فيصيح: «يا لها من معجزة! تُرى ما معني الشجرة والبحر والصخر والطير؟».

وأذكر ذات يوم أننا كنا نسير قُدُمًا تجاه القرية، فقابلنا شيخًا مُسنًّا كان يمتطي بغلاً. فجحظتْ عينا زوربا المستديرتان وظل يحدق في البغل. ويبدو أن نظرة زوربا إلى الشيخ المسن كانت نفاذة حارقة، أو أنها كانت ثاقبة نافذة، لدرجة أن القروي المسن صاح مرتعبًا: «بحق الله، أيها العرَّاب،

لا تحدق في وجهي على هذا النحو!». قال هذا، ثم رسم علامة الصليب علي صدره، فالتفتُّ إلي زوربا وقلتُ: «ماذا فعلت للشيخ المسن حتي جعلتَه يصيح هكذا؟». فقال: «أنا؟ ماذا عساي أن أفعل؟ لقد حدقتُ في البغل، أوَ لم يحدثْ لك انطباعًا، يا رَيِّس؟" قلت: "ماذا؟". قال: "انظر! إن هناك بغالاً في العالم".

وذاتَ يومٍ آخر، كنتُ مستلقيًا علي رمال الساحل، وكنت أقرأ؛ فجاء زوربا وجلس القرفصاء قبالتي، ثم وضع آلة القانون علي ركبتيه، وبدأ في العزف عليها. فرفعت عيني ونظرت إليه، وشيئًا فشيئًا بدأ محياه يتغير، إذ تملكه فرحٌ طاغٍ وجذلٌ شامل، فمد عنقه الطويل المتجعد وبدأ في الغناء. غنيٰ أغانٍ مقدونية، وأغانٍ تمجد شجاعة اللصوص أيام الاحتلال التركي، وحاكى أصواتًا برية كانت تنطلق من حناجر البشر إبان العصور الغابرة، حينما كانت الصرخات والصيحات هي وسيلة الاتصال الموجزة والمكثفة، التي تناظر ما نسميه اليوم الموسيقى والشعر والعاطفة، وأخذ زوربا يصيح: «آخ! باخ!» من أعماق فؤاده، فانكسرت القشرة المغلفة لما نسميه بالحضارة، وانبثق من داخلها مخلوقٌ سامٍ خالد كثيف الشعر، غوريلًا تثير الرعب.

وهنا اختفتْ جميع الأشياء: الفحم الحجري، الخسارة، الربح، والنساء الغندورات. ذلك أن الصياح قد أطاحَ بكل شيء، ولم نعد بحاجه إلى شيء على الإطلاق؛ ظللنا كلانا بلا حراك على ساحل جزيرة كريت المنعزل، وكنا نطوي صدرينا على سائر ألوان المرارة والحلاوة في الحياة؛ فلم يعد هناك وجودٌ للمرارة ولا للحلاوة. فلقد جنَّ الليل، وكانت كوكبة الدب

الأكبر ترقص حول محور السماء؛ سطع القمر بنوره وأطل وهو مجفل على شخصين من البشر، كأنهما حشرتان ضئيلتان تشدوان فوق الرمال، دون أن تخشيا شيئًا.

قال زوربا فجأةً: «إيه يا هذا، إن الإنسان حيوان تثيره الأغاني، فدع كتابَك، أفلا تستحي أو تخجل؟ إن الإنسان حيوان، والحيوانات لا تقرأ». وصمت برهةً ثم لاذ بالصمت، وقال بعدها: «هل تعرف كيف خلق الله الإنسان؟ أتعرف ما هي أولى الكلمات التي وجهها هذا الحيوان، أقصد الإنسان، إلى الله؟». فقلت له: «لا! أَنَّي لي أن أعرف؟ فأنا لم أكن حاضرًا آنذاك»، فصاح زوربا وقد برقتْ عيناه: «أما أنا فكنتُ موجودًا!»، قلتُ: «خبِرّني أنت إذن!».

شرع زوربا وهو نصف مخبولِ ونصف ساخر، في سرد صياغة أسطورية لقصة خلق الإنسان: «أصغ إليَّ إذن، يا رَيِّس! ذات صباح تطلع الله حوله وقال: "أأكون إلهاً دون أن يكون عندي بشر يحرقون لي البخور والقرابين، أو يجَدِّفون في حقي؟ لقد سئمتُ أن أكون وحدي في هذا الكون!". وبعدها فرك كفيه ابتهاجًا وشمر عن ساعديه، وأخذ حفنة من التراب وضع عليها الماء لتبتل وتصبح طينًا، ثم عجنها جيدًا، وصنع منها إنسانًا وضعه تحت أشعة الشمس؛ وبعد مرور سبعة أيام كان الإنسان قد جف وتحمَّص. فرمقه الله ثم ضحك، وقال: "لعَمْري إن هذا أشبه بخنزير واقف على قدميه؛ لقد أردت شيئًا ونتج شيءٌ آخر. فليكن ما كان!". بعدها، أخذه من رقبته وأعاد تشكيله، وقال: "هيَّا! اذهب! وأنجب من نسلك أبناءً آخرين، فالأرض هي مثواك ومقرك".

ولم يكن هذا المخلوق خنزيرًا؛ إذ كان يرتدي قُبعة، وعلى كتفيه تنسدل سترة بحار، كما كان يلبس سروالاً ذا تجاعيد، وفي قدميه نعلٌ ريفي بفيونكة حمراء. وكان يضع في زنار حول وسطه سكينًا طويلة حادة- لا ريب أن الشيطان هو الذي منحها له- وكان مُدَونًا عليها ما يلي: "سوف أقتلك!". كان هذا هو الإنسان؛ هنا مدَّ الله يده لهذا المخلوق كي يقبلها؛ ولكن الإنسان برم شاربيه، وقال: "أيها الشيخ المسن، أفسح لي طريقًا لأَمُرا".

سكتَ زوربا هنيهةً عندما لمحني أضحك من أعماق قلبي، فعبس وجهه، وقال: «لا تضحكْ! فهذا هو ما حدثْ!». فقلت: «ولكن كيف عرفتَ هذه التفاصيل؟». قال: «ما أقوله لك هو الذي حدثْ؛ فعلى هذا النحو كنتُ سأتصرف لو كنت أنا آدم؛ فأنا أسند رأسي، وهكذا كان آدم يفعل، وإياك أن تصدق ما يرِد في الكتب. صدقني أنا! ومد يده دون أن ينتظر مني إجابة، وبدأ في العزف على القانون.

كنت لا أزال أمسك بخطاب زوربا المعطر الذي صُورِتْ عليه صورة قلب رُشق فيه سهم، وأخذت أسترجع في ذهني ذكرى كل الأيام التي أمضيتها معه، والتي كانت زاخرة بالجوهر الإنساني. فالزمن قد اكتسب- وأنا بجوار زوربا- مذاقًا جديدًا؛ ولم يكن ما اكتسبته من عشرته مجرد سلسلة حسابية من الأحداث، لا، ولم تكن مجرد مشكلة فلسفية داخلي لا حل لها؛ بل كانت رمالاً دافئة ناعمة لا تشوبها شائبة، كنت أشعر بها وهي تنزلق بنعومة جذابة آسرة بين أصابعي.

وهمستُ لنفسي: ألا فلينعمْ زوربا وليهنأْ في حياته! فهذا الإنسان قد

منح المعاني المجردة التي كانت ترتجف داخلي جسدًا لطيفًا دافئًا محببًا؛ وعندما كان يغيب عن بصري أبدأ- مرةً أخرى- في الإحساس بالبرودة. فأخذت ورقة، وناديت على أحد العمال، وأرسلت برقية عاجلة إلى زوربا تقول: «عُدْ بسرعة!».

(14)

حل يوم السبت الأول من شهر مارس، ودنا وقت الأصيل؛ كنتُ مستندًا إلى صخرة أمام البحر وأنا أدون خواطري. وكنت اليوم قد شاهدت طائر السنونو لأول مرة(*)، وكنت أشعر بالغبطة، إذ كانت تعاويذ بوذا تجرى سلسلة على الأوراق بلا عائق؛ فالصراع معه كان قد غدا أشهى وأحلى، ولم أعد متعجلاً البتة، بل كنت واثقًا من الخلاص.

وفجأةً سمعتُ صوت دبيبَ أقدامٍ على الحصى الذي أخذ يتناثر بفعلها؛ فلما رفعتُ رأسي استطعتُ أن أتبين على امتداد الساحل قامة فارعة لامرأة فى كامل زينتها، غير أنها تلهث ويبدو عليها أنها مستثارة أو مضطربة؛ كانت هي السيرينية العجوز (مدام أورتانس)، وبدا على ملامحها أنها تحس بالقلق. سمعتها تصيح بصوت مشوب بالحزن: "هل وصلك خطاب؟" فأجبتها وأنا أضحكُ: «أجل وصل خطاب». ثم نهضت واقفًا

(*) السنونو طائر يعلن بقدومه حلول فصل الربيع. وهناك مثل باليونانية القديمة يقول: "mia chelidôn ouk ear poiei: طائر سنونو واحد لا يعنى مقدم الربيع". [المترجم].

لاستقبالها، وبعدها واصلتُ حديثي: «إن زوربا يرسل لك تحياته، ويقول إنه يفكر فيكِ ليل نهار، ولا يشتهي طعامًا أو شرابًا؛ كما يقول إنه عاجز عن النوم لأنه لا يتحمل فراقك».

فقالت المدام: «ألم يقلْ شيئًا آخر؟». شعرت بالإشفاقِ عليها، فأخرجتُ الخطاب من جيبي، وتظاهرت بأنني أشرع في قراءته. وفغرتْ السيرينية العجوز فاها الخالي من الأسنان، وأغمضتْ عينيها نصف إغماضة وأخذتْ تصغي إليَّ وهي فريسة للإرهاق. وتظاهرتُ بأنني أقرأ الخطاب، كما تظاهرتُ بالاضطراب والتلعثم، وكأنني لم أستطع تبين الحروف أو قراءتها بيسر، وقلت: «بالأمس كنت قد ذهبتُ، يا رَيِّس، إلى مطعم لأتناول الغداء؛ فقد كنت أشعر بالجوع. ونظرتُ فإذا بفتاةٍ رائعة الجمال تدلف إلى المطعم، كانت بحق مثل عروس البحر. فقلتُ في نفسي: "يا إلهي، ما أشد الشبه بينها وبين غندورتي!". وسرعان ما انسابتْ الدموع من عينيَّ، وشعرتُ بأن هناك شيئًا يخنقني في بلعومي فأنىَّ لي أن أبلعَ ريقي؟ لذا نهضتُ واقفًا، ودفعتُ الحساب، ثم انصرفتُ إلى حال سبيلي بلا طعام. وفضلاً عن ذلك، فأنا الذي نادرًا ما أتذكر القديسين، وجدت أن الود غير المتبادل بيني وبينهم قد وخزني، يا رَيِّس، لدرجة أنني هرعت إلى كنيسة القديس ميناس (= مينا)، وأوقدت له شمعة ثم أخذت أبتهل إليه بقولي: "أي عزيزي القديس ميناس، يَسِّر لي الأمر بحيث أتلقى أخبارًا طيبة من ملاكي الذي أحبه. وامنحني بركتكَ بسرعة عسي أن يلتئم شملنا(*) معًا".

(*) المعنى اليوناني يمكن ترجمته حرفياً إلى: "عسى أن يلتئم جناحانا: na smixoun oi phterouges mas". وهو تعبير يقصد به زوربا المضاجعة، كما سيرد بعد قليل. [المترجم].

وهنا ضحكتْ مدام أورتانس بصوت مثل الكركرة، وأشرقَ وجهها وغدا متألقاً لامعاً. فتوقفتُ عن القراءة برهةً لألتقطَ أنفاسي، وليتفتق ذهني عن عباراتٍ أخرى ملفقةٍ كاذبةٍ، وسألتها: «لماذا تضحكين يا سيدتي؟ أجل لماذا تضحكين؟ في حين أنني أكاد أبكي من فرط التأثر؟». قالت المرأة: «أعلم... أعلم.....»، ثم قرقرتْ ضاحكةً فقلتُ لها: «ماذا؟». قالت: «اعلم أن هذا الذي لا يخشى الله يُسمي السيقان أجنحة، وهو يُسِرَّ إليَّ بهذا حينما نكون معًا بمفردنا، إذ يقول هيًّا بنا نجمع شمل الجناحين معًا (وهو يقصد: هيا بنا نتضاجع)... خي.... خى.... خى!»؛ وأخذتْ تضحك. فقلت لها: «هاكِ اسمعي أيضًا ما يلي، يا سيدتي، كي تزداد دهشتُكِ وذهولُكِ...». وقلبتُ صفحة الخطاب، وتظاهرت مرةً أخرى بأنني أقرأ ما هو مدون في الرسالة: «كنتُ اليوم أمُر على حانوتِ الحلاقة للمرة الثانية؛ وفي تلك اللحظة كان الحلاق يسكب خارج الحانوت محتويات حوض الغسيل، بما فيها من رغاوي الصابون المعطر؛ فتضوع الطريق برائحة المسك العطرة. ومرةً أخرى، تذكرتُ غندورتى وأجهشتُ بالبكاء. فلم أعد قادرًا، يا رَيِّس، على البقاء بعيدًا عنها؛ إذ سوف أصاب بالخبل والجنون. وانظرا لقد آل بي المآل إلى نَظْمِ الشعر في عشقها؛ فأول أمس حينما كنت عاجزًا عن النوم لفرط تباريح الهوى، جلستُ ودبجتُ لها أغنية شعرية مقفاة، فأرجو أن تقرأها عليها كي ترى ما أقاسي من الضنى:

«آه! ليتنا نلتقي معًا وجها لوجه في زقاق من الأزقة،

وليت الزقاق يكون رحبًا بحيث يتسع لما بين جوانحنا من اشتياق!

ولو أنهم مزقوني إربًا إربًا، أو لو أنهم حولوا جسمي إلى لحم مفروم،

فإن عظامي لن تجد لها مَرْسَى تستقر عليه سواك».

كانتْ مدام أورتانس تستمع إلى بعينين نصف مغمضتين، وكانتْ تصغي إلى الكلمات التي أنطق بها وهي مرهقة. كانتْ قد نزعت الوشاح الذي كانت تلف به رقبتها، وكان من الواضح أن الوشاح كان يخنقها، فلما نزعته بدت للعيان تجاعيد رقبتها المتغضنة؛ بعدها لاذتْ بالصمت، ثم أخذتْ تضحك. كانت تعطي انطباعًا بأن عقلها يهيم بعيدًا بعيدًا... في سرور وسعادة، حيث ماضيها وعالمها البحري الضائع.

كانت تحلم بشهر مارس (شهر الربيع)، وبالعشب المندى، وبالأزهار الحمراء والصفراء والبنفسجية، وبالمياه الرقراقة الشفافة، التي تحلق فوقها أسراب البجع، سوداء وبيضاء، زُرافات ووحدانًا، وهي تصدح بالشدو العذب؛ كانت إناث طيور البجع بيضاء وذكورها سوداء، أما مناقيرها المفتوحة فكانتْ أرجوانية. وكانت ثعابين الماء (الأنقليس) الخضراء تبزغ من الماء وهى تبرق، وتختلط بثعابين الماء الكبيرة ذات اللون اللازوردي. كانت مدام أورتانس قد أصبحت- من جديد- في الرابعة عشرة من عمرها، وكانت تتخيل نفسها وهي ترقص على السجاجيد الشرقية الفاخرة في مدينة الإسكندرية، وفي بيروت، وفي أزمير، وفي اسطنبول؛ وتخيلت بعدها أنها ترقص على خشب باركيه بحري لامع في جزيرة كريت... كانت الأمور كلها مختلطة أمامها، غير أنها لم تترك للغضب سبيلاً إلى نفسها. كانت كل الأشياء تبدو لها شيئًا واحدًا، كما تخيلت أن صدرها قد غدا بارزًا، وأن نهديها أصبحا متوثبين، كما كانا فى أيام الصبا، وكان ساحل البحر يصدر صريرًا وأزيزًا.

وفجأةً (تخيلتْ مدام أورتانس) أن بواخر ذات مقدمات ذهبية ملأت الساحل، هناك في المكان الذي كانت ترقص فيه؛ كانت بواخر ذات مظلات ملونة على الجزء الخلفي منها، وكانت ترفرف عليها أعلام من الحرير. وهبط من على متن هذه السفن باشوات ذوو ذؤابات ذهبية منتصبة على طرابيشهم الحمراء، وبكوات حجاج طاعنون في السن يحملون في أيديهم قرابين ونذور ثمينة، وأولاد بكوات غلمان مُرْد بلا شوارب. وهبط قباطنة ذوو قبعات لامعة مردودة الحافة، وبحارة شبان ذوو ياقات تكاد تبرق من فرط نظافتها، وذوو سراويل قصيرة واسعة من اللباد الأزرق، مرفوعة عند الركبة، ونعال صفراء برقبة عالية ذات رباط، ويضعون مناديل سوداء على رؤوسهم. كما هبط زوربا بصدر عريض وقوام فارع أضناه العشق، وهو يضع خاتم الخطوبة في إصبعه، ويضع إكليلاً من زهور الليمون على شعره الذي وخطه الشيب.

هبط من البواخر جميع الرجال الذين عرفتهم في حياتها الحافلة الزاخرة بالتجارب؛ أجل هبطوا عن بكرة أبيهم ولم يغب منهم أحد؛ وكان من بينهم أيضًا النوتي المسن الأحدب الأدرد (= الذي تساقطت أسنانه)، الذي ذهب ذات يوم في نزهة برفقتها بقاربه في مياه اسطنبول، وكان الظلام مخيمًا ولم يكن يراهما أحد... أجل لقد تخيلت السيرينية العجوز أنهم هبطوا جميعًا بكامل عددهم، وخلفهم كانت ثعابين الماء والأفاعي والبجع تتزاوج في مرح.

هبط جميع الرجال وضاجعوا مدام أورتانس، وكان حشدهم بكامله مثل الأفاعي التي تشعر بالولع تجاه التزاوج ومطارحة الغرام خلال فصل

الربيع، أو مثل الثعابين التي تتيبس جلودها وتتغضن وهى واقفة معًا، وتصدر فحيحًا داخل شقوق الصخور. ووسط هذا الحشد كانت تقف مدام أورتانس بلا حراك، وهي ناصعة البياض، عارية تمامًا تتفصد عرقًا، وشفتاها نصف منفرجتين، وأسنانها حادة قاطعة، لا تشبع ولا ترتوي، ونهداها بارزان في صلابة، وتصفر بابتهاج؛ كان عمرها أربعة عشر عامًا، ثم أصبح ثلاثين عامًا، ثم أربعين، ثم ستين عامًا....

لقد تخيلتْ مدام أورتانس أنها لم تخسرْ شيئًا، ولم يمتْ من عشاقها أحد، وأن جميع عشاقها قد بُعِثُوا كافةً بعد موتهم وهم مدججون بالسلاح فوق صدرها الذابل المتجعد. كانت مدام أورتانس تتخيل أنها فرقاطة عريقة ذات ثلاثة صوارٍ، وأن جميع عشاقها- على مدى خمسة وثلاثين عامًا حتى الآن، منذ أن بدأت عملها بوصفها صاحبة فندق- قد صعدوا على متنها ودخلوا عنبرها، ووقفوا على جوانبها الممتدة فوق سطحها العلوي، وصعدوا على صواريها، وأنها تبحر بهم رغم كونها مثقوبة بألف ثقب عوُلج بألف جلفنة تم بها لحام الثقوب، وأنها ترسو بهم على المرفأ البعيد الذي يهفو إليه الفؤاد، وهو الزواج. أما زوربا، فكان يبدو- أمام مخيلتها- وقد اتخذ ألف وجه: وجوه تركية وزنجية وأرمينية وعربية ويونانية، وأنها كانت- أي مدام أورتانس- تطوق عنقه، وتنخرط بكامل طاقتها في ابتهال قدسي لا نهاية له.

وفجأةً لاحظتْ السيرينية العجوز أنني توقفت عن القراءة، فانقطع في التو استرسالها في أحلامها ورؤاها، ورفعتْ جفنيها الثقيلين المتعبين، ثم غمغمتْ بلهجة مشوبة بالشكاية، وهي تلعقُ شفتيها النهمتين: «ألم يقلْ

شيئًا آخر؟». فقلتُ لها: «ماذا تريدين غير ذلك، يا مدام أورتانس؟ لكن ألا ترين أنه يتحدث في الرسالة كلها عنكِ وحدك؟ آه! هاكِ انظري! لقد كتب عنك أربع صفحات. كما أنه رسم قلبًا هنا في هذه الزاوية، ها هو! أجل لقد رسمه زوربا بنفسه، وهو يقول إنه رسمه بيده. انظري، إن هناك سهمًا يخترقه من جانبه حتى الجانب المقابل! إنه العشق، يا مدام أورتانس. وانظري أيضًا! لقد رسم أسفله حمامتين تتغازلان، كما كتب بحروف متناهية في الصغر- تكاد لا تبين- على أجنحتهما، أجل كتب بحروف متعانقة اسمين بالحبر الأحمر هما: أورتانس- زوربا.

في الحقيقة أنه لم يكن في الرسالة حمامات ولا كتابات؛ غير أن عيني سيرينيتنا العجوز الوسنانتين كانتا قد تثاقلتا، وأصبحتا لا تريان إلا ما تشتهيان. ولذا عاودتْ السؤال، وهي غير مقتنعة: «ألم يقلْ شيئًا آخر؟ ألم يقلْ شيئًا آخر؟». كانت تكرر السؤال رغم كل هذه الكلمات المحبة القدسية، رغم كل هذه الكلمات الجميلة المشبعة بالنسيم: الأجنحة الخفاقة، والصابون المعطَّر، والحمامات؛ فعقل المرأة العملي كان ينشد شيئاً آخر ملموسًا أكثر ومضمونًا أكثر. فما أكثر المرات التي سمعتْ فيها هذه الكلمات المكثفة في حياتها! تُرى ماذا تكون عساها قد فهمتْ منها؟ فبعد كل هذه السنوات التي عملتْ خلالها، كانت تبدو كأنها تُركتْ بمفردها في مفارق طرق خمسة. وعادتْ لتغمغم من جديد وصوتها زاخر بالشكوى والعتاب: «أليس هناك شيء آخر؟ أليسَ هناك شيء آخر؟». وتفرستْ في عينيَّ كأنها ظبية مطاردة؛ فأشفقتُ عليها، وقلت: «أجل! إنه يقول شيئًا آخر في غاية الأهمية، يا مدام أورتانس؛ ولذا أجَّلتُه ليكون آخر

محتويات خطابه». فقالت بصوت لاهث: «دعنا نَطَّلِع عليه...».

قلتُ: «لقد كتب أنه حالما يعود أدراجه، فسوف يجثو عند قدميك- حسب قوله- ليتوسل إليك، والدموع تترقرق في مآقيه، عسى أن تقبلي الزواج منه؛ إذ أنه لم يعد قادرًا على الاحتمال. وهو يقول إنه يريدك أن تكوني قرينته، مدام أورتانس زوربا، وألا تفترقا إلى الأبد...

وفي هذه اللحظة، بدأتْ عيناها المتقرحتان تذرفان الدموع. فها هو السرور الطاغي، وها هو المرفأ الآمن، وها هو الشوق الذي استمر طوال الحياة! آن الأوان لها أن تهدأ، وأن تنام على سرير شريف، فكفاها ما عانت حتى الآن! مسحتْ الدموع من مآقيها، وأبدت موافقتها، وهي تقول بشموخ ونُبل: «حسناً! إنني أقبل عرضه، ولكن أرجو أن تكتب له- من فضلك- أنه لا يوجد هنا فى القرية إكليل قران؛ وعليه أن يحضره معه من مدينة كاسترو. وعليه أيضًا أن يحضر معه شمعتين كبيرتين لونهما أبيض بشرائط وردية. وأن يحضر كذلك ملبس باللوز من النوع الجيد، وأن يبحث عن ثوب زفاف أبيض وجوارب حريرية وخفين حريريين. أما الملاءات، فهي موجودة عندنا، فاكتب إليه ألا يحضرها؛ ولدينا أيضًا السرير.

على هذا النحو، رتبتْ السيرينية العجوز احتياجاتها ومطالبها، وأوعزتْ بالفعل لرجلها العاشق بأن يحملها إليها. ثم نهضتْ واقفة، بعد أن كانت قد اتخذتْ لنفسها فجأةً سَمت الشموخ والعظمة، بوصفها امرأة متزوجة. بعدها توقفت عن الحديث، ثم قالتْ في انفعال وتأثر: «عندي عرض مهم أقدمه لك». قلتُ: «أخبريني به من فضلك، يا مدام أورتانس؛ فأنا طوع أمرك». فقالت: «أنا وزوربا نُكن لك الحب؛ فأنت كريم وسخي،

ولن تهيننا أو تسخر منا. فهل تقبل أن تكون إشبينًا (= عراباً) لنا؟».

أجفَلْت.. فقد كان لدينا ذات يوم- في منزل العائلة- خادمةٌ مُسنة تُدعى ذيامانتو، يربو عمرها على السِتين عامًا، وكانت امرأة عجوزاً شمطاء. كانت قامتها منحنية منذ أن كانت فتاة عذراء، كما كانت عصبية متغضنة الجلد، وليس لها ثديان، بل لها شارب. ولقد أحبتْ هذه الخادمة صبي بقال من أهل الجيرة يُدعى ميتسو، كان ريفيًّا ذا شحم ولحم، قوى البنيان وليس له شارب. كانت تسأله كل يوم أحد: «متى ستأخذني إلى منزلك؟ خذني إذن! كيف يمكنك أن تحتمل البعاد؟ أنا ما عدت أحتمل!». فيجيبها ذلك البقال اللئيم، الذي كان يداهنها بغية أن تغدو من زبائنه: «وأنا أيضًا ما عدتُ أتحمل! أجل لقد عجزتُ عن الاحتمال، يا عزيزتي ذيامانتو؛ ولكن تحلي بقليل من الصبر. أجل، اصبري إلى أن ينبت لي أيضًا شاربان».

وهكذا طفقت السنوات تمر والعجوز ذيامانتو تتحلى بالصبر، ورويدًا رويدًا بدأت أعصابها تهدأ، وبدأ الصداع في رأسها يتناقص، وبدأت شفتاها المربربتان اللتان لم يلثمهما أحد قط تبتسمان، وأخذت تغسل الملابس بطريقة أفضل، ولا تكسر من الأطباق إلا أقل القليل، كما لم تعد تحرق الطعام وهي تطهوه.

سألتني ذات مساء خِلْسَةً دون أن يسمعنا أحد: «هل تقبل أن تكون إشبينًا لي، يا سيدي؟». فأجبتها، وحلقي ينسحق من فرط المرارة: «أجل أقبل، يا ذيامانتو!». لقد تسببت مهمة الإشبين هذه في تجرعي لكثير من المرارة والحزن، ولهذا السبب أجفَلتُ الآن حينما سمعت مدام أورتانس تعيد ذكرها عليَّ. أجبتها: «أجل أقبل، فهذا شرفٌ لي، يا مدام أورتانس...».

فقالت وهي تبتسم بفخار: «عندما نكون وحدنا، نادني بوصفك إشبيني».

قالتْ هذا ثم نهضتْ واقفة، وأخذت تسوي خصلات الشعر على مقدم رأسها، لأنها لاحظتْ أنها برزت من تحت قلنسوتها، وبعدها لعقتْ شفتيها، وقالت: «تصبح على خير، يا إشبيني (= عرَّابي)؛ تصبح على خير، وآمل أن نلتقي وأنت في أحسن حال...». أخذتُ أرقبها وهي تبتعد؛ كانت مؤخرتها تترجرج، وخصرها المثقل بالشيخوخة يتكسر كأنها فتاة صغيرة تتغندر؛ كانت تطير من فرط الفرح، وكان خفاها القديمان اللذان بليا عند الكعبين يصنعان حفرًا غائرة صغيرة على الرمال. ولم تكن مدام أورتانس قد انعطفتْ في سيرها بعد عند منحنى الطريق، عندما تناهتْ إلى سمعي أصواتُ وصرخاتُ انطلقت على الساحل.

قفزتُ فزعًا من جلستي وهرعت لأتبين ماذا حدث؛ وعلى مبعدة من منعطف الطريق المقابل، كانت النسوة يصحن ويصرخن وكأنهن كن يصدرن نواحًا وعويلاً؛ فصعدت من فوري فوق صخرة، وأخذت أتطلع إلى البعيد. كان هناك رجال ونساء قادمين من القرية، بعضهم يتحركون وبعضهم يَعْدُون، وكانت الكلاب تنبح خلفهم، وكان يتصدر الموكب الحزين رجلان أو ثلاثة يهرعون في المقدمة، وكان الغبار الذي تصاعد من وقع أقدامهم قد شكل سحابة كثيفة.

فقلتُ فيما بيني وبين نفسي: «لا بد أنها حادثة»، وبعدها هبطتُ من الصخرة ويممت شطر منعطف الطريق. كانت الصرخات مسموعة دائمًا، ويزداد علوها كلما اقتربت، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب؛ كانت هناك سحابتان ورديتان صغيرتان ربيعيتان، أو ثلاثة غمامات واقفة دون حراك

في صفحة السماء. وكانت شجرة التين القائمة في بيت السيدة النبيلة قد أنبتت أوراقًا خضراء جديدة.

وفجأةً وجدت مدام أورتانس تتمايل أمامي وتترنح، إذ كانت قد قفلت عائدة أدراجها وهي تلهث بعد ذهابها من عندي؛ كان شعرها أشعث، وانزلق أحد الخفين من قدمها، كانت تحمله في يدها وهي تجري وتذرف الدموع. وصاحت بمجرد أن لمحتني: «يا إشبيني، يا إشبيني...». قالت هذه العبارة ثم تطوحت، وكادت تقع فوقي. ولذا بادرت إلى سندها بيدي، وقلت لها: «لماذا تبكين، يا مَن سأكون إشبينك؟». بعدها ساعدتها على ارتداء فردة الخف التي كانت قد انزلقت من قدمها. قالت وهي ترتجف: «إنني خائفة... أجل خائفة...». فقلت لها: «لماذا؟». قالتْ: «من الموت».

كانت المرأة قد شمَّت رائحة الموت في الهواء فارتعدت رعبًا. أمسكتُ بذراعها المتغضن، غير أن بدنها الذي أنهكته الشيخوخة كان لا يزال يقاوم ويرتعد، فصرخَت: «لا أريد. لا أريد (أن أموت)». كانت المرأة التعسة تخاف أن تقترب من منطقة قَدِمَ إليها الموت. وكانت تَفْرَقُ من أن يراها خاروس (ملك الموت) فيتذكر صوتها... إذ كانت هذه السيرينية التعسة العجوز– مثلها مثل الطاعنين في السن كافة– تحاول جاهدة أن تختفي عن الأنظار في أعشاب الأرض، وأن تصبح خضراء اللون مثل الأعشاب؛ كانت تسعى كي تختفي في ثرى الأرض وتصبح رمادًا أسود، كي لا يتمكن خاروس من أن يميز صورتها. ولذا فإنها كانت قد انكمشت على نفسها، وغاصت رأسها بين كتفيها المكتنزتين المحدبتين، وأخذت ترتعد وترتجف.

آوتْ المرأة الخائفة إلى شجرة زيتون، وفتحت معطفها المرتق الزاخر

بالرقع، ثم قالت: «أرجوكَ أن تغطيني، أيها الإشبين! أرجوك أن تغطيني ثم انصرف لحال سبيلك». فقلت: «هل تحسين بالبرد؟». قالت: «أجل أشعر بالبرد، فأرجو أن تغطيني!». قمت بتغطيتها بعناية أشد على قدر ما أمكنني، كي لا يتسنى تمييزها من لون الرماد. ثم انصرفتُ لحال سبيلي؛ وعندما اقتربتُ من منعطف الطريق، استطعت أن ألمح بوضوح المناحة الحزينة. مر ميميثوس أمامي وهو يعدو، فهتفت: «ما الأمر، يا ميميثوس؟». فأجاب دون أن يتوقف: «لقد غرق... لقد غرق...!». قلت: «مَن هو الذي غرق؟». قال: «إنه باڤليس بن ماڤرانطوني!». قلت: «وما سبب غرقه؟». قال: «الأرملة...».

ضاع صوته وسط النحيب والنواح الجماعي. وهكذا فحينما كانت الكلمة تنطلق في الهواء، كان الفضاء المظلم يزخر بجسد الأرملة المثير الخطير. كنتُ قد وصلتُ قرب الصخور حيث كان يحتشد أهالي القرية؛ كان الرجال يقفون وهم حاسرو الرؤوس صامتين، أما النساء فكانت مناديلهن منسدلة على أكتافهن، وكن متحلقات في مجموعات وهن يصرخن ويولولن؛ وفوق الحصى كان هناك جثمان منتفخ لونه أزرق داكن، ممدد على الساحل. وكان (والده) الشيخ المسن ماڤرانطونيس واقفًا عند رأسه وهو يرمقه دون حراك، وكان يستند بيده اليمنى على عصاه وهو منحنٍ، وكان يمسك بيده اليسرى لحيته الشهباء المتلفة الشعر.

وفجأةً تناهى إلى الأسماع صوت حاد نفاذ يقول: «اللعنة عليكِ، أيتها الأرملة! أتمنى أن تحل عليكِ هذه اللعنة من لدن الله!». وقفزت امرأة من جلستها واستدارت صوب الرجال، وقالت: «ألا يوجد، يا قوم، في قريتنا

رجل (صنديد) ينبري لذبح هذه الأرملة فوق ركبتيه مثلما يذبح الخروف؟ إني أبصق في وجوهكم احتقارًا!». وبالفعل أقدمت المرأة على البصق في وجوه الرجال الذين كانوا يرمقونها دون أن ينبِسُوا ببنت شفة. وهنا وثب كوندمانوليوس، صاحب المقهى، من مكانه وصاح: «لا تُحطِي من شأننا، يا ديليكاترينا! ولا تهينينا! فقريتنا بها رجال صناديد ذوو عزم حقًا، وسترين ما بوسعهم أن يفعلوا!». ووجدتُ أمام هذا أنني غير قادر على الاحتمال، فصحتُ: «يا لَلعار، أيها الشبان! فما هو ذنب المرأة؟ لقد كان ما حدث للفقيد مقدرًا عليه؛ وعليكم أن تتقوا الله!». ولم ينبر أحد للإجابة على ما قلت.

أما مانولاكاس، ابن عم الشاب الغريق، صاحب الجثة الضخمة الملقاة على الشاطئ، فقد أخذ جثمان الغريق بين أحضانه، وحمله وذهب به قُدُمًا نحو القرية. فعَلاَ صراخ النساء وعويلهن، وأخذن يخدشن وجوههن بأظافرهن. وما إن شاهدن الرجال يحملون الجثمان بعيدًا حتى اندفعن بغية أن يتعلقن ويتشبثن به؛ ولكن الرجل المسن مافرانطونيس مد عصاه، ودفعهن بها، ثم سار في المقدمة. وكانت النسوة يسرن خلفه مولولات نائحات، وخلفهن كان الرجال يسيرون صامتين منكسي الرؤوس.

اختفى الموكب الحزين خلال الغسق، ولم يعد يسمع الآن سوى صوت تنفس البحر الصامت؛ تلفت حولي فوجدتُ أنه لم يبق سواي وحدي، فقلتُ لنفسي: «فلأعد أدراجي إلى داري؛ فقد كان السُّم الزعاف اليوم وفيرًا. لك المجد يا الله! ويا له من يوم مقبض حزين!». اتخذتُ طريقي عبر الدرب الضيق، وأنا واجم مستغرق في التفكير، وفي بصيص الضوء الخافت

استطعت أن ألمح العم أناغنوسيتس الذي كان لا يزال واقفًا على إحدى الصخور، وكان يسند ذقنه على عصاه الطويلة، ويرمق البحر بناظريه. ناديت عليه فلم يسمعني؛ فلما اقتربت منه وشاهدني حرك رأسه وغمغم:

«يا له من عالم مهجور تخلى عنه الجميع! وا أسفاه على الشباب! آه إن هذا الشاب الأسمر الداكن لم يستطع أن يحتمل الضنى والجوى وعذاب الحب، فألقى بنفسه في البحر وغرق، وهكذا نجا». فقلت: «نجا؟». قال الرجل الطاعن في السن: «أجل لقد نجا! يا ولدي، لقد نجا. فلا ريب أنك تعلم تقلبات الحياة وتصاريف القدر. فلو أنه ظفر بالأرملة فسرعان ما كان سيبدأ التذمر والشكوى، بل ربما وصل الأمر إلى الإتيان بتصرفات مخجلة. والسبب في هذا هو أن هذه المرأة التي تتأجج نارًا تماثل أنثى الفرس في شبقها. أما إذا لم يقدر له أن يظفر بها فسوف تصيبه بطعنة نجلاء في قلبه طوال حياته، لأنه سوف يعتقد أنه خسر صفقة رابحة كانت في متناول يده. وبالتالي فهو كالمستجير من الرمضاء بالنار».

فقلتُ له: «لا تقل مثل هذا الكلام، أيها العم أناغنوسيتس؛ فهو كلام يمزق نياط قلوب البشر». فقال: «يا بني، لا تخف، فمن ذا الذي يسمعنا؟ وحتى لو فُرض أن وجد من يسمع، فمن ذا الذي يصدق؟ انظر إليَّ، ألم تجعلني الحياة إنسانًا محظوظًا بحق؟ لقد كنت أملك الحقول وكرمات العنب وأشجار الزيتون، وكان لي منزل بجوار أملاكي، وكنت رب أسرة وكانت زوجتي امرأة صالحة ومطيعة تتصف بشهامة الرجال؛ لم ترفع أبدًا عينيها في وجهي، أما أولادي فكانوا نِعْمَ الذُرية، ولذا فليس عندي سبب للشكوى أو التذمر. كما أن لي أحفادًا، فماذا أريد بعد هذا كله؟ لقد مددتُ

جذوري وجعلتها راسخة عميقة. ومع ذلك، فلو قدر لي أن أولد من جديد لوضعت حجراً فوق رقبتي- كما فعل باڤليس - ولرميت نفسي في غياهب اليم. إن الحياة حقًّا ثقيلة الوطأة حتى لو كانت تحمل لنا من الحظ الكثير، أجل إنها ثقيلة الوطأة، فعليها اللعنة!».

قلت له: «لكن ماذا ينقصك، أيها العم أناغنوسيتس؟ ولماذا تزفر زفرات الألم؟». قال: «لا شيء ينقصني، كما قلت لك! ولكن هيا دعك الآن من هذا، وعلى الإنسان أن يستفتِي قلبه!». قال هذا ثم صمت برهة من الزمن، وبعدها أخذ ينظر من جديد إلى البحر الذي لفته الظلمة. بعدها صاح ورفع عصاه قائلًا: «حسناً فعلت، يا باڤليس يا بني! فدع النسوة يجأرن بالصراخ، فهن نساء لا عقل لهن؛ أما أنت فقد نجوتَ. وهو أمر يعرفه والدك يقينًا، ومن أجل هذا السبب كما ترى لم ينبس ببنت شفة». ثم رفع عينيه نحو السماء، وجاس بهما حول الجبال التي كان الظلام يكتنفها الآن. وقال: «لقد حل الظلام، فلأرحل». لكنه تريث برهة من الزمن وكأنه ندم على ما انزلق من كلمات عبر شفتيه، أو كأنه أفشى سرًّا عظيمًا، ويريد الآن أن يسترده؛ لذا وضع يده المعروقة الناحلة فوق كتفي وقال لي وهو يبتسم: «إنك شاب، فلا تُلق بالاً لما يقوله الشيوخ المسنون. فلو أن العالم أصغى لهؤلاء الطاعنين في السن لهلك سريعًا وغدا قاعاً صفصفاً. ولو أنك التقيت بأرملة في طريقك فانشر شراعك وأبحر صوبها! تزوج وأنجب أبناء؛ فالعذاب هو قدر الصناديد!».

وصلتُ إلى الساحل الذي يقع به الكوخ، ولما ولجته أشعلت النار وأعددت شاي المساء. كنتُ مرهقًا وجائعًا، غير أنني بعد أن استلقيتُ

طلبًا للراحة وبدأت فى تناول طعامي، شعرتُ بسعادةٍ غامرة، سعادةٍ إنسانية بهيمية خالدة.

وفجأة أطل عليَّ ميميثوس بوجهه الرفيع الضئيل من النافذة الصغيرة؛ وأخذ يتفرس فيَّ بابتسامة خبيثة وأنا رابض أمام نار المدفأة أتناول طعامي. فقلت له: «ماذا وراءك، يا ميميثوس؟». قال: «سيدي، إنني أحمل لك تحيات الأرملة، سلة من ثمار البرتقال؛ وهي تقول لك إنها آخر ثمار بستانها». فرددت عليه وأنا واجف: «أمِن عند الأرملة هي؟ ولماذا تُرسلها إليَّ؟». فقال: «لما قلته من كلمات طيبة عنها الليلة وأنت تحادث القرويين». قلتُ: «وما هي هذه الكلمات الطيبة؟». قال: «ليس عندي ما أقوله في هذا الصدد، فما أخبرتني به هو ما قلتُه لك!».

قال هذا ثم أفرغ محتويات السلة بكاملها من البرتقال على السرير؛ وعلى الفور تعطر جو السقيفة برائحة عطرة. فقلت له: «قل لها شكرًا جزيلًا على هديتها، وأخبرها أن تضع هذا في ذهنها، وأن تحرص غاية الحرص على ألا تخرج من منزلها إلى القرية. هل تسمع؟ قل لها أن تكمن في منزلها إلى أن يمر وقتٌ كافٍ ينسى فيه الناس ما حدث. هل فهمت، يا ميميثوس؟». قال: «هل هناك شيء آخر تريده مني، يا سيدي؟». قلت: «لا شيء، فاذهب إلى حال سبيلك». فغمز لي ميميثوس بعينه، وقال: «لا شيء آخر تريده؟». قلت بحدة: «اذهب!».

انصرف ميميثوس لحال سبيله، أما أنا فقد قشرت برتقالة فوجدتها زاخرة بالعصير وحلوة المذاق مثل العسل. تمددت على الفراش، وسرعان ما أخذني النوم. كنتُ طوال نومي أحلمُ بأنني أتريض تحت أشجار البرتقال،

وأن الهواء الدافئ كان يهب حولي، وكان صدري مفتوحًا ومتوهجًا، وكنتُ أضع غصنَ ريحانٍ خلف أذني. كنتُ أحلمُ أيضًا بأنني شاب ريفي لا يزيد عمره عن العشرين عامًا، وأنني كنتُ أغدو جيئةً وذهابًا عبر بستان من أشجار البرتقال، وكنتُ أصفر بفمي وأنتظر... ولكن مَن ذا الذي كنتُ أنتظره، لا أدري؛ غير أن قلبي كان يخفق ويدق من فرط السرور، فأخذتُ أفتل شاربي وأصيخ السمع طوال الليل خلف أشجار البرتقال؛ وكان البحر يتنهد كما لو كان امرأة.

(15)

كانت ريح الجنوب تهبُ اليوم، وكانت ريحا ساخنة محملة بحرارة الرمال بعد أن مرت على بلاد العرب المقابلة. كانت سحابة من الرمال الناعمة تدور كالإعصار في الهواء، وتنفذ بقسوة إلى حنجرة الإنسان وشغاف قلبه. كانت الأسنان تصطكُ وتصِرًّ والعيون تكتوي، حتى إنك لتضطر إلى غلق رتاج الأبواب والنوافذ، كي تتمكن من أكل قطعة من الخبز دون أن تبتلع معها ذرات الرمال.

كان كل شيء يغلي ويفور، وكان التوق إلى الربيع والتطلع إلى قدومه قد دهمني خلال الأيام العاصفة القارسة، التي تتجرد فيها الأشجار من أوراقها ورونقها. انتابني إرهاق واضطراب في صدري، ووخزات مؤلمة في جسدي بأسره، وراودني اشتياق– أو ربما ذكرى– إلى سعادة أخرى بسيطة بيد أنها عظيمة. إن هذه المتعةَ ذاتَها وهذا الألم ذاته- خلال مثل هذه الأيام العاصفة القارسة- سوف تحس بهما بلا ريب اليرقات الملتفة في شرانقها، التي تعرف أن هناك جناحين على أكتافها سوف ينفتحان وكأنهما

ينسلخان عن الجلد.

اخترتُ الطريق الصخري الضيق الذي يمر عبر الجبل، كي أسير فيه لمدة ثلاثِ ساعاتٍ إلى أن أصل إلى المدينة المينوية(*) الصغيرة، التي انبثقت من بين التراب بعد أن دالت منذ ثلاثة أو أربعة آلاف عام، ثم دبت فيها الحياة من جديد تحت دفء شمس جزيرة كريت الحبيبة. كنت أقول لنفسي: «عسى أن يرهقني السير، فأشعر بأن الحزن المصاحب لرحيل الربيع قد خفتْ وطأته».

كانت هناك صخور رمادية، وصخور لونها مثل الحديد، وصخور جرداء عارية تبرق بالضياء، وكانت الجبال- وهو أمر كان يروق لي- خالية من الخضرة الرومانسية الطيعة. كانت هناك بومة غشيت عيناها بفعل الضوء المتزايد في سطوعه، تُقعي جاثمة بعينيها المستديرتين الصفراوين فوق إحدى الصخور، وكانت تحفُها الرزانة والانشراح، ومغلفة بالغموض والأسرار. فسرتُ بخفة كي لا تسمع وقع أقدامي؛ غير أن سمعها كان مرهفًا فأجفلتْ وحلقتْ طائرةً دون صوت مسموع وسط الصخور، وغابت عن الأنظار. كان الجو معبقًا برائحة نبات السعتر، كما كانت النباتات ذات الأشواك قد أسقطت بالفعل أزهارها الأولى الرقيقة الصفراء من بين أشواكها.

وما إن وصلتُ إلى المدينة الصغيرة المهجورة حتى غمرتني الدهشة. كان

(*) نسبة إلى حضارة كريت القديمة التى ترجع إلى حوالى عام 3000 ق.م.، وسميت بالحضارة "المينوية" نسبة إلى أن أول ملوكها- وهو ملك شبه أسطوري- كان يسمى "مينوس". [المترجم]

الوقت ظهرًا، وكان ضوء الشمس يسقط عموديًا ويخنق الخرائب الأثرية؛ وفي الأطلال الشاخصة للمدن القديمة تكون مثل هذه الساعة بالغة الخطورة. كان الهواء زاخرًا بالأصوات والأنفاس: صوت غصن ينكسر، أو صوت سحلية تمرق بسرعة خاطفة، أو سحابة تمر وتلقي بظلالها على الأرض؛ لذا كان الفزع يهيمن على الإنسان، وكأن كل شبر من الأرض تمشي فوقه، وكل أثر من الآثار تخطو عليه، يجعل الموتى جميعاً يصيحون وينادون.

وشيئًا فشيئًا تعتاد العين على الإبصار، رغم الضوء الساطع، فلقد استطعت أن ألمح الآن وسط هذه الصخور يد الإنسان: لمحت طريقين واسعين تغطيهما صخور جيرية، وعن يمينهما ويسارهما دروبًا ضيقة متعرجة، وساحة مستديرة، هي ساحة السوق، وبجوارها مباشرة- في تواضع ديمقراطي- القصر الملكي بأعمدته المزدوجة، وبدرجات سُلمه العريضة، وبمخازنه المستطيلة.

وفي قلب المدينة القديمة، هناك حيث الصخور التي تغطي الأرض قد تآكلت إلى حدٍّ ما بفعل أقدام البشر، كان ثمة معبد الربة العظمى بصدرها المكشوف عن آخره، والأفاعي المقدسة على ذراعها. وفي كل مكان كانت هناك محلات ووِرَش صغيرة للغاية: معاصر للزيت، ورش للنحاس، ورش للأخشاب، وورش للأباريق الفخارية. وكانت هناك أيضًا مستعمرات للنمل غاية في الاتقان والفن، مؤمَّنةً جيدًا واقتصادية إلى أقصى حد، غير أن النمل كان قد هجرها منذ آلاف السنين. وفي إحدى هذه الورش كان فنان قد نحت على صخرة كثيرة العروق إبريقًا، هو بحق عمل فني رائع؛

غير أنه لم يتمكن- لسببٍ ما- من إتمام نحته البديع. فلقد سقط الإزميل من يد الفنان، وتم العثور عليه بعد آلاف السنين بجوار هذا العمل الفني الذي لم يُقدر له الاكتمال.

وهنا تتصاعد التساؤلات الخالدة، تساؤلاتٌ لا ضرورة لها وحمقاء- على غرار: لماذا؟ ولأي غرض؟- أجل تتصاعد هذه التساؤلات فتُسمم قلبك وتملأه بالمرارة؛ فهذا الإبريق الذي لم يتم نحته قد كُسِرَ جزؤه العلوي، حيث كانت روح الفنان تحلق به في غبطة وثقة بعد السُّم الذي تجرعه. وفجأةً شاهدت راعيًا شابًّا لوحت الشمس بشرته؛ كانت ذقنه مغطاة بشعر أسود نابت حديثًا، وكان يربط شعره المجعد بمنديل ذي أهداب على شكل عمامة، شاهدته واقفًا فوق صخرة بجوار أطلال القصر المتهدم. وصاح هذا الراعي: «إيه، أيها العرَّاب، أيها العرَّاب!».

كنت أرغب في أن أنفرد بنفسي، فتظاهرت بأنني لم أسمعه. ولكن الراعي الشاب ضحك ضحكة ساخرة، وقال: «إيه يا هذا! أتتظاهر بأنك لم تسمع؟ هل معك سيجارة، يا عم؟ أعطني سيجارة لأنني متعكر المزاج هنا في هذه البقعة المنعزلة». كان ينطق بالكلمة الأخيرة في عبارته بحرارة وحماس شديدين، لدرجة أن قلبي أحس بالألم تجاهه. فقلت له: «للأسف، ليست معي سجائر»، ومددت يدي في جيبي لأمنحه قطعة نقود، غير أن الراعي الشاب غضب بشدة، وصاح: «فلتذهب النقود إلى الشيطان! فماذا عسى أن أفعل بها؟ قلت لك إن مزاجي متعكر، فأعطني سيجارة!».

قلت له، وأنا أحس باليأس: «صدقني، ليست معي سجائر! ليست معي!». فضرب الراعي الشاب الثائر المهتاج الحجارة بعصاه المعقوفة

وصاح: «ليست معك! ليست معك! فماذا تحمل إذن في جيوبك المنتفخة؟». فأجبته: «كتابًا ومنديلاً وأوراقًا وقلمًا، ومطواةً لبري القلم!». قلت هذا، وأنا أخرج محتويات جيوبي واحدةً واحدةً، ثم قلت: «هل أهدي لك المطواة؟». فقال: «عندي كل شيء: عندي خبز وجبن وزيتون وسكين، وعندي مثقاب وجلود لصنع حذاء برقبة ورباط، وعندي قارورة ماء، باختصار عندي كل شيء، كل شيء! ولكن ليست عندي سيجارة. فقُل لي، بربك: ما الذي تنبش عنه في هذه الخرائب؟». قلت: «أتطلع إلى الآثار القديمة». قال: «وهل تفهمها بربك؟». قلت: «جيدًا!». قال: «ولكن هؤلاء قد ماتوا منذ آلاف السنين، أما نحن فعلى قيد الحياة؛ فاذهب لحال سبيلك، مع السلامة!». كان ينطق هذه العبارة وكأنه الفزاعة (= خيال المآتة) التي تطردِ الطيور الدخيلة على المكان. فأجبته ممتثلاً: «أنا راحل».

وسرعان ما اتخذتُ طريقي عائدًا في الدرب الضيق، والتفتُ بعد لحظاتٍ فرأيت الراعي الشاب ذا المزاج المتعكر لا يزال واقفًا على الصخرة، وذؤابات شعره المجعد تتطاير من تحت منديله الأسود بفعل رياح الجنوب القوية. كان الضوء يتماوج على جسده من جبهته حتى إخمص قدمه، وكأنه كان ينسكب فوق تمثال برونزي لأحد شبان بلاد اليونان القديمة، وكان الآن يحمل عصاه المعقوفة على كتفه، وأخذ يصفر بفمه.

كان الشتاء قد جعل أجسامنا تتيبس وأرواحنا تنكمش، والآن جاء الدفء الذي يجعل الصدور تنبسط وتنشرح. وبينما كنتُ أسير في طريقي، كانت أذني تلتقطُ صيحاتٍ خشنة غليظة تتعالى في أرجاء الفضاء. فرفعتُ رأسي، وشاهدتُ- مرةً أخرى- المنظر بالغ الروعة الذي كان يمس قلبي

منذ نعومة أظفاري: الغرانق والكراكي المصطفة في أسراب كأنها جيش محارب، وهي تقفل عائدةً أدراجها من الأقطار الدافئة؛ كانت تحمل على أجنحتها وفي التجاويف العميقة لأجسادها ذات العظام، تحمل طيور السنونو التي تبشر بمقدم فصل الربيع.

وبدا واضحاً أن دورة الزمن وعجلة الكون التي تدور، وفصول العام الأربعة- التي تحل على الأرض، والتي يعقب أحدها الآخر- تستمد ضوءها من الشمس، فملأتْ الحياة التي تمضي ونمضي معها، من جديد صدري بالقلق والاضطراب. وتردد مرةً أخرى داخلي- مع صياح الغرانق- صدى ذلك التحذير المخيف القائل إن حياتنا هذه حياة واحدة لكل إنسان على حدة، وأنه ما مِن حياة أخرى، وأنه لو استطاع الإنسان أن يستمتع بها هنا في عالم الأحياء فسوف يستمتع بها حقًّا، لأنها تنصرم بسرعة ولن يقع بصره أبدًا، في الحياة الأبدية، على فرصة أخرى سواها.

وإن العقل الذي يصغي إلى هذا النذير المخيف الذي لا يتهاون- الزاخر بالشفقة إلى أقصى حد- لخليق بأن يتخذ قرارًا بأن يتغلب على صنوف الشقاء والتعاسة، وعلى كل مظاهر الضعف التي تنتابه، وخليق أيضاً بأن ينتصر على كسله، وعلى آماله العظمى الباطلة، وأن يتشبث بشدة بكل ثانية تهرب منه إلى الأبد.

ساعتها، كانت تتصاعد إلى ذاكرتك أمثلةٌ وأنماطٌ عظيمة، فتشاهد بوضوح أنك لا شيء... نكرة، وأن حياتك تتبدد في أفراح صغيرة، وأتراح ضئيلة، وفي أحاديث بلا قيمة. فتصيح في حسرة: «واخجلاه! واخجلاه!»، وتعض شفتيك من الندم حتى تدميهما. مرتْ الغرانق عبر صفحة السماء،

واختفتْ في الجهة الشمالية، غير أن صوت صياحها الخشن كان لا يزال مسموعًا، وظلت تحلق طائرة دون توقف عابرةً السماء من ناحية إلى ناحية أخرى.

وصلتُ إلى البحر، وأخذتُ أسير بحذاء الساحل بصعوبة ومشقة، ذلك أن من العسير أن تسير بمفردك تمامًا على ساحل البحر. كانت كل موجة من أمواج البحر تهدر، وكل طائر يحلق في السماء يصيح، فيذكرك هذا بالواجب والالتزام. فحينما تكون بصحبة الآخرين، وتتجاذب معهم أطراف الحديث وتتناقش، ترتفع الضجة والصخب، فلا تسمع ماذا تقول الأمواج ولا الطيور؛ وربما لا تقول الأمواج والطيور شيئًا آنذاك. فهي ترمقك وأنت تمضي وقتك في إطلاق صيحات عقيمة وثرثرة، فتصاب بالصمم.

استلقيتُ على المحارات والأصداف، وأغمضتُ عيني. أخذت ساعتها أفكر: «في كُنه الروح، وفي مدى التماثل الخفي القائم بينها وبين البحر والسحب والروائح! وكأن الروح ذاتها هي البحر، وهي الغيمة، وهي العطر...». فنهضتُ من رقدتي، وتحركتُ من جديد، إذ كنتُ قد اتخذت قرارًا، غير أنني لم أكن أدري ما هو هذا القرار. وفجأةً سمعتُ صوتًا خلفي يقول: «إلى أين أنت ذاهب، بالسلامة، يا سيدي؟ هل أنت ذاهب إلى الدير؟».

التفتُّ فإذا بشيخ طاعن في السن، رشيق الحركة، قصير بدين، لا يتوكأ على عصا، وعلى رأسه منديل أسود يلف به شعره، أخذ يلوح بيده لي بالتحية وهو يبتسم. وفي أعقابه زوجته العجوز التي تتبعه، وخلفها ابنتها،

وهي فتاة ذات بشرة سمراء داكنة، وعينين شرستين، ترتدي على رأسها منديلاً أبيض.

عاود الشيخ سؤالي: «أذاهبٌ أنت إلى الدير؟». أحسستُ لتوي أنني كنت قد اتخذتُ قرارًا بالذهاب إلى الدير؛ وكنتُ منذ شهور قبل الآن أرغب في الذهاب إلى دير النساء الصغير المجاور للبحر، غير أنني لم أتخذ قرارًا بذلك. فأجبته: «أجل، أنا ذاهب إلى الدير، لكي أستمع إلى تحية جبريل للسيدة العذراء». فقال الشيخ: «لتكن مولاتنا مريم العذراء سنداً لك!». قال هذا ثم حثَّ خطاه إلى أن وصل إليّ، ثم قال: «من فضلك، هل أنت صاحب الشركة التي تنقب عن الفحم الحجري؟». قلت: «نعم». قال الشيخ: «إذن فلتهبك السيدة العذراء الربح الوفير. فأنت تسدي خيرًا للمنطقة؛ وتعطي خبزًا للأسر الفقيرة. فليجزكَ الله خير الجزاء».

لكن هذا الشيخ الرقيق– وكأنما نما إلى علمه أن أعمال الشركة قد صارت إلى بوار– أضاف قائلًا بطريقة تنطوي على العزاء: «وحتى لو لم تكسب شيئًا، يا ولدي، فلا تحزن! فإنك سترجع غانماً رابحاً من جديد، وإن روحك ستذهب إلى نعيم الفردوس...». قلت له: «هذا ما أطمع فيه، يا جَدِّي». فقال الشيخ: «إنني لا أعرف من العلم إلا أقله. وقد سمعت ذات مرة في الكنيسة موعظة من مواعظ المسيح عليه السلام، فانطبعت هذه الموعظة في ذهني ولم تبرحه قط. وهي موعظة مفادها: "لو أنك بعت كل ما تملك فلن يكون بوسعك شراء اللؤلؤة العظمى". وما هي اللؤلؤة العظمى؟ إنها خلاص الروح، يا ولدي؛ وأنتَ، سيادتك، ماضٍ في طريقك إلى اللؤلؤة العظمى».

قلتُ في نفسي: «اللؤلؤةُ العظمى! ترى كم عدد المرات التي برقت هذه اللؤلؤة في عقلي وسط الظلمة الحالكة، وكأنها دمعةٌ ضخمة؟». مضينا قُدُماً في طريقنا، الرجلان في المقدمة، والمرأتان وهما تمسكان الصليبَ في أيديهما خلفنا. وما بين الفينة والأخرى كنا نتجاذب أطراف الحديث المقتضب، عن أشجار الزيتون، وعن موعد ظهور أزهارها، وعن موعد هطول الأمطار كي يصبح الشعير صلباً. وبدا أن الشيخ المسن وأنا قد شعرنا بالجوع، لأننا سرعان ما حولنا دفة الحديث إلى الطعام، ولم نشأ بعدها أن نغير الموضوع. فقلتُ للشيخ: «وما هو أفضل طعام بالنسبة إليك، يا جِدُّو؟». فقال: «كل أنواع الطعام، أجل كلها جميعًا، يا ولدي. وإنها لخطيئة عظمى أن نقول: "هذا الطعام طيب المذاق، وذاك سيء"». فقلت: «لماذا؟ أوَ ليس في مقدورنا أن نختار؟». فقال الشيخ: «لا! فنحن بالقطع لا نستطيع». وعدت أقول: «ولكن لماذا؟». قال: «لأنه يوجد هناك بشرٌ جائعون».

فلزمت الصمت من فرط الخجل؛ فلم يستطع فؤادي قَط أن يبلغ مثل هذا المستوى الرائع من النبل والرقة والتعاطف. سمعنا صوت ناقوس الدير الصغير يدق بطريقة مرحة جذابة فاتنة، وكأنه ضحكة أنثى. فرسم الشيخ المسن علامةَ الصليب، وغمغم: «كوني سندًا لنا وعونًا، يا صاحبة الفضل الأعظم، يا مولاتنا مريم التي كابدت العذاب! كانت هناك وخزة سكين في رقبتها فسال منها الدم. وفي زمن القراصنة...».

بدأ الشيخ المسن يُعدد آلام السيدة مريم العذراء ويمعن في وصفها، وكأنها كانت امرأة بحق، مثل سائر النساء، فتاة مهاجرة مفزوعة مرتعبة طعنها البرابرة المتوحشون الكفرة بالسكين، وجاءت وهي تذرف الدموع

من الشرق في صحبة ولدها. فقال: «وينزف من جرحها مرةً واحدة كل عام دمٌ حقيقي دافئ. وأذكر أنني كنت- ذات مرة- في احتفال مقام لها، وكنت آنذاك شابًّا فتيًّا بلا شوارب، وكنا ننزل من جميع القرى المجاورة المحيطة بالدير لكي نصلي، امتنانًا وشكرًا لها على فضلها، وكان اليوم هو الخامس عشر من شهر أغسطس، واستلقى الرجال للنوم في الباحة، أما النساء فرقدن في الداخل. وفي هذه الليلة سمعت في منامي– تعاليتَ يا ربنا وجلت عظمتك!– مولاتنا العذراء مريم تنادي. فهببتُ من رقدتي واقفًا، وهرعت جريًا إلى أيقونتها، ومددت يدي إلى رقبتها. ويا لَلهول! ماذا رأيت؟ رأيت أن خاتمي قد تسربَل بالدماء...».

وهنا رسم الشيخ المسن علامةَ الصليب عدة مرات؛ ثم التفت خلفه ونظر إلى المرأتين، وشعر بالتعاطف معهما، فصاح: «إيه، أيتها المرأتان، فلتتشجعا، فقد قاربنا على الوصول!». وبعدها تحدَّثَ إليَّ بصوت خفيض: «كنتُ آنذاك لا أزال أعزب، فانطرحت على الأرض ساجداً خشوعاً لها، واتخذت قرارًا بالتخلي عن هذا العالم الزائف، وأن أصبح راهبًا...». قال هذا ثم ضحك. فقلت له: «لماذا تضحك؟ يا جِدُّو؟». فقال: «وكيف لا أضحك، يا ولدي؟؟؛ ففي اليوم ذاته، أثناء الاحتفال، اتخذ الشيطان صورة امرأة ووقف أمامي، وكانت هذه المرأة هي سيادتها!» وأشار لي بإصبعه، دون أن يلتفت إلى الخلف، إلى المرأة العجوز التي كانت تسير صامتة في أعقابه.

قال الشيخ بعدها: «لا تنظر إليها الآن، فقد يراودك الاشمئزاز من أن تلمسها. فساعتها كانت غادة هيفاء جذابة، مثيرة مثل السمكة المتألقة. وكان اسمها جايتانوفريذي (ذات الحاجبين الجذابين الرائعين). أما الآن!

إيه أيها العالم الضائع! فأين ذهب حاجباها؟ لقد ذهبا إلى غير رجعة، أزالتهما بالملقاط!». ولبرهة من الوقت، زمجرت المرأة العجوز السائرة خلفنا، وكأنها كلب عقور مخيف؛ ولكنها لم تنبس ببنت شفة.

مد الشيخ المسن يده، وقال: «هذا هو الدير!». في أقصى طرف للسان البحر كان الدير الأبيض الصغير يقبع متوسدًا بين صخرتين كبيرتين، وهو يبرق ببياض ناصع. ومن الداخل كانت قبة الكنيسة مكسوة باسبستوس بلون الحليب؛ كانت مستديرة تمامًا صغيرة الحجم وتماثل نهد أنثى. وحول الكنيسة، كانت هناك خمس أو ست صوامع للراهبات، لها أبواب مطلية باللون الأزرق اللازوردي؛ وفي الباحة، كانت هناك ثلاث شجرات سرو باسقة كبيرة الحجم متألقة؛ وحول السور كانت هناك أشجار تينٍ مزهرة كبيرة الحجم.

حثثنَا الخُطى، فتناهى إلى أسماعنا صوت ترتيل مزامير ذات ألحان جميلة من نافذة الهيكل المقدس المفتوحة؛ وانتشرَ أريج البخور المعطر في الهواء المشبع بملح البحر. كانت البوابة الخارجية العريضة معقوفة على شكل وتر الكمان، وكان الرواق المسور الممتد بالغ النظافة ومرصوفًا بمحارات وأصداف بحرية بيضاء وسوداء. وعن اليمين وعن اليسار ثمة حوائط مكونة من قطع متجاورة من الأحجار والطوب، وصفوف من الأصص بها زهور النعناع والمردقوش (= العتر) والريحان.

كان السكونُ يلفُ المكان، وكانت الشمس تنحدر نحو المغيب، أما الحوائط المبنية من الأسبستوس فقد اكتست باللون الوردي. وأما الكنيسة فكانت دافئة خافتة الضوء، وكانت تفوح منها رائحة الشموع. كان

الرجال والنساء يجوسون ويتحركون وسط سحب الدخان والبخور، وكانت هناك خمس أو ست راهبات متدثرات بإحكام في أرديتهن الكنسية، وكن يرتلن بأصوات رفيعة عذبة عبارة: «يا ربَّ القُوى»، كما كن جميعًا يستغفرن ويعلن الندم والتوبة، وكان حفيف أرديتهن الكهنوتية مسموعًا بوضوح، كأنه كان خفقان أجنحة.

لم أكن قد سمعتُ ترنيمةَ «تحية جبريل للسيدة العذراء مريم» منذ أمد بعيد. فبعد انقضاء فترة بواكير الشباب والتمرد، كنت أمر بمرحلة ازدراء الكنائس والغضب تجاهها؛ ومع انصرام الوقت ملت إلى الليونة والاعتدال. وما بين الفينة والأخرى، اعتدت أن أذهب إلى الكنيسة في الأعياد الأساسية الرئيسة: في عيد الميلاد، وفي أيام السهر والتبتل السابقة على الأعياد، وكذا في عيد القيامة. وكنت أجد اغتباطًا في بعث الغلام الذي ظل كامنًا داخلي. ويعتقد البدائيون المتوحشون أنه حينما تتخلى آلة موسيقية عن رسالتها الدينية وتصبح خفيضة النغمة، يصدر عنها كلام منغم متناسق؛ كانت الديانة قد أوجدت داخلي مثل هذه الغبطة الجمالية.

وقفتُ في أحد الأركان، واستنندتُ إلى مقصورة مصقولة لامعة، أصبحت مثل العاج جراء كثرة لمسات أيدي العابدين لها، وأخذتُ أصغي إلى الألحان الميلودية البيزنطية المتوارثة من الزمن البعيد: «سلاماً وتحية، يا شموخاً تقصر عن بلوغه عقول البشر، سلامًا وتحية، يا عمقاً تعجز عن إبصاره عيون البشر... سلاما وتحية؛ يا عروساً بتولاً لم تقترن بزوج من البشر...».

هوتْ الراهبات على الأرض من فرط الخشوع والإيمان، ومن جديد

أصدرتْ أرديتهن الكهنوتية حفيفاً مثل خفقان الأجنحة. وأخذت اللحظات تمرُ علينا كأنها ملائكة ذوات أجنحة من البخور المعطر، تحمل بين طياتها زهور زنبق مقفلة، وتترنم بأهازيج الثناء على جمال مريم العذراء.

آذنت الشمس بالمغيب في قبة السماء وهبط الغسق بأشعته اللازوردية ذات الزغب. ولا أتذكر كيف وجدنا أنفسنا خارج الباحة، ولا كيف وجدت نفسي بمفردي مع كبيرة الراهبات العجوز التي كانت بصحبتها راهبتان شابتان، تحت شجرة الصفصاف الأكبر حجمًا. أحضروا لنا ملعقة الحلوى والماء السلسبيل، وتجاذبنا أطراف الحديث الهادئ.

تحدثنا عن معجزات مولاتنا العذراء مريم، وعن الفحم الحجري، وعن الطيور التي بدأت الآن تعلن- بمولد صغارها- مقدم الربيع، وعن الأخت الراهبة يوذوكسيا التي أصابها مرض الصرع. إذ كانت هذه الراهبة تسقط على بلاط أرضية الكنيسة، وتتلوى بشدة مثل السمكة؛ كان الزَّبد يتناثر من شدقيها مع السبابِ وإهانة المقدساتِ، وكانتْ تمزق ملابسها.

أضافتْ كبيرة راهبات الدير، وهي تتنهد بأسى: «إن عمرها الآن خمسة وثلاثون عاما، وهي سِنٌّ ملعونة تنطوي على أوقات صعبة عسيرة، ولكن بركة مولاتنا مريم العذراء وفضلها سوف يساعدانها، وسوف تُعَافَى وتُشْفَى...» فغمغمتُ، وأنا أتنهد: «عشرة أعوام، خمسة عشر عامًا... (وهي تعاني هذا المرض)». فقالت كبيرة راهبات الدير بحدة وحسم: «وما هي قيمة الأعوام العشرة أو الخمسة عشر؟ أفلا تتفكر أو تتدبر في الخلود؟».

لم أتكلم، وذلك لأنني كنت أعرف أن الخلود هو كل لحظة تمر علينا؛

فقبلت يد كبيرة الراهبات البضة البيضاء التي تفوح برائحة البخور، وانصرفت لحال سبيلي.

كان المساء قد لف الكون بغلالته، وكانت ثلاثة غربان تحوم بسرعة فوق مجاثمها، وخرجت البوم من أعشاشها في أعالي الأشجار بحثًا عن غذائها، وخرجت من باطن الأرض الحلزونات واليساريع والديدان والفئران التي تتخذ منها طيورُ البومِ غذاءً لها».

إن الأفعى الغامضة التي عقرت ذيلها تحاصرني وتلتف حولي؛ الأرض تلدُ ثم تأكلُ أولادَها، ثم تعودُ فتلد من جديد، وتأكل ما تَلده مرةً أخرى؛ إنها دائرة محكمةٌ تمام الإحكام. طُفتُ بعينيَّ أرجاء المكان حولي: كان الظلام قد خيم والسكون قد انتشر، وكان آخر القرويين قد رحلوا، ولم يعد أحد منهم يراني. خلعتُ نعليَّ ثم غمستُ قدميَّ في مياه البحر، وبعدها أخذتُ أتقلبُ بسعادة غامرة على رمال الشاطئ. كانت هناك حاجةٌ سيطرت عليَّ ودفعتني إلى أن ألمس بجسمي العاري الصخور والمياه والهواء. كانت الكلمة التي تلفظتْ بها كبيرة راهبات الدير، وهي "الخلود أو الأبدية"، قد أثارت حنقي، إذ سقطتْ فوقي كأنها أنشوطة أو طوق يمسك بزمام الجياد البرية الجامحة.

قفزتُ من مكاني بغية الهروب: كان مرامي أن ألمس الأرض وأنا متجرد من ملابسي، وصدري ملاصق لصدرها؛ وأن ألمس البحر وأن أحس بثقة أن هذه الكائنات الزائلة الحبيبة إلى نفسي موجودة. وصرختُ من أعماقي: «إنك موجودة، إنك وحدك الموجودة، أيتها الصخرة، وكذا أنت أيها الثرى ويا أيها الماء ويا أيها الهواء. وأنا، أيها الأرض، ابنك الذي ولد حديثًا، ابنك

الذي يلقم ثديك ويرضع من لبنك، ولا يترك أبدًا ثديك. إنك تدعينني لأعيش وحدي برهةً من الزمن، غير أن هذه اللحظة تغدو ثديًا ورضاعة».

غدوتُ كأنني أتعرضُ لخطر الاختناق داخل هذه الكلمة، آكلة لحوم البشر، أعنى كلمة «الخلود»؛ ترى هل رُويتْ عليَّ هذه القصةُ باشتياق غامر؟ تُرى في أي مكان، ومتى؟ أجل، كان ذلك في العام الماضي، حين انحنيتُ على الأرض وأنا أغمضُ عينَيّ، وتركت نفسي لأسقطَ فوقها بيدين مفتوحتين.

فعندما كنت في الصف الأول من المدرسة الابتدائية، كنت أدرس الجزء الثاني من كتاب المطالعة الذي كانت يتضمن حكاية تدور على النحو التالي: «سقط غلام في بئر، فوجد فيه مدينة بالغة الجمال بها بساتين رائعة خصبة- كما أذكر- وعسل وأرز باللبن ولعب كثيرة...». كان عليَّ أن أقسِّم كلمات الحكاية إلى مقاطع، ومع كل مقطع كنت أغوص أعمق في مغزى الحكاية. وذات يوم، ساعة الظهيرة، عندما كنت راجعًا من المدرسة، دخلت منزلي وأنا أجري، وانحنيت فوق البئر الكائن تحت تعريشة كروم في فناء المنزل، وأخذت أحدق وأنا مبهور في صفحة المياه السوداء اللامعة. وخيل إليَّ أنني شاهدت المدينة بالغة الجمال، وأن فيها منازل وطرقات وأطفالاً، وتعريشة كروم محملة بعناقيد العنب. ولم أستطع أن أتحمل أكثر من ذلك، فدلَّيت عنقي ورأسي لأرى أكثر، ومددت يدَيَّ إلى أسفل، وركلت الأرض فعلاً بقدميَّ بغية أن أسقط أسرع. لكن أمي- في تلك اللحظة- أبصرت بي، فصرخت بصوت عالٍ، وهرعت لإنقاذي، وبالكاد تمكنت من إمساكي من خصري...

عندما كنت ولدًا صغيرًا إذن تعرضت لخطر الوقوع في البئر؛ وعندما شببت عن الطوق وصرت يافعًا، تعرضت لخطر الوقوع في كلمة «الأبدية أو الخلود». وكذلك الوقوع في أحابيل بعض الكلمات الأخرى، منها: «العشق»، و«الأمل»، و«الوطن»، و«الله»... كان كل عام يمرُّ عليَّ يوحى إليَّ بأنني نجوت من هذا الخطر، وأنني تقدمت حثيثًا إلى الأمام. ولكنني- في الحق- لم أكن أتقدم حثيثاً، بل كنت أُغير الكلمة فقط، وكنت أسمي هذا فدية أو افتداء.

أما الآن، في خاتمة المطاف، فبعد عامين بالكامل، أجد نفسي متعلقًا بكلمة «بوذا».

وعلى أية حال، فليحظ زوربا بالخير الوفير، فهذا هو البئرُ الأخير والكلمةُ الأخيرة، التي ستمنحني الخلاص والنجاة على الدوام؛ هل سيكون ذلك حقاً على الدوام؟ أجل! فعلى هذا النحو نتحدث معًا بلا انقطاع. ارتعدتُ وارتجف جسدي بأسره من كعبي حتى رأسي، إذ كنتُ سعيدًا. تجردتُ من ملابسي وقفزتُ إلى البحر، كانت الأمواج تضحك، وكنت أضحك معها، وكنا نلهو سويًا. وعندما أحسست بالإرهاق خرجت من البحر، وجففت جسمي تحت هواء الليل، ثم اتخذت طريقي نحو المنزل سائرًا بخطى سريعة، وبدا لي أنني قد نجوت من خطر داهم محقق، وأنني وقعت في قبضة ثَدْي الأم ولبنِها.

(16)

وما أن وقع بصري على شاطئ الفحم الحجري حتى توقفت فجأة؛ إذ شاهدت ضوءاً داخل السقيفة، فقلت فيما بيني وبين نفسي وأنا أحس بالاغتباط: «لا ريب أن زوربا قد وصل!». حاولت أن أعدو غير أنني كبحت جماح هذه الرغبة، وقلت لنفسي: «ينبغي عليّ أن أخفي فرحتي؛ يتعين عليّ أن أبدو غاضبا وأن أبدأ بالعتاب والملامة. لقد أرسلته لإنجاز أعمال عاجلة، وها هو قد بدد أموالي، وتورط مع بنات الهوى الفاتنات. وها هو الآن أيضاً قد تأخر عني اثني عشر يوما؛ لا بد أن أتظاهر بأنني غاضب وحانق عليه، أجل لا بد...».

تحركتُ بخطى بطيئةٍ متثاقلة، كي أحظى بوقت لإظهارِ غضبي. وكنتُ أحاول جاهدًا أن أستثير نفسي لأشعر بالضيق، فأخذت أقطب ما بين حاجبيَّ، وأضم قبضتيَّ، وأستحضر جميع الإشارات والإيماءات الدالة على الحنق كي أغضب بصورة لا مراء فيها. غير أنني لم أغضب، فكلما اقتربت من السقيفة زاد سروري.

اقتربتُ حتى أصبحتُ قابَ قوسين أو أدنى من الباب؛ ونظرتُ من النافذة الصغيرة المضيئة؛ فشاهدتُ زوربا راكعاً على ركبتَيه على الأرض، بعد أن أشعلَ نارَ الموقدِ وأعدَّ القهوة. شعرتُ بقلبي يذوب، وصحتُ بصوت عالٍ: «زوربا!». وفجأةً انفتح الباب، وإذا بزوربا واقفًا أمامي حافي القدمين دون أن يرتدي قميصًا، اندفع خارجًا من السقيفة، ومد عنقه في الظلام، فوقع بصره عليَّ ففتح ذراعيه مهللاً، غير أنه سرعان ما تراجع وترك ساعديه يسقطان إلى جنبيه. قال بصوت مشوب بالتردد، وهو واقف أمامي وملامحه عابسة مقطبة: «سعيد لأنني وجدتك، يا رَيِّس!». حاولت أن أجعل صوتي يبدو غاضبًا وقلت بتهكم: «مرحبًا بك، وأهلاً بعودتك! إياك أن تقترب مني، فرائحة الصابون المعطر تفوح منك». فغمغم قائلًا: «ألا فلتعلم أنني اغتسلتُ مرات كثيرة، يا رَيِّس؛ وتدلكت ومشطت ما بقي من شعر على جلد رأسي، قبل أن أمثل أمامك وجهًا لوجه! أجل لقد أمضيت ساعة كاملة في الاستحمام. غير أن هذه الرائحة الملعونة (ما تزال باقية)... فماذا عساي أن أفعل معها؟ إنها ليست المرة الأولى، سوف تزول، شاءت أم أبت». فقلت له: «هيا بنا إلى الداخل».

كنت أحس ساعتها وكأنني غير قادر على التماسك وضبط النفس، إذ كان الضحك يراودني. ولجنا في السقيفة، فوجدت أنها معبقة بروائح شتى: البودرة النسائية، الصابون المعطر، عطر النساء. وعندما شاهدت صندوقًا تكدس فيه الصابون المعطر، والجوارب النسائية، ومظلة نسائية حمراء، وزجاجتا عطور، صحت فيه: «أفلا تخبرني عن هذه المساخر التي في الصندوق؟».

غمغم زوربا، وهو ينكس رأسه: «إنها هدايا...». تظاهرت بالحنق والثورة، وقلت: «هدايا؟ أتقول هدايا؟». فقال زوربا: «أجل! إنها هدايا، يا رَيِّس، فلا تغضب؛ هدايا إلى غندورتي الملعونة... فهي تحب التأنق، كما أنها قريبة من قلبي، وهي إنسان يستحق أن يُهْوَى».

أفلحتُ في أن أمنع نفسي من القهقهة، ثم قلت: «ولكنك لم تحضر لها الشيء الأكثر أهمية...». قال: «وما هو؟». قلت: «إكليل الزواج». ثم شرعت أقص عليه الحكاية التي اخترعتُها عنه، وأخبرت بها السيرينية العجوز المغرمة به صبابةً، فأطرق زوربا برأسه، وفكر مليًّا لبرهة من الوقت، ثم قال في خاتمة المطاف: «لم تفعل الصواب، يا رَيِّس! أجل لم تحسن التصرف، وسامحني في هذا القول. فمثل هذا النوع من المزاح، يا رَيِّس..... إن المرأة مخلوق ضعيف، رقيق، كَم من مرة يتعين عليَّ أن أقول لك هذا؟ إن المرأة مثل زهرية من البورسلين تتطلب منك عناية فائقة في التعامل معها، يا رَيِّس».

خجلتُ من نفسي، وشعرت بالندم على ما فعلت، ولكن الأوان كان قد فات، فغيرتُ مجرى الحديث، وسألته: «وماذا عن السلك المعدني؟ وعن الأدوات اللازمة؟». فقال: «لقد أحضرتها كلها، أحضرتها جميعًا، فلا تقلق! فأنت لا تستطيع أن تأكل الفطيرة وتحتفظ بها في الوقت نفسه. كُلُّه تمام، يا رَيِّس، الخط الهوائي، لُولَا، والغندورة».

أنزل الغلاية من على النار، ثم ملأ فنجاني بالقهوة، وقدم لي كعكات بالسمسم كان قد أحضرها معه، وحلاوة طحينية بالعسل، كان يعرف أنني مولعٌ بها. ثم قال بلهجة رقيقة: «لقد احتفظت لك بقطعة كبيرة من

الحلاوة لأهديها لك! فأنا لم أنسَك؛ هاك فخُذها، كما أحضرت لببغاء المدام زكيبة مليئة بالفول السوداني. لم أنس أحدًا؛ وكما قلت لك، كان معي من المال مبلغ خمسمائة». أخذت في التهام الكعكات والحلاوة، وشربت القهوة، أما زوربا فجلس القرفصاء، وأخذ يشرب بدوره قهوته ويدخن سيجارته، ويرمقني ما بين الفينة والأخرى؛ كانت عيناه تتفرسان فيَّ وتغويانني، كما لو كانتا عينا أفعى.

وهنا سألته بصوت جعلته رقيقًا: «هل حللتَ المشكلة الكبرى التي كانت تسيطر عليك، أيها المسن المعذَّب؟». فقال: «وما هي هذه المشكلة، يا رَيِّس؟». قلت: «ما إذا كانت المرأة إنسانًا، أو ليست إنسانًا!». فأجابني زوربا وهو يلوح بذراعه: «أوووه! لقد ذهب هذا الموضوع لحاله! فالمرأة أيضًا إنسان، أجل إنها إنسان مثلنا تمامًا، بل أسوأ! إذ لو وقع بصرها على حافظة نقودك وزاغت عيناها، فإنها تتعلق وتلتصق بك، وتفقد حريتها، وتكون مغتبطة بأنها فقدت هذه الحرية؛ لأن حافظة نقودك- كما ترى- تبرق في عينيها، وفي لمح البصر... فدع عنك هذا الحديث، يا رَيِّس، عليها اللعنة!». قال هذا ونهض واقفًا، وقذف بما تبقى من سيجارته عبر النافذة الصغيرة، وقال بعدها: «لنتكلم الآن كلامًا يخص الرجال. فها هو أسبوع الآلام يقترب، ولقد حصلنا على السلك المعدني، وحان الوقت كي نصعد إلى الدير، لنقابل هؤلاء الثيران من الرهبان، ونوقع الأوراق الخاصة بالغابة... قبل أن يشاهدوا الخط الهوائي، وتنتفخ أوداجهم ويتبجحون، هل فهمت؟ فالوقت يمر كالسراب، يا رَيِّس، وليس من المناسب أو الصواب أن نتقاعس في مثل هذه الأمور، ولا بد أن ننجز شيئًا، ولا بد أن تأتي البواخر بالأخشاب

كي نجابه ما أنفقناه من أموال... فقد كلفتني هذه الرحلة إلى مدينة كاسترو مالاً كثيرا. والشيطان كما ترى...».

فقلت له وأنا أرثي لحاله: «كفى! كفى!، يا زوربا!». كان مثله كمثل غلام صغير تمرد وعصى، ولم يعد يدري الآن كيف يصلح ما أفسده؛ وغدا قلبه يرتجف خوفًا. غير أنني نهرت نفسي قائلًا لها: «أفلا تخجل حينما تدع نفسًا أخرى كهذه ترتجف خوفًا؟ هيا انهض، فلن تجد أبدًا زوربا آخر. هيا انهض، تناول الإسفنجة وامسح بها الذنوب!». بعدها صحت فيما يشبه الانفجار: «زوربا، دع الشيطان لحاله، فليست بنا حاجة إليه! وما فات يجب أن يصبح في طي النسيان. هيا تناول آلة القانون، واعزف لنا!».

مد كلتا يديه كأنه يريد أن يعانقني مرةً أخرى؛ لكنه سرعان ما تراجع، وبخطوة واحدة وصل إلى الجدار، وانحنى كي يتناول آلة القانون. وعندما اقترب من نور القنديل، تمكنت من رؤية شَعره بوضوح، كان شعره مصبوغًا بصبغة سوداء فاحمة. فلم أتمالك نفسي وهتفت قائلًا: «إيه، أيها الوغد المنافق، ما هذا الشَّعر؟ وأين وجدته؟». فضحك زوربا وقال: «لقد صبغته، يا رَيِّس، أجل لقد صبغت شعري درءًا للشؤم والنحس...». فقلت: «ولماذا؟»؛ قال: «طلبًا للتفاخر والمباهاة. ففي ذات يوم كنت أسير مع لُولَا، وكنت أمسك بيدها. ليس كذلك... أجل هكذا، بأصابع متشابكة! وكان هناك وغد زنيم قليل الحياء إلى حدٍّ بعيد، هتف بنا اللعين من خلفنا وقال: "أنت، أيها الطاعن في السن، أنت يا جِدُّو!، إلى أين تذهب بحفيدتك؟".

وشعرت لُولَا المسكينة بالخجل، بمثل ما شعرت أنا به تمامًا، ولكي لا

أجعلها تخجل، ذهبت في الليلة ذاتها إلى صالون الحلاقة وصبغتُ شعري».

هنا ضحكت بصوت عالٍ، غير أن زوربا رمقني بجدية ورزانة، وقال: «هل يبدو لك الموقف هزليًا، يا رَيِّس؟ ومع ذلك اسمعني جيدًا، وفكر فيما أقول: تُرى أي سر تنطوي عليه جوانح الإنسان؟ منذ اليوم الذي صبغت فيه شعري أصبحت إنسانًا آخر. ولعلني أظن أو أعتقد أنا نفسي أن شعري أصبح أسود- لأن الإنسان كما ترى ينسى ما لا يهمه أو يعنيه- ولكن أقسم بالله أن قوتي قد ازدادت، وهذا ما أدركته لُولَا. كما أن وخزة مؤلمة كنت أحس بها هنا في كليتي- هل تذكرها؟- قد زالت وتوقفت بدورها! أفلا تصدق هذا؟ إن هذه الأمور- كما ترى- ليست مدونة في أوراق كتبك...!».

قال هذا ثم انخرط في الضحك بسخرية، غير أنه سرعان ما شعر بالندم، فقال: «أرجو أن تسامحني، فالكتاب الوحيد الذي قرأته في حياتي هو "القروي الماكر المداهن"، ولم يقدم لي عونًا كبيرًا». بعدها أنزل آلة القانون من على الحائط؛ فلقد كان حيواناً برياً، يحب الكرم والسخاء. خرجنا من السقيفة إلى الخلاء، وكانت النجوم متألقة في قبة السماء، وكانت مياه نهر الأردن(*) تتدفق من ناحية من السماء إلى الناحية الأخرى؛ أما البحر فكان ساخنًا بفعل حرارة الجو. جلسنا القرفصاء على الأصداف والقواقع المتناثرة على الساحل، وكانت الأمواج تلعق باطن قدمينا.

(*) نهر ينبعُ من سوريا ويصبُ فى البحر الميت، وهو مُقدس عند المسيحيين لأن المسيح عليه السلام عُمد في مياهه. وبالطبع فإن "كزَنتزَاكِيس" هنا يتكلم عنه بعين الخيال انطلاقاً من مشاعره الدينية. [المترجم].

قال زوربا: «إن الفقر يروم سعة العيش، ولكن لماذا؟ أيظن أنه سيجعلنا أسفل سافلين؟ هلمي إليّ، يا آلة القانون!» فقلت له: «اعزف لنا لحنا مقدونيًا من مسقط رأسك، يا زوربا!». فقال زوربا: «بل لحنًا من مسقط رأسك أنت، جزيرة كريت! فلسوف أغني لك "سرينادا" شعبية مؤلفة من بيتين، تعلمتُ عزفها في مدينة كاسترو؛ ومنذ أن عزفتها تغيرت حياتي تمامًا». قال هذا ثم فكر برهةً من الوقت، وعاود الحديث: «لا! لم تتغير حياتي تمامًا، غير أنني الآن أدركت أنني كنت على حق».

مد أصابعه المكتنزة إلى أوتار آلة القانون، ثم اشرأب بعنقه، وغنى بصوت أجش حاد، زاخر بالجوى والشوق يتماوج في الهواء، الأغنية الشعبية التالية:

«بمجرد أن تفكر في القيام بعمل، فافرد شراعك واقلع، ولا تخف!

أطلق العنان لشبابك، ولا تندم أو تتحسر عليه!».

تبددتْ الهموم، ومضتْ المنغصات الهينة في طريقها، وعَثُرتْ النفس على ذروتها... لُولَا، الفحم الحجري، الخط الهوائي، «الخلود»، هموم صغيرة، هموم ضخمة، كلها أصبحت دخانًا أزرق وتبددتْ، ولم يبق منها سوى طائر من الصُلْب، هو نفس الإنسان التي كانت تغرد.

صحتُ بأعلى صوتي، عندما انتهى زوربا من أداء لحنه الرائع، الزاخر بالكبرياء: «آه، يا زوربا، كم أنت عظيم ورائع! وكل ما فعلته خليق بالإعجاب: محبوبة قلبك، شَعرك الذي صبغته، النقود التي أنفقتها، كل شيء... كل شيء! واصل الغناء، أرجوك!». فرفع رقبته النحيلة ذات الفجوات الكثيرة وأنشد:

«افرد شراعك وأقلع، معولاً على إيمانك، إلى حيث تنبثق الحرارة وينتشر الدفء،

وارحل! سواء واتتك فرصة العمل، أو ضاعت منك ونضُب معينها!»

سمع نفر من العمال الذين كانوا نائمين خارج منجم الفحم الحجري هذه السيرينادات، فنهضوا من رقادهم، وساروا على أطراف أصابعهم، وأقعوا جالسين حولنا؛ فلقد سمعوا لحنهم الشعبي المحبوب، وشعروا بالوخز في أقدامهم. وفجأةً أصبحوا غير قادرين على أن يتمالكوا أنفسهم، إذ انتفضوا في الظلمة الحالكة، نصف عرايا كما حضروا، وشعورهم مهوشة، بسراويلهم القصيرة المنفوخة والمرفوعة عند الركبة، وتحلقوا حول زوربا وجعلوه في وسطهم ومعه آلة القانون، وأخذوا يرقصون رقصة عنيفة فوق الحصى المستدير.

أخذتُ أرمقهم وأنا مبهور من النشوة، صامتاً ومتفكراً، وقلتُ في نفسي: «هذا هو الترابط الحقيقي الذي كنت أنشده، ولا أريد غيره».

وفي اليوم التالي قبل بزوغ الفجر تردد صدى دهاليز المنجم على إثر طرق المعاول وجراء صيحات زوربا. كان العمال يعملون بحماس يصل إلى حد السعار، وكان زوربا هو وحده القادر على استمالتهم وإشعال حماسهم؛ كان العمل معه يصبح نبيذًا، ويغدو أغنية وعشقًا ونشوة كنشوة السكارى. كان العالم يكتسب حيوية ونشاطًا على يديه، وكانت الصخور، والفحم الحجري، والأخشاب والعمال يسيرون وفق إيقاعه. احتدمت منافسة نزال بين العمال داخل الدهاليز تحت الضوء الأبيض لمصابيح الأستيلين، كان زوربا في مقدمتهم ويصارع معهم صدرًا بصدر. كما كان يمنح اسمًا لكل

دهليز ولكل سنادة من عروق الخشب، بل إنه كان يُشَخِّصُ القوى غير المشخصة؛ وهكذا كان العمال غير قادرين على التملص منه أو على تركه.

كان زوربا معتادًا على أن يقول: «بوسعي أن أعرف أن هذا الدهليز هو دهليز "كاناڤارو(*)" (وكان قد عَمَّدَ الدهليز الأول بهذا الاسم)، وهو يروق لي؛ إنني أعرفه باسمه، ولذلك فإنه لا يجرؤ على أن يختصني بعمل مهين. لا وليس هذا في مقدور دهليز "كبيرة الراهبات"، أو حتى دهليز "متقوس الساقين". فأنا أعرف هذه الدهاليز جيدًا، وأقولها لك، أعرفها دهليزًا دهليزًا وبأسمائها».

كانت قدماي قد أغريتاني اليوم بالسير داخل أحد الدهاليز، دون أن يقع عليَّ بصر زوربا. وصاح زوربا في العمال: «الهمة، الهمة يا أولاد، فلنمض قُدمًا لنأكل هذا الجبل أكلاً؛ فنحن بنو الإنسان، أعظم الحيوانات، ينظر الله إلينا ويَعجب منا ومن عزيمتنا. وأنتم مواطنون كريتيون، بينما أنا مقدوني، وسوف نأكل الجبل أكلاً، وهو عاجز عن أكلنا! فنحن، يا هذا، الذين أكلنا تركيا، ولسوف نبث الرعب في قلب هذا التل. الهمة! الهمة، يا رجال!».

وجاء من أقصى الطريق شخص يعدو نحو زوربا، وفي ضوء مصباح الأستيلين استطعت أن أتبين ملامح وجه ميميثوس النحيل. وحالما وصل صاح بصوته المتلعثم: «زوربا! زوربا!»؛ وبمجرد أن استدار زوربا وشاهد ميميثوس، أدرك الغرض من مجيئه، فرفع يده الضخمة في وجهه وقال:

(*) كان زوربا ينطق اسم هذا الدهليز وهو يقلد طريقة نطق محبوبته مدام "أورتانس". [المترجم].

«اغرب عن وجهي! اذهب بعيدًا!». فقال الرجل: «إنني قادم من عند مدام.....»؛ ثم أمسك عن الكلام هلعًا كأن مسًّا من الجنون قد أصابه. وقال زوربا: «قلت لك اغرب عن وجهي! فلدينا عمل ننجزه!» فولى ميميثوس الأدبار وأطلق ساقيه للريح، أما زوربا فقد بصق في أثره بعد أن استولى عليه الحنق والثورة. ثم قال بعدها: «إن النهار للعمل، والنهار رجل، أما الليل فهو للمتعة والترويح، والليل امرأة، فلا ينبغي أن نخلط بين الأمور!». وهنا قفزت من مكاني، وقلت: «لقد حل وقت الظهيرة، يا أولاد، وحان الوقت أن تتوقفوا عن العمل، وتنصرفوا لتناول الطعام».

فالتفت زوربا، ووقع بصره عليَّ، فاكفهر وجهه وقطب ما بين حاجبيه، ثم قال: «من بعد إذنك، يا رَيِّس، دعنا لحالنا، وحياتك، واذهب أنت لكي تتناول طعامك. لقد ضاع منا اثنا عشر يومًا، ويجب أن نعوض ما خسرناه؛ بالهناء والشفاء لك!».

انصرفت من الدهليز، وسرت في الطريق حتى هبطت إلى الساحل؛ وفتحت الكتاب الذي كنت أحمله، وكنت قبلها أشعر بالجوع فنسيت جوعي. وفكرت فيما بيني وبين نفسي: «إن الفكر منجم زاخر، فالهمة الهمة في ارتياده!» وهكذا غصت في الدهاليز العظمى للعقل. كان الكتاب محيرًا ومثيرًا، يدور حول جبال التبت المكسوة بالثلوج، ومعابدها الغامضة، وكهنتها الصامتين الذين يرتدون أردية الرهبنة الصفراء، والذين يكثفون إرادتهم فيجبرون الهواء على اتخاذ صورة تتفق مع رغباتهم.

قمم جبال شاهقة، وهواء كثيف بسبب أنفاس أرواح كثيرة، غير أن عبثَ العالم الأجوف لا يصلُ إلى حدود هذا المكان الشامخ في ارتفاعه.

فهناك يأخذ كبير النساك تلاميذه- وهم غلمان في سن السادسة عشرة حتى سن الثامنة عشرة- ويذهب بهم عند انتصاف الليل إلى بحيرة مياهها متجمدة في الجبل. ثم يجعلهم يخلعون ملابسهم، ويحطمون الثلج الذي يغطي سطح البحيرة مثل الكريستال، ويغمسون ثيابهم في الماء المتجمد، ثم يرتدونها بعد ذلك ويجعلونها تجف على جلودهم. ثم يعودون فيغمسونها في الماء المتجمد، ويعاودون ارتداءها سبع مرات. ثم بعد ذلك يقفلون عائدين أدراجهم إلى الدير عند انبلاج الفجر.

وهم يصعدون إلى قمة الجبل التي يصل ارتفاعها إلى خمسة آلاف أو ستة آلاف متر، وهناك يجلسون في سكون ويتنفسون بعمق وبانتظام، ونصف جسمهم الأعلى عارٍ تمامًا، ولا يحسون بالبرد. وهم يمسكون بكأس به ماء متجمد في أكفهم، ثم يحدقون فيها ويمارسون التركيز، ويلقون بأشعة من قوتهم الباطنة على هذا الماء المتجمد، فيغلي الماء ويصنعون منه الشاي الذي يشربونه.

ويجمع كبير النساك تلاميذه حوله، ويصيح فيهم:

«-واحسرتاه على مَن لا يحظَى باطنه بنبع من السعادة!».

«-واحسرتاه على مَن يريد أن يُعجب به الآخرون!».

«واحسرتاه على مَن لا يشعر أن هذه الحياة الدنيا والحياة الأخرى حياة واحدة متصلة!».

كان الظلام قد أرخى سدوله، فلم أعد أرى ما أقرأ، فأغلقت الكتاب وأخذت أرنو إلى البحر. وغدوت أفكر فيما بيني وبين نفسي: «ينبغي عليَّ أن أنجو من جميع الكوابيس: البوذيين، الأرباب، الأوطان، الأفكار»؛

وصحت: «واحسرتاه على مَن لا ينجو من البوذيين، والأرباب، والأوطان، والأفكار!».

وفجأةً غدا البحر سوادًا حالكًا، ومال القمر غير المكتمل سالكًا طريقه نحو المغيب؛ وعلى مبعدة من البساتين كانت الكلاب تنبح نباحًا حزينًا، وكانت الوهدة بأسرها تعوي. أهل عليَّ زوربا وهو مغبر وملطخ بالسناج والأوحال؛ كان قميصه ممزقًا إلى شرائط. فأقعى بجواري، ثم قال وهو منشرح الصدر: «لقد مر اليوم على أفضل حال؛ فلقد عملنا بجد واجتهاد». أصغيت إلى كلمات زوربا دون أن أفهم منه شيئا؛ فقد كان عقلي لا يزال بعيدًا مع أرض الجبال الشاهقة والصخور المنحدرة. فقال لي زوربا، وقد ذهب عقله بعيدًا: «فيمَ تفكر، يا رَيِّس؟». استجمعت شتات عقلي والتفت؛ ثم تفرست مليًّا في وجه رفيقي، وهززت رأسي وأجبته: «يا زوربا، أتظن أنك مغامر بحري مخيف ومرعب، وأنك جبت أرجاء العالم وأنت تتيه اختيالاً. مع أنك لم تشاهد شيئًا، ولم تر شيئًا على الإطلاق، أيها التعس المنكودا حتى أنا لم ترَني! إن العالم أعظم بكثير وأرحب بكثير مما نظن أو نعتقد. فنحن نرتحل ونرتحل، وليس في مقدورنا أبدًا أن نضع أقدامنا خارج عتبة منزلنا».

زَم زوربا شفتيه ولم ينبس ببنت شفة، بل هَرَّ ودمدم مثل كلب يُجلد. وواصلتُ حديثي: «هناك جبالٌ ضخمة هائلة زاخرة بالمقدسات والأديرة، وداخل هذه الأديرة يعيش رهبان يرتدون أردية الرهبنة الصفراء، وهم يجلسون القرفصاء لمدة شهر وشهرين وستة شهور، ويفكرون في شيء واحد لا سواه، أتسمع؟ في أمر واحد فقط لا أمرين؛ أجل أمر واحدا وهم لا

يفكرون مثلنا في النساء والفحم الحجري، أو في الكتب والفحم الحجري، بل يركزون عقلهم، يا زوربا، في أمر واحد لا سواه؛ وهم يصنعون المعجزات... فهكذا تُصنع المعجزات. أرأيت، يا زوربا، حينما تعرض عدسة لنور الشمس وتركز بها أشعة الشمس في نقطة محددة لا سواها؟ هذه النقطة- بعد برهة قليلة- ستشتعل نارًا؟ لماذا؟ لأن قوة الشمس لم تتبدد، بل تركزت كلها فوق العدسة، وبالمثل عقل الإنسان. إن بوسعك أن تصنع المعجزات، لو ركزت عقلك في أمر واحد فقط. هل تفهم، يا زوربا؟».

كادت أنفاس زوربا أن تتوقف وارتج عليه؛ غير أنه ما لبث بعد لحظة أن هب منتفضًا وكأنه يريد الفرار. لكنه تماسك وسيطر على نفسه، فزمجر بصوت مختنق، وقال: «تابع القول!». غير أنه سرعان ما هب مرةً أخرى من جلسته، وانتصب واقفًا، ثم صاح: «صمتًا! صمتًا! لماذا تخبرني بهذه الأشياء، يا رَيِّس؟ لماذا تُسمم قلبي؟ لقد كنتُ بخير في مكاني هذا، فلماذا تنخسني وتُدميني؟ لقد كنت جائعًا فألقى لي الله، أو لعله الشيطان- فاللعنة عليَّ لو كنت قادرًا على التمييز بينهما- بعَظْمة، فشرعتُ في نحتها بأسناني. ولذا كنت أهز ذيلي، وأصيح بأعلى صوتي: "شكرًا! شكرًا! والآن...». وهنا ضرب بقدمه الحصى الذي يغطي الأرض، وبعدها ولَّى ظهره لي، وتظاهر بأنه ذاهب تجاه السقيفة؛ ولكن لأن باطنه كان لا يزال يغلي، فقد توقف ثم زمجر قائلًا: «أُف! يا لَسعادتي بالعظْمة التي ألقاها لي الله أو الشيطان! ألقى لي بالغندورة اللعينة! وسفينة الأدميرال الملعونة!».

قال هذا ثم قبض بكفه على حفنة من الحصى ورماها في البحر. بعدها صاح: «ولكن مَن هذا الذي ألقى لي بالعظْمة؟». ثم سكت هنيهة، ولما لم

يسمع مني إجابة على سؤاله، قال مهتاجًا وشرر الغضب يتطاير من عينيه: «أفلن تتحدث، يا رَيِّس؟ إن كنت تعرف، فقُل لي كي أعرف بدوري اسمه، فاحرص على هذا، وأرجو أن تضعه دوماً في اعتبارك. لأنني على هذا النحو أتصرف تصرفًا عشوائيًّا، فإلى مَن أتوجه أو ضد مَن أُلقي بنفسي؟ وإلا فإنني سأكون كمَن يعاقب نفسه».

فقلت: «إنني جائع، فهيا اطبخ لنا الطعام، ودعنا نأكل أولاً!». فقال زوربا: «أفلا تتحمل مجرد ليلة واحدة بدون طعام، يا رَيِّس؟ إن لي عمًّا راهبًا كان يأكل طوال الأسبوع الملح والماء فقط؛ وكان- في أيام الآحاد وأيام الأعياد الكبرى- يضيف إلى الملح قدرًا ضئيلاً من النخالة. ومع ذلك، عاش حتى بلغ من العمر مائةً وعشرين عامًا». فقلت له: «لقد عاش حتى بلغ من العمر مائة وعشرين عامًا، يا زوربا، لأنه كان رجلاً مؤمنًا؛ ولأنه يحظى بإله يعبده، وامتلأ قلبه بالثقة واليقين، ولم تكن عنده أية هموم. ولكننا، يا زوربا، لا نحظى بإله يغذي أجسامنا؛ فهيا- إذن- أشعل النار لتعد لنا الطعام، فلدينا قليل من الأسماك التي تَألفُ الأعماق الصخرية، فاصنع لنا حساءً ساخنًا منها، أجل، وأعد لنا حساء خنزير هلامي دسم، مع قدر وافر من البصل والفلفل، فهذا هو ما يروق لنا في الطعام. وبعدها سنرى ما يمكن فعله».

فقال زوربا وهو يتميز غيظًا: «ماذا سنرى؟ فطالما أكلنا وشبعنا، فسوف ننسى». قلت: «وهذا هو ما أريده، ومِن هنا تأتي قيمة الطعام... فتحية وسلامًا لك، يا زوربا! هيا أعد لنا حساء سمك حتى لا يصاب عقلنا بالدمار أو المرض!». غير أن زوربا لم يتحرك من مكانه، بل ظل واقفًا دون

حراك، وأخذ يتفرس في وجهي، ثم قال: «اسمع، يا رَيِّس، ما سأقوله لك، فأنا أعرف مرامك وأهدافك. ولكن ها أنذا الآن قد برقت في ذهني خاطرة أثناء حديثك الذي وجهته إليَّ، أرأيت؟». فسألته وأنا أضحك: «ما هي أهدافي هذه، يا زوربا؟». فقال زوربا: «إنك تريد، وحياتك عندي، أن تبني ديرًا، وأن تجعل قاطنيه- لا رهبانًا- بل أشخاصًا مثل حضرتك، أرباب قلم، وذلك لكي يقرأوا ويكتبوا ليل نهار، ولكي تُخرجوا من أفواهكم- وكأنكم من القديسين الذين نراهم في الأيقونات- شرائط مطبوعة. إيه! هل أصبت كبد الحقيقة؟».

نكستُ رأسي في مرارة.... كانت الأحلام القديمة، أحلام فترة الشباب، قد أسقطت أجنحتها، ومثلها فعلت البراءة والكرامة والرغبات السامية... فقد كنا نحلم بأن نؤسس مجتمعًا روحيًا، وأن نحصر أنفسنا في حيز حفنة من الرفاق: الموسيقيين، والرسامين، والشعراء... كنا نريد أن نعمل ليل نهار، وأن نتقابل فقط مساءً كي نتحدث... وكنت قد دونت آنذاك بالفعل دستور هذا المجتمع، وكنت أيضًا قد عثرت على مبنى خاص بهذا المجتمع عند (كنيسة) القديس يوانيس الصياد، في ممر عبر جبل هيميتوس...

صاح زوربا مغتبطًا راضيًا، وهو يرى أن وجهي قد احمر خجلاً ولزمت الصمت، وقال: «لقد وجدتُها!». فأجبته، وأنا أخفي تأثري: «إذن فقد وجدتَها، يا زوربا». فقال: «وبناءً على ذلك، فإنني أسألك معروفًا، يا مرشدي المقدس، إنني أطلب منك أن تجعلني بوابًا لهذا الدير الذي سوف تبنيه، لكي يكون بوسعي تهريب البضائع؛ وأيضا لكي أُدْخِل خلسةً إلى الدير- ما بين

الحين والآخر- أشياء محرمة، ولكنها مشتهاة: نساء، وآلات موسيقية (= البُزق)، ودِنان الأوزو، وخنازير مشوية... وذلك حتى لا تضيع حياتنا هباءً جراء الثرثرة التافهة الحمقاء!».

وهنا ضحك، وحث الخطى نحو السقيفة، وعدوت أنا خلفه؛ نظف الأسماك وهو صامت، أما أنا فقد أحضرت الأخشاب وأشعلت النار. تم إعداد الحساء، فأمسكنا بالملاعق وبدأنا نحتسيها من القِدر مباشرةً. وظللنا صامتين فلم ينبس أحدنا ببنت شفة؛ كنا بحاجة إلى الطعام، إذ لم نكن قد ذقنا طعاماً طوال اليوم، ولذا التهم كلانا الطعام بشهية عارمة. ثم احتسينا النبيذ، وأحسسنا بانشراح المزاج؛ وهنا فتح زوربا فمه وقال: «الطعام لذيذ، يا رَيِّس؛ آه لو أهلت علينا الغندورة الآن بطلعتها البهية! طابت وطاب وقتها، ولكن أنَّى لي بتعويذة تجعلها تحضر! آه حقًّا إن ما ينقصني هو فقط غندورتي! وأقول لك الحق، فبيني وبينك، يا رَيِّس، فأنا أشتهيها، عليها اللعنة!».

وهنا قلت له: «أوَ لم تتساءل الآن عن هذا الذي ألقى لك بهذه العظْمة؟». فقال: «وماذا يهمك أنت من هذا، يا رَيِّس؟ إنها مثل إبرة في كومة من القش. دعك من اليد التي ألقت لي بالعظْمة. أوَ ليست لذيذة المذاق؟ أوَ ليست مكسوة بطبقة من اللحم؟ هذه هي المسألة، أما ما عدا ذلك...». فقلت وأنا أربت بيدي على كتف زوربا: «أيًّا ما كان، فلقد حقق الطعام معجزته! أوَ لم يخفف عن جسمي الذي كان يحس بالجوع؟ أوَ لم يهدئ من روع نفسي التي كانت تتساءل؟... هيا أحضر آلة القانون!».

ولكن في اللحظة التي نهض فيها زوربا ليحضر آلته الموسيقية، سُمع

وقع أقدام ودبيب خطوات متثاقلة على حصى الطريق؛ وهنا اتسع منخارا زوربا المليئان بالشَّعر. فقال بهدوء وروية، وهو يلكز فخذيه بيديه: «لقد تحدثنا عن الشيطان، فإذا به يحضر على السيرة!(*) إنها قادمة! لقد شمت هذه الكلبة رائحة زوربا، فاتخذت طريقها وجاءت».

فقلت وأنا أنهض واقفًا: «أما أنا فراحل، فلقد سئمت ومللت؛ سوف أذهب للمشي والنزهة؛ وليُهْلِك كل منكما رفيقه». قال زوربا: «تصبح على خير، يا رَيِّس!». قلت: «لا تنس، يا زوربا، أنك وعدتها بالزواج، فلا تجعلني أظهر أمامها كذابًا». تنهد زوربا وقال: «هل سأتزوج مرةً أخرى، يا رَيِّس؟ لقد مللت وانتابني الضجر». اقتربت رائحة الصابون المعطر، فقلت: «تشجع، يا زوربا!». قلت هذا ورحلت على عجل؛ وكانت أصوات لهاث السيرينية العجوز تتناهى بالفعل إلى أسماعي وأنا راحل.

(*) وهنا التعبير – كما سبق القول – مماثل لقولنا السائر: "جبنا سيرة القط جه ينط"، أو مثل القول السائر الآخر: "العفريت بيطلع لما نجيب سيرته!". [المترجم].

(17)

فى فجر اليوم التالي، جعلني صوت زوربا أنتفض مفزوعًا من رقادي، فقلت له: «ماذا دهاك، وماذا أصابك في مثل هذه الساعة المبكرة؟ لماذا تصيح؟»، فقال وهو يملأ حقيبته بالأطعمة: «إن العمل لا يمكن أن يسير بهذه الطريقة، يا رَيِّس، لقد أحضرتُ بغلين، فهيا بنا نذهب إلى الدير كي نوقع الأوراق، وكي نمضي قُدمًا في إقامة الخط الهوائي! فالأسد لا يهاب سوى شيء واحد، هو القملة، والقمل سوف يلتهمنا يا رَيِّس»، فقلت وأنا أضحك: «ولكن لماذا تطلق على غندورتك التعسة اسم القملة؟».

فتظاهر زوربا بأنه لم يسمع، وقال: «هيًّا بنا قبل أن ترتفع الشمس في كبد السماء». كنت قد تمنيت أن أصعد الجبل، وأن أستمتع برائحة أشجار الصنوبر، لذا حملنا متاعنا واتخذنا طريقنا صعودًا إلى الجبل، وتوقفنا برهة قصيرة من الزمن في منجم الفحم الحجري، حيث وجه زوربا تعليماته إلى العمال، وأمرهم أن يطرقوا العِرق الرئيسي [الذى كان يسميه: "دهليز

رئيسة دير الراهبات"] من أجل أن يفتحوا قناة في "المجرى(*)"، ليأخذوا منها المياه...».

كان النهار يلتمع مثل ماسة لم تُقطع بعد، وكلما صعدنا سمت نفوسنا وتطهرت، فقد كنت أجرب مرةً أخرى القيمة الروحية التي يحظى بها نقاء الهواء، وسهولة التنفس، ورحابة الأفق. حتى أنك لتظن أن النفس عبارة عن حيوان بري له رئتان وخياشيم، وهو يحتاج إلى مقدار أوفر من الأوكسجين، ويكاد يختنق وسط الغبار والأنفاس المتلاحقة...

كانت الشمس قد ارتفعت عندما دلفنا إلى أشجار الصنوبر في الغابة، وكنا نشم رائحة العسل، كما كان النسيم يهب من فوقنا ويصدر حفيفًا مثل البحر. كان زوربا طوال الطريق يتابع انحدار الجبل، وكان ينقش في ذهنه- كلما سرنا عدة أمتار- عدد الأعمدة التي سوف نقيم فوقها الخط الهوائي، كما كان يرفع عينيه وكأنه يشاهد بالفعل السلك المعدني وهو يبرق تحت أشعة الشمس، كما كما يتخيله وهو يهبط منحدرًا حتى ساحل البحر؛ وفوقه تجثم جذوع الأشجار المجتثة، وتتدحرج وهي معلقة كأنها سهام.

وهنا فرك كفيه، ثم قال: «يا لَه من عمل رائع سيُدر علينا ذهبًا! أجل سوف نحصل منه على المال الوفير ونضعه في زكائب، وسنحقق ما سبق أن تمنيناه». فرمقته وأنا مرتاع؛ فأردف: «إيه، ها أنت تتظاهر بأنك نسيت! قبل أن نبني الدير الذي تحدثنا عنه، سوف نذهب إلى الجبل الكبير، هلا

(*) المعنى الحرفي لهذا التعبير، هو: "الشجار أو النزاع أو الجلبة والضجة"؛ وأحياناً تعني: "الشخص المصاب بسلس البول". [المترجم].

قلت لي اسمه؟ طيبة؟». فقلت: «التبت، يا زوربا، التبت... ولكننا سنذهب إليه كلانا فقط، فالمكان هناك لا يطيق النساء». فقال زوربا: «ومَن تحدث إليك بشأن النساء؟ طاب ذكرهن هؤلاء التعسات، فلا تسخر منهن ولا تحط مِن قدرهن! حين يتصادف ألا يحصل الرجل على عمل خاص بالرجال- كأن يستخرج الفحم الحجري، أو أن يحرس قلعة، أو أن يكلم الله- فماذا يتعين عليه عندئذٍ أن يفعل كي لا ينفجر غضبًا؟ إنه يشرب النبيذ، أو يلعب النرد، أو يرتمي في أحضان النساء. ثم ينتظر... ينتظر أن تأتي ساعته... هذا لو أتت».

صمت زوربا برهةً من الوقت، ثم عاود الحديث بعدها، وملامحه تنطق بالشراسة: «أجل هذا لو أتت، فربما لا تأتي على الإطلاق». وبعد لحظة استرسل قائلًا: «لم أعد قادرًا، يا رَيِّس، أجل لم أعد قادرًا؛ فإما أن تتسع لي الأرض أكثر، أو أتضاءل أنا، وإلا فإنني لا محالة هالك».

هنا أطل علينا راهبٌ من بين أشجار الصنوبر؛ كان شاحب الوجه، أحمر الشعر؛ وكانت حواف ردائه الكهنوتي مشمرة وقلنسوته منتفخة مثل القبة. كان يمسك في يده بعصا حديدية يضرب بها الأرض ويسير حثيثًا. وما إن وقع بصره علينا حتى توقف، ورفع عصاه الحديدية وسألنا: «إلى أين العزم، أيها المحترمون؟». فأجابه زوربا: «إننا ذاهبون إلى الدير لكي نصلي». فصاح الراهب، وقد احمرت عيناه الزرقاوان المتورمتان: «عودا أدراجكما من حيث جئتما، أيها المسيحيان! ارجعا من حيث جئتما، فأنا أريد الخير لكما! فهذه ليست حديقةً لمولاتنا العذراء مريم، إنه بستان الشيطان. وهو بستانٌ لا يوجد فيه سوى المسغبة، والخضوع والذلة، والبكارة، وتاج

الراهب! إنها أكاذيب! محض أكاذيب! فعودا أدراجكما، أقول لكما؛ أموالٌ ولحًى لم تنبت بعد، وصراعٌ على من سيصبح رئيس الرهبان؛ هذا هو ثالوثهم المقدس!».

التفت زوربا نحوي وصفَّر في جذل وانشراح، وقال: «إنه لمسخ، يا رَيِّس». ثم انحنى على الراهب وسأله: «ما اسمك، أيها الشيخ؟ وإلى أين تذهب، بالسلامة؟». فقال الراهب: «اسمي زكريا؛ وها أنذا أحمل خُرجي وأرحل، فلم أعد أحتمل أكثر من هذا. شرفني بمعرفة اسمك، يا بلدياتي». فقال زوربا: «"كاناڤارو(*)" فقال الراهب: «أقول لك، يا أخي كاناڤارو، إنني لم أعد قادرًا على الاحتمال أكثر من هذا؛ فطوال الليل لا يكف المسيح عن الأنين والتأوه، ولا يدعني أهجع للنوم، فأصيح متأوهًا بدوري مشاطرًا له في ألمه. فصاح فيَّ رئيس الدير- عسى أن يصلَى نارًا ذات لهب!- فَجْرَ هذا اليوم، وقال لي: "إيه يا زكريا، إنك لا تدع إخوتك ينامون، ولهذا سوف أطردك!". فقلت له: "أنا الذي لا يدع إخوته ينامون، أم أنه المسيح؟ إنه هو الذي يصيح متأوها". فرفع رئيس الدير، عدو المسيح، عصاه الرعوية وانهال بها ضرباً عليَّ... انظروا! هذا هو ما فعله بي!». ورفع الراهب قلنسوته فظهرت كتلة من الدم المتجلط على شعره.

وأردف الراهب قائلًا: «أما أنا، فقد نفضت الغبار عن قدمي، وانطلقت في طريقي راحلاً». فقال زوربا: «هيا، عُد معنا إلى الدير، وأنا سأصالحك مع رئيس الدير. هيا في رفقتنا كي تدلنا على الطريق، فالله قد أرسلك إلينا».

(*) سبق القول بأن هذا اللفظ هو محاكاة لنطق مدام "أورتانس" حينما تتحدث عن الأدميرال أو القبطان. [المترجم].

فكَّر الراهب لحظة، بعدها برقت عيناه، وقال في خاتمة المطاف: «وماذا ستعطونني؟». قال زوربا: «ماذا تريد؟». قال: «أقة من سمك البكالاه المملح وزجاجة كونياك». فمال عليه زوربا ورمقه قليلاً، ثم قال: «هل ثمة شيطان داخلك، يا زكريا؟». فأجفل الراهب، وسأل في دهشة: «كيف عرفت؟» فأجابه زوربا: «إنني قادمٌ من الجبل المقدس[*]، وأعرف ذلك».

أحنى الراهب رأسه وتمتم بصوت يكاد لا يُسمع: «أجل! يوجد داخلي شيطان». قال زوربا: «وهل يريد سمك بكالاه وكونياك؟». قال الراهب: «أجل! إنه يريد ذلك، هذا الملعون ثلاثًا!». قال زوربا: «اتفقنا إذن! وهل يدخن بالفعل؟». قذف إليه زوربا بسيجارة التقطها الراهب بشراهة وطمع، وهو يقول: «أجل إنه يدخن! يدخن عليه اللعنة!». ثم أخرج الراهب من صدره قداحة ذات فتيل وأشعل السيجارة، أخذ منها نفسًا ملأ به رئتيه. وبعدها قال: «باسم المسيح!»، ورفع عصاه الحديدية واستدار على عقبيه، وانطلق سائرًا أمامنا.

أثناء سيرنا، سأله زوربا وهو يغمز لي بعينه: «وما هو اسم هذا الشيطان الموجود داخلك؟» فأجاب الراهب، دون أن يلتفت خلفه: «اسمه يوسف». لم يرُق لى هذا اللقاء مع الراهب نصف المخبول، أو حتى يجد هوًى في

---

[*] سبق القول بأن "الجبل المقدس" منطقة فى شبة جزيرة "خالكيذيكى"، شمال بلاد اليونان، بها كثير من الأديرة القديمة الزاخرة بالرهبان والنساك، ولا يسمح حالياً بدخولها للنساء إطلاقاً، ولا حتى للسيارات أو وسائل الانتقال الحديثة، حتى لا تتلوث الطبيعة هناك، حيث إن المنطقة هناك بِكر وغاية فى الجمال منذ أن وجدت من آلاف السنين. [المترجم].

نفسي؛ ذلك أن عقله المعوق، وكذا جسمه المشوه، سببا لي مزيجًا مضطربًا من الكراهية والتعاطف والاشمئزاز؛ غير أنني لم أكن أتكلم، وكنت أدع زوربا يصنع معه ما يشاء. أدى الهواء النقي المنعش إلى فتح شهيتنا، فشعرنا بالجوع؛ لذا افترشنا الأرض- تحت شجرة صنوبر ضخمة- وقمنا بفتح حقيبتنا؛ وهنا انحنى الراهب بنهم كي يشاهد ماذا لدينا بداخلها.

صاح زوربا موجهًا إليه الحديث: «إيه، يا أب زكريا، إياك أن تتلمظ وتنقم علينا! فاليوم هو يوم الاثنين الكبير(*)، ونحن عمال بناء، ولذا سنأكل لحم دجاج، وليغفر لنا الله. ولدينا كذلك حلوى طحينية وزيتون؛ فتفضل قداستك لتأكل معنا!». داعب الراهب لحيته الدهنية، وقال آسفًا: «أنا صائم، أعني أنا الراهب زكريا؛ لذا سآكل زيتونًا وخبزًا وسوف أشرب الماء... ولكن يوسف الذي بداخلي شيطانٌ لا يصوم؛ ولذا سيأكل هو لحمًا وسيشرب النبيذ من قنينتكم، يا إخوتي، ألا فلتحل عليه اللعنة!».

قال هذا ثم رسم علامة الصليب، وانقض على الطعام بشراهة؛ كان يلتهم بنهم الخبز والزيتون والحلوى الطحينية. بعدها مسح فمه بكفه وشرب الماء، ورسم علامة الصليب كأنه فرغ من تناول طعامه. ثم قال: «والآن جاء دور يوسف الملعون ثلاثًا...» وانكب يمزق الدجاجة ويلتهمها وهو يتمتم بشراسة: «كُل أيها الملعون، كُل! كُل!» وأخذ يقضم بفكيه قطع اللحم الكبيرة ويلوكها متلذذًا. فقال له زوربا في حماس: «مرحى، أيها الراهب، برافو! من الواضح أنك لا ترجع أبدًا فارغ اليدين».

(*) يوم من أيام الصوم الكبير عند المسيحيين، ويأتي عقب "أحد المرافع". [المترجم]

ثم التفت زوربا نحوي قائلًا: «كيف يبدو لك، يا رَيِّس؟»، فأجبته ضاحكًا: «إنه يشبهك». أعطى زوربا قنينة النبيذ للراهب، وهو يقول: «اشرب، يا يوسف!»، فقال الراهب: «اشرب، يا ملعون»، واختطف القنينة ووضعها على شفتيه.

كانت الشمس ترسل أشعتها الكاوية فتوغلنا إلى العمق حيث الظل، وكانت تفوح من الراهب رائحة العرق والبخور. وعندما كاد أن يغمى عليه من شدة القيظ، جذبه زوربا إلى الظل كي لا تزداد رائحة العرق المنبعثة منه. بعدها سأله زوربا الذي كان قد أكل ما يكفيه، وتاق إلى المسامرة والحديث: «كيف أصبحت راهبًا؟»، فانفجر الراهب ضاحكًا وقال: «هل تعتقد أنني غدوت راهبًا بسبب التبتل والتنسك؟ إطلاقًا! بل بسبب الفقر يا أخي؛ أجل بسبب فقري. لم يكن لديَّ ما آكله، ولذا فكرت فيما بيني وبين نفسي: "فلأذهب إلى الدير حتى لا أموت من الجوع!"». فقال زوربا: «وهل أنت راضٍ، قرير العين؟» فقال الراهب: «تعاليتَ ربنا وتقدست! فكثيرًا ما تنهدت وتحسرت، ولكن لا تلق بالاً إلى ذلك؛ فأنا لا أتحسر على هذه الدنيا الفانية، فأنا أحظى بها... وسامحني... أعايشها كل يوم- ولكنني أتحسر على ما في السماوات العُلَى. فأنا ألقي النكات وأتشقلب فيراني الرهبان ويضحكون؛ وهم جميعًا يقولون عني إن سبعة من الشياطين يتلبسونني، وينبرون لإهانتي والسخرية مني؛ وأنا أقول لنفسي: "آه لا يجوز ذلك، فالله يحب الضحك والفكاهة، ولذا فسوف يقول لي عندما يهلُّ اليوم التالي: "يا بهلولي، أضحكني!"؛ وهكذا فإنني سوف أدخل الجنة بوصفي أراجوز».

قال زوربا، وهو ينهض واقفًا: «يا هذا، أظن أنك في كامل قواك العقلية! فهيا بنا حتى لا يدهمنا الغسق!». سار الراهب أمامنا مرةً أخرى ليدلنا على الطريق. كنت أصعد الجبل، ويخيل إليَّ أنني أرتقي مواضع شاهقة داخل نفسي، فأنتقل من الاهتمامات المتدنية إلى اهتمامات أكثر سموًّا، ومن أفكار السهول المريحة إلى النظريات السامقة الوعرة.

وفجأةً، توقف الراهب وصاح: «هذه هي مولاتنا العذراء مريم المنتقمة!». قال هذا وهو يشير لنا بيده إلى كنيسة قروية مميزة ذات قبة مستديرة بديعة. ثم هوى بعدها إلى الأرض، ورسم علامة الصليب، فترجلت ثم ولجت في الظُلَّة المنعشة. وفي كوة من الجدار، كانت هناك أيقونة قديمة اسودت من الدخان؛ كانت محلاة بزخارف فضية، وكان أمامها قنديل فضي دائم الاشتعال.

تأملت الأيقونة بعناية؛ كانت تصور مولاتنا مريم البتول في هيئة محاربة وحشية، وذات عنق صلب وعين عذراء عفيفة قلقة، لم تكن تحمل في يدها الطفل المقدس؛ بل كانت تحمل رمحًا طويلاً ممتدًّا. قال الراهب بتقوى وخشوع: «واحسرتاه على مَن تسول له نفسه أن يمد يديه بسوء إلى هذا الدير! فساعتها سوف تنقض عليه مولاتنا مريم، وتطعنه بالرمح الذي تحمله في يدها. ففي سالف الأزمان- منذ أمد سحيق- داهم الملاحدة المنطقة وأحرقوا الدير؛ ولكن صبرًا، فسترى ما أصابهم، عليهم اللعنة! ففيما كانوا يرحلون ويسيرون خارج هذه الكنيسة، تجلت قدرتها وفضلها، فبرزت من الأيقونة واندفعت إلى الخارج؛ وانهالت عليهم ضربًا برمحها، وظلت تضربهم حتى قُتلوا عن بكرة أبيهم. وكان جَدِّي يذكر أن

عظامهم كانت متناثرة في أرجاء الغابة؛ ومنذ تلك اللحظة أسموها مولاتنا مريم "المنتقمة"، وكانوا من قبل يسمونها مولاتنا مريم "الرحيمة"».

هنا سأله زوربا: «ولماذا، يا أب زكريا، لم تحقق معجزتها قبل أن يحرقوا الدير؟». فأجاب الراهب، بعد أن رسم علامة الصليب ثلاث مرات: «إنها إرادة الله جلَّ في علاه!». فتمتم زوربا: «آه يا هذا، حقًّا إنه العلي القدير!». ثم امتطى البغل من جديد، وقال: «هيا بنا».

وبعد وقت لم يطُل، شاهدنا الدير العظيم لمولاتنا مريم البتول ممتدًّا داخل الغابة في رقعة فسيحة فوق الجبل؛ كانت تكتنفه صخور شاهقة. كان الدير هادئًا مشرقًا بديع المنظر؛ بعيدًا ومنعزلاً عن الدنيا، وداخل فجوة الجبل الخضراء الشاهقة كان الدير متناغمًا بحكمة ضافية مع عراقة قمة الجبل ومع عذوبة السهل؛ إذ كان هذا الدير يبدو لي خلابًا رائعًا بوصفه ملاذًا مختارًا للتركيز الإنساني.

فهنا كانت النفس الصافية البشوشة تستطيع أن تتفكر، وأن تَهِبَ للتسامي الديني البُعد الإنساني المنشود. فما هو منشود ليس قمة عمودية شديدة الانحدار فوق طاقة البشر، ولا سهلاً منبسطًا كسولاً شهوانيًا، وذلك من أجل أن تسمو به النفس دون أن تفقد عذوبتها الإنسانية. وقلت فيما بيني وبين نفسي: «مثل هذا الموقع لم يوجد أبطالاً ولا خنازير، بل أوجد أناسًا كاملين».

هذا مكان مثالي جديرٌ بأن يكتنف بين أحضانه معبداً بديعاً من معابد اليونان القديمة، أو تكية مشرقة من تكايا المسلمين؛ فالله سوف يتنزَّل هنا مرتديًا ملابس بشرية بسيطة محتشمة، وسوف يسير دون نعال

فوق العشب الأخضر الربيعي، وسوف يتحدث بهدوء مع الناس. وغمغمتُ: «يا لها من معجزة! ويا لها من عزلة! ويا لها من سعادة!».

ترجلنا عن المطايا، وسرنا عبر البوابة المقوسة، وصعدنا إلى جناح الضيوف؛ قدم الرهبان لنا صينية عليها العرقي والحلوى والقهوة؛ وجاء الراهب الذي سننزل في ضيافته وأحاط بنا الرهبان، وأخذوا يتسامرون معنا. كان الرهبان ذوي عيون ماكرة، وشفاه نهمة، ولحى مسترسلة، وشوارب، ومن إبطهم كانت تفوح رائحة الرجولة.

سألَنا الراهب المضيف: «ألم تحضروا معكم أية صحف؟». فقلت باستغراب: «صحف! وماذا تصنعون بالصحف هنا؟». فصاح راهبان أو ثلاثة، وهم مهتاجون: «صحيفة، يا أخي، لنعرف منها ماذا يحدث في الدنيا». كان الرهبان يتشبثون بقضبان الشرفات الخشبية، وينعقون مثل الغربان، وكانوا يتحدثون عن انجلترا وروسيا، والرئيس اليوناني ڤينيزيلوس والملك، بحماس وانفعال. لقد قامت الدنيا بنفيهم، غير أنهم لم ينفوا هم الدنيا من أذهانهم، فقد كانت عيونهم زاخرة بالمدن والمحلات والنساء والصحف...

نهض راهب بدين غزير الشعر، له لحية مسترسلة، وقال لي: «عندي شيء أريد أن أعرضه عليك، كي تقول لي رأيك فيه، من فضلك؛ وسأذهب الآن لكي أحضره». ثم انطلق، ويداه القصيرتان -- المكسوتان بالشعر- موضوعتان على بطنه، كانت قدماه تزحفان وهما داخل الخفين الوبريين إلى أن غاب عن بصرنا، بعد أن خرج من الباب؛ فقهقه الرهبان ضاحكين بطريقة تنم عن إضمارهم السخرية له والاستخفاف به. قال الراهب

المضيف لي: «إن الأب ذوميتيوس سوف يُحضر من جديد الراهبة المنحوتة على شكل تمثال صغير من الخزف، وكان الشيطان قد طرحها في الحديقة لغوايته. فذات يوم، عثر عليها الأب ذوميتيوس عندما كان يحفر في الحديقة، فأخذها معه إلى صومعته، ومنذ ذلك الحين فارق النوم الأب التعس ذوميتيوس، وكاد أن يفقد عقله».

نهض زوربا واقفًا، وظهرت على وجهه أمارات الضيق والاستياء، وقال: «لقد أتينا كي نقابل صاحب القداسة رئيس الدير، كي نوقع أوراق.....» فأجابه الراهب المضيف: «صاحب القداسة رئيس الدير ليس موجودًا، فلقد ذهبَ صباحًا إلى المبني الملحق بالدير؛ وعليك أن تصبر حتى يحضر». أهلَّ علينا الأب ذوميتيوس وهو يضم كفيه، ويبقيهما قائمتين، كما لو كان يمسك بهما كأس القربان المقدس. ثم قال، وهو يفتح كفيه بعناية: «هذه هي!». اقتربت منه لأشاهد ما حمله، فوجدت تمثالاً صغيرًا من الخزف المعروف باسم "التاناجرا(*)"، يمثل أنثى باسمة لعوب جذابة ساحرة نصف عارية، وجدته مستقرًا بين كفي الراهب الدهنيتين؛ كان التمثال مستقرًا في أحد الكفين، أما الكف الأخرى فكانت ممسكة برأس التمثال.

قال الراهب ذوميتيوس: «لكي أظهر لك رأسها، فسأقول لك عندها إنها

(*) تماثيل "التاناجرا": تماثيل صغيرة غاية فى الدقة والاتقان، تمثل نساء أنيقات ذوات ملابس رائعة وتصفيفات شعر بديعة. وقد تم العثور على عدد كبير من هذه التماثيل الصغيرة فى منطقة تسمى "تاناجرا" ببلاد اليونان، ومن هنا سُميت باسمها. وتوجد- من هذه التماثيل الباهرة الرائعة- مجموعة نادرة في المتحف اليوناني - الروماني بمدينة الإسكندرية. [المترجم].

تُخفِي داخلها جوهرة ثمينة: ربما من الماس أو اللؤلؤ؛ فما هو قول حضرتك؟» فاندفع راهب خبيث ماكر قائلًا: «أنا أقول إن في رأسها صداعًا». غير أن الراهب البدين ذوميتيوس ظل يرمقني وينتظر ردي، وشفتاه اللتان تماثلان شفتي التيس ترتجفان، فيما كان يلهث؛ بعدها قال: «أقول إنني أنوي أن أحطم رأسها لكي أعرف ما بداخله، فلقد جافاني النوم ولم يعد يغمض لي جفن.. أيمكن أن يكون داخل رأسها قطعة من الماس؟».

أخذت أرمق هذه الأنثى المرحة، بثدييها الصغيرين المكتنزين، وهي صورة متجسدة مُستعاذٌ منها هنا وسط البخور والأرباب المصلوبين الذين يلعنون الجسد والفرح والقبلات، وقلت في نفسي: «آه! لو كان بمقدوري أن أخلصها وأنجيها مما هي فيه!». أما زوربا، فتناول التمثال الخزفي الصغير، وأخذ يتحسس جسم المرأة الأنثوي الرقيق المنساب، وتوقفت أنامل أصابعه برهةً من الزمن على صدرها الناهد. ثم قال: «لكن ألم تر، يا شيخي، أن هذا هو الشيطان؟ انظرا إنه الشيطان بعينه ولا سواه! ولعلمك فإنني أعرفه جيدًا، عليه لعنة الله؛ انظر إلى صدره، يا أبتي ذوميتيوس، إنه صدر مستدير ممتلئ مشدود منعش، ومثل هذا الصدر، يا أبتاه، هو صدر الشيطان!».

أهلَّ علينا بطلعته راهب صغير السن جميل الوجه، ووقف على عتبة الباب؛ وسطعت الشمس على شعره الذهبي وعلى وجهه المستدير المكسو بالزغب. هنا غمز الراهب ذو الوجه الشاحب بعينه للراهب المضيف، ثم ابتسم كلاهما بخبث. وبعدها قالا: «يا أب ذوميتيوس، لقد حضر تابعك

جبرائيل». فما كان من الراهب إلا أن أمسك بتمثال المرأة الصغير في قبضته، وهرع وهو يهرول ويتدحرج نحو الباب؛ مضى الراهب الصغير في سيره أمامه وهو يتمايل، دون أن ينبس ببنت شفة، وغابا كلاهما عن الأنظار في الشرفة الطويلة المسقوفة التي كانت زلجة.

أومات برأسي إلى زوربا، ثم خرجنا إلى الفناء. كان الجو دافئًا دفئًا لذيذًا، وكانت شجرة برتقال في وسط الفناء قد أزهرت وعطرت الهواء حولها. وبجوار الشجرة، كانت هناك رأس كبش قديمة من المرمر ينساب منها الماء وهو يصدر خريرًا موسيقيًا. فوضعت رأسي تحت الماء العذب المنهمر ورويت ظمئي، وشعرت بالانتعاش من هذا الماء البارد. قال زوربا في امتعاض: «ما هؤلاء البشر الذين نراهم هنا؟ إنهم ليسوا رجالاً وليسوا نساء؛ إنهم بغال!»، ثم بصق في اشمئزاز، وقال: «ألا فليهلكوا جميعًا!». قال هذا ثم غمس رأسه بدوره في الماء البارد لينتعش، وضحك.

واصل حديثه، بعد أن بصق مرةً أخرى: «أجل، فليحل عليهم الهلاك جميعًا! إن كل واحد منهم يحوي داخله شيطانًا؛ فشيطان أحدهم يريد امرأة، وشيطان آخر يريد سمك بكالاه، وشيطان ثالث يريد نقودًا، وشيطان رابع يريد صحفًا... فيا لهم من حمقى مأفونين! ألا ليتهم يهبطون إلى الدنيا لكي ينالوا كفايتهم من كل هذه المتع التي يتوقون إليها، وكي ينظفوا عقولهم من هذه الترهات!».

قال هذا ثم أشعل سيجارة، وجلس على المقعد الخشبي المقام تحت شجرة البرتقال المزهرة، وبعد ذلك قال: «أما عن نفسي، فعندما أهفو إلى طعام، أتعرف ماذا أفعل؟ آكله؛ أجل آكله حتى أصاب بالتخمة، وبذلك

أتخلص من هذا الهاجس الملح، وحتى لا أفكر فيه- مرةً أخرى- أو أحس بالاشمئزاز كلما فكرت فيه. وذات مرة، عندما كنت صبيًّا، كدت أجن لفرط حبي لأكل ثمرات الكرز، ولم يكن معي نقود، فكنت أشتري كميةً قليلةً جدًّا من الكرز بما أملك من مال وآكله؛ ومع ذلك أظل أهفو إليه أكثر. وكنت أفكر ليل نهار في الكرز، ويسيل لعابي توقًا إليه، وكان هذا عذابًا ما بعده عذاب! إلى أن جاء يوم غضبت فيه، وشعرت بالخجل، وتساءلت ماذا أفعل؟ لقد رأيت أن حبات الكرز كانت توجهني حيثما تشاء، وكانت تجر عليَّ الخزي والعار. فماذا يتعين عليَّ إذن أن أفعل؟ نهضت من فراشي ذات ليلة، ورويدًا رويدًا أخذت أتلصص، وفتشت في جيوب سترة والدي، فعثرت على قطعة نقود فضية فسرقتها. وفي الصباح الباكر، استيقظت من نومي وذهبت إلى بستان، واشتريت سلة من ثمار الكرز. وجلست في حفرة، وبدأت فى التهام حبات الكرز. ظللت آكل وآكل حتى تورمت بطني وأتخمت، وأحسست أن معدتي تؤلمني فتقيأت؛ أجل، يا رَيِّس، تقيأت؛ ومنذ ذلك الحين، نجوت من فخ الكرز، بل لم أعد راغبًا في أن يقع بصري على الكرز، مرةً ثانية. أجل، لقد حققت خلاصي منه، وغدوت إنسانًا حرًّا، وكنت بعدها أنظر إلى حبات الكرز وأقول: "ليست بي حاجة إليك! والشيء ذاته فعلته مع النبيذ، وكذلك مع السجائر. وعلى كُلٍّ! فأنا لا أزال أحتسي النبيذ وأدخن السجائر؛ ولكن في اللحظة التي أريد فيها أن أتوقف، هوب! أتوقف، وأقطع رغبتي بحد السكين. لم يعد الاشتهاء يسيطر عليَّ؛ والشيء ذاته أفعله مع الوطن، فأنا أشتاق إلى الوطن، وأشعر بالحنين تجاهه، ثم أصل إلى حد الكفاية والتخمة، فأتقيأ؛ وبذلك يكون

خلاصي وتتحقق نجاتي».

سألته وأنا أضحك: «وماذا عن النساء؟» فقال: «سيأتي دورهن، عليهن اللعنة! أجل، سيأتي دورهن حتمًا! ولكن عندما أصبح فى السبعين من عمري». ثم فكر بعدها هنيهةً بدت لي قصيرة، واستدرك: «بل عندما أبلغ الثمانين من عمري! أتضحك، يا رَيِّس؟ لعمرك لا يحق لك أن تسخر منى، فالإنسان لا يتحرر إلا على هذا النحو. أصغ إليَّ! إن التحرر لا يكون إلا هكذا، هو أن تكون من أرباب القصف والمجون والعربدة، لا أن تكون من النساك الرهبان. يا صاحبي، كيف يكون بوسعك أن تتحرر من الشيطان إن لم تكن شيطانًا وزيادة؟».

أهلَّ علينا الراهب ذوميتيوس وهو يلهث أثناء سيره في الفناء، وكان يسير خلفه الفتى الراهب الأشقر، فتمتم زوربا وهو يبدي إعجابه بعبوس الفتى وسروره في الوقت نفسه: «إنه مثل ملاك غاضب...». كان كلاهما يقترب من السُّلم الحجري المؤدي إلى الصوامع الموجودة في الطابق الأعلى، فالتفت الراهب ذوميتيوس وتفرس مليًّا في وجه الفتى الراهب، وقال له كلامًا ما، غير أن الفتى الراهب رفع رأسه إلى أعلى، وكأنه يرفض ما قيل له؛ غير أنه سرعان ما أحنى رأسه وأذعن دليلاً على موافقته، بعدها أحاط بذراعه خصر الشيخ الراهب، وصعدا معًا السُّلم الحجري.

فقال زوربا: «هل فهمت؟... هل فهمت؟ ها هي سدوم وعمورية يتكرران(*)!»، ثم أهلَّ راهبان آخران، وغمز أحدهما للآخر بطرف عينه

(*) يتضمن كلام زوربا تلميحاً صريحاً عن إتيان الذكور اشتهاءً، أو العشق المثلي، مثلما كان يفعل قوم لوطٍ قديماً فى بلدتي "سُدُوم" و "عَمُّورية"، اللتين ورد ذكرهما فى العهد القديم،

وتهامسا، ثم ضحكا. وهنا زمجر زوربا: «يا لها من شرور آثمة! إن الحيوان لا يأكل لحم أخيه(*)، ومع ذلك فالراهب يغتاب زميله ويفترسه. انظر إليهم، إن كل واحد منهم يفقأ عين الأخرى». فصححت له خطأه اللغوي وأنا أضحك: «كل واحد منهم يفقأ عين الآخر». فقال: «يا صاحبي، إن الشيء نفسه يوجد هنا، فلا تعكر مزاجك أو تبتئس! لقد قلت لك، يا رَيِّس، إنهم بغال؛ فهل بوسعك أن تفرق- وفقًا لمزاجك- بين جبرائيل وجابرييلا، أو بين ذومييتوس وذوميتيا؟ هيا بنا نرحل، يا رَيِّس، هيا بنا نوقع الأوراق ونرحل بأقصى سرعة ممكنة! فهنا- بحق الله- يمكنك أن تشمئز من الرجل والمرأة على حد سواء».

ثم أخفض من صوته، وقال: «إن لديَّ خطة...». فقلت: «هل عدنا إلى الجنون مرةً أخرى، يا زوربا؟.... هيا، هاتِ ما عندك!». فرفع زوربا كتفيه وقال: «ماذا عساي أن أقول لك، يا رَيِّس، فإنك- وحياتك عندي، وسامحني في هذا القول- لو عثرت على برغوث خارج لحافك في فصل الشتاء، فسوف تضعه تحت لحافك، حتى لا يصاب بالبرد. فكيف تأتَّى لحضرتك أن تفهم وغدًا زير نساء على شاكلتي؟ فأنا لو عثرت على برغوث فعلى الفور أسحقه "تساك!"؛ ولو عثرت على خروف، فعلى الفور أذبحه "خاب!" ثم أضع لحمه في السيخ، وآكله في حفل مرح أنا وأصدقائي. ولكنك ستقول لي: "إن هذا الخروف ليس ملكًا لك!"، وأنا أعترف بذلك وأقره. ولكن، يا أخي، دعك

وأشار إليها القرآن الكريم. [المترجم].

(*) المثل باللغة اليونانية هو: "الغراب لا يفقأ عين غراب: korakas korakou mati de bgazei" [المترجم].

من هذا الكلام، واتركنا نأكله أولاً، وبعدها نتسامر أو نتناقش بهدوء عما هو ملكك وما هو ملكي. وسوف تتكلم حضرتك وتتكلم وتتكلم ما طاب لك الكلام، أما أنا فسوف أسلك أسناني بقطعة رفيعة من الخشب بعد التهام الخروف».

ردد الفناء صدى ضحكة زوربا المجلجلة، فأقبل علينا الراهب زكريا وهو يرتجف، ووضع إصبعه السبابة على شفتيه، وهو يقترب منا سائرًا على أطراف أصابع قدميه، ثم قال: «هُس! لا تضحكا! ففي الطابق العلوي، هناك خلف هذه النافذة المفتوحة، يعمل المطران. إنها مكتبة الدير، وهو يعمل بها طوال ساعات النهار». فقال له زوربا: «حسبك! أنا بالفعل أريدك، يا أب يوسف!» وتأبط بسرعة ذراع الراهب، ثم قال: «هيا بنا إلى صومعتك لكي نتجاذب هناك أطراف الحديث». ثم التفت نحوي، وقال: «وحياتك عندي، يا رَيِّس، اذهب وخذ ما تشاء من الوقت لكي تتمشى في الكنيسة وتشاهد الأيقونات القديمة؛ أما أنا فسوف أنتظر رئيس الدير إلى أن يحضر. لا تتورط أو تخلط الأمور أو تفسدها! ودعني لحالي كي أنفذ خطتي التي رسمتها». قال هذا ثم مال على أذني، وقال: «سوف نأخذ الغابة بنصف ثمنها... فلا تنطق بكلمة!». بعدها ذهب على عجل، وهو يتأبط ذراع الراهب المخبول زكريا.

(18)

اجتزت عتبة باب الكنيسة، فغمرتني رائحة عطرة كانت منتشرة في الضوء الخافت. كان السكون يلف جو المكان، والقناديل الفضية تبرق وسط الدخان المحيط بها، وكان الهيكل المنحوت يشغل العمق بأسره؛ كانت هناك كرمة عنب ذهبية مثقلة بالعناقيد. أما الجدران الملاصقة لها فكانت مزينة برسوم ملونة حال لونها بسبب تقادم الزمن، عبارة عن: نساك عابسين، قساوسة قدسيين، آلام المسيح، ملائكة ذوي شعر مجعد يضعون شرائط عريضة مصبوغة على شعرهم.

وفي الجزء الأعلى من الرواق كانت توجد صورة مولاتنا مريم البتول، ويداها مفتوحتان نُشدانًا للتوسل والابتهال. كانت هناك قناديل ثقيلة من الفضة ترسل بضوئها أمامها، وكان ضوؤها المهتز يداعب بهدوء ورفق محياها المستطيل الذي تظهر عليه علامات العذاب والشقاء. ولن أنسى ما حييت عينيها الزاخرتين بالحرارة، وفمها المزموم مثل عقلات أصابع اليد، أو فكها القوي الذي يعكس قوة الإرادة؛ كانت هذه اللوحة- كما كنت

أقول لنفسي- هي اللوحة الكاملة بلا جدال. أجل اللوحة الكاملة التي تمثل الأم الراضية قريرة العين أثناء ألمها الشاهد على عذابها؛ وذلك لأنها تحس أنه خرج من رحمها الفاني مخلوق خالد...

وعندما خرجت من الكنيسة، كانت الشمس تجنح صوب المغيب، فجلست على المقعد الخشبي القائم أسفل شجرة البرتقال في الفناء، وأنا سعيد أيما سعادة؛ كانت قبة الكنيسة تشع باللون الوردي، كأننا كنا في ساعة الشروق، وكان الرهبان آنذاك يستريحون ويعتكفون في صوامعهم. ففي هدأة المساء، كان عليهم أن يظلوا ساهرين في أداء طقوس العبادة. كان ينبغي عليهم أن يتزودوا بالقوة اللازمة، فالمسيح يتأهب الليلة كي يصعد إلى المكان الذي صُلب فيه (= جولجوثا)، وعليهم أن يتزودوا بالبسالة للصعود معه. كانت هناك أيضًا خنزيرتان سوداوان ذواتا أثداء وردية عديدة، مستغرقتين في النوم بالفعل تحت شجرة خرنوب؛ وكانت هناك حمائم مستلقية فوق صوامع الرهبان، تمارس الغزَل والعشق.

طفقت أفكر فيما بيني وبين نفسي: «إلى متى سأحيا وأنا أستمتع بهذه العذوبة المنبثقة من الأرض والهواء والصمت ورائحة زهور البرتقال؛ فهناك أيقونة تمثل القديس باكخوس- كنت قد شاهدتها في الكنيسة- قد جعلت قلبي يطفح بشرًا وسعادة. فكل صورة تجسد العمق البالغ كانت تحرك مشاعري: الوحدة والاتساق، استمرارية بذل المحاولة، تسلسل الشوق والتوق؛ كل هذه الصور قد تكشفت من جديد أمامي. ولعل هذا كان جراء التأثير الرائع لهذه الأيقونة الصغيرة المبهجة، التي تمثل القديس المسيحي بشعره الشبابي الأجعد، الذي يلتف حول جبهته، وكأنه عناقيد

سوداء. فلقد امتزج فى هذه الأيقونة الإله الإغريقي ديونيسوس والقديس المسيحي باكخوس(*)، فالاثنان لهما الوجه ذاته؛ وتحت أوراق العنب، وتحت رداء الرهبنة، كان يتماوج الجسم المشتاق ذاته الذي لوحته أشعة الشمس؛ أعني بلاد اليونان».

أهلَّ زوربا عليَّ في الفناء، وابتدرني بقوله وهو متعجل: «لقد وصل رئيس الدير، ودار بيننا حديث قصير وأبدى معارضته؛ فالمبلغ لا يكفي أجر المنشدين، وهو يريد زيادته، ولكنني سوف أنجح في إقناعه». فقلت له: «أي نوع من المعارضة أبداه؟ ألم نكن قد وصلنا إلى اتفاق معه؟»؛ فاستعطفني زوربا بقوله «لا تضايق نفسك ولا تتكدر، يا رَيِّس، أمان يا ربي! إنك بهذا سوف تفسد خطتنا. من فضلك! أنت الآن تتكلم عن الاتفاق القديم؛ وهذا الاتفاق لم يعد له وجود! لا تعبس ولا تقطب حاجبيك، أجل لم يعد له وجود! قلت لك إننا سنأخذ الغابة بنصف ثمنها». فقلت: «ولكن ما هذا الذي تفكر فيه وتدبره، يا زوربا؟».

قال زوربا: «دعك من هذا، فهذا هو شغلي الشاغل؛ وعليَّ تشحيم العجلة وجعلها تتدحرج. هل فهمت؟» فقلت: «ولكن لماذا؟ أنا لا أفهم». فقال: «لأنني أنفقت نفقات زائدة عن الحد في مدينة كاسترو، هل فهمت؟ لأن لُولَا أنفقت من حسابي، أقصد من حسابك، عدة آلاف. أتظن أنني نسيت؟ إنني رجل شريف وعندي كبرياء، فماذا تظن؟ إننى لا أريد أن

(*) كان "باكخوس" أيضاً هو أحد أسماء الإله الإغريقى "ديونيسوس"، إله الكروم والشهوة والغرائز الفطرية عند قدامى الإغريق. [المترجم].

تقف ذبابة على سيفي(*). إن أنفقتُ مالاً فإنني أدفع ما عليّ؛ ولقد أعددت كشف الحساب: لقد كلفتني لُولَا سبعة آلاف، وسوف أخصمها من ثمن الغابة. ولسوف يدفع رئيس الدير نفقات لولا، وكذلك الدير ومولاتنا مريم العذراء. هذه هي الخطة التي رسمتها، فهل تروقك؟».

قلت: «لا، إطلاقًا! فهل مولاتنا مريم العذراء مسئولة عن بذخك وإسرافك؟» قال: «أجل، إنها مسئولة وزيادة؛ فابنها الذي أنجبته صار معبودًا؛ وهذا المعبود صنعني وزودني بالأدوات التي تعرفها حق المعرفة؛ وهذه الأدوات الملعونة هي التي تجعلني- كلما وقع بصري على أنثي- تزوغ مني العينان، فأبادر بفتح محفظتي. هل فهمت؟ إذن فهي مسئولة وقداستها مسئولة وزيادة، فدعها تدفع!». قلت: «هذا كلام لا يروق لي، يا زوربا».

فقال زوربا: «هذه مسألةٌ أخرى، يا رَيِّس، دعنا ننقذ أولاً الآلاف السبعة من المال، وبعدها نتناقش. وكما تقول كلمات الأغنية: "أَدِّ، يا بُنَي، عملك، فحتى بعدها، فإنني عمتك". هل تعرف هذه الأغنية؟».

ظهر أمامنا الراهب المضيف ذو المؤخرة السمينة، وقال لنا بصوت كهنوتي منغم: «تفضلا، فمائدة الطعام جاهزة». هبطنا واتجهنا إلى مائدة الطعام التي هي عبارة عن خوان طويل حوله مقاعد بلا ظَهر، وطاولات ضيقة مستطيلة. كانت رائحة الزيت العفن (= الزِنخ) والخل تعبق بالمكان، وعلى الجدار في العمق كان هناك رسم حائل اللون لمشهد "العشاء الأخير". كان الرسم يمثل تلاميذ المسيح الأحد عشر، المخلصين الأوفياء له،

(*) التعبير باليونانية كالتالي: myga de thelô na kathisei sto spathi mou. وهو يقصد بهذا التعبير أن يقول: "أنا لا أريد شائبة أن تشوب سمعتي". [المترجم].

متحلقين حول المسيح زُمراً، وفي الجهة المقابلة لهم يهوذا وحده تمامًا، بلحية حمراء وجبهة غريبة وأنف معقوف، وكان موليًا ظهره للمشاهدين؛ أما المسيح فكان يرمقه وحده بنظراته.

جلس الراهب المضيف إلى المائدة، وجلست أنا عن يمينه وزروبا عن يساره، وقال الراهب: «إنه الصوم الكبير، فسامحونا؛ فنحن لا نقدم لضيوفنا زيتًا ولا لحمًا، حتى لو كانوا مسافرين أو عابري طريق. فمرحبًا بكما وأهلاً وسهلاً». رسمنا علامة الصليب، ومددنا أيدينا في صمتٍ إلى حبات الزيتون والبصل الأخضر وبطارخ السمك المحفوظ والفول النابت؛ كنا ثلاثتنا نمضغ الطعام ببطء، بسبب انعدام شهيتنا. قال الراهب المضيف: «هذه هي الحياة الدنيوية، وهكذا هو الصوم الكبير. ولكن فلنتذرع بالصبر؛ فعما قريب يحل عيد القيامة فنأكل الخرفان؛ وستُظلنا حينئذٍ مملكة السماء».

وهنا سعلتُ، فداس زوربا قدمي بقدمه، وكأنه يقول لي: «صمتًا! صمتًا!». ثم قال زوربا، كي يغير دفة الحديث: «لقد شاهدت الأب زكريا...». فأصيب الراهب المضيف بالذعر عند سماعه اسم زكريا، وسألنا بقلق: «تُرى هل قال لكما هذا الراهب الذي تملكه مَس من الشيطان شيئًا؟ إن بداخله سبعة شياطين، فلا تستمعوا له! فإن روحه دنسة، ولا يرى سوى الدنس». وهنا دوى رنين الجرس الحزين ليعلن بدء شهر التعبد، فنهض الراهب المضيف من جلسته، ورسم علامة الصليب، وقال: «أنا ذاهب لحضور القداس؛ فلقد بدأت آلام المسيح؛ فهيا بنا لنُصلب معه. وبوسعكما الليلة أن تستريحا، فأنتما عابرا سبيل؛ ولكن غدًا- عند

الشروق.....».

تمتم زوربا، وقال من بين أسنانه: «يا لكم من وضعاء!». فقلت له: «ماذا دهاك يا زوربا؟ هل قال لك الراهب زكريا شيئًا؟». قال زوربا: «حسبك، يا رَيِّس، حسبك! فليذهب إلى الشيطان! إيه، فحتى لو لم يوقعوا الأوراق، فسوف أجعلهم يرقصون على المقلاة!». ذهبنا إلى الصومعة، حيث أعدوا لنا فيها فراشًا. وفي الزاوية، كانت هناك أيقونة تمثل مولاتنا مريم العذراء وهي تضغط خدها بشدة على وجنة ابنها؛ وعيناها الواسعتان مغرورقتان بالدموع. فهز زوربا رأسه، وقال: «هل تعرف، يا رَيِّس، لماذا تبكي؟». قلت: «لا». قال: «لأنها ترى؛ فلو كنت أنا الذي أرسم الأيقونة المقدسة فسوف أصور العذراء بلا عينين وبلا أذنين وبلا أنف؛ والسبب في ذلك أنني أشفق عليها».

استلقينا على الحشيتين الخشنتين المفروشتين لنا، وكانت قوائم النافذة الخشبية تفوح برائحة أشجار السرو التي كانت تنفذ من النافذة المفتوحة؛ كان هواء فصل الربيع محملاً بالروائح الشذية. وما بين الفنية والأخرى، كانت تهب علينا من الفناء نفثات متتابعة من الألحان الشجية الحزينة؛ بدأ عندليبٌ خارج النافذة تغريدته العذبة، وبدأت تتناهى من بعيد تغريدات مماثلة من أماكن أخرى، فغمر عشق زاخر هدأة الليل.

لم يداعب النوم أجفاني، إذ اختلط تغريد العندليب بالنواح على المسيح، فشرعت أجاهد- وأنا أستنشق عبير أزهار البرتقال- كي أصعد إلى مكان صلب المسيح (جولجوثا)، متتبعًا قطرات الدم الكثيفة التي سالت من جسده. وفي هدأة ليل فصل الربيع اللازوردي، كنت أشاهد حبات

العرق الباردة المستديرة التي كانت تغطي جسد المسيح، وأشاهد يديه وهما ممدودتان تتحركان، وكأنه يتوسل أو كأنه يستجدي.... وأتخيل أهل الجليل وهم يهرولون خلفه صائحين: «هوسانًا(*)!»، وهم يمسكون في أيديهم بأغصان الزيتون، ويفرشون على الأرض ثيابهم لكي يمشي عليها. كان المسيح يرمق محبيه، ولكن أحدًا منهم لم يكن يتكهن بما سيحدث له؛ كان هو وحده الذي يعرف أنه ذاهبٌ إلى الموت. وتحت قبة السماء المرصعة بالنجوم كان يذرف الدموع وهو ملتزم بالصمت، وكان يُعزى قلبه البشري الذي كان يرتجف، ويقول: «واقلباه! يا مَن أنت مثل القمح، لابد أن تهبط إلى الأرض وتموت. فلا ترتجف، وإلا فكيف ستغدو سنبلة من القمح، واقلباه! وكيف ستغذي البشر الذين يموتون جوعًا؟». غير أن قلبه الذي كان بين جوانحه كان يرتعد ويرتجف، ولم يكن يريد أن يموت.

وشيئًا فشيئًا، امتلأت الغابة المحيطة بالدير بالعنادل، وتصاعد من أوراق الأشجار اللينة شدو وتغريد حافل بالعشق والشجن العاطفي؛ على حين كان قلب الإنسان يتماوج معه ويبكي ويترع ويلهث. وهكذا دون أن أدري كيف، تسلل النوم إلى أجفاني مع آلام المسيح وتغريد العندليب، كما لو كانت روحي تذهب إلى جنة الفردوس. لم أكن قد نمت ساعة واحدة حين أجفلت من نومي مفزوعًا، وصرخت: «يا زوربا؛ هل سمعت صوت طلقات المسدس؟». غير أن زوربا كان بالفعل جالسًا على حشيته وهو يدخن، فقال لي وهو يجاهد عبثاً السيطرة على زمام نفسه، من فرط

(*) هى صيحة تهليل وتمجيد وتوقير بالعبرية القديمة، وردت فى الإنجيل بصورتها هذه. [المترجم].

الغضب: «لا تعكر صفوك، يا رَيِّس!». انطلقت صيحات وصرخات من الممشى، وتناهت إلى أسماعنا أصوات نعال ثقيلة تزحف، وأبواب تُفتح وتُغلق، وصوت شخص من بعيد يئن كأنه قد أصيب بجرح. فقفزت من فوق الحشية وفتحت الباب، فوجدت شيخًا نحيلاً ضامرًا يقفز من الذعر أمامي؛ كان يرتدي قلنسوة بيضاء مدببة الطرف، وقميصًا أبيض يصل حتى ركبتيه. فسألته: «مَن أنت؟» فأجاب بصوت مرتعد: «المطران...».

كنت على وشك أن أضحك؛ فأين الرداء الكهنوتي الموشي بالذهب، وأين تاج الأسقفية، وأين الصولجان، وأين الجواهر الزائفة الملونة؟ إنها المرة الأولى التي أشاهد فيها مطرانًا بملابس النوم. قلت له: «ماذا كانت طلقات المسدس هذه؟» فتمتم، وهو يتراجع إلى الخلف: «لا أعرف... لا أدري...» وهنا ضحك زوربا، وهو جالس على حشيته، وقال: «لماذا ترتجف، يا شيخنا؟ ادخل إلى الصومعة، أيها التعس، ولا تخف؛ فنحن لسنا رهبانًا». قلت له: «زوربا، اصمت، ولا تتكلم بهذه الطريقة! إنه المطران!». فقال زوربا: «يا صاحبي، لا أحد يكون مطرانًا وهو في ملابس النوم. ادخل قلت لك!». قال هذا ثم نهض وذهب إليه، وأخذه من ذراعه، وصحبه إلى الداخل، وأغلق الباب. ثم أخرج من حقيبته الجلدية زجاجة عرقي، وملأ منها كأسًا قدمها إلى المطران قائلًا: «اشرب، يا شيخنا، فهذا مشروب سيجعل معنوياتك تشتد وتقوى».

شرب الشيخ الراهب العرقي، وأصبح على ما يرام، فجلس على الحشية وأسند ظهره إلى الحائط. وهنا قلت له: «يا صاحب النيافة، ماذا كانت طلقات المسدس هذه؟». فقال: «لا أعرف، يا بني.... لقد كنت أعمل في

المكتبة حتى انتصف الليل، وبعدها ذهبت للنوم، حيث سمعت في الصومعة المجاورة لي- التي يقيم فيها الأب ذوميتيوس...» فقال زوربا: «أها! لقد كنتَ على حق، يا صاحبي زكريا!». ونكس المطران رأسه وغمغم: «ربما كان لصًّا...». كان اللغط المسموع في الممر قد توقف، واكتنف الصمت المطبق الدير من جديد، فرمقني المطران بعينيه البريئتين المذعورتين، بنظرة توحي بالتوسل والاستعطاف؛ وسألني: «هل تشعر بالنعاس، يا ولدي؟». فأحسست أنه لا يريد الانصراف والبقاء بمفرده من جديد داخل صومعته؛ لقد كان خائفًا. لذا أجبته بقولي: «لا! لا أشعر بالنعاس، فابق معي». أخذنا نتجاذب أطراف الحديث، وكان زوربا يزفر متضايقًا، ويدخن سيجارته وهو مستند إلى الوسادة. قال لي المطران الشيخ: «يبدو أنك شاب مثقف، فحمدًا لله؛ فأنا لا أعثر هنا على أشخاص يمكن أن أتحدث إليهم. وعندي ثلاث نظريات أجعل بها حياتي مشتهاة مقبولة، وأود أن أطلعك عليها». ولم ينتظر مني إجابة على ما قال، بل بدأ يتكلم:

«نظريتي الأولى كما يلي: الأشكال التي تتخذها الزهور تؤثر في ألوانها، وألوانها تؤثر في جوهرها؛ وهكذا فإن كل زهرة من الزهور لها تأثير مختلف في الجسم، وبالتالي في الروح. ولهذا السبب، ينبغي علينا أن نأخذ حذرنا جيدًا عندما نسير في مكان به زهور».

قال هذا ثم صمت، كأنه ينتظر سماع رأيي. تخيلت كأن الشيخ الراهب هذا يتريض داخل ساحة مزهرة، وهو ينظر إلى الأسفل حيث الزهور وبدنه يقشعر، وكأنه يتأمل لونها وشكلها، بينما جسمه يرتعد. ذلك أن الساحة كلها كانت مليئة بالأرواح... بعدها واصل المطران حديثه: «وهذه هي

نظريتي الثانية: كل فكرة تحظى بتأثير واقعي يكون لها وجود، أي أنها فعلاً موجودة. فهي لا تهيم في الهواء كأنها شبح بلا جسم؛ بل يكون لها جسم حقيقي: عينان وفم وقدمان وبطن، وتغدو رجلاً أو امرأة، وتطارد الرجال أو النساء... ولهذا يقول الإنجيل: "الكلمة صارت جسدًا"».

قال هذا ثم تفرس في وجهي مرةً أخرى بقلق وترقب، ثم قال بسرعة، وهو غير قادر على احتمال صمتي: «أما النظرية الثالثة، فهي كما يلي: هناك خلود وأبدية داخل حياتنا الفانية، ولكن من الصعب جدًّا أن نعثر عليها وحدنا، إذ تضللنا الهموم الزائلة. والعارفون العالمون المختارون هم وحدهم الذين يفلحون في أن يعيشوا الخلود في حياتنا هذه الفانية؛ أما الآخرون، فيضيعون. وعندئذٍ، أشفق الله عليهم وأرسل إليهم الديانة؛ وهكذا يستطيع جمهور البشر أن يعيش الأبدية».

تحدث المطران بما في نفسه، وشعر بالراحة، ثم رفع عينيه اللتين بلا رموش، ورمقني وفمه يفتر عن ابتسامة، وكأنه يريد أن يقول: «انظر هذا هو ما عندي، وهذا هو ما أعطيه وأقدمه». شعرت بتأثر بالغ من أنه أهدى إليّ من كل قلبه هكذا- بمجرد أن تعرف عليّ- ثمار معرفته طوال حياته، ولاحظت أن عينيه تلمعان بالدموع. وسألني بعدها: «كيف بدت لك نظرياتي؟»؛ قال هذا وهو يأخذ بيدي بين راحتيه.

رمقني، وكأنه يتوقع أن يعرف من إجابتي ما إذا كانت حياته قد ضاعت هباءً منثورًا أم لا. كان يرتجف، أما أنا فأدركت أنه- فوق الحقيقة- يرتكز واجبٌ إنساني أكثر عظمة. ولذا أجبته: «إن هذه النظريات، يا شيخنا، يمكن أن تخلص أرواحًا كثيرة». فأشرق وجه المطران بالضياء؛

فلقد وجد أن حياته- على امتدادها- كانت تمضي في طريق صائب له ما يبرره. لذا همس لي، وهو يضغط يدي برفق: «شكرًا، يا ولدي».

وعندئذٍ قفز زوربا من مكانه مهتاجًا، وقال: «وأنا أيضًا عندي نظرية رابعة، من بعد إذنك». فرمقه المطران وملامحه توحي بالقلق، ثم التفت إليه، وقال: «قلها، يا ولدي، لعلها نظرية جيدة مباركة؛ ما هي هذه النظرية؟». فقال زوربا بلهجة جادة: «إنها عن مقولة إن اثنين + اثنين تساوي أربعة». فرمقه المطران متحيرًا. واسترسل زوربا في حديثه: «وعندي أيضًا نظرية خامسة، يا شيخنا، وهي أن اثنين + اثنين لا تساوي أربعة. فاختاروا ما تشاءون وخذوه!». فغمغم المطران: «لست أفهم...». ثم رمقني، وكأنه كان ينشد مساعدتي. فقال زوربا، وهو ينفجر ضاحكًا: «وأنا أيضًا لست أفهم!».

فالتفتُ صوب الشيخ المذهول، وغيرتُ مجرى الحديث: «وما هي الدراسات التي تنشغل بها هنا في الدير؟». قال المطران: «أقوم بنسخ مخطوطات الدير، يا ولدي؛ وفي هذه الأيام أقوم بتسجيل الصفات والنعوت التي أغدقتها كنيستنا على مولاتنا العذراء مريم». وتنهد المطران، ثم أردف: «لقد صرتُ طاعنًا في السن، ولم أعد أستطيع القيام بشيء آخر. إنني أشعر بالراحة حينما أسجل كل هذه القلائد والفرائد التي تزين جيد مولاتنا مريم، وبذا أنسى شقاء هذا العالم وتعاسته». واستند إلى الوسادة، وأخذ يتمتم بصفات العذراء مريم وكأنه يهذي:

"الوردة التي لا تذبل، الأرض الطيبة، الكرمة، الينبوع، النهر، النبع الذي يفيض بالمعجزات، معراج السماء، الجسر، الهيفاء الفارعة مثل

الفرقاطة، المرفأ، مفتاح الفردوس، الفجر، النبراس، البرق، العمود الناري، القائد المغوار، البرج الراسخ، السور الحصين، السقف الظليل، الملاذ، العزاء، الغبطة، العصا التي ترشد العميان، الأم التي ترعى الأيتام، المائدة السخية، الغذاء، السلام، السكينة، العطر، الوليمة، العسل والحليب....."».

وهنا همس زوربا: «إن التعس يهذي ويهرف، فدعني أحمل له دثارًا يتغطى به حتى لا يصاب بنزلة برد». قال هذا وتوجه إلى المطران، وقذف إليه بطانية، وأحكم وضع الوسادة تحت رأسه، وقال بعدها: «إن الجنون له سبع وسبعون نوعًا، هكذا سمعت، ولكن هذا الشيخ هنا يجعل أنواعها ثمانية وسبعين».

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد، عندما سمعت ناقوس الدير الخشبي يدق في الفناء. نهضت ونظرت من النافذة الصغيرة، فشاهدت راهبًا ضامر الجسم يغطي رأسه بغطاء أسود طويل يجوب الفناء ببطء، ويدق بمطرقة خشبية مصدرًا نغمات ممطوطة؛ وانساب صوت الناقوس خلال هواء الصباح وهو يقطر عذوبة وتناغمًا وضراعة. كان العندليب قد كف عن الشدو، غير أن الطيور الأخرى التي استيقظت في البكور بدأت في التغريد على أغصان الأشجار.

كنت أصغي مسحورًا لنغمات الناقوس المؤثرة، وأنا منحنٍ أطل من النافذة؛ وكنت أفكر في أن إيقاع الحياة العالي- رغم خوائه- يمكن أن يتضاءل ليحافظ على صورته الخارجية المؤثرة للغاية والزاخرة بالنبل؛ فالروح ترحل، غير أنها تترك قوقعتها سليمة لا تمس، بعد أن تشيدها بطريقة مركبة سامية على مدى قرون عديدة وكأنها صَدفة، كي تحتويها.

ومثل هذه القواقع الفارغة- هكذا تفكرت- ليست سوى كاتدرائيات بالغة الروعة، يمكن أن تراها في البلاد ذات الصخب والضجيج التي تنعدم فيها التقوى؛ إنها مسوخٌ من عصر ما قبل التاريخ، لم يبق منها سوى هياكلها العظمية بعد أن أبادتها الأمطار وأوار الشمس.

دق شخص باب صومعتي، وتناهى إلى سمعي صوت الراهب المضيف اللزج يقول: «استيقظوا، يا إخوتي، لتحضروا القداس الذي يقام قبل شروق الشمس». أجفل زوربا وصاح مزمجراً: «ماذا كانت حقيقة طلقات المسدس؟»، فقال الراهب: «صمتًا، انتظر قليلاً»؛ كان الراهب المضيف لا يزال واقفًا خارج الباب، لأنهما لم يسمعا وقع دبيب أقدامه تبتعد. وهنا صاح زوربا- مرةً ثانية- محتدًا حانقًا: «ماذا كانت حقيقة طلقات المسدس، أيها الراهب؟». سمعنا صوت دبيب الأقدام يبتعد على عجل. وبقفزة واحدة، وصل زوربا إلى الباب وفتحه، ثم بصق تجاه الراهب الذي كان قد رحل؛ وقال: «يا لكم جميعا من منافقين، قساوسة ورهبانًا وراهبات، رؤساء وخدامًا! اتفوا». فقلت له: «هيا بنا نرحل، فإن هذا المكان يفوح برائحة الدماء».

فزمجر زوربا قائلًا: «ليتها كانت دماء فقط! اذهب من فضلك أنت، يا رَيِّس، إلى قُداس الفجر، لو كان ذلك يروق لك؛ أما أنا فسوف أنبش وسأعلم الحقيقة». فقلت- مرةً أخرى: «هيا بنا نرحل! أما أنت فاصنع بي معروفًا ولا تدس أنفك فيما ليس من شأنك(*)». فقال زوربا: «ولكن، يا

(*) وردت هذه العبارة فى اللغة اليونانية كالتالي: " kame mou tê charê na mê phytrôneis opou de se spernoun." ومعنا الحرفي: "أما أنتَ فاصنع بى معروفاً، ولا

رَيِّس، هذا هو ما أريده تمامًا... أريد أن أدُسَّ أنفي». وفكر قليلاً ثم ضحك بخبث، وقال: «جازى الله الشيطان عني خيرًا! فأظن أن الأمور تسير كما يشتهي. هل تعرف، يا رَيِّس، قيمة تكلفة هذه الطلقات في الدير؟ إنها تساوى سبعة آلاف دراخمة».

نزلنا إلى الفناء، فشممنا رائحة عطرة تنبعث من الأشجار المزهرة، وكانت رائحتها الحلوة مصدر سعادة لنا. كان الراهب زكريا قابعًا في انتظارنا، وما إن رآنا حتى هرع نحونا وأمسك بزوربا من ذراعه، ثم همس وهو يرتعد: «يا أخي كاناڤارو، هيا بنا نرحل!». فقال زوربا: «ماذا كانت حقيقة هذه الطلقات؟ هل قتلوا أحدًا، أيها الراهب؟ تكلم وإلا خنقتك!». فارتعش فك الراهب الأسفل، وتلفت حوله؛ كان الفناء خاليًا، وأبواب الصوامع موصدة، ومن الكنيسة المفتوحة كانت تنساب النغمات في موجات تليها موجات.

همس الراهب: «اتبعاني كلاكما... يا لها من سدوم وعمورية!». تسللنا عبر السور بعد أن اجتزنا الفناء، وخرجنا إلى الأرض الخلاء. كانت المدافن عبارة عن هضبة صخرية بعيدة عن الدير؛ فولجنا فيها، وعبرنا المقابر. دفع الراهب زكريا باب الكنيسة الصغيرة ودخل، فدخلنا معه. وفي المنتصف، فوق حصيرة من القش كان هناك جثمان ممدد ملتف في ردائه الكهنوتي. وكانت هناك شمعة موقدة عند رأسه، وشمعة أخرى مثلها عند قدميه. انحنيت فوق الجثة، وأزحت الغطاء عن وجه الميت.

تنمُ فى المكان الذي يبذرونك فيه!". [المترجم].

انتابتني قشعريرة، وتمتمتُ: «إنه الراهب الصغير! الراهب الصغير الأشقر الذي كان بصحبة ذوميتيوس!». وعلى باب الهيكل كان تمثال كبير الملائكة ميكائيل المجنح واقفًا وسيفه مجرد في يده، ويرتدي صندلاً أحمر اللون؛ فهتف الراهب زكريا: «يا كبير الملائكة ميكائيل! اصلِهم نارًا واحرقهم، يا كبير الملائكة ميكائيل! اضربهم بقدمك وطِر بعيدًا عن هذا الهيكل. ألم تسمع صوت طلقات الرصاص؟». فقال له زوربا: «مَن الذي قتله؟ مَن؟ هل هو الراهب ذوميتيوس؟ تكلم يا مَن تشبه لحيتك لحية التيس!».

تخلص الراهب من قبضة زوربا، وانبطح على وجهه أمام قدمي تمثال كبير الملائكة؛ وظل برهة من الزمن بلا حراك، ورأسه منكسة فاغر الفم، وكأنه يسترق السمع. وفجأةً وثب واقفًا، والسرور يغمره، وقال بثقة: «لسوف يصليهم نارًا! لقد تحرك وأعطاني إشارة!». قال هذا ثم رسم علامة الصليب، وقال: «سبحانك، يا رب! لقد ارتاح قلبي!». ومرةً أخرى، أطبق زوربا على ذراع الراهب، وقال له: «تعالَ هنا، يا يوسف، هيا بنا! وافعل ما أقوله لك بحذافيره».

ثم التفت زوربا نحوي، وقال: «أعطني النقود، يا رَيِّس، وأنا سوف أوقع الأوراق. فهؤلاء الذين يعيشون هنا ذئاب، وحضرتك حمل وديع، وسوف يلتهمونك ويفترسونك، فدعهم لي. ولا تشغل بالك بهم، فأنا أقبض على هؤلاء الذين يرتدون صوف اللباد بيدي؛ وعند الظهيرة سنرحل من هنا والغابة في جيبنا. هيا بنا، يا زكريا!».

انسلا كلاهما خفيةً ذاهبين إلى الدير، أما أنا فقد يممت شطر أشجار

الصنوبر. كانت الشمس قد ارتفعت فأنارت كُلاًّ من السماوات والأرض، وكانت قطرات الندى تتأرجح على أوراق الشجر. حلق طائر الشحرور الأسود أمامي، ثم حط على غصن شجرة كمثرى برية، وبعدها هز ذيله وفتح منقاره، ثم رمقني وغرد ثلاث تغريدات توحي بالسخرية. ووسط أشجار الصنوبر استطعت أن ألمح خلال الفناء المسور، الرهبان وهم يخرجون مصطفين ومنحنين، يضعون خمارًا أسود على أكتافهم. كانوا قد فرغوا من أداء صلاة الفجر، وهم الآن ذاهبون إلى المائدة لتناول الطعام.

وفكرت فيما بيني وبين نفسي: «واحسرتاه! كل هذا النظام الصارم والنبل الفائق يخلو من الروح!». كنت مرهقًا ومحتاجًا إلى النوم بسبب أرقي وسهري، فتمددت على العشب. كان العبير والأريج الشذي يفوح من العناقيد، ومن أشجار الجولق الشائكة دائمة الخضرة، ونبات العدس، ونبات المزيمية؛ كانت حشرات النحل تئز في طيرانها وهي جائعة، فتثقب الزهور البرية بزبانها وتمتص منها الرحيق والعسل. ومن بُعدٍ، كانت الجبال تبرق في سكون وشفافية، فكانت تشبه الدخان المتصاعد في موجات جراء الاحتراق...

أغمضت عيني في هدوء ودعة، واستخفني جذل أثيري، كما لو كانت كل هذه الخضرة المحيطة بي هي الفردوس، وكأن كل هذا الجو المنعش والراحة والنشوة المسكرة من فعل الله؛ فالله يغير الوجوه، وطوبى لمن يستطيع أن يتبين بوضوح ما هو كائن خلف أي قناع! فأحيانًا ما نجد السعادة في كوب ماء بارد، وأحيانًا ما نجدها في ابن لنا يتقافز في أحضاننا، وأحيانًا في امرأة نعشقها ونتغزل فى محاسنها، وأحيانًا في نزهة قصيرة في

الصباح الباكر.

وشيئًا فشيئًا، بدأت الأشياء حولي تتكشف وتصبح أكثر يسرًا، وتغدو حلمًا دون أن تتغير. فالنوم واليقظة يتخذان الوجه ذاته، فقد كنت أستسلم للنوم وأحلم بالواقع وأنا سعيد مغتبط؛ إذ غدت الأرض والجنة كُلاً واحدًا. وبدت الحياة أمامي كأنها زهرة برية تتدلى من قلبها قطرةٌ كثيفة من العسل، وبدت روحي كأنها نحلة برية ترتشف رحيقها.

وفجأةً ارتعدتُ في وسط إحساسي بالعذوبة، إذ سمعت وقع خطوات خلفي مصحوبة بحديث هامس وصوت مبتهج، يقول: «هيا بنا، يا رَيِّس!». وجدت زوربا واقفًا أمامي، وعيناه تبرقان بنظرة شيطانية. فقلت بارتياح: «هل نحن راحلون؟ وهل انتهى كل شيء؟». قال زوربا: «أجل! انتهى كل شيء!»، ثم ضرب بيده على جيب سترته العلوي، وأردف: «الغابة هنا في جيبي. مبروك، وأهلاً وسهلاً! تفضل ها هي الآلاف السبعة التي أتت عليها لُولاَ وحرمَتْنَا منها!». أخرج من صدريته رزمة من الأوراق النقدية، وقال: «خُذها! ها قد سددت ديني لك، ولم أعد أخجل منك أو أستحي. فداخل هذه الرزمة يوجد ثمن الجوارب والحقائب والعطور والمظلة التي اشتريتها لغندورتي مدام أورتانس؛ وكذلك ثمن الفستق اللازم لإطعام الببغاء الذي عندها، والحلوى الطحينية التي أهديتها إليك».

فقلت له: «حلالٌ عليك، يا زوربا، وينبغي عليك أن توقد قنديلاً تُكفر به عن سيئاتك في حق مولاتنا مريم التي أسأت إليها». فالتفت زوربا خلفه؛ كان الأب زكريا يقترب بردائه الكهنوتي الذي اخضرَّ لونه، وأصبح زاخراً ببقع من الدهن والزيت، وبنعليه الذين بليا من كثرة

الاستخدام؛ كان يسحب البغلين من لجاميهما. فأظهر له زوربا رزمة البنكنوت، وقال: «فلنقتسمها، يا أب يوسف، ولتشتر بنصيبك مائة أقة من سمك البكالاه، ولتأكلها وتتلذذ بها، أيها التعس، إلى أن تشعر بالتخمة والتلبك المعوي، فتتقيأ وتنجو من الألم! هيا افتح كفك!».

اختطف الراهب الأوراق النقدية المتسخة، وأخفاها في صدره، وقال: «سوف أشتري النفط.....». فتكلم زوربا بصوت خفيض، ومال على أذن الراهب وهمس فيها: «عندما يجن الليل وينام الرهبان، وتهب الرياح القوية... قُم بصبِ النفط على الجدران والزوايا الأربعة، ثم اغْمِسْ خرقًا وقطعًا من القماش والقطن، أيًّا كان ما تجده، في النفط، واضرم النار لتندلع في الدير وتأتي عليه... هل فهمت؟».

ارتجف الراهب؛ فقال له زوربا: «لا ترتعد، يا أخي الراهب، أوَ لَم يعطك كبير الملائكة أمرًا بذلك؟ اسكب النفط، وسبح الله! متعك الله بالصحة!».

امتطينا البغال، وألقيت نظرة أخيرة على الدير، ثم سألت زوربا: «هل علمت كُنه ما حدث، يا زوربا؟». فقال: «بشأن طلقات الرصاص؟ لا تكدر صفوك، يا رَيِّس، قلت لك! لقد كان زكريا على حق: كانت هناك سدوم وعمورية! لقد انبرى ذوميتيوس لاغتيال الراهب الشاب الجميل». قلت: «ذوميتيوس؟ ولكن لماذا؟». قال: «لا تتضايق أو تزعج نفسك، يا رَيِّس، قلت لك... فكلاهما دنس».

التفتُّ صوب الدير، فشاهدت الرهبان قد خرجوا آنذاك من قاعة المائدة بعد تناول الطعام، وبعدها دخلوا صوامعهم وقبعوا داخلها. صاح

زوربا بصوت عالٍ، ونحن راحلان عن الدير: «ألا فلتحل عليكم اللعنة، أيها الرهبان المقدسون!».

(19)

كان أول شخص قابلناه بعد أن ترجلنا عن البغال- على ذلك الجزء من الساحل المتاخم لنا، وكان الليل لا يزال مرخيًا سدوله- هو مدام أورتانس الغندورة؛ كانت متكومة مثل الكرة أعلى السقيفة. وما أن أوقدنا القنديل وشاهدنا وجهها حتى ارتجفت. فقلت لها: «ماذا دهاك، يا مدام أورتانس، هل أنت مريضة؟».

فمنذ اللحظة التي راود فيها عقلها الأملُ الكبير في الزواج فقدت السيرينية العجوز كل جاذبيتها المشكوك فيها، التي يتعذر وصفها بالكلمات. كانت تجاهد جهادًا مضنيًا عسى أن تمحو من ذاكرتها كل الأحداث التي مرت بها، وأن تطرح بعيدًا عنها الأجنحة المبهرجة ذات الزخرف التي كانت قد تزينت بها، وهى تنزع فراء الباشوات والبكوات والقباطنة... كانت تتوق بشدة إلى أن تصبح إنسانة رزينة مدبرة للمنزل وكأنها غراب الزيتون؛ كانت تروم أن تصبح إنسانة نبيلة شريفة. لذا كفت عن أن تصبغ شعرها أو تسرف في زينتها وبهرجها، ولم تعد تستحم،

فأصبحت رائحتها منفرة.

صمت زوربا ولم ينبس ببنت شفة، وأخذ يبرم شاربيه المصبوغين حديثًا، وهو ينتفض من فرط عصبيته، وانحنى وأوقد المدفأة، ووضع على النار إبريق القهوة. وعلى حين غرة، سمعنا صوت السيدة العجوز الأجش يقول: «آه أيها القاسي! يا عديم الرحمة!». فرفع زوربا رأسه وتفرس في وجهها، واكتسبت عيناه صفاء وعذوبة؛ فلم يكن بوسعه أبدًا أن يسمع امرأة تهتف به مستعطفة، دون أن يضطرب وتنقلب عواطفه رأسًا على عقب؛ كما أن امرأة تذرف الدمع السخين قادرة على أن تجعله يختنق.

لذا لم يتكلم، بل أخذ يضع البن والسكر ويقلب القهوة. وغمغمت السيرينية العجوز: «لماذا تتركني طوال هذا الوقت بلا زواج؟ لم يعد لي وجه أقابل به الناس في القرية، وبت أخجل من النظر في وجوههم؛ لقد خسرت كرامتي! أجل لقد ضاعت كرامتي! لذا فسوف أقتل نفسي!». كنتُ قد تمددت على الحشية من فرط التعب، وبدأتُ أسند رأسي على الوسادة وأنا أستمتع في نهم بهذا المشهد الكوميدي الذي ينفطر له القلب.

كانت مدام أورتانس قد اقتربت آنذاك من زوربا، وأخذت تلمس ركبتيه، وتسأله بصوت يمزق نياط القلوب: «لماذا لم تحضر لي الإكليل وزينة العروس؟». أحس زوربا بيد الغندورة البضة موضوعة فوق ركبته؛ وكأن هذه الركبة كانت آخر مكان يابس على ظهر الأرض يمكن أن تجد فيه هذه المرأة التعسة خلاصها حينما تشبثت به. لقد أدرك زوربا هذا المغزى جيدًا، ولذا رق قلبه لها؛ بيد أنه ظل على صمته، وصب القهوة في ثلاثة فناجين. وعاودت المرأة العجوز سؤال زوربا بصوت يدعو للرثاء:

«لماذا لم تحضر لي الإكليل وزينة العروس؟».

أجابها زوربا: «لم أجد في مدينة كاسترو نوعًا مناسبًا». قال هذه العبارة، ثم قدم لكل شخص منا فنجانه، وبعدها أقعى في الركن وأردف قائلًا: «كتبت لهم في مدينة أثينا كي يرسلوا لنا بضاعة ممتازة؛ وأخبرتهم أن يرسلوا أيضا شموعًا بيضاء، وملبس لوز محمص مكسو بطبقة سميكة من الشيكولاتة». وكلما كان يمضي قُدمًا في حديثه، كانت مخيلتُه تتوقد وتشع، كما كانت عيناه تبرقان بالشرر؛ إذ كان زوربا مثل شاعر في لحظة الإبداع المتوقدة، يتأرجح في طبقات الأثير العليا التي تمتزج فيها الحقيقة بالكذب، ويصبحان مثل الأختين الشقيقتين.

كان زوربا يستريح آنذاك- وهو جاثم في الزاوية- ويرتشف قهوته بصوت مرتفع ويدخن سيجارته. كان يومه قد انقضى على خير ما يرام، فالغابة غدت في جيبه، والغبطة تملأ فؤاده. لذا اتخذ زمام المبادرة، وقال: «إن زواجنا، يا غندورتي، لا بد أن يحطم الدنيا. وليتك شاهدتِ ماذا أمر عريسك الناس بإحضاره! فهذا هو السبب في أنني مكثت في مدينة كاسترو أيامًا كثيرة؛ إذ أنني طلبت إحضار اثنتين من مصممات الأزياء من مدينة أثينا، وقلت في نفسي: "إن المرأة التي سأتزوجها امرأةٌ لا مثيل لها، لا في الشرق ولا في الغرب! فقد كانت مليكة القوى الأربعة العظمى في العالم، وهي الآن قد ترملت لأن القوى الأربعة العظمى قد قضت نحبها، ولذا قبلت الزواج مني. ولذلك فإنني أنا، عريسها المنتظر، أريد أن تكون عروسي لا مثيل لها في العالمين. أريد أن تكتسي عروسي بالحرير واللؤلؤ، وأن تتعلق بكل قدم من قدميها طيور ذهبية، وطلبت من مصممتي

الأزياء أن تضعا الشمس في ثديها الأيمن، والقمر في ثديها الأيسر!" وهنا صاحت مصممتا الأزياء: "ولكن كل مَن سيراها سينبهر، وسيصاب بالدوار، وستزوغ منه الأبصار!". فقلت لهما: "فلينبهروا، ولتزُغ منهم الأبصار! المهم أن تكون حبيبتي راضية قريرة العين"».

كانت مدام أورتانس تستمع إليه وهي مستندة إلى الجدار، وكانت ابتسامة جامدة متجسدة إلى أبعد مدًى قد ارتسمت على محياها المترهل الزاخر بالتجاعيد، وبدأ الشريط الوردي المحيط برقبتها ينحل. تمتمت وهي ترمق زوربا بعينين مغرورقتين بالدموع: «بودي أن أسر إليك بشيء في أذنك...». فغمز لي زوربا بعينه، وانحنى ليسمعها، فهمست عروسه المنتظرة، وهي تكاد تدس لسانها في أذنه الزاخرة بالشعر: «لقد أحضرت لك الليلة شيئًا»، ثم أخرجت من صدرها منديلاً مربوطًا من طرفيه بعقدة، وناولته لزوربا. أمسك زوربا بالمنديل بإصبعيه ووضعه على ركبته اليمنى، وبعدها التفت نحو الخارج وأخذ يتطلع إلى البحر. فقالت له المرأة: «ألن تفك العقدة، يا زوربا؟ ألست في عجلة من أمرك على الإطلاق؟» فأجابها بقوله: «عليّ أن أحتسي القهوة أولاً ثم أدخن سيجارتي، وبعد ذلك أفك العقدة، فأنا أعرف ما بداخل المنديل».

فتوسلت إليه السيرينية العجوز: «أرجوك فك العقدة... من فضلك فك العقدة». فقال: «قلت لك إنني سأدخن سيجارتي أولاً!». وبعدها رمقني بنظرة تنطوي على اللوم، وكأنه يقول لي «أنت السبب!». ثم أخذ يدخن سيجارته ببطء، وينفث دخانها من منخاريه، ويتطلع إلى البحر. ثم قال: «ستهبُ علينا غدًا ريحٌ قوية من الجنوب الشرقي؛ ستدب على إثرها الحيوية

في الأشجار، وتجري في فروعها العصارة، وستنتفخ أثداء الفتيات، ولن تتسع لها البلوزات اللائى يرتدينها... إنه فصل الربيع، ذلك الوغد الذي ابتكره الشيطان!».

بعد ذلك لاذ بالصمت، ثم استطرد بعد هنيهة: «إن كل ما هو جميل وطيب في هذا الكون هو من ابتكار الشيطان: المرأة الجميلة، والربيع، والنبيذ؛ كل هؤلاء صنعهم الشيطان. أما الله فقد صنع الرهبان والصيام وشراب المريمية والنساء الدميمات، ألا فليهلكن عليهن اللعنة!». قال هذا ثم بصق في اشمئزاز؛ كان وهو يتكلم يصوب نظرات شرسة تجاه مدام أورتانس التعسة، التي كانت رابضة آنذاك في الزاوية، وهي تصغي إلى كلماته؛ كانت ما بين الفينة والأخرى تستعطفه قائلة: «زوربا... زوربا...». غير أنه ما لبث أن أشعل سيجارة أخرى، ومضى يرمق البحر؛ ثم قال: «خلال فصل الربيع، يتربع الشيطان على العرش، فترتخي الأحزمة وتنفك أزرار البلوزات، وتتصاعد التنهدات من العجائز... إيه يا غندورتي بومبولينا، ارفعي يديك عني!».

عادت المدام تستعطفه من جديد: «زوربا... زوربا...»، ثم انحنت وأخذت المنديل، ووضعته في كفه قسرًا، فألقى بالسيجارة من يده، وأمسك بالعقدة وحلها، وأبقى كفه مفتوحة، وأخذ ينظر إلى ما فيها، ثم قال في اشمئزاز: «ما هذا، يا مدام بومبولينا؟». فتمتمت السيرينية العجوز، وهي ترتجف: «الدبلتان! إنهما الدبلتان، يا حبي! العرَّاب هنا، وكل شيء على ما يرام، وفى أبهى صورة، والأمسية رائعة، والله مُطلع علينا وشاهد، فلنعقد الخطوبة، إذن، يا حبيبي زوربا!».

أخذ زوربا يرمقني تارةً، ويرمق مدام أورتانس تارةً أخرى، ويرمق دبل الخطوبة تارةً ثالثة. كانت شياطين كثيرة تتصارع داخله؛ غير أنه لم يقدر شيطان منها على أن يقهر الآخرين؛ كانت المرأة التعسة المتكورة ترمقه وهى مذعورة، وتغمغم قائلة: «زوربا حبيبي... زوربا حبيبي...!». أما أنا، فقد نهضت من فراشي، وشرعت في الانتظار والترقب، وأخذت أتساءل: «ترى أي طريق سوف يختاره زوربا من هذه الطرق كافة؟»؛ وفجأةً طوح زوربا برأسه واتخذ قراره. كان وجهه مشرقًا لامعًا، وضرب كفًا بكف، ثم نهض واقفًا، وصاح: «هيا بنا إلى الخارج! تحت النجوم كي يطلع علينا الله! وأنت، أيها العرَّاب خُذ معك الدبل؛ هل تجيد الترتيل؟». فأجبته، بعد أن هرعت بالفعل لمساعدة مدام أورتانس كي تنهض واقفة: «لا، للأسف، لا أعرف!».

فقال: «أما أنا، فأعرف؛ لقد نسيت أن أقول لك إننى عملت مرتلاً مساعدًا للكاهن، وكنت أصاحب البابا في حفلات الزواج والتعميد والتأبين، وتعلمت ترتيل الأناشيد الدينية وحفظتها عن ظهر قلب. فهيا بنا، يا عزيزتي مدام بومبولينا، تعالي، يا بطتي، وحثي الخطى يا فرقاطة فرنسا، وقفي عن يميني».

ومِن بين كل الشياطين التي تسكن زوربا، كان شيطانه العابث المازح ذو القلب الطيب الشغوف هو الذي انتصر مرةً أخرى هذه الليلة؛ فلقد شعر زوربا بالشفقة على الغندورة العجوز، وانفطر قلبه عندما شاهد الدموع تسبح في عينيها المجهدتين، وهى تركز بصرها عليه في شوق وعذاب. ولذا غمغم زوربا، وهو يتخذ قراره الحاسم: «اللعنة! طالما لا يزال

بوسعي أن أصنع معروفًا للجنس اللطيف، فلأصنعه!».

هرع إلى الساحل، وعانق بذراعيه مدام أورتانس، وأعطاني الدبلتين والتفت ناحية البحر، وشرع في الترتيل: «لك المجد والتسبيح، يا ربنا، على الدوام؛ الآن وإلى الأبد، إلى أبد الآبدين، آمين!». ثم التفت ناحيتي، وقال: «اعمل حسابك، يا رَيِّس...». فقلت: «ليس هناك رَيِّس هذه الليلة، نادني بالعرَّاب». فقال: «اعمل حسابك، يا عرَّاب، من الآن فصاعدًا أنه حينما أصيح قائلًا: "ڤيرا... ڤيرا... (= ارفع الشراع، وانطلق مبحرًا)، تعطينا الدبلتين». قال هذا وبدأ يرتل بصوته النشاز- الذي يماثل نهيق الحمار- الأنشودة التالية (باللغة اليونانية القديمة):

«من أجل عبد الله أليكسيس، ومن أجل أمة الله فورتنيتسيا، اللذين تمت خطبتهما الآن، ومن أجل سلامتهما، نتوسل إليك يا مولانا الله!».

أما أنا فقد أخذت أرتل: «ارحمني، يا إلهي! ارحمني يا إلهي!».

وكنت أثناء ترتيلي أجاهد بصعوبة كي أمنع نفسي من الضحك ومن البكاء في آن. قال زوربا: «هناك تسابيح وترانيم أخرى، ولكن فليهلكني الشيطان لو كنت أذكرها! والآن، فلندخل إلى لب الموضوع!». وبعد ذلك، قفز برشاقة وقال: «ڤيرا... ڤيرا...»، ومد لي يده وقال لخطيبته: «مدي يدك بدورك، يا حلوتي، مدي ذراعك!». وهنا ارتجفت يدها البضة التي تآكلت من كثرة الغسيل؛ فقمت بإدخال الدبلتين في إصبعي كل منهما. وكان زوربا يصيح في انفعال طاغ، وكأنه درويش من جماعة الدراويش ويرتل (باللغة اليونانية القديمة):

«تمت خطبة عبد الله أليكسيس على أمة الله فورتينتسيا، باسم الآب والابن والروح القدس، آمين! تمت خطبة أمة الله فورتينتسيا على عبد الله أليكسيس...».

أما أنا، فقلت: «انتهى الأمر وتمت الخطبة، وإلى العام القادم! تعالي هنا، يا مدام زوربا العزيزة، لكي أمنحك أول قبلة شريفة في حياتك!». غير أن مدام أورتانس كانت قد تكومت على الأرض، واحتضنت قدمي زوربا وأخذت تبكي. وهز زوربا رأسه المهتاجة الثائرة شفقةً عليها، وتمتم قائلًا: «آه! يا للنساء البائسات!».

أما مدام أورتانس، فوقفت وطرحت عنها فستانها وفتحت أحضانها، فصاح بها زوربا مأخوذًا: «إيه! إيه! إن اليوم هو يوم الثلاثاء المجيد، فابعدي عني، إننا في فترة الصوم الكبير!». غمغمت، وهي على وشك أن تصاب بالإغماء: «حبيبي زوربا...»؛ فقال لها: «تذرعي بالصبر، يا سيدتي، إلى أن يحل عيد الفصح؛ وساعتها سنأكل اللحم وسنقشر البيض الأحمر. أما الآن، فقد حان الوقت لكي تعودي إلى منزلك. فماذا عسي أن يقول الناس لو شاهدوك وأنت ترجعين في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟».

رمقته الغندورة العجوز بنظرة زاخرة بالتوسل والاستعطاف. فصاح زوربا بصوت عالٍ: «كلا! كلا! انتظري حتى دخول عيد الفصح! هيا معنا أيها العرَّاب!». قال هذا، وانحنى كي يهمس في أذني: «أستحلفك بحق الله ألا تتركنا وحدنا، فليس عندي اليوم أي مزاج على الإطلاق!».

سلكنا الطريق المؤدي إلى القرية، وكانت السماء تبرق والبحر يفوح برائحة مميزة، وطيور الليل تتنهد، وكانت السيرينية العجوز متشبثة بذراع زوربا وهي تسير الهوينى، سعيدة وحزينة في آن. كانت آنذاك قد وصلت في

سيرها إلى الميناء، الذي كانت طوال حياتها تتوق إليه، حيث كانت تمرح وتمضي حياتها فى صخب ومجون وتسخر من المقدسات، غير أن قلبها كان يكتوي بالنار.

فعندما كانت مدام أورتانس تتجول في طرقات الإسكندرية وبيروت واسطنبول، وهي تدخن بشراهة، وتسرف في وضع عطورها ومكياجها وزينتها بلا حدود، وعندما كانت تشاهد النساء الفقيرات وهن يضعن أطفالهن، كان الألم الممض يخترق صدر هذه المسكينة التعسة، وكان ثدياها ينتفخان وحلماتهما تنتصبان توقًا منها إلى طفل رضيع يلقمهما بفمه. كان عقلها وفكرها يوحيان لها بأن تتزوج، أجل أن تتزوج وتنجب طفلاً؛ وكانت ساعتها تطلق زفرة حارة من التحسر على حالها؛ غير أن أحدًا من الرجال لم يتوصل قط إلى معرفة مكمن ألمها وحسرتها. أما الآن، والفضل لك يا الله! فقد وصل رجل من سقط المتاع، طالما تقاذفته أمواج البحر إلى الميناء المنشود، بعد أن تأخر قليلاً في وصوله، ولكنه وصل بحمد الله.

كانت المدام ترفع، ما بين الفينة والأخرى، عينيها وترمق بهما خلسةً هذا الرجل الأخرق ذا الطول الفارع (= زوربا) الذي يسير إلى جوارها، وكانت تفكر فيما بينها وبين نفسها: «إنه ليس باشا ثريًا يضع على قلنسوته ذؤابات من ذهب، وليس واحدًا من البكوات ذوي الحسن والجمال؛ لكنه على أية حال فيه الكفاية، والحمد لك يا الله! لقد أصبح رجلي وزوجي، وغدا زوجًا متوجًا على عرش قلبي، فلك المجد يا الله!».

كنا قد اجتزنا أشجار التين المحيطة بمنزل الهانم وبستان الأرملة، وتبدت أمام أعيننا البيوت الأولى في القرية، فتوقفنا. قالت الغندورة

المترعة بالسعادة: «تصبح على خير، يا حبيب قلبي!». قالت هذا ثم وقفت على أطراف أصابع قدميها كي تصل إلى شفتي خطيبها، وتعطيه قبلة. غير أن زوربا لم ينحنِ، ولم يمكنها من ذلك. فقالت المرأة: «هل أنزل إلى الأرض، يا حبيبي، وأقبل قدميك؟»؛ قالت هذا، ثم استعدت كي تتكوم أسفل قدميه. لكن زوربا- الذي مست كلماتها شغاف قلبه- جذبها فى أحضانه، وقال لها: «كلا!... كلا! أنا الذي ينبغي أن أقبل قدميك، يا سيدة فؤادي، غير أنني متعب... تصبحين على خير».

افترقنا، وسلكنا الطريق ذاته عائدين أدراجنا ونحن صامتان؛ وكنا نستنشق بعمق النسيم المعطر. وبعد برهة من الزمن، التفت زوربا نحوي ورمقني مليًّا، وقال: «ماذا عسانا أن نصنع، يا رَيِّس؟ أنضحك أم نبكي؟ هيا زودني بنصيحتك!». لم أجبه؛ فقد كانت هناك عقدة منحشرة في حلقي لم أكن أدري كُنهها: انتحاب هي أم قهقهة! وفجأةً عاود زوربا كلامه، وسألني: «يا رَيِّس، ماذا كان اسم الإله القديم، زير النساء، الذي لم يكن يدع أنثى في الدنيا بأسرها تشكو من هَم يتعلق بجنس النساء؟ فلطالما سمعت عنه في الأساطير. فقد كان هذا الإله يصبغ لحيته، ويطبع على ساعديه صور قلوب ونساء فائقات الجمال، وكان يمسخ نفسه ويتحول إلى صورة ثور أو بجعة أو تيس أو حمار- مع احترامي لسيادتك- أو إلى أية صورة تنجذب لها شهية أية أنثى منحرفة. من فضلك، قُل لي ما هو اسمه، لعلك تسعد في حياتك».

قلت: «أعتقد أنك تتحدث عن الإله زيوس؛ كيف تسنى لك أن تتذكره؟». فقال زوربا، وهو يرفع كلتا يديه صوب السماء: «ألا فليقدس

الله روحه! فقد عانى كثيرًا وكابد الآلام؛ إنه حقًّا شهيد عظيم. فأصغ إلى ما أقوله، يا رَيِّس، فلا ريب أنني أعرف قدرًا من الحقائق. أما أنت فتصغي إلى الكتب، غير أنه يجب أن تضع في ذهنك كُنه هؤلاء الذين يكتبون! أف لهؤلاء المعلمين، وما يكتبون! فماذا عسي أن يفهم المعلمون عن زير النساء، أو عن النساء؟ فسُحقًا لهم ولزمانهم!».

فقلت له: «ولماذا لا تكتب حضرتك، يا زوربا، كي تفسر لنا جميع أسرار الكون؟». فقال: «لماذا؟ لأنني أعيش فعلاً جميع الأسرار التي تتحدث أنت عنها، وليس عندي وقت لأكتبها. فتارةً أعيش حياتي في الدنيا، وتارةً أعايش المرأة، وتارةً النبيذ، وتارةً آلة القانون؛ وليس عندي وقت كي أمسك هذا الهراء والكلام الفارغ الذي يسمونه القلم. وهكذا، سقط العالم في أيدي أرباب القلم، فمن يعايشون الأسرار ليس لديهم وقت، ومن لديهم وقت لا يعايشونِ الأسرار. أفهمت؟».

فقلت له: «إذن، ماذا عن زيوس؟ لا تنحرف بعيدًا عن سياق الحديث».

فقال زوربا وهو يتنهد: «آه! يا لَه من تعس منكود الطالع. أنا أعرف فقط ما كابده من مشاق، وما عاناه من آلام. لقد أحب- وهذا حق- النساء، ولكن ليس كما تتصورون أنتم، يا أرباب القلم، كلا أبدًا! كلا على الإطلاق! فقد كابد الألم والشوق، وكان يفهم رغبة كل امرأة وما تهفو إليه، ولذا غدا ضحية لهن جميعا. فعندما كان يرى في إقليم ما امرأة عانسًا فاتها قطار الزواج، وهي تذبل ويذوي عودها من فرط القلق والضنى، أو أنثى مشتهاة لذيذة- حتى لو كانت غير مشتهاة، أو لو كانت مسخًا غاب عنها زوجها وجافاها النوم أو أصابها الأرق- كان هذا الإله الخبيث الروح يرسم

علامة الصليب على صدره، ويبدل ملابسه ويتنكر في صورة الشخص الكائن في خيال هذه المرأة، وينفذ إلى مخدعها. لم يكن لديه مزاج أو رغبة، قلت لك، في ممارسة العشق والغرام، فكثيرًا ما كان مرهقًا- وهذا من حقه- فأنَّى له الوقت والجهد لتلبية رغبات كل هؤلاء البشر، فيا لَه من شقي تعس منكود الحظ! فكثيرًا ما كان يشعر بالملل والضيق وانعدام المزاج. فهل سبق أن رأيت قط، يا رَيِّس، تيسًا بعد أن جامع عنزات عديدات؟ إن لعابه يسيل مدرارًا، وتنسدل الغشاوة على عينيه، ويملؤهما "العماص"، وتراه يسعل ويصبح صوته خشنًا أجش، ولا يستطيع أن يقف على أقدامه؛ إن زيوس التعس كان يصير إلى هذه الحال في أحيان كثيرة. وعندما كان زيوس يرجع إلى مسكنه عند مشرق الشمس، كان يقول لنفسه: "آه! متى، يا مسيحي، أتمدد على سريري وأستغرق في النوم؟ إنني غير قادر على الوقوف على قدمي أكثر من ذلك!". وبعدها كان يمسح لعابه الذي يسيل، لكنه يسمع- على حين غرة- تنهيدة حزينة؛ فهناك على الأرض امرأة أزاحت ملاءتها، ونهضت من فراشها، وخرجت إلى شرفة منزلها، وأخذت تتنهد ألما وحسرة. وسرعان ما يذوب قلب زيوس شفقةً عليها، ويغمغم: «آه! آه! فلأهبط مرةً أخرى إلى الأرض! أجل، فلأهبط مرةً أخرى إلى الأرض، سُحقًا لي! فهناك امرأة تتنهد، فلأهبط إذن كي أواسيها وأخفف عنها! وبعدما استنفدت النساء قوته وفحولته، انقسم ظهره وأخذ يتقيأ، وعانى من الشلل، ثم قضي نحبه. وجاء بعد ذلك خليفته المسيح، فشاهد الأحوال المؤسفة التي آل إليها أمر الإله القديم، وقال: "سُحقًا للنساء! حذار من النساء!"».

كنت أستمع إلى زوربا، وأنا معجب بانتعاش عقله، ثم انفجرت بعدها في الضحك، فقال زوربا: «اضحك! اضحك على قدر ما تشاء! فو حياتك عندي، يا رَيِّس، لو أن الشيطان المقدس منحني هديته، وسارت أمورنا على خير ما يرام- وهذا أمر مستحيل، فيما يبدو لي على أية حال- فهل تراك تعرف ما هو المصنع الذي سأفتتحه؟ سأفتتح "وكالة للزواج!" أجل "وكالة زيوس للزواج!". وسوف تفد إليها- من الآن فصاعدًا- النسوة التعسات العاجزات عن العثور على رجل: النساء العوانس، والنساء ذوات السحنة الدميمة، والنساء ذوات السيقان المقوسة، وذوات العيون التي بها حوَل، والنساء العرجاوات، والنساء الحدباوات. ولسوف أستقبلهن بنفسي في الصالون ذي الجدران المكسوة بالصور الفوتوغرافية لرجال صناديد ذوي وسامة، وأقول لهن: "اخترن مَن يرقن لكن، يا سيداتي الجميلات، ومَن يهفو إليه فؤاد كل منكن، وأنا سوف أعمل بجد على أن أجلب إليكن الرجل المنشود. وسوف أعثر على فتى صنديد أشبه ما يكون بالرجل الذي تم اختياره، وأجعله يرتدى ملابس مماثلة للرجل الذي في الصورة، وأعطيه نقودًا وأقول له: "اذهب إلى الشارع الفلاني، والرقم الفلاني، وأسرع كي تعثر على السيدة الفلانية، وغازلها وتحبب إليها كما يجب، وإياك أن تنفر أو تشمئز منها، فأنا أدفع لك بسخاء فضاجعها، وقل لها كلمات غزل حلوة مشتهاة، على غرار الكلمات التي يقولها الرجال للنساء، والتي لم تسمعها تلك التعسة قط في حياتها، وأقسم لها أنك سوف تتخذها زوجة، وامنح هذه التعسة المنكودة قليلاً من البهجة والحبور. البهجة التي تحظى بها الماعز وإناث السلاحف والديدان ذوات الأربعة والأربعين قدمًا...". ولو

تصادف وكانت العميلة امرأةً عجوزًا مثل عجل البحر، أشبه ما تكون بغندورتنا مدام بومبولينا، وأعجز عن العثور على رجل صنديد أدفع له مالاً في مقابل منح الحب لها، أو رفض أن يواسيها في وحدتها، فساعتها سوف أرسم أنا علامة الصليب وأتوكل على الله وأضطلع بنفسي- أنا مدير الوكالة- بالقيام بالدور المطلوب. وعندئذٍ سيقول جميع الحمقى البلهاء: "إيه! يا لَه من فاسق طاعن في السن! غير أنه ليست له عينان ليرى، وليست له أنف ليشم! أفٍ لكم! بل لديَّ أيها الحمقى الأغبياء، بل لديَّ أيها الحمقى عديمو الإحساس! أجل لديَّ عينان ولديَّ أنف، ولكن لديَّ أيضًا قلب يحس ويتألم! وعندما يكون لديك قلب، فلا يهم إن كانت لديك أنف أو عينان! وقُل على الكل السلام!". وعندما أصاب بعدها بالشلل جراء كثرة الرواتب، فسوف أقضي نحبي، وساعتها سوف يفتح لي القديس بطرس، حامل مفاتيح الجنة، باب الفردوس، وسوف يقول لي: "ادخل، يا زوربا، يا مَن أضناك الحب، ادخل، يا زوربا، أيها الشهيد العظيم، اذهب كي ترقد بجوار زميلك زيوس كي ترتاح بدورك، أيها القدسي المبارك؛ فلطالما قاسيت وعانيت في حياتك!».

كان زوربا يتحدث وينصب شراكًا بخياله، وكان هو نفسه الذى يقع فى حبائلها، فقد أخذ يصدق شيئًا فشيئًا أسطورته. وما إن فرغ من المهمة في هذه الليلة، وأثناء اللحظة التى وصلنا فيها إلى شجرات التين المحيطة بمنزل الهانم، حتى تنفس الصعداء، ورفع يديه كأنه يريد أن يقسم، وقال: «يا مناط اهتمامي، يا عزيزتي بومبولينا، أيتها الهالكة المعذبة، يا بارجتي الحبيبة! يا مناط اهتمامي، لعلمك لن أتركك أبدًا دون مواساة، كلا! لقد

هجرتك القوى العظمى الأربع، كما تخلى عنك الشباب، وتخلي عنك الله، أما أنا زوربا، فلن أتخلى عنك أبدًا».

كان الليل قد انتصف منذ حين، عندما وصلنا إلى الساحل المجاور لنا، وهبت الرياح قادمة من ناحية أفريقيا، فوصلَنا نسيم دافئ من الجنوب، فحرك الأشجار وكرمات العنب، كما حرك قلب جزيرة كريت. كانت الجزيرة بأسرها راقدة على البحر، وكانت تستقبل- وهي ترتجف- النسمات الدافئة للهواء التي تجعل العصارة تصاعد في سيقان الأشجار. كان زيوس وزوربا وريح الجنوب العاشقة يمتزجون جميعًا هذه الليلة داخلي، في صورة وجه رجولِي صارم ذي لحية سوداء وشعر أسود فاحم دهني، كان منحنيًا بشفتيه الحمروان الدافئتين على بقعة من الأرض التي أقيم فوقها منزل مدام أورتانس.

(20)

تمددنا على فراشينا، وفرك زوربا كفيه وهو سعيد مغتبط، وقال: «لقد كان يومنا هذا طيبًا مثمرًا، يا رَيِّس. وقد تسألني: ماذا أعني بقولي "يومًا طيبًا!" وأقول لك: إنه كان حافلاً! فضَع ما يلي في ذهنك: صباحًا، كنا في مقر والدة الشيطان، أعني في الدير، ووضعنا رئيس رهبان الدير فى جوال(*)؛ ألا فلتحل عليه لعنتنا! وبعدها هبطنا ورجعنا إلي عريننا، ووجدنا مدام بومبولينا وعقدنا الخطبة، وهذه هي دبلة الخطوبة في إصبعي، ولنبدأ بالذهب. فالمدام لديها جنيهان إنجليزيان من الذهب، كان قد أعطاهما لها- نهاية القرن الماضي- القبطان الإنجليزي، وهي تقول إنها احتفظت بهما لجنازتها بعد موتها، والآن أعطتهما لي، طابت وطاب زمانها، بعد أن استبدلت بهما الدبلتين، فيا للإنسان من مخلوق حافل بالأسرار!».

فقلت له: «نم يا زوربا، واهدأ قليلاً. حسبك هذا، فغدا لدينا احتفال رسمي، إذ سوف نقيم أول عمود في الخط الهوائي. لقد بعثت برسالة إلى

(*) هذا تعبير يعني: "أننا أدخلنا عليه الغفلة" أو: "غبنَّاه فى الصفقة". [المترجم].

الأب اسطفانوس كي يحضر معنا». فقال زوربا: «حسنًا فعلت، يا رَيِّس، إنها لفكرة بالغة الذكاء أن يحضر القس ذو اللحية الشبيهة بلحية التيس، وأن يحضر كذلك كبار أعيان القرية، وأن توزع عليهم الشموع فيوقدونها؛ فمثل هذه التصرفات تخلق تأثيرًا في النفوس، كما أن من شأنها أن تدعم عملنا. أرجوك، لا ترمقني بهذه النظرة، فإن لي إلهي الحميم وشيطاني الخاص؛ لكن الناس البسطاء......». قال هذا ثم ضحك، فلم يكن بوسعه الندم، لأن عقله كان يمور، إنه شعلة متأججة.

وبعد برهة قصيرة عاود الحديث: «تحيةً وسلامًا لك يا جَدِّي! وليقدسْ الله عظامك في قبرك، فقد كان بدوره زير نساء، كما كان قبطانا. كان أشبه ما يكون بي، ومع ذلك فقد ذهب هذا الوغد الزنيم لزيارة قبر المسيح وأصبح حاجًّا، والله وحده هو الذي يعلم ماذا كان مراده من هذا. وعندما رجع بعدها إلى القرية، قال له واحد من العَرَّابين، وكان هذا العرَّاب لصًّا يسرق العنزات وبائسًا نكد الطالع: "إيه يا عرَّابي! ألم تحضر معك من قبر المسيح المقدس قطعة خشب ممجدة عريقة؟" فقال جدي الخبيث: "وكيف يتأتى ألا أحضرها لك يا عرَّابي؟ وهل يمكن أن أنساك أنت بالذات؟ تعال إلى منزلي مساءً، واحضر معك القس كي يقوم بالترتيل ورش الماء المقدس، وعند ذاك سأعطيها لك هدية؛ واحضر معك أيضًا خنزيرًا حنيذاً مشوياً ونبيذاً من أجل هذا الاحتفال الحميم!". وصل جَدِّى إلى المنزل وأخذ قطعة خشب من باب المنزل الذي كان قد تآكل بفعل السوس، وكانت لا تزيد في حجمها عن حبة أرز، ثم لفها في قطعة قطن ونثر فوقها قليلاً من الزيت، وظل ينتظر. وبعد قليل، وصل العراب ومعه القس والخنزير المشوي.

ووضع القس الوشاح على كتفيه، ورتل ورش الماء المقدس، وتم تسليم قطعة الخشب المجيدة، وانكبوا بعدها على الخنزير يلتهموه. فهل تصدق ما حدث بعد ذلك، يا رَيِّس؟ انحني العرَّاب إجلالاً للخشبة المقدسة، وعلقها في رقبته، ومنذ ذلك الحين أصبح إنسانًا آخر. فقد تغير تمامًا، إذ اتخذ من كهوف الجبال مأوى، وخالط المذنبين والمجرمين واللصوص، وأحرق القرى التي كان يعيش فيها الأتراك، وكان يندفع وسط طلقات الرصاص دون أن يَفرق أو يطرف له جفن.

فلماذا يفرق أو يخاف؟ إن الخشبة المقدسة معلقة في رقبته، فكيف يصيبه الرصاص؟». انفجر زوربا في الضحك، ثم قال: «كل هذا كان مجرد اعتقاد، فهل تصدق هذا؟ شظية من باب خشبي قديم تصبح خشبة مقدسة! هل تصدق هذا؟ وفي المقابل، يصبح الصليب المقدس بابًا خشبيًّا قديمًا»؛ فحيثما كنتَ تتلمس روح زوربا تجد الشرر يتطاير نحوك. وهنا قلت له: «هل ذهبت إلى الحرب يومًا، يا زوربا؟». فأجابني ورأسه منكس إلي أسفل: «لا أدري! لا أتذكر! أي حرب تقصد؟». قلت له: «أريد أن أقول هل حاربت من أجل الوطن؟». فقال: «أوَ لن تقلع عن مثل هذا الكلام؟ لقد كانت حماقات ولت ومضت. أجل حماقات أصبحت طي النسيان». فقلت: «أتسميها حماقات، يا زوربا، أفلا تستحي؟ أهكذا تتكلم عن الوطن؟». وهنا مد زوربا عنقه، ورمقني شزرًا. كنت آنذاك مستلقيًا علي فراشي، ومن فوقي علي الجدار كان القنديل موقدًا، فظل زوربا يرمقني فترة ليست بالقصيرة بصرامة، وهو يقبض علي شاربيه، وقال في خاتمة المطاف: «إن هذا تصرف لا ينم عن خبرة... لحمُ مُعلِّمٍ وعقلُ مُعَلِّم... كل ما أقوله لك

يذهب سُدًى؛ فسامحني، يا رَئِّس».

قلت له محتجًا: «ولكن كيف؟ إنني أفهم ما تقول، يا زوربا، وأقسم لك على هذا. أجل أفهم!». فقال: «أجل، تفهم بعقلك، وتقول: صحيح! خاطئ! هذا تمام! وهذا غير مناسب! عندك حق! ليس عندك حق! ولكن ماذا يمكن أن أستنتج من هذه الإجابات؟ إنني أتطلع إلى يديك وقدميك وصدرك- في اللحظة التي تتحدث فيها- غير أنني أجدها جميعًا خرساء لا تقول شيئًا، وكأنها خالية من الدماء؛ فبأي شيء إذن تفهم؟ هل تفهم برأسك؟ أف!». فقلت له بصوت عالٍ، كي أستثيره: «تكلم يا هذا، تكلم يا زوربا، ولا تناور ولا تحِد عما سألتك عنه! وأعتقد أنك لا تهتم ولا تبالي، أيها المحتال، بالوطن!».

أحس زوربا بالغضب يملأ جوانحه، فلكم الحائط بقبضة يده، وأرعدت بداخله براميل الغاز، وصاح: «إنني يا هذا الذي تراني أمامك، وإياك أن توجه هذا الكلام إليَّ بوجه خاص، أنا الذي كنت أزين شعر القديسة صوفيا، وكنت أحملها علي كتفي وفوق ظهري، والحبل معلق في رقبتها، إذ جعلتها تعويذة تقي من العين الشريرة! أجل فبهذين الذراعين كنت أنا الذي زينتها بشعري هذا الذي كان ذات يوم أسود فاحمًا، مثل الغراب. وأنا الذي تراني ها هنا، كنت أجوب القفار مع باڤلوس ميلاس، وأذرع الشعاب المسننة في مقدونيا. كنت صنديدًا مغوارًا من قمة رأسي حتى إخمص قدمي، بنياشيني وأوسمتي والتزلك الذي كنت ألبسه في قدمي، وتعاويذي وأصفادي وأحزمة خراطيشي وبنادقي. لقد كنت مثقلاً بأوسمة ونياشين من الحديد والفضة، وكنت أسير علي هذا النحو وأنا أرفع عقيرتي

بالصياح والجلبة، وكأن فرقة من الفرسان بكاملها كانت تمر. فانظر هنا... وانظر هنا... وهنا، وانظر هنا!».

قال هذا وفتح أزرار قميصه، وألقى ببنطلونه، وصاح بلهجة الآمر: «هات القنديل، وانظر هنا!» فاقتربت منه ومعي القنديل، وفي ضوء القنديل شاهدت جسمه، الذي يحمل آثار جروح وندوب تمت حياكتها، يلتمع أمامي. شاهدت أمامي جروحًا عميقة وتجاويف جراء طلقات الرصاص؛ كان جسمه بأسره مثل الغربال مليئًا بالتجاويف والندوب. ثم قال: «وانظر الآن إلى هذا الجزء أيضًا!»، واستدار إلى الخلف، وأشار إلى ظهره، وقال: «انظر! لا توجد أية جروح البتة في ظهري... فهل فهمت؟ خذ القنديل الآن إلي مكانه!».

قال هذا ثم ارتدي بنطلونه وقميصه، وجلس معتدلاً علي فراشه، بعدها صاح في غضب وانفعال: «أجل، لقد كانت حماقات! يا لَلخجل! متى يا هذا سيصبح الإنسان إنسانًا؟ فها نحن نرتدي البنطلونات والياقات والقبعات، ومع ذلك لا نزال بغالاً، ذئابًا، ثعالب وخنازير. أتقول إن لنا مُحَيا الله؟ مَن؟ نحن؟ اتفو على هذه السِّحن التي لنا!».

كانت حدة الغضب المريع تتصاعد إلى رأس زوربا، وكذلك الحنق والثورة ومظاهر الهياج كافة، فمن بين أسنانه- ذات الفجوات التي كانت تصدر صريرًا- كانت تنطلق كلمات يصعب فهمها أو إدراك كُنهها. نهض واقفًا، وأمسك إبريق الماء، وظل يشرب ويشرب حتى ارتوي، وعندئذ شعر بالراحة والرضا، ثم قال وهو يزوم: «حيثما تلمس جسمي ستجد أنه زاخر بالجروح والندوب، فلماذا تجلس هنا وتهرف وتثرثر بكلام تافه معي عن

النساء؟ فإنني ما إن أدركت أنني كنت رجلاً بمعني الكلمة، لم أرجع بحال من الأحوال كي أرَاهُنَّ، وحتى لو رجعت فإنني لا ألمسُهنَّ إلا لماماً، لبرهة قصيرة خاطفة كأنني ديكٌ وهُن البرابر. ثم أمضي لحال سبيلي. ولطالما قلتُ عنهن: "أفٍ! يا لهن من إناث ظربان نتنات! أفٍ يا لهن من نسوة مدعيات للحياء، متظاهرات بالاحتشام، يردن امتصاص الفحولة! اتفو عليهن! ليتهن يهلكن بأسرهن!". أخذت بندقيتي آنذاك وهرعت في طريقي لا ألوي على شيء، وانضممت للثوار الفدائيين، وأصبحت محاربًا نصيراً للحق؛ وذات يوم عند الفجر تسللت إلى قرية بلغارية، واختبأت في إحدى الحظائر، وكانت هذه الحظيرة موجودة في منزل قس بلغاري، وهو محارب فدائي متوحش متعطش للدماء، وكان عندما يحين الليل يخلع رداءه الكهنوتي ويلبس ملابس الرعاة، ويتزود بالسلاح، ويغير على القرى اليونانية؛ أما في الصباح، فكان يقفل عائدًا أدراجه عند شروق الشمس، ويغتسل من آثار الأوحال والدماء، وينهمك في أداء الصلوات والقداس، وفي تلك الأيام، كان قد قتل مدرسًا يونانيًا وهو راقد علي فراشه يغط في نومه. دخلتُ إذن إلى حظيرة القس، وكمنت فيها مترقبًا، وهناك تمددت علي ظهري فوق الروث خلف ثورين كانا بها، وشرعت أترقب. وعندما جن المساء، دخل القس ليطعم حيواناته، فانقضضت عليه وذبحته مثلما تُذبح الخراف، ثم قطعت أذنيه وحملتهما معي، فقد كنت أقتني مجموعة من الآذان البلغارية التي قتلتُ أصحابها. أخذت عندئذٍ أذني القس البلغاري ووليت الأدبار هاربًا.

وبعد انصرام عدد من الأيام، تسللت مرة أخري إلي القرية ذاتها، وكان

الوقت ظهرًا في رابعة النهار، وتظاهرت بأنني بائع متجول؛ وكنت قد تركت سلاحي في الجبل، وذهبت إلي القرية لأبتاع خبزًا وملحًا ونعالاً ريفية للفتية الصناديد؛ وهناك لمحت خارج أحد البيوت خمسة غلمان حفاة يلبسون ثيابًا سوداء، وهم يسيرون متشابكي الأيدي ويتسولون. كانوا ثلاث بنات وغلامين. كان أكبرهم سنًّا يبلغ تقريبا العاشرة من عمره، أما أصغرهم فكان لا يزال طفلاً صغيراً؛ كانت البنت الأولي تحمله علي صدرها ولا تفتأ تقبله وتدللـه، حتى لا ينخرط في البكاء. ولا أدري كيف ألهمني الله وواتتني فكرة الاقتراب منهم، وسألتهم باللغة البلغارية: "مَن أين أنتم، يا أولاد؟" فرفع أكبر الغلمان رأسه الصغيرة، وأجابني: "إننا أبناء القس الذي ذبحوه أول أمس في الحظيرة".

اغرورقت عيناي بالدموع، ومادت الأرض بي كأنها حجر الرحَى، فاستندت إلي الجدار إلي أن توقفت الأرض عن الدوران، فقلت بعدها للغلمان: "اقتربوا أيها الغلمان، تعالوا هنا بالقرب مني، ثم أخرجت من حقيبتي الجلدية لفافة مليئة بالليرات والعملات التركية، وجثوت علي ركبتي وأفرغتها على الأرض، وصحت خذوها، خذوها فهي لكم! فهرع الغلمان وانحنوا علي الأرض، وأخذوا يجمعون الليرات والعملات التركية بأيديهم، وصحت مرةً ثانية: "خذوها، فهي لكم، هي لكم، فخذوها! كما تركت لكم سلتي التي بها البضاعة، خذوها كلها، فهي لكم يا أولاد".

سرعان ما أطلقت ساقيَّ للريح وخرجت من القرية، وفتحت قميصي وأخرجت منه أيقونة القديسة صوفيا التي كنت قد زينتها، ومزقتها ثم رميتها، وأخذت أعدو وأعدو، وما زلت أعدو حتي الآن».

استند زوربا إلي الجدار، ثم التفت نحوي، وتفرس في وجهي مليًا، وقال: «وهكذا نجوت». فقلت له: «هل نجوت من الوطن؟» فأجاب زوربا بصوت هادئ متزن: «أجل نجوت من الوطن!». وصمت قليلاً، ثم قال: «نجوت من الوطن، نجوت من القساوسة، نجوت من المال؛ تطهرت ونقيت نفسي؛ وكلما مر عليَّ الزمن تطهرتُ وصرت أنقَى وارتحت. كيف أشرح هذا لك؟ إنني أتحرر وأصبح إنسانًا!».

لمعت عينا زوربا وضحك ملء شدقيه راضيًا مغتبطًا. وبعد فترة من الصمت، أخذ زمام المبادرة مرةً أخرى وعاود الحديث، إذ كان قلبه مترعًا ولم يعد يحتمل أن توجَّه له الأوامر، أو يتحكم فيه أحد: «وذات مرة كان من دأبي أن أقول لنفسي: "هذا تركي أو بلغاري، وذاك يوناني، فلقد كنت قد أديت خدمات للوطن، يا رَيِّس، وفعلت أفعالاً يقف لها شعر رأسك. قتلت وسرقت وأحرقت قرًى، ودنست شرف نساء، وأزلت منازل، وسويتها بالأرض. لماذا! لأن هؤلاء كانوا بلغارًا أو أتراكًا. ألا فلتخسأ أيها الإنسان الوغد الزنيم! فكثيرًا ما قلتُ هذا لنفسي، ولطالما ازدريتها، ألا فلتخسأ أيها الأبله المغفل! فلقد اكتسبت حقًّا معرفة، وها أنذا أنظر الآن إلي الناس، وأقول هذا إنسان خيِّر وذاك شرير. هل يصح أن أقول هذا بلغاري وذاك رومي (يوناني)؟ إنه بالضبط مثل قولي هذا خيِّر وذاك شرير، وهو فقط ما أسال عنه الآن. وكلما تقدمت في السن، قسمًا بالخبز الذي آكله! بدا لي أنني سأشرع في ألا أسال حتى هذا السؤال. فيا صاحبي، لا يصح أن يقال هذا طيب وهذا سيء. إنني أرثي للناس جميعًا، ونياط قلبي تتمزق حينما أري إنساناً، كأنني اكتويت بمسمار ملتهب؛ فالحق إن هذا

الشخص البائس التعس يأكل ويشرب ويحب ويخاف مثلنا، وهو أيضًا له إلهه الذي يعبده وشيطانه الذي يعاديه، كما أنه سوف يهلك ويفني وسيرقد ميتًا في التراب وستأكله الديدان.... فيا لَه من بائس مسكين. كلنا إخوة، وكلنا لحمٌ سيأكله الدود. ولو كان هذا الإنسان امرأة، فقسمًا بالله، إن الدموع تندفع الآن لتسيل من عيني حزنًا عليها وإشفاقًا... فحضرتك تضايقني ما بين الفينة والأخرى، وتعيرني بأنني أحب النساء، فكيف بالله عليك لا أحبهن؟ أوَ لسن مخلوقات ضعيفة لا يعرفن ماذا يحدث لهن؟ ولو أنك أمسكت حلمة ثدي واحدة منهن، أفلن تفتح أمامك في التو جميع أبوابها، وتستسلم لك؟».

لقد تسللتُ ذات مرة إلي قرية بلغارية، وأقدم شخصٌ يوناني مُسن من الأعيان- ولكنه عديم الشرف- علي خيانتي، فأخذوا يحاصرونني، وأنا داخل المنزل الذي كنت أقيم فيه، فتسللت من الشقة، وأخذت أزحف من سطح إلي سطح. كان الوقت ليلاً والقمر ساطعًا، وأخذت أقفز من شرفة إلي شرفة مثل الهرة، كي ألوذ بالهرب، غير أنهم لمحوا ظلي، فصعدوا إلي الأسطح وأمطروني بوابل من رصاص بنادقهم؛ وارتج عليَّ ولم أعد أدري ماذا أفعل، فألقيت بنفسي في فناء منزل كانت به امرأة بلغارية. قفزت في الردهة حيث كانت نائمة، وكانت ترتدي غلالة رقيقة، فشاهدتني، وحاولت أن تفتح فمها كي تصرخ، فمددتُ يدي وقلت لها أمان! أمان! اصمتي. وأمسكت بحلمة ثديها، فاصفر وجه المرأة، وأخذت تميل وتنحني، ثم قالت لي بهدوء: "هيا إلي الداخل، ثم أردفت: هل أنت رومي (يوناني)؟" فقلت لها: "أجل أنا رومي، فإياكِ أن تبلغي عني". وبعدها أحطت خصرها

بذراعي، فلم تمانع أو تتكلم. ضاجعتها، وكان قلبي يرتجف من فرط حلاوتها، وقلت لنفسي: "إيه يا زوربا، هذه هي المرأة، وإلا فلا!". هذا هو الإنسان حقًّا؛ فسواء كانت بلغارية أو يونانية أو من أية جنسية، فالأمر سيان بالنسبة لي. اعلم يا هذا، إنها إنسان، أجل إنسان وكفي. أفلا تخجل أو تستحي من القتل أيها الوغد؟ اتفوا اتفوا".

هذا ما كنت أقوله لنفسي وأنا بين أحضانها، وأنعم بدفء جسدها، ولكن أنَّى للوطن أن يدعني أهنأ بحالي؟ أنَّى للوطن، ذلك الكلب المسعور، أن يتركني؟ فقد رحلت في الصباح، وأنا أرتدي ثيابا بلغارية أعطتها لي المرأة البلغارية التي كانت أرملة، إذ أخرجت ثياب زوجها الراحل من الصندوق وأعطتها لي، وأخذت تلثم ركبتي وتستحلفني أن أعود إليها مرةً أخري. وبالفعل، عدت إليها مرةً أخري في الليلة التالية. فأنا وطني حتى النخاع كما تعرف، وحش لم يروضه أحد. أجل، رجعت إلي القرية، ومعي صفيحة من البنزين، وأحرقت القرية عن آخرها، ولا ريب أن هذه المرأة البلغارية التعسة قد احترقت أيضًا. كان اسمها لودميلا».

أطلق زوربا تنهيدة حزينة، ثم أشعل سيجارة، وأخذ يستنشق من دخانها مرتين، وبعدها ألقي بها بعيدًا، ثم أردف: «تقول لي الوطن؟... إنك لا تسمع سوي الهراء الذي تقوله أوراقك. أجدر بك أن تسمعني أنا؛ فطالما سيوجد وطن سيظل الإنسان حيوانًا، أجل، حيوانًا غير مروض؛ لكن، تعاليت ربنا ولك المجد، فلقد نجوتُ وحصلتُ علي خلاصي، ومضى كل ذلك إلى غير رجعة، وحياتك عندي».

لم أحر جوابا... فجميع المشاكل التي كنت أناضل من أجل حلها عقدةً

عقدةً أثناء عزلتي مسمرًا في مقعدي، قام بحلها هذا الإنسان بحسامه في أرجاء الجبال وسط الهواء النقي؛ أغمضت عينيَّ بلا عزاء. وهنا قال لي زوربا باستياء: «هل استغرقتَ في النوم، يا رَيِّس؟ ومع ذلك، فأنا المغفل جالسٌ لأتحدث معك!»؛ قال هذا ثم تمدد على فراشه وهو يغمغم. ولم تمر سوي برهة قصيرة من الزمن حتى سمعت شخيره وغطيطه.

ظللتُ طوال الليل ساهرًا لم يغمض لي جفن، وتناهي إلي سمعي صوت عندليب يغرد للمرة الأولي هذه الليلة، في هذه البقعة المنعزلة التي نقيم فيها، فملأ تغريده الدنيا مرارةً لا يمكن احتمالها، وفجأةً أحسست أن عينيَّ تذرفان الدمع. استيقظتُ من نومي عند شروق الشمس فوقفت بالباب، وتطلعت إلي البحر والأرض، وبدا لي أن الدنيا قد تغيرت في غضون ليلة واحدة لا سواها، وقبالتي علي الرمال كانت شجرة شوك مقيدة قد أنبتت أمس فقط أزهارًا بيضاء متناهيةً في الصغر، وكانت هناك رائحة عَطرة قادمة من بعد، تفوح من أشجار الليمون وأشجار البرتقال المزهرة، فاكتسب الهواء هذا العبير الشذي الحلو. تقدمت في سيري بضع خطوات علي التراب الذي تحلى بزينته حديثًا، وذلك لأنني كنت غير قادر علي إشباع نهمي من جمال هذه المعجزة المتجددة إلي الأبد.

وفجأةً، سمعت خلفي ضجة مرحة فالتفت، فإذا بزوربا نصف عارٍ، وقد قفز إلي أعلي جذلاً وانشراحاً، إذ كان واقفاً بالباب يتطلع بدوره إلي الربيع وهو مأخوذ بجمال الطبيعة. صاح زوربا مبهوراً: «يا لهذا الجمال، يا رَيِّس، وحق إيماني إنني كمَن يشاهد الدنيا للمرة الأولي! ما هذه المعجزة، يا رَيِّس، ما هذه الزرقة الداكنة التي تتحرك هناك علي مرمي البصر؟ ماذا

يسمونها: البحر؟ هل هي البحر؟ أم أنها الأرض؟ تري أي عاشق صاغها وشكّلها؟ قسماً بالله، يا رَيِّس، إنها المرة الأولي التي أري فيها هذا المنظر!» قال هذا وغامت عيناه بالدموع التي ترقرقت فيها.

صحتُ عالياً: «إيه» يا زوربا، هل ذهلت وطار لبك؟» فقال: «لا تضحك! أفلا تري هذا المشهد الخلاب؟ إن هذا سحر يُمارس هنا، يا رَيِّس!». اهتز جسد زوربا وبدأ يرقص ويدور علي العشب، وكأنه مهرٌ في فصل الربيع. بدأت الشمس ترسل أشعتها، فمددت كفيَّ لكي ينفذ اليهما الدفء. انتفخت الأشجار بالعصارة، وانتفخت الصدور والأثداء بالعواطف، وبدأت الروح تتفتح مثل الشجرة، فتحس كما لو كانت الروح والجسد كلاهما قد خُلقا من الجوهر ذاته.

كان زوربا قد نهض الآن من فوق العشب، وكان شعره مليئًا بقطرات الماء والتراب، وهتف بي: «بسرعة يا رَيِّس، فلنرتدِ ملابسنا ونتزين، فاليوم لدينا احتفال تدشين ذي طقوس دينية. وأيًّا ما كان الأمر، فالقس وكبراء القرية سيحضرون هذا الحفل، فلو أنهم شاهدونا ونحن نتدحرج علي العشب، فأي خزي سيلحق بالشركة! البس إذن ياقتك المنشاة وربطة عنقك! وليكتسِ محياك بتعبيرات رزينة! وليس من المهم ألا تكون لك رأس، فيكفي أن تضع قبعتك فحسب... وهذه بصقة مني عليكِ، أيتها الدنيا".

ارتدينا ملابسنا واستعددنا، ووصل العمال، وأهلَّ كبراء القرية علينا بطلعتهم، وقال لي زوربا: "صبرك، يا رَيِّس، تحكم في ضحكك، حتي لا نصبح مضغة في الأفواه وموضع سخرية". كنت أسير في المقدمة مع الأب

اسطفانوس، في ردائه الكنهوتي المتسخ ذي الجيوب العميقة. كان القس- أثناء المراسم المقدسة، وفي الجنازات أو حفلات الزواج أو التعميد- يلقي في جيوبه هذه- التى تشبه البالوعة- خليطًا من كل ما يهبه له الناس، كمجاملة: زبيباً، وكعكًا، وفطائر جبن الكريم، والخيار، وكرات اللحم، وملبس اللوز، وبليلة بالسكر والزبيب والرمان؛ وفي المساء كانت زوجة القس العجوز تلبس نظارتها، وتفرغ الجيوب من محتوياتها، وتبدأ في الطحن والجرش والمضغ....

وخلف الأب اسطفانوس، كان يسير وجهاء القرية وكبراؤها: كوندومانوليوس، صاحب المقهى، الذي كان يعرف أمور الدنيا، لأنه كان قد ذهب إلي مدينة خانيا، وشاهد فيها الأمير جورجيوس؛ والعم أناغنوستيس المهذار؛ والمدرس الرزين المتمسك بالشكليات الرسمية بعصاه السميكة؛ وأخيرًا مافراندونيس، الذي يسير بخطي بطيئة وثقيلة، ويضع علي رأسه منديلاً أسود، ويرتدي قميصاً أسود وحذاء أسود عالي الرقبة. ألقي هذا التحية باقتضاب من نصف فمه، وهو شاعر بالمرارة وتبدو عليه الصرامة، ثم وقف جانباً مولياً ظهره للبحر.

قال زوربا بلهجة رسمية: "بسم الله!"، ثم تقدم إلى الأمام، وتبعه الحشد جميعًا بخشوع ديني. استيقظت ذكريات طقوس سحرية منذ حقب زمنية سحيقة في صدور هؤلاء القرويين؛ فكانت عيونهم كافةً مثبتة في خشوع علي القس، وكأنهم كانو ينتظرون أن يشاهدوه وهو يصارع قوي غير منظورة، ويطرد الأرواح الشريرة. فمنذ آلاف السنين، كان الساحر يرفع يديه ويرش من القنينة الهواء بمائه المقدس، ويتمتم بكلمات غامضة

ذات قوة لا يُشق لها غبار، فيؤدي هذا إلي هروب الأرواح الشريرة، في حين كانت الأرواح الخيِّرة تُهرع من المياه ومن التراب ومن الهواء، وتخف لمعونة البشر.

وصلنا إلي الحفرة التي كانت قد حُفرت بجوار الساحل، لكي يوضع فيها العمود الأول من الخط الهوائي. بدأ العمال يرفعون جذعاً كبيراً من شجر الصنوبر، ويضعونه منتصباً داخل الحفرة، وارتدي الأب اسطفانوس وشاحه وأخذ قنينة الماء المقدس، وبدأ يتطلع بصرامة وحذَر إلى العمود، ويرتل بصوت متهدج تعويذة طرد الأرواح الشريرة (باللغة اليونانية القديمة): «ووضعوا أساسه فوق صخرة صلبة ستظل قوية راسخة، لا تنال منها الرياح ولا تقوضها المياه ..... آمين!". صاح زوربا بصوت مرعدٍ مدوٍ: "آمين!" ورسم علامة الصليب؛ ومِن بعده صاح كبراء القرية: "آمين!". ومِن بعدهم، صاح العمال في آخر المطاف: "آمين!".

ثم بعد ذلك رتل الأب اسطفانوس دعواته: "فليبارك الله أعمالكم، وليهبكم الخيرات والنِّعم التى أغدقها على إبراهيم وإسحق". دس زوربا في كف القس ورقة بنكنوت، فتمتم القس وهو راض مغتبط: "فلتحظ بدعواتي لكَ!". عدنا أدراجنا إلي السقيفة، حيث دعاهم زوربا لشرب النبيذ وتناول المشهيات، التي تقدم خلال فترة الصوم الكبير: الأخطبوط، الكالاماري، الفول النابت، والزيتون. ثم بعد ذلك اتجه جميع وجهاء القرية إلي طريق الساحل راحلين، وما لبثوا أن تواروا عن الأنظار، وانتهت الطقوس السحرية.

وهنا قال زوربا: "لقد كلل مسعانا بالنجاح!"، ثم فرك كفيه بسعادة

غامرة، وبعدها خلع ملابسه وارتدي ملابس العمل، وأخذ معوله وصاح في العمال: "هيا بنا، يا أولاد، نباشر العمل، بسم الله!". وطوال ذلك النهار لم يرفع زوربا رأسه، بل انغمس في العمل وانكب عليه بجنون. كان العمال يحفرون حفرة كل خمسين متراً، ثم يضعون فيها عموداً من سيقان الشجر، ويمدون حبلاً مُفرداً وصولاً إلي قمة الجبل. وكان زوربا يقيس المسافات ويعطي الأوامر، دون أن يأكل أو يدخن أو يستريح طوال اليوم؛ إذ كان يكرس نفسه بكاملها لعمله.

كان من دأبه أن يقول لي أحيانًا "إن نصف العمل، ونصف الحديث، ونصف الخطيئة، ونصف الفضيلة، هي التي أوصلت دنيانا إلي الحال المؤسفة التي نحن عليها اليوم.... فاسع، يا إنسان، إلي ما هو مطلق ولا تخف! فالله يكره نصف الشيطان أكثر مما يكره الشيطان المسرف في الطغيان!".

وبمجرد أن فرغ من عمله، عندما حل المساء، تمدد علي الرمال مرهقاً مكدوداً، وقال: "سوف أنام هنا، وأنتظر حتي تشرق الشمس، كي أستانف العمل مرةً أخري، ولسوف أُنظِّم ورديات(*) كي يعملوا ليلاً". فقلتِ: "ولكن لماذا العجلة، يا زوربا؟" فتردد لحظة، ثم قال: "لماذا؟ انظر! إنني أريد أن أري ما إذا كنتُ قد نجحت في تحديد زاوية الإنحدار. فلو لم أكن قد نجحت في هذا، يا رَيِّس، فليأخذني الشيطان! وكلما أخذني الشيطان أسرع، كان هذا أفضل".

(*) الكلمة المستخدمة فى اللغة اليونانية هى الكلمة ذاتها المستخدمة فى لغتنا العربية، ولكنها تُنطق نطقاً مختلفاً، وهي "bardies" التى تنطق "ڤارذييس" = ورديات. [المترجم].

تناول طعامه علي عجل، وهو يخطف اللقيمات خطفاً، وما هي إلا لحظات حتي كان صوت غطيطه يتردد علي طول الساحل. أما أنا، فظللت مسهداً ساعةً أو بضع ساعة، أتطلع إلي النجوم وهي تتلألأ في قبة السماء الزرقاء الفاتحة؛ كنت أشاهد ببطء وأناةٍ السماء بأسرها وهي تموج، مبرقشة بالنجوم الساطعة، وكانت جمجمتي أشبه ما تكون بقبة مرصد، تتحرك بدورها كي تتطلع إلي النجوم. فتذكرت عباره قالها الفليسوف الروماني "ماركوس أوريليوس" (باللغة اليونانية القديمة)، وهي: "تطلع إلي مسارات النجوم، كأنك تدور مثلها في فلكها"؛ فأفعمت هذه العباره قلبي بالانسجام والهارمونية.

(21)

اليوم هو عيد القيامة المجيد، ولذا تزين زوربا وارتدى أفضل ما لديه، ولبس جواربه(*)، وهي جوارب مقدونية سميكة ذات لون بنفسجي داكن، كانت إشبينة له- كما يقول- هي التى نسجتها من أجله؛ وأخذ يروح ويغدو فوق تل بالقرب من الساحل، والقلق يكاد يعصف به. وهنا وضع يده ليظلل بها حاجبيه الكثيفين، وأخذ يلقي نظرة شاملة إلى بعيد، حيث القرية. ثم قال: "لقد تأخرت الخنزيرة... لقد تأخرت الكلبة العاهرة... لقد تأخرت الفاسقة الفاجرة...."

هنا طارت فراشة خرجت لتوها من شرنقتها، وحطت على شارب زوربا، لكنه عندما أحس بوخز خفيف ودغدغة نفخها بمنخاريه، فانتفضت الفراشة بهدوء وخفقت بجناحيها طائرةً، واختفت فى الضوء. كنا اليوم فى انتظار مدام أورتانس، كي نحتفل بعيد القيامة معها، وكنا قد

(*) الكلمة المستخدمة للدلالة على الجوارب فى اللغة اليونانية هى الكلمة العامية السائدة عندنا، وهى "شرابات: tsouarpa"؛ ولكنها نطقها اليونانى هو "تسورابا". [المترجم].

شوينا خروفاً على السفود (= السيخ)، وأعددنا (ممبارًا)، وفرشنا ملاءة بيضاء على الرمال، ولوّنا البيض. اتفقت أنا وزوربا، ونحن في منطقة وسط بين التهكم والتأثر، على أن ندعوها اليوم، ونُعد لها استقبالاً عظيماً. فعلى على هذه الرمال المقفرة المنعزلة، كانت هذه السيرينية العجوز الممتلئة- التي تفوح منها رائحة الصابون المعطر، والتي وهن العظم منها- كانت تشدنا إليها بجاذبيتها الفريدة الغريبة. إذ عندما لاتكون بصحبتنا نحس أن هناك شيئًا ينقصنا: عطر يماثل الكولونيا، لون أحمر قانٍ، مشية متدحرجة مثل مشية البطة، صوت أجش وعينان متقرحتان ذابلتان.

قطفنا إذن أغصانًا من أشجار الريحان ومن أشجار الغار، وأقمنا بها قوس نصر كي تمر هي من تحته، وفوق القوس علقنا الأعلام الأربعة: علم انجلترا، علم فرنسا، علم إيطاليا، وعلم روسيا؛ وفي المنتصف- في موضع أعلى- علقنا ملاءةً بيضاء طويلة بخطوط زرقاء، لتمثل علم اليونان. ولم يكن لدينا مدافع، لكننا استعرنا بندقيتين، واتفقنا أن نقف فوق التل، وبمجرد أن نشاهد من بُعد فَقَمتَنا (=المدام) قادمةً تتدحرج وتتمخطر وتتعثر على الساحل، نبدأ في إطلاق الرصاص من البندقيتين. واتفقنا أن نعيد لها- على هذه الرمال المنعزلة، في هذا اليوم المميز- عظمتها الغابرة، لكي تتوهم هذه المسكينة للحظات معدودة، ولكي تصدق، أنها عادت شابة من جديد، شابة متوردة الوجنات متوثبة الصدر، بخفين من الجلد المخرم، وجوربين من الحرير. فأي معنى سيكون لقيامة المسيح إن لم نُزك داخلنا الإشارة إلى الشباب والفرحة والإيمان بالمعجزة، وإن لم تصبح امرأةٌ عجوز هرمة في العشرين من عمرها؟

كان زوربا- بين الفينة والأخرى- يتمتم غاضبًا، وهو يشد إلى أعلى جوربيه البنفسجيين اللذين ارتخيا: "لقد تأخرت الخنزيرة... لقد تأخرت الكلبة العاهرة... لقد تأخرت الفاسقة الفاجرة...". فقلت له: "تعال هنا، يا زوربا، واجلس فى ظل شجرة الخرنوب؛ ولتدخن سيجارة، فسوف تهل علينا قادمة بعد قليل". ألقى زوربا نظرةً أخيرة زاخرة بالشوق على الطريق المؤدى إلى القرية، واستلقى تحت شجرة الخرنوب. كانت الظهيرة تقترب، والقيظ يشتد. ومن بُعد، تناهت إلى أسماعنا أصوات النواقيس المتلاحقة ابتهاجاً بعيد القيامة؛ وما بين الفينة والأخرى، كان الهواء يحمل إلينا نغمات معزوفة على القيثارة، وكانت القرية بأسرها تطن وتئز كأنها خلية نحل فى فصل الربيع.

هز زوربا رأسه، ثم قال: "لقد ولت الأعوام التي كانت روحي إبانها تنتعش وتسمو وتبتهج كل عيد قيامة مع المسيح. أجل لقد انصرمت الأعوام! أما الآن، فلا ينتعش سوى جسدي فقط، إذ يدعوني هذا ويدعوني ذاك، ويقدم لي هذا مقبِّلات وذاك مشهيات، فآكل بوفرة ملحوظة أطعمة كثيرة لذيذة شهية للغاية، لا تتحول كلها إلى فضلات، فجزء منها يبقي وجزء منها يُقَدر له الإفلات ليصبح مزاجاً ورقصاً وغناءً وصياحاً وجلبةً، وهذا هو ما أسميه القيامة".

قفز مرةً أخرى واقفاً، وتطلع ببصره بعيداً، وقطب ملامح وجهه غاضبًا، ثم قال: «هناك غلامٌ قادمٌ يجري!». قال هذا ثم قام بقفزة سريعة كي يستقبل الغلام حامل الرسالة. وقف الغلام على أطراف أصابعه، وهمس بكلمات فى أذن زوربا، فقفز زوربا على إثرها حانقاً، وقال: «هل هي

مريضة؟ هل هي مريضة؟ ارحل، وإلا حطمت عظامك!» بعدها التفت نحوي، وقال: «يا رَيس، سوف أهرع إلى القرية لأرى ماذا أصاب الخنزيرة... فأرجو أن تتذرع بالصبر! اعطني فقط بيضتين حمروايين كي أساعدها بهما على أن تقيم أودها. أنا راحل». قال هذا، ثم وضع البيضتين الحمراوين فى جيبه، وشد جوربه المتهدل إلى أعلى، وسار فى طريقه مسرعاً.

نزلتُ من فوق التل المرتفع، وتمددت على الساحل القريب من السقيفة فوق الحصى المنعش. كان النسيم العليل يهب من ناحية البحر، وكان البحر زاخرًا بالأمواج، وأسند طائران من طيور النورس بطنيهما على الأمواج، وبدأ كلاهما يهتز بفخار، وهما يتبعان إيقاع البحر. كنتُ أحاول أن أجد سبباً لابتهاج الطائرين، ولرغبتهما في إنعاش بطنيهما، فأخذت أتطلع إلى طيور النورس، وأفكر فيما بيني وبين نفسي: "هذا هو السبيل المنشود: أن تجد الإيقاع الأعظم وأن تتبعه بثقة".

وبعد مرور حوالى ساعة، ظهر زوربا وهو يداعب شاربيه برضًا وحبور، ثم قال: "لقد أصيبت التعسة بنزلة برد، وحالتها ليست متفاقمة. والسبب فى ذلك أنها أمضت ليالي الأسبوع السابق على عيد القيامة ساهرة مؤرقة، وهى تقول إن هذا الأرق يرجع إلى كلمة الشرف التى قلتها لها. وهكذا أصيبت بنزلة البرد، فيا لها من مسكينة! فقمت بعمل كاسات هواء لها، ودلكتها بزيت القنديل بعناية، وجعلتها تشرب مقداراً من الروم، وغداً ستكون فى أتم صحة وعافية. إيه يا لها من عديمة الحياء! لكنها مضحكة ومسلية، فحينما كنت أدلكها وكانت تشعر بالدغدغة، كانت تقرقر وتهدل مثل الحمامة".

فرشنا المكان لنأكل، وملأ زوربا الأكواب، وقال برقة: «فى صحتها! وليتأخر الشيطان عن أخذها!» تناولنا الطعام وشربنا النبيذ، ونحن صامتان طول الوقت، كان الهواء يحمل إلينا من بعيد- وكأنه طنين نحلة- صوت عزف على القيثارة حافل بالشجن؛ فما تزال قيامة المسيح مستمرة داخل المنازل، حيث يحول الناس خروف العيد وكعك العيد إلى سيريناداة من عاطفة العشق. وبمجرد أن فرغ زوربا من طعامه وشرابه، رفع ساعده المكسو بالشعر، وغمغم: "إنها القيثارة... إنهم يرقصون فى القرية!" وقفز واقفًا، حيث كان قد شبع، وصعد النبيذ إلى رأسه. ولذا صاح: "إيه يا صاحبي، لماذا نجلس هنا مثل طيور الوقوق؟ هيا بنا نرقص! أولاً تحزن على الخروف الذى أكلناه؟ أهكذا نتركه يذهب سُدًى؟ هيا بنا نحوله إلى رقص وغناء! فلقد قام زوربا (من بين الأموات)(*).

قلت له: "حسبك هذا، يا زوربا، يا صاحبي! هل جننت؟" فقال: "كلمة شرف مني لك، يا رَيس، قل ما بدا لك، ولكنني حزين على الخروف، وحزين على البيض الأحمر، وحزين على كعك العيد وجبنة الكريم. وأقسم لك أننى لو كنت قد أكلت خبزاً وزيتوناً لكنت قلت لنفسي: "إيه! فلأتمدد لأنام فما شأني أنا بالمرح والفرفشة؟ لقد كان ما أكلته خبزاً وزيتوناً، فأي خير تنتظر من هذا حقًّا؟ أما الآن فوا اسفاه! حرام أن يذهب مثل هذا الطعام الفاخر سُدًى وبدون فائدة! فهيا بنا نحتفل بعيد القيامة،

(*) هذه طرفة تهكمية يتندر بها زوربا على ترنيمة: "قام المسيح من بين الأموات، وداس الموت بالموت، ليهب الحياة لمن فى القبور". وهى ترنيمة ترتل ليلة عيد القيامة فى الصلوات. [المترجم].

يا رَيس".

قلت له: "ليس عندى مزاج اليوم، اذهب أنت، وارقص نيابة عني!". قبض زوربا على ذراعي، وأنهضني واقفاً، وقال بحدة وحماس: "لقد قام المسيح، يا هذا، ألا تفهم! آه لو كان لي مثل شبابك! لما كففت عن ارتياد البحر والنساء والنبيذ والعمل الوفير! لو كنت مثلك لانكببت على العمل وعلى النبيذ وعلى العشق، دون أن أخشي الله أو أخاف الشيطان. فهذا هو ما يفعله البطل الصنديد!". فقلت له، وأنا أضحك: "إن الخروف هو الذي يتحدث داخلك، يا زوربا، فلتستأسد، أو فلتصبح ذئبًا".

فقال: "يا صاحبي، إن الخروف قد صار زوربا، وزوربا هو الذى يتكلم، فاسمع! اسمعني إذن ثم وجه إلى لعناتك. إنني سفاح ومغامر بحري، لا لأنني جُبت أرجاء العالم، إطلاقًا! ولكن لأنني سرقت وقتلت وكذبت وضاجعت نساءً يصعب حصرهن. لقد وطأت بقدمي كل الوصايا؛ كم هو عددها؟ عشر؟ ولماذا لاتكون عشرين، أو خمسين، أو مائة، كي أطأها جميعا بقدمي؟ وعلى أية حال، فلو كان الله موجوداً، فلن أخاف إطلاقاً من الوقوف أمامه فى اليوم الآخر. ولا أدري كيف أقولها كي تغدو مِفهومة لك، ولكنني أظن أن هذه الأمور كلها لا معنى لها. فهل يتنازل الله أو يتواضع ليحاسب مخلوقات مثل ديدان الأرض؟ وهل يغضب أو يتضايق أو يتكدر لأننا انتهكنا حقوق الجار، أو أكلنا قطعة من اللحم يوم الأربعاء أو يوم الخميس؟ أف لكم أيها القساوسة، يا مَن لكم سحنات الثيران!".

فقلت له، لكي أزيده صياحاً وغضباً: "حسناً، يا زوربا، إن الله لن يسألك عما أكلت، بل سيسألك عما فعلت!". فقال: "أما أنا، فأقول لك إنه

لن يسألك حتى عن هذا الذي فعلت! ولعلك ستقول لي: "وكيف عرفت، أيها الأمي زوربا؟" وأقول لك إنني أعرف هذا عمليًا، لأن عندي ابنين، الأول منهما عاقل متزن، ورب أسرة مقتصد، ويخشي الله؛ أما الثاني، فهو زير نساء، ظالم، نهِم أكول، يطارد النساء، مراوغ؛ غير أنني أُجلس الاثنين كليهما على مائدتي. ولا أدرى لماذا يميل قلبي إلى الثاني، ربما لأنه يشبهني في سلوكه وتصرفاته. ولكن مَن الذي بوسعه أن يقول لك إنني لست مساويًا فى المنزلة وأكثر- عند الله- من الأب اسطفانوس، الذى يسِرُّ الناس إليه ليلاً ونهاراً بتوبتهم من خطاياهم، ويجمع المال الوفير ولا يبلل ريق الملاك لو طُلب منه الماء؟ أوَ تظن أن الله يمرح ويقتل ويظلم ويحب ويعمل ويصيد الطيور التى لايمكن قنصها مثلي تماماً؟ أوَ تظن أنه يأكل ما يروق له، وينتقي من النساء ما يهوى؟ فأنت ترى امرأة جميلة فاتنة منعشة مثل الماء البارد تتهادى خطاها على الأرض، فيخفق قلبك ويبتهج، وفجأةً تفغر الأرض فاها وتبتلعها. فأين ذهبت؟ ومَن الذى أخذها؟ فلو أنها كانت عاقلة عفيفة لقُلنا أخذها الله، ولو كانت غندورة أنيقة لقُلنا أخذها الشيطان. ولكنني سبق أن قلت لك، يا رَيس، وما أزال أكرر قولي إن الله والشيطان شيء واحد!" لم أجد جوابًا أرد به عليه؛ أما زوربا فقد حمل عصاه الغليظة، وأحكم وضع قلنسوته التى تظهره بمظهر البطل المغوار، ورمقنى بإشفاق- أو هكذا خُيل لي- ولبرهة تحركت شفتاه، وكأنه أراد أن يقول لي شيئًا، غير أنه لاذ بالصمت ورحل على جناح السرعة إلى القرية، وهو يفتل شاربيه. كنت أرى في ضوء الشمس ساعة الأصيل ظله الطويل يبتعد على المحار والأصداف، وهو يهز عصاه الغليظة. كان

الساحل بأسره يعج بالنشاط والحيوية أثناء مروره عليه؛ ولبرهة من الزمن كانت أذناي تسترقان السمع لخطوات زوربا التى ظلت تتناهى إلى أسماعي، إلى أن اختفت تدريجيًا. وفجأةً ما إن أحسست أنني تُركت وحيداً، حتى نهضتُ واقفًا: لماذا؟ وإلى أين؟ لم أكن أدري؛ فلم أكن قد قررت شيئًا فيما بيني وبين نفسي، إذ كان جسمي قد انتفض واقفاً من تلقاء نفسه، واتخذ قراراً دون أن يسألني.

وهنا قلتُ بصوت قوي، كما لو كنتُ أصدر أمرًا لنفسي: "هيا إلى الأمام!". اتخذت طريقي صوب القرية، وكنت أسير بعزم وبسرعة؛ وما بين الفينة والأخرى كنتُ أتوقف، لأستنشق أنفاس الربيع. كانت الأرض تفوح برائحة البابونج، وكلما كنت أقترب من بساتين الفاكهة، كانت تهب عليَّ نفثاتٌ متقطعة من الرائحة العطرة المنبعثة من أشجار الليمون والبرتقال المزهرة، وكذلك من زهور شجرة الغار. وكانت نجمة المساء تتحرك ناحية الغرب لترقص جذلاً وطرباً.

"البحر والمرأة والنبيذ والعمل الوفير! غمغمتُ رغمًا عني بهذه الكلمات التى قالها لي زوربا قبل أن يرحل، البحر والمرأة والنبيذ والعمل الوفير! وأن تنكب إلى الأذقان في العمل وفي شُرب النبيذ وفي العشق، وألا تخشى الله أو تخاف الشيطان... فهذا هو ما يفعله البطل الصنديد!" أخذت أردد هذه العبارات بيني وبين نفسي، وكأنني كنت أريد أن أتزود بالشجاعة، ومضيت بعدها فى طريقي لا ألوي على شيء. وعلى حين غرة، توقفت فجأةً وكأنني وصلت إلى المكان الذى كنت أبغيه. نظرت حولي، وسألت: "أين؟"؛ ووجدت نفسي أمام بستان الأرملة. وخلف السور المقام من البوص

وأشجار الأجاص الشائكة، تناهى إلى سمعي صوتٌ نسائي عذب يغني أغنية هادئة. نظرت أمامي وخلفي، فلم أجد شيئًا، فاقتربت ووقفت بجوار أعواد البوص، فوجدت امرأة واقفة تحت شجرة برتقال، كانت تلبس ثوبًا أسود، عنقها مشرئب فارع، وكانت تقطع أغصاناً مزهرة وترفع عقيرتها بالغناء؛ وفي ضوء الغسق، شاهدت صدرها يبرق من فستانها نصف المفتوح.

توقفت أنفاسي اللاهثة، وقلت في نفسي: "آه! إن هذا لحيوانٌ بري... أجل، حيوان بري يعرف كُنه ذاته! فيا لَلرجال من مخلوقات ضعيفة زائلة حمقاء، لا قدرة لها على الاحتمال، سيما حين يقفون أمام النساء! فالنساء حقاً مثل الحشرات المفترسة: السرعوف(*)، الجرادة، العنكبوت، الحشرات التي تتغذى على فرائسها، عندما ينبلج ضوء الفجر ولا تشبع، إذ أنهن- بالطريقة ذاتها- يلتهمن الرجال ويفترسنهم...."

وكأن الأرملة أدركت فجأةً مغزى نظراتي، وأحست بما يختلج داخلي، فتوقفت في التو عن الاسترسال في أغنيتها الهادئة، والتفتت تجاهي. برقت عيوننا مثل وميض البرق حينما التقت عيناي بعينيها، وأحسست أن ركبتَيَّ تنثنيان ولا تقويان على حملي، وكأنني لمحتُ خلف أعواد البوص نمرة متوحشة.

قالت الأرملة بصوت مختنق: "مَن هناك؟" حاولتُ أن ألوذ بالفرار، ولكن كلمات زوربا أخذت بمجامع قلبي على حين غرة؛ تخاذلت ودب

(*) ونسميه عندنا "فرس النبي"؛ أما في اللغة اليونانية فيسمونه "فرس العذارء مريم". [المترجم]

الخوَر فى قلبي، فأخذت أردد في نفسي: "البحر، المرأة، النبيذا" ثم أجبتُ: "إنه أنا... أنا، فافتحي لي البابا". وبمجرد أن نطقتُ هذه الكلمات اعترتني الرجفة، وحاولتُ أن ألوذ بالفرار. غير أنني صمدتُ، فقد خجلتُ من زوربا. وعاد صوت الأرملة يقول: "ومَن أنت ؟" ثم تقدمت خطوة إلى الأمام، بهدوء وحذر، وبلا جلبة، واشرأبت بعنقها، وأغمضت عينيها نصف إغماضة لكي تتبين ملامحي، ثم تقدمت خطوةً أخرى، وانحنت وهي تهتز.

وفجأةً، تألق وجهها بالبِشر، وأخرجت طرف لسانها ولعقت به شفتيها، ثم قالت، بصوت كانت تنثال منه العذوبة والرقة: "رَيسنا؟" ثم تقدمت خطوةً أخرى، وهي متوترة ومنكمشة على نفسها، ومتأهبة لكي تهرع نحوي. ثم عاودت سؤالها بصوت مختنق: "رَيسنا؟"؛ فقلتُ: "نعم"؛ فقالت: "تفضل بالدخولا".

عادت الشمس للإشراق بعد الفجر، وكان زوربا قد عاد واتخذ جلسته خارج السقيفة؛ كان يدخن ويرنو إلى البحر فى انتظار وصولي؛ وبمجرد أن قدِمتُ رفع رأسه وتطلع إليَّ. كان منخاراه يتحركان وكأنهما منخارا كلب من كلاب "الدموم" البوليسية؛ فمد عنقه وأطلق تنهيدة عميقة، وأخذ يتشمم رائحتي بأنفه. وفجأةً، أشرق وجهه وتهلل، حينما شم عطر الأرملة وهو يفوح مني. فنهض في صمت، وابتسم ابتسامة خبيثة عريضة، ومد لي كلتا يديه قائلًا: "ألا فلتحظَ بأمنياتي الطيبةا"

تمددتُ فى فراشي وأغمضتُ عينيَّ، وأخذت أصغي لصوت موجات البحر، وهي تطلق أنفاسها في هدوء، بطريقة تجعل النوم يتسلل إلى

الأجفان، وأنا أصعد وأهبط فوقها مثل طائر النورس. هكذا- مع هذه الهدهدة الحلوة- استغرقت فى النوم، حيث تراءى لي حُلمٌ رأيت فيه امرأة أفريقية فرعاء كأنها عملاقٌ جالسة القرفصاء على الأرض، وبدت لي أنها معبد قديم على الطراز الكيكلوبي(*)، مبني من الجرانيت الأسود. وكنتُ- في الحلم- أطوف باشتياق من حولها، علَّنى أعثر على المدخل. كانت قامتي تصل بالكاد إلى حجم إصبع قدمها؛ وفجأةً، حينما كنتُ أدور حول كعبها، شاهدتُ باباً أسود اللون كأنه كهف؛ وانبعث منه صوتٌ عميق يقول: "أدخل!"، فدخلت.

استيقظتُ عند حلول الظهيرة، وكانت أشعة الشمس تنزلق من النافذة الصغيرة وتسقط على الملاءة، ثم تنعكس- بقوة بالغة- على السقف بفعل وقوعها على مرآة صغيرة معلقة على الجدار، حتى أنك لتظن أنها تفتتت إلى ألف قطعة. عشش حلم المرأة الأفريقية العملاقة في ذهني، وكان البحر يهدر ويدمدم بطريقة مغوية، فأغمضتُ عينيَّ من جديد، وخُيل إليَّ أنني كنتُ سعيداً. كان جسمي خفيفاً متحرراً، وكنت راضياً قرير العين، وكأنني حيوان خرج لقنص الفرائس واقتنص طريدته والتهمها، وهو الآن ممدد في ضوء الشمس يلعق شفتيه تلذذاً. كان عقلي وجسمي، وهذا الحيوان،

(*) الكيكلوبس kyklops: مارد أسطوري من سلالة الإله بوسيدون، إله البحر، كانت له عينٌ واحدة مستديرة فى منتصف جبهته؛ ومن هنا جاء اسمه فى اللغة اليونانية. ورد ذكره عند الشاعر هوميروس فى ملحمة "الأوديسيه"، حيث صُور كأنه وحش ضار يلتهم لحوم البشر. وكان اليونان القدامى يصفون المعابد المبنية بحجارة ضخمة على غير العادة بالصفة "كيكلوبية" لفرط ضخامتها. [المترجم].

يستريحون جميعاً بعد التخمة والامتلاء، حتى أنك لتظن أن التساؤلات التى كان ينفطر القلب لها، والتى كانت تستبد به وتعذبه، قد عثرت أخيراً على إجابة غاية فى البساطة.

كان كل السرور الذى غمرني ليـة الأمس ينعش أعماق، كان يتفرع وينتشر فيروي ويُشبع ذلك التراب الذى صُنع منه جسدي. وهكذا، وأنا متمدد بعينين مغمضتين، كنتُ أستمع، إذ كان يخيل إليَّ أن شغاف قلبي كانت تصدر حفيفاً، وأنها كانت تغدو أوسع وأرحب. وتأكدتُ- للمرة الأولى، ليلة أمس، وبطريقة ملموسة- أن الروح بدورها ما هي إلا جسد، وقد تكون أسرع حركة وأكثر شفافية وأوفر حرية، لكنها- في الواقع- جسد. أما الجسد، فهو بدوره روحٌ محبة للناس بدرجة أقل، ومرهقة بفعل المسارات العظمى، ومثقلة بميراث وبيل. ولكن وسط اللحظات العظمى، يصحو الجسد بدوره، ويتسلح بالشجاعة، ويفرد جدائله (حواسه) الخمس كأنها أجنحة.

شاهدت خيال شخص يقع فوقي، ففتحتُ عينيَّ لأجد زوربا واقفاً عند الباب، وهو يرمقنى مغتبطاً مسروراً؛ وقال: "لا تستيقظ، يا رَئِّس! لا تستيقظ... فاليوم يوم العيد، عُد إلى نومك!". قال لي هذه العبارة بصوت هادئ مصحوب بابتسامة حانية. فقلتُ له، وأنا أنهض واقفاً: "لقد شبعت من النوم.."؛ فقال وهو يبتسم: "إذن، فسوف أُعد لك بيضه مخفوقة، فإنها تمنح القوة".

لم أُعقِّب على ما قاله، بل هرعتُ إلى الساحل وغمرتُ نفسي في مياه البحر، وجففتُ جسمي في الشمس. غير أنني كنتُ لا أزال أشم العطر

الشذي النفاذ، وهو يتسلل إلى أنفي، إذ كان لا يزال باقياً على شفتيَّ، وعلى أنامل أصابعي، مثل ماء الورد، أو مثل زيت أوراق الغار الذى تدهن به النساء في جزيرة كريت خصلات شعرهن. كانت الأرملة قد قطفتْ بالأمس ملء حضنها أزهار ليمون، كي تذهب بها الليلة إلى كنيسة المسيح، أثناء الوقت الذى يكون الفلاحون خلاله منهمكين في الرقص في ميدان القرية، تحت أشجار الحور، وتكون ساحة الكنيسة خالية تماماً من الزوار. وكانت الأيقونة الموضوعة على الحائط فوق سريرها محملة بزهور الليمون، وبين أكاليل هذه الزهور كانت تطل صورة العذراء مريم ذات العينين النجلاوين، بقلبها الرحيم وحزنها الأليم.

انحنى زوربا، ووضع بالقرب مني فنجاناً به بيضه مخفوقة، ووضع معها برتقالتين كبيرتين وكعكة عيد الفصح، المصنوعة من الخبز المحلي والزبد والبيض. كان يحتفي بي، ويقوم على خدمتي بسعادة غامرة وبلا صخب ولا ضوضاء، وكأنه أُم تعتني بفلذة كبدها الذى رجع سالماً من الحرب. تطلع إليَّ ملياً بنظرة حافلة بالتدليل، ثم انصرف قائلًا: "إنني ذاهب لكي أُثبتَ قليلاً من الأعمدة فى الحفر".

أخذت في مضغ طعامي بهدوء تحت أشعة الشمس، يغمرني ابتهاج جسدي عميق، كما لو أنني كنتُ أسبح في بحر أخضر يجلب الانتعاش. لم أدع عقلي يسلُب من جسمي - بأسره - مثل هذه البهجة الجسدية، أو أن يطبعها بطابعه، ويحولها إلى أفكار. فتركتُ جسمى بأسره يستشعر البهجة من قمة رأسى حتى قلامة ظفري، كأنني حيوان. وكنتُ أتطلع فقط - ما بين الحين والآخر - إلى معجزة الدنيا التي أراها حولي، وإلى المعجزة الكامنة

بداخلي بنشوة غامرة، وأقول لنفسي: "ما هذا؟ كيف تصادف أن أصبحت الدنيا متناسقة بهذا الجمال، في أقدامنا وفي أيدينا وفي بطوننا؟". ومن جديد عاودت إغماض عينيَّ ولذتُ بالصمت.

وفجأةً، انتفضتُ ووقفتُ على قدميَّ، ودلفتُ إلى السقيفة، وتناولتُ مخطوطة بوذا وفتحتها. عثرت- قرب النهاية- على هذه الفقرة: "وكان بوذا مستلقياً تحت شجرة مزهرة، فرفع يده ووجه تعليماته للعناصر الخمس التي كانت قد شكلت جوهره بتناسق وانسجام: التراب، الماء، النار، الهواء والنفس؛ آمرًا إياها بأن تتحلل". لم أعد أحس بحاجتي إلى هذا الملمح من عذابي، إذ كنتُ قد تجاوزته، كما كنتُ قد أنهيتُ مدة خدمتي عند بوذا، لذا نهضتُ بدوري، وأصدرت أمراً إلى بوذا الذى كان بداخلي أن يتحلل.

وعلى جناح السرعة، عن طريق استخدام القوى السحرية التي تدرأ الأرواح الشريرة، وعن طريق الكلمات، جعلت جسمه يتبدد، ثم جعلت روحه تتلاشى، وبعدها عقله، دون شفقة أو رحمة؛ فقد كنتُ فى عجلة من أمري. خططتُ كلماتي الأخيرة، وصحتُ صيحتي الأخيرة، ونقشت بقلم أحمر سميك اسمي، وأنهيتُ المهمة. ثم تناولتُ رباطاً سميكاً وربطتُ المخطوطة ربطاً محكماً؛ وأحسست بسرور لا حد له، كأنني أوثقت عدوًا لدودًا من ساقيه ويديه، أو كمثل الأقوام المتوحشين الذين يكبلون جثث من يحبونهم، كى يعجزوا عن الخروج من قبورهم، ويتمرغوا فى الأوحال.

وهنا وصلت بنتٌ صغيرة حافية القدمين، وهي تعدو تجاهي؛ كانت تلبس فستاناً أصفر اللون، وتحمل فى قبضة يدها بإحكام بيضة حمراء؛ ثم توقفت أمامي وتطلعت إليَّ وهي ترتجف. فسألتها وأنا ابتسم لها كي تتشجع:

"وإذن؟ هل تريدين شيئاً؟" فتنفست الصعداء، وتحدثت بصوت ضعيف متحشرج: "المدام هي التي أرسلتني، وتريد منك أن تحضر. إن المسكينة مسجاة على السرير؛ هل أنت الذي اسمه زوربا؟. فقلت لها: "حسناً! أنا قادم!"، ووضعت فى يدها الأخرى بيضة حمراء، فأخذتها مني خطفاً ورحلت.

نهضتُ واقفاً وسرتُ في طريقي، وكانت الضجة الصادرة من القرية تتناهى إلى أسماعي كلما اقتربت منها: عزفٌ عذبٌ على أوتار القيثارة، أصوات المحتفلين بالعيد، أصوات طلقات البنادق المعبرة عن الابتهاج، وأغاني الحب من نوع السيرينادا؛ وعندما وصلتُ إلى الميدان، وجدت الشبان والفتيات محتشدين تحت أشجار الحور التى نمت أزاهيرها حديثاً، وكانوا يتأهبون للرقص. وحول المقاعد الحجرية، كان الشيوخ يجلسون زمراً، وهم يسندون ذقونهم على عصيهم ويتطلعون بأنظارهم إلى الأحداث الدائرة حولهم؛ وخلفهم بمسافة، كانت النساء المسنات واقفات. وفي المنتصف، كان يجلس على مقعد وثير فانوريوس، المطرب الشعبي الشهير الذى يعزف على القيثارة. كان يضع وردةً من ورود الربيع خلف أذنه، ويمسك بيده اليسرى القيثارة منتصبة على ركبته؛ وكان آنذاك يجرب بيده اليمنى - بحركة سريعة - وتراً من أوتار القيثارة يصدر صوتاً مدوياً، مثل رنين الجرس أو صياح الصقر.

صحتُ بصوت عالٍ، مردداً تحية العيد: "قام المسيح (من بين الأموات)!"وسمعت إجابة التحية التى انطلقت بصوتٍ مرحٍ من الرجال والنساء على حد سواء: "حقاً قام!". صوبتُ نظرة عجلى إلى الجمع المحتشد،

فشاهدتُ فتياناً محتشدين يلبس كل منهم بنطلوناً قصيراً واسعاً مرفوعاً عند الركبة وعند الخصر، وكانت أهداب مناديل رؤوسهم منسدلة على جباههم وعلى أصداغهم كأنها ذؤابات. أما الفتيات، بحليهن الذهبية على صدورهن وبمناديلهن المطرزة، فكن ينظرن نظرات مستترة إلى الفتيان، ويتطلعن إليهن خلسةً، وتباريح الشوق تستبدبهن.

سمعتُ أصواتاً تقول لي: "ألن تتعطف وتزورنا، يا رَيِّس؟"، غير أنني كنتُ قد تجاوزت الميدان. وجدت مدام أورتانس مسجاة فى سريرها العريض- وهو قطعة الأثاث الوحيدة التى ظلت وفية لها- وكانت وجنتاها مشتعلتين جراء الحمَّى، كما كانت تسعل بشدة. وبمجرد أن شاهدتني تنهدت، وقالت بصوت عاتب: "ولكن أين زوربا، أيها العرَّاب، أين زوربا؟". فقلتُ لها: "إنه مريض منذ اليوم الذى أصابك فيه المرض، فقد أصيب بالمرض بدوره؛ وهو لا يفتأ يمسك صورتك ويرنو إليها ويتنهد فى حسرة"..

غمغمت السيرينية التعسة، وأغلقت عينيها وهي تكاد تطير من فرط السعادة، وقالت: "تحدث !.. تحدث !.." فاستطردتُ: "ولقد أرسلني الآن لأسألك ما إذا كنتِ في حاجة إلى شيء... وهو يقول إنه سيحضر إليك هذه الليلة بنفسه، حتى لو اضطر للزحف على ركبتيه... فلم يعد قادراً على الاحتمال، كما يقول، وهو عاجز عن تحمل فراقك". فقالت المرأة العجوز: "قُل... قُل... قُل من فضلك". فقلتُ: "ويقول إنه تسلم برقية من مدينة أثينا مفادها أن لوازم العرس باتت جاهزة، فالأكاليل، والخف المزين، وملبِّس اللوز قد شُحنت على السفينة وهي في الطريق... وكذلك الشموع البيضاء

والأشرطة الوردية ..."

فقالت المدام: "تحدث... تحدث... تحدث أكثر". وكأن سِنة من النوم قد انسدلت على جفنيها، إذ تغيرت طريقة تنفسها، وبدأت تهذي وتخرف. كانت الغرفة معبقة برائحة الكولونيا والنشادر والعرق، ومن نافذة الحجرة المفتوحة كانت تنفذ رائحة نفاذة من روث الأرانب في الفناء. نهضتُ وتهيأت للانصراف، فالتقيت عند الباب الخارجي بميميثوس؛ كان يرتدي اليوم حذاءً جديداً برباط مشدود وبنطلوناً جديداً أزرق قصيراً واسعاً مرفوعاً عند الركبة، وكان يضع خلف أذنه غصناً من الريحان. فقلتُ له: "ميميثوس، أسرع إلى قرية "كالوخوريو" كي تأتي لنا بالطبيب!". كان ميميثوس قد خلع بالفعل حذاءه الجديد حتى لا يتلوث أثناء الطريق، ووضعه بإحكام تحت إبطه. وعاودت القول: "عليك أن تعثر على الطبيب، وأن تنقل إليه تحياتي الكثيرة، وتخبره أن يركب فرسه كي يحضر إلينا دون إبطاء. وقل له إن المدام مريضة جداً، وإن المسكينة أصيبت بنزلة برد حادة. قل له هذا وأسرع.."

فقال: "أنا ذاهب! ذاهب بالفعل!"، ثم بصق فى كفيه وضرب كفاً بكف وهو منشرح الفؤاد؛ غير أنه لم يحرك ساكناً، بل ظل يرمقني ويضحك. فقلتُ: "اذهب، قلتُ لك!". غير أنه لم يرحل، بل أغمض إحدى عينيه وظل يبتسم بخبث، ثم قال: "يا رَيِّس، لقد ذهبتُ إلى منزلك وحملتُ لك زجاجة ماء ورد... وهي هدية لك". قال هذا، ثم وقف فى انتظار أن أسأله عمَّن أرسل الهدية، غير أنني لزمتُ الصمت . فقال ميميثوس وهو يضحك: "إنك لم تسألني عمَّن أرسل لك الهدية، يا رَيِّس؟ إنها من أجل أن

تدهن بها شعرك كي تنبعث منه رائحة عطرة!". فقلتُ له: "ارحل بسرعة! والزم الصمت!".

ضحك ميميثوس، وبصق مرةً ثانية فى كفيه، وصاح: "هُب!.. هُب!... قام المسيح". وبعدها انطلق مسرعاً، واختفى عن الأنظار.

(22)

كان الرقص الرائع احتفالاً بعيد الفصح محتدماً على أشده تحت أشجار الحور، وكان مَن اتخذ موقع الصدارة في الرقص شاب خمري اللون متوقد النشاط، في حوالي العشرين من عمره، لم يلمس موسى الحلاقة بعد وجنتيه البضتين المكسوتين بالزغب؛ وكان صدره المكشوف يعج بأسره بشعر كثيف متجعد. كان قد أحنى رأسه للخلف، وكانت قدماه تركلان الأرض مثل الجناحين، وبين الفينة والأخرى كان يصوب نظراته إلى فتاة من الفتيات المتحلقات حوله، وكان بياض عينيه الذي يوحي بالصرامة يبرق وسط سمرة وجهه.

أحسست بالحبور والنشوة، إذ كنت راجعاً لتوي من عند مدام أورتانس، وكنت قد عُدْتُ امرأة لديها أوجاعها وهمومها، وها أنذا الآن قد ذهبت لرؤية الكريتيين وهم يرقصون. اقتربت من العم أناغنوستيس، وجلست بجواره على المقعد الحجري. وهمست له في أذنه: "مَن يكون هذا الفتى اليافع الذي يقود الرقصات؟". فضحك العم أناغنوسيتس، وقال في

زهو وإعجاب: "آه! إن هذا الوغد أشبه ما يكون بكبير الملائكة (عزرائيل)، الذي يقبض الأرواح. إنه حقاً سيفاكاس الراعي؛ وهو يرعى قطعانه طول العام في الجبل، ولا يهبط إلا في عيد الفصح فقط ليرى الناس وليرقص". قال هذا ثم تنهد وهمس قائلًا: "إيه يا بني، آه لو أنني كنت في مثل شبابه.. لو أنني كنت في مثل ريعان شبابه، لدُست بقدمي، وحق إيماني، هذه المدينة!".

هز الفتى رأسه، وأطلق صيحة حادة مميزة، مثل صيحة الكبش الغاضب، وقال بصوت مرتفع: "إعزف وغنِّ، يا فانوريوس؛ إعزف وغنِّ عن موت خاروس". وكان خاروس (ملك الموت) يموت كل لحظة، ويعود إلى الحياة كل لحظة، مثله مثل الحياة التي نحياها. كان الشباب- منذ آلاف السنين- يرقصون تحت الأشجار التي نبتت أزهارها حديثاً: أشجار الحور، والتنوب، والبلوط، والدُلب، وأشجار نخيل البلح الرفيعة؛ وهم كذلك سوف يرقصون لآلاف السنين القادمة، بوجوههم الضامرة من فرط الرغبة والجوى. كانت وجوههم هذه تُطوَى تحت الثرى وتتغير كل عشرين عاماً، وتفِد وجوه أخرى غيرها. لكن الجوهر الواحد يظل دائماً هو ذاته، فتى في العشرين من عمره يرقص إلى الأبد.

رفع الفتى اليافع يده ليبرم شاربيه، غير أنه لم يكن لديه شوارب، وأخذ يشدو مترنماً من جديد: "إعزف وغنِّ، يا صاحبي فانوريوس، كي لا يذوي عودي وأذبل". ضرب عازف القيثارة الأوتار بأنامله، ودوت نغمات القيثارة في الآذان، واشتد أوار الصيحات الرنانة مثل صيحات الصقر، وقفز الفتى الراقص قفزة رشيقة ضرب فيها قدمه ثلاث مرات وهو في

الهواء، وقامته مرتفعة، واختطف برباط حذائه المنديل الأبيض من فوق رأس زميله الراقص بجواره، مانولاكاس، حارس الحقول. وتناهت إلى الأسماع أصوات نفر من الحاضرين تقول: "فلتنعم بالصحة يا سيفاكاس!"، وهنا انتابت القشعريرة الفتيات، فأسدلن أبصارهن صوب الأرض.

غير أن الفتى اليافع ظل صامتاً لا ينظر إلى أي شخص، إذ كان صارماً ومطيعاً في آن؛ أسند يده اليسرى المنحنية على كفيه الضامرين مثل الفولاذ، وأخذ يرقص وعيناه الصارمتان الرزينتان مسمرتان على تراب الأرض. وفجأةً توقف الرقص على حين غرة، عندما أهل بطلعته حامل الصولجان المسن أندروليوس، وهو يرفع يديه كلتيهما ويرفع عقيرته بالصياح: "الأرملة! الأرملة! الأرملة!". كان مانولاكاس، حارس الحقول، هو أول شخص ينتفض ويتوقف عن الرقص. ومن الميدان، كانت الكنيسة تتراءى لنا وهي لا تزال مزينة بأغصان الريحان والغار؛ فتوقف الراقصون عن الحركة بعد أن أحسوا بالإثارة، أما الشيوخ فقد وقفوا بعد أن نهضوا من مقاعدهم الحجرية، وأما فانوريوس فقد وضع القيثارة ممددة على ركبتيه، وتناول وردة الربيع من خلف أذنه، وشرع يشمها.

صاح الناس أجمعين، وقد استبد بهم الحماس: "أين هي، يا أندروليوس؟ أين هي؟". فقال: "في الكنيسة! إذ دخلت هناك تواً، عليها لعنة الله! وكانت تحمل باقة من أزهار الليمون". فصاح حارس الحقول: "انقضوا عليها، يا فتيان!"، وكان هو نفسه أول شخص يندفع من بينهم. في تلك اللحظة، هلت الأرملة على عتبة باب الكنيسة، وهي ترتدي منديلاً أسود على رأسها، ورسمت علامة الصليب. ارتفعت في ساحة الرقص

أصوات صارخة: "الفاجرة! العاهرة! القاتلة! هل بلغت بها الوقاحة أن لا تستحي من الظهور أمامنا؟ انقضوا عليها، يا فتيان، وخلصوا قريتكم من العار!".

توافد البعض مع حارس الحقول على الكنيسة، أما البعض الآخر فقد أخذوا يرجمونها بالحجارة عن بُعد، فأصابت قطعة حجر كتفها، فصرخت الأرملة من فرط الألم، وغطت وجهها بيديها، ومضت مطرقة تبغي الانصراف. غير أن الفتيان كانوا قد وصلوا بالفعل إلى الباب الخارجي للكنيسة، وكان مانولاكاس قد استل خنجره من غمده. تراجعت الأرملة وهي تصرخ، والتفت حول نفسها، وأسرعت وهي تتعثر في سيرها كي تدخل الكنيسة. ولكن العم المسن مافراندونيس كان واقفاً عند عتبة باب الكنيسة وهو صامت؛ كان قد فتح ذراعيه وأمسك بهما قوائم الباب، ليسده أمامها.

قفزت الأرملة ناحية اليسار، ثم تقدمت واحتضنت شجرة السرو الكبيرة في الفناء، غير أن حجراً- أصدر أزيزاً وهو يشق الهواء- أصاب رأسها، فسقط المنديل الأسود الذي كانت تغطي به رأسها، وانسدل شعرها على كتفيها. كانت الأرملة أثناء ذلك تئن، وهي تحتضن جذع شجرة السرو بقوة، وكانت الفتيات منتظمات في سلسلة عند طرف الميدان، وهن يعضضن بنواجذهن على مناديلهن البيضاء، أما السيدات العجائز فكن متدليات من الأسوار، وهن يصرخن: "اقتلها، يا فتى، اقتلها!".

وهنا قفز شابان وانقضا عليها، فتمزقت بلوزتها السوداء، وظهر ثدياها اللذان يبرقان مثل المرمر الأبيض الناصع. بدأت الدماء تسيل من منتصف

رأسها على جبهتها ووجنتيها ورقبتها، وظلت الأرملة تئن وهي تردد بدون انقطاع: "بحق اسم المسيح! بحق اسم المسيح!". كان الدم الذي يسيل، والصدر المتلألئ الذي يبرق، قد جعل الفتيان يهتاجون ويستثارون، فاستلوا الخناجر من أحزمتهم. فصاح مانولاكاس فيهم: "توقفوا واتركوها لي!. وهنا رفع الشيخ مافراندونيس يده وهو لا يزال واقفاً على عتبة باب الكنيسة، فتوقفوا جميعاً ولم يتقدم منهم أحد. ثم قال الشيخ بصوت أجش: "يا مانولاكاس، إن دم ابن عمك يستصرخك؛ فأرِحه واجعله يقر عيناً!".

انتفضتُ من مكاني عند السور، حيث كنت أقف متسمراً، وتقدمت كي أصل إلى الكنيسة، غير أن قدمي تعثرت في قطعة حجر، فسقطتُ على الأرض. وفي تلك اللحظة كان الفتى سيفاكاس يمر، فانحنى وأمسك بي من عنقي، كما نمسك بالقطط، وأوقفني منتصباً على الأرض. ثم قال لي: "لماذا تجوس هنا بربك، أيها الغندور المزهو المغرور؟ ارحل!". فقلت له: "أوَ لاَ تشفق عليها، يا سيفاكاس، ارحمها!". فضحك الفتى الضخم كالهضبة وقال: "وهل أنا امرأة حتى أشفق؟ إنني رجل!". وبقفزة واحدة، كان هذا الصنديد داخل فناء الكنيسة الذي يحيط به السور؛ ووصلتُ أنا إلى هناك، وأنا أجري خلفه. كان الجميع الآن متحلقين حول الأرملة، وكان السكون الغامر مهيمناً، لا يُسمع فيه سوى لهاث الأرملة المختنق.

رسم مانولاكاس علامة الصليب، وتقدم خطوة إلى الأمام ورفع الخنجر عالياً، وكانت السيدات العجائز- عند السور- يصرخن في جذل وسرور، أما الفتيات فقد أسدلن مناديلهن وغطين بها أعينهن. دب الخَوَر

في قلب الأرملة حين شاهدت السكين المرتفعة تبرق، فصرخت مثل البقرة، ولفت ذراعيها حول جذع شجرة السرو، وغاصت رأسها بين كتفيها، وغطى شعرها الأرض من تحتها، وتألق صدرها ببياض ناصع يخطف الأبصار. وهنا صاح الشيخ مافرافدونيس، وهو يرسم علامة الصليب على صدره: "بسم الله!". ولكن- في تلك اللحظة- سمعنا صيحة عالية غاضبة من خلفنا تقول: "اخفض سكينك، أيها القاتل!" فالتفت الجميع مذعورين، ورفع مانولاكيس رأسه، فشاهد زوربا واقفاً قبالته. كان زوربا يلوح بذراعيه في جنون، ويصيح عالياً: "أفلا تخجلون من أنفسكم؟ هل أنتم رجال صناديد بحق؟ قرية بأكملها تريد أن تقتل امرأة! حقاً إنكم سوف تجلبون الخزي والعار على جزيرة كريت!".

زمجر مافرانونيس قائلًا: "اذهب لحالك، يا زوربا، ولا تتدخل فيما لا يعنيك!". ثم التفت إلى ابن أخيه، قائلًا: "يا مانولاكاس، اضرب ضربتك، باسم المسيح ومولاتنا مريم!". وبقفزة واحدة، انقض مانولاكاس على الأرملة، وطرحها أرضاً وداس بركبته على بطنها، ثم رفع سكينه عالياً ليهوى بها عليها. غير أنه لم يتمكن من طعنها، إذ كان زوربا قد انقض بالفعل على ذراع مانولاكاس، ولف منديله الكبير حول قبضته، وناضل بعنف كي ينتزع السكين من قبضة حارس الحقول. أجفلت الأرملة، وهي جاثية على ركبتيها، وبنظرة متعجلة تطلعت حولها بغية الهرب، غير أن أهل القرية كانوا قد سدوا الباب، وكانوا واقفين على شكل حلقة في الفناء وعلى المقاعد الحجرية؛ وما إن شاهدوها تريد الهروب حتى تحركوا للأمام لجعل الحلقة تضيق أكثر.

في تلك الأثناء، كان زوربا يصارع بنشاط دون صوت، ويلف جسمه من جانب إلى آخر دون أن ينبس ببنت شفة؛ أما أنا فكنت واقفاً عند الباب أتابع الصراع بقلق وعذاب. كان وجه مانولاكاس قد غدا أزرق داكناً من فرط الغضب؛ واقترب سيفاكاس ومعه رجل ضخم الجثة كي يمدا إليه يد المساعدة. لكن مانولاكاس التفت نحوهما وعيناه تبرقان في حنق وصاح: "ارجعا إلى الخلف! ارجعا إلى الخلف! إياكما أن يقترب أحد مني!". قال هذا ثم طرح نفسه- مرةً أخرى- بجنون على زوربا، ونطحه برأسه مثل الثور. عض زوربا على شفتيه وظل على صمته؛ كان يمسك ساعد حارس الحقول الأيمن، كمثل مسكة الكماشة، ويديره ذات اليمين وذات الشمال كي يتفادى ضربات رأسه، وانحنى مانولاكاس كمن أصابه السعار، وأمسك بأذن زوربا بين أسنانه، وشدها كي يقضمها، فانبجست الدماء من أذن زوربا بغزارة.

هنا هتفتُ ملتاعاً مروعاً وهُرعت كي أنقذه، وصحت: "زوربا!". فصاح بدوره قائلًا لي: "اذهب، يا رَئِّس، ولا تتدخل!". ضم قبضته وصوب لكمة قوية أسفل بطن مانولاكاس فأصابت خصيتيه؛ وفجأةً شُلَّت حركة هذا الحيوان المتوحش. تفككت أوصاله وارتخت أسنانه، وتخلى مكرهاً عن أذن زوربا شبه المنفصلة، وغدا وجهه الأزرق شاحباً. وبدفعة قوية كومه زوربا على الأرض، وانتزع السكين من قبضته؛ ثم صوب لكمة إلى ضلوع صدره أفقدته توازنه وجندلته. مسح زوربا بمنديله الدماء التي سالت من أذنه، وبعدها مسح بهذا المنديل وجهه الذي كان مبللاً بالعرق، وسرعان ما امتلأ وجهه كله بالدماء. بعدها نهض واقفاً وجال بنظره حوله؛ كانت عيناه

متورمتين تزخران باللون الأحمر الذي يكسو بياضهما. وصاح منادياً الأرملة: "انهضي، هيا معي!"، واتجه سائراً نحو باب الفناء لينصرف.

استجمعت الأرملة قواها لتنهض واقفةً برغبة محمومة، واستجمعت كل قواها، وجاهدت باستماتة كي تهرع خلف زوربا، ولكنها لم تتمكن من ذلك. إذ كان الشيخ مافراندونيس قد انقض عليها في لمح البصر، وقلبها رأساً على عقب، ولف شعرها حول ذراعه ثلاث لفات، وبضربة سكين واحدة فصل رأسها عن جسدها. وصاح، وهو يرمي رأس الأرملة على عتبة باب الكنيسة: "ها أنذا أضع الوِزر على كاهلي وحدي، وأتحمل الخطيئة!". قال هذا ثم رسم علامة الصليب على صدره.

التفت زوربا خلفه وشاهد ما حدث، فعض على نواجذه واقتلع حفنة من شعر شاربيه من جذورها، وزفر زفرة حارة حزينة. اقتربتُ منه وأمسكت بذراعه، فأحنى رأسه ورمقني وهو يتألم، وانزلقت دمعتان كبيرتان على جفنيه، قال بصوت مختنق: "هيا بنا، يا رَيِّس!".

لم يُرِد زوربا تلك الليلة أن يضع لقمة من الطعام في فمه، وكان لا يفتأ يقول: "إن بلعومي مسدود، ولا أستطيع أن أزدرد الطعام". كان يغسل أذنه بماء بارد، ويغمس قطعة من القطن في العَرَقي ويستخدمها كضمادة لوقف النزيف، وكان جالساً فوق الحشية وهو يمسك برأسه بين راحتيه، وظل مطرقاً ومستغرقاً في التفكير. أما أنا، فكنت مستنداً على الجدار وأنا أتمدد على الأرض، وكنت أحس أن الدموع الحارة تسيل ببطء على وجنتي. كان عقلي لا يعمل إطلاقاً، كما لم أكن أفكر في أي شيء، بل طفقت أبكي ما شاء لي البكاء وكأن تذمراً طفولياً عميقاً قد اعتراني. وبعد برهة من الزمن،

رفع زوربا رأسه وانفجر ساخطاً، وبدأ يصرخ ويصيح مواصلاً بقوة ذلك المونولوج الشرس الذي يدور داخله: "سبق أن قلت لك، يا رَيِّس، إن كل هذه الأمور التي تحدث في هذه الدنيا زاخرة بالظلم والعسف والجور! أجل إنها دنيا ظالمة! وأنا لا أقر ذلك، أنا الدودة الحقيرة!.. أنا اليرقة العارية زوربا! لماذا يموت الشبان والشابات ويظل على قيد الحياة المسنون العاجزون الذين أكل عليهم الدهر وشرب؟ لماذا يموت الأطفال الصغار؟ لقد كان لي ابن صغير عزيز اسمه ذيميتراكيس، مات وعمره ثلاث سنوات، فهل سمعت أبداً عنه؟ فهل سأنسى فجيعتي فيه، وأسامح القدير على موته؟ آه! إنه أمر مفزع مخجل يجعلنا ننسى كل إحساس خيِّر، وأنا الدودة الحقيرة واليرقة العارية زوربا أخجل منه وأشعر بالخزي".

عبس وجهه، وتقطبت ملامحه، واكفهر حنقاً وغضباً، كان يتألم ويتعذب؛ بدأت الدماء تسيل- مرةً أخرى- من جرحه، فعض على نواجذه قهراً، حتى لا يصرخ. قلت له: "انتظر، يا زوربا، حتى أبدل لك الضمادة التي تمنع النزيف". أخذت أغسل أذنه بالعرقي، وأخذت زجاجة ماء الورد التي أرسلتها الأرملة، بعد أن عثرت عليها موضوعة على سريري، وغمست القطن فيها. قال زوربا وهو يتنهد بلا توقف: "ماء ورد؟ ماء ورد؟ انثر بعضاً منه على شعري، أجل هكذا.. وصُب الباقي كله في يدي، هيا افعل!".

كان قد شعر بالانتعاش، فرمقته بدهشة، فقال: "يخيل إلي أنني قد دلفت إلى بستان الأرملة". سيطرت عليه الشكاية مرةً أخرى، ثم غمغم قائلًا: "آه يا لها من أعوام كثيرة تطلَّبها التراب! أجل يا لها من سنوات

كثيرة احتاجها التراب كي يصوغ مثل هذا الجسد الرائع الفاتن! حتى أنك لتتطلع إليها وتقول مبهوراً: "آه لو كنت في العشرين من عمري، وقُدر لي أن أستأصل شأفة الجنس البشري من على ظهر الأرض، بحيث لا يبقى من الناس سوى هذه الأنثى، لأنجب منها أبناء- لا بل آلهة مثل آلهة اليونان- لملأت إذن العالم بهم مرةً أخرى! أما الآن... فوا حسرتاه!".

قال هذا ثم انتفض واقفاً، واغرورقت عيناه بالدموع. تمددتُ على فراشي وأطفأت القنديل، وبدأت من جديد- وفقاً لعادتي المؤسفة التي تخلو من الرحمة- في إبدال الواقع، وفي إبعاد الدم واللحم والعظم، وفي تقليص الفكرة المجردة وربطها بقوانين عامة، إلى أن أستنبط النتيجة المرعبة التي مفادها أن ما حدث كانت هناك ضرورة تحتم حدوثه؛ وأن ما حدث إنما كان يحدث من خلال إيقاع كوني؛ وأن من شأنه أن يثري التناغم والتناسق. وكان هذا كي أصل- في خاتمة المطاف- إلى العزاء البشع، وهو أن ما حدث لم تكن هناك ضرورة فقط لحدوثه، أو كان يجب حدوثه، بل كان من الصواب أن يحدث.

وقع ذبح الأرملة على عقلي مثل رسالة مفزعة وحشية، إذ كانت كل الأمور الأخرى- منذ سنوات قليلة مضت، حتى الآن- قد تجمدت وخضعت للطاعة والإذعان، فقد ألقت هذا الرسالة الاضطراب في قلبي. ولكن فجأةً- وعلى غير انتظار- تكالبت عليها جميع النظريات لتلفها بلوحات وتقنيات تجردها من الخطر؛ وهذ مماثل لما تفعله النحلات حينما تغلف بالشمع خلاياها المليئة بالعسل، حتى لا يتعرض للسلب والنهب من قِبلِ الحشرات المتوحشة.

وهكذا، ففي ظرف سويعات قليلة، استقرت الأرملة في ذاكرتي تقريباً مبتسمة، وهي راسخه فوق الرمز المقدس. إذ كانت الأرملة بالفعل قد غُلفت داخل قلبي بالشمع، ولم تعد قادرةً على أن تنقل الرعب داخلي، أو أن تصيب عقلي بالشلل. فهذه الحادثة المفزعة الزائلة كانت تتسع وتغدو أرحب، كما كانت تمتد إلى وقت أطول وزمان أبعد، وتتماثل مع الحضارات العظمى البائدة التي زالت واختفت، أجل الحضارات التي تتماثل مع مصير الأرض، والأرض التي تتماثل مع مصير الكون. وهكذا، كلما عاودت الرجوع إلى الأرملة وجدتها خاضعة للقوانين العظمى، ومتصالحة مع قتلتها، تنعم بسكون وثبات قدسي.

كان الزمن قد أرسى داخلي الجوهر الحق، وكأن الأرملة قد ماتت قبل آلاف السنين، وكأن الفتيات الكنوسيات(*) ذوات الشعر الأجعد، اللائي كُن منتميات إلى حضارة البحر الإيجي (في الزمن الغابر) هُن اللائي هلكن، وقضين نحبهن هذا الصباح.

أخذني النوم تماماً، مثلما سيأخذني الموت بالتأكيد ذات يوم- علماً بأنه لا يوجد في حياتنا أمر يقيني مؤكد- وانزلقتُ إلى ظلمة النوم بغير ضجة، فلم أسمع متى قفل زوربا عائداً أدراجه؛ إذ وجدته- عندما استيقظت في الصباح- فوق الجبل ينادي على العمال، ويتشاجر معهم. فلم يكن يروقه أي تصرف قاموا به، لذا طرد ثلاثة عمال لمجرد أنهم عارضوه،

(*) نسبة إلى مدينة "كنوسوس" الأثرية، التي تنتمي إلى الحضارة المينوية القديمة، وهي حضارة قامت في جزيرة كريت منذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد، وتركت آثاراً تدل على عظمتها وروعتها، مثل بقايا قصر مينوس المعروف بقصر التيه (اللابيرنثوس). [المترجم].

وأخذ هو نفسه الفأس وشق الطريق الذي كان قد رسمه لإقامة الأعمدة على طوله، في الكثبان وفي الأماكن الصخرية. ولذا صعد الى الجبل، وعثر على قاطعي الأحجار الذين كانوا يجتثون أشجار البلوط، وأخذ يصرخ فيهم حانقاً؛ فضحك أحدهم، وغمغم آخر بكلام غير مسموع، فانقض عليه زوربا ثائراً غاضباً.

وعندما حل المساء، هبط زوربا من الجبل مرهقاً، وعلى جسمه آثار خدوش كثيرة، وجلس بجواري على الساحل. لم يفتح فمه ليتكلم إلا بصعوبة، وعندما فتح فمه تحدث معي عن كتل الأخشاب، والسلك المعدني، والفحم الحجري، وكأنه رجل أعمال جشع متسرع، يريد أن يعيث فساداً في المنطقة- على قدر استطاعته- وأن يكسب ويرحل بعدها غير عابئ بأي شيء أياً ما كان. وعندما عنَّ لي للحظة- بعدما توصلت إلى لون من العزاء الذي قلصتُه إلى أدنى حد بيني وبين نفسي- أن أتجاذب أطراف الحديث مع زوربا عن الأرملة، مد ساعده الضخم وسد فمي قائلاً بصوت أجوف: "صمتاً.. صمتاً".

أغلقت فمي من فرط الخجل؛ وقلت فيما بيني وبين نفسي: "هذا هو ما يجب بحق أن نسميه الإنسان"؛ قلت هذا لنفسي، وأنا أغبط زوربا على إحساسه بالألم والحزن. إنه حقاً إنسان ذو دماء حارة وعظام صلبة، عندما يتألم يذرف دمعاً حقيقياً، وعندما يفرح لا يبعثر سروره أو يهدره، بأن يجعله يمر عبر مناخل ميتافيزيقية ضيقة الثقوب.

مرت علينا- ونحن على هذه الحال- ثلاثة أيام أو أربعة، لم يكف خلالها زوربا عن الانكباب على العمل؛ لم يتناول طعاماً، أو يشرب نبيذاً،

ولم يستحم أو يغتسل. وذات مساء، قلت له إن السيدة بومبولنيا لا تزال ترقد في السرير مريضة، وأن الطبيب لم يأت لفحصها، وأنها تهذي وتردد اسمه، فعصر قبضته وقال: "حسنًا". وفي اليوم التالي، ذهب إلى القرية في ساعة مبكرة جداً من الصباح، وما لبث أن عاد بسرعة منها؛ فسألته: "هل رأيتها؟ وكيف حالها الآن؟". فقطب زوربا ما بين حاجبيه، وقال: "ليس بها شيء.. سوف تموت"، بعدها ذهب تجاه الجبل.

وفي مساء اليوم ذاته، أخذ عصاه الغليظة وخرج من السقيفة، دون أن يتناول طعام العشاء. فسألته: "الى أين أنت ذاهب، يا زوربا؟ هل أنت ذاهب الى القرية؟". أجاب "لا! بل ذاهب لأتمشى، وسوف أرجع بعدها". سار نحو القرية بخطوات واسعة توحي بالعزم والإصرار؛ كنت متعباً فتمددت على الفراش؛ وأخذ عقلي من جديد يجوب أرجاء الأرض، استيقظت الذكريات، وصعدت على السطح ذكريات مريرة، وحلق عقلي تجاه أفكار بعيدة قاصية، اتجهت نحو زوربا ثم استقرت عليه.

فكرتُ فيما بيني وبين نفسي: "لو تصادف والتقى زوربا وهو طريقه إلى القرية مانولاكاس، ذلك الكريتي المصاب بالسعار والخبل، فإنه سينقض على زوربا وسيقتله. إذ أنه كان طوال الأيام الماضية- كما علمت- قد قبع منعزلاً في منزله، وهو يصرخ ويصيح، حيث إنه كان يشعر بالخزي والعار من الظهور في القرية، وكان طوال الوقت يبث الرعب في النفوس بقوله: "لو وقعت يدي على زوربا، فسوف أمزقه إرباً مثلما يمزَّق السردين". وبالأمس شاهده أحد العمال يصول ويجول في منتصف الليل حول السقيفة، وهو مدجج بالسلاح، ولو أنهما التقيا الليلة وجهاً لوجه.فسوف تحدث مجزرة

لا شك في ذلك..."

هنا قفزت مضطرباً، ولبست ملابسي واتخذت طريقي مسرعاً تجاه القرية؛ كان الليل يزخر بالطلاوة والسحر، وتفوح فيه رائحة زهور البنفسج البرية. وبعد مرور وقت ليس بالطويل، تمكنت أن ألمح زوربا وسط الظلمة، وهو يتقدم نحوي ببطء، كأنه متعب ومثقل. وكان ما بين الحين والآخر يتوقف ليتطلع الى النجوم، أو ليسترق السمع، وفي أثناء ذلك كنت أسمع صوت دبيب عصاه الغليظة، وهي تدق على الصخور.

كان زوربا يقترب آنذاك من بستان الأرملة، وكان الهواء معبقاً بعطر زهور الليمون وزهور نبات "صريمة الجدى". وفجأة وسط أشجار البرتقال، ارتفع صوت تغريد بلبل وكأنه خرير ماء صاف رقراق؛ أخذ البلبل يغرد ويغرد وسط ظلمة الليل، ويأخذ مع تغريده بمجامع الإنسان وأنفاسه. توقف زوربا- على حين غرة- وهو مبهور ومأخوذ بدوره بكل هذه العذوبة، وفجأةً تحركت أعواد البوص التي يتألف منها السور، وأصدرت أوراقها أصداء أصوات كأنها صادرة عن نصل سكين من الفولاذ.

وسمعنا صوتاً أجش يقول: "إيه أيها العرَّاب! إيه أيها المسن الهرم! من حُسن حظي أن وجدتك!" تقدم زوربا خطوةً إلى الأمام، ورفع عصاه الغليظة، ثم توقف من جديد. واستطعت أن أتبين جيداً- على ضوء النجوم- كل حركة تصدر عنه. ومن أعواد البوص، وثب رجل ضخم الجثة بقفزة واحدة، فصاح زوربا وهو يمد رقبته: "مَن هناك؟". فقال الرجل: "إنه أنا، يا هذا، مانولاكاس". فقال زوربا: "امض إذن في طريقك، ارحل!". فقال مانولاكاس: "لماذا جللتني العار، يا زوربا؟". فقال زوربا: "أنا لم أجللك

بالعار، يا مانولاكاس. ارحل، قلت لك. فإنك وحش ضار، خدمه الحظ، وإنه حظ أعمى؛ فهل تتحكم أنت فيه؟"

قالِ مانولاكاس، وأنا أسمع صرير أسنانه وهي تصطك ببعضها: "حظ أم لا حظ، أعمى أم بصير؛ فكل مرامي هو أن أغسل عاري الليلة بالفعل، هل تحمل سكيناً؟". فأجاب زوربا: "لا! معي عصاي هذه". فقال مانولاكاس: "اذهب إذن، وتناول سكينك؛ وأنا سأنتظرك هنا، هيا إذهب!". لكن زوربا لم يتحرك من مكانه، فصفر مانولاكاس بسخرية، وقال: "هل أنت خائف؟ هيا اذهب قلت لك!". فقال زوربا، الذي بدأ يتقد غضباً: "ماذا عساي أن أفعل بالسكين، يا مانولاكاس؟ ماذا عساي أن أفعل بالسكين، يا هذا؟ تذكر أننا حينما كنا في الكنيسة كنت أنت تحمل سكيناً وأنا أعزل؛ ومع ذلك فقد بدا لي أنني تفوقت عليك وجندلتك". فزمجر مانولاكاس بصوت كالزئير: "أتسخر مني، يا هذا؟ أوَ تظن أنني سأكون الليلة تحت رحمتك بالفعل، حيث إنني أحمل سلاحاً وأنت أعزل؟ ألهذا تتهكم علي؟ تسلح، أيها المقدوني الوغد، بسكينك، كي نصبح متعادلين!".

فردِ زوربا على صياحه بصياح مضاد، وصوته يرتعش من فرط الحنق والغضب: "فلترم أنت سكينك، ولألقي أنا عصاي كي نكون متعادلين، وكي نقاتلَ رجلا لرجل! أيها الوغد الكريتي!». لوح زوربا بساعده الضخم، وألقى بعصاه، وسمعتُ صوت ارتطام العصا بأعواد البوص، كما سمعتُ صوت زوربا يقول من جديد: «ارمِ سكينك!». أخذ مانولاكاس يقترب على أطراف أصابعه بتؤدة، وبدتْ لي طلعته وهي تبين في ضوء النجوم، كما أبصرتُ البريقَ المنبعثَ من السكينِ بعد أن ألْقي به داخل أعواد البوص.

وهنا بصقَ زوربا في كفيه، وصاح بصوتٍ يشبه الـزئير وهـو يهـتز اسـتعدادًا لشن الهجوم: «هيَّا إلى النزال!».

ولكن قبل أن يتمكن هذان الصنديدان من الاشـتباك الدامي، قفـزتُ ووقفتُ بينهما، وقلتُ صائحًا: «توقفا! تعال هنـا، يـا مـانولاكاس، وأنـت يـا زوربا، تعال هنا، واخجـلاه منكمـا!». اقـتربَ الخَـصْمَان، وهمـا يـسيران في صـمت، فأمـسكتُ باليـد اليمـنى لـكل واحـد منهمـا، وقلـتُ: «تـصافحا بالأيدي، فكلاكما بطلان مغواران، هيا تصالحا!». فقـال مـانولاكاس: «لقـد جللني بالخزي والعار...»، قال هذا وحاول أن يسحب يده من يـدي. فقلـتُ: «ليس من السهل أن تُصاب بالعار، يا كابـتن مـانولاكاس! فالقريـة بأسرهـا تقر وتعترف بشجاعتك وبسالتك؛ وإيـاك أن تأخـذ في الاعتبـار مـا حـدث أول أمس في الكنيسة! فلقد كانت ساعةَ نحس وشؤم، وما حـدث فيهـا قـد حدث، وولى وانقضى! ولا تنسَ أيضًا أن زوربا غريب قـادم مـن مقـدونيا، وإنه لعارٌ وشنارٌ ما بعده عار أن نرفع أيـدينا، نحـن الكـريتيين، على شـخص أجنبي وفدَ ليقيمَ في منطقتنا... فهيا! ضع يدك في يده، فهذا هو خلـقُ البطـلِ المغوار بحق، فهيا بنا نذهب إلى السقيفة لنشربَ النبيذَ، ولكي نـشوي بعـض السجق مقبِّلات، وكي نوطد دعائم التصالح، يا كابتن مانولاكاس!».

أحطـتُ بخـصر مـانولاكاس، وانتحيـتُ بـه جانبًـا برهـةً مـن الوقـت، وهمست له في أذنه بصوت غير مسموع: «إنه رجـلٌ مـسن، ولا يليـق بـك- وأنـت صـنديدٌ ضـخم- أن تـشتبكَ معـه في عـراك!». فلانـتْ مـشاعرُ مانولاكاس، وقال: «سـأفعل هـذا إكرامـاً لخـاطرك!». وسـار خطـوةً ناحيـة زوربا، ومد له ساعده الضخم الثقيل، وقـال: «هيـا، يـا زوربـا، فلنـنس مـا

فاتَ وانقضى؛ هذه يدي أمدُها لك!». تصافحا، وضغط كل منهما على كفِ زميله عدة مرات بقوة وصلابة. أجل تعانقتْ أكفهما بعنف وقوة، وظل كل واحد منهما يتفرس في وجه الآخر، وهما يزأران ويهدران. فخشيتُ أن يعودَا إلى الاشتباك والعراك من جديد.

قال زوربا: «إن قبضتكَ قويةٌ متينة، وإنك لفتوة صنديد، يا مانولاكاس!». فقال مانولاكاس: «وأنت أيضا ذو مسكة قوية، فهيا اضغط أقوى من ذلك لو استطعتَ!». فصحتُ بهما: «كفى! كفى! هيا بنا لنشرب نخب صداقتنا!». وانحشرتُ بينهما لأفرقهما، فكان زوربا عن يميني ومانولاكاس عن يساري؛ وارتددنا عائدين إلى السقيفة عن طريق الساحل المؤدي إليها. قلتُ لأغير مجرى الحديث: «سيكون البذر ممتازًا هذا العام... فلدينا أمطار وفيرة». غير أن أحدًا منهما لم يرد على ما قلته، فقد كان صدرُ كل منهما مليئًا بالشجن والغضب. كان عزائي الوحيد للخروج من هذه الحالة هو النبيذ، ووصلنا أخيرًا إلى السقيفة. فقلتُ آنذاك: «مرحباً بك، يا كابتن مانولاكاس، في مقرنا الفقير المتواضع! هيا، يا زوربا، اشوِ لنا السجق، واعزمنا على العشاء". جلس مانولاكاس خارج السقيفة على صخرة، أما زوربا فقد أشعل الأخشاب في الموقد، وشوى المقبلات، وملأ الأكواب الثلاثة حتى حافتها بالنبيذ.

فقلتُ وأنا أرفع كوبي المترع بالنبيذ حتى فمي: «في صحتكما! في صحتك، يا كابتن مانولاكاس! في صحتك، يا زوربا! هيا اقرعا الكؤوس واسكبا قطرات النبيذ!». فقرعا الكؤوس، وأراق مانولاكاس قطرات قليلة من النبيذ على الأرض، وقال بلهجة رسمية: «فليرقْ دمي على هذا النحوا

أجل فلتسكبْ دمائي على هذا النحو، لو أنني رفعتُ يدي عليك بعد الآن، يا زوربا!». وقال زوربا بدوره، وهو يسكب قطرات قليلة من النبيذ على الأرض: «فليسكبْ دمي أنا أيضًا على هذا النحو، لو لم أنسْ بالفعل أذني التي التهمتَها، يا مانولاكاس!».

(23)

عند الفجر نهض زوربا من نومه، وجلس على فراشه، وأيقظني بقوله: «هل أنت نائم، يا رَيِّس؟». فقلت: «ماذا حدث، يا زوربا؟». قال: «لقد حلمتُ حلمًا... أجل لقد رأيتُ في منامي حلمًا غريبًا؛ حلمتُ أننا سوف نذهب في رحلة بدا أنها عاجلة. فاسمعْ حتى تضحك، فقد كانتْ هنا في المرفأ باخرة ضخمة كأنها مدينة. وكانت تطلق صفارتها إيذانًا بالرحيل؛ وكنتُ أعدو عدوًا من القرية كي ألحق بها قبل مغادرتها الميناء؛ وكنت أمسك في يدي ببغاء. وصلتُ إلى الباخرة وصعدتُ إليها، وجاء القبطان وهتف بي: «تذكَرتُك!» فسألته: «كم ثمنها؟». وأخرجت حفنة من أوراق البنكنوت من جيبي. فقال القبطان: «ألف دراخمة». فقلت: «أمان يا ربي، أليس ثمنها ثمانمائة دراخمة؟ لقد كنت أدفع فيها هذا المبلغ». قال: «كلا! ثمنها ألف دراخمة». فقلت: «ليس معي سوى ثمانمائة دراخمة، فخذها مني!». قال القبطان: «أريد ألفًا لا تنقص حتى دراخمة واحدة! وإلا فاخرج من السفينة سريعًا!». فانتابتني سورة من الغضب آنذاك، وقلت: «اسمع،

أيها القبطان، ما أقوله لـك، أفـضل لـك أن تأخـذ الثمانمائـة دراخمـة الـتي أقدمها لك، وإلا فسأستيقظ من نـومي، أيهـا البـائس التعـس، وستخـسرها جميعًا!».

قال زوربا هذا، ثم انفجر ضاحكًا، وقال: «آه يـا هـذا، يـا للإنـسان مـن ماكينة تقدم لها الخبز والنبيذ والأسماك والفجل، فتخـرج منهـا التنهـدات والضحكات والأحلام! فيـا لَه مـن مـصنع! وأظـن أن بـداخل الـرأس فـيلم سينمائي، مَن يلعبون فيه أدوارًا هم أولئك الذين يتحدثون». وفجـأةً انـتفض زوربا تاركًا فراشه وقال بقلق: «ولكن لماذا الببغاء؟ ترى ماذا يريد الببغـاء أن يقول عندما رحل بصحبتي؟ آخ! أظن......». غـير أنـه لـم يـتمكن مـن إكمال عبارته، إذ دلف إلى حيث نجلس رسول قصير القامـة، أحمـر الـشعر كأنه عفريت، وصاح وهو يلهث: «بحـق الله! أود أن أعلـن لكمـا أن المـدام المسكينة مريضةٌ جدًّا، فأرسلوا لها الطبيب لأنها تحتـضر، أجـل إن التعـسة تحتضر! وستتحملون أنتم وزرها».

شعرتُ بالخجل، ففي خضم الاضطراب الذي سـببتْه لنـا الأرملـة، كنـا قد نسينا تمامًا خليلتنا العجوز. واستأنف الرسول ذو الشعر الأحمر حديثـه بطريقة مرحة: «إن المنكودة تتألم وتسعل سعالاً شديدًا يهز الفنـدق بـأسره. إنه سعالٌ مرتفع كـصوت الحمـير، يهـز القريـة كلهـا». فـصرختُ فيـه: «لا تسخر! اصمت!». وأمسكتُ قطعة صغيرة من الورق، وكتبتُ عليهـا رسـالة إلى الطبيـب، وقلـت للرسـول: «اجـرِ بـسرعة، واذهـب بهـذه الوريقـة إلى الطبيب، ولا ترجع إلا حينما تراه يمتطي فرسه. هل سمعت؟ ارحل!».

خطف الرسـول الوريقـة مـن يـدي، وحـشرها في حزامـه، وهـرع نحـو

الطريق الصاعد على المرتفعات. أما زوربا، فكان قد قفزَ واقفًا بالفعل، وارتدى ملابسه على عجل، دون أن ينبسَ ببنت شفة. فقلتُ له: «انتظرني، فإنني ذاهب معك». فقال، وهو يعدو تجاه القرية: «أنا مستعجل! أنا متعجل!». وما لبثت أن تبعته على الطريق نفسه بعد برهة من الزمن. كان بستان الأرملة مقفرًا مهجورًا؛ وكان "ميميثوس" جالسًا خارجه، متكومًا على نفسه، تبدو عليه سيماء الغضب، كأنه كلب ضُرب لتوه. كان الهزال يعتريه، وكانت عيناه المحمرتان غائرتين في محجريهما. التفتَ حينما أحس بي، وصوبَ إليَّ نظرة حادة، وأمسك بقطعة حجر في يده. فسألتُه، وأنا أرنو إلى البستان بنظرات زاخرة بالاشتياق: «ماذا تفعل هنا، يا ميميثوس؟».

أحسستُ آنذاك كأن ساعدين مفرطين في القوة يلتفان حول عنقي... وشممتُ عطرًا منبعثًا من أزهار أشجار الليمون وزيت أشجار الغار. لم نكن ساعتها نتحدث، وكنت ألمح في ضوء الغسق عينيها وهما متقدتان كالجذوة، إذ كانتا عينين لونهما أسود حالك، تلمعان كأنهما مغرورقتان بالدموع، أما أسنانها التي - كانت قد دلكتها ونظفتها بأوراق جوز الهند- فكانت ناصعة البياض، لامعة وحادة قاطعة.

فقال لي ميميثوس، وهو يغمغم: «لماذا تسأل؟ هيا! امض في طريقك، وانشغل بعملك!». فقلت له: «هل ترغبُ في سيجارة؟» فقال: «لقد انقطعتُ عن التدخين؟ كلكم أوغاد. أجل كلكم! جميعًا! كلكم جميعًا!». قال هذا ثم توقفَ وهو يلهث، وكأنه كان يبحث عن الكلمات ولا يعثر عليها. ثم عاد يقول: «أوغاد... سفلة... كاذبون... قتلة!». وكأنه عثر على الكلمة التي

كان يبحث عنها، فقفز واقفًا، وضرب كفًّا بكف، وانفجر صائحًا: «قتلة! قتلة! قتلة!». كان يصرخ بشراسة، ولكن ما لبثت شراسته أن انقلبت إلى ضحك هيستيري. شعرتُ بقلبي ينقبض ويعتصره حزن مبرح، فغمغمتُ: «عندك حق، يا ميميثوس، عندك حق!». وبعدها واصلت طريقي بخطى سريعة.

وفي مدخل القرية شاهدت العم "أناغنوسيتس" منحنيًا على عصاه، وهو يرمق باهتمام فراشتين صفراوين تطارد إحداهما الأخرى، فوق العشب الربيعي. كان الآن قد طَعِنَ في السن، ولم يعد القلق ينهشه خوفًا على مزرعته، ولا على زوجته، ولا على أبنائه؛ وأصبح لديه متسعٌ من الوقت كي يتطلع إلى الدنيا. وعندما شاهد خيالي يتراءى على الأرض، رفع رأسه وقال لي: «إلى أين، بسلامة الله، في هذا الوقت المبكر من الصباح؟» لكنه ما إن رأى ملامح وجهي وقد اكتست بالقلق، لم ينتظرْ إجابة مني، بل أردف: «أسرع، يا بني، فإما أن تصل إليها قبل أنْ تموتَ أو بعد أن تموت... آه! يا لها من بائسة ذات حظ عاثر!».

كان السرير العريض، الذي كان رفيقها الأشد وفاءً لها، موجودًا في منتصف حجرتها الصغيرة، وكان جسدها يملأ السرير بكامله. وفوق السرير على الجدار ،كان ينحني مستشارها السري المخلص الوفي، مرتديًا سترته "الفراك" الخضراء، وقلنسوته الصفراء، أعني الببغاء الذي كان منحنيًا بعينيه المستديرتين المشاكستين، متفكرًا ومضطربًا، وهو يرمق سيدته المسجاة على الفراش أسفل قفصه، وهي تئن وتتأوه؛ كما كان يهتز بحدة ويدور في قفصه، برأسه الشبيه برأس الإنسان ليسمعها....

لا! لا! لم تكن هذه هي تنهداتها المألوفة لديه، لم تكن هذه هي التنهدات الزاخرة بالعشق والدغدغة والمداعبات الرقيقة... كان الببغاء يشاهد- لأول مرة- العَرَق الذي ينثالُ ويتناثر باردًا على وجه سيدته، وعلى شعرها الملبد، غير المغسول وغير الممشط الملتصق بصدغيها، وكذلك تقلبها في الفراش بصعوبة وتثاقل؛ أجل كان يشاهد آلام سيدته المبرحة، ويشعر لا ريب بالاضطراب والقلق... أخذ الببغاء يصيح مقلدًا سيدته: «كاناڤارو! كاناڤارو!». أخذ يصيح بهذه الكلمة بصوت مختنق، لا يكاد يبين أو يمر خلال حنجرته.

كانت سيدته المهجورة الخابية تئن وتتأوه، وكان ساعداها الضامران يرفعان ويخفضان ملاءة السرير المتموجة. كانت صبغة شعرها قد زالت، ولذا، كانت تنبعث منه رائحة حمضية نفاذة، كأنها رائحة لحم بدأ يفسد. وكان خُفَّاها اللذان بليا وتقوسا من فرط المشي بهما قابعين في انزواء عند ثنية السرير، ينقبض قلب المرء حينما يراهما. ولعل هذان الخفان يسببان للإنسان المرارة أكثر مما تسببها سيدتهما ذاتها.

كان زوربا جالسًا بجوار وسادة السيدة المريضة، وكان يرمق خفيها، ولم يكن بقادر على أن ينتزع ناظريه عن هذين الخفين. وكان يزمُّ شفتيه كي يقدر على احتمال الدموع ويمنع هطولها. فدلفتُ إلى داخل الحجرة، ووقفتُ خلف زوربا، غير أنه لم يحس بي أو يسمع صوتي.

كانت المرأة التعسة تهتز بشدة كي تلتقط أنفاسها؛ كانت تختنق. التقط زوربا من على مسمار مُثبت في الحائط كمشجب قلنسوة صغيرة مشغولة بورود قماشية، وأخذ يحركها حول رأسها ليجلب لها الهواء؛ كان ساعده

يتحرك بسرعة كبيرة بطريقة خرقاء، وكأن ما يبغي تحريك الهواء من أجله، هو جمرات متقدة من الفحم يرصها أمامه كي تتوهج بالنار. فتحت المدام عينيها مفزوعة، وحدَّقت فيما حولها؛ كانت الدنيا حولها قد غدت مبهرة بزوغ لمرآها البصر، لذا لم تكن قادرة على أن تميز أحدًا من الملتفين حولها، حتى زوربا الذي كان يجلب لها النسمات بالقبعة الحمراء كلون الورد. كانت الظلمة- قبل ذلك- قد أسدلت أستارها حولها، وكانت هناك أبخرة زرقاء تتصاعد من الأرض، كانت تتغير وتتمازج فيما بينها، لتشكل أحيانًا صورة أفواه تقهقه، وأحيانًا صورة أقدام ذات مخالب، وأحيانًا أخرى صورة أجنحة سوداء فاحمة.

سمَّرت المرأة التعسة أظافرها في الوسادة المتسخة للغاية، التي كانت مبقعة من كثرة الدموع واللعاب والعرق، ثم صرخت بصوت عالٍ: «لا أريد أن أموت! لا أريد أن أموت!». غير أن النَّدابتين اللتين تنوحان على الموتى في القرية، كانتا قد وصلتا بالفعل، بعد أن علمتا بحالتها من مصادرهما، ودلفتا إلى غرفتها وانطرحتا على الأرض، بحيث كان ظهراهما مسنودين إلى الجدار. شاهد الببغاء ذلك بعينيه المستديرتين، فتملكه الغضب، ومد عنقه صائحًا: «كانافا....»؛ ولكنه لم يكمل التلفظ بالكلمة، إذ مد زوربا ساعده الضخم- بعد أن استبد به الحنق البالغ- تجاه قفصه، فانكمش الببغاء على نفسه. وعاد صوت المرأة المحتضرة من جديد ليصيح: «لا أريد أن أموت!... لا أريد أن أموت!...».

قَدِم شابان فارعان، حليقا الشارب، لوحت الشمس بشرتيهما، وتطلعا إلى المرأة المريضة، وغمز أحدهما للآخر بإشارة مرحة ذات مغزى، ثم

تواريا عن الأنظار. ولم يكن يُسمع في الفناء سوى وَقْوَقات مفزوعة مثل خفقان الأجنحة، كأن شخصًا كان يطارد طيورًا داجنة كي يمسك بها. التفتتْ الندابة الأولى إلى زميلتها العجوز المدعوة "ميلاماتينيا"، وقالت لها: «هل شاهدتهم، يا عمة لينيو، هل رأيتهم؟». كانت الندابتان متعجلتين، إذ أنهما سوف تذبحان الآن الدجاجات، وستمصمصان عظامها. كان جميع المتسكعين والعاطلين في القرية قد تجمعوا في الفناء، وبدأوا يعدون العدة للقيام بهجمة شرسة.

ثم التفتت الندابة الأولى ناحية سرير المريضة المشرفة على الموت، وتمتمت من أعماق قلبها: «هيا، يا بُنَيتي، موتي بسرعة! هيا الفظِي أنفاسكِ الأخيرة بسرعة، حتى تتاح لنا فرصة أكل الطعام!». فقالت الندابة الثانية، العمة لينيو، وهي تلوي فمها الخالي من الأسنان: «إنني أقول لكِ الحقَّ الذي أرسى الله دعائمه، يا عزيزتي السيدة مالاماتينيا، حسناً فعلوا... فلقد أوصتني أمي رحمها الله بقولها: «اخطفي لتأكلي، واسرقي لتملكي!». دعينا إذن نلقي مرثيتنا ونواحنا على جناح السرعة، كي نتمكن من أن نحصل على نصيبنا من الوليمة، وأن نقتنص ما يمكّننا من التسامح مع روحنا. فليس عند هذه المرأة التعسة أبناء ولا كلاب حقًّا، فمَن ذا الذي سوف يأكل دجاجاتها وأرانبها؟ ومَن ذا الذي سيشرب نبيذها؟ ومَن ذا الذي سوف يرث بكراتِ خيوطها وأمشاط شعرها وحَلْواَها؟ إيه! ماذا عساي أن أقول لك، يا عزيزتي السيدة مالاماتينيا، فليغفر الله لي، ولكن هذا هو ما خطر على بالي، وهو ما يمكن أن أضع يدي عليه!».

قالت السيدة مالاماتينيا، وهي تمسك بذراع زميلتها: «توقفي يا لعينة،

ولا تتسرعي! فبحق الله، هذا هو عين ما خطر على ذهني، لكن دعيها تلفظ أنفاسها الأخيرة أولاً!».

ظلت التعسة- مدام أورتانس- تبحث تحت وسادتها بطريقة متعجلة عن شيء كانت تبغيه. كانت قد أخرجت من داخل صندوقها- بمجرد أن استشعرت قدوم الخطر- تمثالاً يمثل المسيح المصلوب، مصنوعاً من العَظم الأبيض اللامع، ودستهُ تحت وسادتها. ولأعوام طوال، كانت قد نسيت أمره تمامًا، وسط قمصان نومها الممزقة، ووسط أسمالها المخملية في قاع الصندوق. وكأن المسيح كان طبيبًا يشفي الأمراض، ونحن لا نمسكه أبداً إلا حينما نصاب بالمرض العضال؛ ولكن طالما نحيا ونستمتع بحياتنا ونأكل ونشرب ونحب، فلا نحس أننا بحاجة إليه. عثرت المرأة إذن على تمثال المسيح المصنوع من العظم وعلقته على صدرها الذي ينضح بالعرق، وغمغمت في وَلَهٍ وعشق، بعد أن تشبثت به وقبلت معشوقها الأخير: «آه، يا مسيحي العزيز! آه، يا مسيحي العزيز!».

كانت كلماتها- التي نصفها فرنسي ونصفها رومي (= يوناني)- تمتزج فيها الرقة بالعاطفة الجارفة. سمعها الببغاء، وأحس أن نغمة صوتها قد تغيرت، فتذكر السهرات الليلية التي انقضت، وانتفض في جذل وسرور، ثم صاح: «كاناڤارو!... كاناڤاروا...». كان صوته وهو يصيح صوتًا أجش، مثل نعيب الغراب الذي يصيح مرحبًا بالشمس. ولم يتحرك زوربا هذه المرة كي يحبس صوته أو يمنعه، بل أخذ يرمق- بشغف بالغ- المرأة التي تبكي وتقبل تمثال المسيح المصلوب، فتنثال عذوبةٌ وطلاوة غير متوقعة على محياها المنبسط المتناسق الذي توقفت الأنفاس عن التردد فيه.

انفتح الباب ودلف منه "أناغنوسيتس" الطاعن في السن، وهو يسير على أطراف أصابعه ويمسك بعصاه في يده؛ واقترب من المرأة المحتضرة، وانحنى فوقها، وأخذ يردد دعاء التوبة والغفران: «سامحيني، يا مدام، وليغفر الله لي ولك؛ فلو أنني تلفظت ذات مرة بكلمة نابية غليظة عنك، فنحن بشر، فسامحيني!».

غير أن المدام كانت الآن ممددة على فراشها في دعة وسكون، وغارقة في سعادة تجل عن الوصف، فلم تسمع "أناغنوسيتس" الطاعن في السن. كانت عذاباتها جميعًا قد انمحت: شيخوختها التي جعلتها مهجورة متوحدة، فقرها والإهانات التي انصبت عليها أحيانًا فجعلتها تشعر بالضآلة، والأمسيات المريرة التي كانت تجلس أثناءها على عتبة بابها المنزوية، وكانت تنسج خلالها الجوارب الريفية القطنية، وكأنها امرأة فاضلة لا وزن لها ولا قيمة. فيا لهذه المرأة الباريسية التي كانت- ذات يوم- محظية، ذات الثياب الشفافة الهفهافة، التي تذوقت القوى العظمى الأربع المداعبة والمرح على ركبتيها، والتي كانت الأساطيل العظمى الأربعة تزجي لها التحية!

كان يتراءى لمخيلتها البحرُ في سكونه وصفوه، والأمواج في ثورتها وهيجانها؛ كانت القلاع الحديدية العائمة (= السفن الحربية) تتراقص على سطحه، وكانت الأعلام المرفوعة عليها بجميع أنواعها ترفرف على الصواري. وطيور الحجل التي تُشْوَي تنبعث عنها رائحة مغرية، وأسماك البوري الأحمر الفاخرة موضوعة على سفود المقلاة، والفواكه المثلجة موضوعة داخل أواني كريستال منحوتة، وسدادات زجاجات الشمبانيا

تندفع طائرة حتى تصطدم بسقف السفينة المدرع.

لُحَى سوداء وكستنائية ورمادية شهباء وشقراء فاقعة اللون؛ روائح وعطور ذات أنواع أربعة: الكولونيا، عطر البنفسج، المسك، وعطر البتشول؛ أبواب الكبائن الحديدية توصد، والستائر الثقيلة تنسدل، واللمبات الكهربية تضيء، ومدام أورتانس تغمض عينيها؛ ها هي حياتها بأسرها، بصداقاتها الكثيرة، وعذاباتها الكثيرة، آخ! يا إلهي، كأنها لم تكن سوى عشية أو ضحاها! سوى ثانية في عمر الزمان...

تنتقل من رُكبة إلى أخرى في دلال، وتحتضن سترات رجال موشاة بالذهب، وتجوس بأصابعها فى لحًى سميكة مضمخة بالعطور الزكية، وهي لا تتذكر أسماءهم، لا هي ولا ببغاؤها؛ آه! ببغاؤها يتذكر فقط اسم «كاناڤارو»، لأنه كان كريمًا بالغ السخاء، ولأنه كان الاسم الوحيد الذي استطاع الببغاء أن ينطقه بسهولة؛ أما الأسماء الأخرى فكانت مشوشة وصعبة، ولهذا ضاعت من الذاكرة.

تنهدتْ مدام أورتانس تنهيدة عميقة، واحتضنتْ بقوة وبعاطفة جارفة تمثال المسيح المصلوب، وغمغمتْ وهي تهذي: «كاناڤارو! عزيزي كاناڤارو... كاناڤارو الحبيب...»... وبقوة ضمت التمثال فى صدرها المترهل المندَّى بحبات العرق. وهنا غمغمت الندابة، العمة لينيو: «ها هي تبدأ من جديد في الغيبوبة! لا بد أنها شاهدت الملاك فأصابها الرعب... فهيا بنا نفك مناديلنا، ونقترب منها». فقالت لها السيدة مالاماتينيا، الندابة الثانية: «ألا تخافين الله، يا امرأة؟ إنها لا تزال حية، يا ملعونة، أوَ تريدين أن ننوح عليها من الآن؟».

زمجرت العمة لينيو، وصرخت في وجه زميلتها: «إيه، أيتها السيدة مالاماتينيا، أفلا ترين بعينيك، يا امرأة، صناديق المحتضرة وثيابها وممتلكاتها التي هي خارج المحل؟ أفلا ترين ما لديها في الفناء من دجاج وأرانب؟ وها أنت تجلسين هنا فقط وتقولين إنها تحتضر! من يلحق شيئًا فليأخذه (فهو حلال عليه!)». قالت هذه الكلمات، ثم نهضت واقفة، أما المرأة الأخرى فقد أمسكت بها من الخلف وقد استبد بها الحنق والغضب. قامت كل منهما بفك منديلها الأسود، وتعلقت بحواف السرير. وكانت العمة لينيو هي أول من أعطت الإشارة، بعد أن أطلقت صوتًا رفيعًا تقشعر منه الأبدان.

هرع زوربا تجاههما، وأمسك بشعر المرأتين العجوزين، وألقى بهما بعيدًا إلى الخلف، وصرخ فيهما: «تبًّا لكما! فلتخرسا! أيتها المرأتان المدنستان العجوزتان! إنها لا تزال حية، أيها الحيزبونتان! فلتذهبا إلى الشيطان!». زمجرت السيدة مالاماتينيا، قائلة، وهي تعقد- مرةً أخرى- منديلها: «يا لَه من عجوز غبي! وأي شيطان ساق هذا الأجنبي الدخيل هنا، ليقف حجر عثرة في طريقنا؟».

سمعت مدام أورتانس، القبطانة التي كابدت الكثير، وطحنتها سنوات العمر الطويلة، هذه الجلبة الصاخبة، فاختفت المرائي الحلوة من مخيلتها، وغرقت في لجة اليم سفينة القيادة والمشويات والشمبانيا واللحى المضمخة بالعطور النفاذة، واحتجبت عن أبصارها؛ خيم شبح الموت على فراشها المتسخ القابع في طرف الدنيا. حاولت أن تنهض من رقدتها، وكأنها تريد الفرار والخلاص من نهايتها، غير أنها سقطت على فراشها، وصرخت من

فرط الألم الممض، وأخذت تردد مرةً أخرى: «لا أريـد أن أمـوت... لا أريـد أن أموت...»

انحنى زوربا فوقها، ولمس بذراعه المتصلبة جبهتهـا المتقـدة، وأزال مـن على وجههـا الـشعر الذي كان ملتـصقًا بـه، واغرورقـت عينـاه بـالدموع، وتمتم: «صمتًا! صمتًا، أيتها السيدتان، ها أنذا زوربـا بجانبـك، فـلا تخـشَي شيئًا!». وفجأةً، على غير توقع، عاودتها المـرائي، وكانـت هـذه المـرة في صـورة فراشة بحرية هائلة غمرت سريرها بالكامل وغطته. فتشبثت المـرأة المـشرفة على الموت بذراع زوربـا، ومـدت بـبطء ذراعهـا نحـوه واحتـضنت عنقـه المنحني، وسال اللعاب من شفتيها، وقالـت: «عزيـزي كاناڤارو... كاناڤارو الحبيب...».

تدحرج تمثال المسيح المصلوب المصنوع مـن العظـم مـن على الوسـادة، وسقط على الأرض، وتفككت أجزاؤه؛ وسُمع صوت رجل يـصيح في الفنـاء: «ضع الدجاجة، قلتُ لك، وقُم بغلي الماء في القدر!». أزاح زوربا ذراع مـدام أورتانس برفق عن عنقه، ونهض واقفًـا، وقـد امتقـع وجهـه وصـار شـديد الشحوب؛ ومسح بظهر يده عينيه اللتين كانتا تذرفان الدمـع؛ وغـدا يتأمـل المرأة المريضة برهة من الزمن، لكنها لم تكن تحس بشيء ولا تـرى شـيئًا. عاود مسح الدموع من عينيه، ونظر إليها فشاهد آنـذاك سـاقيها المترهلتـين المتورمتين ترتجفان، وفمها يلتوي ويلتف. ارتجفت مرتين فتكـورت مـلاءة السرير تحتها، وبدت نصف عارية، يسيل العرق على جسمها المتورم بـأسره، ويتحول لونها إلى لون أصفر مائل للاخـضرار. صـدر عنهـا صريـر خافـت رفيع، مثل الدجاجات حينما تذبح؛ وبعدها خمدت حركتها وظلـت سـاكنة،

كما ظلت عيناها مفتوحتين مرتاعتين، ونظرها شاخصًا دون أن يطرف لها جفن.

قفز الببغاء إلى الجزء الأسفل من قفصه، وتعلق بمخالبه في قضبان القفص، ورمق زوربا وهو يمد ذراعه فوق سيدته برفق وهدوء وبرقة- يجل عنها الوصف- ليغمض جفنيها، بعد أن أيقن من موتها. ثم غمغم بصوت متحشرج: «هيا يا أولاد، مدوا أيديكم بالمساعدة!». ندت عن الندابتين صرخة ذات رنين ، وهرعتا نحو سرير مَن فارقت الحياة. وشرعت كل منهما في إلقاء نواحها المنفرد، وحركتا الجزء العلوي من جسد المرأة الميتة للأمام وللخلف، وضمت كل منهما قبضتيها، وأخذت تضرب صدرها. وهكذا رويدًا رويدًا ، ومن خلال هذا النواح الرتيب، وأرجحة جسم كل منهما واهتزازه، زاغ منهما البصر إلى حدٍّ ما، واندملت الأحاسيس المريرة التي مضى عليها زمن طويل، وانفطرت القلوب، وتصاعد الرثاء:

«لا ! لم يكن فراشك على أرض هذه الدنيا الفانية يليق بمقامك، ولا يصل إلى روعة صورتك...».

خرج زوربا إلى الفناء، بعد أن غلبته الدموع، وخجل أن يبكي أمام النساء، وتذكرتُ أنه قال لي ذات يوم: «أنا لا أخجل من البكاء، كلا إطلاقًا! ولكن أمام الرجال فقط. فنحن رجال من جنس واحد، ولا شيء يدعو إلى الخجل فيما بيننا، لكننا ينبغي أن نظهر دومًا أمام النساء شجعانًا بواسل؛ وذلك لأننا لو شرعنا بدورنا في البكاء، فماذا يمكن أن يحدث لهؤلاء التعيسات؟ لا ريب أنها ستكون نهاية العالم وضياعه». غسلتُ

الندابتان جسم المتوفاة بالنبيذ، وفتحت المرأة العجوز المكلفة بغسل الموتى الصندوق، وأخرجت منه ملابس نظيفة، وأبدلت لها ثيابها، ثم أراقت محتويات زجاجة من الكولونيا عثرت عليها فوق جسمها؛ ومن البساتين- القريبة من المنزل- توافدت ذبابات الموت، ووضعت بيضها في منخاري المتوفاة، وفي أركان عينيها، وفي أطراف شفتيها.

كان الغسق قد بدأ يخيم ويسدل أستاره، واتخذت السماء عند الغروب حلاوة وطلاوة تأخذ بالألباب. كان لون صفحة السماء بنفسجيًا داكنًا، وفوقه سحب ذات لون أحمر وبرونزي، وحواف ذهبية تتعانق مع ضوء الغسق، وتتخذ أشكالاً وصورًا متغيرة، تتخذ أحيانًا هيئة الزوارق أو المراكب، وأحيانًا صورة طيور البجع، وأحيانًا أخرى صورة وحوش خيالية مصنوعة من القطن والحرير، تنسل منها أهداب وذؤابات. ومن بين أعواد البوص- التي تشكل سور الفناء- كان البحر يتراءى من بُعد بأمواجه التي تهتز بشدة.

حلق غرابان سمينان فوق شجرة تين، وأخذا بعد أن هبطا يحجلان في مشيتهما فوق بلاط الفناء، فاستبد الغضب بزوربا (لأنه تشاءم منهما)، وتناول قطعة من الحجر وقذفهما بها ليطردهما. وفي الزاوية البعيدة من الفناء، كان الفتيان- من مرتادي الأزقة والطرقات في القرية- منخرطين في المسامرة والمرح الصاخب. كانوا قد أخرجوا إلى الفناء مائدة المطبخ الكبيرة، وفتشوا إلى أن عثروا على خبز وأطباق وشوك وملاعق، وجلبوا من القبو قنينة نبيذ، وسلقوا ثلاث دجاجات؛ وها هم الآن منشرحو الصدر، جائعون، يلتهمون الطعام ويشربون النبيذ، ويضربون الكؤوس في نخب

بعضهم البعض. أخذ بعضهم يقول للبعض الآخر: «فليغفر لها الله! وأيًّا كان ما فعلته، فليكن رحمةً ونورًا على روحها! نتمنى أن يكون كل أحبائها، يا أولاد، ملائكة يحملون روحها إلى الجنة!» وقال "مانولاكاس": «انظر، يا ولد، ها هو زوربا العجوز يطارد الغربان! لقد ترمل المسكين، دعنا ننادي عليه كي يشرب معنا كأسًا ترحمًا على المتوفاة. إيه، يا كابتن زوربا! هيا يا بلدياتنا!».

التفت زوربا نحوهم، فشاهد المائدة مفروشة ومعدة، والدجاجات يتصاعد منها الدخان، والنبيذ يملأ الأكواب، وحولها فتيان أشداء صناديد، لوحت الشمس بشرتهم، يربطون المناديل على رؤوسهم، يلفهم المرح والشباب. غمغم "مانولاكاس" بصوت هامس: «زوربا، يا زوربا، اقترب! أريدك أن تجلس هنا!». اقترب زوربا، واحتسى كوبًا من النبيذ، واثنين وثلاثة، كان يعبها جميعًا في رشفة واحدة، وأكل شريحة من الدجاج. كانوا يحادثونه، ولكنه لم يرد على أحد منهم؛ إذ كان يأكل ويشرب وهو متعجل وبنهم، يبتلع طعامه بسرعة، ويحتسي شرابه في جرعة واحدة وهو صامت. كان يولي وجهه شطر الحجرة التي كانت خليلته وغندورته العجوز مسجاة فيها بلا حراك، وكان يُسمع صوت الندابتين وهما تنوحان بالمرثية، وكان صوتهما يتناهى إلى أسماعه من النافذة الصغيرة المفتوحة. وشيئًا فشيئًا انقطع اللحن الحزين الملتاع، وسُمعتْ أصواتٌ كأنها مشادات وضجيج، وصوت فتح أبواب الدواليب وإغلاقها، ودبيب أقدام مسرعة وثقيلة كأنها تصارع وتقاتل؛ ومن جديد بدأت المرثية بصوت رتيب يغلفه اليأس، ولكن له حلاوة كمثل طنين النحلات.

كانت الندابتان تهرعان هنا وهنالك في حجرة المتوفاة، وكانتا تندبانها وهما تفتشان أمتعتها في جنون. قامتا في البداية بفتح دولاب، عثرتا فيه على خمس أو ست ملاعق، وقليل من السكر، وعلبة قصدير لحفظ البُن، وصندوق به مَلبن. فهرعت العمة لينيو واختطفت البن والملبن، أما العجوز مالاماتينيا فقد استأثرت بالسكر والملاعق، كما انقضت لتسلب من زميلتها قطعتين من الملبن ملأت بهما فمها، وبعدها بدأت في إلقاء المرثية، التي خرجت أنغامها من فمها مختنقةً متحشرجةً، من بين الملبن الذي كان يحشو فمها:

«فلتتساقط فوقك الزهور والورود، ولتتساقط عند قدميك ثمرات التفاح...».

دلفت امرأتان عجوزان إلى الحجرة، وانقضتا على الصندوق؛ ففتشتا بأيديهما داخله، وسلبتا عدة مناديل، وثلاث مناشف، وثلاثة جوارب، ورباطًا للساق، ثم قامتا بدس هذه الأشياء في صدريهما؛ وبعدها رجعتا إلى حيث ترقد المتوفاة، ورسمتا علامة الصليب. وعندما شاهدت السيدة مالاماتينيا المرأتين العجوزين، وهما تنهبان الصندوق، غدت مثل المسعورة، وصاحت في السيدة لينيو: «ردِّدي، يا أختي، المرثية بلحنها، واصلي الإنشاد وسأعود إليك!»، وبعدها، دست بدورها رأسها داخل الصندوق. كان الصندوق زاخرًا بخرق من قماش الساتان، وروب مصبوغ لونه باذنجاني، ونعال نسائية حمراء بالغة القدم، ومروحة يدوية مكسورة، ومظلة نسائية حمراء جديدة؛ وفي قاع الصندوق، كانت هناك قبعة قديمة مطوية الحافة لأدميرال كان قد أهداها إليها ذات مرة أثناء لقاء بينهما؛ وعندما كانت المدام بمفردها، كانت ترتديها وتقف أمام المرآة، وتؤدي

التحية بوقار ورزانة وشجن.

اقترب شخصٌ من الباب، فأجفلت المرأتان العجوزان، أما العمة لينيو فتشبثت- مرةً أخرى- بسرير المتوفاة، وبدأت تضرب صدرها، وتنشد بصوت عال المرثية:

«وأزهار القرنفل تحيط برقبتك...».

دلف زوربا إلى الحجرة، ورمق السيدة المتوفاة وهي ترقد ساكنة في دعة، كان محياها شاحباً باهتاً، والذباب يغطي وجهها؛ كانت راقدة وذراعاها معقودين على صدرها، ورباط من المخمل يلتف حول عنقها. أخذ زوربا يفكر فيما بينه وبين نفسه: «إنها قطعة من الأرض... أجل قطعة من الأرض، كانت تجوع وتضحك وتأخذ في أحضانها من تهواه نَفْسُها، إنها كتلة من الطين كانت تذرف الدموع. والآن؟ تُرى أية قوة أو أي شيطان جاء بها إلى هذه الدنيا، وأي شيطان أخذها من الدنيا؟»؛ قال هذا ثم بصق على الأرض وجلس؛ كان فِعْلاً قد تناول طعامه وشرابه، فاشتد أزره واكتسب القوة.

وفي الفِنَاء خارج المنزل، كان الفتيان قد أعدوا بالفعل العدة للرقص، كما وصل عازف القيثارة الوسيم "فانوريوس"؛ كانوا واقفين حول المائدة وأمام براميل البترول، وأحواض العجين، وأحواض الغسيل، وأخلوا مكانًا ليبدأوا الرقص فيه. وصل وجهاء القرية وكبراؤها: العم "أناغنوسيتس"؛ بعصاه المعقوفة الطويلة وقميصه الأبيض العريض؛ و"كوندومانوليوس" البدين العابس، والمدرس الذي يضع في زناره قلمًا نحاسيًّا غليظًا، ويضع خلف أذنه قلم حبر أخضر عفا عليه الزمن؛ أما العم "مافراندونيس" فقد

تغيب، لأنه لاذ بشعاب الجبال هربًا من العدالة.

قال العم "أناغنوستيس"، وهو يرفع يده بالتحية: «مرحبًا بحضوركم، يا أبناء بلدنا، متعكم الله بالسعادة! فكلوا واشربوا، ولتكن معكم الأمنيات الطيبة وبركة الله، ولكن لا تصيحوا بأصوات عالية، فهذا مما يخجل ويجلب الخزي. فالميت يسمع... أجل يسمع، يا أبنائي!». وتحدث "كوندومانوليوس" مفسرًا: «لقد جئنا بالفعل كي نسجل ممتلكات المرحومة، من أجل أن نوزعها على فقراء القرية.-لقد أكلتم ما طاب لكم وشربتم ما شئتم! فحذار أن تنسلوا خفيةً وتسرقوا شيئًا، أيها الأوغاد التعساء، وإلا فسينالكم الأذىِ على يدي!». قال هذا ثم لوح بهراوته على نحو مخيف.

وخلف كبراء القريةِ ووجهائها الثلاثة، بدأت حفنةُ من النسوة تفد وتهل: كانت شعورهن غير ممشطة، ولا يلبسن نعالاً في أقدامهن، ويرتدين أسمالاً مهلهلة. كانت كل واحدة منهن معها زكيبة فارغة تحت إبطها، أو كانت تحمل سلة على ظهرها. كن يقتربن خلسةً بخطوات ناعمة، وهن صامتات. التفت العم "أناغنوسيتس" فرآهن، فاشتعل غضبًا وصاح: «إيه، أيتها الوضيعات، ارجعن إلى الخلف! ماذا تُردن؟ ولماذا جئتن في هذا الهجوم الكاسح؟ إننا هنا نسجل كل شيء في الأوراق، وبعدها سوف نوزع ما نسجله على الفقراء والمعوزين بنظام ، وبالعدل والقسطاس. فهيا ارجعن إلى الخلف، أقول لكن، وإلا انهلت عليكن ضربًا بالهراوة!».

تقدم المدرس من وسط الكبراء، وهو يضع في زناره القلم النحاسي الطويل، وثنى فرخ ورق سميك، والتفت ناحية المحل، وبدأ من هناك التسجيل. لكن- في تلك اللحظة- سُمعت صرخة مرعبة، ارتطمت على

أثرها البراميل، وتدحرجت البكرات (= البوبينـات)، وتـدافعت الفنـاجين وتحطمت. ومن داخل المطبخ سمعت ضجة شديدة جراء سقوط القلاَّيـات والأطباق والشوك. فاندفع "كوندومانوليوس" العجوز وهـو يلـوح بهراوتـه؛ ولكن أنَّى له أن يتدارك ما حدث! إذ اندفع مـن الأبـواب رجـالٌ وسـيدات عجائز، وصبية وغلمان، هرعوا وقفـزوا مـن النوافـذ ومـن الأسـوار، وهـم يقلبون المكان رأسًا على عقب، ويحمـل كل مـنهم مـا يقـدر على حملـه، ومـا ينجح في الوصول إليه وسلبه: طاسات، كـسرولات، حـشيات، أرانـب... بـل إن نفراً منهم قاموا باقتلاع الأبواب والنوافذ من مفـصلاتها، وحملوهـا على أكتافهم. أما "ميميثوس"، فقـد اسـتولى بـدوره على خفـين كانـا للمرحومـة، وربطهما برباط لفه حول عنقه، حتى لتخاله ممتطيًا صـهوة جـواد، وواضـعًا على رقبته مدام أورتانس، وهو يلـوذ بـالفرار؛ ولـم يأخـذ "ميميثـوس" مـن الغنيمة سوى هذين الخفين...

قطب المدرس حاجبيـه واكفهـر وجهـه، ووضـع القلـم مـرةً أخـرى في حزامه، وطوى فرخ الورق السميك دون أن يسجل فيه شـيئًا على الإطـلاق، وأحس كأن كرامته قد امتهنت، وأن كبرياءه قد انجـرح، وخطـا نحـو عتبـة الباب وانصرف لحال سبيله. أما العـم "أناغنوسـيتس" منكـود الحـظ، فقـد أخذ يصيح ويستعطف، ويلوح بهراوته دون جـدوى، وهـو يقـول في يـأس وقنوط: «أفلا تخجلون مـن أنفـسكم، يـا أولاد؟ أفـلا تـشعرون بـالخزي؟ قلت لكـم إن الميـت يـسمع!». وقـال "ميميثـوس": «هـل أذهـب لأحـضر القس؟». فقـال له "كونـدومانوليوس" وهـو يزمجـر غـضبًا: «أي قـس، أيهـا الغبي المنكود؟ لقد كانـت المرحومـة فرنـسية؛ ألـم تـر كيـف كانـت ترسـم

علامة الصليب؟ لقد كانت ترسم علامة الصليب بأربعة أصابع، هذه المحرومة من رحمة الكنيسة! اصبر حتى نهيل عليها الرمال وندفنها، كي لا تدنس القرية وتلوثها!».

قال "ميميثوس" وهو يرسم علامة الصليب: «انظرا، لقد بدأ الدود يزحف إليها، وحق الصليب!». وهز العم "أناغنوسيتس" رأسه المهيبة النحيلة، وقال: «هل يبدو لك هذا أمرًا غريبًا، أيها المخبول الأخرق؟ إن الإنسان حقا مليء بالدود منذ ساعة مولده، ولكنه لا يرى هذا الدود بعينيه؛ ولكن ما إن يرَ الدودُ أننا بدأنا نصبح جيفًا، يخرج من جحوره، ويفد سريعًا وهو أبيض اللون مثل الجبن!».

بزغت نجوم المساء الأولى، وتعلقت في الفضاء السماوي وهي تهتز وكأنها أجراس فضية صغيرة، وأخذت تبرق طول الليل؛ أنزل زوربا قفص الببغاء من مكانه، ووضعه على سرير المتوفاة. وكان الطائر اليتيم قد انكمش على نفسه في ركن من أركان القفص وهو يرتجف، كان يتأمل ويتطلع إلى ما حوله، لكنه كان عاجزًا عن الفهم؛ فدفن رأسه بين جناحيه وجثم متقوقعًا على نفسه. وعندما أنزل زوربا القفص، ارتعد الببغاء وقفز من مكمنه، وكأنه كان يريد أن يتكلم، غير أن زوربا مد راحته نحوه وهو يحدثه برقة ويداعبه: «صمتًا... صمتًا... هيا معي، فسنذهب سويًّا!».

انحنى زوربا وتطلع إلى المرأة الميتة، وظل يتفرس فيها لوقت طويل، ورقبته ملوية تجاهها؛ وهَم بأن ينحني أكثر كي يقبلها، بيد أنه كبح جماح رغبته، وغمغم: «وداعًا! مع السلامة!». قال هذا ثم حمل قفص الببغاء، وخرج إلى الفناء، فوقع بصره عليَّ واقترب مني، وقال لي بصوت هامس

بطيء، وهو يمسك بذراعي: «هيا بنا نرحل!». كان يبدو عليه الهدوء، لكن شفتيه كانتا ترتعشان من فرط الحزن. فقلتُ له كي أعزيه في مصابه: «كلنا سوف نمضي في هذا الطريق، ونسلكه لا محالة...».

فصفر بسخرية وتهكم، وقال: «يا لَه من عزاء مضحك!. هيا بنا نرحل!» فقلت: «اصبر، يا زوربا، فهم الآن ذاهبون لحملها. اصبر وانتظر لنحضر الجناز... أفلا تتحمل؟». فأجاب بصوت مختنق: «أجل أتحمل أتحمل...»، ووضع القفص على الأرض، وعقد ساعديه على صدره. ومن غرفة الراحلة توافد كل من العم "أناغنوسيتس" و"كوندومانوليوس" ورأساهما حاسرتان، ورسما علامة الصليب. ومن خلفهم كان يسير أربعة من الراقصين المحترفين، وكل منهم يحمل وردة من ورود الربيع خلف أذنه؛ كانوا منتشين في جذل وثملين إلى حد ما، وكانوا يحملون الباب الخارجي من أركانه الأربعة، حيث كانت الميتة مسجاة فوقه. ومن خلفهم كان يسير عازف القيثارة ومعه قيثارته، وحفنة من الرجال وهم منشرحو الصدور، وهم لا يزالون يلوكون الطعام في أفواههم، ومن بعدهم كانت هناك خمس أو ست سيدات تحمل كل منهن طاسًا أو كرسيًا، وفي النهاية، كان يسير "ميميثوس" وفي رقبته الخفان معلقين، بعد أن حال لونهما وشارفا على البلى. كان "ميميثوس" يصرخ ويضحك في آن واحد، قائلًا: «أيها القتلة! أيها القتلة! أيها القتلة!».

أخذ هواء دافئ رطب يهب، وبدأ البحر يهيج ويهدر صاخبًا، ورفع عازف القيثارة قيثارته، وراح يغني بصوت مرح خافت انسيابي، أخذ يتدفق وسط الليل الدافئ:

«آه يا شمسي، ها أنت ذي متعجلة، تسرعين نحو الغروب...»

وقال زوربا: «هيا بنا نرحل!... فكل شيء قد مضى وانتهى...».

(24)

تقدمنا في سيرنا أنا وزوربـا دون أن ينـبس أحـدنا ببنـت شـفة خـلال الطرقـات الـضيقة للقريـة. كانـت المنـازل ملتفـة في الظـلام، وفي بعـض الأحيان كنا نسمع صوت نباح كلب يعوي، أو صوت ثـور يخـور، وفي أحيـان أخرى كان يتناهى إلى أسماعنا صوت عزف القيثـارة، بعـد أن يحملـه إلينـا الهواء وهو يهب في جذل وانشراح، منسابا مثل المياه الرقراقـة. خرجنـا مـن القرية، وسلكنا الطريق المؤدي إلى الساحل حيث السقيفة.

وقلتُ لأقطع حبل الصمت الثقيل بيننـا: «زوربـا، أي ريـح هـذه الـتي تهبُ علينا؟ هل هي ريح الجنوب؟». غـير أن زوربـا كان يمـضي في سـيره إلى الأمام وهو يحمل قفص الببغاء مثل الفنـار، فلـم يـرد على سـؤالي. وعنـدما وصلنا إلى ذلك الجزء من الساحل القريب من مقـر إقامتنـا، التفـتَ زوربـا نحوي وسأل: «هل أنت جائع، يا رَيس؟» فقلت: «لا، لستُ جائعًا، يا زوربـا». فسأل من جديد: «هل تشعر بالنعاس؟»؛ فقلت: «لا!»؛ فقال: «ولا أنا! دعنـا إذن نجلس فوق الحصى، فعندي موضوع أريد أن أسألك عنه».

كنا كلانا مرهقين، بيد أننا لم نكن نحس برغبة في النوم، كما لم نكن نريد أن تضيع من أذهاننا مرارة هذا اليوم الكئيب؛ كان النوم يبدو لنا بمثابة مهرب في ساعة الخطر، ولذا كنا نخجل من أن نستسلم للنوم. جلسنا كلانا عند الطرف البعيد للبحر، ووضع زوربا قفص الببغاء بين ركبتيه، وظل صامتًا برهة من الوقت. وآنذاك، صعدت كوكبة نجمية من الأفق خلف الجبل، وكانت على هيئة مسخ له عيون لا يحصيها العد وذيل معقوف؛ وما بين الفينة والأخرى، كانت نجمة تنفصل عنها، ثم تهوي ساقطة.

رنا زوربا إلى النجوم، وكان فمه المشدوه مفتوحًا، وكأنه يرى هذا المنظر لأول مرة في حياته، وغمغم: «ماذا عسى أن يحدث هنا في السماء؟». وما لبث بعد فترة أن اتخذ قرارًا بالتحدث، فقال وصوته يتخذ نبرة رسمية، بعد أن أحس بالتأثر إبان هذه الليلة الدافئة: «هل يمكنكَ أن تخبرَني، يا رَيس، أو أن تفسرَ لي ماذا عسى أن تعني هذه الأمور التي نحن بصددها؟ ومَن هذا الذي فعلها؟ ولماذا فعلها؟ وقبل هذا كله (وكان صوت زوربا آنذاك زاخرًا بالغضب والفزع) لماذا نموت؟».

فقلت ردًّا عليه: «لا أدري، يا زوربا!». غير أنني أحسستُ بالخجل، وكأنهم سألوني عن أبسط أمر من الأمور، وعجزتُ عن الإجابة أو التفسير. فقال زوربا، وقد حملقتْ عيناه في ذهول: «لا تعرف!». كانت عيناه قد حملقتا ذات ليلة مضتْ بالطريقة نفسها، حينما سألني عما إذا كنت أرقص، وأجبته بأنني لا أعرف الرقص. مضتْ هنيهة، ثم انفجر صائحًا على حين غرة: «إذن، فما فائدة هذه الصفحاتِ القديمة البائسة التي تداوم على

قراءتها؟ ولماذا إذن تقرأها؟ ما دامت لا تجيب على هذا السؤال! فماذا عساها أن تقول في موضوعنا هذا؟». فأجبته بقولي: «إنها تتحدث عن ضيق الإنسان وتبرمه، وذلك لأنه عاجز عن الإجابة على هذه الموضوعات التي تسأل عنها يا زوربا».

فقال زوربا، وهو يضرب الصخور بقدمه في حنق وغضب: «فليذهب إذن هذا التبرم الذي به يضيقون إلى الجحيم!». فقفز الببغاء لدى سماعه هذه الأصوات التي ارتفعت فجأةً، وأخذ يردد: «كاناڤارو! كاناڤارو!»، وشرع يصرخ وكأنه يبحث عن العون والمساعدة. فرد عليه زوربا، بعد أن وجه لكمة من قبضة يده إلى القفص: «اغلق فمك يا هذا، عليك اللعنة!»؛ ثم التفت نحوي مرةً ثانية، وقال: «أنا أريد أن تخبرني من أين جئنا، وإلى أين نحن ماضون، وحق حياتك عندي! فأنت قد أنفقت سنين طوالاً في الانكباب على قراءة الكتب الصفراء، كتب الجن والعفاريت والسحر الأسود؛ ولا ريب أنك قد اعتصرت ثلاثة آلاف أقة من الورق حتى الآن؛ فما هي الخلاصة، وما هي العصارة التي استخرجتها؟».

كان صوت زوربا مشحونًا بالعذاب الشديد والمعاناة الفائقة، لدرجة أن أنفاسي توقفتْ، وقلتُ في نفسي: «آه لو كان بوسعي أن أعطيه إجابة تشفي الغليل!». وأحسست بعمقٍ أن أسمى شيء يمكن أن يبلغه الإنسان ليس هو المعرفة، ولا الفضيلة، ولا الخير، ولا النصر! ولكنه شيء آخر أسمى وأعلى مقامًا، وأكثر بطولة وأشد اتصافا بالقنوط: إنه الخوف، أو الفَرَقُ القدسي! فما هو الشيء الذي يتجاوز هذا الفَرَق القدسي، أو يعلو عليه؟ إن عقل الإنسان عاجز عن التقدم بعد هذه النقطة. وقال زوربا بصوت

مشحون بالعذاب: «أوَ لَن تجيب؟» فحاولت أن أعطي لرفيقي ردًّا يفهم منه ماذا يعني الفَرَق القدسي، فأجبتُ:

«إننا، يا زوربا، مجرد ديدان صغيرة ضئيلة تقف فوق وريقة من شجرة هائلة في ضخامتها، وهذه الوريقة هي الأرض التي نعيش عليها، أما الورقات الأخريات، فهي النجوم التي تراها وهي تتحرك في هدأة الليل. إننا نزحف على وريقتنا هذه، ونهفو إليها باشتياق؛ نشمها وتضوع هي برائحة طيبة كما تفوح برائحة ما هو دنس؛ ونحن نتذوقها ونأكلها ونضربها، فتردد صدى الضربة وتصرخ، كما لو كانت كائنًا حيًّا. وهناك نفرٌ منا- وهم الذين يتصفون بالإقدام وعدم الخوف- يصلون حتى آخر نقطة في الوريقة؛ ومن هذه النقطة الأخيرة ننحني، وعيوننا مفتوحة على اتساعها، وآذاننا مفتوحة على مصراعيها، لنطل على الفراغ المخيف، فنرتجف وتقشعر جلودنا خوفًا. فنظل نخمن ونتكهن عن هذه الوهدة التي في الأسفل وتبث الفزع في القلوب، ونسمع- على فترات متباعدة- الحفيف الذي يصدر عن الأوراق الأخرى المتناثرة على الشجرة الضخمة الهائلة، فنظن أن هذا هو صوت العصارة الصاعد من جذور الشجرة الذي يروي قلوبنا ويمدها بالغذاء. وهكذا نظل منحنين نُطل على الوهدة أو الهوة السحيقة، فتنجلي أمامنا الحقيقة بحذافيرها، ونفهم ما كان خافيًا عنا، فيتملكنا الرعب، ويهيمن علينا. ومنذ تلك اللحظة يبدأ......».

وتوقفتُ عن الكلام، إذ كنت أريد أن أقول: «ومنذ تلك اللحظة يبدأ الشِعْر»، ولكن زوربا لن يفهم ماذا أعني، فتوقفتُ عن الكلام. فسأل زوربا باشتياق: «ما الذي سيبدأ؟ لماذا توقفت؟» فقلتُ: «يبدأ الخطر

الأعظم؛ يا زوربا. فالبعض تزوغ منهم الأبصار، ويهرفـون بمـا لا يعرفـون، والبعض الآخر يخافون ويرهقون أنفسهم بغية الحصول على إجابة تـشد مـن أزرهم، وتُقوي قلوبهم، فيقولون "الله"؛ وهنـاك نفـر آخـرون يطلـون- مـن آخر نقطة في الورقة- على الوهدة السحيقة بهدوء وجنان ثابت، وقلـب غـير هياب ولا وجل، ويقولون "إن هذا يروق لي"».

فكر زوربا، وراح يقلب الأمر على وجوهـه برهـةً مـن الـزمن، ويرهـق نفسه كي يفهم ما سمع، ثم قال في خاتمة المطاف: «إنـني أتأمـل- كل لحظـة- الموت؛ أتأمل وأفزع؛ ومع ذلك، فبـين الحـين والآخـر أقـول لنفـسي: "هـذا يروق لي. لا! بل إنه لا يروق لي البتة! أوَ لَست حُرًّا؟ لن أُوقِّع ولـن أوافـق!"». وصمتَ قليلاً، ثـم صـاح مـن جديـد في تعجـل: «لا! لـن أسـلم عـنقي إلى خاروس(*)، مثل الحمل الوديع، وأقول له: "اذبحـني، أيهـا الأغا(**)"، وليتقـدس اسمك!».

لزمتُ الصمت، فلو أنك قلت "نعم" وقت الضرورة، مـن أجـل أن تحـول أمرًا- لا مهرب منه ولا فكاك- ليكون إرادتك الحـرة الـتي تخـصك، فربمـا يكون هذا هو السبيل الوحيد للتحرر. كنت أعـرفُ هـذا، ولهـذا الـسبب لزمتُ الصمت. وعندما لاحظ زوربا أنه لم يعد عنـدي شيء آخـر أقـوله له، حمل القفص بهدوء ورقة، كي لا يوقظ الببغاء، ووضعه بجانب رأسـه وتمـدد راقدًا، ثم قال: «تصبح على خير، يا رَيس، يكفي هذا».

(*) سبق القول إن خاروس – عند اليونان – هو ملك الموت، أو المعداوى الذى يوصل أطياف الموتى إلى مقرهم الأخير. [المترجم].

(**) "الأغا" لقب تركى بمعنى السيد، ولكنه مألوف فى اللغة اليونانية. [المترجم].

كانت ريح الجنوب دافئة، إذ كانت تهب علينا من مصر، وكانت تنضج الخضروات والفواكه في جزيرة كريت. كنت أتقبل هبوبها على جبهتي وشفتيَّ وعنقي، إذ كانت تصدر صريرًا، وتجعل عقلي يكبر ويتعاظم. لم أستطع أن أستسلم للنوم، أو يغمض لي جفن، ولعلي لم أكن أريد النوم. لم أكن أفكر في شيء بالتحديد، بل كنت أحس فقط في مثل هذه الليلة الساخنة بوجود شيء في أعماقي، أو شخص ينضج داخلي. كنت أشاهد وكنت أعايش بوضوح ونقاء هذا المشهد المبهر: وهو أنني أتغير. فما كان يحدث دومًا في الأغوار المظلمة من قلوبنا، يحدث الآن بجلاء ووضوح وبلا مواربة أمام عيني، وأنا رابض على طرف الساحل أرقب المعجزة. برقت النجوم وأضاءت صفحة السماء، وفي ضوئها خُطَّتْ، بقلم رصاص رفيع السن، الجبال والأشجار وطيور النورس.. فلقد انبلج الفجر.

مرت بضعة أيام، كانت إبانها البذور التي أُلقيت في التربة قد نمت وتجسدت، وأحنت رؤوسها المثقلة بالثمار؛ أما زيزان الحصاد فوق أشجار الزيتون فكانت تنشر الهواء وتشقه بأرجلها، وأما الهوام المضيئة فكانت تدور في دوامات حول الضوء المنبعث من النيران؛ وأما البحر فكان يضطرم ويفور. كان زوربا قد بدأ العمل منذ فترة البكور، قبل شروق الشمس، على الجبل، وكان يعمل وهو صامت تمامًا؛ وكانت مراحل إقامة الخط الهوائي لنقل الأخشاب قد انتهت تقريبًا، فقد غُرِستْ الأعمدة، ومُدَّ السلك المعدني، وتم تعليق البكرات (= البوبينات)، وعاد زوربا من عمله ليلاً وهو لاهث الأنفاس؛ فأضرم النار وأخذ يطهو الطعام، وأكلنا، وبعدها هجعنا كي نوقظ الأرواح العظمى داخلنا: العشق، الموت، والرعب. لم

نتحدث بكلمة عن الأرملة، ولا عن مدام أورتانس، ولا عن الله، بل كنا مثل البُكم، وكلانا يرمق البحر أو يرنو مليًا إليه.

وذات صباح، نهضتُ من نومي واغتسلتُ، مثلما استيقظتْ الدنيا واغتسلتْ، وتلألأتْ وكأنها جديدة تماما، ثم اتخذت طريقي نحو القرية؛ كان البحر عن يساري ساكنًا هادئًا ولونه أزرق داكن، وعن يميني كانت عيدان القمح وسنابله منتصبة في صفوف، وكأنها صواري أعلام ذهبية. تجاوزت في سيري شجرة التين التي تقع في بستان السيدة النبيلة ذات المقام الرفيع في القرية، وكانت الشجرة زاخرة بالأوراق الخضراء، ومثقلة بثمار التين الخضراء الصغيرة، ومررت بسرعة على بستان الأرملة، دون أن ألتفت نحوه أو ألقي عليه نظرة، ثم دلفت إلى القرية. ووجدت الفندق الصغير، الذي كانت تملكه الراحلة مدام أورتانس، مهجورًا مقفرًا كالطفل اليتيم الذي فقد أمه الحبيبة؛ كانت أبوابه ونوافذه منزوعة بعد أن استولى عليها الدهماء، وكانت الكلاب تمرح جيئةً وذهابًا في الفناء، وكانت الحجرات فارغة ومحطمة. أما الحجرة التي قضت فيها السيرينية العجوز نحبها، فكانت خاوية على عروشها، فلقد اختفى منها السرير والصندوق والكراسي؛ إذ كان المتاع بأسره قد جرى نهبه وسلبه، ولم يبق فيها سوى شريط سبق استخدامه كان ملقى في إحدى الزوايا، وكذلك "بانتوفلي" بِشُرَّابة حمراء. كان هذا "البانتوفلي" مخلصًا وفيًّا لسيدته، إذ ظل- حتى الآن- متخذًا شكل قدمها؛ وبذلك كان هذا "البانتوفلي" التعِس أكثر تعاطفًا مع سيدته الراحلة من أرواح البشر المخالطين لها، إذ لم يكن قد نسي بعد قدم محبوبته، الذي تعذب عذابًا طويلاً مبرحاً.

تأخرت في رجوعي إلى السقيفة، وكان زوربا قد أشعل بالفعل النار، وأخذ يتأهب لطهي الطعام؛ وبمجرد أن رفع رأسه ورآني، أدرك مِن أين قدمتُ لتوي، فقطب حاجبيه. فبعد انصرام كل هذه الأيام الكثيرة، فتح زوربا الليلة قلبه من جديد، وتكلم وكأنه كان يريد أن يجد لنفسه مبرراً أو مسوغاً: «إن كل ألم، يا رَيس، يمزق قلبي إربًا، غير أن الجرح- هذه المرة- كان داميًا عميقًا، ضربني في مقتل دون أن يظهر أو يبدو للعيان؛ فجسمي الآن زاخرٌ بجراح غير منظورة، ولهذا أتحمل». فقلتُ بطريقة بدت مباغتة، ولم تكن متعمدة من جانبي: «هل نسيت، يا زوربا، بهذه السرعة منكودة الحظ الراحلة "بومبولينا"؟».

فتضايق زوربا، وتكلم بصوت مرتفع صائحًا: «إنني اتخذتُ طريقًا جديدًا، وعندي خطط جديدة، إذ توقفتُ عن تذكر أحداث الأمس وعن التعلق بها، كما توقفتُ عن نشدان أحداث الغد؛ وما يهمني ويعنيني هو ما يحدث الآن، أعني ما يحدث في هذه اللحظة. وأقول لنفسي:

"-ماذا تفعل الآن، يا زوربا ؟

-أنام. . .

-نم إذن، فهذا أمر مقبول !

-ماذا تفعل الآن، يا زوربا ؟

-أعمل. . .

-اعمل إذن، فهذا أمر حسن !

--ماذا تفعل الآن، يا زوربا ؟

-أحتضن امرأة.

-احتضنها إذن، فهذا أمر طيب، يا زوربا، وانس كل شيء عداها، وليس هناك شيء آخر له وجود في الدنيا. لا يوجد إلا أنت وحدك. فانطلق!».

ثم صمت برهة، وعاود الحديث: «عندما كانت "بومبولينا" حية، لم يحقق لها أي "كاناڤارو" مثل هذه البهجة الوافرة التي وهبتها لها أنا الذي تراني أمامك، أنا زوربا المسن الذي يرتدي الخرق والأسمال. ستقول لي لماذا؟ وأقول لك لأن كل "كاناڤارو" - مِن الذين عرفتهم "بومبولينا" - كان يحبها؛ وفي اللحظة ذاتها التي كان يحبها فيها، كان يفكر في أسطوله وفي جزيرة كريت وفي الملك، ويفكر في نياشينه وأوسمته وفي النساء الأخريات. أما أنا، فكنت - وأنا معها - أنسى كل شيء عداها، وكانت هذه الملعونة تدرك ذلك؛ ولك أن تعلم، أيها العالم الحكيم المثقف، أنه لا توجد عند المرأة متعة أو بهجة أعظم من هذه، أي أن تنسى الدنيا وأنت في أحضانها! ولك أن تعرف أن المرأة الحقة تبتهج بالفرحة التي تمنحها للرجل أكثر من الفرحة التي تتلقاها من الرجل».

قال هذا ثم انحنى ووضع مزيدًا من قطع الأخشاب في زاوية الموقد، وبعد هنيهة قال: «بعد غد، سوف نحتفل بتدشين الخط الهوائي لنقل الأخشاب؛ فما عدتُ أسير الآن على الأرض، بل أصبحتُ هوائيا، وأحس أن على كتفي تستقر البكرات!».

فقلت له: «هل تتذكر، يا زوربا، الطعْمَ الذي ألقيته إليَّ فيما مضى في المقهى الذي جلسنا فيه في ميناء بيرايوس (= بيريه)، لكي توقعني في الشَّرك وتصيدني، عندما قلت لي إن بوسعك إعداد نوع من الحساء تتناوله الأم

ولا تعطيه للإبن- وتصادف أن أصبح هذا هو بالضبط الطعام الذي أحبه أكثر من أي طعام آخر؟ كيف عرفت ذلك، بالله عليك؟». فهز زوربا رأسه وقال: «وهل أعرف أنا هذا، يا رَيس؟ هكذا خطرت لي الفكرة. فما إن رأيتك جالسًا في زاوية المقهى، وأنت منكمش على نفسك في هدوء، ومنكبًا- وأنت ترتعش- على قراءة كُتيب ذي غلاف مذهب، قلت في نفسي إنك قد تحب الحساء. هكذا واتتني الفكرة، ولم يك صعبا عليَّ أن أخمن».

صمت برهة من الوقت، وأرهفَ السمع، ثم قال: «صمتًا، إن هناك شخصًا في طريقه إلينا!». فتناهت إلى أسماعنا أصوات خطوات متعجلة، وصوتُ لهاثٍ ثقيل صادر عن شخص يجري. وفجأة شاهدنا- على انعكاس ضوء النار- راهبًا يظهر أمامنا، مرتديًا رداءً كهنوتيًا ممزقًا، حاسر الرأس، لحيته مسفوعة، وله نصف شارب فقط؛ كانت تنبعث منه رائحة الكيروسين، وما إن رآه زوربا حتى صاح مهللاً: «أهلا بك، يا هذا، أهلاً بك أيها الأب زكريا! أهلاً بك أيضاً، أيها الأب يوسف! ماذا حدث لك؟ وما هذه الحال المؤسفة التي أنت عليها؟».

تكوم الراهب منهارًا على الأرض بجوار الموقد، وكان فكاه يصطكان وجسمه يرتعد؛ انحنى زوربا عليه ليتبين ما اعتراه، وغمز له غمزة ذات معنى بعينه، فأجاب الراهب: «أجل». قفز زوربا طربًا وابتهاجًا، وقال: «مرحبًا بك، أيها الراهب! ستذهب الآن إلى الفردوس، فقد نجوتَ، وستحملُ في يدك برميلاً من البترول». فغمغم الراهب، وهو يرسم علامة الصليب: «آمين... آمين...». فقال زوربا: «كيف حدث لك ما حدث؟

ومتى؟ تكلم!».

فقال الراهب: «لقد رأيتُ كبيرَ الملائكة ميكائيل، يا أخي كاناڤاروس؛ وتلقيت منه أمرًا وتكليفًا. فاسمع مني ما حدث: كنتُ في المطبخ أقوم بتنظيف الفاصوليا؛ وكنتُ وحدي تمامًا والباب موصد، وكان الرهبان يؤدون صلاة الغسق، والهدوء الغامر يسدل أستاره. وكنت أستمع إلى تغريد الطيور التي كانت تبدو لي مثل الملائكة؛ وكان السكون يغمرني بعد أن أعددتُ كل شيء، ومكثتُ أنتظر. وكنتُ قد اشتريتُ برميل كيروسين، وخبأتهُ في الكنيسة الصغيرة، الموجودة في المدافن، تحت المائدة المقدسة كي يباركه كبير الملائكة ميكائيل.... قمتُ إذن بتنظيف الفاصوليا ساعة الأصيل، وكنت قد وضعت في ذهني جنة الفردوس، وكنتُ أقول لنفسي: "يا مسيحي الأعز، دعني أطالب بحقي في ملكوت السماوات، واسمح لي أن أنظف شراريب البصل في مطابخ الفردوس الأبدي!". كنت أفكر في تلك الموضوعات، وكانت دموعي تسيل على وجنتيَّ مدرارا. وساعتها، سمعت فجأةً صوت خفقان أجنحة من فوقي؛ وأدركت كنهها، فأحنيت رأسي، وسمعت آنذاك صوتًا يقول لي: "يا زكريا، افتح عينيك وانظر إليّ، ولا تخش شيئا!"، ولكنني ارتجفت وهويت ساقطًا على الأرض. وسمعتُ مرةً أخرى الصوت يقول لي: "افتح عينيك، يا زكريا، وانظر إليّ!". فرفعت نظري، وشاهدت أن الباب قد انفتح، وكان على عتبته كبير الملائكة ميكائيل واقفًا، مماثلاً للهيئة ذاتها المرسومة على باب الهيكل: كان جناحاه أسودان، وكان حذاؤه ذو الرقبة (التُزلك) ذا لون أحمر، وكانت خوذته من الذهب. ولم يكن يختلف عن صورته في شيء إلا في كونه لم يكن يحمل سيفًا، بل

كان يحمل شعلة يتصاعد منها اللهب، وقال: "سلامًا وتحيةً، يا زكريا!". فأجبته: "ها أنذا عبد الله، لبيك فمُرني أُطع!". قال: "خذ هذه الشعلة المتوهجة، والله معك". وبعدها اختفى كبير الملائكة؛ وشاهدت فقط- عندما نظرت من الباب- خطاً متقداً في صفحة السماء، كأنه مذنب يختفي، أو كأنه شهاب ساقط».

مسح الراهب العرقَ من محياه، وكان وجهه قد غدا باهتًا ممتقعًا وأسنانه تصطك بشدة، وكأنه مصاب بحمًّى فتاكة. فقال له زوربا: «وماذا بعد؟ تشجع! تشجع!». فأردف الراهب مكملاً حديثه: «وفي تلك الساعة، خرج الرهبان بعد أن فرغوا من أداء صلاة الغسق، وتحلقوا حول المائدة. وعندما مر بي رئيس الدير، ركلني بقدمه كما لو كنت كلبًا أجرب؛ وضحك الرهبان ملء أشداقهم، أما أنا فلم أنبس ببنت شفة. كان الهواء لا يزال يفوح برائحة الكبريت جراء مروق كبير الملائكة به؛ بيد أن أحدًا منهم لم ينتبه إلى ذلك. جلسوا إلى المائدة إذن، فقال لي المشرف على إعداد المائدة: «يا زكريا، أفلن تتناول طعامك معنا؟». فلم أحر جوابا. فقال "ذوميتيوس" اللوطي: «إنه شبعان من كثرة تناول خبز الملائكة!»، فقهقه الرهبان وتعالت ضحكاتهم مرةً أخرى. أما أنا فنهضتُ واقفًا ويممتُ شطر المدافن، وطرحت نفسي عند قدمي كبير الملائكة، وعفرت وجهي وأنفي بالتراب، وشعرتُ بثقل قدميه وهو يقف بهما فوق رقبتي ويدوسها. مرت الساعاتُ كالبرق الخاطف، فعلى هذا النحو الخاطف تمر الساعاتُ والقرون في جنة الفردوس. كان الليل قد انتصف، وكان الرهبان يغطون في نومهم، عندما نهضتُ واقفًا ورسمت علامة الصليب على صدري، ولثمت قدم كبير

الملائكة. ثـم قلـت: «فلتتحقـق مـشيئتك، يـا ربا»، واختطفـتُ برميـل الكيروسـين وفتحتـه، ومـلأتُ حـضني عـن آخـره بـالخرق، وخرجـت إلى الطريق. كان الظلام دامسًا والليل حالكًا، ولم يكن القمر قـد سـطع بعـد، وكان الديـر متـسربلاً بـسواد داكـن وكأنـه الجحـيم. دلفـتُ إلى الفنـاء وصعدتُ السلم، ووصلتُ إلى مقر رئـيس الديـر. وسـكبت الكيروسـين على الباب وعلى النوافذ وعلى الجدران، وعـدوت حـتى بلغـت صـومعة الراهـب "ذوميتيوس"، وبدأت من هناك أصب الكيروسـين صـبًّا على الـصوامع، وعلى الشرفات المسقوفة التي التقيتَ بي عنـدها وأنـا أتجـول. وبعـدها ولجتُ في الكنيسة، وأوقدتُ شمعة من قنـديل المـسيح، وأضرمـتُ فيهـا النـار حـتى استعرتْ.....».

صمتَ الراهب وهو يلهث، وقدحتْ عيناه بالـشرر، وزمجـر وهـو يرسـم علامة الصليب قائلًا: «ليتمجد اسمك، يا الله! ليتقـدس اسـمك، يـا الله!". "وفي التو، استعرتْ ألسنة النار في الدير. فصحتُ بـصوت عالٍ: "اسـتعري يـا نار من الخارج!"، ولذتُ على أعقابي بالفرار. أخذت أعدو وأعدو وأنا أسـمع الأجراس تدق، والرهبان يصيحون؛ أمـا أنـا، فكنـت أجـري وأجـري، دون توقف.... بزغ ضوء النهار، فاختبأتُ في الغابـة، وأخـذت أرتعـد، وأشرقـتْ الشمس، وكنتُ آنذاك أسمع صوت الرهبان وهم يجـرون في أعمـاق الغابـة، وهم يبحثـون عـني؛ ولكـن الله ألـقى فـوقي ثلجًـا وصـقيعًا أخفـاني عـن الأبصار فلم يشاهدوني. وعند الغسق، سمعت- مـرةً أخـرى- صـوتًا يقـول لي: "اهـبط إلى الـساحل، ولُذْ بـالفرار!". فـصحتُ بـصوت عالٍ: "يـا كبـير الملائكة، سَدد خطاي!"، واتخذت طريقي هابطًا صـوب الـساحل. لـم أكـن

أدري إلى أين أنا ماضٍ أو متجه، إذ كان كبير الملائكة هو الذي يوجه خطاي: تارةً في هيئة نور لامع، وتارةً في صورة طائر أسود اللون وسط الأشجار، وتارةً أخرى في هيئة طريق ضيق هابط. وأنا أعدو بلا توقف، أعدو خلفه في ثقة وإيمان؛ وأنظر! فيا لَسعادتي وغبطتي القصوى! فلقد عثرت عليك، يا عزيزي كاناڤاروس، ونجوت بفضل الله وعونه».

لم يتكلم زوربا ولزم الصمت، ولكن ارتسمتْ على وجهه بأسره ضحكة عريضة هادئة، بيد أنها شيطانية؛ وفغر شدقيه على اتساعهما إلى أن وصلا إلى أذنيه المكسوتين بالشعر، الشبيهتين بأذني حمار. كان الطعام قد صار ناضجًا الآن، فأنزله من على الموقد وقدمه لنا، وقال: «يا زكريا، ما هذا؟ أليس خبز الملائكة؟» فأجاب الراهب، وهو يرسم علامة الصليب: «إنه روح». فقال زوربا: «ألا تعني كلمة روح فى سياق آخر "هواء"؟ إنها لا تسمن ولا تغني من جوع، يا عزيزي المسيحي، اجلس معنا وكل خبزًا وحساء أسماك، كي تعود الدماء إلى وجهك؛ فلقد أبليتَ بلاءً حسنًا، هيا كُل!». فقال الراهب: «لستُ جائعًا». فقال زوربا: «أجل، زكريا ليس جائعًا، ولكن ماذا عن يوسف؟ أفلا يشعر يوسف بالجوع؟». فقال الراهب بتأن: «وكأن يوسف كان يخفي سرًّا عظيمًا؛ لقد احترق يوسف، فليتقدس اسمك يا الله».

فصاح زوربا، وهو يضحك: «احترق! كيف؟ ومتى؟ وهل رأيته؟». قال الراهب: «يا أخي كاناڤارو، لقد احترق في اللحظة التي أوقدتُ فيها الشمعة من قنديل المسيح. ولقد شاهدتُه بعينيَّ هاتين وهو يخرج من فمي، وكأنه شريط أسود دونتْ عليه حروف من نار؛ لقد سقطت فوقه شعلة الشمعة

فتكوم على نفسه مثل الثعبان، ثم أصبح ترابًا تذروه الرياح. ومنذ ذلك الحين، أحسستُ بالارتياح، فليتقدس اسمك، يا الله! وتخيلتُ أنني دخلتُ بالفعل الجنة». قال هذا ونهض من جوار الموقد حيث كان متكومًا، ثم أردف قائلًا: «سوف أذهب كي أستلقي على الساحل، فهناك صوت داخلي يهيب بي أن أفعل ذلك». وأخذ يسير شيئًا فشيئًا حتى اختفى عن أنظارنا في ظلمة الليل.

فقلتُ لزوربا: «لقد أخذت بخناقه، يا زوربا، فلو أن الرهبان عثروا عليه لهلك» فقال زوربا: «لن يعثروا عليه، لعلمك يا رَيس، فأنا أعرف الكثير عن أسرار البضاعة المهربة. فغدًا- في ساعة مبكرة من الصباح- سأحلق له لحيته، وسألبسه ملابس دنيوية (غير كهنوتية)، وسوف أضعه على ظهر سفينة تبحر به من هنا. فلا تضايق نفسك بمثل هذه التفاصيل التافهة... هل الحساء لذيذ؟ كُل بشهية خبز البشر، ولا تحمل همًّا للحياة، أو تشغل بها بالك».

أكل زوربا طعامه بشهية وشرب بنهم، ثم مسح شاربيه، وأصبح لديه الآن رغبة فى تجاذب أطراف الحديث. فقال: «أرأيتَ؟ لقد مات الشيطان الذي بداخله، وهو الآن خاوٍ تمامًا على عروشه، أجل خاوٍ تماماً، هذا التعس المنكود، فدعه يذهب! لقد انتهى أمر هذا المسكين مثل الآخرين سواء بسواء». وفكر برهة من الوقت، ثم قال فجأةً: «هل كان هذا هو الشيطان، يا رَيس...» فأجبتُه: «بالتأكيد! لقد سيطر عليه هاجس إحراق الدير، فأحرقه، وهو الآن هادئ. هذه الفكرة التي راودته كانت تريد أن تأكل اللحم، وأن تشرب النبيذ، وأن تكبر ويشتد عودها، وأن تصبح فعلاً

متجسدًا. أما الآخر، وأعني به زكريا، فلم تكن لديه حاجة للحوم ولا للنبيذ، إذ أنه شب عن الطوق، وهو يمارس الصوم».

أخذ زوربا يقلبُ المعاني التي قلتُها على وجوهها في ذهنه، ثم قال: «آخ! أعتقد أن عندك حقًّا، يا رَيس، وأظن أن بداخلي أنا أيضًا خمسة أو ستة شياطين!» فقلت له: «بل إننا جميعا لدينا هذا، فلا تفزع ولا تَفْرَق. وكلما كثرت الشياطين داخلنا صار حالنا إلى الأفضل. فيكفي أن يتجهوا جميعًا إلى الهدف ذاته من طرق مختلفة». جعلت هذه الكلمات زوربا يضطربُ ويتحير، فدفن رأسه بين ركبتيه وطفق يفكر مليًّا؛ ثم رفع عينيه نحوي وسألني: «أي هدف؟» فقلت: «وهل تظن أنني أعرف، يا زوربا؟ إنك تسألني أسئلة عويصة، فماذا عسى أن أقول لك؟».

قال: «تحدثْ بكلمات بسيطة سهلة كي أفهمك؛ فها أنذا- حتى الآن- قد أطلقتُ العنان لشياطيني وتركتُها حرةً تفعل ما تشاء، وتسلك أي طريق يروق لها. ومن أجل هذا السبب، فالبعض يقولون عني إنني أفتقر إلى الشرف، وآخرون يقولون إنني شريف، وآخرون يرون أنني أحمق، وآخرون يلقبونني بسليمان الحكيم. مع أنني كل هذا وأكثر، إنني مثل السلاطة الروسية. فنورْنِي إذن لو استطعت، وقل لي أي هدف تعني؟».

فقلت: «أعتقدُ، يا زوربا- وقد أكون مخطئًا في اعتقادي- أن الناس ينقسمون إلى أصنافٍ ثلاثة: صنف يضم هؤلاء الذين يجعلون هدفهم أن يعيشوا حياتهم- كما يقولون- بمعنى: أن يأكلوا ويشربوا ويحبوا ويثروا، ويصبحوا مشاهير ذائعي الصيت. أما الصنف الثاني، فقوامه هؤلاء الذين يجعلون هدفهم هو حياة جميع الآخرين من بني البشر، لا حياتهم هم؛ وهم

الذين يشعرون أن البشر جميعا كُلٌّ واحد، ويجاهدون من أجل تنوير الآخرين، ومحبة الناس، وعمل الخير للآخرين من البشر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. وأما الصنف الثالث والأخير فيتألف من هؤلاء الذين يجعلون هدفهم أن يحيوا حياة الكون، فنحن جميعًا: بشرًا، وحيوانات، ونباتات، ونجوم، وكواكب، نؤلفُ كلاً واحداً، وجوهراً واحدا في حد ذاته، أفلا نتشارك إذن في هذا الصراع المرعب ذاته؟ وهو أن ننمي المادة ونجعلها تتحول إلى روح».

هرش زوربا رأسه، وقال: «إنني رجل عنيد غليظ العقل، ولا يتيسر لي أن أنفذ إلى المعنى بسهولة... فيا رَيس من فضلك، لو كان في مقدورك أن تقول كلماتك هذه لي عن طريق الرقص لفهمت!». عضضتُ على نواجذي من فرط يأسي، وقلت: «هل تقول إن في وسعي أن أرقص لأعبر لك عن هذه الأفكار اليائسة كلها؟»؛ فقال زوربا: «لو كان في مقدورك، يا رَيس، فقُص عليَّ كل هذه الأفكار كأنها حكاية، كما كان يفعل حسين أغا. وكان حسين أغا هذا رجلا تركيا طاعنًا في السن، جارًا لنا. كان مسنًّا جدًّا، وفقيرًا جدًّا، ولم تكن له زوجة ولا أبناء، كان وحيدًا (مقطوعا من شجرة). كانت ملابسه ممزقة وقديمة، ولكنها تبرق من فرط النظافة، فقد كان يغسلها بنفسه، وكان يطهو طعامه، ويمسح أرض مسكنه، وكان يفد ساعة الأصيل إلى منزل والدي، ويجلس في الفناء مع جدتي، ومع السيدات العجائز الأخريات* من جيراننا، وينسج معهن الجوارب على الإبرة. هذا الرجل، أعني حسين أغا، كان رجلا قديسًا، وذات يوم أجلسني على ركبتيه، ووضع يده على رأسي وكأنه يمنحني البركة، أو يدعو لي بالخير، وقال لي: «يا

بني، يا أليكسيس، سوف أُسر إليك بقول فاحفظه عني، فأنت صبي صغير، ولن تفهم ما سوف أقوله لك، ولكنك ستفهمه حينما يشتد عودك، وتشب عن الطوق. فاسمع، يا بني، إن الله لا تتسع له أقطار السماوات السبع، ولا طبقات الأرض السبع، ومع ذلك يتسع له قلب إنسان(*). ومن أجل هذا، ضع في ذهنك، يا أليكسيس، وصيتي هذه، وهي ألا تجرح أبدًا قلب إنسان!».

كنتُ أصغي إلى زوربا دون أن أنطق بكلمة. آه لو كان في مقدوري ألا أفتح فمي لأتكلم، إلا عندما تصل الفكرة المجردة إلى أقصى علو لها، أي عندما تصبح حكايةً تحكى! بيد أن هذا بمثابة صقلٍ سَامٍ يستعصى على التعبير، ولا يمكن أن يحققه سوى شاعر عظيم، أو شعب من الشعوب بعد انصرام قرون كثيرة. نهض زوربا واقفًا، وقال: «إنني ذاهب لأرى ماذا يفعل قبطان سفينة النار هذا، ولسوف أحمل إليه بطانية كي لا يصاب بنزلة برد؛ وسآخذ معي مقصًّا، فهو في حاجة إليه؛ ثم ضحك وأردف قائلًا: «عندما يغدو البشر أناسًا قولاً وفعلاً، فإن زكريا هذا الذي تراه، يا رَيس، سيتخذ مكانه بجوار "كانارَيس"(**)!».

(*) ربما أورد كزَنتزَاكِيس هذه الحكمة نقلاً عن حديث قُدسي ربما سمعه أو قرأه، يقول: «ما وسعني أرضي ولا سمائي، بل وسعني قلب عبد مؤمن». [المترجم].

(**) كونستانتينوس كاناريس Kanares، ولد عام 1793 فى جزيرة "بسارا" Psara، وكان بطلاً مغوراً فى حرب الجهاد ضد الأتراك عام 1821، حيث اشترك فى الحرب بأسطول من سفنه التى كان يمتلكها، وأبلى بلاءً حسناً، ثم عمل بعد ذلك بالسياسة، إذ تقلد منصب رئيس وزارء اليونان خمس مرات على فترات متقاربة، كانت آخرها عام 1877، وهو العام

أخذ زوربا معه بطانية ومقصًّا، وسار تجاه الساحل؛ كان القمر هلالاً، وكان يلقي بسنا ضوئه الخافت الحزين على الأرض المتوعكة. وبقيت أنا بمفردي على بصيص الضوء الباهت المنبعث من نار الموقد، وأخذت أقلب كلمات زوربا وأزنها في ذهني، فأدركت أنها كلمات مشحونة بعطر دافئ، وثقل إنساني وقيمة لا مراء فيها. فكلماته التي ينطق بها كانت تصدر أو تصعد من أعمق أعماقه ومن شغاف قلبه، وكانت تحتفظ داخلها بالدفء الإنساني. أما الكلمات التي كنت أنطقُ أنا بها فكانت كلمات كرتونية تهبط من الرأس، ولا تتناثر فوقها سوى قطرات من الدماء؛ إذ لو كانت تحظى بأية قيمة، فإن هذه القيمة إنما هي مدينة لهذه القطرات من الدماء. كنت قد مددتُ عصا المجمرة وقلبتُ بها رماد النار، فأبصرتُ زوربا وهو يهل عليَّ قادمًا، ويداه منسدلتان، وتبدو عليه سماتُ الذهول، وقال: «يا رَيس، لا تفزع!.....»؛ فهببتُ من فوري واقفًا. قال: «لقد ماتَ الراهب!» قلت: «ماتْ؟»

قال زوربا: «لقد وجدتُه ممدداً فوق صخرة، وكان ضوء القمر ينسكب عليه، فجثوت على ركبتي وبدأت أقص لحيته، وما بقي من شاربيه. أخذت أقص وأقص، لكنه لم يتحرك؛ فتماديت في تصرفي، وبدأت أقص شعر رأسه حتى وصلت إلى جذوره، وكان الشعر الذي قصصته يبلغ وزنه ما يقرب من نصف أقة، وجعلته مثل الأصلع تمامًا. وهنا غلبني الضحك، فصحتُ فيه قائلًا: «إيه، يا سنيور زكريا، هيا استيقظ لترى معجزة السيدة العذراء!».

الذى رحل فيه عن الحياة. ويُنسب إليه الفضل فى ظهور الدستور اليوناني لأول مرة عام 1844، وما تلا ذلك من سنوات. [المترجم].

ووكزتُه في جانبه، ولكنه لم يحرك ساكنًا؛ فوكزتُه مرةً أخرى، فلم يصدر عنه أي رد فعل! بل إن التعس لم تصدر عنه غمغمة ولا وَقْوَقة! ففكرتُ وفتحتُ رداءه الكهنوتي، وكشفتُ عن صدره، ووضعتُ يدي على قلبه. فلم أسمع وجيبًا ولا خفقانًا، بل كان السكون تامًّا، لم تعد الماكينة تعمل، لقد توقف قلبه.

كان مزاج زوربا ينشرح كلما تحدث، إذ أنه ذُهِل للحظة عابرة لموت الراهب، بيد أنه سرعان ما استخفه المرح بعدها. فقال: «والآن، ماذا نصنع معه، يا رَيس؟ إنني أرى أن نضرم فيه النار؛ بترولاً تعطي بترولاً تأخذ، أفلا يقول الإنجيل هذا؟ ضع في ذهنك أن رداءه الكهنوتي كان مشبعًا بالدهن، وهو الآن مُشبع بالبترول، ولذا سوف تشب فيه النار بسرعة، ويصبح مثل خميس العهد الخاص بيهوذا». فقلت له بصبر نافد: «اعمل ما بدا لك». غير أن زوربا لجأ إلى الأفكار التصورية، فقال آخر الأمر: «إنها ورطة! ورطة كبيرة... فلو أضرمنا فيه النار، فإن رداءه الكهنوتي سوف يشتعل مثل الشعلة، ولكن هذا المسكين ضعيف وهزيل، إنه مجرد جلد على عظم، وسيأخذ وقتًا طويلاً إلى أن يصبح رمادًا؛ وها أنت ترى أن هذا البائس ليس لديه دهن أو دسم من شأنه أن يساعد النار على الاشتعال...».

ثم هز رأسه، وأردف قائلًا: «لو كانت هناك قوة عليا، فلِمَ لَمْ تأخذ في حسبانها كل هذا؟ ولم لم تجعله سمينا ذا دهن وفير، كي نفلح في إحراقه؟ فما هو قولك، دام فضلكُ؟». فقلت له: «لا تخلط الأمور يا هذا، ولا تربكني، واصنع ما شئت، ولكن بسرعة». فقال: «كان من الأفضل أن يسفر هذا كله عن معجزة، وأن يصدق الرهبان أن الله بنفسه هو الذي

قص شعره وحلق لحيته، ثم ساقه إلى حتفه، لأنه أساء إلى الدير...».

هنا هرش زوربا رأسه من جديد، وقال: «ولكن ما هي المعجزة؟ وأية معجزة يمكن حدوثها؟ إنني أريدك هنا، يا زوربا، فهيا فكر!». شارف الهلالُ على الأفول، وكان نوره يغمر الأفق فوق البحر، وكان القمر يبدو في لون الذهب وكأنه نحاس متقد. كنت متعبًا فتمددتُ واستغرقتُ في النوم؛ وعندما صحوتُ من نومي كان النهار قد بزغ، ورأيت زوربا وهو جالس بجواري يعد القهوة. كان وجهه ممتقعًا، أما عيناه فكانتا متورمتين وحمراوين للغاية جراء السهر. وأما شفتاه اللتان تشبهان شفتي التيس، فكانتا تفتران عن ابتسامة بالغة الخبث والدهاء. وما إن رآني أستيقظ حتى قال: «لم يغمض لي جفن طوال الليل، يا رَيس، إذ كان لديَّ عمل». فقلت: «أي عمل هذا، أيها الوغد؟». فقال: «لقد أعددتُ المعجزة المنشودة». ثم ضحك، ووضع إصبعه على فمه، وأردف: «ها أنذا أقول لك إنه في الغد سيتم تدشين الخط الهوائي، وسيحضر القساوسة ذوو سحنة الثور كي يسكبوا الماء المقدس، ويباركوا المشروع؛ وآنذاك سوف تسمع عن المعجزة الجديدة التي قامت بها السيدة العذراء مريم المنتقمة، فيا لَسعدها!».

قال هذا ثم قدم لي القهوة، وقال: «إيه يا أخي، إنني أقوم بدور رئيس الدير، فلو أنني أقمتُ ديرًا وافتتحتُه، فإنني أراهن على أنني سأغلق الأديرة الأخرى كافة، ولأصبحت أنا مَلِك الساحة بلا منازع. هل تريد الدموع؟ فالاسفنجة المشبعة بالماء جاهزة، وسوف تذرف جميع الأيقونات عندي الدموع مدرارًا. هل تريد قصف الرعود؟ فسأدس حيلة آلية تحت المائدة المقدسة كي يصدر عنها صوتٌ قاصفٌ كالرعد. هل تريد أطيافًا وأشباحًا؟

فسأجعل راهبين- من أهل الثقة- يسيران جيئةً وذهابًا فوق سطح الدير، وهما ملتفان في ملاءات وكأنهما شبحان؛ كما سوف أجهز- كل عامٍ- أشخاصًا عُرجاً وعمياناً ومصابين بالشلل، في احتفال سنوي يقام تمجيدًا لفضلها، ثم أجعلهم يبصرون الضوء، ويقفزون عاليًا، وينخرطون في الرقص... أرجوك لا تضحك، يا رَيس! كان لي عم عثَر- ذات مرة- على بغلٍ مُسن عجوز على مشارف الموت؛ وكان الناس قد تركوه في البرية لكي يهلك وينفق. فأخذه عمي، وكان يذهب به كل صباح ليقتات في المرعى، وكان يرجع به في المساء إلى منزله. وكان أهل القرية يقولون له: "إيه، يا عم "خارالامبيس"! ماذا تبغي من وراء هذا البغل العجوز المسكين؟". فكان عمي يرد عليهم بقوله: «إنني أتخذ منه مصنعًا للسماد! وأنا بدوري سوف أتخذ من هذا الدير، يا رَيس، مصنعًا للمعجزات».

(25)

ستظل عشية أول مايو مناسبةً لا تنسى في حياتي بأسرها. كان الخط الهوائي جاهزًا، بأعمدته وسلكه المعدني، وبكراته التي كانت تبرق تحت أشعة شمس الصباح؛ وكانت أشجار صنوبر ضخمة قد كُومتْ بعد اجتثاثها على قمة الجبل. كان العمال ينتظرون هناك فوق الجبل كي يعلقوها في السلك المعدني، وكي يجعلونها تنزلق فوقه حتى ساحل البحر.

كان علمٌ كبير لبلاد اليونان يرفرف على قمة الخط الهوائي فوق الجبل، وعلم آخر يرفرف عند السفح على الساحل. وخارج السقيفة، كان زوربا قد وضع برميلاً صغيرًا من النبيذ، وكان أحد العمال يدير على السفود خروفًا سمينًا. فبعد افتتاح الخط الهوائي ومباركته، وصب الماء المقدس، سيتناول كل واحد من المدعوين كوبًا من النبيذ، ومعه قطعة من لحم الخروف بوصفها (مقبلات)، وساعتها سوف يدعون لنا بنيل الربح الوفير. كان زوربا قد أنزل من السقيفة قفص الببغاء، ووضعه بعناية فوق صخرة عالية تقع عند العمود الأول، وكان يرتدى أفضل ملابسه، ملابس الأعياد:

قميصًا أبيض دون أن يغلق أزراره، وسترة رمادية، وبنطلونًا أخضر اللون، وأفضل حذاء عنده، أما شاربه فقد كان قد بدأ يفقد لون صبغته، لذا دهنه بدهان عطري شمعي.

هرع زوربا ليكون في استقبال الكبراء وعلية القوم، وكأنه عاهل كبير يستقبل ذوي الحظوة والسلطان، ليشرح لهم كيفية عمل الخط الهوائي، والثروة التي سيدرها على القرية، وكيف أن مولاتنا العذراء مريم هي ملهمة فكرته- عظُم قدرها وشأنها- وهي التى جعلت إنشاءه غاية في الإتقان. وكان يقول: «إن هذا العمل عمل عظيم ومهم، إذ ينبغي أن تهتدي في البداية إلى زاوية الانحدار الصحيحة- وهذا أمرٌ علمي بحت- فلقد ظللت أدرسه شهورًا، ولكن المشكلة هي أن عقل الإنسان لا يوصله حقًّا إلى فهم المشروعات والأعمال العظيمة، ولا بد له من التزود بالاستنارة من عند الله. شاهدتني إذن العذراء المباركة، وأنا منهمك في الدراسة، فأشفقت عليَّ، وقالت: إن زوربا المسكين رجلٌ طيب يريد أن يسدي الخير لقريته، لذا فلأساعده في مهمته، فيا لها من معجزة تلك التي حدثت!».

توقف زوربا عن الكلام، ورسم علامة الصليب على صدره ثلاث مرات، ثم قال: «آه! يا لها من معجزة! فذات ليلة شاهدت أثناء نومي حلمًا تراءت لي فيه إنسانةٌ متشحة بثوب أسود، كانت هي العذراء المباركة! وكانت تمسك في يدها أنموذجًا صغيرًا جدًّا لخط سكة حديد هوائي. وقالت لي: "يا زوربا، ها أنذا أحمل إليك مخططًا لمشروعك من السماوات العُلَى! فاتبع هذا الانحدار، وتقبل مني دعواتي لك بالتوفيق!». قالت هذا ثم اختفت، أما أنا فقد هببتُ من نومي على إثر ذلك، وهرعت إلى الموقع حيث

أجريت التجارب. فماذا شاهدت؟ شاهدت الحبل يتخذ وضع الانحدار الصحيح من تلقاء نفسه، وكانت تفوح منه رائحة بخور عطرية نفاذة؛ فلا بد أن يد مولاتنا العذراء المباركة قد لمسته!».

وهمَّ "كوندومانوليوس" بفتح فمه ليسأل عن شيء ما، غير أن خمسة من الرهبان يمتطون البغال أهلُّوا علينا من الطريق الضيقة المرصوفة بالحجارة؛ وكان معهم راهبٌ آخر، سائر على قدميه يركض في مقدمتهم، وعلى كتفه صليب خشبي كبير، وأخذ يصيح؛ تُرى، بماذا كان يصيح؟ لم نتمكن منْ تمييز ما قاله من كلمات. وبدأت تلاوة المزامير تتناهى إلى أسماعنا، وكان الرهبان- أثناء إنشادها- يحركون أيديهم، ويرسمون علامة الصليب على صدورهم؛ كان الشرر يتطاير من الحجارة تحت سنابك بغالهم. وصل الراهب الذي كان يسير على قدميه، وكان العرق يسيل مدرارًا على جسمه، ورفع صليبه عاليًا، ثم صاح قائلًا: «أيها المسيحيون، يا لها من معجزة! أيها المسيحيون، يا لها من معجزة! معجزة حققتها مولاتنا العذراء المباركة للآباء والرهبان.. فاركعوا واسجدوا!».

هرع أهل القرية والخشوع يلفهم، سادةً وعمالاً، وتحلقوا حول الراهب ورسموا علامة الصليب على صدورهم. أما أنا فقد انتحيتُ جانبًا، فرمقني زوربا بنظرة من عينيه نارية خاطفة، وقال: «اقتربْ من فضلك، يا رَيس، اقترب كي تستمع إلى معجزة مولاتنا العذراء المباركة!». وبدأ الراهب يروي الحكاية على عجل، وهو يلهث: «استمعوا، أيها المسيحيون، إلي مشهد أعده الله، ومعجزة قدسية! استمعوا إليَّ، أيها المسيحيون! إن الشيطان قد سيطر على روح زكريا الملعون المنكود، ودفعه مساء أول أمس إلى أن يسكب

الكيروسين على الدير. ولكن الله أوحى إلينا أن نستيقظ، فاستيقظنا وشاهدنا ألسنة النار مندلعة، فهببنا من رقادنا واقفين؛ كانت النار مستعرة في مقر رئيس الدير، وفي الشرفات المسقوفة، وفي الصوامع. قرعنا الأجراس وصحنا: "النجدة، يا مولاتنا العذراء المنتقمة!"، وهرعنا، وفي أيدينا القدور والدلاء، وتمكنا من إخماد النار ساعة الشروق، فلتتبارك العذراء وليعلُ قدرها! وذهبنا إلى الكنيسة الصغيرة الملحقة بالمدافن، حيث تنتصب أيقونة العذراء صانعة المعجزات، وجثونا على ركبنا وصحنا قائلين: "أيتها المنتقمة، ارفعي رمحك واضربي به مَن كان السبب في الحريق!". ثم احتشدنا في الفناء الذي يحيط به السور، ونظرنا حولنا فوجدنا أن زكريا لم يكن موجودًا بيننا، أجل زكريا الخائن، يهوذا! فصرخنا جميعًا في صوت واحد: "إنه هو الذي أحرقنا بالنار، إنه هو لا محالة!". وبعدها، تفرقنا ورامنا أن نعثر عليه، وظللنا نفتش عنه طوال النهار فلم نجد له أثرًا؛ وظللنا نفتش عنه طوال الليل فلم نجد له أثرًا. وذهبنا اليوم، قبل مشرق الشمس بقليل، إلى الكنيسة الصغيرة مرةً أخرى، فماذا شاهدنا، أيها المسيحيون الأعزاء؟ مشهدًا من صنع الله، ومعجزة قدسية! وجدنا زكريا ممددًا جثة هامدة عند قدمي مولاتنا العذراء مريم؛ وكان على طرف الرمح الذي تمسك به مولاتنا العذراء نقطة دم غليظة متجلطة».

غمغم أهل القرية قائلين: «ارحمني، يا إلهي! ارحمني، يا إلهي!»، وخروا جاثين على ركبهم ينشدون التوبة. وأردف الراهب مستكملاً حديثه بعد أن ابتلع ريقه: «وما خَفِيَ كان أعظم، وأشد رعباً! فعندما انحنينا لنرفع الجسد الذي به مس من الشيطان، فغرنا أفواهنا جميعًا من فرط الدهشة:

فقد وجدنا أن مولاتنا العذراء قد قصت له شعره وشاربيه ولحيته، حتى غدا مثل القساوسة الكاثوليك!».

التفتُّ بقوةٍ وأنا أكتمُ الضحك، ورمقتُ زوربا بنظرة عتاب وملامة، وقلت له بصوت خفيض: «آه! يا لكَ من وغدٍ زنيم!». غير أن زوربا كان يتفرس في وجه الراهب بنظرات ثابتة معبرة عن الدهشة، وهو يرسم علامة الصليب على صدره بالتتابع وبخشوع جم، وهو يغمغم: «تعاليتَ، ربنا، سبحانكَ وعظُم قدرُك، فأعمالك كلها معجزات وآيات!».

عند ذلك الحد، وصل الرهبان الخمسة، وترجلوا، ثم ساروا على أقدامهم؛ كان كبيرهم يحتضن بين ذراعيه أيقونة العذراء صانعة المعجزات. وبعدها وقف فوق صخرة، وهرع الجميع متدافعين كي يجثوا أمامه. وكان الراهب البدين "ذوميتيوس" ممسكًا بصينية وهو منكمش، وهو يقوم بنثر ماء الورد على جبهات القرويين الصلبة؛ وكان هناك ثلاثة رهبان واقفين حولهم، واضعين سواعدهم المكسوة بالشعر على بطونهم، والعرق يسيل على وجوههم وهم ينشدون.

قال الراهب "ذوميتيوس" البدين: «سوف نقوم بجولة في قرى جزيرة كريت، كي يرتل المؤمنون صلواتهم، وكي يجودوا في سخاء بما تهديهم إليه العذراء المباركة... وكي نجمع الأموال، ونجدد بها الدير المقدس، بعد الدمار الذي لحق به...». وهنا غمغم زوربا قائلًا: «يا لهم من تنابلةٍ أوغادا مرةً أخرى لن يرجعوا من الغنيمة صِفرَ اليدين!». قال هذا ثم اقترب من رئيس الدير، وقال له: «يا رئيس الدير المقدس، كل شيء جاهز ومُعَد للمباركة ورش الماء المقدس، وليت مولاتنا مريم المباركة تبارك مشروعنا هذا

بفضلها!».

كانت الشمس قد ارتفعت في كبد السماء، ولم يعد الهواء يهب، واشتدت درجة الحرارة. وقف القساوسةُ حول العمود الأول الذي كان العلمُ اليوناني مرفوعاً فوقه، وغطوا بأكمامهم العريضة جبهاتهم، وبدأوا ينشدون الدعوات عن "أساس البيت":

«يا ربنا، يا ربنا، اجعل أساس هذه الآلة يستقر فوق صخرة راسخة وطيدة، تظل قوية صامدة لا تنال منها رياح ولا مياه.........».

غمسوا منضحة الماء المقدس في الإبريق النحاسي ورشُّوا بها العمود، والسلك المعدني، والبكرات، وزوربا وأنا، وبعدها رشَّوا أهل القرية والعمال والبحر. ثم بعد ذلك رفعوا بعناية- وكأنهم يرفعون امرأة مريضة- الأيقونة، ووضعوها على الصخرة العالية بجوار قفص الببغاء، ووقفوا حولها وكأنهم مزهوون بالمباركة المقدسة التي قاموا بها إيذانًا بافتتاح المشروع. وعلى الجانب الآخر من العمود، كان يقف وجهاء القرية وكبراؤها، وفي الوسط كان يقف زوربا. أما أنا فكنت قد انتحيتُ جانبا بالقرب من البحر ومضيتُ أنتظر.

كانت التجربة في حفل الافتتاح تقتصر فحسب على انحدار ثلاثة جذوع أشجار عبر الخط الهوائي، على غرار الثالوث المقدس؛ غير أننا أضفنا جذعًا رابعًا من شجر الصنوبر، تكريمًا لمولاتنا العذراء مريم المنتقمة؛ قام الرهبان وأهل القرية والعمال أجمعين برسم علامة الصليب على صدورهم، وتمتموا جميعًا قائلين: «باسم الله، وباسم مولاتنا العذراء!». وبخطوة واحدة، أصبح زوربا عند العمود الأول، وجذب الحبل، وأنزل

العلم، وكانت هذه هي الإشارة التي كان ينتظرها العمال الموجودون عاليًا فوق قمة الجبل. وهنا تطلعت عيوننا إلى أعلى، وتسمرت على ذروة الجبل.

صاح رئيس الدير قائلًا: «باسم الآب!». وما حدث ساعتها كان أمرًا لا يوصف: إذ وقعت الكارثة مثل الصاعقة، وأفلحنا بالكاد في النجاة منها. اهتز الخط الهوائي بعنف، واندفع جذع شجرة الصنوبر- التي كان العمال قد علقوه- منحدرًا إلى أسفل في اندفاع رهيب؛ كان الشرر ينبعث من احتكاكه، وكانت الشظايا تتناثر وتتطاير في الهواء بعد انفصالها عن الجذع، وعندما وصل الجذع أخيرًا إلى أسفل في بضع ثوان، لم تبق منه سوى كتلة صغيرة بعد أن تم تقشيرها.

تطلع زوربا إلى وجهي وكأنه كلبٌ قاموا بجلده، وتراجع الرهبان وأهل القرية إلى الخلف، أما البغال- التي كانت موثقة وهي واقفة- فبدأت ترفس وتركل بأقدامها، وأما "ذوميتيوس" البدين، فقد خر منهارًا وتكوم على الأرض، وكان يغمغم قائلًا: «تذكرني، يا إلهي!». وهنا رفع زوربا يده وقال: «هذا أمر معتاد، وليس شيئًا ذا بال! فهذا ما يحدث مع الجذع الأول دائمًا! والآن سوف تنتظم الماكينة في عملها؛ انظروا!». أنزل العلم، وأطلق الإشارة، ثم انطلق عدوًا إلى مبعدة. وصاح رئيس الدير مرةً أخرى، وصوته يرتعش إلى حدٍّ ما: «وباسم الابن!».

وهنا فك العمال وثاق جذع الشجرة الثاني، وتركوه ينحدر، فاهتزت الأعمدة بعنف، ومضى الجذع الخشبي في طريقه لا يلوي على شيء؛ قفز مثل الدلفين، وأخذ يندفع تجاهنا، بيد أنه لم ينجح في الهبوط، إذ تحول إلى شظايا وشذرات تبعثرت في أرجاء الجبل. وغمغم زوربا متحسرًا، وهو يعض

شاربيه بأسنانه قائلًا: «اللعنة على هذا! إن زاوية الانحدار لم تنجح، لم تكن مضبوطة». قال هذا ثم اندفع كالمخبول نحو العمود، وأنزل العلم، وأطلق الإشارة من جديد؛ فرسم الرهبان علامة الصليب على صدورهم وهو يتوارون خلف البغال؛ أما وجهاء القرية فكانوا ينتظرون على أطراف أناملهم متأهبين للفرار.

هتف رئيس الدير، وهو يلهث لهنة قصيرة، ويلملم رداءه الكهنوتي: «وباسم الروح القدس!». كان الجذع الخشبي الثالث جذع شجرة صنوبر هائل الحجم، فما إن فكوا وثاقه وانحدر حتى سُمع صوت دوي هائل. وصاح زوربا في الناس، وهو يلوذ بالفرار: «اهبطوا إلى أسفل، أيها التعساء المنكودون!». فخر الرهبان على وجوههم منكبين، وأطلق أهل القرية سيقانهم للريح. انطلق الجذع الخشبي في قفزة واسعة، وتعلق مرةً أخرى بالسلك المعدني، وتطايرت منه الشظايا، وقبل أن يتمكن أحد من رؤيته تجاوز الجبل والساحل وغاص في البحر على مبعدة من الساحل، فجعل الزبد يتصاعد على صفحة اليم. كانت أعمدة كثيرة قد انحنت أو تصدعت، أما البغال فقد قطعت الحبال التي كانت تقيدها، وولت هاربة.

صاح زوربا كمن أصابه مس من الجنون: «إنه لا شيء! إنه لا شيء! الآن سوف تنتظم الماكينة، هيا!». ورفع العلم من جديد؛ ولكن كان من الواضح أن اليأس قد أطبق عليه، وكان يتعجل الوصول إلى نهاية لهذه النكبات كلها. وهتف رئيس الدير متلعثمًا، وهو يتوارى خلف صخرة: «وباسم مولاتنا العذراء مريم المنتقمة!». اندفع الجذع الخشبي الرابع، وصدر عن اندفاعه دويٌّ مفزع، ثم أعقبه دويٌّ ثان، انهارت بعده الأعمدة

جميعًا الواحد إثر الآخر، وكأنها أوراق كوتشينة.

صاح العمال والرهبان، وهم مرعوبون: «ارحمني، يا إلهي! ارحمني، يا إلهي!»، وهرب منهم مَن استطاع الهرب. وجرحت شظية فخذ "ذوميتيوس"، كما كادت شظية أخرى أن تصيب عين رئيس الدير؛ أما أهل القرية فقد اختفوا وولوا هاربين. ولم يبق صامدًا سوى أيقونة مريم العذراء، التي ظلت واقفة في شموخ فوق الصخرة، وبيدها الرمح، وهي ترمق الناس بنظرة صارمة، وبجوارها كان الببغاء في قفصه، وجناحاه الأخضران يرتعدان ويصدران حفيفًا.

أخذ الرهبان أيقونة العذراء مريم في أحضانهم، وأوقفوا "ذوميتيوس" الذي كان يجأر بالصراخ من فرط الألم، وجمعوا بغالهم وامتطوها ثم رحلوا. أما العامل الذي كان يدير السفود لشي الخروف، فقد تركه بسبب الرعب الذي عصف به، فاحترق جزء من لحم الخروف. وصرخ زوربا قائلًا: «سيصبح الخروف فحمًا!»، وجرى مسرعًا كي يقلبه على السفود.

جلست بجواره، بعد أن انصرف الجميع، ولم يبق منهم أحدٌ على ساحل البحر، وتركونا وحدنا تمامًا. التفت زوربا نحوي، ورمقني بنظرة مشوبة بالشك متسائلة... ذلك أنه لم يكن يعرف كيف كان رد فعلي إزاء الكارثة التي حلت بنا، وإلى أين ستفضي بنا هذه المغامرة التي انتهت بالفشل الذريع. ثم انحنى مرةً أخرى على الخروف، وأخذ سكينًا قطع به قطعة من اللحم وتذوقها؛ وبعدها مباشرةً أنزل الخروف من فوق النار، وجعل السفود يقف منتصبًا.

قال زوربا: «يا لَه من لحم مثل الملبن، أجل مثل الملبن، يا رَيس! لطفاً!

هل تريد قطعة منه؟». فقلت: «أجل! وهات النبيذ والخبز، فقد استبد بي الجوع». شعر زوربا بالنشاط وشمر عن ساعده، فدحرج برميل النبيذ ليكون بجوار الخروف، وأحضر رغيفًا كبيرًا من خبز القمح وكوبين. تناول كل منا سكينًا قطعنا بهما شريحتين كبيرتين من لحم الخروف، وقطعتين سميكتين من الخبز، وأخذنا نأكل ونأكل دون أن نحس بالشبع. قال زوربا: «أرأيت أن طعم اللحم لذيذ وشهي، يا رَيس؟ فيا لها من لقمة سائغة هنية! ففي هذه المنطقة كما تعلم لا يوجد عشب كثيف، والحيوانات هنا تقتات من المرعى الجاف، ولذا فإن لحمها شهي جدًّا وغاية في اللذة. وأذكر أنني لم آكل مثل هذا اللحم الشهي في حياتي، سوى مرة واحدة فقط. كانت هذه المرة أثناء الفترة التي كنتُ ألبس فيها على رأسي قلنسوة مطرزة عليها صورة القديسة صوفيا، وكنتُ أتخذها تعويذة تجلب لي الحظ..... فيا لها من حكايات قديمة!»

قُلتُ له: «هيا احكها لي!». فقال: «قُلتُ لك إنها حكايات قديمة، يا رَيس، إنها ترهات يونانية وتهويمات جنونية!». فقلت له: «تكلم، يا زوربا، بالله عليك، فإنها حكايات تعجبني وتروق لي!». فقال: «أنت تعلم أن البلغار كانوا يحاصروننا، وذات مرة بعد أن أرخى الليل سدوله، كنا نشاهدهم حولنا في شعاب الجبال، وكانوا يشعلون النار، ويدقون الطبول، ويصيحون مقلدين عواء الذئاب كي يبثوا الذعر والهلع في نفوسنا. كان عددهم يربو على الثلاثمائة، أما نحن فكنا ثمانية وعشرين محاربًا تحت قيادة الكابتن "روفاس"، رحمه الله وطيب ثراه لو كان قد مات، فقد كان حقًّا بطلاً صنديداً. فقال لي آنذاك: "إيه، يا زوربا، ضع الخروف في السفود

وعلقه على النار!"؛ فقلت: "سيصبح لحمه ألذ وأطعم، أيها القائد، لو شويناه في الحفرة". فقال: "افعل ما يروق لك، ولكن سريعًا؛ فإننا نحس بالجوع!". حفرنا حفرة وقمت بملئها بجلد الخروف، ثم وضعنا جمرات فحم كبيرة متقدة، وأخرجنا الخبزَ من الحقائب، وتحلقنا حولها. وقال الكابتن روڤاس: "من الممكن أن تكون هذه الوجبة آخر وجبة لنا! فهل هناك واحد منكم، يا أولاد يحس بالخوف؟" فضحكنا جميعا؛ ولكن لم ينبر أي منا للإجابة عليه. وأمسكنا بقنينة النبيذ، وقلنا: "في صحتك، أيها الكابتن، نتمنى أن تكون الرصاصات التي تطلقُ علينا رحيمة!"

شرب كل واحد منا كأسا واثنين، ودسسنا الخروف في الحفرة مع الجمرات المتقدة. فيا لها من لذة لم أذق مثلها، يا رَيس! وكلما تذكرتُ هذه الليلة سال لعابي مرةً أخرى! كان لحم الخروف مثل اللبن ومثل المخ! انكببنا كلنا على الطعام نأكل بشهية وضرواة كما لم نأكل من قبل، وقال الكابتن: "لم أذق في حياتي أبدًا لحمًا ألذ من هذا اللحم! أعاننا الله عليه!". وعب الكابتن كوب النبيذ في جرعة واحدة، شرب كما لم يشرب من قبل ثم قال: "غنوا، يا أولاد، أغنية من أغاني اللصوص! فهؤلاء البلغار الذين يكمنون على مبعدة منا يعوون مثل الذئاب، أما نحن فسوف نغني مثل البشر. هيا بنا نغني أغنية: "اللص الشيخ ذيموس". شربنا نبيذنا بسرعة، وأفرطنا في الشرب حتى الثمالة، واتقدت نفوسنا ونحن نغني، ورددت الأخاديد والوهاد صدى غنائنا:

"ها قد اشتعل الرأس مني شيبًا، يا أبنائي، بعد أربعين عامًا
قضيتها في السَّرقة واللصوصية! ....."

كانت معنوياتنا عالية ومزاجنا الرائق قد وصل إلى أقصاه. وقال الكابتن: "بآا ما هذا المزاج الرائق؟ إنه من حسن طالعنا! هيا، يا زوربا يا ولدي، فكر وادرس: ماذا يقول لنا ظهر الخروف؟" فنظفت بسكين كبيرة ظهر الخروف، وقربته من النار، ثم قلت للكابتن: "بعد الفحص لا أجد قبورًا، ولا أرى مَوْتًا. وأظن أننا سوف ننجو هذه المرة أيضًا". قال البطل الصنديد الأول الذي كان قد تزوج حديثًا: "قُلْ لي في أذني، بحق الله عليك، إنني سأتمكن من إنجاب ابن أولاً، وليحدث بعدها ما يحدث!". فقطعتُ بسكيني قطعة كبيرة من ظهر الخروف وقلتُ: "لقد كان هذا الخروف ممتازًا، فخذ هذه القطعة التي أهديها لك علها تروق لك، ولا تردها من فضلك!". فقال البطل الصنديد: "صُب لنا، يا زوربا، النبيذ كي نشرب، واملأ الأكواب حتى حافتها!"

استمتعنا وشربنا نبيذًا شهيًا معتقًا، لونه أسود مثل دم الأرنب، حينما تتجرعه تحس كأنك عببتَ من دم الأرض، فتزداد قوتك وبأسك؛ وتمتلئ شرايينك بالقوة والمتعة، ويزخر قلبك بالطيبة والخير. ولو كنتَ جباناً رعديدًا فستصبح شجاعًا مغوارًا، ولو كنتَ صنديدًا فستصبح حيوانًا بريًا أو وحشًا! سوف تتناسى الصغائر المهينة، وتحطم الحدود الضيقة، وتمتزج تمامًا بالبشر وبالحيوانات، وتتوحد مع الله، وتصبح مع كل موجود وحدةً واحدة"».

وعندما وصل زوربا في حديثه عند هذا الحد، قلتُ له: «هيا إذن نرى بدورنا ماذا يروي لنا ظهر خروفنا هذا! فهيا، يا زوربا، ابدأ سرد نبوءاتك!». فلعق زوربا جيدًا ظَهر الخروف، ثم نظفه بعدها بالسكين،

وبعدها رفعه عاليًا في الضوء، وتطلع إليه بعناية وتؤدة، ثم قال: «كل شيء رائع، سنعيش ألف عام، يا رَيس، ونحظى بقلب كالصخر». وبعدها انحنى مرةً أخرى، وتطلع إلى ظهر الخروف، ثم قال: «وأرى هنا رحلة، أجل رحلة عظيمة! وفي آخر الرحلة أرى بيتًا كبيراً كبيراً جدًّا له الكثير من الأبواب. قد يكون مدينة، يا رَيس؛ ومع ذلك قد يكون الدير الذي سأكون أنا حارس بابه، وسوف أبرم الاتفاق الذي تحدثنا عنه».

فقلت له: «صُب لنا النبيذ في الأقداح، يا زوربا، لنشرب ودعك من هذه النبوءات. فسوف أحدثك أنا عن المنزل ذي الأبواب الكثيرة؛ إنه الأرض بما عليها من قبور؛ فهذه هي نهاية الرحلة. في صحتك، أيها الوغد المرائي!». قال: «وفي صحتك أيضًا، يا رَيس! لقد صدقوا حين قالوا إن الحظ أعمى؛ فهو لا يعرف إلى أين يذهب أو يمضي، يتعثر ويتمايل في مشيته أمام المسافرين، وحينما يقع أمام شخص يسمونه محظوظاً. فليذهب إذن هذا الحظ إلى الشيطان؛ فنحن لا نريده، يا رَيس، ولسنا بحاجة إليه!». فقلت: «أجل، نحن لا نريده، يا زوربا، فهيا نواصل الشرب!».

شربنا كما لم نشرب من قبل، وأكلنا بنهم فلم نترك من الخروف سوى العظام؛ بدأت وطأة الحياة تخفف ثقلها وترخي قبضتها، وبدأ البحر يضحك، والأرض تهتز وتتحرك كأنها سطح قارب، وأخذ طائران من طيور النورس يسيران فوق حصى الشاطئ، ويتناجيان مثل البشر. قمتُ من جلستي وصحتُ: «هيًا، يا زوربا، علمني الرقص!». فأجفل زوربا، وبعدها أشرق وجهه وأحس بالابتهاج، وهتف: «الرقص؟ الرقص؟ هيًّا أعلمك!». فقلت: «إلى الأمام، يا زوربا، هيا، غَيِّرْ حياتي!». فقال: «قبل كل شيء سوف

أعلمك رقصة "الزيمبيكيكو"(*)، فهي رقصة ضارية تنطوي على الإقدام والبسالة. وهذه الرقصة كان يرقصها المحاربون الصناديد قبل خوض المعركة».

قال هذا ثم انبرى لخلع حذائه، وطوح بعيدا بجوربيه البنفسجيين، ولم يُبق عليه سوى قميصه؛ غير أنه أحس- مرةً أخرى- بالضيق والاختناق، فخلع القميص وطوحه بعيدًا. ثم قال: «انظر إلى حركة قدمي، يا رَيس، وركز عقلك معي!». ثم مد قدمه ولمس بها الأرض في خفة، وبعدها مد القدم الثانية، وامتزجت خطواته بين الضراوة والرقة في آن، ورددت الأرض صدى الخطوات ووقعها. ثم أمسك بي من كتفي، وقال: «هيَّا، أيها الصنديد، لنرقص معًا!». انخرطنا في الرقص، وكان زوربا يصوب لي أخطائي؛ كان جادًّا وصبورًا في رقة ودماثة. فأحسستُ بالشجاعة، وشعرتُ أن ساقيَّ الثقيلتين قد نبتت لهما أجنحة.

صاح زوربا في جذل وانشراح: «مُتِعتَ بالصحة، أيها الباشق(*) الحبيب إلى نفسي». وصفَّقَ بيديه ليضبط لي الإيقاع، وأردف قائلًا: «مُتِعتَ بالصحة، أيها الصنديد العزيز! فلتذهب الأوراق والأقلام إلى الجحيم! وإلى الجحيم أيضًا فلتذهب الخيرات والمصالح! آه، يا رفيقي، الآن وقد تعلمتَ الرقصَ، فقد أصبحت وحياتك تعرف لغتي، فماذا يتعين علينا أن نقول؟».

(*) رقصة "الزيمبيكيكو (zeimpekiko) رقصة منشأها آسيا الصغرى، يرقصها شخص واحدٌ غالباً، وهي ذات حركات وخطوات ثقيلة رجولية، ولها موسيقى خاصة تُعزف ويرقص الراقص على لحنها. [المترجم].

(*) طائر جارح كاسر صغير الحجم. [المترجم].

قال هذا ثم مسح بخطوات قدميه العاريتين الحصى، وصفقَ بيديه وصاح: «لديَّ الكثير، يا رَيس، مما أقوله لك، فلم أحبَّ إنسانا في حياتي بقدر ما أحببتك! أجل لديَّ كلام كثير أود أن أقوله لك، ولكن لغتي لا تسعفني... لذا سوف أقوله لك رقصًا!... فانتح جانبًا حتى لا أدوسك! هيا! هوب! هوب!».

قفز قفزةً هائلة، صارت فيها قدماه ويداه مثل الأجنحة. ثم هبط من الوضع واقفًا على الأرض، وكان يبدو لى وأنا أشاهده على هذا النحو: مرةً في عمق السماء ومرةً في عمق البحر، مثل كبير ملائكة مقاتل صنديد لكنه مسن. وذلك لأن هذا الرقص الذي كان يرقصه زوربا كان زاخرًا بالتحدي والإصرار والبسالة، حتى أنه ليخيل إليك أنه كان يصيح قائلًا: «ماذا بوسعك أن تفعل بي، أيها القدير؟ لا شيء يمكنكَ فعله سوى أن تميتني فحسب. فاقتلني إذن، فهذا لن يجعل مسمارًا في قدمي يتقد. لقد أخذتُ بثأري وأرحتُ بالي، وقلتُ ما كنت أريد قوله؛ كانت عندي فسحة من الوقت رقصتُ فيها كما أريد، ولم أعد بحاجة إلى أي شيء آخر!».

كنتُ أشاهد زوربا وهو يرقص، وكنت أحس لأول مرة ببسالة الإنسان الشيطانية، بغية الانتصار على ثقل المادة واللعنة التي يتوارثها البشر أبًا عن جد. كنت معجبًا وفخورًا بقوة احتماله وعزمه ونشاطه وكبريائه. وعلى رمال الساحل كانت خطوات زوربا، الثائرة المصحوبة بالدقة والانسجام والمرونة، تنقش تاريخ الإنسان الشيطاني. توقف زوربا هنيهةً، وتطلع إلى أكوام الخط الهوائي المنهار؛ وكانت الشمس تنحني في طريقها للمغيب، فجعلت الظلال تستطيل وتمتد. تفرَّس زوربا بعينين جاحظتين، وكأنه

تذكر شيئًا على حين غرة، فالتفت نحوي وتطلع إليَّ، ثم بسط كفه وزم شفتيه، ثم قال: «بُوا بُوا آه، يا رَيس، هل رأيت كيف تطايرت الشظايا اللعينة؟».

انفجر كلانا في الضحك، وارتمى زوربا فوقي وأخذني بين ساعديه واحتضنني وأخذ يقبلني، وصاح في رقة وجذل: «أتضحكُ، يا رَيس، بربك؟ أتضحكُ، يا رَيس؟ مُتِعتَ بالصحة، يا بطل يا مغوارا». وارتفع صوتنا بالقهقهة، وأخذنا نتصارع معًا فوق حصى الساحل لمدة طويلة؛ وفجأةً تكوم كل منا على الأرض، وتمددنا على الحصى واستغرقنا في النوم، ونحن متعانقان.

استيقظتُ على خيوط النور وهي تمسح وجه الظلمة في عذوبة ورقة، وبدأت أسير بسرعة على ساحل البحر متجهًا إلى القرية؛ كان قلبي يطير من الفرح، فنادرًا ما تذوقت مثل هذا الجذل في حياتي. لم يكن فرحًا وبهجة بقدر ما كان مزاجًا عاليًا لا يُدْرَكُ كُنهه ويستعصى تبريره. لقد كان عصيًّا على التبرير، على الرغم من جميع المبررات وضد كل المحاذير؛ كنت قد خسرت كل أموالي: العمال، الخط الهوائي، العربات، والميناء الصغير الذي أقمناه لنقل الأخشاب؛ والآن لم يعد لدينا ما ننقله، كل شيء ضاع وانتهى.

وشيئًا فشيئًا، بدأت الآن أشعر بتحرر لم يكن متوقعًا، وكأنني عثرت على الحرية وهي تمرح في زاوية صغيرة داخل جمجمة القدر الصلبة العابسة المكفهرة، وكأنني ألهو معها وأمرح. فعندما ينقلب كل شيء- في حياتنا- رأسًا على عقب، ويقلب لنا الدهر ظهر المجن، فيا لها من فرحة أن

نعاين ما إذا كانت للروح القابعة داخلنا قدرةٌ على الاحتمال وقيمة، أم لا! ساعتها تظن أن قوة معادية، غير مرئية، فائقة المنعة- يسميها البعض الله ويسميها آخرون الشيطان- تنقض عليك لتطيح بك إلى المجهول، بيد أننا نظل في مكاننا أمامها واقفين. وهكذا، ففي كل مرة نكون فيها منتصرين على ما بداخلنا، ونكون فيها مغلوبين على أمرنا بالعنف والقوة من خارجنا، فإن الرجل الحق ليشعر بكبرياء لا توصف وبفرحة ليس لها مثيل؛ وذلك لأن الكارثة الخارجية تتحول إلى سعادة بالغة السمو وبالغة التعقيد في آن.

كان زوربا قد قص عليَّ، في إحدى الأمسيات، الحكاية التالية:

«على جبل مقدوني تكلل قمته الثلوج، هبت ريح عاصفة ذات ليلة تقشعر من هولها الأبدان، كانت الريح تخلخل الكوخ الصغير الذي كنت قد اختبأتُ داخلَه، وكادت تقتلعه من مكانه أو تقوضه. غير أنني كنت قد أحكمتُ تثبيتَه وتأسيسه، وكنتُ جالسًا وحدي تمامًا قبالة مدفأة مشتعلة، وكنت أضحكُ ملء شدقيَّ، وأكشر في وجه الريح، وأصيح فيها قائلًا: "لا لن تنفذي أبدًا إلى كوخي! لا لن أفتح لك الباب أبدًا! لا لن تُخمِدِي أبدًا نار مدفأتي! لا لن تقوضي بنياني، أو تسلميني إلى الدمارا"».

كانت كلمات زوربا هذه قد بثت الشجاعة في روحي، إذ أدركتُ، عن طريقها، كيف يجب على الإنسان أن يصمد، وكيف يجب أن يخاطب القدر. أخذت أسيرُ بسرعة على الساحل، وأتحدثُ بدوري مع العدو الخفي، وأصيح في وجهه قائلًا: «لا لن تنفذ أبدًا إلى روحي! لا لن أفتح لك الباب! لا لن تُخمد أبدًا نار مدفأتي! لا لن تقوض بنياني، أو تسلمني إلى الدمارا».

لم تكن الشمس قد أسفرتْ بعد عن مُحَياها من خلف الجبل، وكانت الألوان تمرح على الأفق ما بين البحر والسماء: لا زوردية، خضراء، وردية، وبلون اللؤلؤ؛ وعلى مبعدة- وسط أشجار الزيتون- كانت الطيور الصغيرة المغردة تستيقظ من سباتها. كنتُ أسير بحذاء الساحل كي أزجي تحية الوداع لهذا الجزء المنعزل من ساحل البحر، كي أجعله ينطبع في ذاكرتي، وآخذ صورته معي عند رحيلي. كنتُ قد أحسست ببهجة غامرة تجاه هذا الساحل، كذلك كانت الحياة مع زوربا قد جعلت قلبي وارفًا فسيحًا، كما كانت كلمات بعينها من كلماته قد هدهدتْ عقلي وغمرتْه بالسكينة، حيث إنها قدمت حلولاً بالغة البساطة لهموم معقدة داخلَ نفسي. فهذا الإنسان (زوربا)- بغريزته التي لا تخطئ ولا تخيب، وبنظرته الفطرية المتسائلة على الدوام- كان يسلك أقصر الطرق وأكثرها يقينًا كي يصل بسهولة ودون مشقة- إبان ذروة بذل الجهد والمحاولة- إلى هدفه بغير جهد أو نصَب.

شاهدتُ مجموعة من الناس يسيرون، رجالاً ونساء، وهم يحملون سلالاً مملوءة بالمشهيات والزجاجات، ويتوجهون إلى البساتين للمرح واللهو، ابتهاجًا بقدوم الأول من شهر مايو؛ وارتفع من وسطهم صوت فتاة بالغناء، كما تنبثق المياه من النافورة. مرت بي فتاة صغيرة صدرها ناهد، وهي تجري أمامي وتلهث، وصعدت على صخرة عالية نشدانًا للخلاص والنجاة؛ وكان خلفها رجل ذو لحية سوداء، يطاردها وهو مشحون بالغضب والحنق. وصرخ هذا الرجل في الفتاة بصوت أجش: «انزلي!... انزلي!...» غير أن الفتاة ذات الوجنتين المتقدتين من الاحمرار رفعت يديها وعقدتهما

فوق رأسها؛ كان جسمها كله يتعذب كما لو كان يتصاعد منه الدخان، وانخرطت في الشدو ببطء قائلة:

«قُل لي إن هذا كان مجرد مزاح، أو قُل لي إن هذا كان
غرامًا واشتياقًا، أو قُل لي إنك لا تحبني، لكنني لا أكترث ولا ألقي
بالاً لما تقول.......».

عاود الرجل ذو اللحية السوداء صياحه قائلًا: «انـزلي!... انـزلي!...»؛ كان صوته الأجش متوسلاً حينًا، ومروّعاً حينًا آخر. وفجأةً- وبقفزة واحدة- انقض عليها وأمسك بقدمها، واعتصرها بعنف، وكأن الفتاة كانت تتوقع هذا التصرف منه كي ترتاح من مطاردته لها، فانفجرت بالبكاء والعويل.

مررتُ بهما بسرعة وتجاوزتهما، فكل هذه الأشواق واللواعج كانت تُسمم قلبي وتبث فيه المرارة؛ ساعتها خطرت على بالي السيرينية العجوز المتلئة (مدام أورتانس) المسرفة في وضع العطور، التي دهمتها نزلة برد ذاتَ ليلة بعد أن عبت من متع الحياة وارتوت حبًّا وعشقًا، ففغرت الأرض فاها وابتلعتها؛ لا ريب أنها الآن قد تورمت واخضر لونها، ولا ريب أنها أراقت وسكبت كل العصائر التي تجرعتها، ولا ريب أن ديدان القبر قد توافدت عليها والتهمتها...

هززتُ رأسي من فرط الرعب... فأحيانًا ما تصبح الأرض شفافة، تُظهر ما في باطنها، فنتبين أن بداخلها صاحب مصانع كبير، هو الدودة، وهو صاحب مصانع يعمل ليل نهار في مصانعه تحت الثرى؛ غير أننا ما نلبث أن نولي وجوهنا بعيدًا، ونحن نشعر بالقشعريرة، لأن الإنسان بوسعه أن يحتمل كل شيء، فيما عدا الدودة البيضاء الصغيرة التي لا تشبع.

وفي مدخل القرية، قابلت ساعي البريد، الذي كان يتأهب ليضع النفير على شفتيه كي يُعلم الناس بقدومه. فهتف بي صائحًا: «معي رسالة لك، يا أستاذ!»، وأعطاني مظروفًا ذا لون أزرق.

اهتززت طربًا واستخفني السرور، بعد أن تعرفت على نمط كتابة الحروف التي تتميز بالدقة والصغر؛ واجتزت القرية على عجل، ويممت شطر أيكة زيتون، وفتحت الخطاب بشوق ولهفة؛ وقرأته بسرعة وتعجل دفعة واحدة:

«اجتزنا حدود جورجيا، ونجونا من بطش الأكراد، وكل شيء يسير على ما يرام، وفي اعتقادي أن الأوان قد آن اليوم فقط لأعرف معنى السعادة. الآن فقط بدأت أفهم لماذا أحيا، وبدأت أعي مقولة بالغة القدم من التراث الأخلاقي المسيحي: "السعادة هي أن تؤدي واجبك، وكلما كان الواجب أشد صعوبة، كلما كانت السعادة أعظم....". وفي غضون أيام قلائل، سوف تصل هذه الأرواح اليونانية المطاردة، التي كادت تشرف على الموت، إلى مدينة باطوم؛ لقد تلقيت اليوم برقية تقول: "لقد بدت في الأفق بشائر السفن التي ستحمل اليونانيين إلى وطنهم!". هؤلاء الآلاف من اليونانيين ذوي الفطنة والجلَد، المحبين للعمل، مع زوجاتهم ذوات الخصور العريضة وأبنائهم، سوف يعاد غرسهم سريعًا في مقدونيا وفي طراقيا. إننا نصب دماء جديدة، مقدامة غير هيابة ولا وجلة، في شرايين بلاد اليونان. لقد استبد بي الإرهاق لفترة وجيزة، ولكن لا يهم؛ فلقد انتصرنا، يا معلمي، وإلى لقاء لعله يكون قريبًا!».

أخفيتُ الخطاب، وحثثتُ الخطى، وكنتُ بدوري سعيدًا. فظللتُ أسير

وأسير، وكنت أسلكُ الطريق الضيق الصاعد عبر الجبل، وأفتتُ بين أصابعي غُصنًا مزهرًا به أشواك من السعتر؛ كان وقت الظهيرة قد اقترب، وكان ظلي الأسود الداكن متجمعًا تحت قدمي. وكان هناك صقر يطير متوازنًا في الأعالي، يهز جناحيه بسرعة كبيرة، ومع ذلك كان يبدو أنه ساكن في مكانه لا يتحرك. وسمع طائر من طيور الحجل وقع أقدامي، فأجفل من بين الشجيرات وحلق طائرًا في الهواء، بخفقان جناحيه اللذين كانا يصدران صوتاً معدنياً.

كنتُ سعيدًا، ولو كان ذلك في مقدوري لاسترسلتُ في الغناء كي أحس بالخفة والارتياح أكثر؛ اكتفيتُ بأن أطلقت فقط أصواتًا زاعقة بلا مقاطع تؤلف بينها. كنت أقولُ لنفسي ساخرًا منها: «ماذا أصابك؟ وماذا دهاك؟ هل أنتِ (يا نفس) إذن محبة للوطن، دون أن أدري؟ هل تحبين صديقك إلى هذا الحد؟ تعقلي، يا نفس، أفلا تخجلين؟» ولكن لم يجبني أحد بطبيعة الحال. أخذتُ أمضي قُدماً في الطريق الصاعد عبر الجبل، وأنا أصيح؛ تناهى إلى أسماعي صوت رنين أجراس كانت معلقة في رقاب عنزات: سوداء ورمادية وفي لون القرفة، كانت تبرق فوق الصخور، وكان يسير أمامها التيس ذو الرقبة المتصلبة؛ وكان الهواء معبقًا برائحة الماعز المنفرة.

شاهدتُ راعي الماعز وهو يخطو فوق صخرة، كان يصفر بوضع أصابعه في فمه، وينادي علي قائلًا: «إيه، أيها العرَّاب! إلى أين تغذُ السير؟ ومن تبغي أو تريد؟». فأجبته قائلًا: «لديَّ عمل أقوم به!»، وواصلتُ تسلقي للجبل. فصاح الراعي مرةً أخرى، وهو يقفز من صخرة إلى صخرة كي يقترب مني:

«انتظر لتشرب قليلاً من الحليب كي ترتوي!». فصحت بدوري مرةً أخرى، وكأنني لم أكن أريد- بمواصلتي الكلام معه- أن أضع حدًّا لفرحتي أو أقطع انسيابها: «لديَّ عمل!». فقال الراعي مداعباً، رغبة منه في مضايقتي: «أفلا تقبل دعوتي! إذن، فاذهب بسلامة الله!». ثم وضع أصابعه في فمه وصفر للقطيع، واختفوا جميعا معاً خلف الصخور.

لم ينقضِ وقت طويل حتى وصلت إلى قمة الجبل، وكأن هذه القمة كانت الهدف من رحلتي وغايتها، فأحسست بالراحة والدعة. استلقيتُ في ظل صخرة ومضيت أرنو إلى السهل والبحر، وهما يبدوان من بعد؛ أخذت أستنشقُ أنفاساً عميقة، إذ كان الهواء معبقًا برائحة المريمية والسعتر. ثم نهضت من رقادي، وجمعت حفنةً من نبات المُريمية جعلتها وسادة، استلقيت فوقها، فقد كنت مرهقًا، وأغمضتُ عيني.

وللحظات، سرح عقلي بعيدًا في هضاب مرتفعة مكللة بالثلوج، وحاولتُ أن أسترجع في مخيلتي جماعات البشر وقطعان البقر التي كانت تجري صوب الناحية الشمالية، وكذلك صورةَ صديقي الذي كان ينطلق في مقدمتها. غير أن عقلي ما لبث أن تغشاه الضباب، وانسدلت غشاوة النوم الذي لا يقاوم على عينيَّ. أردت أن أقاوم، وأن أظل مستعصيًا على النوم، وفتحت عينيَّ على اتساعهما. كان هناك غراب قد أقعى في مواجهتي على الصخرة، وأخذ يتقدم شيئًا فشيئًا على قمة الجبل؛ وكان جناحاه الأسودان المشوبان بالزرقة يبرقان تحت أشعة الشمس، وتمكنت من أن أتبين بجلاء منقاره الأصفر الكبير. أحسستُ بالغضب لأنه بدا لي نذير سوء، فتناولت قطعة من الحجر ورميته بها؛ فتح الغراب جناحيه بهدوء وتثاقل، وحلق

طائرًا.

أغمضتُ عينيَّ مرةً أخرى لأنني كنت غير قادر على المقاومة، ودهمني النوم دفعة واحدة مثل البرق الخاطف. ولم أكن قد نمتُ سوى لحظاتٍ معدودة عندما ندت عني صرخة خافتة، جعلتني أهب من نومي واقفًا؛ كان الغراب لا يزال ينعق عند رأسي، فلما استيقظتُ لاذ بالفرار. اعتدلت في جلستي فوق الصخرة وأخذت أرتجف؛ إذ كنت قد شاهدت في منامي القصير حلماً خاطفاً مثل ومضة إلهام شقتْ عقلي. شاهدتُ أنني كنت في مدينة "أثينا"، وأسير وحدي في طريق "هرميس". كانت الشمس ساطعة، والطريق خاويًا، والمتاجر مغلقة، وكل شيء ساكن خامد. وفجأةً، في اللحظة التي تجاوزت فيها منطقة "كابنيكاريا"، رأيت مِن ميدان "سينداجما" صديقي يجري وهو شاحب الوجه ويلهث؛ كان يتبعُ خطى رجل فارع الطول يسير أمامه بخطوات عملاقة. كان صديقي يرتدي حلته الدبلوماسية الفخمة، وعندما لمحني بعينه صاح من بعيد وهو يلهث: «إيه، يا معلمي، كيف حالك؟ منذ سنين مضت وأنا أبغي رؤيتك؛ تعالَ الليلة كي نتجاذب أطراف الحديث».

فصحتُ بصوت عالٍ كأنه كان بعيدًا جدًّا عني، وكان لابد من أن أبذل قصارى جهدي كي يسمعني: «أينَ؟». فأجاب: «في ميدان أومونيا، مساءً في الساعة السادسة؛ على المقهى، عند نافورة الفردوس». فأجبت: «حسنًا! سوف آتي». فسمعت صوته وهو يزخر بالشكوى والعتاب: «هذا هو ما تقوله دائمًا! هذا هو ما تقوله، ولكنك لن تحضر». فصحتُ: «بل سأحضر بالتأكيد، وهات يدك لأصافحك!». فقال: «أنا في عجلة من أمري». فقلت:

«لماذا تتعجل؟ أعطني يدك!». فمد لي يده، وفجأةً انفصلت يده تمامًا عن كتفه، وأتت إليَّ عبر الهواء وأمسكت بيدي.

ارتجفتُ من لمسته الباردة، وصرختُ عاليًا، وهببتُ مفزوعًا من نومي. وجدتُ الغراب واقفًا مرةً أخرى عند رأسي، فولى هاربا؛ وكأن شفتَيَّ كانتا تقطران سُما. التفت برأسي ناحية الشرق، وثبت ناظري على الهواء، وكأنني أردت أن أخترق حُجب المسافة، وأرى من خلالها. كنت متأكدًا من أن صديقي في خطر، فهتفت ثلاث مرات باسمه: «استافريذاكيس! استافريذاكيس! استافريذاكيس!». كأنني كنتُ أريد أن أزوده بالشجاعة، غير أن صوتي تبدد في محيط بضع قصبات أمامي في الهواء.

اتخذتُ طريقي هابطًا من الجبل، منحدرًا إلى السفح، وكنت أحاول عن طريق إرهاق جسدي أن أنقل الألم من روحي إلى جسمي. وعبثًا كان عقلي يناضل كي يسخر من وسائل الشر، أو من وسائل اتصاله الغامضة، التي نجحت أحيانًا في الوصول إلى روح الإنسان. كان هناك يقين فطري داخلي، أعمق من المنطق، ذو حيوية تامة، يملأني بالرعب. ولا بد أن بعض الحيوانات لديها بالتأكيد هذا اليقين ذاته، سواء كانت أغنامًا أو فئرانًا، قبل أن يحدث الزلزال. فلقد استيقظت داخلي روح الإنسان الأول، التى لم تكن بالكاد قد تخلصت من ربقة التراب، والتى كانت تحس مباشرة بالحقيقة، بغير تدخل المنطق، وهو تدخل يسبب تشوهًا وتشوشًا.

تمتمت قائلًا: «إنه في خطر... إنه في خطر... سوف يموت... سوف يلاقي حتفه... وربما هو نفسه لا يعرف ذلك بعد؛ أما أنا فموقنٌ من معرفة ذلك». كنت أهبط من الجبل وأنا أعدو، وتعثرت في حصاة فتدحرجت

بعنف مع الحصى. ونتج عن ذلك أن أصبت بجروح كثيرة في يديَّ وقدميَّ، وامتلأت بالخدوش، كما تمزق قميصي. وعدتُ أردد بيني وبين نفسي قائلًا: «سوف يموت... سوف يلقى نحبه». وأحسستُ باختناق في حلقي.

إن الإنسان، ذلك المخلوق التعس، قد أقام حول روحه سورًا عاليًا لا يمكن اختراقه، كما قام بتحصين باحة صغيرة، يناضل فيها كي يُرسي النظام والأمان لحياته اليومية المرفهة، البدنية والفكرية. وكل شيء داخل هذه الباحة ينبغي أن يتبع مسارًا ذا طرق مرسومة ومحددة، أعني روتيناً مقدسًا، وأن يمتثل لقوانين بسيطة يسهل فهمها؛ وبالتالي يكون في وسعنا- بنوع من التيقن- أن نستشرف ماذا سوف يحدث، وما هي الكيفية التي يصح أن نتصرف بها. وداخل هذه الباحة المحصنة المؤمنة ضد الغارات العنيفة للأسرار، تبسط الديدان الصغيرة ذات الأربعين قدماً نفوذها وسيطرتها، على اعتبار أنها وحدها اليقين الجازم؛ واحد هو العدو الممقوت المهلك الضاري الذي يجاهد الجميع بشكل منظم من أجل طرده منذ آلاف السنين، هو: اليقين الأعظم الجازم. كان هذا اليقين الأعظم الجازم قد قفز متخطيًا السور، واندفع نحوي بعنف.

وبمجرد أن وصلتُ إلى الساحل الملاصق للسفينة، تنفستُ الصعداء قليلاً، كأنني وصلت إلى الخط الحصين الثاني لباحتي، واستجمعت قواي من جديد. وفكرتُ فيما بيني وبين نفسي: «إن كل هذه الأمور ما هي إلا نتاجٌ من نسل قلقنا الشخصي، وهى تتخذ عند نومنا زي الرمز المتفرد في بريقه وتألقه، ونحن أنفسنا الذين نصنعها؛ حيث إنها لا تتحرك من بعد كي تعثر علينا، كما أنها ليست رسائل تصل إلينا من مناطق مظلمة مبهمة

فائقة القدرة؛ إنها من عندياتنا ومن صنعنا، وبمثابة إرسال لا قيمة له من دوننا. فليست روحنا هي جهاز الاستقبال بل هي جهاز الإرسال، ولذا لا ينبغي أن نَفْرَقَ أو نفزع».

غمرتني السكينة، وأعاد المنطق النظام من جديد إلى قلبي المضطرب المهوش جراء الرسالة المبهمة التي وصلتني، ثم انبرى لقص أجنحة الخفاش الغريب، وقطعِها وحياكتهاثم إعادتها إلى التوافق، وحَوَّلَ الخفاش إلى فأر عادي، وبهذا هدأ. وما إن وصلتُ إلى السقيفة حتى ابتسمتُ لفرط سذاجتي، وشعرت بالخجل لأن عقلي اضطرب وتحير بمثل هذه السرعة. كنتُ قد عدتُ- مرةً أخرى- بالفعل إلى الطريق المقدس للروتين اليومي، إذ شعرتُ بالجوع والعطش، وكنت في غاية الإرهاق، كما أن الخدوشَ التي أصابتني جراء سقوطي على الحصى كانت تؤلمني وتقضُ مضجعي. غير أنني- علاوةً على كل شيء- شعرت بارتياح روحي: فالعدو الرهيب الذي كان قد قفز متخطيًا السور قد تم إيقافُ جماحه، في الخط الحصين الثاني الذي أقامته روحي.

(26)

انتهى كل شيء، وجمع زوربا أشلاء السلك المعدني، وأدوات التشغيل، والعربات الصغيرة، وأسياخ الحديد، والأخشاب، وكومها في كومة واحدة على الساحل، في انتظار قدوم المركب الشراعي كي ينقلها. فقلتُ له: «إنني أهديها لك، يا زوربا، فهي لك كسبٌ خالص مبارك». فغاص رأس زوربا في رقبته، وكأنه أراد أن يتحكم في نشيجه، وغمغم قائلًا: «هل هو الفراق؟ إلى أين الرحيل، يا رَيس؟». فقلتُ: «إنني راحل إلى بلاد الغربة؛ فهناك أوراق كثيرة لا تزال داخلي، تريد العنزة أن تلتهمها». فقال زوربا: «أوَ لَم تحصل على ما تريد من المعرفة حتى الآن، يا رَيس؟».

فقلتُ ردًّا عليه: «بلَى، لقد حصلت، يا زوربا، بوركت يا صديقي؛ غير أنني أتبع الطريق الخاص بك وأقتفي خطاك. وسأفعل في الكتب ما فعلت أنت في ثمرات الكرز، وسوف ألتهم قدرًا كبيرًا من الورق إلى أن أحس بالغثيان، فأتقيأ وبذلك أظفر بخلاصي». فقال زوربا: «وماذا عساى أن أفعل أنا من غير صحبتك، يا رَيس؟». قلتُ: «لا تشعر بالأسى، يا زوربا،

فلسوف نتقابل من جديد، ومَن يدري! فقوة الإنسان لا ريب عظيمة! ولسوف نضع مشروعنا العظيم موضع التنفيذ، وهو أن نبني ديرًا مثلما نريد نحن ونبغي، لاشيطان فيه ولا إله؛ أعضاؤه أناس أحرار؛ وستجلس أنت، يا زوربا، على باب الدير وتحتفظ بمفاتيحه معك، مثل القديس بطرس، لتفتح بابه لمن تشاء وتغلقه أمام مَن تشاء...».

كان زوربا- وهو جالس على الأرض- يُسند ظهره إلى السقيفة، وكان يملأ كوبه بالنبيذ مرةً بعد أخرى؛ كان يعب الشراب دون أن ينبس ببنت شفة. كان الليل قد أرخى سدوله، وكنا قد فرغنا من تناول الطعام، وشرعنا في تجاذب أطراف الحديث- الذي كان يدور بيننا عادةً بعد العشاء- ونحن نرتشف النبيذ. كنا سوف نفترق صباح اليوم التالي، حيث سأذهب أنا إلى مدينة "كاسترو". شد زوربا شاربيه ومرر يده عليهما، بعد أن عب كوبًا من النبيذ من غير أن يمد يده إلى الطعام، وقال: «أجل... أجل...».

كانت السماء إبان فصل الربيع مرصعة بنجوم لا حصر لها، وكان الليل الذي يلفنا يلقي بضيائه من خلال النجوم؛ وكان قلب كل واحد منا يريد أن يجأر بالألم والأنين، ولكنه آثر التماسك والاحتمال. كنتُ أفكر فيما بيني وبين نفسي قائلًا: «رحِّبْ به وأظهرْ له المودة، بل ودِّعه إلى الأبد، تطلعْ إليه وتفرس في ملامحه، فلن يُقَّدرَ أبدًا لعينيك أن تكتحَلا مرةً أخرى بمرأى زوربا العزيز!». هممتُ أن أرتمي في حضنه الذي طعنته السنون، وأذرف الدمع مدرارا، لكنني خجلتُ؛ هممتُ أن أضحك كي أخفي عنه تأثري ومشاعري، غير أنني لم أتمكن؛ فقد كان حلقي مسدودًا ومختنقًا.

تفرستُ في زوربا، وهو يرفعُ عنقَه الرفيع الذي تبرز منه العظام،

ويشربُ النبيذ دون أن يتكلم؛ كنتُ أرمُقه وأنا أفكـر في أن هـذه الحيـاة مـا هي حقًّا إلا لغز مدهش، وأن البشر فيها يلتقـون ويفترقـون وكـأنهم أوراق أشجار، تذروها الرياح وتغرقها الأمطار خلال فصل الخريف؛ وكنتُ أفكـر أيضا في أن من المؤلم والممض أن ترنو بعينيك إلى وجه الإنـسان الذي تحبـه، وترمق جسمه وحركاته، مع أنك- بعد مرور سنوات قليلـة- لـن تتـذكر مـا إذا كانت عيناه زرقاوين أم سوديوان!

وفي خاتمة المطـاف، صـحتُ عاليًـا مـن أعمـاق قلـبي: «كان ينـبغي أن تكون روح الإنسان من برونز صلب أو من فولاذ، لا مـن نـسيم وهـواء!». ظل زوربا يشرب، وهو يجاهـد أن يـبقي رأسـه الغليظـة واقفـة شـامخة بـلا حراك. ولعلكَ آنذاك كنت تظـنُ أنـه كان يـصغي في جـوف الليـل لـصوتِ خطى تقترب، أو لصوت خطى قادمة من بعيد، وهي مستعصية على الـسمع، إلا لو أصغيت إليها بشغاف قلبك. وبعدها أردفـتُ قـائلًا: «فـيم تفكـر، يـا زوربا؟». فقال: «فيم عـساي أن أفكـر، يـا رَيـس؟ لا شيء... لا شيء قلـتُ لك! أنا لا أفكر في أي شيء».

بعد ذلك بفترة قليلة، عاد فأترع كوبه بالنبيذ، وقـال: «في صـحتك، يـا رَيس!». شربنا الأنخاب، وكان كل واحد منا يدرك أنه عاجز عن تحمـل مثـل هذا الاضطراب لوقت طويـل. كان لابـد أن نـذرف الدمـوع، أو ننخـرط في الرقص، وألا نغرق في السكر حتى الثمالة.

اقترحتُ عليه قائلًا: «اعزف لنا، يا زوربا!». فقال: «ألم أقـل لـك قـبلاً، يا رَيس، إن آلة القـانون تتطلـب أن يكـون القلـب سـعيدًا وخاليًـا مـن الهموم؟ سوف أعزف عليها بعد انصرام شهر أو شهرين، أو سـنتين، حـسبما

يتراءى لي! وسوف أغني ساعتها أغنيـة تتحـدث عـن افـتراق شخـصين إلى الأبد». فصحتُ وأنا مفزوع مضطرب: «إلى الأبد!». كنـت أقـولُ في أعمـاقي هذه العبارة المخيفة التي لا شفاء منها، بيد أنني لم أكن أحظـى بالـشجاعة كي أسمعها وهي تُقال لي بصوت عال، ولذا ارتعبت.

عاود زوربا الكلام، وهو يبتلع لعابـه بـصعوبة: «أجـل إلى الأبـد! فهـذه الكلمات التي تقولها لي من أننا سوف نلتقي مرةً أخرى، وأننـا سـوف ننـشئ ديرًا مـا هي سـوى كلمـاتِ عـزاء تُقـال للمـريض إلى أن تـصعد روحـه إلى بارئها... وأنا لا أقبلها! ولا حتى أرغب فيها! فلماذا؟ فهـل نحـن نـساء نـبغي العزاء والسلوى؟ لا نريد عزاء. أجل أقولهـا واضـحة صريحـة: إلى الأبـد!». فقلتُ، وأنا أرتجف من رقة زوربا الغاضبة: «وهناك احتمـال أن آتي معـك، فأنا حُرا».

فهز زوربا رأسه نافياً، وقال: «لا، لستَ حُـرًّا! فالحبـل الذي أنـت مقيـد به أطول قليلاً مما هـو في حالـة البـشر الآخـرين؛ وهـذه هى حقيقـة الأمـر ببساطة. فو حق حياتك عندي، يا رَيس، إن لديـك خيطًـا طـويلاً يمكنـك من أن تغدو وتحضر كما تشاء؛ لذا تظنُ أنك حُر، غير أنك لا تقطـع الخـيط أبدًا. وطالما أنـك لا تقطـع الخـيط...». فقلـتُ في إصرار، حيـث إن كلمـات زوربا مست داخلي جرحًا لم يندمل بعد، فسببت لي الألـم: «سـوف أقطَعُـه حتماً ذات يوم!».

قال زوربا: «إن الأمر صعب، يا رَيس، صعب للغاية، فـفي مثـل حالتـك يتطلب الأمر جنونًا، أجل جنونًا، فهل تسمع؟ هناك حـدٌّ لـن تـتمكن مـن تخطيه! إنك تحظى بعقل، وهذا العقل سوف يلتهمك. ومثـل العقـل كمثـل

البقّال الذي يمسك الدفتر ويستخدمه لتسجيل البضاعة، يدون كل ما تعطي وكل ما تأخذ، يسجل المكسب والخسارة. إن العقل بالفعل رب أسرة مدبر حصيف، لا ينفق كل مدخراته، بل يُبقي دومًا شيئًا للزمن الغدار، كما أنه لا يقطع الخيط أبدًا! فهذا الوغد يمسك الخيط دائمًا بقوة في يده، لأنه لو انزلق من يده لضاع هذا التعس! غير أنك إن لم تقطع الخيط، فأية قيمة ستكون للحياة في نظرك؟ ستكون الحياة بابونج، أعشاب بابونج، إن الحياة ليست شراب الروم المسكر الذي يقلب الدنيا رأساً على عقب!».

قال هذا ثم لزم الصمت، وعاد إلى عبِّ الشراب، بيد أن الندم ما لبث أن ساوره، فقال: «سامحني، يا رَيس، فأنا قروي، والكلمات تتعثر على لساني مثلما تتعثر الأقدام عند السير في الأوحال؛ ولستُ بقادر على أن أغزل الكلمات أو أن أدبج عبارات المجاملة، أجل، فهذا فوق طاقتي؛ غير أنك تفهم ما أريد قوله». فرغ كوب النبيذ في يده، فرمقني بنظرة من عينيه، ثم صاح بصوت عالٍ، وكأن غضباً مفاجئاً قد داهمه: «أجل إنك تفهم! لا ريب أنك تفهم، وهذا هو ما سوف يلتهمك بين فكيه! فلو أنك كنت لا تفهم لكنت سعيدًا. ماذا ينقصك؟ إنك شاب ولديك المال بسخاء، ولديك العقل والصحة والقوة، كما أنك إنسان خيِّر؛ لا شيء إذن ينقصك. أنت لا تحتاج إلى شيء، ولا شيء عندك يأخذه الشيطان! ولكن هناك شيئًا واحدًا أنت بحاجة إليه، هو الجنون. وطالما أنك تفتقر إلى الجنون، يا رَيس......».

وهنا هز زوربا رأسه، ولزم الصمتَ من جديد. أما أنا فقد كدتُ أذرف الدمع من فرط التأثر، وبالكاد تماسكتُ، فما قاله زوربا كان صحيحًا...

فحينما كنت غلامًا كانت تراودني أحاسيس مغلَّفة بالاندفاع الطاغي وبأشواق بدائية؛ كنت أجلس وحدي وأتنهد حسرةً لأن الدنيا لم تكن تتسع لي. ثم من بعد ذلك، شيئًا فشيئًا -- مع مرور الزمن- بدأتُ أنضج عقليًّا وألتزم جادة الصواب؛ وضعتُ حدودًا لتصرفاتي، وتعلمتُ أن أميز بين الممكن وغير الممكن، وبين الإنساني والإلهي، وكنت أمسكُ طيارتي الورقية بشدة حتى لا تهرب من يدي.

لمعتْ نجمة كبيرة في صفحة السماء، ثم اختفت. أجفل زوربا، وجحظت عيناه، وحملق في النجمة الساقطة وهو يرتعد رعبًا، وكأنها كانت المرة الأولى التي يرى فيها نجمة تختفي في السماء. قال لي: «هل رأيت النجمة؟». فقلت: «نعم». بعدها ساد الصمت بيننا. وعلى حين غرة، رفع زوربا عاليًا عنقه الرفيع ذا العظام الناتئة، وملأ صدره بالهواء، ثم أطلق صرخة وحشية يائسة. وفجأةً تحولت الصرخة المرعبة إلى كلمات تركية ينطق بها؛ وبدأ يتصاعد من شغاف قلب زوربا لحنٌ قديم أحادي الوتر، مشحون بعاطفة آسرة ومرارة ووحشة. وعلى أثر سماع هذا اللحن انفطر قلب الأرض، وانسكب فيها سُم شرقي زعاف، غير أنه غاية في العذوبة، فدب العفن في جميع الألياف التي بداخلي، والتي كانت تربطني بالفضيلة والأمل.

في غمار إحساس مريع بالوحدة، وسط رمال ناعمة شاسعة، ووسط الهواء الذي يهتز وهو مشبع برائحة الورود الزرقاء والصفراء، تحللت أغشية المخ، وأطلقت الروح صوتًا زاخرًا بالنشوة الذاهلة، وغمرها الجذل والابتهاج، لأنه لا يوجد صوتٌ يرد على صوتها. وحدة.. عزلة.. وحشة...

وفجأةً اغرورَقتْ عيناي بالدموع حينما أنشد زوربا أغنيته التركية التي تسير ترجمتها على النحو التالي:

«(آه لو سَمعتَ) طائرين من طيور الحجل يغردان على كثيب مرتفع!

(آه لو قلتَ) كفاكَ تغريداً، يا طائر الحجل، فيكفيني لوعة الحب التي تكوي شغاف قلبي!

أمانَ!... أمانَ!...».

صمتَ زوربا، ثم مسح بإصبعه العرَق الذي كان يسيل مدرارًا على جبهته، ونثره بعنف على الأرض؛ بعدها أحنى رأسه من جديد وحدق في التراب. وبعد فترة صمت ليست بالقليلة، سألتُه: «ما هذا اللحن الذي أنشدته، يا زوربا؟». فقال: «إنه لحن حادي الجمال؛ أغنية يترنم بها حادي الجمال في الصحراء. لقد حاولت منذ سنوات أن أتذكرها وأغنيها. والآن......». كان صوته مبحوحا وكانت حنجرته متحشرجة، حينما قال لي: «لقد حانتْ ساعة نومك، يا رَيس. فغدًا سوف تستيقظ قبل شروق الشمس لترحل إلى مدينة "كاسترو"، حيث ستستقل الباخرة. طابتْ ليلتُك وتصبح على خير!». فأجبته بقولي: «لا أشعر بالنعاس؛ سأظل جالسًا معك. فهذه هي الليلة الأخيرة التي سنقضيها معا».

فصاح زوربا قائلًا، وهو يقلب كوب نبيذه الفارغ إشارةً إلى أنه لا يريد أن يشرب المزيد: «وهذا سببٌ أدعى إلى أن ننهي هذه الأمسية بسرعة. فهذا هو ما يفعله الرجال الصناديد ذوو القلب الجسور: يقلعون عن التدخين وعن النبيذ وعن لعبة النرد؛ هكذا تكون البسالة، وهكذا

تكون الجسارة. ولا ريب أنك تعرف أن والدي كان باسلاً جسورًا للغاية؛ وأنا في البسالة دونَه بمراحل، فلست سوى طبل أجوف متشدق بألفاظ رنانة؛ لا أستطيع أن أنبس ببنتِ شفةٍ أمامه. أما هو، فكان من فصيلة اليونانيين القدامى، كما يقولون، يلوي ذراعك ويسحق عظامك. وعن نفسي، فأنا- في بعض الأحيان- أستطيع أن أتكلمَ وأنطقَ مثل سائر البشر، ولكن أبي كان يعوي وينهق ويصهل ويغني، وكان من النادر أن تخرج من فمه كلمة إنسانية رقيقة. كان والدي إذن يملك كل الغرائز، ولكنه أقلع عنها جميعا بقوة ماضية مثل حد السيف، وكان يدخن مثل المدخنة. وذات صباح نهض من نومه، وذهب إلى الحقل لكي يحرثه؛ وعندما وصل استند على السور، ودس يده بشوق في حزامه، فقد كان مدمن تدخين، كي يخرج علبة التبغ ويلف سيجارة قبل أن يباشر عمله. سَحَبَ علبة التبغ فوجدها فارغة خاوية، إذ أنه نسي أن يملأها بالتبغ في المنزل. فأرغى وأزبد من فرط الغضب، وعوى وهدر، وفجأةً ولى عائدًا أدراجه بقفزة واحدة، وبدأ يجري صوب القرية، فقد سيطرت عليه الغريزة الملحة. غير أنه فجأةً ما لبث أن توقف عن العدو- فلقد سبق أن قلت لك إن الإنسان لغز- إذ أحس بالخجل. فأخرج علبة التبغ القماشية ومزقها بأسنانه ألف قطعة، وسحقها بقدمه في جنون كالسعار، وأخذ يصرخ فيها: يا لك من ملعونة فاجرة عاهرة!». ومنذ تلك اللحظة، لم يضع سيجارة في فمه طوال حياته. فعلى هذا النحو يتصرف البواسل ذوو الجسارة، يا رَيس؛ طابتْ ليلتُك، وتُصبح على خير!».

قال هذا ثم نهض واقفًا، وخطا خطوات واسعة فوق الحصى المتناثر على

الأرض، ولم يلتفتْ خلفه قَـط، وسـار في طريقـه إلى أن بلـغ بدايـة سـاحل البحر المزبد، واختفى عن بصري في غياهب الظلام.

لم أرَه بعد ذلك مرةً أخرى، فقبل أن يـؤذن الديـك جـاء سـائق العربـة، وحملتُ أمتعـتي ورحلـت. ولديَّ شَـك- وربمـا أكـون مخطئًـا- في أنـه كان مختفيًا إبان الصباح الباكر في مكانٍ مـا، وأنـه تطلـع إليَّ بنظـرة أخـيرة قبـل رحيلي؛ وعلى أية حال، فهو لم يهرع كي يقـول لي وأقـول له الكلمـات المعتـادة قبل الفراق، وكي تغرورقَ عيوننا بالدموع، وكي نصافح بعضنًا ونهـز الأيـدي ونلوح بالمناديـل، وكي نتبـادل الوعـود والعهـود. ذلـك أن الفـراق تـم بحـد السيف، حسبما قال.

وفي مدينة "كاسترو" تلقيت برقية؛ تسلمتها ونظـرت إليهـا مليًّـا لوقـت طويل؛ كانت يدي ترتعش. كنت أعـرف بـلا ريـب محتواهـا ومـاذا تقـول، وكنت أرى بيقين مروع عدد كلماتها، وعدد حروف هذه الكلمات. ولكـن سـيطرت عـليَّ رغبـة في أن أمزقهـا، واحـسرتاه! فـلا تـزال هنـاك ثقـة في أرواحنا، كما أن العقل- ذلك البائع الذي يتاجر في الخردوات- يـسخر مـن الـروح، كمـا نـسخر نحـن مـن النـساء العجـائز، الـلائي يعملـن بـالرقي والتعاويذ، ومن الساحرات الشمطاوات. فتحت البرقية، وكانت مرسـلة مـن مدينة "تفليسي"؛ وللحظة اهتزت الحروف أمـام بـصري، فلـم أتبـين منهـا حرفًا، غير أن الحـروف شـيئًا فـشيئًا توقفـت عـن الاهـتزاز والاضـطراب، وقرأت ما يلي: «بالأمس بعد الظهيرة، عقـب التهـاب رئـوي حـاد مفـاجئ توفي "استافريذاكيس"».

مرتْ خمسة أعوام طوال قاسـية مرعبـة تبـدل فيهـا الطقـس، وتغـيرت

الحدود الجغرافية كأنها في حلبة رقص، وتوسعت دول وانكمشت دول أخرى، وكأنها آلة الهارمونيكا الموسيقية. وجدنا أنفسنا- أنا وزوربا- إبانها كُلٌّ في وادٍ بعيدًا عن رفيقه، مفقودًا في العاصفة، تفصل بيني وبينه مجاعات وأهوال تقشعر منها الأبدان. وبين الحين والآخر، أثناء السنوات الثلاث الأولى، كنت أتلقى منه بطاقة بها كلمات قليلة: أرسل لي ذات مرة بطاقة من الجبل المقدس(*)، كانت بطاقة عليها لوحة للعذراء المقدسة مريم، ذات العينين اللتين تشعان بالمرارة، والذقن الصارمة التي تعكس الإصرار والإرادة؛ كان زوربا يكتب بطاقاته المرسلة لي بريشته الثقيلة الغليظة التي كانت تمزق الورق، وهذا نصها: «لا سبيل، يا رَيس، إلى العمل هنا؛ فهنا الرهبان خبثاء مراوغون(*)، ولذا سوف أرحل!».

وبعدها، بعدة أيام، أرسل لي بطاقة أخرى يقول فيها: «إنني غير قادر على أن أجوب الأديرة، وأنا أحمل الببغاء في يدي مثل بائع أوراق اليانصيب؛ ولذا أهديته من جانبي إلى راهب عطوف عنده طائر شحرور، وهذا الطائر الملعون يرتل المزامير، تخيل! وكأنه مرتل ذو صوت رخيم يصيح قائلًا: "يا ربي! يا مولاي!". ولذا فإن هذا الشحرور سوف يعلم طائرنا بدوره الترتيل والإنشاد. ما أكثر ما شاهد هذا الطائر الملعون في

(*) سبق القول في مقدمة المترجم إن منطقة الجبل المقدس هي منطقة فى شبة جزيرة "خالكيذيكى"، كانت مخصصة للأديرة والعاملين فيها من الرهبان فقط، ولا يسمح لسواهم بدخولها، إلا بتصريح من سلطات الكنيسة المختصة. [المترجم].

(*) المعنى الحرفى للعبارة فى اليونانية: "يركبون حدوة حتى للبرغوث: petalônoun kai ton psyllo". [المترجم].

حياته، والآن... هيا أيها الببغاء، هل أصبحت راهبًا؟ وهكذا انـصبت عليـه اللعنة! قبلاتي لك وحبي، الأب أليكسيوس، المتوحد على الدوام».

مرت ستة شهور أو سبعة، تلقيت بعدها من رومانيا بطاقة عليها صورة امرأة بدينة صدرها عارٍ، وجاء فيها ما يلي: «ما زلت أعيش، آكل العصيدة الرومانية(*)، وأشرب الجعة، وأعمل في حقل البترول في وظيفة "جرذ النفط". تجد هنا وفرة في كل شيء، وكل ما يشتهيه قلبك؛ إنها جنة للمسنين المعذبين من أمثالي، وأنت تفهمني، يا رَيس، الحياة والمرأة المشتهاة، وسبحان الله! قبلاتي لك وحبي، أليكسيس زوربيسكو، جرذ النفط».

مر عامان، وذات يوم، تلقيت بطاقة جديدة من زوربا؛ كانت هذه المرة من صربيا، وقال فيها ما يلي: «ما زلت أحيا، الجو اللعين بارد، وكنت مضطرًّا إلى أن أتزوج؛ انظر خلف البطاقة لترى وجه زوجتي الصغير؛ إنها فاتنة تسحر الأعين. إن بطنها منتفخة قليلاً، لأنها تستعد لأن تنجب لي زوربا الصغير. وأنا ألبس الحلة التي سبق أن أهديتها لي؛ أما الخاتم الذي تراه في إصبعي فهو الخاتم الذي أعطته لي المأسوف عليها الغندورة (مدام أورتانس)، طيب الله ثراها وأراح عظامها (وهذا أمر ليس ببعيد)! وزوجتي هذه تدعى ليوبا. والمعطف الذي أرتديه- ذو الياقة المصنوعة من فرو الثعلب- جزء من بائنة زوجتي التي قدمتها لي؛ ولقد أعطتني أيضًا خنزيرة مع صغارها السبعة، من سلالة نادرة. كما اصطحبت معها ولدين

(*) أكلة شعبية رومانية مكونة من: دقيق الذرة والماء والجبن والبيض ودهن الخنزير. [المترجم].

أنجبتهما من زوجها الأول، فهي أرملةٌ كما ترى. ولقد عثرت في جبل قريب من هنا على قطعة من المغنيسيوم، فورطتُ- مرةً أخرى- شخصًا رأسماليًا في التنقيب عن المغنيسيوم، وغدوت أتصرف مثل البكوات. قبلاتي لك وحبي، أليكسيس زوربيتش، أيّم (= أرمل) سابقا».

قَلَبْتُ البطاقة، فرأيت على وجهها صورة لزوربا، وقد بدت عليه آثار الحياة المريحة، فأصبح ممتلئ الجسم، يرتدي ملابس العريس وقلنسوة من الفرو، ويمسك عصا أنيقة فاخرة، ويتدثر بمعطف طويل وفق الموضة. كانت تتعلق بذراعه امرأة صربية فاتنة، عمرها حوالي خمسة وعشرين عامًا؛ كانت مثل مهرة برية، ذات ردفين ممتلئين، أنثى فاتنة ترتدي حذاء عاليًا برقبة، وكان صدرها ناهدًا مثيرًا. وتحت الصورة، كتب زوربا بحروفه الغليظة الغائرة المحفورة ما يلي: «هذا أنا ومعي زوجتي، مشروعي الأخير، واسمها ليوبا».

وطوال هذه الأعوام الخمس، كنت أجوب بلاد الغربة، فقد كان لديَّ بدوري مشروعي الذي لا ينتهي، غير أنه لم يكن مشروعًا من شأنه أن يمنحني معطفاً ولا خنازير. وذات يوم وأنا في مدينة برلين، تلقيت برقية دُون في بدايتها ما يلي (باللغة الفصحى): «لقد عثرتُ على حجر كريم أخضر اللون فائق الجمال؛ تعال في التو! زوربا».

قلتُ- قبل ذلك- إنني لم أملك قط الشجاعة لأتخلى عن كل شيء، وأقوم بنفسي- مرةً واحدة في العمر- بإنجاز فعل نبيل واحد، يخلو من المنطق. ولذا وضعت فى ذهني الرسالةَ التي كنتُ قد أوردتها في بداية الأمر، وهي الرسالة التي يعتبرني فيها زوربا- وهو على حق في ذلك- إنسانًا ضائعًا!

مجرد كاتب بالقلم على الأوراق. ومنذ ذلك الحين، توقف عن معاودة الكتابة لي، فقد باعدتْ بيننا أحداث عالمية مرعبة، فلقد استمر العالم في التعثر وفي الترنح، كأنه شخص مجروح يدمى، أو كأنه سكيرٌ ثمل، وتراجعت علاقات الحب بين الأفراد، وتراجعت معها الاهتمامات والمسئوليات.

ومع ذلك، كنت أتحدث مع أصدقائي لأنعشَ روحي العظيمة القابعة داخلي، وكنا نعجب أشد الإعجاب بهذا الإنسان الأمي، صاحب المشية الواثقة المتصفة بالكبرياء بعيدًا عن المنطق. ففيما يتعلق بالقمم الروحية التي كنا بحاجة إليها، والتي كانت تتطلب منا بذل جهود مضنية أعوامًا طوالاً كي نفوز بها، فقد كان هذا الشخص، بكلمات قليلة مرنة، ينجح في الوصول إليها؛ ولذا كنا نقول: «إن زوربا صاحب روح عظيمة». وأحيانًا كان يتجاوزها، فكنا نقول: «إنه شخص مخبول».

كان الوقتُ يمرُ على هذا النحو، زاخرا بالذكريات المريرة الحلوة في آن. أما الطيف الآخر- أعني طيف صديقي الراحل الذي كان قد سقط على الساحل الكريتي، الذي كنت أقيم عليه إبان فترة معرفتي لزوربا- فكان بدوره يحل بثقلِه على روحي، ويأبى أن يتركني، وذلك لأنه لم يكن بوسعي أنا أن أتركه. لم أكن أتحدث عن هذا الطيف مع أي أحد، فقد كان بمثابة الحديث الخفي الذي كنت أتجاذبه مع الجانب الآخر، والذي كان معتادًا على أن يجعلني أتصالح مع الموت؛ كما كان الجسر السري الذي يربطني بهاديس (= عالم الموتى). وعندما كانت الروح التي قضت نحبها تجتاز هذا الجسر، كنت أحس أنها مرهقة وشاحبة، وأنها عاجزة عن أن تحدثني وهي

متجسدة؛ ولم تكن لديها القوة كي تعتصر كفي.

أحيانًا أفكر وأنا أتعذب، ربمـا لأن صـديقي، إبـان رحيلـه، كان عاجـزاً عن نقل جـسده بكاملـه مـن على ظهـر الأرض، كي لا يـصبح في اللحظـة الحاسمة فرَيسة للفـزع مـن المـوت، وكي لا يتبـدد وجـوده ويغـدو ذرات في الفضاء. كذلك فكرتُ في أنه ربما تعرض لخطر الضياع والاندثار، لأنـه لـم يُمنحْ فرصة يخلد بها ما كان متاحًا له أن يخلده من كيانه الفاني.

ولكن هل استمد هذا الصديق فجأةً القوة والمنَعة؟ أم هل تذكرته أنـا- على حين غرة- بفيض غامر من الحب؟ إذ تخيلتُه يُقبـل عـليَّ قويًـا متجـدد الشباب، ويقترب مـني لدرجـة أنـني سـمعت دبيـب خطواتـه على درجـات السلم. وها أنذا الآن أقوم وحـدي برحلـة لمـدة قـصيرة إلى الجبـال المكللـة بالثلوج في "إندجاندين"، التي كنا- أنـا وصـديقي وامـرأة كنـا نحبهـا- قـد أمضينا فيها أيامًا رائعة وليالي ممتعة فيما مضى. كنـتُ متمـددًا على سريـري في الفندق ذاته الذي كنا قد أقمنا فيه آنذاك، وكنتُ نائمًا، وكان نـور القمـر ينساب من النافذة المفتوحة، وكانت تنفـذ معـه إلى أعمـاق فكـري الجبـال وأشجار التنوب المكسوة ببلورات الثلوج والليل الأزرق العميق.

كنتُ أحس بـسعادة غامـرة تستعـصي على الوصـف أثنـاء اسـتغراقي في النوم، كما لو كان النوم عبارة عن بحـر عميـق سـاكن شـفاف، وكمـا لـو كنت متمددًا بلا حراك في قاعه وأنا سعيد. وبلغتْ حساسيتي درجـة عاليـة من الرقة، حتى أن زورقًا صغيرًا- كان يمر على سطح الماء على ارتفـاع يبلـغ مداه آلاف الأقدام فوقي- كان يخدش جـسدي. وفجـأةً هـبط عـلي طيـفٌ، فأدركتُ طيفَ مَن هو، وسمعتُ صوتًا زاخراً بالملامةِ والعتـابِ يقـول: «هـل

تنام؟». فأجبته بالملامة والعتاب ذاتيهما: «لقد تأخرتَ في القدوم إليَّ؛ مضت شهور لم أسمع فيها صوتك... فأي الأماكن تجوب الآن؟».

قال: «إنني دائمًا معك، بيد أنك تنساني. وليست لديَّ القوة دائمًا كي أناديكَ، في حين أنك تريد أن ترحل عني وتتركني وحدي. جميلٌ هو القمر، وجميلةٌ هي الأشجار المكللة بالثلوج، وجميلةٌ هي الحياة في العالم العلوي! ولكن لا يحق لك أن تنساني». فأجبته بقولي: «إنني لا أنساكَ أبدًا؛ ففي الأيام الأولى رحلتُ إلى بلاد الغربة، وتجولتُ بين الجبال الوعرة البرية، واستنفدتُ قوة جسمي؛ كنت أسهر الليل وينتابني الأرق وأنا أذرف الدموع حسرةً عليك. بل إنني ألفتُ أغانٍ كي لا يخنقني الألم أو يعضني الحزن بنابه؛ غير أنها كانت أغانٍ يُرثَى لها، إذ كانت عاجزة بكل المقاييس عن التعبير عن ألمي وشجني وحسرتي عليك. غير أن هناك أغنية منها تسير مقدمتها على النحو التالي:

"حينما أقمت بالقرب من خاروس انتابني شعور
بالإعجاب الغامر تجاه قامتك الفارعة، وطبيعتك التي تشعرني بالراحة،
وكنا كلانا ونحن نصعد سويًا الطريق الصاعد المرهق،
مثل رفيقين يستيقظان عند ظهور الخيوط الأولى من النهار
ويمضيان في سيرهما وهما لا يلويان على شيء....".

وهناك أغنية أخرى- طويلة الحجم- كنت أهتف بك فيها وأناديك على النحو التالي:

"احتفظ، يا أيها الأثير إلى نفسي، بأفكارك قوية رصينة، وإياك أن

تدعها تتعثر أو تتبددا".

فابتسم طيف صديقي بمرارة، وأحنى محياه ليتطلع إليَّ، فتملكني الذعر حينما شاهدت امتقاع وجهه.

ظل صديقي يرمقني طويلاً دون أن ينبس ببنتِ شفة بمحجري عينيه الغائرتين؛ لم تكن لديه عينان على الإطلاق داخل المحجرين، بل كانت هناك فقط كتلتان مستديرتان من التراب. فتمتمت قائلًا: «فيم تفكر؟ لماذا لا تتكلم؟». تناهى إلى سمعي مرةً أخرى صوتُ تنهيدة حارة عميقة صادرة من بعيد، وصوته الذي يقول: «آه! تُرى ماذا عسى أن يبقى من الروح ولم تتسع له الدنيا؟ أهي بضع أبيات شعر متفرقة كليلة عاجزة من نظم شخص آخر؟ أم أنها رباعية ناقصة؟ فها أنذا أغدو وأروح فوق الأرض وأمر على الأحبة، لكن قلبهم موصد أمامي. فأنَّى لي أن أنفذ إليهم؟ وأنَّى لي أن أكتسب الحياة؟ إنني مثل الكلب أدور حول باب سيدي المغلق بالرتاج... آه لو أنني تمكنت من أن أعيش حرًّا دون أن أتعلق- وكأنني مخنوق- بأجسادكم الدافئة الحية!».

طفرتْ الدموع مدرارًا من محجري عيني صديقي الراحل، إلى أن أصبح التراب فيهما طينًا. ولكن بعد برهة قصيرة تجسد صوته، وعاد ليقول: «إن الفرحة التي مَنحتَها لي تجسدت وغدت نابضة بالحياة، عندما تذكرتني ذات مرة في مناسبة عيد ميلادي في مدينة زيورخ، وتحدثتَ آنذاك عني. هل تتذكر؟ لقد كان هذا بمثابة روح أخرى تصاحبني...». فأجبتُه قائلًا: «أجل أتذكر. لقد كانت هذه هي المناسبة التي أطلقنا عليها اسم "سيدتنا"...».

لفنا الصمت؛ فيا لها من قرون كثيرة تلك التي انصرمت منذ ذلك الوقت! فعلى المائدة المعدة للاحتفال بعيد صديقي الراحل تحلقنا، وفي الحجرة الدافئة كنا محتجزين بسبب الثلوج التي كانت تهطل في الخارج؛ كنا ثلاثة من الأحبة؛ ففي هذه الحجرة ألقيت كلمة الثناء على صديقي الحبيب. وعاد الطيف يسألني بسخرية خفيفة الوطأة: «فيم تفكر، يا معلمي؟». فأجبته قائلًا: «في كثير من الأمور... في كل الأمور...». فقال صديقي: «أما أنا فأتذكر كلماتك الأخيرة؛ فحينها رفعت كأسكَ وقلت: "سيدتي، عندما كان "استافريذاكيس" طفلاً صغيرًا، كان جده المسن يضعه على إحدى ركبتيه، وكان يضع على ركبته الثانية القيثارة الكريتية، وكان يعزف عليها ألحانًا كريتية زاخرة بالبسالة والإقدام. فدعينا الليلة نشرب نخب صحته: وليت القدر يتيح له بالمثل أن يجلس دائمًا على ركبتي الله!. ولقد استجاب المولى القدير! بسرعة لدعوتك، يا معلمي!».

فقلت: «لا يهم، فالحب يهزم الموت». فابتسم صديقي بمرارة، غير أنه لزم الصمت؛ وكنت أحس أن مفاصل جسمه تتحلل، كنت أحس أنه يبحث ويفتش عن الظلام، ويتحول بعدها إلى نشيج وبكاء وتنهدات وسخرية واحتقار... ولأيام ظل مذاق الموت باقيًا على شفتي؛ ارتاح قلبي، حيث إن الموت نفذ إلى حياتي من خلال مُحَيّا جِد معروف لي وحبيب إلى نفسي، وكأنه صديق وفد كي يستقبلنا ويصطحبنا، ويجلس في الزاوية منتظرًا أن ننتهي من عملنا، دون أن يتعجلنا. لقد لفتْ الطمأنينة عقلي حينما عرف على هذا النحو المغزى الودي للموت.

فالموتُ ينساب أحيانًا في حياتنا مثلما ينساب العطر، حينما يهبط على

شكل قطرات من زجاجة العطر؛ وقبل كل شيء حينما يحل بالإنسان وهو بمفرده والقمر ساطع، والصمت العميق سائد، وجسمك المغسول توًّا خفيف الوزن، لا يشكل عبئًا ثقيلاً على روحك وأنت مستغرق في النوم. وعندئذٍ- على مدى برهة وجيزة- يصبح الجدار النصفي الفاصل بين الحياة والموت شفافًا، فتشاهد ما يحدث خلفك وما تحت الثرى. ففي مثل هذه اللحظة التي تتميز بالخفة إلى أقصى حد، أهلَّ طيفُ زوربا عليَّ وأنا هنا في وحدتي، أثناء استغراقي في النوم. ولست أتذكر مطلقا كيف كانت هيئته، أو ماذا قال، أو لماذا وفد؛ وعندما استيقظتُ من نومي أحسستُ أن قلبي في طريقه إلى أن يتحطم؛ وفجأة- دون أن أعرف السبب- اغرَوْرَقت عيناي بالدموع.

وفي الوقت نفسه، هيمنت عليَّ رغبة جامحة- لا ليست رغبة، بل هي ضرورة حتمية- أن أؤلف (كتابا عن) الحياة التي عشناها أنا وزوربا على الساحل الكريتي، وأن أجبر ذاكرتي على التذكر، وعلى جمع كل كلمات زوربا المتفرقة، والأصوات الصادرة عنه، والإيماءات، والضحكات، والعبرات، والرقصات التي كان زوربا يؤديها، وأن أحافظ عليها كاملة غير منقوصة.

كانت رغبتي هذه جامحة للغاية ومباغتة، لدرجة أنني ارتعبتُ من أن تكون هذه هي العلامة التي مفادها أن زوربا يحتضر في مكانٍ ما على ظهر الأرض خلال تلك الأيام؛ وذلك لأنني كنت أحس مرارًا أن نفسى قد توحدت مع نفسه، لدرجة أنني بت أعتقد أنه لن تموت نفس منهما، دون أن تتزلزل النفس الأخرى وتجأر بالصراخ. وللحظة ترددتُ في تجميع كل

آثار زوربا في ذاكرتي وصياغتها بالكلمات، وغمرني خوف طفولي، إذ قلت فيما بيني وبين نفسي: «لو أنني قمت بهذا العمل، فإن هذا يعني أن هناك خطرًا يهدد حياة زوربا، فلأقاوم إذن اليد التي تدفع يدي».

ظللتُ أقاوم يومين وثلاثة أيام وأسبوعا؛ وانخرطتُ في تدوين كتابات أخرى، وقمتُ برحلات، وشغلتُ نفسي بمزيد من القراءة. وكنتُ من خلال مثل هذه الحيل الجانبية أحاول أن أسخرَ من هذه الرغبة غير المنظورة. غير أن عقلي بكامله كان مركزًا على زوربا بقوة وثقل مصحوب بالقلق. وذات يوم كنتُ جالسًا في شرفة منزلي الواقع على ساحل جزيرة "إيجينا"؛ كان الوقت ظهرًا، والشمس في أوج سطوعها، وكنت أرنو إلى الخصور العارية الفاتنة في جزيرة "سلاميس" التي تقع قبالتي. وفجأةً- دون أن يخطر هذا على ذهني مسبقًا- تناولتُ ورقة، وتمددتُ على البلاطات المتقدة في الشرفة، وشرعت أكتب عن زوربا هذا الأسطوري.

كنتُ أكتبُ وأنا في عجلة من أمري، وكنتُ أكتبُ والشوق إليه يغمرني؛ كنتُ أتحسر بنفاد صبر على السنين التي ولت وانقضت، وكنت أحاول أن أتذكر كل مواقف زوربا وأحافظ عليها من الضياع؛ لدرجة أنه ليخيل إليك أنني كنت أعتبر نفسي المسئول مسئولية كاملة عن ضياعها، وكنتُ أعمل ليل نهار من أجل تجسيد مُحَياه كاملاً غير منقوص، أعني محيا عزيزي وصديقي زوربا "المسن". كنتُ أعمل مثلما كان يعمل السحرة في القبائل البدائية في قارة أفريقيا، الذين يصورون على جدران الكهوف الأسلاف الأول الذين رأوهم في أحلامهم؛ أجل مثل السحرة الذين كانوا يناضلون ويجاهدون كي يصوروا هؤلاء الأسلاف الأول على قدر

استطاعتهم بأمانة مفرطة، كي تتعرف كل روح على جسمها، وتسكنه من جديد في الحياة الأخرى. وفي ظرف أسابيع قليلة، كانت الحكاية الأسطورية قد اكتملت.

كنتُ جالسًا مرةً أخرى، في اليوم الذي انتهيت فيه من كتابة الحكاية، ساعة الأصيل في الشرفة، وكنت أرنو إلى البحر، وأنا أضع مخطوط الحكاية التي دونتها على ركبتي بعد أن تم إعداده. فيا لها من فرحة، ويا لها من راحة تلك التي غمرتني، كما لو كنتُ قد أزحتُ عن كاهلي عبئًا ثقيلاً؛ أو كأني امرأة ولدت طفلها، وها هي تضم الآن في أحضانها مولودها الجديد. كانت الشمس آنذاك آخذة في الأفول، حينما صعدت إلى الشرفة "سولا"، البنت الصغيرة التي تحضر لي الخطابات من البلدة؛ وهي بنت ممتلئة الجسم حافية القدمين، مملوءة بالحيوية؛ تركت البنت لي خطابًا ورحلت مسرعة. ففهمتُ، أو هكذا خيل لي أنني فهمتُ، وذلك لأنني عندما فتحتُ الخطاب وقرأته، لم أقفز عاليًا لأطلق صرخة عالية يملؤها الشجن، لا ولم يلجمني الفزع أو الرعب؛ لقد كنتُ متأكدًا. كنتُ أعلم حق العلم أنني في هذه اللحظة التي كنت أضع فيها على ركبتي المخطوط بعد اكتماله، والتي كنت أرقب فيها الشمس وهي تجنح إلى المغيب، كنتُ سأتلقى هذه الرسالة.

قرأتُ الرسالة بهدوء بدون أن أذرف الدموع؛ كانت مرسلة من قرية قريبة من "اسكوبيا" في "صربيا"، وكانت مدونة بلغة ألمانية غير دقيقة الصياغة، وها هي ترجمتها:

«أنا مدرس القرية، أكتبُ إليك كي أبلغك الخبر المؤسف المحزن بأن "أليكسيس زورباس"، الذي كان يملك هنا منجم "مغنيسيوم"، قد مات

يوم الأحد الماضي، الساعة السادسة مساء. وأثناء حشرجة الموت وآلام الاحتضار، هتف بي قائلًا: «هيا بجانبي، أيها المعلم، إن لي صديقًا اسمه كذا في بلاد اليونان؛ فأرجوك أن تكتب إليه- بمجرد أن ألفظ أنفاسي الأخيرة- وتخبره أنني قضيت نحبي، وأنني ظللت محتفظًا بقواي العقلية حتى آخر لحظة من لحظات حياتي، وأن عقلي كان سليمًا مائة في المائة، وأنني كنت أتذكره على الدوام؛ وأخبره أيضًا أن الندم لا يساورني بشأن أي فعل فعلته في حياتي. وسوف يكون أمرًا حسنًا لو أخبرته أن الأوان قد آن كي يُحصِّل المعرفة... وأرجوك- فيما لو جاء قس ليجعلني أعترف، وأتناول القربان- أن تنهى إليه أن يرحل غير مأسوف عليه، وأن تحل عليه اللعنة! لقد اقترفتُ الكثيرَ والكثيرَ من الفعال في حياتي، بيد أنني لم أفعل سوى أفعال قليلة؛ والناس من أمثالي كان يجب أن يعيشوا ألف عام. طبتم مساء».

كانت هذه هي كلماته الأخيرة، وبعدها نهض واقفًا على الوسادة، وطوح بعيدًا بملاءة السرير، وحاول أن يرمي نفسه فوقها. فهرعنا كي نمسك به، أنا وليوبا زوجته ونفر من جيراننا ذوي السواعد المفتولة؛ ولكنه أطاح بنا جميعًا، ثم هبط من فوق السرير، وتوجه إلى النافذة. وهناك تشبث بإطار النافذة وتطلع من خلف زجاجها إلى الجبال في الخارج، وجحظت عيناه، وأخذ يضحك، وشرع بعدها يصهل مثل الفرس. لقد داهمه الموت وهو واقف على هذه الصورة، متشبثًا بأظافره في حديد النافذة.

ولقد أنهت إليَّ زوجته ليوبا أن أكتب إليك بأنه أوصى أن ينقل إليك تحياته، وأن الراحل كان دائم الحديث معها عنك، وأنه كان لا يفتأ يعدد

أفضالك ومحاسن أخلاقـك، وأنـه أوصى بإعطائـك آلـة القـانون الـتي كان يحتفظ بها، بعـد موتـه، كي تتـذكره مـن خلالهـا. الأرملـة إذن ترجـوك، يـا سيدي، عندما يقدر لك أن تمر على قريتنـا، أن تتفـضل بزيارتهـا لتنـام في دارها، وأن تأخذ معك آلة القانون، عندما يهل صباح اليوم التالي، وتـسافر بسلامة الله عائدا إلى وطنك».

النهــايــة



المؤلف: **نيكوس كازاندزاكيس**

روائي وشاعر وكاتب مسرحي يوناني (1883ـ1957)، ترجمت أعماله إلى مختلف لغات العالم، فيما خسر جائزة نوبل (1957) بفارق صوت واحد أمام البير كامي.

من أهم أعماله: "الأوديسا: استكمال حديث" (1938)، "زوربا اليوناني" (1964)، "المسيح يُصلب من جديد" (1948)، "الكابتن ميخاليس" (1950)، "الإغواء الأخير للمسيح" (1951). وقد أدانت الكنيسة اليونانية أعماله، وحرمت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية روايته "الإغواء الأخير..".

المترجم: **د. محمد حمدي إبراهيم**

أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية بجامعة القاهرة، والنائب الأسبق لرئيس الجامعة. كبير مستشاري المركزا لقومي للترجمة، حاليًا. حصل على العديد من الجوائز الدولية والمحلية للآداب والبحث العلمي، وشارك في العديد من المؤتمرات والمهرجانات الدولية.

من أهم مؤلفاته "نظرية الدراما الإغريقية" "مناقشة قبل القتل". ومن أهم ترجماته "مختارات من قصائد كفافيس"، "خطبة بركليس الجنائزية"، "مختارات من الشعر اليوناني الحديث".

صدر من سلسلة "المائة كتاب"

1- ثيرفانتيس: **دُون كيخوته**، ترجمة وتقديم الدكتور عبد الرحمن بدوي؛

2- خُوان رولفُو: **بيــدرُو بــارَامُو**، ترجمة شيرين عصمت، تقديم محمد إبراهيم مبروك؛

3- فرانتس كَافكا: **المحاكمة والمسخ**، ترجمة محمد أبو رحمة؛

4- هنريك إبسن، **بيــت الدُّميــة**، ترجمة زينب مبارك، تقديم د. كمال الدين عيد؛

5- إيتالو كالڤينُو: **لو أنَّ مسـافرًا في ليلة شـتاء**، ترجمة حسام إبراهيم؛

6- وليم بليك: **أغنيات البراءة والتجربـة**، ترجمة حاتم الجوهري، تقديم د. ماهر شفيق فريد؛

7- البير كامي: **الغَريــب**، ترجمة وتقديم عاصم عبد ربه؛

8- أونُوريه دو بَلزَاك: **الأب جُوريُــو**، ترجمة محمد محمد السنباطي؛

9- وليام فوكنَر: **الصَّخب والعُنـف**، ترجمة محمد يُونس؛

10- والت ويتمان: **أوراق العُشــب**، ترجمة وتقديم سعدي يوسف؛

11- تشينوا أتشيي: **أشـياءٌ تتداعَى**، ترجمة وتقديم عبد السلام إبراهيم؛

12- ليف تولستوي: **موت إيڤـان إيليتش**، ترجمة مها جمـال؛

13- دُوني ديـدرُو: **جَـاك القـدَري**، ترجمة وتقديم حسن عبد الفضيل.

فلسفة الكتب

2021

سلسلة

آفاق عالمية

«زوربا اليوناني»: إحدى روائع الإبداع الروائي العالمي النادرة، وخاصةً في القرن العشرين. رؤية نافذة لمعنى وجوهر الحضور الإنساني في العالم، وفاعليته العميقة: واكتشاف لطبقات الوعي الحيوية المنسية تحت ركام التفاصيل اليومية والأفكار الثابتة المتداولة. وهي- في نفس الوقت- إعادة لاعتبار البديهة والفطرة الإنسانية التي لم يشوشها الافتعال والتصنُّع.

وترجمة رفيعة المقام، متمكنة من أسرار اللغة -في لهجتها الكريتية- يقدمها أستاذ أساتذة اليونانية، ومترجمها القدير -محمد حمدي إبراهيم- ذو الرصيد العميق من منجزات الترجمة عن اليونانية، الحديثة والقديمة.

اللوحة للفنان فرانسيس بيكون ■ تصميم الغلاف: أحمد اللباد

الهيئة العامة لقصور الثقافة

www.gocp.gov.eg

[redacted]